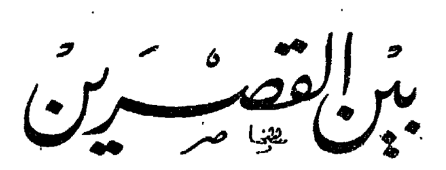

مطبوعات
مكتبة مصر
بين القصرين

بين القصرين

مطبوعات مكتبة مصر



تأليف

نجيب محفوظ

يطلب من

مكتبة مصر
٣ شارع كامل صدقي "الفجالة"

دار مصر للطباعة
٢٧ شارع كامل صدقي "الفجالة"

— ١ —

عند منتصف الليل استيقظت ، كما اعتادت أن تستيقظ فى هذا الوقت من كل ليلة بلا استعانة من منبه أو غيره ، ولكن بايحاء من الرغبة التى تبيت عليها فتواظب على ايقاظها فى دقة وأمانة . وظلت لحظات على شك من آستيقاظها فاختلطت عليها رؤى الأحلام وهمسات الاحساس ، حتى بادرها القلق الذى يلم بها قبل أن تفتح جفنيها من خشية أن يكون النوم خانها ، فهزت رأسها هزة خفيفة وفتحت عينيها على ظلام الحجرة الدامس . لم يكن ثمة علامة يستدل بها على الوقت ، فالطريق تحت حجرتها لا ينام حتى مطلع الفجر ، والأصوات المتقطعة التى تترامى اليها أول الليل من سمار المقاهى وأصحاب الحوانيت هى هى التى تترامى عند منتصفه والى ما قبيل الفجر ، فلا دليل تطمئن اليه الا احساسها الباطنى — كأنه عقرب ساعة واع — وما يشمل البيت من صمت ينم عن أن بعلها لم يطرق بابه بعد ولم تضرب طرف عصاه على درجات سلمه .

هى العادة التى توقظها فى هذه الساعة ، عادة قديمة صاحبت شبابها منذ مطلعه ولا تزال تستأثر بكهولتها ، تلقنتها فيما تلقنت من آداب الحياة الزوجية ، أن تستيقظ فى منتصف الليل لتنتظر بعلها حين عودته من سهرته فتقوم على خدمته حتى ينام . وجلست على الفراش بلا تردد لتتغلب على اغراء النوم الدافىء ، وبسملت ثم انزلقت من تحت الغطاء الى أرض الحجرة ، ومضت تتلمس الطريق على هدى عمود السرير وضلفة الشباك حتى بلغت الباب ففتحته ، فانساب الى الداخل شعاع خافت ينبعث

من مصباح قائم على الكونصول فى الصالة ، فدلفت منه وحملته وعادت به الى الحجرة وهو يعكس على السقف من فوهة زجاجته دائرة مهتزة من الضوء الشاحب تحف بها حاشية من الظلال ، ثم وضعته حول خوان قائم بازاء الكنبة . وأضاء المصباح الحجرة فبدت برقعتها المربعة الواسعة وجدرانها العالية وسقفها بعمده الأفقية المتوازية ، الا أنها لاحت كريمة الأثاث ببساطها الشيرازى وفراشها الكبير ذى العمد النحاسية الأربعة والصوان الضخم والكنبة الطويلة المغطاة بسجاد صغير المقطع مختلف النقوش والألوان . واتجهت المرأة الى المرآة وألقت على صورتها نظرة فرأت منديل راسها البنى منكمشا متراجعا وقد تشعثت خصلات من شعرها الكستنائى فوق الجبين ، فمدت أصابعها الى عقدته فحلتها وسوته على شعرها وعقدت طرفيه فى أناة وعناية ، ومسحت براحتيها على صفحتى وجهها كأنما لتزيل عنه ما علق به من آثار النوم . كانت فى الأربعين ، متوسطة القامة ، تبدو كالنحيفة ولكن جسمها بض ممتلىء فى حدوده الضيقة لطيف التنسيق والتبويب ، أما وجهها فمائل الى الطول مرتفع الجبين دقيق القسمات ، ذو عينين صغيرتين جميلتين تلوح فيهما نظرة عسلية حالمة ، وأنف صغير دقيق يتسع قليلا عند فتحتيه ، وفم رقيق الشفتين ينحدر تحتهما ذقن مدبب ، وبشرة قمحية صافية تلوح عند موضع الوجنة منها شامة سوادها عميق نقي . وقد بدت وهى تتلفع بخمارها كالمتعجلة ، واتجهت صوب باب المشربية ففتحته ودخلت ، ثم وقفت فى قفصها المغلق تردد وجهها يمنة ويسرة ملقية نظراتها من الثقوب المستديرة الدقيقة التى تملأ أضلافها المغلقة الى الطريق .

كانت المشربية تقع أمام سبيل بين القصرين ، ويلتقى تحتها شارعا النحاسين الذى ينحدر الى الجنوب وبين القصرين الذى يصعد الى الشمال ، فبدا الطريق الى يسارها ضيقا ملتويا متلفعا

بظلمة تكثف فى أعاليه حيث تطل نوافذ البيوت النـائمة ، وتخف فى أسافله بما يلقى اليه من أضواء مصابيح عربات اليد وكلوبات المقاهى وبعض الحوانيت التى تواصل السهر حتى مطلع الفجر ، والى يمينها التف الطريق بالظلام حيث يخلو من المقاهى ، وحيث توجد المتاجر الكبيرة التى تغلق أبوابها مبكرا ، فلا يلفت النظر به الا مآذن قلاوون وبرقوق لاحت كأطياف من المردة ساهرة تحت ضـوء النجوم الزاهرة . منظر ألفته منها العينان ربع قرن من الزمان ولـكنها لم تسأمه ، ولعلها لم تدر ما السأم طوال حياتها على رتابتها ، وعلى العكس وجدت فيه أنيسـا لوحشتها وأليفا لوحدتها عهدا طويلا عاشته وكأنه لا أنيس ولا أليف لها . كان ذلك قبل أن يأتى الأبناء الى هذا الوجود ، فلم يكن يحوى هذا البيت الكبير ـ بفنائه الترب وبئره العميقة وطابقيه وحجراته الواسعة العالية الأسقف ـ سـواها ، أكثر النهار والليـل . وكانت حين زواجها فتاة صغيرة دون الرابعة عشرة من عمرها ، فسرعان ما وجدت نفسها ، عقب وفاة حماتها وسيدها الكبير ربة للبيت الكبير ، تعاونها على أمره امرأة عجوز تغادرها عند جثوم الليـل لتنام فى حجرة الفرن بالفناء تاركة اياها وحيـدة فى دنيا الليـل الحافلة بالأرواح والأشباح ، تغفو ساعة وتأرق أخرى حتى يعود الزوج العتيد من سهرة طويلة .

ولكى يطمئن قلبهـا اعتادت أن تطوف بالحجـرات مصطحبة خادمتها مادة يدها بالمصـباح أمامها فتلقى فى أركانهـا نظرات متفحصة خائفة ثم تغلقها باحـكام ، واحدة بعد أخرى ، مبتدئة بالطابق الأول مثنية بالطابق الأعلى ، وهى تتلو ما تحفظ من سور القرآن دفعا للشياطين ، ثم تنتهى أخيرا الى حجرتها فتغلق بابها وتندس فى الفراش ولسانها لايمسك عن التلاوة حتى يغلبها النوم .
ولشد ما كانت تخاف الليل فى عهدها الأول بهذا البيت ، فلم يغب عنها ـ هى التى عرفت عن عالم الجن أضعاف ما تعرف عن عالم

الانس ـ انها لا تعيش وحدها فى البيت الكبير ، وأن الشياطين لا يمكن أن تضل طويلا عن هذه الحجرات القديمة الواسعة الخالية ، ولعلها آوت اليها قبل أن تحمل هى الى البيت ، بل قبل أن ترى نور الدنيا ، فكم دب الى اذنيها من همساتهم وكم استيقظت على لفحات من انفاسهم ، وما من مغيث الا أن تتلو الفاتحة والصمدية أو ان تهرع الى المشربية فتمد بصرها الزائغ من ثقوبها الى أنوار العربات والمقاهى وترهف السمع لالتقاط ضحكة أو سعلة تسترد بها أنفاسها .

ثم جاء الأبناء تباعا ولكنهم كانوا أول عهدهم بالدنيا لحما طريا لا يبدد خوفا ولا يطمئن جانبا ، وعلى العكس ضاعف من خوفها بما اثار فى نفسها المتهافتة من أشفاق عليهم وجزع أن يمسهم سوء ، فكانت تحويهم بذراعيها وتغمرهم بأنفاس العطف وتحيطهم فى اليقظة والمنام بدرع من السور والأحجبة والرقا والتعاويذ ، أما الطمأنينة الحقة فلم تكن لتذوقها حتى يعود الغائب من سهرته . ولم يكن غريبا ، وهى منفردة بطفلها تنومه وتلاطفه ، أن تضمه الى صدرها فجأة ثم تتصنت فى وجل وانزعاج ثم يعلو صوتها هاتفة وكأنها تخاطب شخصا حاضرا : « ابعد عنا ، ليس هذا مقامك ، نحن قوم مسلمون موحدون» ثم تتلو الصمدية فى عجلة ولهوجة . وعندما طالت بها معاشرة الأرواح بتقدم الزمن تخففت من مخاوفها كثيرا واطمأنت لدرجة الى دعاباتهم التى لم تجر عليها سوءا قط ، فكانت اذا ترامى اليها حس طائف منهم قالت له فى نبرات لا تخلو من دالة : « ألا تحترم عباد الرحمن !.. الله بيننا وبينك فاذهب عنا مكرما » . ولكنها لم تكن تعرف الطمأنينة الحقة حتى يعود الغائب . أجل كان مجرد وجوده بالبيت ـ صاحيا أو نائما ـ كفيلا ببث السلام فى نفسها ، فتحت الأبواب أم أغلقت ، اشتعل المصباح أم خمد . وقد خطر لها مرة ، فى العام الأول من معاشرته ، أن تعلن نوعا من الاعتراض المؤدب على سهره المتواصل فما كان منه

الا أن أمسك يأذنها وقال لها بصوته الجهورى فى لهجـة حازمة :
« أنا رجل ، الآمر الناهى ، لا أقبل على سلوكى أية ملاحظة ، وما عليك الا الطاعة ، فحاذرى أن تدفعينى الى تأديبك » ، فتعلمت من هذا الدرس وغيره مما لحق به أنها تطيق كل شيء – حتى معاشرة العفاريت – الا أن يحمر لها عين الغضب ، فعليها الطاعة بلا قيـد ولا شرط ، وقد أطاعت ، وتفانت فى الطاعة حتى كرهت أن تلومه على سـهره ولو فى سرها ، ووقر فى نفسـها أن الرجولة الحقـة والاستبداد والسهر الى ما بعد منتصف الليـل صفات متلازمة لجوهر واحد ، ثم انقلبت مع الأيام تبـاهى بما يصدر عنه سـواء ما يسرها أم ما يحزنها ، وظلت على جميع الأحوال الزوجة المحبة المطيعة المستسلمة . ولم تأسف يوما على ما ارتضت لنفسها من السلامة والتسليم ، وانها لتستعيد ذكريات حياتها فى أى وقت تشاء فلا يطالعها الا الخير والغبطة ، على حين تلوح لهـا المخاوف والأحزان كالأشباح الخاوية فلا تسـتحق الا ابتسـامة رثاء ، ألم تعاشر هذا الزوج بعلاته ربع قرن من الزمان فجنت من معاشرته أبنـاء هم قرة عينيهـا وبيتا مترعا بالخير والبركة وحياة ناضجة سعيدة .. بلى ، أما مخالطة العفاريت فقد مرت كما تمر كل ليلة بسلام ، وما امتدت يد أحدهم اليها أو الى أحد من أبنائها بسوء اللهم الا ما هو بالمزاح والمداعبات أشبه ، فلا وجه للشكوى ، ولكن الحمد كل الحمد لله الذى بكلامه أطمأن قلبها وبرحمته استقامت حياتها .

حتى ساعة الانتظار هذه ، على ما تقطع عليها من لذيذ المنام وما تستأديها من خدمة كانت خليقة بأن تنتهى بزوال النهار ، أحبتها من أعماق قلبها ، ففضلا عن أنها استحالت جزءا لا يتجزأ من حياتها ، ومازجت الوفير من ذكرياتها ، فانها كانت ولم تزل الرمز الحى لحدبها على بعلها وتفانيها فى اسعاده ، واشعاره ليلة بعد أخرى بهذا التفانى وذاك الحدب . لهذا امتلأت ارتياحا وهى واقفة

فى المشربية ، وراحت تنقل بصرها خلال ثقوبها مرة الى سبيل بين القصرين ومرة الى منعطف الخرنفش وأخرى الى بوابة حمام السلطان ورابعة الى المآذن ، أو تسرحه بين البيوت المتكأكئة على جانبى الطريق فى غير انتظام أو تناسق كأنها طابور من الجند فى وقفة راحة تخفف فيها من قسوة النظام. وابتسمت للمنظر الذى تحبه ، هذا الطريق الذى تنام الطرق والحوارى والأزقة ويبقى ساهرا حتى مطلع الفجر ، فكم سلى أرقها وآنس وحشتها وبدد مخاوفها، لايغير الليل منه الا أن يغشى مايحيط به من أحياء بالصمت العميق فيهيىء لأصواته جوا تعلو فيه وتوضح كأنها الظلال التى تملأ أركان اللوحة فتضفى على الصورة عمقا وجلاء ، لهذا ترن الضحكة فيه فكأنها تنطلق فى حجرتها ، ويسمع الكلام العادى فتميزه كلمة كلمة ، ويمتد السعال ويخشوشن فيترامى لها منه حتى خاتمته التى تشبه الأنين ، ويرتفع صوت النادل وهو ينادى : « تعميرة نادية » كهتاف المؤذن فتقول لنفسها فى سرور : « لله هؤلاء الناس .. حتى هذه الساعة يطلبون مزيدا من التعميرة » ، ثم تذكر بهم زوجها الغائب فتقول : « ترى أين يكون سيدى الآن ؟ ... وماذا يفعل ... فلتصحبه السلامة فى الحل والترحال» . أجل قيل لها مرة أن رجلا كالسيد أحمد عبد الجواد فى يساره وقوته وجماله ـ مع سهره المتواصل ـ لا يمكن أن تخلو حياته من نساء ، يومها تسممت بالغيرة وركبها حزن شديد ، ولما لم تواتها شجاعتها على مشافهته بما قيل أفضت بحزنها الى أمها ، فجعلت الأم تسكن خاطرها بما وسعها من حلو الكلام ، ثم قالت لها : « لقد تزوجك بعد أن طلق زوجته الأولى ، وكان بوسعه أن يستردها لو شاء ، أو أن يتزوج غيرك ثانية وثالثة ورابعة ، وقد كان أبوه مزواجا ، فاحمدى ربنا على انه أبقاك زوجة وحيدة » . ولو أن حديث أمها لم يجد مع حزنها وقت اشتداده الا انها مع الأيام سلمت بما فيه من حق ووجاهة ، فليكن ما قيل حقا فلعله من

صفات الرجولة كالسهر والاستبداد ، وشر على أى حال خير من شرور كثيرة ، وليس من الهين أن تسمح لوسواس بأن يفسد عليها حياتها الطيبة المليئة بالهناء والرغد ، ثم لعل ما قيل بعد هذا كله أن يكون وهما أو كذبا . ووجدت أن موقفها من الغيرة ، شأنها حيال المتاعب التى تعترض سبيل حياتها ، لا يعدو التسليم بها كقضاء نافذ لا تملك حياله شيئا ، فلم تهتد الى وسيلة فى مقاومتها الا أن تنادى الصبر وتستعدى مناعتها الشخصية ، ملاذها الأوحد فى مغالبة ما تكره ، فانقلبت الغيرة وأسبابها ، كطباع زوجها الأخرى ، وكمعاشرة العفاريت ، مما تحتمل .

جعلت تنظر الى الطريق وتنصت الى السمار حتى ترامى اليها وقع سنابك جواد فعطفت رأسها صوب النحاسين فرأت « حنطورا » يقترب وئيدا ومصباحاه يسطعان فى الظلام ، فتنهدت فى ارتياح وغمغمت « أخيرا ... » . ها هو « حنطور » أحد أصدقائه يوصله بعد السهرة الى باب البيت الكبير ثم يمضى كالعادة الى الخرنفش حاملا صاحبه ونفرا من الأصدقاء الذين يقطنون هذا الحى . ووقف « الحنطور » أمام البيت ، وارتفع صوت زوجها وهو يقول فى نبرات ضاحكة :

ــ أستودعكم الله ...

وكانت تنصت الى صوت زوجها وهو يودع أصحابه بشغف ودهشة ، ولولا أنها تسمعه كل ليلة فى مثل هذه الساعة لأنكرته ، فما عهدت منه ــ هى وابناؤها ــ الا الحزم والوقار والتزمت ، فمن أين له بهذه النبرات الطروبة الضحوكة التى تسيل بشاشة ورقة ! . وكأن صاحب « الحنطور » أراد أن يمازحه فقال له :

ــ أما سمعت ماذا قال الجواد لنفسه بعد نزولك من العربة ؟ . قال انه من المؤسف أن أوصل هذا الرجل كل ليلة الى بيته وهو لا يستحق أن يركب الا حمارا ...

وانفجر الرجال بالعربة ضاحكين فانتظر السيد حتى عادوا الى السكون ثم قال يجيبه :

ـ اما سمعت بماذا أجابته نفسه ؟ .. قالت اذا لم توصله أنت فسيركب البك صاحبنا ..

وضج الرجال ضاحكين مرة أخرى ، ثم قال صاحب العربة :

ـ فلنؤجل الباقى الى سهرة الغد ..

وتحركت العربة الى شارع بين القصرين واتجه السيد نحو الباب فغادرت المرأة المشربية الى الحجرة ، وتناولت المصباح ومضت الى الصالة ، ومنها الى الدهليز الخارجى حتى وقفت فى رأس السلم . وترامت اليها صفقة الباب الخارجى وهو يغلق ، وانزلاج المزلاج ، وتخيلته وهو يقطع الفناء بقامته المديدة مستردا هيبته ووقاره ، خالعا مزاحه الذى لولا استراق السمع لظنته من مستحيل المستحيلات ، ثم سمعت وقع طرف عصاه على درجات السلم فمدت يدها بالمصباح من فوق الدرابزين لتنير له سبيله ..

ـ ٢ ـ

وانتهى الرجل الى موقفها فراحت تتقدمه رافعة المصباح ، فتبعها وهو يتمتم :

ـ مساء الخير يا أمينة .

فقالت بصوت خفيض ينم عن الأدب والخضوع :

ـ مساء الخير يا سيدى .

وفى ثوان احتوتهما الحجرة ، فاتجهت امينة الى الخوان لتضع المصباح عليه ، فى حين علق السيد عصاه بحافة شباك السرير وخلع الطربوش ووضعه على الوسادة التى تتوسط الكنبة ، ثم

اقتربت المراة منه لتنزع عنه ملابسه . وبدا في وقفته طويل القامة عريض المنكبين ضخم الجسم ذا كرش كبيرة مكتنزة اشتملت عليها جميعا جبة وقفطان فيأناقة وبحبحة دلتا على رفاهة ذوق وسخاء، ولم يكن شعره الأسود المنبسط من مفرقه على صفحتي رأسه في عناية بالغة ، وخاتمه ذو الفص الماسي الكبير ، وساعته الذهبية ، الا لتؤكد رفاهة ذوقه وسخاءه . أما وجهه فمستطيل الهيئة مكتنز الأديم قوى التعبير واضح الملامح ، يدل في جملته على بروز الشخصية والجمال بعينيه الزرقاوين الواسعتين ، وأنفه الكبير الأشم المتناسق على كبره مع بسطة الوجه ، وفمه الواسع بشفتيه الممتلئتين ، وشاربه الفاحم الغليظ المفتول طرفاه بدقة لا مزيد عليها . ولما تدانت المرأة منه بسط ذراعيه فخلعت الجبة عنه وأطبقتها بعناية ثم وضعتها على الكنبة ، وعادت اليه ففكت حزام القفطان ونزعته وجعلت تدرجه بالعناية نفسها لتضعه فوق الجبة ، على حين تناول السيد جلبابه فارتداه ثم طاقيته البيضاء فلبسها ، وتمطى وهو يتثاءب وجلس على الكنبة ومد ساقيه مسندا قذاله الى الحائط . وانتهت المرأة من ترتيب ملابسه فقعدت عند قدميه الممدودتين وراحت تخلع حذاءه وجوربيه ، ولما كشف قدمه اليمنى بدأ أول عيب في هذا الجسم الهائل الجميل في خنصره التي تآكلت من توالى الكشط بالموسى في موضع كاللو مزمن . وغادرت أمينة الحجرة فغابت دقائق ثم عادت بطست وابريق ، فوضعت الطست عند قدمي الرجل ووقفت والابريق في يدها على أهبة الاستعداد ، فاستوى السيد في جلسته ومد لها يديه فصبت له الماء فغسل وجهه ومسح على رأسه وتمضمض طويلا ، ثم تناول المنشفة من فوق مسند الكنبة ومضى يجفف رأسه ووجهه ويديه بينما حملت المرأة الطست وذهبت به الى الحمام . كانت هذه الخدمة آخر ما تؤدى من خدمات في البيت الكبير ، وقد واظبت عليها ربع قرن من الزمان بهمة لا يعتريها الكلال ، بل في سرور وانشراح ، وبنفس

الحماس الذى يستفزها الى النهوض بواجبات البيت الأخرى من قبيل مطلع الشمس حتى مغيبها ، فاستحقت من أجله أن يطلق عليها جاراتها اسم « النحلة » لدأبها ونشاطها المتواصلين .

وعادت الى الحجرة فأغلقت الباب وسحبت من تحت السرير شلتة فوضعتها أمام الكنبة وتربعت عليها اذ لم تكن ترى لنفسها الحق فى أن تجلس الى جانبه تأدبا ، ومضى الوقت وهى ملازمة الصمت حتى يدعوها الى الكلام فتتكلم . وتراخى ظهر السيد الى مسند الكنبة ، وبدا عقب سهرته الطويلة متعبا فثقل جفناه اللذان جرى فى أطرافهما احمرار طارىء من أثر الشراب ، وجعل يزفر أنفاسا ثقيلة مخمورة . ومع أنه كان يعاقر الخمر كل ليلة ، الى افراط فى الشرب حتى السكر ، الا أنه لم يكن ليقرر العودة الى بيته حتى تزايله سورة الخمر ويستعيد سيطرته على نفسه حرصا منه على وقاره والمظهر الذى يجب أن يبدو به فى بيته . وكانت زوجه الشخص الوحيد من آل بيته الذى يلقاه فى أعقاب سهرته ، ولكنها لم تلمس من آثار الشراب الا رائحته ، ولم تلاحظ على سلوكه شذوذا مريبا ، الا ما كان يبدر منه أول عهده بزواجها وقد تناسته ، وعلى العكس من المنتظر جنت من مصاحبتها له فى هذه الساعة اقبالا منه فى الحديث وتبسطا فى فنونه قل أن تظفر بمثله فى أوقات افاقته الكاملة . وانها لتتذكر كم ارتعبت يوم أدركت أنه يعود من سهرته ثملا ، واستدعت الخمر الى ذهنها ما يقترن بها من وحشية وجنون ومخالفة الدين وهى الأفظع ، فتقززت نفسها وركبها الذعر وعانت لدى عودته كلما عاد آلاما لا قبل لها بها . وبمضى الأيام والليالى ثبت لها أنه حين عودته من سهرته يكون ألطف منه فى جميع الأوقات ، فيتخفف من صرامته ، وترق ملاحظته ، ويسترسل فى الحديث ، فاستأنست اليه واطمأنت وان لم تنس أن تضرع الى الله ان يغفر له معصيته ويتوب عليه . وكم تمنت لو يتطبع بنفس اللين النسبى وهو صاح منتبه ، وكم

عجبت لهذه المعصية التى ترقق حواشيه ، وتحيرت طويلا بين ما تجد نحوها من كراهية دينية موروثة وبين ما تجنى منها من راحة وسلام ، ولكنها دفنت أفكارها فى أعماق نفسها ، ودارتها مداراة من لا يطيق أن يعترف بها ولو فيما بينه وبين نفســه . أما السيد فكان أحرص ما يكون على وقاره وحزمه ، وما يصدر عنه من لطف فخلسة يصدر ، وربما جرت على شفتيه ابتسامة عريضة ــ فى جلسته هذه ــ لذكرى طافت به من ذكريات سهرته السعيدة فسرعان ما ينتبه الى نفسه ، ويطبق شفتيه ، ويسترق الى زوجه نظرة فيجدها كعادتهــا بين يديه خافضــة العينين ، فيطمئن ويعــود الى ذكرياته . والحق أن سهرته لم تكن تنتهى بعودته الى بيته ، ولـكنها تواصل خياتها فى ذكرياته ، وفى قلبه الذى يجذبها اليه بقوة نهم الى مسرات الحيــاة لا يروى ، وكأنه لا يزال يرى مجلس الأنس تزينه النخبة المختــارة من أصدقائه وأصفيائه ، ويتوسطه بدر من البدور التى تطلع فى سماء حياته حينا من بعد حين ، وما برحت تطن فى أذنيه الدعابات واللطائف والنكات التى تجــود قريحته بدررها اذا هزه السكر والطرب ، وهذه الملح خاصة يراجعها فى عناية واهتمام ينضحان بالعجب والزهو ، ويتذكر أثرها فى النفوس وما لاقت من نجاح وابتهاج جعلاه الحبيب الأول لـكل نفس ، ولا عجب فانه كثيرا ما يشعر بأن الدور الذى يلعبه فى سهرته من الخطورة كأنه أمل الحيــاة المنشود ، وكأن حياته العملية بجملتها ضرورة يؤديها فى ســبيل الفوز بساعات مترعة بالشراب والضحك والغناء والعشق يقضيها بين صحبه وخلصائه . وبين هذا وذاك تسجع فى باطنه أنغــام حلوة لطيفة مما تردد فى المجلس السعيد فذهب معها وجاء وهتف وراءها من أعماق قلبه : « آه .. الله أكبر » ، هذا الغناء الذى يحبه كما يحب الشراب والضحك والصحاب والبدور ، فلا يطيق أن يخلو منه مجلسه ، ولا يأبه للشقة البعيدة يقطعها الى أطراف

القاهرة ليسمع الحامولى أو عثمان أو المنيلاوى حيثما تكون مغانيهم ، حتى آوت أنغامهم الى نفسه السخية كما تأوى البلابل الى شجرة مورقة ، فاكتسب دراية بالنغم والمذاهب وتوج حجة فى السماع والطرب . وكان يحب الغناء بروحه وجسمه ، أما روحه فتطرب وتغمرها الأريحية ، وأما جسمه فتهتاج حواسه وترقص أطرافه خاصة الرأس واليدان ، ولهذا احتفظت نفسه لبعض المقاطع الغنائية بذكريات روحية وجسدية لا تنسى ، مثل : « وليه بقى تلاويعك وهجرك » أو : « يا ما بكره نعرف .. وبعده نشوف » أو : « اسمح بقى وتعالى أما أقول لك » وكان حسبه أن تهفو اليه نغمة من هذه النغمات معانقة حواشيها من الذكريات كى يهيج موطن السكر من نفسه فيهز رأسه طربا وترف على شفتيه ابتسامة أشواق ويفرقع بأصابعه وقد يشدو مترنما اذا كان الى نفسه خاليا . ومع هذا فلم يكن الغناء هوى منفردا يجذبه لذاته فحسب ، ولكنه كان زهرة فى طاقة يحلو بها وتحلو به ، أهلا به ومرحبا بين الصديق الصافى والحبيب الوفى والشراب المعتق والملحة العذبة ، أما أن يصغو له وحده ـ كما يتلقى فى البيوت عن الفونوغراف ـ فهو جميل حبيب بلا شك ، ولكنه غاب عن جوه وبيئته وملابساته ، وهيهات أن يقنع به القلب ، انه يتوق الى أن يفصل بين النغمة والنغمة بنكتة تهتز لها النفوس ، وأن يسابق الترديد بالنهل من كأس مترعة ، ويرى أثر التطريب فى وجه الصديق وعين الحبيب ، ثم يتعاونون جميعا على التهليل والتكبير . بيد أن السهرة لم يقتصر اثرها على بعث الذكريات ، فمن مزاياها أيضا أنها تهيئه فى أعقابها لأسلوب طيب من الحياة هو الذى تتلهف عليه زوجه المطيعة المستسلمة حين تجد نفسها بين يدى رجل حلو المعشر يتبسط معها فى الحديث ويفضى اليها بما فى طويته على نحو يشعرها ولو الى حين بأنها ليست جارية فحسب ولكنها شريكة حياته أيضا . وهكذا راح يحدثها عن

شؤون البيت فأنبأها بأنه أوصى بعض التجار من معارفه على شراء خزين البيت من السمن والقمح والجبن ، وجعل يحمل على ارتفاع الأسعار واختفاء المواد الضرورية بسبب هذه الحرب التى تطحن العالم منذ ثلاثة أعوام ، وكعادته كلما ذكر الحرب اندفع يلعن الجنود الأستراليين الذين ينتشرون فى المدينة كالجراد ويعيثون فى الأرض الفساد . والحق أنه كان يحنق على الأستراليين لسبب خاص به وهو أنهم بجبروتهم حالوا بينه وبين مجالى اللهو والطرب فى الأزبكية فارتد عنها مغلوبا على أمره — الا فى القليل النادر من مختلس الفرص — لأنه لم يكن يسعه أن يعرض نفسه للجنود الذين يسلبون الناس متاعهم جهارا ويتسلون بصب ألوان الاعتداء والاهانة عليهم بغير رادع . ثم مضى يسأل عن حال « الأولاد » كما يدعوهم بلا تفرقة بين كبيرهم الكاتب بمدرسة النحاسين وصغيرهم التلميذ بمدرسة خليل أغا ثم تساءل بلهجة ذات معنى :

— وكمال ؟ ! . . اياك وأن تتسترى على شيطنته !

فذكرت المرأة ابنها الصغير الذى تتستر عليه حقا فيما لاخطر له من اللعب البرىء ، وان كان السيد لا يعترف ببراءة أى لون من ألوان اللعب واللهو ، وقالت بصوتها الخاشع :

— انه يلتزم أوامر أبيه .

وصمت السيد قليلا فبدا كالشارد ، وعاد يقطف من ذكريات ليلته السعيدة ، ثم تراجع مؤشر ذاكرته الى ما سبق سهرته من أحداث يومه فذكر فجأة أنه كان يوما حافلا ، ولما كان فى حال لا يستحب معها كتمان شىء مما يطفو على سطح الوعى فقد قال وكأنه يخاطب نفسه :

— يا له من رجل كريم الأمير كمال الدين حسين ! أما علمت بما فعل ؟ . . أبى أن يعتلى عرش أبيه المتوفى فى ظل الانجليز .

ومع أن المرأة علمت بوفاة السلطان حسين كامل أمس الا انها كانت تسمع اسم ابنه لأول مرة ، ولم تجد ما تقول ولكنها

ـد مدفوعة بعواطف الاجلال للمتكلم ـ كانت تخاف الا تعلق على كل كلمة يقولها بما يرضيه فقالت :
ـ رحم الله السلطان وأكرم ابنه .
فاستطرد السيد قائلا :
ـ وقبل العرش الأمير أحمد فؤاد أو السلطان فؤاد كما سيدعى من الآن فصاعدا ، وقد تم الاحتفال بتوليته اليوم فانتقل في موكبه من قصر البستان الى سراى عابدين ... وسبحان من له الدوام .
وأصغت أمينة اليه باهتمام وسرور ، اهتمام يستثيره في نفسها أى نبأ يجيء من العالم الخارجي الذى تكاد لا تعرف عنه شيئا ، وسرور يبعثه ما تجد في حديث بعلها معها عن هذه الشؤون الخطيرة من لفتة عطف تزدهيها ، الى ما في الحديث نفسه من ثقافة يلذ لها أن تعيدها على مسمع من أبنائها وخاصة فتاتيها اللتين تجهلان مثلها العالم الخارجي جهلا تاما . ولم تجد لتجزيه عن كريم عطفه خيرا من أن تردد على مسمعيه دعاء تعلم مقدما بمقدار ارتياحه اليه كما ترتاح اليه هي من أعماقها فقالت :
ـ ربنا قادر على أن يعيد الينا افندينا عباس .
فهز الرجل رأسه وتمتم قائلا :
ـ متى ؟.. متى ؟.. علم هذا عند ربى .. ما نقرأ في الجرائد الا عن انتصارات الانجليز ، فهل ينتصرون حقا او ينتصر الألمان والترك في النهاية ؟ اللهم استجب .
وأغمض الرجل عينيه اعياء ، وتثاءب ، ثم تمطى وهو يقول :
ـ أخرجي المصباح الى الصالة .
ونهضت المرأة قائمة وذهبت الى الخوان فتناولت المصباح ومضت الى الباب ، وقبل أن تجوز العتبة سمعت السيد وهو يتجشأ فتمتمت :
ـ صحة وعافية .

وفى هدوء الصباح الباكر ، وذيول الفجر لا تزال ناشبة فى أسهم الضياء ، تعالى صوت العجين من حجرة الفرن بالفناء فى ضربات متتابعة كدوى الطبل . وكانت أمينة قد غادرت الفراش قبل هذا بنحو نصف ساعة . فتوضأت وصلت ثم نزلت الى حجرة الفرن فأيقظت أم حنفى ـ امرأة فى الأربعين خدمت وهى صبية بالبيت وفارقته للزواج ثم عادت اليه بعد طلاق ـ وبينما نهضت الخادم لتعجن عكفت أمينة على أعداد الفطور . وكان للبيت فناء متسع ، فى أقصاه الى اليمين بئر سدت فوهتها بعارض خشبى مذ دبت أقدام الصغار على الأرض وما تبع هذا من ادخال مواسير المياه ، وفى أقصى اليسار على كثب من مدخل الحريم حجرتان كبيرتان أقيمت الفرن فى احداهما واستعملت بالتالى مطبخا ، وأعدت الأخرى مخزنا . وكان لحجرة الفرن على عزلتها علاقة بقلبها لا تهن ، فلو حسب الزمن الذى قضته بين جدرانها لكان عمرا ، الى ما تتزين به الحجرة من مباهج المواسم عند حلولها حين تتطلع اليها القلوب الهاشة لأفراح الحياة ، وتتحلب الأفواه لألوان الطعام الشهية التى تقدمها موسما بعد موسم كخشاف رمضان وقطائفة ، وكعك عيد الفطر وفطائره ، وخروف عيد الأضحى الذى يسمن ويدلل ثم يذبح على مشهد من الأبناء فلا يعدم دمعة رثاء وسط بهجة شاملة ، هنالك تبدو عين الفرن المقوسة يلوح فى أعماقها وهج النار كجذوة السرور المشتعلة فى السرائر وكأنها زينة العيد وبشائره . واذا كانت أمينة تشعر بأنها فى أعلى البيت سيدة بالنيابة وممثلة لسلطان لا تملك منه

شيئا ، فهى فى هذا المكان ملكة لا شريك لها فى ملكها ، فهذه الفرن تموت وتحيا بأمرها ، وهذا الوقود من فحم وحطب فى الركن الأيمن يتوقف مصيره على كلمة منها ، والكانون الذى يحتل الركن المقابل تحت رفوف الحلل والأطباق والصينية النحاسية ينام أو يزغرد بألسنة اللهب باشارة منها . هى هنا الأم والزوجة والأستاذة والفنانة التى يترقب الجميع والثقة ملء قلوبهم ماتقدم يداها ، وآية ذلك أنها لا تفوز باطراء سيدها اذا تفضل باطرائها الا عن لون من الطعام أحكمت صنعه وطهيه . وأم حنفى كانت اليد اليمنى فى هذه المملكة الصغيرة ، سواء تصدت أمينة للادارة والعمل أم تخلت عن مكانها لاحدى فتاتيها لتتمرس بفنها تحت اشرافها ، وهى امرأة بدينة فى غير تنسيق ولا تفصيل ، نما لحمها نموا سخيا فراعى فى نموه السمنة فحسب واهمل اعتبارات الجمال ، بيد أنها رضيت عنه كل الرضا لأنها كانت تعد السمنة فى ذاتها الجمال كل الجمال . ولا عجب فقد كان كل عمل لها فى البيت يكاد يعد ثانويا بالقياس الى واجبها الأول وهو تسمين الأسرة ــ أو بالأحرى اناثها ــ بما تعد لهن من « بلابيع » سحرية هى رقية الجمال وسره المكنون ، ومع أن اثر البلابيع لم يكن ناجعا دائما الا أنه برهن على جدارته فى أكثر من مرة فاستحق ما يناط به من آمال وأحلام . فليس عجيبا بعد هذا أن تسمن أم حنفى ، على أن سمنتها لم تقلل من نشاطها ، فما أن ايقظتها سيدتها حتى نهضت بنفس متفتحة للعمل ، وخفت الى «ماجور» العجين . وتعالى صوت العجين الذى يؤدى وظيفة جرس المنبه فى هذا البيت ، فترامى الى الأبناء فى الدور الأول ، ثم تصاعد الى الأب فى الدور الأعلى ، منذرا الجميع بأن وقت الاستيقاظ قد أزف . وتقلب السيد أحمد عبد الجواد على جنبيه ثم فتح عينيه ، وسرعان ما قطب حانقا على الصوت الذى أزعج منامه ، ولكنه كظم حنقه لأنه كان يعلم أنه يجب أن يستيقظ ، وتلقى اول

احساس يتلقاه عادة عقب استيقاظه وهو ثقل الرأس فقاومه بقوة ارادته وجلس فى فراشه وان كانت تغلبه الرغبة فى معاودة النوم . ولم تكن لياليه الصاخبة لتنسيه واجب النهار ، فهو يستيقظ فى هذه الساعة الباكرة مهما تأخر به وقت النوم حتى يتسنى له الذهاب الى متجره قبيل الثامنة ، ثم له فى القيلولة فسحة من وقت يعتاض بها عما فاته من نوم ، ويستعيد نشاطه للسهرة الجديدة . لهذا كان وقت استيقاظه أسوأ أوقات يومه جميعا ، يغادر الفراش مترنحا من الاعياء والدوار ، ويستقبل حياة عاطلة من حلو الذكريات ولطيف المشاعر وكأنها تستحيل دقا فى الدماغ والجفون .

وتوالت دقات العجين على رءوس النائمين بالدور الأول فاستيقظ فهمى ، وكان استيقاظه يسيرا على رغم سهره عاكفا على كتب القانون ، فاذا استيقظ فأول احساس يبادره صورة وجه مستدير تتوسط صفحته العاجية عينان سوداوان فيهمس باطنه قائلا : « مريم » . ولو أذعن لسلطان الاغراء للبث تحت الغطاء طويلا ، خاليا الى الخيال الزائر الذى جاء يصحبه بألطف الهوى ، فيرنو اليه ما دعاه الشوق ويبادله الحديث ويبوح له بأسرار وأسرار ، ويتدانى اليه بجسارة لا تتأتى فى غير هذا الرقاد الدافىء من مطلع الصباح . ولكنه كعادته أجل نجواه الى صباح الجمعة وجلس فى فراشه ، ثم مد بصره الى أخيه النائم فى الفراش الذى يليه وهتف :

— يا سين . . يا سين . . اصح .

فانقطع شخير الشاب ، ونفخ فيما يشبه الضيق وتمتم من أنفه :

— صاح . . استيقظت قبلك .

فانتظر فهمى مبتسما حتى عاود الآخر شخيره فصاح به :

— اصح . .

فتقلب ياسين فى فراشه متذمرا فانحسر الغطاء عن جانب من جسمه الذى يضاهى جسم والده ضخامة وبدانة ، ثم فتح عينين محمرتين تلوح فيهما نظرة غائبة ارتسمت فوقهما تقطيبة تنطق بالتذمر « أف .. كيف طلع الصبح بهذه السرعة ! .. لماذا لا ننام حتى نشبع .. النظـام .. النظام .. دائما النظام .. كأننا عسـاكر » ، ونهض معتمدا على يديه وركبتيه وهو يحرك رأسه لينفض عنه النعاس فلاحت منه التفاتة الى الفراش الثالث حيث يغط كمال فى نومه الذى لن ينتزعه منه أحد قبل نصف ساعة فغبطه عليه « ياله من غلام سعيد ! » . ولما أفاق قليـلا تربع على الفراش وأسـند رأسه الى يديه ، ورغب فى معايشة الخواطر اللذيذة التى تحلو بها أحلام اليقظة ولكنه كان يستيقظ ـ كأبيه ـ على حال من ثقل الرأس تتعطل معهـا الأحلام ، ولاحت لمخيلته زنوبة العوادة فلم تترك فى حساسيته أثرا مما تترك فى صحوه وان افترت شفتاه عن ابتسامة ..

وفى الحجرة المجاورة كانت خديجة قد غادرت الفراش دون حاجة الى منبه العجين ، كانت أشـبه الأسرة بأمها فى نشـاطها ويقظتها ، أما عائشة فتستيقظ عادة على الحركة التى تنبعث فى السرير من نهوض شقيقتها وانزلاقها الى أرض الحجرة فى عنف متعمد يجر وراءه جدلا وملاحاة انقلبا مع التكرار نوعا من الدعابة الفظـة ، فاذا استيقظت وفرغت من النقـار لم تنهض ، ولكنها تستسلم لحلم طويل من أحلام اليقظة السعيدة قبـل أن تغادر فراشها .

ثم دبت الحياة فشـملت الدور الأول كله ، فتحت النـوافذ وتدفق النور الى الداخل وعلى أثره هفا الهواء حاملا صلصـلة عجلات سوارس وأصوات العمال ونداء بائع البليلة ، وتواصلت الحركة ما بين غرفتى النوم والحمام وبدا ياسين فى جلبابه الفضفاض بلحمه المتكتل ، وفهمى بطوله الفارع وقده النحيف وكان ـ فيما

عدا نحافته ـ صورة من أبيه . وهبطت الفتاتان الى الفناء لتلحقا بأمهما فى حجرة الفرن ، وكان فى صورتيهما اختلاف قل أن يوجد مثله فى الأسرة الواحدة ، خديجة سمراء وفى قسمات وجهها تنافر ملحوظ ، وعائشة شقراء تشع هالة من حسن ورواء .

ومع أن السيد كان فى الدور الأعلى بمفرده الا أن أمينة لم تدعه فى حاجة الى انسان ، وجد على الخوان طبق فنجان مملوءا حلبة ليغير ريقه عليها ، وذهب الى الحمام فتطاير الى انفه عرف البخور الطيب ، وألفى على الكرسى ثيابا نظيفة مرتبة فى عناية ، فاستحم بالماء البارد كعادته كل صباح ـ عادة لا ينقطع عنها صيفا أو شتاء ـ ثم عاد الى حجرته مستجدا حيوية ونشاطا ، ثم جاء بسجادة الصلاة ـ وكانت مطوية على مسند الكنبة ـ فبسطها وادى فريضة الصبح ، وصلى بوجه خاشع ، وهو غير الوجه البسام المشرق الذى يلقى به أصحابه ، وغير الوجه الحازم الصارم الذى يواجه به آل بيته ، هذا وجه خافض الجناح تقطر التقوى والحب والرجاء من قسماته المتراخية التى الانها التزلف والتودد والاستغفار . لم يكن يصلى صلاة آلية قوامها التلاوة والقيام والسجود ، ولكن صلاة عاطفة وشعور واحساس يؤديها بنفس الحماس الذى ينفضه على ألوان الحياة التى ينقلب فيها جميعا ، كما يعمل فيتفانى فى عمله ، ويصادق فيفرط فى مودته ، ويعشق فيذوب فى عشقه ، ويسكر فيغرق فى سكره ، مخلصا صادقا فى كل حال ، هكذا كانت الفريضة حجة روحية يطوف فيها برحاب المولى ، حتى اذا انفتل من صلاته تربع وبسط راحتيه وراح يدعو الله أن يكلأه برعايته ويغفر له ويبارك فى ذريته وتجارته .

وفرغت الأم من تجهيز الفطور فتركت للفتاتين أعداد الصينية وطلعت الى حجرة الاخوة حيث وجدت كمالا مازال يغط فى نومه ، فاقبلت عليه باسمة وحطت راحتها على جبينه وتلت الفاتحة ، وجعلت تناديه وتهزه برفق حتى فتح عينيه ، ولم تدعه حتى

فارق الفراش . ودخل فهمي الحجرة فلما رآها أبتسم اليها وحياها تحية الصباح فردت عليه قائلة ونظرة الحب تترقرق فى عينيها :

ـ صباح النور يا نور العين . .

وبنفس الرقة صبحت على ياسين « ابن » زوجها فرد عليها بمودة خليقة بالمرأة التى تنزل من نفسه منزلة الأم الجديرة بهذا الاسم . ولما عادت خديجة من حجرة الفرن تلقاها فهمي وياسين ـ وياسين خاصة ـ بما يغمرانها به عادة من دعابة . وكانت مثار دعابة سواء بصورتها المتنافرة أو بلسانها الحاد رغم ما لها من نفوذ على الأخوين بما تتعهد من شؤونهما بمهارة فائقة يندر أن تجود بمثلها عائشة التى تلوح وسط الأسرة كالرمز الجميل رواء وجاذبية وعدم فائدة . وبادرها ياسين قائلا :

ـ كنا نتحدث عنك يا خديجة ، وكنا نقول أنه لو كان النساء جميعا على شاكلتك لارتاح الرجال من متاعب القلوب . .

فقالت على البداهة :

ـ ولو كان الرجال على شاكلتك لارتاحوا جميعا من متاعب الرءوس . . .

عند ذلك هتفت الأم قائلة :

ـ أعد الفطور يا سادة . .

— ٤ —

كانت حجرة الطعـام بالدور الأعلى حيث توجـد حجرة نوم الوالدين ، وكان بنفس الدور غير هاتين الحجرتين أخرى للجلوس ورابعة خاليـة الا من بعض أدوات اللعب التى يلهو بها كمال فى أوقات فراغه . وكان السماط قد أعد وصفت حوله الشلت . ثم جاء السيد فتصدره متربعا ، ودخل الاخوة الثلاثة تباعا فجلس ياسين الى يمين أبيه ، وفهمى الى يساره ، وكمال قبالته . جلس الاخوة فى أدب وخشوع ، خافضى الرءوس كأنهم فى صلاة جامعة ، يستوى فى هذا كاتب مدرسة النحاسين وطالب مدرسة الحقوق وتلميذ خليل أغا ، فلم يكن أحد منهم ليجترىء على التحديق فى وجه أبيه . وأكثر من هذا كانوا يتجنبون فى محضره تبادل النظر أن يغلب أحدهم الابتسام لسبب أو لآخر فيعرض نفسه لزجرة مخيفة لا قبل له بها ، ولم يكن يجمعهم بأبيهم الا مجلس الفطور لأنهم يعودون الى البيت عصرا بعد أن يكون السيد قد غادره الى دكانه عقب تنـاول الغداء والقيلولة ، ثم لا يعود اليه الا بعـد منتصف الليل ، وكانت الجلسة على قصر مدتها شديدة الوطأة على نفوسهم بما يلتزمون فيها من أدب عسكرى ، الى مايركبهم من رهبة تضاعف من حساسيتهم وتجعلهم عرضـة للهفوات بطول تفـكيرهم فى تحاميها ، فضلا عن أن الفطور نفسه يتم فى جو يفسد عليهم تذوقه واستلذاذه . ولم يكن غريبا أن يقطع السيد الفترة القصيرة التى تسبق مجىء الأم بصينية الطعام فى تفحص أبنائه بعين ناقدة حتى اذا عثر على خلل ولو تافه فى هيئة أحدهم أو بقعة فى ثوبه انهـال عليه نهرا وتأنيبا ، وربما سأل كمال بغلظة : «غسلت يديك ؟» فاذا

اجابه بالايجاب قال له آمرا : « أرنيهما » فيبسط الغلام كفيه وهو يزدرد ريقه فرقا ، وبدلا من أن يشجعه على نظافته يقول له مهددا : « اذا نسيت مرة أن تغسلهما قبل الأكل قطعتهما وأرحتك منهما » . أو يسأل فهمى قائلا : « أيذاكر ابن الكلب دروسه أم لا ؟ » ويعرف فهمى بالبداهة من يعنى لأن « ابن الكلب » عند السيد كناية عن كمال فيجيب بأنه يحفظ دروسه جيدا ، والحق أن شطارة الغلام ــ التى استوجب عليها حنق أبيه ــ لم تقعد به عند الجد والاجتهاد كما يدل عليهما نجاحه وتفوقه ، ولكن السيد كان يطالب أبناءه بالطاعة العمياء الأمر الذى لا يطيقه غلام اللعب أحب اليه من الطعام ، ولهذا يعلق على اجابة فهمى قائلا بامتعاض : « الأدب مفضل عن العلم » . ثم يلتفت الى كمال ويستطرد بحدة : « سامع يا ابن الكلب ! » ...

وجاءت الأم حاملة صينية الطعام الكبيرة فوضعتها فوق السماط وتقهقرت الى جدار الحجرة على كثب من خوان وضعت عليه « قلة » ، ووقفت متأهبة لتلبية أية اشارة . وكان يتوسط الصينية النحاسية اللامعة طبق كبير بيضاوى امتلأ بالمدمس المقلى بالسمن والبيض ، وفى أحد طرفيها تراكمت الأرغفة الساخنة ، وفى الطرف الآخر صفت أطباق صغيرة بالجبن ، والليمون والفلفل المخللين ، والشطة والملح والفلفل الأسود ، فهاجت بطون الاخوة بشهوة الطعام ، ولكنهم حافظوا على جمودهم متجاهلين المنظر البهيج الذى أنزل عليهم كأنه لم يحرك فيهم ساكنا ، حتى مد السيد يده الى رغيف فتناوله ثم شطره وهو يتمتم « كلوا » ، فامتدت الأيدى الى الأرغفة فى ترتيب يتبع السن ، ياسين ففهمى ثم كمال ، وأقبلوا على الطعام ملتزمين أدبهم وحياءهم . ومع أن السيد كان يلتهم طعامه فى وفرة وعجلة وكأن فكيه شطرا آلة قاطعة تعمل فى سرعة وبلا توقف ، ومع أنه كان يجمع فى لقمة كبيرة واحدة من شتى الألوان المقدمة ــ الفول والبيض والجبن

والفلفل والليمون المخللين – ثم يأخذ فى طحنهـا بقـوة وسرعة وأصابعه تعد اللقمة التالية ، الا أنهم كانوا يأكلون متمهلين فى أناة بالرغم مما يحملهم تمهلهم من صبر لا يتفق وطبيعتهم الحامية ، فلم يكن ليغيب عن أحدهم ما قد يتعرض له من ملاحظة شديدة أو نظرة قاسية اذا تهاون أو ضعف فنسى نفسه وغفل بالتالى عما يأخذها به من التأنى والأدب . وكان كمال أشدهم تبرما لأنه كان أعظمهم تخوفا من أبيه ، واذا كان أكثر ما يتعرض له أحد أخويه نهرة أو زجرة فأقل ما يتعرض له هو ركلة أو لكمة ، فلذلك كان يتناول طعامه فى حذر وضيق ، مسترقا النظر بين آونة وأخرى الى المتبقى من الطعام الذى يتناقص سريعا ، وكلما تناقص اشتد قلقه ، وانتظر فى جزع أن يصدر عن أبيه ما يدل على فراغه من طعامه فيخلو له الجو ليملأ بطنه . وعلى رغم سرعة أبيه فى الالتهام وضخامة لقمته وتشبعها بشتى الأصناف كان يعلم بالتجربة أن ما يتهدد الطعام – وما يتهدده هو بالتالى – من ناحية أخويه أشد وأنكى ، لأن السيد كان سريع الأكل سريع الشبع ، أما أخواه فكانا يبدءان المعركة حقا عقب جلاء السيد عن السفرة ، ثم لا يتخليان عنها حتى تخلو الأطباق من كل شىء يؤكل ، ولهذا فما كاد السيد ينهض قائما ويفارق الحجرة حتى شمر عن ساعديه وهجم على الطبق كالمجنون مستغلا يديه الاثنتين ، يدا للطبق الكبير ، ويدا للأطباق الصغيرة ، بيد أن اجتهاده بدا قليل الجدوى فيما انبعث من نشاط الأخوين فلجأ الى الحيلة التى يستغيث بها كلما هدد سلامته مهدد فى مثل هذه الحال ، وهى أن يعطس فى الطبق عامدا متعمدا ، وعطس ، فتراجع الأخوان ، ونظرا اليه حانقين ، ثم غادرا المائدة وهما يغرقان فى الضحك ، فتحقق له حلم الصباح وهو أن يجد نفسه وحيدا فى الميدان .

وعاد السيد الى حجرته بعد أن غسل يديه فلحقت به أمينة وبيدها قدح مزجت به ثلاث بيضات نيئة بقليل من اللبن وقدمته

له فتجرعه ثم جلس ليحسو قهوة الصبح . وهذا القدح الدسم خاتمة فطوره ، وهو «وصفة» من وصفات يداوم عليها بعد الوجبات أو فيما بينها ـ كزيت السمك ، والجوز واللوز والبندق المسكرة ـ رعاية لصحة بدنه الضخم ، وتعويضا له عما تستهلكه منه الأهواء ، الى اقتصاره على اللحوم بأنواعها والأغذية المشهورة بدسمها حتى ليعد الأكلة الخفيفة بل والعادية « لعبا » و « تضييع وقت » لا يجملان بمثله . وقد وصف له الحشيش كفاتح للشهية ـ الى فوائده الأخرى ـ فجربه ولكنه لم يألفه وانصرف عنه غير آسف وقد ساء به ظنه لما يورث من ذهول وقور مشبع بالهدوء ميال للصمت مشعر بالانفراد ولو بين الصفوة من الأصدقاء ، فنفر من أعراضه تلك التى تتجافى مع سجيته المولعة بصبوات المرح ونشوات الهياج ولذات الاندماج فى النفوس ووثبات المزاح والقهقهة . ولكيلا يفقد مزاياه الضرورية لفحول العشاق اعتاض عنه بنوع نفيس من المنزول اشتهر به محمد العجمى بائع الكسكسى عند مطلع الصالحية بالصاغة ، وكان يعده خاصة لصفوة زبائنه من التجار والأعيان ، ولم يكن السيد من مدمنى المنزول ولكنه كان يلم به بين حين وآخر كلما استقبل هوى جديدا خاصة اذا كانت المعشوقة امرأة خبيرة بالرجال وأحوالهم . فرغ السيد من حسو قهوته ثم نهض الى المرآة وراح يرتدى ملابسه التى قدمتها اليه أمينة قطعة قطعة ، وألقى على صورة هندامه نظرة متفحصة ، ومشط شعره الأسود المرسل على صفحتى رأسه ، ثم سوى شاربه وفتله ، وتفرس فى هيئة وجهه ثم عطفه رويدا الى اليمين ليرى جانبه الأيسر ، ثم الى اليسار ليرى جانبه الأيمن ، حتى اذا ارتاح الى منظره مد يده الى زوجه فناولته زجاجة الكولونيا التى عبأها له عم حسنين الحلاق فغسل يديه ووجهه ونضخ صدر قفطانه ومنديله ، ثم وضع الطربوش على رأسه وأخذ عصاه وغادر الحجرة ناشرا بين يديه ومن خلفه عرفا طيبا . ذلك العرف المقطر

من شتى الأزهار يعرفه أهل البيت جميعا ، واذا تنشقه أحدهم تمثل لعينيه السيد بوجهه الوقور الحازم ، فينبعث فى قلبه ـ مع الحب ـ الاجلال والخوف ، الا أن انتشاره فى هذه الساعة من الصباح كان ايذانا بذهاب السيد ، فالنفوس تتلقاه بارتياح غير منكور على براءته ، كارتياح الأسير الى صليل السلاسل وهى تنفك عن يديه وقدميه ، ويعلم كل بأنه سيسترد حريته عما قليل فى الكلام والضحك والغناء والحركة دون ثمة خطر . وكان ياسين وفهمى قد فرغا من ارتداء ملابسهما ، أما كمال فقد هرع الى الحجرة عقب خروج أبيه مباشرة ليشبع رغبته فى محاكاة حركاته التى يختلس النظر اليها من زيق الباب الموارب ، فوقف أمام المرآة ينظر الى صورته بامعان وارتياح ثم قال مخاطبا أمه بلهجة آمرة وهو يغلظ نبرات صوته « زجاجة الكولونيا يا أمينة » ، وكان يعلم أنها لا تلبى هذا النداء ولكنه جعل يمسح على وجهه وچاكيتته وبنطلونه القصير بيديه كأنه يبلها بالكولونيا ، ومع أن أمه كانت تغالب الضحك الا أنه ثابر على التظاهر بالجد والصرامة ، وراح يستعرض وجهه فى المرآة من جانبه الأيمن الى الأيسر ، ثم مضى يسوى شاربه الوهمى ويفتل طرفيه ، ثم تحول عن المرآة وتجشأ ، ونظر صوب أمه ، ولما لم يجد منها الا الضحك قال لها محتجا : « لماذا لا تقولين لى صحة وعافية ؟ » فغمغمت المرأة ضاحكة : « صحة وعافية ياسيدى » ، هنالك غادر الحجرة مقلدا مشية أبيه محركا يمناه كأنه يتوكأ على عصاه ..

وبادرت الأم والفتاتان الى المشربية ووقفن وراء شباكها المطل على النحاسين ليرين من ثقوبه رجال الأسرة فى الطريق ، وبدا السيد وهو يسير فى تؤدة ووقار يحف به الجلال والجمال رافعا يديه بالتحية بين حين وآخر وقد وقف له عم حسنين الحلاق والحاج درويش بائع الفول والفولى اللبان وبيومى الشربتلى ، فأتبعنه أعينا مترعة بالحب والزهو . وتلاه فهمى فى مشيته

المتعجلة ، ثم ياسـين فى جسم الثور وأناقة الطاووس ، وأخيرا ظهر كمال فلم يكد يخطو خطوتين حتى استدار ورفع بصره الى الشباك الذى يعلم أن أمه وشقيقتيه مستخفيات وراءه ، وابتسم ، ثم واصل سـيره متأبطا حقيبة كتبه منقبـا فى الأرض عن زلطة ليركلهـا . .

كانت هذه الساعة من أسعد أوقات الأم ، بيد أن اشـفاقها من شر الأعين على رجالها لم يقف عند حد ، فلم تكن تمسك عن تلاوة : « ومن شر حاسد اذا حسد » حتى يغيبوا عن عينيها . .

— ٥ —

وغادرت الأم المشربية ، وتبعتها خديجة ، على حين تلـكأت عائشة حتى خلا لها الجو فانتقلت الى جانب المشربية المطل على بين القصرين ومدت بصرها من ثقوب الشباك فى اهتمام ولهفة . بدا من لمعة عينيها وعضها على شفتها أنها تنتظر . ولم يطل بها الانتظار فقد مرق من عطفة الخرنفش ضابط بوليس شاب ومضى مقبلا متمهلا فى طريقه الى قسم الجمالية ، عند ذلك غادرت الفتاة المشربية فى عجلة الى حجرة الاستقبال ، واتجهت الى نافذتهـا الجانبية وأدارت أكرتها ففرجت مصراعيها عن زيق ووقفت وراءه وقلبها يبعث ضربات بالغة العنف من العاطفة والخوف معا . ولما اقترب الضابط من البيت رفع عينيه فى حذر دون أن يرفع رأسه — فلم يكن احد يرفع راسه فى مصر وقتذاك — فأضاءت أساريره بنور ابتسامة متوارية انعكست على وجه الفتاة اشراقة موردة بالحياء فتنهدت ، ثم أغلقت النـافذة وهى تشـد عليها بعصبية — كأنهـا تخفى آثار جريمة دامية — وتراجعت عنهـا مغمضة

العينين من شدة الانفعال ، فأسلمت نفسها الى مقعد وأسندت رأسها الى يدها وساحت فى جو مشاعرها اللانهائى . لم تكن سعادة خالصة ، ولم يكن خوفا خالصا ، كان قلبها موزعا بين هذا وتلك فهما يتجاذبانه بلا رحمة ، اذا استنامت الى نشوة الفرح وسحره قرعت قلبها مطرقة الخوف محذرة موعدة فلاتدرى أيجمل بها أن تقلع عن مغامرتها أم تتمادى فى مطاوعة قلبها ، كلا الحب والخوف شديد . ولبثت فى تهويمها كثيرا أو قليلا ، فاستكنت هواتف الخوف والتأنيب ، ومضت تنعم بسكرة الحلم فى ظل سلام ، وذكرت - كما يلذ لها أن تذكر دائما - كيف كانت تنفض الستارة المسدلة على النافذة يوما فلاحت منها نظرة الى الطريق من النافذة التى فتحت نصف فتحة لطرد الغبار فوقعت عليه وهو يتطلع الى وجهها فى دهشة مقرونة بالاعجاب ، فتراجعت فيما يشبه الذعر ، ولكنه لم يذهب قبل أن يترك فى مخيلتها أثراً باقيا من منظر نجمته الذهبية وشريطه الأحمر ، منظر يخلب اللب ويسرق الخيال ، فظل يتخايل لعينيها طويلا . وفى نفس الساعة من اليوم التالى - والأيام التالية - راحت تقف وراء الخصاص دون أن يراها ، ولمست فى فرحة ظافرة كيف يتطلع بعينيه الى النافذة المغلقة باهتمام وتشوق ، ثم كيف أخذ يستبين شبحها وراء الخصاص فتشع أساريره ضياء البهجة ، وقلبها المشبوب - الذى يتمطى مستيقظا لأول مرة - ينتظر هذه اللحظة فى لهفة ويذوقها فى سعادة ويودعها فيما يشبه الحلم ، حتى دار الشهر وعاد يوم التنفيض مرة أخرى فانبرت الى الستارة تنفضها وراء النافذة المواربة متعمدة - هذه المرة - أن ترى ، وهكذا يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر ، حتى غلب التعطش للمزيد من الحب الخوف الجاثم فخطت خطوة - جنونية - وفرجت مصراعى النافذة ووقفت وراءها وقلبها يبعث ضربات بالغة العنف من العاطفة

والخوف معا ، كأنها تعلن حبها له ، بل كانت كمن يقذف بنفسه من علو ساحق ليتقى نارا مستعرة تحيط به .

***

استكنت عواطف الخوف والتأنيب ومضت تنعم بسكرة الحلم فى ظل سلام ، ثم أفاقت من حلمها ، وصممت على أن تتحامى الخوف الذى ينغص عليها صفوها فجعلت تقول لنفسها استدرارا لطمأنينة : « لم تزلزل الأرض ومر كل شىء بسلام ، لم يرنى أحد ولن يرانى أحد ، ثم انى لم أقترف اثما ! » ونهضت قائمة ، ولكى توهم نفسها بخلو البال ترنمت — وهى تغادر الحجرة — بصوت عذب : « يا ابو الشريط الأحمر يا اللى أسرتنى أرحم ذلى » ، ورددتها مرة ومرة حتى جاءها صوت أختها خديجة من حجرة الطعام وهى تزعق فى تهكم :

— يا ست منيرة يا مهدية ، تفضلى ، أعدت لك خادمتك السفرة .

وأثابها صوت أختها الى نفسها تماما فيما يشبه الرجة فهوت من عالم المثال الى عالم الواقع مرتعبة بعض الشىء لسبب غير ظاهر — ما دام كل شىء قد مر بسلام كما قالت لنفسها — ولكن اعتراض صوت أختها — بالذات — لغنائها وخواطرها أرعبها ، ربما لأن خديجة كانت تقف منها موقف المنتقد ، بيد أنها طاردت هذا القلق الطارىء وأجابتها بضحكة مقتضبة ثم جرت الى حجرة الطعام فوجدت السماط معدا حقا وأمها مقبلة بالصينية . وقالت لها خديجة بحدة حال دخولها :

— تتلكئين بعيدا حتى أعد كل شىء وحدى .. كفاية لنا الغناء .

ومع أنها كانت تتلطف معها فى الحديث تفاديا من حدة لسانها

الا أن اصرار الأخرى على قرصها بلسانها كلما سنحت فرصة جعلها تتعلق أحيانا باغاظتها فقالت مصطنعة الجد :

ــ ألم نتفق على تقسيم العمل بيننا فى البيت ؟ فعليك هذا الواجب وعلى الغناء ..

فنظرت خديجة الى أمها وقالت متهكمة وهى تعنى الأخرى :

ــ يمكن ناوية تكون عالمة !

ولم تغضب عائشة ، وبالعكس قالت باهتمام مصطنع أيضا :

ــ وماله ! .. أنا صوتى كالكروان .

ومع أن قولها السابق لم يستثر غيظها لأنه كان بين الدعابة الا أن كلامها الأخير استثاره لأنه كان واضح الحق ، ولأنها تنفس عليها جمال صوتها فيما تنفس عليها من مزايا فقالت فى تجهم :

ــ اسمعى يا ست هانم ، هذا بيت رجل شريف لايعيب بناته أن تكون أضواتهن كصوت الحمير ولكن يعيبهن أن يكن كالصورة لا فائدة منهن ولا نفع ..

ــ لو كان صوتك جميلا كصوتى ما قلت هذا !

ــ طبعا ! .. كنت تغنين وأرد عليك ، تقولين يا بو الشريط الأحمر يا اللى فأقول لك أسرتنى ارحم ذلى ، ونترك للست « مشيرة الى أمها » الكنس والمسح والطبخ .

وكانت الأم ــ التى ألفت هذا النقار ــ قد اتخذت مجلسها فقالت برجاء :

ــ أمسكا بالله وأجلسا لنأكل فطورنا بسلام ..

وأقبلتا على السماط وجلستا وخديجة تقول :

ــ أنت يا نينة لا تصلحين لتربية أحد ..

فتمتمت الأم فى هدوء :

ــ سامحك الله ، سأترك لك أمر التربية على ألا تنسى نفسك .. « ثم مدت يدها الى الطبق » .. بسم الله الرحمن الرحيم ..

.. كانت خديجة فى العشرين من عمرها ، فهى كبرى أخوتها

فيما عدا ياسين ـ أخاها من الأب ـ الذى ناهز عامه الواحد والعشرين ، وكانت قوية ممتلئة ـ والفضل لأم حنفى ـ مع ميل الى القصر ، أما وجهها فقد قبس من قسمات الوالدين على نهج لم يراع فيه الانسجام ، ورثت عن أمها عينيها الصغيرتين الجميلتين، وعن أبيها أنفه العظيم ، أو صورة مصغرة منه ولكن ليس الى القدر الذى يغتفر له ، ومهما يكن من شأن هذا الأنف فى وجه الأب الذى يناسبه ويكسبه جلالا ملحوظا فقد لعب فى وجه الفتاة دورا مختلفا .

أما عائشة فكانت فى السادسة عشرة من ربيعها ، صورة من بديع الحسن ، رشيقة القد والقوام ـ وان عد هذا فى محيط أسرتها من العيوب المتروك علاجها لأم حنفى ـ ووجه بدرى تزينه بشرة بيضاء مشربة بحمرة ، وعينان زرقاوان أحسنت اختيارهما من الأب مع أنف الأم الصغير ، الى شعر ذهبى دللها به قانون الوراثة فخصها به وحدها من ميراث جدتها لأبيها . وطبيعى لم تدرك خديجة ما يقوم بينها وبين شقيقتها من فوارق ، ولم تكن براعتها الفائقة فى التدبير المنزلى والتطريز ولا نشاطها الدائب الذى لا يكل ولا يمل بمغنيين عنها شيئا ، فوجدت على الغالب نحوها غيرة لم تراع اخفاءها مما حمل الفتاة الحسناء على البرم بها فى كثير من الأحايين . ولكن من سوء الحظ أن هذه الغيرة الطبيعية لم تترك رواسب سوداء فى النفس ، وكفاها أن تروح عن حدتها بسخرية اللسان وسلاطته . وأكثر من هذا أن كانت الفتاة رغم مشكلتها الطبيعية أما بالفطرة عامرة القلب بالحنو نحو الأسرة التى لا تعفى أفرادها من مرارة تهكمها ، فلم تكن غيرتها الا نوبات تطول أو تقصر ولكنها لم تنحرف بسجيتها الى الحقد أو البغضاء ، بيد أن دأبها على السخرية ـ الذى اقتصر فى الأسرة على الدعابة ـ خلق منها فيما وراء ذلك من الجيران والمعارف عيابة من الدرجة الأولى ، لا تقع عيناها من الناس الا على مناقصهم

كعقرب البوصلة المنجذب الى القطب أبدا ، واذا توارت المناقص تمحلت فى الكشف عنها وتكبيرها ، ثم راحت تطلق على ضحاياها أوصافا تناسب عيوبهم كادت تغلب عليهم فى محيط أسرتها ، فهذه حرم المرحوم شوكت أقدم صديقة لوالديها تدعوها « المدفع الرشاش » لتناثر ريقها أثناء الحديث ، وهذه الست أم مريم جارتهم بالبيت الملاصق لبيتهم تسميها « لله يا أسيادى » لاستعارتها بعض الأدوات المنزلية من بيتهم بين حين وآخر ، كما تدعو شيخ كتاب بين القصرين « شر ما خلق » لترديده هذه الآية ضمن سورتها كثيرا بحكم وظيفته مع قبح وجهه ، وبائع الفول « الأقرع » لصلعه ، واللبان « الأعور » لضعف بصره ، الى تسميات مخففة بعض الشىء خصت بها أسرتها ، فأمها « المؤذن » لتبكيرها فى الاستيقاظ ، وفهمى « عمود السرير » لنحافته ، وعائشة « البوصة » للسبب نفسه ، وياسين « بمبه كشر » لسمنته وأناقته . ولم تكن سلاطة لسانها من وحى السخرية فحسب ، فالحق أنها لم تخل من قسوة على من عدا أهلها من الخلق ، وهكذا اتسم نقدها للناس بالعنف ، وتجافى عن التسامح والعفو ، كما غلب عليها عدم الاكتراث للأحزان التى تلم بالناس يوما بعد يوم ، وتبدت هذه الغلظة فى البيت فى معاملة أم حنفى معاملة لا تلقاها من أحد سواها ، بل فى معاملة الحيوان الأليف كالقطط التى تحظى من عائشة باعزاز يفوق الوصف . وكانت معاملتها لأم حنفى مثار خلاف بينها وبين أمها ، فالأم تعامل الخدم كما تعامل أهل بيتها سواء بسواء ، وكان ظنها بالناس أنهم ملائكة فلم تدر كيف تسىء الظن بأحد ، على حين دأبت خديجة على سوء الظن بالمرأة تمشيا مع طبيعتها التى تسىء الظن بالناس جميعا ، ولم تخف تخوفها من بياتها غير بعيد من غرفة الخزين فقالت لأمها « من أين تجيئها هذه السمنة المفرطة ؟ ! . . من الوصفات التى تصنعها ؟ ! كلنا

تتعاطى وصفاتها فلا يسمن سمنتها ، ولكنه السمن والعسل اللذان تطفح منهما بغير حساب ونحن نيام » .

ولكن الأم دافعت عن أم حنفى ما وسعها الدفاع ، ولما ضاقت بالحاح ابنتها قالت : « فلتأكل ما تشاء ، الخير كثير ، وبطنها له حد لا يتعداه فلن نجوع على أى حال » ، ولم يعجبها قولها وراحت تفحص صفائح السمن وبلاليص العسل كل صباح وأم حنفى ترى هذا باسمة لأنها كانت تحب الأسرة كلها اكراما لستها الطيبة .

وعلى النقيض من هذا كان حنان الفتاة حيال أهلها جميعا فلم يكن يهدأ لها بال اذا أصابت أحدهم وعكة ، ولما مرض كمال بالحصبة أبت الا أن تشاركه فراشه ، حتى عائشة نفسها لم تكن تطيق أن يلم بها أهون سوء ، فلم يكن مثل قلبها لا فى بروده ولا فى رحمته .

وباتخاذها مجلسها من السماط تناست ما نشب بينها وبين عائشة من نقار وأقبلت على الفول والبيض بشهية كانت مضرب الأمثال فى الأسرة . وكان للطعام بينهن — الى فائدته الغذائية — غاية جمالية عليا بصفته الدعامة الطبيعية للسمنة ، فكن يتناولنه فى تؤدة واهتمام ، ويبالغن فى سحقه وطحنه ، فاذا شبعن لم يمسكن ولكن يستزدن منه حتى يمتلئن ، على تفاوت تبعا لطاقاتهن ، فكانت الأم أسرعهن الى الانتهاء ، تليها عائشة ، ثم تنفرد خديجة ببقايا المائدة فلا تتخلى عنها الا وهى أطباق مغسولة . ولم تكن نحافة عائشة لتتناسب مع اجتهادها فى الأكل فضلا عن عصيانها لسحر البلابيع ، مما دعا خديجة للسخرية منها والقول بأن المكر السيىء هو الذى يجعلها تربة غير صالحة للبذور الطيبة التى تلقى فيها ، كما كان يطيب لها أن تعلل نحافتها بضعف دينها فتقول لها : « كلنا نصوم رمضان الا أنت ، تتظاهرين بالصوم ، وتندسين فى حجرة الخزين كالفأرة وتملئين بطنك بالجوز واللوز والبندق ، ثم تفطرين معنا بنهم يحسدك عليه الصائمون ولكن الله لايبارك لك » .

وكانت ساعة الفطور من الأوقات النادرة التى يخلين فيها الى

انفسهن . فكانت أخلق الأوقات بالمكاشفة ونفض السرائر خاصة في الأمور التي يدعو الى كتمانها عادة الحياء البالغ الذى تتسم به مجالس الأسرة الحاوية للجنسين . وكان لدى خديجة ما تقوله رغم انهماكها في الأكل فقالت بصوت هادىء يختلف كل الاختلاف عن الصوت الذى كانت تزعق به منذ حين قصير :

ـ نينة .. حلمت حلما غريبا ..

فقالت الأم قبل أن تزدرد لقمتها مبالغة في اكرام ابنتها المخيفة :

ـ خير يا بنتى ان شاء الله ..

فقالت خديجة باهتمام مضاعف :

ـ رأيت كأنى أمشى على سور سطح ، ربما كان سطح بيتنا أو غيره ، واذا بشخص مجهول يدفعنى فأهوى صارخة ..

وأمسكت أمينة عن تناول طعامها في اهتمام جدى فلازمت الفتاة الصمت قليلا لتستأثر بأكبر قدر من الاهتمام حتى تمتمت الأم :

ـ اللهم اجعله خيرا ..

وقالت عائشة وهى تغالب ابتسامة :

ـ لم أكن أنا الشخص المجهول الذى دفعك .. أليس كذلك !

وخافت خديجة أن يفسد الجو بالمزاح فصاحت بها :

ـ انه حلم وليس لعبا فكفى عن هذرك « ثم مخاطبة أمها » .. هويت صارخة ولكنى لم أرتطم بالأرض كما توقعت بل وقعت على جواد ، حملنى وطار ..

وتنهدت أمينة في ارتياح كأنما أدركت ما وراء الحلم واطمأنت اليه ، وعادت الى طعامها مبتسمة ، ثم قالت :

ـ من يدرى يا خديجة ؟ .. لعله العريس .. !

لم يكن يباح الكلام عن « العريس » الا في هذه الجلسة ، وفي ايجاز بالاشارة أشبه ، ووجب قلب الفتاة الذى لم يكربه شىء كما

أكربه أمر الزواج ، وكانت على ايمان بالحلم وتأويله بحيث وجدت لكلام أمها سرورا عميقا ، بيد أنها ارادت أن تدارى حياءها بالسخرية كعادتها ــ ولو من نفسها ــ فقالت :

ــ أتظنين الجواد عريسا ؟ .. لن يكون عريسى الا حمارا ..

فضحكت عائشة حتى تطاير نثار الطعام من فيها ، ثم خافت أن تسىء خديجة فهم ضحكتها فقالت :

ــ لشد ما تظلمين نفسك يا خديجة ! .. ما فيك من شىء يعاب ..

فحدجتها خديجة بنظرة تنم عن الحذر والشك على حين راحت الأم تقول :

ــ أنت فتاة نادرة المثال ، من يضارعك فى مهارتك أو نشاطك ؟ .. وروحك الخفيفة ووجهك اللطيف ؟ ماذا تريدين أكثر من هذا ؟

فمست الفتاة بسبابتها أرنبة أنفها وتساءلت ضاحكة :

ــ الا يسد هذا طريق الأزواج ؟

فقالت الأم مبتسمة :

ــ كلام فارغ .. مازلت صغيرة يا بنية ..

وتضايقت لذكر الصغر لأنها لم تكن تعد نفسها صغيرة بالقياس الى سن الزواج ، وخاطبت أمها قائلة :

ــ لقد تزوجت يا نينة وأنت دون الرابعة عشرة .

فقالت الأم التى لم تكن فى الحق دون ابنتها قلقا :

ــ لا يتقدم أمر او يتأخر الا باذن الله ..

وقالت عائشة فى صدق :

ــ ربنا يفرحنا بك قريبا يا خديجة ..

فلحظتها خديجة بريبة وذكرت كيف طلبت احدى جاراتهم يدها لابنها فرفض الأب أن يزوج الصغرى قبل الكبرى ، وتساءلت :

ـ أتودين حقـا أن أتزوج أم تتمنين أن يخلو لك السـبيل فتتزوجي ! ...

فقالت عائشة ضاحكة :

ـ الاثنين معا ...

ـ ٦ ـ

ولما فرغن من الفطور قالت الأم :

ـ عليك يا عائشـة الغسيل اليوم ، وعلى خديجـة تنظيف البيت ، ثم تلحقان بي في حجرة الفرن ..

كانت أمينة توزع بينهما العمل عقب الفطور مباشرة ، ومع أنهما يرضيان بحكمها ، وترضى به عائشة عادة بلا مناقشة ، الا أن خديجة تكلف بتوجيه الملاحظات على سبيل الاستعلاء أو على سبيل المشاكسة ، فلهذا قالت :

ـ أنزل لك عن التنظيف اذا كنت تستثقلين الغسـيل ، أما التمحك بالغسيل للبقاء في الحمام حتى ينتهي العمل في المطبخ فعذر مرفوض مقدما ..

وتجاهلت الفتاة ملاحظتها ومضت الى الحمـام وهي تدندن فقالت خديجة متهكمة :

ـ يا بختـك بالحمام يرن فيه الصـوت كما يرن في نفـير الفونوغراف فغني وسمعي الجيران ..

وغادرت الأم الحجرة الى الدهليز ثم الى السلم ورقتـه الى السطح لتجول فوقه جولتها الصباحية قبل أن تنزل الى حجرة الفرن . لم يكن التشاحن بين الفتاتين بالجديد عليها بعد أن انقلب مع الأيام عادة مألوفة في غير الأوقات التي يوجـد فيها الأب في

البيت ، أو التى يطيب فيها السـمر بين أفراد الأسرة ، وجعلت تعالجه بالرجاء والدعابة والرقة البالغة ، وهى السياسة الوحيدة التى تنتهجها ازاء أبنائها لأنها صادرة عن طبع لا يطيق سواها ، أما ما تقتضيه التربية أحيانا من الحزم فشىء لم تعرفه ، ربما تمنته دون أن تقدر عليه ، وربما حاولت تجربته فغلبها التأثر والضعف، وكأنها لا تحتمل أن يقوم بينهـا وبين ابنائها غير أسـباب المودة والحب ، تاركة للأب — أو لشخصيته التى تسيطر من بعيد — تقويم المعوج والزام كل حدوده . لهذا لم يضعف النقار السخيف من اعجابها بفتاتيها ورضائها عنهما ، حتى عائشـة المولعة لحد الهوس بالغناء والوقوف أمام المرآة ، لم تكن دون خديجة مهارة وتدبيرا بالرغم من تكاسلها . وكان هذا حريا بأن يمد لها فى أوقات الراحة لولا ما طبعت عليه من وسوسة بالداء أشبه ، فهى تأبى الا أن تشرف على كل صغيرة وكبيرة بالبيت ، واذا فرغ الفتاتان من عملهما نشطت هى بالمكنسة فى يد والمنفضـة فى يد وراحت تتفقد الحجرات والصالات والدهاليز ، متفحصة الأركان والجدران والستائر وسائر العفش عسى أن تزيل نقطة غبار منسية ، واجدة لذة وارتياحا كأنما تزيل قذى من عينيها ، ومن وسوستها تلك أنها كانت تفحص الثياب المعدة للغسيل قبل غسلها ، فاذا عثرت على قطعة منها قد خرقت قذارتها المألوف لم تترك صاحبها دون أن تتلطف فى تنبيهه الى واجبه ، من كمال الذى يناهز العاشرة الى ياسين الذى كان ذا ذوقين متناقضين فى العناية بنفسه يتجليان فى تأنقه المفرط فى مظهره من البـدلة والطربوش والقميص ورباط الرقبة والحذاء ، واهماله المعيب لثيابه الداخلية ، ومن الطبيعى الا تغفل هذه العناية الشاملة السطح وسكانه من الحمام والدجاج ، بل كانت ساعة السطح حافلة بالحب والسرور فيهـا من أغراض العمل ما فيها ، الى ما تجده من فرحة اللهو والمرح ، ولا عجب فالسطح هو الدنيا الجديدة التى لم يكن للبيت الكبير بها عهد قبل

انضمامها اليه ، خلقته بروحها خلقا جديدا على حين ظل البيت محافظا على الهيئة التى شيد عليها منذ عهد سحيق. هذه الأقفاص المثبتة فى بعض جدرانه العالية يهدل عليها الحمام من وضعها ، وهذه الاكواخ الخشبية يقوقىء الدجاج فى مسارحها من تركيبها ، وكم يملكها الفرح وهى ترمى الحب أو تضع على الأرض آنية السقيا فيستبق اليها الدجاج وراء ديكها ، وتنهال مناقيرها على الحب فى سرعة وانتظام كابر آلة الخياطة ، مخلفة فى الأرض التربة بعد حين ثغرات دقيقة كآثار الرذاذ . وكم ينشرح صدرها اذ تنظر فتراها رانية اليها بأعين دقيقة صافية ، مستطلعة متسائلة ، ناقة مقوقئة ، فى مودة متبادلة ينز لها قلبها الحنون . أحبت الدجاج والحمام كما تحب مخلوقات الله جميعا ، فهى تناغيها مناغاة رقيقة تحسب أنها تفهمها وتتأثرلها ، وذلك أنخيالها يخلع الحياة الشاعرة العاقلة على الحيوان ، وأحيانا الجماد نفسه ، وعندها بمنزلة اليقين أن هذه الكائنات تسبح بحمد ربها وتتصل بعالم الروح بأسباب ، فعالمها بأرضهوسمائه ، حيوانه ونباته ، عالم حيعاقل ، ثم لاتقتصر مزاياه على نعمة الحياة فيكملها بالعبادة . لم يكن غريبا بعد هذا أن تكثر معاتيقها من الديوك والدجاج معتلة بسبب أو آخر ، هذه لأنها معمرة وتلك لأنها بياضة وهذا لأنها تستيقظ على صياحه ، ولعلها لو تركت وشأنها ما ارتضت أن تعمل سكينها فى رقابها ، واذا دعتها الظروف الىالذبح تخيرت الدجاج أو الحمام فيما يشبه الضيق ، ثم تسقيها وتترحم عليها وتبسمل وتستغفر ، وتذبحها وعزاؤها أنها تستمتع بحق منحه الله المنان وأوسع به على عباده .

أما أعجب ما فى السطح فكان نصفه الجنوبى المشرف على النحاسين حيث غرست يداها فى الأعوام الخالية حديقة فريدة لا نظير لها فى أسطح الحى كله التى تغطى عادة بطبقة من قاذورات الدواجن . بدأت أول ما بدأت بعدد قليل من أصص القرنفل والورد ، وراحت تستكثر منها عاما بعد عام حتى نضدت صفوفا بحذاء أجنحة

السور ونمت نموا بهيجا ، وخطر لخيالها أن تقيم فوق حديقتها سقيفة ، فاستدعت نجارا فأقامها ، ثم غرست شجرتى ياسمين ولبلاب ، ثم أنشبت سيقانها فى السقيفة وحول قوائمها . فاستطالت وانتشرت حتى استحال المكان بستانا معروشا ذا سماء خضراء ينبثق منها الياسمين ويتضوع فى أرجائها عرف طيب ساحر . هذا السطح بسكانه من الدجاج والحمام ، وبستانه المعروش ، هو دنياها الجميلة المحبوبة ، وملهاها الأثير فى هذا العالم الكبير الذى لا تعرف عنه شيئا ، وكشأنها فى مثل هذه الساعة مضت تتعهده برعايتها فكنسته ، وسقت زرعه ، وأطعمت الدجاج والحمام ، ثم تملت طويلا المنظر المحيط بها بثغر باسم وعينين حالمتين ، ثم ذهبت الى نهاية البستان ووقفت وراء السيقان الملتفة المتشابكة تمد بصرها من ثغراتها الى ما يليها من فضاء لا تحده حدود .

كم تروعها المآذن التى تنطلق انطلاقا ذا ايحاء عميق ، تارة عن قرب حتى لترى مصابيحها وهلالها فى وضوح كمآذن قلاوون وبرقوق ، وتارة عن بعد غير بعيد فتبدو لها جملة بلا تفصيل كمآذن الحسين والغورى والأزهر ، وثالثة من أفق سحيق فتتراءى أطيافا كمآذن القلعة والرفاعى وتقلب وجهها فيها بولاء وافتتان ، وحب وايمان ، وشكر ورجاء ، وتحلق روحها فوق ذراها أقرب ما تكون الى السماء ، ثم تستقر منها العينان على مئذنة الحسين ، أحبها ــ لحب صاحبها ــ الى نفسها ، فتنفض نظرتها حنانا وأشواقا ، مشوبة بحزن يطوف بها كلما ذكرت حرمانها من زيارة ابن بنت رسول الله وهى على مسير دقائق من مثواه .

وتنهدت نهدة مسموعة ، استردتها من استغراقها فثابت الى نفسها وراحت تتسلى بالنظر الى الأسطح والطرقات فلم تزايلها الأشواق ، ثم استدبرت السور وقد فاض بها التطلع الى المجهول ، المجهول بالقياس الى الناس جميعا وهو عالم الغيب ، والمجهول بالقياس اليها وحدها وهو القاهرة ، بل الأحياء المتاخمة التى

تترامى اليها أصواتها . ترى ما هــذه الدنيا التى لم تر منها الا المآذن والأسطح القريبة ؟ ! ربع قرن من الزمان خلا وهى حبيسة هذا البيت فلا تفارقه الا مرات متباعدات لزيارة أمها بالخرنفش ، وعند كل زيارة يصطحبها السيد فى حانطور لأنه كان لا يحتمل أن تقــع عين على حرمه ســواء وحدها أم بصــحبته ، لم تكن ساخطة ولا متذمرة ، انها أبعد ما تكون عن هذا ، بيد أنها ما تكاد تنفذ ببصرها من ثغرات الياسمين واللبلاب الى الفضاء والمــآذن والأسطح حتى تعلو شفتيها الرقيقتين ابتسامة حنان وأحلام . ترى أين تقــع مدرســة الحقوق حيث يجلس فهمى فى هــذه اللحظة ؟ .. وأين مدرسة خليل أغا التى يؤكد لها كمال أنها على مسير دقيقة من الحسين ؟ .. وقبــل أن تغادر السطح بسطت كفيها ودعت ربها قائلة : « اللهم أسألك الرعاية لسيدى وأبنائى ، وأمى ويس ، والنــاس جميعا مسلمين ونصارى ، حتى الانجليز يارب وأن تخرجهم من ديارنا اكراما لفهمى الذى لا يحبهم ... » .

— ٧ —

عند ما بلغ السيد أحمد عبد الجواد دكانه الذى يقع أمام جامع برقوق بالنحاسين كان جميل الحمزاوى وكيله قد فتحه وهيأه للعمل ، فحياه السيد تحية رقيقة وهو يبتسم ابتسامة وضيئة واتجه الى مكتبه . وكان الحمزاوى فى الخمسين من عمره ، أنفق منها ثلاثين عاما فى هذا الدكان ، وكيلا لمنشــئه الحاج عبد الجواد ثم وكيلا للسيد بعد وفاة أبيه ، وظل على الوفاء للسيد بدافع من العمل والحب معا ، فهو يجله ويحبه كما يجله ويحبه جميع من يتصل به بسبب من أسباب العمل أو الصداقة . والحق لم يكن السيد مرهوبا مخوفا الا بين أهله ، أما بين سائر الناس من أصدقاء

ومعارف وعملاء فهو شخص آخر ، له حظه الموفور من المهابة والاحترام ، ولكنه شخصية محبوبة قبل كل شيء ، ومحبوبة لظرفها قبل أي من سجاياها الحميدة الكثيرة ، فلا الناس يعرفون السيد الذي يقيم في بيته ، ولا أهل البيت يعرفون السيد الذي يعيش بين الناس. وكان دكانه متوسط الحجم ، مكدسة رفوفه وجنباته بجوالات البن والأرز والنقل والصابون ، وعند ركنه الأيسر في قبالة المدخل يقوم مكتب السيد بدفاتره وأوراقه وتليفونه ، والى اليمين من مجلسه تقوم الخزانة الخضراء داخل الجدار يوحي منظرها بالصلابة ويذكر لونها بالأوراق المالية ، وفي منتصف الجدار فوق المكتب على اطار من الأبنوس نقشت بداخله البسملة مموهة بالذهب . ولم تكن عجلة الدكان تدور قبل الضحى ، فجعل السيد يراجع حسابات اليوم السابق بمثابرة ورثها عن أبيه وحافظ عليها بحيويته الموفورة ، على حين وقف الحمزاوي عند المدخل شابكا ذراعيه على صدره مواصلا تلاوة ما تيسر له من الآيات في صوت باطني غير مسموع دلت عليه حركة شفتيه المستمرة ، ووسوسة خافتة تند من آن لآن عن أحرف السين والصاد ، ولم يتوقف عن تلاوته حتى جاء شيخ ضرير رتبه السيد للقراءة كل صباح . وكان السيد يرفع رأسه من الدفتر في فترات متباعدة فيستمع الى التلاوة أو يمد بصره الى الطريق حيث لا ينقطع تيار المارة وعربات اليد والكارو ، وسوارس التي تكاد تترنح من كبرها وثقلها ، والباعة المغنون وهم يترنمون بطقاطيق الطماطم والملوخية والبامية كل على مذهبه ، ولم تكن الضوضاء لتحول بينه وبين تركيز ذهنه بعد ما اعتادها وألفها أكثر من ثلاثين عاما فاستنام اليها حتى ليزعجه سكوتها . ثم جاء زبون فشغل الحمزاوي به ، وأقبل نفر من أصحاب السيد وجيرانه من التجار ممن يحبون أن يقضوا معه وقتا طيبا ولو لزمن وجيز يتبادلون فيه التحية ويفيرون ريقهم — على حد تعبيرهم — على دعابة من

دعاباته أو نكتة من نكاته ، الأمر الذى جعله يفاخر بنفسه كمحدث فائق البراعة ، لا يخلو حديثه من لمعات غير مقطوعة الصلة بالثقافة العامة التى اكتسبها ، لا من التعليم حيث توقف فيه دون الابتدائية ، ولكن من قراءة الصحف ومصادقة نخبة من الأعيان والموظفين والمحامين الذين أهله لمخالطتهم ـ مخالطة الند للند ـ حضور بديهته ولطفه وظرفه ومنزلته كتاجر موفور الرزق ، فاستجد لنفسه عقلية غير العقلية التجارية المحدودة ضاعف من اعتزازه بها ما حباه أولئك المتازون من حب واحترام وتكريم ، ولما قال له أحدهم مرة فى صدق واخلاص : « لو أتيح لك يا سيد أحمد أن تدرس القانون لكنت محاميا مفوها نادر المثال » نفخ قوله فى خيلائه الذى يحسن مداراته بظرفه وتواضعه وحلو معاشرته . ولم يطل بأحد من الوافدين الجلوس فذهبوا تباعا ، وتزايدت حركة العمل بالدكان ، ثم فجأة دخل رجل مهرولا كأنما دفعته يد قوية ، ووقف فى منتصف الدكان وهو يضيق عينيه الضيقتين ليحد بصره ، وسددهما صوب مكتب السيد ، ومع أنه لم يكن يفصله عنه أكثر من ثلاثة أمتار الا أنه أجهده فى معاينته بلا طائل ، ثم هتف متسائلا :

ــ السيد أحمد عبد الجواد موجود ؟

فقال السيد باسما :

ــ أهلا وسهلا بالشيخ متولى عبد الصمد ، تفضل ، حلت البركة ..

وعطف الرجل رأسه فصادف اقتراب الحمزاوى منه ليسلم عليه ولكنه لم ينتبه ليده الممدودة وعطس على غير انتظار فتراجع الحمزاوى وهو يخرج منديله وقد التقت فى صفحة وجهه ابتسامة وتقطيبة ، واندفع الشيخ الى المكتب وهو يتمتم « الحمد لله رب العالمين » ، ثم رفع طرف عباءته ومسح به على وجهه ، وجلس على الكرسى الذى قدمه السيد له . وبدأ الشيخ

فى صحة يحسد عليها على سنه التى جاوزت الخامسة والسبعين ، ولولا عيناه الكليلتان الملتهبتا الأشفار ، وفوه المندثر ، ما وجد ما يشكوه ، وكان يتلفع بعباءة بالية ناسلة وأن أمكنه أن يستبدل بها خيرا منها بما يجود به المحسنون ، ولكنه استمسك بها لأنه — فيما يقول — رأى الحسين فى منامه وهو يباركها فبث فيها خيرا لا يبلى ، وكان الى كراماته فى قراءة الغيب والدعوات الشافية وعمل الأحجبة معروفا بالصراحة والظرف ، وبه متسع للدعابة والمزاح مما زاد من قدره عند السيد خاصة ، ومع أنه كان من سكان الحى الا أنه لم يثقل على أحد من مريديه بالزيارات ، وربما توالت الأشهر وهو غائب لا يعلم له مكان ، فاذا ألم بزيارة بعد انقطاع لاقى ترحابا وأشواقا وهدايا . وقد أشار السيد الى وكيله ليعد للشيخ الهدية المعتادة من الأرز والبن والصابون ، ثم قال للشيخ مرحبا :

— أوحشتنا يا شيخ متولى .. منذ عاشوراء لم نستمتع برؤيتك ..

فقال الرجل ببساطة وبغير مبالاة :

— أغيب كما يحلو لى ، وأحضر كما يحلو لى ، ولا أسأل عن السبب ..

فابتسم السيد الذى ألف أسلوبه وتمتم قائلا :

— اذا غبت أنت فان بركتك لا تغيب ..

فلم يبد على الشيخ أنه تأثر لاطرائه ، وعلى العكس حرك رأسه حركة تدل على نفاد الصبر وقال بخشونة :

— ألم أنبه عليك أكثر من مرة بألا تفاتحنى بالحديث ، وأن تلزم الصمت حتى أتكلم أنا ؟!

فقال السيد وبه رغبة فى التحكك به :

— معذرة يا شيخ عبد الصمد ، لئن كنت قد نسيت تنبيهك فعذرى أنى أنسيته لطول غيابك .

فضرب الرجل كفا بكف وهتف :

ـ عذر أقبح من ذنب .. (ثم منذرا بسبابته) اذا تماديت في مخالفتي امتنعت عن قبول هدينك !

فأطبق السيد شفتيه باسطا راحتيه استسلاما حاملا نفسه على الصمت هذه المرة ، فتريث الشيخ متولى ليتأكد من دخوله طاعته ، وتنحنح ، ثم قال :

ـ أبدأ بالصلاة على سيد الخلق الحبيب ..

فقال السيد من الأعماق :

ـ عليه الصلاة والسلام .

ـ وأثنى على أبيك بما هو اهله ، رحمه الله رحمة واسعة وسكنه فسيح جناته ، كأني به متخذا مجلسك هذا ، لا فارق بين الأب وابنه الا أن الراحل حافظ على العمامة واستبدلت بها هذا الطربوش ..

فتمتم السيد مبتسما :

ـ فليغفر الله لنا ..

فتثاءب الشيخ حتى دمعت عيناه ثم استطرد قائلا :

ـ وأدعو الله أن يمن على أبنائك بالفلاح والتقوى ، ياسين وخديجة وفهمي وعائشة وكمال وأمهم آمين ..

ووقع نطق الشيخ باسمي خديجة وعائشة من أذني السيد موقعا غريبا على الرغم من كونه هو الذى أفضى اليه باسميهما منذ عهد طويل ليكتب لهما حجابين ، وليست أول مرة ينطق الشيخ باسميهما ، ولا آخر مرة ، ولكن لم يكن يتردد اسم واحدة من حريمه بعيدا عن الحجرات ـ ولو على لسان الشيخ متولى ـ حتى يقع من نفسه موقعا غريبا ينكره ولو الى حين . بيد أنه غمغم قائلا :

ـ آمين يا رب العالمين ..

فتنهد الشيخ قائلا :

ــ ثم أسأل الله المنان أن يعيد الينا أفندينا عباس مؤيدا بجيش من جيوش الخليفة لا يعرف له أول من آخر

ــ نسأله وليس شيء عليه بكثير ..

فعلا صوت الشيخ وهو يقول غاضبا :

ــ وأن يمنى الانجليز وأعوانهم بهزيمة منكرة فلا تقوم لهم بعدها قائمة .

ــ ربنا يأخذهم جميعا ..

فحرك الشيخ رأسه فى أسى وقال بحسرة :

ــ كنت بالأمس سائرا فى الموسكى فاعترض سبيلى جنديان استراليان وطالبانى بما معى فما كان منى الا أن نفضت لهما جيوبى وأخرجت الشيء الوحيد الذى كان معى وهو كوز ذرة فتناوله أحدهما وركله كالكرة وخطف الآخر عمامتى وحل الشال ومزقه ورمى به فى وجهى .

وتابعه السيد وهو يغالب ابتسامة تراوده فما لبث أن داراها بالمبالغة فى اظهار استيائه صائحا فى استنكار :

ــ قاتلهم الله وأهلكهم ..

فأتم الرجل حديثه قائلا :

ــ رفعت يدى الى السماء وصحت ، يا جبار مزق أمتهم كما مزقوا شال عمامتى ..

ــ دعوة مستجابة باذن الله ..

ومال الشيخ الى الوراء وأغمض عينيه ليستريح قليلا ، ولبث على حاله والسيد يتفرس فى وجهه مبتسما ، ثم فتح عينيه وخاطب السيد بصوت هادىء ونبرات جديدة تنذر بموضوع جديد ، قائلا :

ــ يا لك من رجل شهم جميل المروءة يا احمد يا ابن عبد الجواد ..

فابتسم السيد فى رضى وقال بصوت خفيض :

ـ أستغفر الله يا شيخ عبد الصمد ..

فبادره الشيخ قائلا :

ـ لا تتعجل ، ان مثلي لا يلقى التنـاء الا تمهيدا لقول الحق ، على سبيل التشجيع يا ابن عبد الجواد ..

فلاح الاهتمام والحذر فى عينى السيد وتمتم قائلا :

ـ ربنا يلطف بنا ..

فأشار اليه بسبابته العجراء وتساءل فيما يشبه الوعيد :

ـ ماذا تقول ، وأنت المؤمن الورع ، فى ولعك بالنساء ؟ !

كان السيد معتادا لصراحته فلم ينزعج لانقضاضه ، وضحك ضحكة مقتضبة ثم قال :

ـ ما على من ذاك ، ألا يحدث رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حبه للطيب والنساء ؟

فقطب السيد ومط بوزه محتجا على منطق السيد الذى لم يعجبه وقال :

ـ الحلال غير الحرام يا ابن عبد الجواد ، والزواج غير الجرى وراء الفاجرات ..

فمد السيد بصره للاشىء وقال بلهجة جدية :

ـ ما ارتضت نفسى يوما أن تعتدى على عرض أوكرامة قط ، والحمد لله على ذلك ..

فضرب الشيخ ركبتيه بيديه وقال بغرابة واستنكار :

ـ عذر ضعيف لا ينتحله الا ضعيف ، والفسق لعنة ولو يكن بفاجرة ، كان أبوك رحمه الله مولعا بالنســاء فتزوج عشرين مرة فلماذا لا تنتهج سبيله وتتنكب طريق المعاصى ؟ !

فضحك السيد ضحكة عالية وقال :

ـ ألأنت ولى من أولياء الله أم مأذون شرعى ؟ ! كان أبى شبه عقيم فأكثر من التزوج ، وبالرغم من أنه لم ينجب سـواى الا أن عقاره تبدد بينى وبين زوجات أربع مات عنهن ، ألى ما ضاع على

النفقات الشرعية فى حياته ، اما أنا فأب لثلاثة ذكور واثنين ، وما يجوز لى أن أنزلق الى الاكثار من الزوجات فأبدد ما يسر الله علينا من رزق ، ولا تنس يا شيخ متولى أن غوانى اليوم هن جوارى الأمس واللاتى أحلهن الله بالبيع والشراء ، والله من قبل ومن بعد غفور رحيم ..

فتأوه الشيخ وقال وهو يهز نصفه الأعلى يمنة ويسرة :

ـ ما ابرعكم يا بنى آدم فى تحسين الشر ، والله يا ابن عبد الجواد لولا حبى لك ما باليت أن تحدثنى وأنت قاعد على فاجرة ..

فبسط السيد راحتيه وقال باسما :

ـ اللهم استجب ..

فنفخ الشيخ متبرما وهتف قائلا

ـ لولا مزاحك لكنت أكمل الناس ..

ـ الكمال لله وحده ..

فالتفت اليه وهو يشير بيده كأنه يقول « فلندع هذا جانبا » ثم ساءله بلهجة المحقق الذى ضيق عليه الخناق :

ـ والخمر ؟ .. ماذا تقول فيها ؟ !

وسرعان ما فترت روح السيد ولاح فى عينيه الضيق ولزم الصمت مليا ، وآنس الشيخ من صمته تسليما فصاح بظفر :

ـ أليست حراما لا يقارفه من يحرص على طاعة الله ومحبته ؟

فبادره السيد قائلا فى حماس من يدفع بلاء محققا :

ـ لشد ما أحرص على طاعة الله ومحبته !

ـ باللسان أم بالعمل ؟ !

ومع أن الجواب كان حاضرا الا انه تمهل متفكرا قبل أن ينطق به . لم يكن من عادته أن يشغل نفسه بالتفكير الذاتى أو التأمل الباطنى . شأنه فى ذلك شأن الذين لا يكادون يخلون الى أنفسهم ، ففكره لا يعمل حتى يبعثه الى العمل شىء خارجى ، رجل أو امرأة

أو سبب من أسباب حياته العملية ، وقد استسلم لتيار حياته الزاخر مستغرقا فيه بكليته ، فلم ير من نفسه الا صورتها المنعكسة على سطح التيار ، ثم لم يتراخ توتبه للحياة مع تقدم العمر لأنه بلغ الخامسة والأربعين ولم يزل يتمتع بحيوية فياضة مشبوبة لا يتأثر بها الا الشاب اليافع ، لذلك جمعت حياته شتى المتناقضات التى تراوح بين العبادة والفساد ، وحازت جميعا رضاه على تناقضها دون أن يدعم هذا التناقض بسند من فلسفة ذاتية أو تدبير مما يصطنع الناس من ألوان الرياء ، ولكنه كان يصدر فى سلوكه عن طبيعته الخاصة بقلب طيب وسريرة نقية واخلاص فى كل ما يفعل ، فلم تعصف بصدره عواصف الحيرة ، وبات قرير العين . وكان ايمانه عميقا ، أجل كان ايمانا موروثا لادخل للاجتهاد فيه ، بيد أن رقة مشاعره ولطافة وجدانه واخلاصه أضفت عليه احساسا رهيفا سلميا نأى به عن أن يكون تقليدا أعمى ، أو طقوسا مبعثها الرغبة أو الرهبة فحسب ، وبالجملة كان أبرز ما يتميز به ايمانه بالحب الخصب النقى . بهذا الايمان الخصب النقى أقبل يؤدى فرائض الله جميعا ، من صلاة وصيام وزكاة فى حب ويسر وسرور ، الى سريرة صافية وقلب عامر بحب الناس ونفس تسخو بالمروءة والنجدة جعلت منه صديقا عزيزا يستبق القوم الى الرى من منهله العذب ، وبتلك الحيوية الفياضة المشبوبة فتح صدره لمسرات الحياة ولذائذها ، يهش للمأكل الفاخر ، ويطرب للشراب المعتق ، ويهيم بالوجه القسيم ، فينهل منها جميعا فى مرح وبهجة وولع ، غير مثقل الضمير باحساس خطيئة أو وسواس قلق ، فهو يمارس حقا منحته اياه الحياة ، وكأنما لا تعارض بين حق الحياة على قلبه وحق الله على ضميره ، فلم يشعر فى ساعة من حياته بأنه بعيد عن الله أو عرضة لنقمته ، وآخاه فى السلام . أكان شخصين منفصلين فى شخصية واحدة ؟ ! .. أم كان اعتقاده فى السماحة الالهية بحيث لا يصدق أنها تحرم هاتيك المسرات حقا ،

وحتى فى حال تحريمها فهى حرية بأن تعفو عن المذنبين ما لم يؤذوا أحدا ؟! الأرجح أنه كان يتلقى الحياة بقلبه واحساسه دون ثمة تفكير أو تأمل ، وجد بنفسه غرائز قوية ، يطمح بعضها لله فراضها بالعبادة ، ويتحفز بعضها الآخر للذات فأرواها باللهو ، وخلطها بنفسه جميعا آمنا مطمئنا دون أن يشق على نفسه بالتوفيق بينها . لم يكن يضطر الى تبريرها بفكره الا تحت ضغط انتقاد كالذى جابهه الشيخ متولى عبد الصمد ، وفى هذه الحال يجد نفسه أضيق بالتفكير منه بالتهمة نفسها ، لا لأنه يهون عليه أن يكون متهما أمام الله ، ولكن لأنه لا يصدق أبدا أنه متهم ، أو أن الله يغضبه حقا أن يلهو لهوا لا يصيب أحدا بأذى ، أما التفكير فكان يتعبه من ناحية ويكشف عن تفاهة علمه بدينه من ناحية أخرى . لذلك تجهم للسؤال الذى ألقاه الرجل عليه متحديا وهو « باللسان أم بالعمل » وأجابه بلهجة لا يخفى فيها الضيق :

ـ باللسان والعمل معا ، بالصلاة والصيام والزكاة ، بذكر الله قائما وقاعدا ، وما على بعد ذلك اذا روحت عن نفسى بشىء من اللهو الذى لا يؤذى أحدا أو يغفل فريضة ، وهل حرم محرم الا لهذا أو ذاك ؟

فرفع الشيخ حاجبيه وأغمض عينيه معلنا عن عدم اقتناعه ثم تمتم :

ـ يا له من دفاع فى سبيل الباطل !

وتحول السيد فجأة من الضيق الى المرح كعادته فقال بأريحية :

ـ الله غفور رحيم يا شيخ عبد الصمد ، انى لا أتصوره عز وجل غاضبا أو متجهما أبدا ، حتى انتقامه رحمة خافية ، وانى أقدم بين يديه الحب والطاعة والبر ، والحسنة بعشر أمثالها . .

ـ أما فى حساب الحسنات فأنت رابح . .

فاشار السيد الى جميل الحمزاوى ليأتى بهدية الشيخ وهو يقول مسرورا :

ـ حسبنا الله ونعم الوكيل .

وجاءه الوكيل باللفة فأخذها السيد وقدمها الى الشيخ وهو يقول ضاحكا :

ـ فى صحتك ..

فتناولها الشيخ وهو يقول :

ـ رزقك الله رزقا واسعا وغفر لك ..

فغمغم السيد « آمين » ثم سأله باسما :

ـ ألم تكن يوما من أهل ذلك يا سيدنا الشيخ ؟!

فضحك الشيخ قائلا :

ـ سامحك الله ، أنت رجل كريم طيب القلب ، وبهذه المناسبة أحذرك من التمادى فى الكرم فانه لا يتفق وما يطالب به التاجر من القصد ...

فتساءل السيد دهشا :

ـ أتغرينى باسترداد الهدية ؟

فنهض الرجل وهو يقول :

ـ هديتى لا تجاوز القصد فابدأ بغيرها يا ابن عبد الجواد والسلام عليكم ورحمة الله ..

وغادر الشيخ الدكان مهرولا وغاب عن الأنظار ، ولبث السيد مفكرا ، ومضى يدير فى نفسه ما دار من جدل بينه وبين الشيخ ثم بسط راحتيه فى ضراعة وتمتم « اللهم اغفر لى ما تقدم وما تأخر من ذنب ، اللهم انك أنت الغفور الرحيم » ..

عند العصر غادر كمال مدرسة خليل أغا يضطرب فى تيــار زاخر من التلاميذ الذين يسدون الطريق بزحمتهم ثم يأخذون فى التفرق ، بعضهم الى الدراسة ، وبعضهم الى السـكة الجديدة ، وآخرون الى طريق الحسين ، على حين تتحلق جماعات منهم الباعة المتجولين الذين يعترضون تياراتهم عند رءوس الطرقات المتفرعة عن المدرسة بما تحمل سلالهم من اللب والفـول السودانى والدوم والحلوى ، والى هذا فلا يخلو الطريق فى هذه الساعة من معــارك تنشب هنا وهناك بين تلاميذ اضطروا الى كتمان خلافاتهم فى أثناء النهار تفاديا من العقوبات المدرسية . وكانت المرات التى سيق فيها الى الاشتباك فى معركة نادرة جدا ، ولعلهــا لم تعد المرتين طوال العامين اللذين قضاهما فى المدرسة ، لا لندرة خلافاته التى لم تكن نادرة فى الواقع ، ولا لكراهية للعراك فقد أورثه اضطراره الى تجنبه أسفا عميقا ، ولـكن لتقدم الكثرة الغالبة من التلاميذ عليه فى السن مما جعله هو وقلة من أترابه غرباء فى المدرســة ، يتعثرون فى بنطلوناتهم القصيرة بين تلاميذ طعنوا فيما بعد الخامسـة عشرة وكثيرون منهم ناهزوا العشرين ، فشقوا طريقهم فى صلف وكبرياء وقد طرت شواربهم . من هؤلاء من كان يتعرض له فى فناء المدرسة بلا سبب فيخطف الكتاب من يده ويقذفه بعيــدا كالكرة ، أو من يسـلبه قطعة من الحلوى فيدسها فى فمـه بغير استئذان مواصلا ما كان فيه من حديث ، فلم تكن الرغبة فى العراك لتنقصه ولكنه كظمها تقديرا للعواقب ، وما لباها حتى دعاه اليها أحد أقرانه الصغار ، فوجد فى الهجوم عليه متنفسـا لعواطفه الثائرة

المكبوتة واسترداداً لثقته بقوته ونفسه . وليس العراك ، أو العجز عنه ، بأسوأ ما لاقى من وقاحة المعتدين ، فالى هذا ما كان يترامى الى أذنيه ، سواء كان المقصود به أم غيره ، من الشتائم والسباب ، منه ما فطن لمعناه فحذره ، ومنه ما جهله فردده فى البيت بحسن نية فاثار به عاصفة من الثورة والفزع اتصلت أنباؤها فى صورة شكوى لضابط المدرسة الذى كان صديقاً لأبيه . ولكن سوء الحظ وحده هو الذى قضى بأن يكون أحد غريميه فى المعركتين الوحيدتين اللتين خاضهما من أسرة فتوات معروفة بالدراسة ، فلما كان عصر اليوم التالى للمعركة وجد الغلام فى انتظاره عند باب المدرسة عصابة من الشبان مدججين بالعصى فى هالة من شر مستطير ، ولما أشار اليه غريمه ليدل عليه تنبه لحركته وأدرك ما يتربص به من خطر فتراجع هارباً الى المدرسة وهو يستغيث بالضابط ، وعبثاً حاول الرجل أن يصرف العصابة عن مقصدها ، وأغلظوا له القول حتى اضطر الى استدعاء شرطى ليوصل الغلام الى داره ، وزار الضابط السيد فى دكانه وأنبأه بما يتهدد ابنه من شر ناصحاً اياه بمعالجة الأمر بالحلم والكياسة ، ولجأ السيد الى بعض معارفه من تجار الدراسة فمضوا به الى بيت الفتوات مستشفعين له ، وهنالك استعان السيد بما عرف عنه من سماحة نفس ورقة شمائل حتى ألان عريكتهم فأصدروا عن الغلام عفوهم بل وتعهدوا بحمايته كأحد أبنائهم ، ولم ينته اليوم حتى بعث السيد بمن يحمل اليهم نفحة من هداياه ، ونجا كمال من عصى الفتوات ولكنه كان كالمستجير من الرمضاء بالنار ، لأن عصا أبيه فعلت بقدميه ما لم تكن لتفعله عشرات العصى .

غادر الغلام المدرسة ، ومع أنه كان لرنين الجرس المؤذن بانتهاء اليوم الدراسى فرحة فى نفسه لا تعادلها فرحة فى تلك الأيام الا أن نسائم الحرية التى تنشقها خارج بوابة المدرسة بصدر رحب لم تمح أصداء الدرس الأخير الحبيب ــ درس الديانة ــ من قلبه . وقد

قرأ عليهم الشيخ ذلك اليوم سورة « قل أوحى الى انه استمع نفر من الجن » وشرحها لهم ، فتركز فيه بوعيه ، ورفع أصبعه أكثر من مرة سائلا عما أغلق عليه ، ولما كان الأستاذ يعطف عليه لاقباله على الاستماع لدرسه باهتمام بارز ، الى حفظه للسور حفظا جيدا : فقد أوسع صدره لأسئلته بحال يندر أن يحظى بها أحد التلاميذ ، وراح الشيخ يحدثه عن الجن وطوائفهم ، وعن المسلمين منهم خاصة الذين سيظفرون بالجنة فى النهاية أسوة باخوانهم من البشر ، وحفظ الغلام عن ظهر قلب كل كلمة نطق بها ، ولم يزل يديرها فى نفسه حتى هذه اللحظة التى يعبر فيها الطريق قاصدا دكان البسبوسة على الجانب الآخر ، فالى شغفه بالديانة كان يعلم أنه لايتلقاها لنفسه فحسب ، وأن عليه أن يعيد ما وعى منها فى البيت على أمه ـ كما اعتاد أن يفعل مذ كان فى الكتاب ـ فيلقى اليها بمعلوماته وتستعيد هى على ضوئها ما عندها من معلومات عرفتها عن أبيها الذى كان شيخا أزهريا ، ويتذاكران معارفهما طويلا ، ثم يحفظها الجديد من السور التى لم يسبق لها حفظها . وانتهى الى دكان البسبوسة فمد يده الصغيرة بالملاليم التى احتفظ بها منذ الصباح ، ثم تناول القطعة فى ارتياح شامل لا يشعر به الا فى مثل هذا الموقف اللذيذ ، مما جعله يحلم كثيرا بأن يكون يوما صاحب دكان حلوى ليأكلها لا ليبيعها ، ثم واصل سيره فى شارع الحسين وهو يقضم منها مسرورا مترنما . نسى وقتذاك أنه كان سجينا النهار كله ، وأنه كان محروما من الحركة فضلا عن اللعب والمرح ، وأنه كان عرضة فى أية لحظة لعصا المدرس المسلطة على الرءوس ، بيد أنه رغم هذا كله لم يكره المدرسة كراهية مطلقة لأنه كان يظفر بين جدرانها بأسباب من التقدير والتشجيع ـ بسبب تفوقه الذى يرجع كثير من الفضل فيه الى شقيقه فهمى ـ لايحظى بعشر معشارها عند أبيه . ومر فى طريقه بدكان ماتوسيان لبيع السجائر فوقف كعادته كل يوم فى مثل هذه الساعة تحت لافتتها

يصعد عينيه الصغيرتين الى الاعلان الملون الذى يصور امرأة مضطجعة على ديوان وبين شفتيها القرمزيتين سيجارة يتطاير منها خيط دخان متعرج ، معتمدة بساعدها على حافة نافذة يلوح وراء ستارتها المنحسرة منظر يجمع بين حقل نخيل ومجرى من مجريات النيل ، وكان يدعوها فيما بينه وبين نفسه « أبلة عائشة » لما بين الاثنتين من شبه يتمثل فى الشعر الذهبى والعينين الزرقاوين ، ومع أنه كان يناهز العاشرة الا أن اعجابه بصاحبة الصورة فاق كل تقدير ، فكم تخيلها متمتعة بالحياة فى أبهج مظاهرها ، وكم تخيل نفسه وهو يقاسمها حياتها الرغيدة بين حجرة ناعمة ، ومنظر ريق متاح لها ــ لهما ــ أرضه ونخيله وماؤه وسماؤه ، يسبح فى الوادى الأخضر أو يعبر النهر فى قارب بدا فى نهاية الصورة كالطيف ، أو يهز النخيل فيساقط عليه الرطب ، أو يجلس بين يدى الحسناء طامح الطرف الى عينيها الحالمتين . على أنه لم يكن جميلا كأخويه ، ولعله كان أشبه الأسرة بأخته خديجة ، فمثلها قد جمع فى وجهه بين عينى أمه الصغيرتين وأنف أبيه الضخم ولكن بكامل هيئته لا مهذبا بعض التهذيب كما ورثته خديجة ، الى رأس كبير يبرز عند الجبهة بروزا واضحا جعل عينيه تبدوان غائرتين أكثر مما هما فى الواقع ، وكان من سوء الحظ أن نبه الى غرابة صورته بخال مثيرة للسخرية حين دعاه أحد الرفاق بأبى « راسين » . فأهاج غضبه وأورطه فى احدى المعركتين اللتين خاضهما ولم يسكن خاطره الانتقام فشكا فى البيت حزنه الى أمه التى تكدرت لكدره وراحت تغريه مؤكدة له أن كبر الرأس من كبر العقل ، وأن النبى عليه السلام كان كبير الرأس ، وأنه ليس وراء التشابه بين الرسول وبينه من مطمع لطامع . ولما انتزع نفسه من صورة المدخنة واصل سيره رانيا هذه المرة الى جامع الحسين الذى قضت نشأته بأن يكون لقلبه مثار أخيلة وعواطف لا تنضب . ومع أن المكانة التى نزلها الحسين من نفسه ــ تبعا لمنزلته من نفس

أمه خاصة والأسرة عامة ـ كانت وليدة قرابته من النبى الا أن معرفتـه للنبى وسيرته لم تـكن شفيعا الى معرفته بالحسـين وسيرته ، وما تهفو نفسه دائما اليه من استعادة هـذه السيرة والتزود منها بأنبل القصص وأعمق الايمان ، حتى لقد وجدت منه على مر القرون مستمعا مشغوفا ومحبا مؤمنا واسيفا بكاء ، فلم يهون من بلواه الا ما قيل له من أن رأس التشهيد بعد فصله عن جسده الطاهر لم يرض من الأرض مسكنا الا فى مصر فجاءها طاهرا مسبحا ثم ثوى حيث يقـوم ضريحه . وكم وقف حيـال الضريح حالما مفكرا ، يود لو ينفذ ببصره الى الأعماق ليطلع على الوجه الجميل الذى أكدت له أمه أنه قاوم غير الدهر بسره الالهى فاحتفظ بنضارته ورونقه حيث يضىء ظلمة المثوى بنور غرته ، ولما لم يجد الى تحقيق أمنيته سـبيلا قنع بمناجاته فى وقفـات طويلة ، مفصحا له عن حبه ، شـاكيا اليه متـاعبه الناشئة من تصوراته عن العفاريت وخوفه من تهديد أبيه مستنجدا به على الامتحانات التى تلاحقه كل ثلاثة أشهر ، ثم خاتما مناجاته عادة بالتوسل اليه أن يكرمه بالزيارة فى منامه . ومع أن عادة مروره بالجامع صباحا ومساء خففت بعض الشىء من شدة تأثره به الا أنه لم تكن تقع عليه عيناه حتى يقـرأ له الفاتحة ولو تكرر ذلك منه مرات فى اليوم الواحد ، أجل لم تستطع العادة أن تقتلع من صدره بهجة الأحلام ، فلم يزل لمنظر الجدران السامقة تجاوبها مع قلبه ، ولم يزل لمئذنته العالية نداء ما أسرع أن تلبيه نفسه . قطع طريق الحسين وهو يقرأ الفاتحة ثم انعطف الى خان جعفر ، ومنها اتجه الى بيت القـاضى ، ولـكنه بدلا من أن يمضى الى البيت مخترقا النحاسين عبر الميـدان الى درب قرمز على وحشـته واثارته لمخاوفه ليتفادى من المرور بدكان أبيه . كان يرتعد فرقا من أبيه ولا يتصور أنه يخاف العفريت لو طلع له أكثر منـه اذا زعق به غاضبا . وضـاعف من كربه أنه لم يقتنع يوما بالأوامر الصارمة

التى يلاحقه بها للحيلولة بينه وبين ما تصبو اليه نفسه من اللعب والمراح ، فلو أنه أذعن لمشيئته مخلصا لقضى وقت فراغه كله متربعا مكتوف اليدين لذلك لم يسعه أن يطيع تلك المشيئة الجبارة العاتية واختلس اللهو من وراء ظهره كلما حلا له ، في البيت أو في الطريق ، وظل الرجل على جهل بأمره الا أن يبلغه منه شيء بوشاية من أهل البيت اذا ضاقوا بغلوه وافراطه . من ذلك أنه جاء يوما بسلم وارتقاه الى عرش اللبلاب والياسمين فوق السطوح ، ورأته أمه وهو على تلك الحال بين السماء والأرض فصرخت فزعة حتى أجبرته على النزول ، ثم غلب اشفاقها من مغبة لعبة خطيرة كتلك على خوفها عليه من شدة أبيه فصرحت للسيد بما كان منه ، وسرعان ما دعا به وأمره أن يمد قدميه وانهال عليهما بعصاه غير مبال بصراخه الذى ملأ البيت ، وغادر الغلام الحجرة وهو يظلع ليجد أخوته في الصالة وهم يغالبون ضحكهم الا خديجة التى حملته بين يديها هامسة في أذنه « تستاهل .. كيف تعلو اللبلاب وتناطح السماء ! أحسبت نفسك زبلن ؟ ! » على أنه فيما عدا الألعاب الخطرة كانت أمه تتستر عليه وتبيح له مايشاء من اللعب البرىء .

ولشد ما يعجب كلما ذكر كيف كان هذا الأب نفسه ظريفا لطيفا معه على عهد طفولته القريبة ، وكيف كان يتسلى بمداعبته وكيف كان ينفحه من آن لآخر بألوان شتى من الحلوى ، وكيف هون عليه يوم الختان — على فظاعته — فملأ حجره بالشيكولاتة والملبس وشمله بعطفه ورعايته ، ثم ما أسرع أن تغير كل شيء فتبدل عطفه صرامة ، ومناغاته زعقا ، ومداعباته ضربا ، حتى الختان نفسه اتخذه اداة لارهابه حتى اختلط عليه الأمر ردحا من الزمن فظن أنه من الممكن حقا أن يلحقوا ما تبقى له بما ذهب ! وليس الخوف وحده الذى شعر به نحو أبيه فاجلاله له لم يكن دون خوفه منه ، كان يعجب بمظهره العظيم القوى ، ومهابته التى تعنو لها الهام ، وأناقة ملبسه ، وما يعتقده فيه من قدرة على كل شيء ، ولعل

حديث الأم عن سيدها هو الذي هوله عنده فلم يتصور أنه يوجد في الدنيا رجل يضارعه في قوته أو جلاله أو ثروته . أما عن الحب فقد كان كل من في البيت يحب الرجل لحد العبادة فانسرب حبه الى قلبه الصغير بايحاء البيئة ، بيد أنه ظل جوهرة مكنونة في حق مغلق من الخوف والرعب . مضى يقترب من قبو درب قرمز المظلم الذي تتخذه العفاريت مسرحا لألعابها الليلية ، والذي آثره لنفسه طريقا عن المرور بدكان أبيـه ، وعندما دخل في جوفه راح يقرأ « قل هو الله أحد » بصوت مرتفع رن في الظلمة تحت السـقف المنحنى ، وسبقته عيناه الى فوهة القبو البعيدة حيث يشع نور الطريق ، ثم حث خطاه وهو يردد السورة لطرد من تحدثه نفسه بالظهور من العفاريت ، فالعفاريت لا سبيل لها على من يدرع بآيات الله ، أما أبوه فلن يدرأ غضبه عنه اذا ثار أن يتلو كتاب الله كله . وخرج من القبو الى الشطر الآخر من الدرب ، وعند نهايته طالعه سبيل بين القصرين ومدخل حمام السـلطان ، ثم لاحت لعينيه مشربيات بيته بلونهـا الأخضر القاتم ، والبـاب الكبير بطرقته البرنزية فافتر ثغره عن ابتسامة فرح لما يدخره له هذا المكان من أفانين المرح ، فعما قليل يهرع الغلمان اليه من جميـع البيوت المجاورة الى فناء الدار الواسع الذي يحوى عدة حجرات تتوسطها الفرن فيكون لعب ولهو وبطاطة . وفي تلك اللحظة رأى سوارس وهي تقطع الطريق على مهل متجهة الى بين القصرين فوثب قلبه وشاع فيه سرور ماكر ، وما لبث أن دس حقيبة كتبه تحت ابطه الأيسر وجرى وراءها حتى أدركها ثم وثب الى سـلمها الخلفي ، ولكن الكمسارى لم يتركه في سروره طويلا فجـاءه يطالبه بثمن التذكرة وهو يرمقه بنظرة تنم عن ريبة وتحد فقال له متوددا أنه سيغادرها حالما تقف لأنه لا يسعه النزول وهي سائرة ، فتحول الرجل عنه الى السائق وهتف به أن يوقف العـربة وهو يزمجر غاضبا فانتهز الغلام فرصة تحوله عنه وثب على أمشاط قدميه

وصفعه ثم وثب الى الأرض وانطلق هاربا وشتائم الكمسارى تلاحقه أشد من الأحجار المطينة ! . . لم تكن خطة مدبرة ، ولا هى من مختار شطارته ، ولكنه رأى غلاما يفعلها فى الصباح فراقت له ، ثم وجد سانحة لاعادتها بنفسه ففعل . .

٩

واجتمعت الأسرة — ما عدا الأب — قبيل المغيب فيما يعرف بينها بمجلس القهوة ، وكانت الصالة بالدور الأول مكانه المختار حيث تحيط بها حجرات نوم الأخوة والاستقبال ورابعة صغيرة أعدت للدرس وقد فرشت الصالة بالحصر الملونة وقامت فى أركانها الكنبات ذوات المساند والوسائد . وتدلى من سقفها فانوس كبير يشغله مصباح غازى فى مثل حجمه . وكانت الأم تجلس على كنبة وسيطة وبين يديها مدفأة كبيرة دفنت كنجة القهوة حتى النصف فى جمراتها التى يعلوها الرماد ، والى يمينها خوان وضعت عليه صينية صفراء صفت عليها الفناجين ، ويجلس الأبناء حيالها سواء من يؤذن له باحتساء القهوة معها كياسين وفهمى أو من لا يؤذن له بحكم التقاليد والآداب فيقنع بالسمر كالشقيقتين وكمال . تلك ساعة محببة الى النفوس يستأنسون فيها الى رابطتهم العائلية ، وينعمون بلذة السمر . وينضوون جميعا تحت جناح الأمومة فى حب صاف ومودة شاملة : وبدت فى جلساتهم راحة الفراغ وتحرره فكانوا بين متربع ومضطجع ، وبينما جعلت خديجة وعائشة تستحثان الشاربين على الفراغ من شربهم لتقرآ لهم الطالع فى فناجينهم راح ياسين يتحدث حينا ويقرأ فى قصة اليتيمتين من مجموعة مسامرات الشعب حينا آخر . كان من عادة الشاب أن يهب بعض فراغه

لمطالعة القصص والأشعار ـ لا لاحساسه بنقص تعلمه فالابتدائية وقتذاك لم تكن مطلبا صغيرا ـ ولكن غراما بالتسلية وولعا بالشعر والأساليب الجزلة . وقد بدا بجسمه المكتنز فى جلبابه الفضفاض كقربة هائلة الا أن مظهره لم يتعارض ـ بحكم الزمن ـ مع قسامة وجهه الأسمر الممتلىء بعينيه السوداوين الجذابتين وحاجبيه المقرونين وشفتيه الشهوانيتين ، ونم بجملته ـ رغم حداثة سنه الذى لا يجاوز الواحدة والعشرين ـ على رجولة مفعمة بالفحولة . ولبد كمال لصقه ليلتقط ما يرمى اليه بين آونة وأخرى من نوادر القصص وهو لا يكف عن الاستزادة منها غير مكترث لما يحدثه الحاحه على اخيه من الضيق كى يشبع أشواقا تشتعل بخياله فى مثل هذه الساعة من كل يوم ، ولكن ما اسرع أن يشغل عنه ياسين بالحديث أو بالاستغراق فى المطالعة متفضلا عليه بين حين وآخر ـ كلما اشتد الحاحه بكلمات مقتضبة أن وجد بها الجواب على بعض أسئلته فما أحرى أن تستثير أسئلة جديدة لا جواب لها عنده ، ثم لا يفتأ يرمق أخاه وهو آخذ فى المطالعة التى تبيح له مفتاح العالم السحرى بعين الحسد والحزن ، فكم حز فى نفسه عجزه عن قراءة القصة بنفسه ، وكم أحزنه أن يجدها بين يديه بحيث يقلبها كيف شاء دون أن يسعه حل رموزها فالولوج منها الى دنيا الرؤى والأحلام ، فقد وجد فى هذا الجانب من ياسين مثارا لخياله هيأ له من ألوان المسرة ما هيأ ، وهيج من أسباب الظمأ وعنائه ما هيج . وكثيرا ما كان يرفع عينيه الى أخيه ويسأله فى لهفة « وماذا حدث بعد ذلك ؟ » فينفخ الشاب قائلا : « لا تضيق على بأسئلتك ولا تتعجل حظك فان لم أقص عليك اليوم فغدا » ، ولم يكن يحزنه شيء كاستنظاره للغد حتى اقترنت لفظة الغد فى ذهنه بالحسرة ، ولم يكن نادرا أن يتحول الى أمه بعد تفرق المجلس وبه أمل أن تقص عليه ما « حدث بعد ذلك » ولكن المرأة كانت تجهل قصة اليتيمة وغيرها

مما يقرأ ياسين الا أنها يعز عليها أن ترده خائبا فتروى له ماتحفظ من حكايات اللصوص والعفاريت فيزوغ خياله اليها رويدا ظافرا بزاد من العزاء . فى مجلس القهوة ذاك لم يكن عجيبا أن يشعر بأنه ضائع مهمل بين أهله ، لا يكاد يلتفت اليه أحد ، وانهم مشغولون عنه بأحاديثهم التى لا تنتهى ، فلم يتورع عن الاختلاق فى سبيل الاستئثار باهتمامهم ولو الى حين ، ولذلك رمى بنفسه فى مجرى الحديث معترضا تياره بجرأة وقال بلهجة حادة فجائية كانطلاق القذيفة كأنما تذكر أمرا خطيرا بغتة :

— يا له من منظر لا ينسى الذى رأيته اليوم وأنا عائد ! . . رأيت غلاما يثب الى سلم سوارس ثم صفع الكمسارى وركض بأكبر سرعة فما كان من الرجل الا أن عدا وراءه حتى أدركه ثم ركله فى بطنه بكل قوته . .

وقلب عينيه فى الوجوه ليرى أثر حديثه فلم يجد ثمة اهتمام ولمس اعراضا عن خبره المثير وتصميما على مواصلة الحديث ، بل رأى يد عائشة تمتد الى ذقن أمه وتحولها عنه بعد أن همت بالاصغاء اليه ، ولمح الى هذا ابتسامة هازئة ترتسم على شفتى ياسين الذى لم يرفع رأسه عن الكتاب ، فركبه العناد وقال بصوت مرتفع :

— وسقط الغلام يتلوى وازدحم حوله الناس فاذا به قد فارق الحياة . .

وأبعدت الأم الفنجان عن فمها وهتفت :

— يا ولداه ! . . أتقول انه مات ؟

وسر باهتمامها وركز قوته فيها كما يركز المهاجم اليائس قوته فى نقطة ضعيفة من سور منيع فقال :

— أجل مات ، ورأيت بعينى دمه وهو يسيل بغزارة . . !

وحدجه فهمى بنظرة ساخرة كأنها تقول له : « انى أذكر لك أكثر من قصة من هذا النوع » وقال متسائلا فى تهكم :

ــ قلت ان الكمسارى ركله فى بطنه ؟ . . فمن أين سال الدم ؟!
وانطفأت شعلة الظفر التى تلألأت فى عينيه مذ جذب أمه اليه ، وحل محلها سهوم الارتباك والحنق ، ولكن أسعفه الخيال فاستردت نظرة عينيه حيويتها وقال :
ــ لما ركله فى بطنه سقط على وجهه فشج رأسه !
وهنا قال ياسين دون أن يرفع عينيه عن اليتيمة :
ــ أو أن الدم سال من فيه ، فالدم قد يسيل من الفم دون حاجة الى جرح ظاهرى ، هنالك أكثر من تفسير لخبرك المكذوب ــ كالعادة ــ فلا تخف . . .
واحتج كمال على تكذيب أخيه وراح يحلف بأغلظ الأيمان على صدقه ولكن احتجاجه ضاع فى ضجة من الضحك جمعت الغليظ والرفيع من حناجر الرجال والنساء فى هارمونى واحدة ، وتحركت طبيعة خديجة الساخرة فقالت :
ــ ما أكثر ضحاياك ، لو صدقت فيما تروى من أخبار لما ابقيت على أحد من أهل النحاسين حيا . .
ماذا تقول لربنا لو حاسبك على أخبارك هذه ؟ !
ووجد فى خديجة مهاجما يقدر عليه ، وكعادته كلما ارتطم بسخريتها راح يعرض بأنفها قائلا :
ــ أقول له ان الحق على منخور أختى . . !
فقالت الفتاة وهى تضحك :
ــ من بعض ما عندكم ، ألسنا فى البلوى سواء !
وهنا قال ياسين مرة أخرى :
ــ صدقت يا أختاه . . .
وتحولت اليه متحفزة للانقضاض فبادرها قائلا :
ــ هل أغضبتك !. . لماذا !. . ليس الا أننى جاهرت بالموافقة على رأيك . .
فقالت له حانقة :

ــ أذكر عيوبك قبل أن تعرض بعيوب الناس ..

فرفع حاجبيه منظاهرا بالحيرة ثم تمتم :

ــ والله ان أكبر عيب ليهون الى جانب هذا الانف ..

ونظاهر فهمى بالاستنكار ثم تساءل فى نبرات وشت بانضمامه الى المهاجمين :

ــ ماذا قلت يا أخى ، أهو أنف أم جريمة ؟

ولما كان فهمى لا يشترك فى مثل هذا النضال الا نادرا فقد رحب ياسين بقوله فى حماس وقال :

ــ هو الاثنان معا ، فكر فى المسئولية الجنائية التى سيتحملها من يقدم هذه العروس الى عريسها المنكود !

وقهقه كمال ضاحكا بصوت كالصفير المتقطع ولم ترتح الام الى وقوع ابنتها بين كثرة من المهاجمين فارادت أن ترجع الحديث الى أصله وقالت بهدوء :

ــ خرج بكم الكلام الفارغ عن موضوع الحديث ، كان حديثنا عن السيد كمال أصدق فى أخباره أم لم يصدق ، ولكن اظن أنه لا داعى الى الشك فى صدقه بعد أن حلف .. أجل كمال لا يحلف كذبا أبدا ..

وباخ سرور الغلام الانتقامى لتوه ، ومع ان اخوته واصلوا المزاح حينا آخر الا أنه انقطع عنهم بروحه ، متبادلا مع أمه نظرة ذات معنى ، ثم خاليا بنفسه متفكرا فى قلق وكدر . كان يدرك خطورة الحلف الكاذب فيما يثير من سخط الله وأوليائه ، ويعز عليه جدا أن يحلف كذبا بالحسين خاصة لولهه به ، ولكنه كثيرا ما وجد نفسه فى مأزق حرج ــ كما وجد اليوم ــ لا مخرج منه فى نظره الا بالحلف الكاذب ، فينساق وهو لا يدرى الى التورط فيه . بيد انه لم يكن ينجو ، خاصة اذا ذكر بجريرته ، من الهم والقلق ، ويود لو يقتلع الماضى السيىء من جذوره . وأن يبدأ صفحة جديدة نظيفة ، وذكر الحسين ، وموقفه عند أصل مئذنته

حيث تتراءى وكأن هامتها تتصل بالسماء ، وسأله فى ضراعة أن يعفو عن زلته وهو يسعر بغضاضة من أجترأ على حبيب باساءة لا تغتفر . وغرق فى توسلاته مليا ثم أخذ يفيق الى ما حوله ويفتح أذنيه الى ما يدور من حديث فيه المعاد وفيه الجديد ، وقليل منه ما يسترعى انتباهه ، ولكنه لا يكاد يخلو من ترديد ذكريات منتزعة من ماضى الأسرة البعيد أو القريب ، وأنباء مما يجرى عن مسرات الجيران وأحزانهم ، ومواقف حرجة للأخوين أمام أبيهما الجبار ، تنبرى خديجة الى استعادة وصفها وتحليلها على سبيل الفكاهة أو الشماتة ، ومن هذه وتلك نمت للغلام معرفة تبلورت فى مخيلته على صورة غريبة تأثر تكوينها غاية التأثر بما تجاذب طرفيه من روح خديجة التهجمية العيابة وروح أمه السمحة العفوة . وانتبه أخيرا الى فهمى وهو يقول مخاطبا ياسين :

— ان هجوم هندنبرج الأخير شديد الخطورة ولا يبعد أن يكون الهجوم الفاصل فى هذه الحرب .

وكان ياسين يعطف على آمال أخيه ولكن فى هدوء متسم بقلة الاكتراث ، تمنى مثله أن ينتصر الألمان وبالتالى الترك وأن تسترد الخلافة سابق عزتها ، وأن يعود عباس ومحمد فريد الى الوطن ولكن أمنية من هذه الأمانى لم تكن لتشغل قلبه فى غير أوقات الحديث عنها ، وقد قال وهو يهز رأسه :

— م[illegible]بع سنوات ونحن نردد هذا الكلام ..

فقا[illegible]برجاء واشفاق :

— لكل [illegible]رب نهاية ، ولابد أن تنتهي هذه الحرب ، ولا أظن الألمان ينهزمون ! ..

— هذا ما ندعو الله أن يتحقق ، ولكن ماذا يكون رأيك لو وجدنا الألمان كما يصفهم الانجليز ؟!

ولما كانت المعارضة تشعل حدته فقد علا صوته وهو يقول :

ـ المهم أن نتخلص من كابوس الانجليز ، وأن تعـود الخلافة الى سابق عظمتها فنجد طريقنا ممهدا ..

وتداخلت خديجة فى الحديث متسائلة :

ـ لماذا تحبون الألمان وهم الذين أرسلوا زبلن ليلقى بقنابله علينا .. !

وراح فهمى يؤكد ـ كعادته ـ أن الألمان قصـدوا الانجليز بقنابلهم لا المصريين ، فانتقل الحديث الى مناطيد زبلن وما يقـال عن ضخامتها وسرعتها وخطورتهـا ، حتى اسـتوى ياسين فى جلسته ونهض الى حجرته ليرتدى ملابسه تمهيدا لمغادرة البيت الى سهرته المعتـادة ، وعاد بعد فترة وجيزة وقد تهيأ وأخـذ زينتـه ، فتراءى أنيق الملبس ، جميـل المظهر ، وبدا بجسمه الضخم وفحولته الناضجة وشاربه النابت أكبر من سنه كثيرا ، ثم حياهم وانصرف وشيعه كمال بنظرة تنم عما يغبطه عليه من التمتع بحريته فى انطلاق ساحر ، فلم يغب عنه أن أخاه لم يعد يحاسب ـ منذ تعيينه كاتبـا بمدرسـة النحاسين ـ على ذهابه أو ايابه ، وأنه يسهر كما يشاء ويعود حين يشاء ، ما أجمل هذا وأسعده ، وكم يـكون انسانا سعيدا لو ذهب وجاء كما يحب ، ومد سهرته الى حين يشاء ، وقصر القراءة ـ حين تتم له أداتها ـ على الروايات والأشعار ، ثم سأل أمه فجأة :

ـ أيمكننى اذا وظفت أن أسهر فى الخارج كياسين ؟

وابتسمت الأم قائلة :

ـ ليس السهر فى الخارج بالغاية التى يصح أن تحلم بها من الآن !

فصاح محتجا :

ـ ولكن أبى يسهر ، وياسين يسهر كذلك .

فرفعت الأم حاجبيها ارتباكا وتمتمت :

ـ شد حيلك أولا حتى تصـير رجلا ثم موظفا ، ووقتهـا يفرجها ربنا !

ولكن كمال بدا متعجلا فتساءل :

ـ لماذا لا أتوظف بالابتدائية بعد ثلاثة أعوام ؟

وصاحت خديجة فى سخرية :

ـ تتوظف دون الرابعة عشرة ! .. وماذا تصنع اذا بلت على نفسك فى الوظيفة ؟ !

وقبل أن يعلن ثورته على أخته قال له فهمى بازدراء :

ـ يا لك من حمار .. لماذا لا تفكر فى دخول الحقوق مثلى ؟ .. ان ظروف ياسين القاهرة هى التى جعلته يأخذ الابتدائية فى العشرين من عمره ، ولولاها لأتم تعليمه .. **ألا تدرى حتى كيف** تتمنى يا كسول !

— ١٠ —

عندما صعد فهمى وكمال الى سطح البيت كانت الشمس على وشك الاختفاء ، فلاحت قرصا أبيض مسالما تولت عنه حيويته وبردت حرارته وانطفأ توهجه ، وقد بدأ بستان السطح المسقوف باللبلاب والياسمين فى ظلمة وانية ، ولكن الشاب والغلام مضيا الى شطر السطح الآخر حيث لا يحجب فلول النور حجاب ، ثم مالا الى السور الملاصق لسور السطح المجاور ، سطح الجيران . وكان فهمى يرقى بكمال الى هذا الموضع كل مغيب بحجة مراجعة دروسه فى الهواء الطلق على الرغم من أن جو نوفمبر أخذ يميل الى البرودة خاصة فى هذه الساعة من اليوم ، وأوقف الغلام بحيث جعل ظهره الى السور ، ووقف هو لقاءه بحيث أمكنه أن يمد بصره الى سطح الجيران الملاصق دون تلفت كلما بدا له . وهناك بين حبال الغسيل لاحت فتاة ــ شابة فى العشرين أو نحو ذلك ــ وقد انهمكت فى جمع قطع الثياب الجافة وتكديسها فى سلة كبيرة ، ومع

أن كمال راح يتكلم بصوت مرتفع كعادته الا أنها واصلت عملها وكأنها لم تنتبه الى مجىء الطارئين . أمل كان يجىء به دواما فى مثل هذه الساعة لعله يفوز منها بنظرة اذا اتفق ودعاها الى السطح بعض شأنها ، ولم يكن تحقيقه يسيرا كما دل تورد وجهه الناطق بفرط سروره ، وخفقان قلبه المتتابع ببهجة مفاجئة ، فجعل ينصت الى أخيه الصغير بعقل تائه وعينين أقلقهما استراق النظر ، وهى تتراءى تارة وتحتجب أخرى ، أو يبدو بعضها ويغيب بعضها ، كيفما اتفق موقفها من الثياب والملاءات المنشورة .. كانت فتاة متوسطة القامة صافية البشرة مع ميل الى البياض ، سوداء العينين ، تنطق مقلتاها بنظرة تفيض حياة وخفة وحرارة ، الا أن جمالها وعاطفته المتوثبة واحساسه بالظفر لرؤيتها لم تستطع أن تمحو القلق الذى يدب وراء قلبه — وانيا حين حضورها ثم قويا اذا خلا الى نفسه — لجرأتها على التعرض لعينيه كأنه ليس بالرجل الذى ينبغى أن تتوارى فتاة مثلها عن عينيه ، أو كأنها فتاة لاتبالى التعرض للرجال ، وطالما ساءل نفسه ما بالها لا تفزع مولية كخديجة أو عائشة لو وجدت احداهما نفسها فى مثل موقفها ! وأى روح عجيب يشذ بها عن التقاليد المرعية والآداب المقدسة ! ، وألا يكون أهدأ جانبا لو بدا منها ذاك الاحتشام المفتقد ولو على حساب سروره الذى يفوق الوصف برؤيتها ؟!.. بيد أنه دأب على انتحال الأعذار لها من قدم الجوار ووحدة النشأة ، وربما الوداد أيضا . ثم لا يفتأ وراء نفسه يحاورها ويجادلها حتى تخشع وترضى . ولما لم يكن جريئا كجرأتها فقد جعل يختلس من الأسطح المجاورة النظر ليطمئن الى خلوها من الرقيب لأنه لم يكن مما يغض الطرف عنه أن يجرح شاب فى الثامنة عشرة حرمة الجيران ، وخاصة من كان منهم فى طيبة جارهم السيد محمد رضوان ولهذا أقلقه دائما شعوره بخطورة فعلته ، وخوفه من أن يترامى نبأها الى أبيه فتكون الطامة . ولكن استهانة الحب بالمخاوف عجب قديم فلم

يقدر شيء منها على افساد نشوته أو انتزاعه من حلم ساعته ، فمضى يراقبها وهى تبدو أو تختفى حتى خلا مابينه وبينها وباتت تواجهه ويداها الصغيرتان ترتفعان وتنخفضان وأصابعها تنقبض وتنبسط على مهل وتؤدة كأنها تتعمد اطالة عملها وحدس قلبه ذلك التعمد وهو بين الشك والتمنى ولكنه لم يقتصد فى الانطلاق مع فرحته الى أبعد الآفاق حتى استحال باطنه رقصا وأنغاما ، ومع أنها لم ترفع عينيها اليه قط الا أن هيئتها وتورد وجنتيها وتحاميها النظر اليه نمت جميعا عن شدة احساسها بوجوده أو انعكاس وجوده على احساسها . وبدت فى هدوئها وصمتها موفورة الرزانة كأنها ليست هى هى التى تشيع الفرح والبهجة فى بيته اذا زارت شقيقتيه ، أو ليست هى هى التى يعلو صوتها فى جنبات الدار وترن ضحكاتها ، هنالك يقبع وراء باب حجرته وكتابه فى يده استعدادا للتظاهر بالاستذكار اذا طرقه طارق ، ويروح يستقبل بوعيه المركز أنغامها الناطقة والضاحكة بعد استخلاصها من أصوات الآخرين الملابسة لها التى لا يكاد يشعر بها كأنما وعيه مغناطيس يجذب اليه الصلب وحده من بين أخلاط شتى ، وربما لحظ بعضا منها وهو يعبر الصالة ، وربما التقت عيناهما فى لمحة خاطفة ولكنها كافية لاسكاره واذهاله كأنه تلقى بها رسالة خطيرة دار رأسه بخطورتها ، وملأ بنظراته المسترقة من وجهها عينيه وروحه ، فعلى الرغم من أنها كانت نظرات مسترقة خاطفة الا أنها مستأثرة بروحه واحساسه فكانت شديدة النفاذ والقوة تأتى النظرة منها بما لا يستطيعه النظر الطويل والسبر العميق ، كأنها انبثاق البرق الذى يتوهج لحظة قصيرة فتضىء شرارته الرحاب وتخطف الأبصار ، وثمل قلبه بسرور مسكر عجيب ولكنه لم يخل — كحاله أبدا — من ظل أسى يتبعه كما تتبع رياح الخماسين مشرق الربيع ، لأنه لم يكن يكف عن التفكير فى الأربعة الأعوام التى يتم تعليمه فيها ، والتى لا يدرى كم من يد قد تمتد فى

انثنائها الى الثمرة الناضجة لتقطفها . ولو كان جو البيت غير هذا الجو الخانق الذى تشد على عنقه قبضة أبيه الحديدية لأمكنه أن يلتمس الى سلام قلبه أقصر السبل ، ولكنه خاف دائما أن ينفس عن آماله فيعرضها لزجرة من أبيه قاسية تطيرها وتبددها . وتساءل وهو يمد بصره فوق رأس أخيه ترى أى أفكار تدور برأسها ؟ . ألا يشغله حقا الا ما تجمع من قطع الملابس ! .. ألم تشعر بعد بما يجذبه الى موقفه هذا مساء بعد مساء ؟ .. وكيف يلقى قلبها هذه الخطى الجريئة من ناحيته ؟ .. وتخيل نفسه متخطيا سور السطح الى مكانها فى الظلام ، وتخيلها على أطوار شتى تارة تنتظره على ميعاد ، وتارة تباغت بمقدمه حتى تهم بالفرار ، ثم تصور ما يكون بعد ذلك وما يند عنه من بوح وشكوى وعتاب ، ثم ما قد يستتبعه هذا أو ذاك من عناق وقبل ، بيد أنها كانت محض تخيلات وأوهام ، وكان أدرى الناس ــ بما جبل عليه من دين وآداب ــ ببطلانها ومحالها . وبدا الموقف صامتا الا أنه كان صمتا مكهربا يكاد ينطق بغير لسان ، وحتى كمال لاحت فى عينيه الصغيرتين نظرة حائرة كأنه يسائل نفسه عن معنى هذا الجد الغريب الذى يثير استطلاعه على غير جدوى ، ثم نفد صبره فرفع صوته قائلا :

ــ لقد حفظت الكلمات . ألا تسمعها لى ؟

وأفاق فهمى على صوته فتناول الكراسة منه ومضى يسأله عن معانى الكلمات والآخر يجيب حتى وقعت عيناه على كلمة عزيزة وجد بينها وبين ما كان فيه سببا وأى سبب فرفع صوته عمدا وهو يسأله عن معناها قائلا :

ــ قلب .. ؟

وأجاب الغلام وتهجى والآخر يتلمس أثر موقع الكلمة من وجهها ، ثم رفع صوته مرة أخرى متسائلا :

ــ حب ... ؟

وارتبك كمال قليلا ثم قال بصوت يدل على الاعتراض :
ـ ليست هذه الكلمة فى الكراسة ..
فقال فهمى باسما :
ـ ولكنى ذكرتها لك مرارا ، وكان يجب أن تحفظها .. !
وقطب الغلام كأنه يشد قوس حاجبيه لاصطياد الكلمة الهاربة ولكن أخاه لم ينتظر نتيجة محاولته وواصل امتحانه بنفس الصوت المرتفع قائلا :
ـ زواج .. ؟
وخيل اليه عند ذاك أنه لمح على شفتيها شبه ابتسامة فتوالت ضربات قلبه فى سرعة وحرارة ، وملأه شعور بالظفر لأنه أمكنه أخيرا أن ينقل اليها شحنة من الكهرباء التى تستعر فى صدره ، بيد أنه تساءل لماذا يا ترى لم تفصح عن تأثرها الا عند هذه الكلمة ، ألأنها استنكرت سابقتها أم أن الأخيرة كانت أول ما وعت أذناها ؟ !.. وما يدرى الا وكمال يقول محتجا بعد أن أعياه التذكر :
ـ هذه الكلمات صعبة جدا ..
وآمن قلبه بقولة أخيه البريئة ، وذكر على ضوئها حاله ففترت فورة سروره أو كادت ، وهم بالكلام ولكنه رآها انحنت على السلة ثم حملتها واتجهت نحو السور الملاصق لسطح بيته ووضعتها عليه وراحت تضغط الغسيل براحتيها ، قريبة من موقفه لا يفصلها عنه الا ذراعان ، ولو شاءت لاختارت موضعا آخر من السور ولكن كأنها تعمدت أن تتصدى له وجها لوجه ، فبدت فى هجومها جريئة لحد أخافه وأربكه ، وان عاود قلبه الخفقان السريع الحار حتى شعر بأن الحياة تبيح له من كنوزها لونا جديدا لم يدره ، لطيفا بهيجا مفعما حيوية وأفراحا. ولكن وقفتها القريبة لم تطل فما لبثت أن رفعت السلة بين يديها واستدارت مولية صوب باب السطح حتى مرقت منه وغابت عن ناظريه . وجعل ينظر الى الباب مليا دون مبالاة بأخيه الذى عاود التشكى من

صعوبة الكلمة ثم شعر برغبة فى الانفراد لتملى ما استجد له من تجارب الهوى فقلب عينيه فى الفضاء فى تظاهر بالدهشة كأنما يتنبه الى الظلمة الزاحفة فى الأفق لأول مرة ، وتمتم قائلا :

— آن لنا أن نعود . .

— ١١ —

وكان كمال يستذكر دروسه فى الصالة ، تاركا حجرة الاستذكار لفهمى وحده ، ليكون غير بعيد عن مجلس أمه وأختيه . وكان ذلك المجلس امتدادا لمجلس القهوة الا أنه يقتصر على النسوة وحديثهن الخاص الذى يجدن فيه على تفاهته متعة لا تدانيها متعة ، وقد جلسن كعادتهن متلاصقات كأنهن جسم واحد ذو رءوس ثلاثة فى حين تربع كمال على كنبة أخرى قبالتهم فاتحا كتابه فى حجره يقرأ فيه حينا ، ويغمض عينيه ليحفظ عن ظهر قلب حينا آخر ، ويتسلى بين هذا وذاك بالنظر اليهن والاصغاء لحديثهن . ولم يكن فهمى يوافق على استذكاره لدروسه بعيدا عن مراقبته الا على كره ولكن تفوق الغلام فى المدرسة شفع له فى اختيار المكان الذى يحب أن يستذكر فيه . والحق كان اجتهاده فضيلته الوحيدة التى تحمد له ، ولولا شقاوته لاستحق عليها تشجيع أبيه نفسه ، ولكنه على اجتهاده وتفوقه كانت تلم به ساعات ملل فيضيق بالعمل والنظام حتى ليغبط أمه وأختيه على خلو بالهن وما يحظين به من راحة وسلام ، وربما تمنى فيما بينه وبين نفسه لو كان حظ الذكور فى هذه الدنيا كحظ النساء الا أنها كانت ساعات عابرة فلم تستطع أن تنسيه ما يتمتع به من مزايا دعته فى أحايين كثيرة الى التطاول عليهن بالفخر والمباهاة لداع ولغير ما داع فلم يكن من النادر أن يسألهن وفى صوته رنة التحدى

« من منكن تعرف عاصمة الكاب ؟ » أو « ما معنى شاب بالانجليزية ؟ » فيجد من عائشة صمتا لطيفا على حين تقر له خديجة بجهلها ثم تعرض به قائلة « ليس لهذه الطلاسم الا من كان له رأس كرأسك ! » أما أمه فتقول له فى ايمان ساذج « لو علمتنى هذه الأشياء كما تعلمنى الديانة لما قصرت فيها دونك » . ذلك أن أمه ـ على استكانتها ورقتها ـ كانت شديدة الاعتزاز بثقافتها الشعبية المتوارثة عن أجيال متعاقبة منذ القدم ، ولم تكن تظن أنها بحاجة الى مزيد من العلم أو أنه استجد من العلم ما يستحق أن يضاف الى ما لديها من معارف دينية وتاريخية وطبية ، وضاعف من ايمانها بها أنها تلقتها عن أبيها أو فى بيته الذى نشأت فيه ، وكان الأب شيخا من العلماء الذين فضلهم الله ـ لحفظهم القرآن ـ على العالمين ، فلم يكن معقولا أن تعدل بعلمه علما ولو لم تجهر برأيها ايثارا للسلامة . ولهذا كثيرا ما أساءت الظن ببعض ما يقال للأبناء فى المدارس ووجدت ثمة حيرة شديدة سواء فى تفسيره أو فى السماح بتلقينه للناشئين ، بيد أنها لم تعثر باختلاف يذكر بين ما يقال للغلام فى المدرسة عن أمور الدين وبين ما لديها منها ، ولما كان الدرس المدرسى لا يكاد يتسع الا لقراءة السور وتفسيرها وتبيين المبادىء الدينية الأولية فقد وجدت متسعا لقص ما عندها من أساطير لا تنفصل فى اعتقادها عن حقيقة الدين وجوهره بل لعلها رأت فيها دائما حقيقة الدين وجوهره ، وجلها معجزات وكرامات عن النبى والصحابة والأولياء ، وتعاويذ شتى للوقاية من العفاريت والزواحف والأمراض فصدقها الغلام وآمن بها ، لأنها صادرة عن أمه من ناحية ، ولأنها جديدة فى موضوعها فلم تتعارض مع معارفه الدينية المدرسية من ناحية أخرى . وفضلا عن هذا وذاك فلم تكن عقلية مدرس الديانة كما تتكشف فى تبسطه فى الحديث أحيانا ـ لتختلف عن عقلية أمه كثيرا أو قليلا ، ثم أنه شغف بالأساطير شغفا لم يظفر بمثله فى الدروس الجافة فكان درس أمه من أسعد

ساعات اليوم وأحفلها بالمتعة والخيال . أما فيما عدا الدين فلم يكن النزاع نادرا اذا تهيأت أسبابه ، من ذلك أنهما اختلفا مرة عن الأرض وهل هى تدور حول نفسها فى الفضاء أو تنهض على رأس ثور ، ولما وجدت من الغلام اصرارا تراجعت متظاهرة بالتسليم ، ولكنها تسللت الى حجرة فهمى وسألته عن حقيقة الثور الذى يحمل الأرض وهل ما زال على عهده بحملها . ورأى الشاب أن يترفق بها ويجيبها باللغة التى تحبها فقال لها أن الأرض مرقوعة بقدرة الله وحكمته ، وعادت المرأة قانعة بهذا الجواب الذى سرها وان له يمح من مخيلتها ذاك الثور الكبير . على أن كمال لم يؤثر هذا المجلس لاستذكاره رغبة منه فى الفخر بعلمه أو حبا فى النزاع الفكرى ، كان فى الحق يحب بكل قلبه ألا يفارقهن ولو فى وقت عمله ، وكان يجد لمرآهن سرورا لا يعادله سرور . فهذه الأم يحبها أكثر من أى شيء فى الدنيا ولا يحتمل تصور الوجود بدونها لحظة واحدة ، وهذه خديجة وهى تلعب فى حياته دور أم أخرى رغم سلاطة لسانها ووخز مزاحها ، وهذه عائشة التى وان لم تتحمس يوما لخدمة انسان الا أنها أحبته حبا عظيما فبادلها حبا يحب حتى كان لا يشرب جرعة الماء من القلة الا اذا دعاها للشرب قبله ليضع شفتيه موضع شفتيها المبتل بريقها . ومضت الجلسة كما تمضى كل ليلة حتى قاربت الساعة الثامنة فقامت الفتاتان وودعتا أمهما وذهبتا الى حجرة نومهما ، وعند ذاك عجل الغلام بقراءة درسه حتى فرغ منه ثم تناول كتاب الديانة وانتقل الى جانب أمه على الكنبة المقابلة له وهو يقول لها بصوت ينم عن الاغراء :

ــ استمعنا اليوم الى تفسير سورة عظيمة ستعجبك جدا . .

فاستوت المرأة فى جلستها وهى تقول باحترام واجلال :

ــ كلام ربنا عظيم كله . .

وسره اهتمامها وهزه شعور بالغبطة والعزة لا يجده الا حين هذا الدرس الأخير من اليوم . أجل كان يجد فى هذا الدرس الدينى

أكثر من سبب للسعادة ، فانه يقوم فى أثناء نصفه على الأقل بدور المدرس ، ويحاول ما استطاع أن يستعيد ما يعلق بذاكرته من هيئة مدرسه وحركاته وما يتمثله فيه من احساس بالاستعلاء والقوة ، وانه يستمتع فى نصفه الآخر بما تلقيه عليه أمه من ذكريات وأساطير ، وأنه يستأثر وحده فى شطريه بأمه دون شريك . ونظر كمال فى الكتاب فيما يشبه الادلال ثم قرأ « بسم الله الرحمن الرحيم . قل أوحى الى أنه استمع نفر من الجن فقالوا أنا سمعنا قرآنا عجبا . يهدى الى الرشد فآمنا به ولن نشرك بربنا أحدا » حتى أتم السوره ولاح فى عينى الأم التردد والحيره ، اذ كانت تحذره من التفوه باسمى العفريت والجن درءا لشرور تذكر بعضها على سبيل التخويف وتمسك عن البعض اشفاقا ومبالغة فى الحيطة ، فلم تدر كيف تتصرف وهو يتلو أحد الاسمين الخطيرين فى سورة شريفة ، بل لم تدر كيف تحول بينه وبين حفظها أو ماذا تفعل لو دعاها كالمعتاد الى حفظها معه . وقرأ الغلام فى وجهها هذه الحيرة فداخله سرور ماكر ، وجعل يبدأ ويعيد ضاغطا على مخارج الاسم الخطير وهو يلحظ حيرتها متوقعا أن تفصح أخيرا عن اشفاقها فى لون من ألوان الاعتذار ، ولكنها على شديد حيرتها لاذت بالصمت ، فمضى يعيد عليها التفسير كما سمعه حتى قال :

— ها أنت ترين أن من الجن من استمع الى القرآن وآمن به ، فلعل سكان بيتنا من هؤلاء الجن المسلمين والا ما أبقوا علينا طوال هذا العمر .

فقالت المرأة فى شىء من الضيق :

— لعلهم .. ولكن من الجائز أن يكون بينهم غيرهم ، فيحسن بنا ألا نردد أسماءهم .. !

— لا خوف من ترديد الاسم .. هكذا قال مدرسنا ..

فحدجته المرأة بنظرة عتاب وقالت :

ـ المدرس لا يعرف كل شيء !

ـ وان كان الاسم ضمن آية شريفة ؟

وشعرت حيال تساؤله بقهر ولكنها لم تجد بدا من أن تقول :

ـ كلام ربنا بركة كله .

واقتنع كمال بهذا القدر ثم واصل حديثه عن التفسير قائلا :

ـ ويقول شيخنا أيضا أن أجسامهم من نار !

وبلغ بها القلق غايته فاستعاذت بالله وبسملت عدة مرات ، أما كمال فاستطرد قائلا :

ـ وسألت الشيخ هل يدخل المسلمون منهم الجنة فقال نعم فسألته مرة أخرى كيف يدخلونها بأجسام من نار فأجابنى بحدة قائلا ان الله قادر على كل شيء ..

ـ جلت قدرته ..

فرنا اليها باهتمام ثم تساءل :

ـ واذا التقينا بهم فى الجنة ألا تحرقنا نارهم ؟!

فابتسمت المرأة وقالت فى ثقة وايمان :

ـ ليس فيها أذى أو خوف ..

وسرح الغلام بعينيه حالما واذا به يسأل مغيرا مجرى الحديث فجأة :

ـ أنرى الله فى الآخرة بأعيننا ؟

فقالت المرأة بنفس الثقة والايمان :

ـ هذا حق لا ريب فيه ..

فلاحت فى نظرته الحالمة اشواق كما تلوح فى الغلس بتأثير الضياء ، وساءل نفسه متى يرى الله ، وفى أى صورة يتبدى ، واذا به يسأل أمه مغيرا مجرى الحديث فجأة مرة أخرى :

ـ أيخاف أبى الله ؟!

فتولتها الدهشة وقالت فى انكار :

ــ يا له من سؤال غريب ! .. أبوك رجل مؤمن يا بنى ، والمؤمن يخاف ربه ..

فهز رأسه فى حيرة وقال بصوت خفيض :

ــ لا أتصور أن أبى يخاف شيئا ..

فهتفت المرأة فى عتاب :

ــ سامحك الله .. سامحك الله ..

واعتذر عن قوله بابتسامة رقيقة ، ثم دعاها الى حفظ السورة الجديدة ، وراحا يتلوانها آية آية ويعيدان . ولما استفرغا جهدهما نهض الغلام ليذهب الى حجرة النوم فتبعته حتى اندس تحت الغطاء على فراشه الصغير ، ثم وضعت راحتها على جبينه وتلت آية الكرسى ، وانحنت فوقه وطبعت قبلة على خده فأحاط عنقها بذراعه ورد بقبلة طويلة صادرة من أعماق قلبه الصغير . وكانت تلقى دائما صعوبة فى التخلص منه عند توديعه مساء لأنه كان يبذل كل حيلته ليستبقيها الى جانبه أطول مدة ممكنة ان لم يفز باستبقائها حتى يغيب فى نومه وهو بين ذراعيها ، ولم يجد وسيلة لبلوغ غايته خيرا من أن يطلب اليها أن تتلو على رأسه ــ اذا ختمت آية الكرسى ــ سورة ثانية ثم ثالثة ، حتى اذا آنس منها ابتسامة اعتذار توسل اليها معتلا بخوفه من وحدته فى الحجرة أو بما يتراءى له به من أحلام مزعجة لا تدفعها الا تلاوة طويلة للسور الشريفة ، وربما تمادى فى تشبثه بها الى حد تصنع المرض ، غير واجد فى تحايله هذا جورا ، بل رآه عن يقين ممارسة منقوصة لحق من حقوقه المقدسة التى هضمت أفظع الهضم يوم فصل عن أمه ظلما وعدوانا وجىء به الى هذا الفراش المفرد بحجرة أخويه . كم يذكر مع الحسرة عهدا غير بعيد من ماضيه حين مضطجعهما كان واحدا ، وحين ينام متوسدا ذراعها وهى تسكب فى أذنه بصوتها الرقيق قصص الأنبياء والأولياء ، وحين النوم يغشاه قبل رجوع أبيه من سهرته ، وينحسر عنه بعد نهوض الرجل الى الحمام ، فلم يكن

يرى مع أمه ثالثا ، وكانت الدنيا له بلا شريك . ثم بقضاء أعمى لم يدر له حكمة فرقوا بينهما ، وتطلع اليها ليرى أثر نفيه فى نفسها فما عجب الا بتشجيعها الموحى بموافقتها وتهنئتها له قائلة « الآن صرت رجلا فمن حقك أن يفرد لك فراش خاص » ، من قال انه يسره أن يكون رجلا أو أنه يطمح الى أن يفرد له فراش خاص ! ؟ ومع انه بلل أول وسادة خاصة له بدمعه ، ومع أنه انذر أمه بأنه لن يعفو عنها مدى الحياة ، الا أنه لم يجرؤ على التسلل الى مضجعه القديم لأنه كان يعلم ان وراء تلك الحركة الجائرة الغادرة تجثم ارادة أبيه التى لا ترد ، ولشد ما حزن حتى رسبت عكارة الحزن فى أحلامه ، ولشد ما حنق على أمه ـ لا لأنه لم يسعه أن يحنق على أبيه فحسب ـ ولكن لأنها كانت آخر من يتصور أن يخيب عنده الأمل ، بيد أنها عرفت كيف تسترضيه وترده الى الصفاء رويدا ودأبت على ألا تفارقه بادىء الأمر حتى يوافيه النوم ، وجعلت تقول له « لم نفترق كما تزعم ، ألست ترانا معا ؟ وسنبقى دائما معا ، لن يفرق بيننا الا النوم الذى كان يفرق بيننا ونحن فى فراش واحد » . والآن لم تعد تطفو على شعوره حسرة مما تخلف عن تلك الذكرى ، واستنام الى حياته الجديدة ، الا أنه لم يكن يدعها تذهب حتى يستنفد الحيل لاستبقائها الى جانبه أطول مدة ممكنة ، وقد قبض على راحتها فى حرص شديد كما يقبض الطفل على لعبته بين أطفال يتخاطفونها وراحت هى تتلو الآيات على رأسه حتى غافله الكرى ، فودعته بابتسامة رقيقة وغادرت الحجرة واتجهت الى الحجرة التالية ففتحت بابها بخفة ونظرت صوب فراش لاح شبحه فى جانبها الأيمن وتساءلت فى رقة : « بتمنا ؟ » فجاءها صوت خديجة وهى تقول :

ـ كيف يتأتى لى النوم وشخير ست عائشة يملأ على الحجرة!

ثم سمع صوت عائشة وهى تقول فى نبرات ناعسة :

ــ ما سمع أحد لى شخيرا قط ، ولكنها لا تدعنى أنام بثرثرتها المتواصلة ..

فقالت الأم فى عتاب :

ــ أين وصيتى لكما بأن تكفا عن هذركما وقت النوم !

وردت الباب وسارت الى حجرة الاستذكار فطرقت بابها بخفة ثم فتحت وأدخلت راسها وهى تقول باسمة :

ــ أفى حاجة الى خدمة يا سيدى الصغير ؟

فرفع فهمى رأسه عن الكتاب وشكرها مشرق الوجه بابتسامة لطيفة ، فردت الباب وابتعدت عنه وهى تدعو لفتاها بالفلاح وطول العمر ، ثم عبرت الصالة الى الدهليز الخارجى وارتقت السلم الى الدور الأعلى حيث توجد حجرة نوم السيد ، وصوتها يسبقها تاليا الآيات ..

ــ ١٢ ــ

لما غادر ياسين البيت كان يدرى بطبيعة الحال وجهته التى يقصد مساء بعد مساء ولكنه بدا ــ كعادته دائما اذا مشى فى الطريق ــ وكأنه لا وجهة له . كان شأنه اذا سار أن يسير متمهلا فى هوادة ورفق ، مختالا فى عجب وزهو ، كأنه لا يغفل لحظة واحدة عن أنه صاحب هذا الجسم العظيم وهذا الوجه الفائض حيوية وفحولة ، وهذه الملابس الأنيقة الآخذة حظها ــ وأكثر ــ من العناية ، الى منشة عاجية لا تفارق يده صيفا أو شتاء ، وطربوش طويل مائل يمنة حتى يكاد يمس حاجبه ، ومن عادته أيضا اذا سار أنه كان يرفع عينيه ــ دون رأسه ــ مستطلعا ما وراء النوافذ لعل وعسى ، فلم يكن يقطع طريقا حتى يشعر فى نهايته بما يشبه

الدوار من كثرة تحريك عينيه ، اذ كان ولعه بالتهام النسوة اللاتى يصادفنه داء لا شفاء منه ، فهو ينفحصهن مقبلات ويتبع عينيه أردافهن مدبرات ، ويظل فى قلقه كثور هائج حتى ينسى نفسه فلا يعود يتدبر مداراة مقاصده . الأمر الذى تنبه له مع الزمن عم حسنين الحلاق والحاج درويش بائع الفول والفولى اللبان وبيومى الشربتلى وأبو سريع صاحب المقلى وغيرهم فمنهم من حمله محمل الدعابة ومنهم من أخذه مأخذ الانتقاد لولا أن الجيرة ومنزلة السيد أحمد عبد الجواد شفعتا له بالاعفاء والتسامح . كانت حيويته من العنف بحيث ملكت عليه فراغه كله ، فلم تدع له وقتا يستريح فيه من استفزازها ، وشعر دائما بألسنتها تلهب حواسه ووجدانه ، وكأنها عفريت يركبه ويوجهه حيث يشاء ، بيد أنه عفريت لم يخفه أو يضيق به ، ولم يود الخلاص منه ، بل لعله رام منه المزيد . ولكن سرعان ما توارى عفريته واستحال ملاكا لطيف حين اقترب الشاب من دكان أبيه ، هناك أغضى طرفه واستقامت مشيته ، وتحلى بأدب وحياء ، وحث خطاه لا يلوى على شيء ، ولما مر بباب الدكان التفت الى داخله فرأى خلقا كثيرين ولكنه التقى بعينى أبيه وهو جالس وراء مكتبه فانحنى فى اجلال رافعا يده الى رأسه فى أدب ، فرد الرجل تحيته مبتسما ، ثم استأنف مسيره مسرورا بهذه الابتسامة كأنما حظى بنعمة نادرة المثال . والحق أن عنف أبيه المعهود ، ولو أنه اعتوره تغير ملموس منذ أن انخرط الفتى فى سلك موظفى الدولة الا أنه لم يزل فى نظره نوعا من العنف الملطف بالكياسة ، فلم يزايل الموظف خوفه القديم الذى ملأ قلبه وهو تلميذ ، ولم يفارقه شعوره بأنه ابن وأن الآخر الأب ، وما فتىء يتضاءل بحضره على ضخامته كأنما يستحيل عصفورة يرعشها وقع الحصاة . وما أن ابتعد عن دكان أبيه وصار بمنجى من عينيه حتى استرد خيلاءه وعادت عيناه الى الذبذبة غير مفرقة بين الهوانم وبائعات الدوم أو البرتقال ، اذ

كان العفريت الذى يركبه مولعا بالنساء كافة ، متواضعا يستوى عنده الرفيع والوضيع منهن . فبائعات الدوم والبرتقال – على سبيل المثال – وان شابهن الأرض التى يقتعدنها لونا وقذارة لا يخلين أحيانا من ميزة حسن ، كثديين ناهدين أو عينين مكحولتين وماذا يروم غير هذا ؟!.. ثم اتجه صوب الصاغة ومنها الى الغورية ، ومال الى قهوة سى على على ناصية الصنادقية ، وكانت شبه دكان متوسطة الحجم يفتح بابها على الصنادقية وتطل بكوة ذات قضبان على الغورية وقد اصطفت بأركانها الأرائك . واتخذ مجلسه على أريكة تحت الكوه – مجلسه المختار منذ أسابيع – وطلب الشاى . جلس بحيث يوجه بصره فى يسر ودون اثارة ظن الى الكوة ، ومنها يصعده كلما يشاء الى نافذة صغيرة فى بيت على الجانب الآخر للطريق ، لعلها كانت الوحيدة بين النوافذ المغلقة التى لم يعن باحكام اغلاق خصاصها ، ولاعجب فقد كانت تابعة لمسكن زبيدة « العالمة » ولم تكن « العالمة » مطمحه فدون هذا مراحل من المجون عليه أن يجتازها فى صبر وأناة ، ولكنه راح يرصد ظهور زنوبة العواده ربيبة « العالمة » ونجمة تختها اللامعة . وكانت فترة توظفه بالحكومة عهداً حافلا بالذكريات جاءه بعد طول تقشف اجبارى عاناه محاذرا فى ظل أبيه الرهيب ، فانطلق من ثمة كالشلال يتحدر فى مهاوى الأزبكية على ما لاقى من مضايقات الجنود الذين قذفتهم عجلة الحرب الى القاهرة ، ثم ظهر فى الميدان الأستراليون فاضطر الى التخلى عن مغانى العبث فرارا من وحشيتهم وضاقت به السبل فمضى يتقلب فى أزقة حيه كالمجنون وأقصى ما يطمع فيه من لذة بائعة برتقال أو غجرية ممن يقرأن الطالع ، حتى رأى يوما زنوبة فتبعها مذهولا الى موطنها ، ثم تعرض لها مرة بعد مرة ولا يكاد يظفر منها بما يبل صدره . كانت امرأة وكل امرأة عنده رغيبة ، بيد أنها كانت الى هذا ذات حسن فهوسته ، وليس الحب لديه الا تلك

الشهوة العمياء أو هذه الشهوة المبصرة وهى أسمى ما عرف من ألوانه . وجعل يمد بصره خلال القضبان الى النافذة الخالية فى جزع وقلق أنسياه نفسه فحسا الشاى الساخن دون أن يتنبه الى سخونته الا وهو يزدرده وراح ينفخ متألما ، ثم اعاد القدح الى الصينية الصفراء مسترقا النظر الى السمار الذين أزعجته أصواتهم المرتفعة كأنما هى المسئولة عن لسعته أو أنها السبب فى عدم ظهور زنوبة بالنافذة .. « ترى أين الملعونة ؟ .. أتتعمد الاختفاء ! .. من المحقق أنها تعلم بوجودى هنا .. ولعلها رأتنى قادما .. فاذا اصطنعت التدلل الى النهاية ألحقت هذا اليوم بأيامى المحرقة » . وعاود استراق النظر الى الجلوس ليرى هل يلاحظه أحد منهم ولكنه وجدهم جميعا منهمكين فى أحاديثهم آلتى لا تنتهى ، فداخله ارتياح وأرجع بصره الى الهدف المرموق ، بيد أنه اعترضت تيار أفكاره ذكريات عن متاعب اليوم التى صادفته فى المدرسة اذ شك الناظر فى أمانة متعهد اللحوم فقام بتحقيق اشترك هو فيه بوصفه كاتب المدرسة ، ثم بدا منه شيء من التراخى فى عمله حمل الناظر على نهره مما نغص عليه صفوه بقية اليوم وجعله يفكر فى أن يشكو الناظر الى أبيه — وهما صديقان قديمان — لولا خوفه أن يجد أباه أشد عليه من الناظر .. « أطرح عنك هذه الأفكار السخيفة .. انتهينا من المدرسة والناظر عليهما اللعنة .. حسبى الآن ما ألاقى من القارحة بنت القارحة التى تبخل علينا بنظرة » واذا بأحلام عارية تنثال على خياله ، أحلام كثيرا ما تمثل على مسرح أوهامه وهو يرنو الى امرأة أو يستعيد ذكراها ، تخلقها عاطفة هوجاء تنزع عن الأجساد أغطيتها وتجلوها عارية كما خلقها الله غير مستثنية جسده هو ، ثم تمضى فى فنون من العبث لا عاصم لها ، ولكنه ما كاد يستنيم الى هذه الأحلام حتى انتبه على صوت حوذى وهو يصيح على حماره « يس » فرمى ببصره ناحية الصوت فرأى عربة كارو تقف أمام بيت العالمة . وتساءل ترى أجاءت

العربة لتحمل أفراد التخت الى فرح من الأفراح ؟.. ونادى صبى القهوة ودفع اليه الحساب متأهبا لمغادرة المكان فى أية لحظة اذا دعا داع . ومضت فترة انتظار وترقب ثم فتح باب البيت وبرزت امرأة من نسوة التخت وهى تجر رجلا أعمى مرتديا جلبابا ومعطفا وعوينات سوداء ومتأبطا القانون ، وصعدت المرأة الى العربة وتناولت القانون ثم أخذت بيد الأعمى ، وأعانه الحوذى من ناحية أخرى حتى لحق بالمرأة وجلسا متجاورين فى مقدمة العربة . وتبعتهما على الأثر امرأة ثانية تحمل دفا ، ثم ثالثة متأبطة صرة ، وقد تبدين فى ملاءاتهن اللف سافرات ، كاسيات ـ بدلا من البراقع ـ بأقنعة من زواق فاقع الألوان جعلهن بعرائس المولد أشبه . ثم ما هذا ! .. رأى يبصر شيق وقلب خافق العود وهو يبرز من الباب فى جرابه الأحمر .. وأخيرا بدت زنوبة وقد انحسر طرف ملاءتها عند أعلى الرأس عن منديل قرمزى ذى أهداب منمنمة ، لمعت تحته عينان سوداوان ضاحكتان تنفث نظرتهما لعبا وشيطنة . واقتربت من العربة ومدت يدها بالعود فتناولته امرأة ، ثم رفعت قدما الى أعلى العجلة فاشرأب ياسين بعنقه وهو يزدرد ريقه فلمح ثنية الجورب معقودة فوق الركبة على أديم بدا منه صفاء عذب خلال أهداب فستان برتقالى .. « آه لو تغوص بى الأريكة فى الأرض مترا .. ربَّاه .. ان وجهها أسمر ولكن لحمها المكنون أبيض .. أو شديد الميل للبياض .. فكيف يكون الورك !.. وكيف يكون البطن ! .. البطن يا هوه .. » وثبتت زنوبة راحتيها على سطح العربة وتحاملت عليهما حتى حطت ركبتيها على حافة العربة ثم مضت تتحرك رويدا على أربع .. « يالطيف .. يالطيف .. آه لو كنت على باب البيت .. أو حتى فى دكان محمد الطرابيشى .. انظر الى ابن الكلب كيف يحملق فى الطابية بعينيه .. ما أجدر أن يسمى نفسه منذ اليوم محمد الفاتح .. يالطيف .. يامنقذ .. » وأخذ ظهرها يستقيم حتى نهضت واقفة على سطح العربة ،

وفتحت الملاءة وقبضت على طرفيها وجعلت تهزها بيديها هزات متتابعات كأنها طائر يخفق بجناحيه ، ثم لفتها حول جسمها لفة محكمة وشت بدقائق تقاطيعه وتفاصيله وأبرزت ــ خاصة ــ عجيزة مدملجة رقراقة ، ثم جلست عند مؤخرة العربة فتكور ردفها تحت الضغط متبلورا ذات اليمين وذات اليسار فنعم الوسادة .. ونهض ياسين وغادر القهوة فوجد العربة قد تحركت فتبعها متمهلا وهو يلهث ويصر على أسنانه من شدة الانفعال . وراحت العربة تسير سيرتها المتمهلة المتراخية المتمايلة والنسوة على سطحها يتأرجحن معها يمنة ويسرة فركز الشاب عينيه فى وسادة العوادة ، يذهب معها ويجيء حتى خالها بعد حين ترقص. وكانت الظلمة قد بدأت تغشى الطريق الضيق وأخذت كثرة من الدكاكين تغلق أبوابها ، الى أن غالبية المارة كانت من جمهور العاملين العائدين الى بيوتهم منهوكى القوى فوجد ياسين بين الظلمة والجمهور المتعب متسعا لانعام النظر والأحلام فى أمن ودعة .. « اللهم لا تجعل لهذا الطريق من نهاية ، ولا لهذه الحركة الراقصة من ختام .. يا لها من عجيزة سلطانية جمعت بين العجرفة واللطف يكاد البائس مثلى يحس بطراوتها وشدتها معا بالنظر المجرد .. وهذا المفرق العجيب الذى يشطرها تكاد تنطق الملاءة عنده .. وما خفى كان أعظم .. انى أدرك الآن لماذا يصلى بعض الناس ركعتين قبل أن يبنى بعروسه .. أليست هذه قبة ؟ .. بلى وتحت القبة شيخ .. وانى لمجذوب من مجاذيب هذا الشيخ .. يا هوه .. يا عدوى .. » وتنحنح والعربة تقترب من بوابة المتولى فالتفتت زنوبة وراءها ورأته . ثم خيل اليه ، وهى تعيد رأسها ، أنه لمح على شفتيها بشير ابتسامة فدق قلبه فى عنف وسرت فى وجدانه سكرة سرور ملتهب . ومرقت العربة من بوابة المتولى ثم مالت الى اليسار ، وهناك اضطر الشاب الى التوقف عن متابعتها لأنه رأى عن كثب معالم زينات وأنوار وجمهورا مهللا فتراجع قليلا

وبصره لا يفارق العوادة ، وجعل يراقبهـا بنهم وهى تنزل على الأرض ، وهى ترمى ناحيته بنظرة عابثة ، ثم وهى تتجه الى بيت العروس حتى واراها الباب فى ضجة من الزغاريد . وتنهد تنهدة حامية ، ولفته حيرة خانقة فبـدا قلقا كأنه لا يدرى أى وجهـة يقصد .. « لعنة الله على الاستراليين ! .. أين انت يا أزبـكية لأبثك همى واشجانى وأتزود منك بشىء من الصبر » .. ثم دار على عقبيه وهو يتمتم « الى العزاء الباقى .. الى كستاكى » ، وما كاد ينطق باسم البدال اليونانى حتى تندى رأسه حنينا الى حميا الشراب .. كانت المرأة والخمر فى حياته متلازمتين متكاملتين ، ففى مجلس المرأة عاقر الخمر لأول مرة ، ثم صارت بحكم العادة من مقومات لذته وبواعثها ، بيد أنه لم يتح لهما ـ المرأة والخمر ـ أن يتلازما دائما ، وخلت ليال كثيرات من النساء ، فلم يجد بدأ من أن يخفف لوعته بالشراب ، ولكرور الأيام واستحكام العادة بات وكأنه المولع بالخمر لذاتها . وعاد من نفس الطريق الذى جاء منه ، وقصد بدالة كستاكى عند رأس السكة الجديدة ـ حانوت كبير ظاهره بدالة وباطنه حانة يفصل بينهما باب صغير ـ ووقف عند مدخلها مختلطا بالزبائن ريثما يتفحص الطريق أن يكون أبوه هنا أو هناك ، ثم أتجه صوب الباب الصغير الداخلى ولكن ما كاد يتقـدم خطوة حتى لمح فى طريقه رجلا واقفا أمام الميزان والخواجة كستاكى نفسه يزن له لفة كبيرة ، فانجذب رأسه اليه بلا ارادة ، وسرعان ما اكفهر وجهه وسرت فى بدنه رجفة قاسية تقبض لها قلبه خوفا واشمئزازا . لم يكن فى مظهر الرجـل ما يسبغ هـذه العواطف العدائية ، كان فى الحلقة السـادسة ، مرتديا جلبـابا فضفاضا وعمامة ، وقد ابيض شاربه وعلاه الكبر والوداعة ، الا أن ياسين واصل سيره مضطربا كأنما يفر قبل أن تقع عليه عينا الرجل ، ودفع باب الحانة بشىء من القوة ثم دخل تكاد تميد به الأرض ..

- ١٣ -

ارتمى على أول مقعد صادفه بعيد من الباب وقد بدا خائر القوى ساهما ، ثم دعا النادل وطلب دورق كونياك بنبرات نمت على نفاد صبره . وكانت الحانة بالحجرة أشبه ، تدلى من سقفها فانوس كبير ، وصفت بجنباتها موائد خشـــبية وكراسى خيزران جلس اليها نفر من أهل البلد والعمال والأفندية ، وتوسط المكان تحت الفانوس مباشرة مجموعة من أصص القرنفل . من عجيب أنه لم ينس الرجل ، وانه عرفه من النظــرة الأولى ، متى رآه آخر مرة ؟ .. لا يستطيع أن يجزم ، ولكن من المحقق أنه لم تقع عليه عيناه فى مدى اثنتى عشرة سنة الا مرتين احداهما التى زلزلتــه الآن . وقد تغير الرجل ما فى ذلك من شـــك فغدا شيخا هادئا وقورا ! .. ألا سحق الله المصادفة العمياء التى ألقت به فى سبيله . والتوت شفتاه تقززا وامتعاضا وشعر بمرارة الهـــوان تجرى فى ريقه . يا له من هوان مذل ما يكاد يفيق من دواره القديم بالعناء والعناد حتى ترده اليه ذكرى من الذكريات المعتمة أو مصادفة لعينة كالتى حدثت اليوم فينقلب ذليلا منكسرا .. ضائعا . وعلى رغمه حملقت عيناه فى الماضى البغيض ، بقوة الهياج المثار فى رأسه وقلبه ، فانشق الظلام عن أشباح شائهة طالما ناوشـــته كرموز للعذاب والـكراهية ، فميز من بينها دكان فاكهة يقوم على رأس عطفة قصر الشوق ، وطالعته صورة غامضة المعالم ، هى صورته وهو صبى . فرآه وهو يحث خطواته المتقاربة الى ذلك الدكان حيث استقبله ذلك الرجل ثم حمله قرطاسا مليئا بالبرتقال والتفاح فتناوله مسرورا وعاد به الى المرأة التى بعثته وانتظرت . الى أمه

دون غيره وا أسفاه . وانعكست الذكرى على جبينه عبوسة حنق وضيق . ثم استعادت مخيلته صورة الرجل فتساءل جزعا ترى أكان يعرفه لو وقعت عليه عيناه ؟ .. اكان يذكر فيه الصبى الصغير الذى عرفه قديما ابنا لتلك المرأة ؟ .. وقرصنه قشعريرة فزع فنخاذل جسمه البادن الفارغ وتضاءل فى حسه حتى استحال لا شىء . وجىء عند ذاك بالدورق والقدح فصب ونهل فى نهم وعصبية متعجلا حظ الشاربين من الانتعاش والنسيان . ولكن فجأة تراءى له من أعماق الماضى وجه أمه فلم يتمالك من أن يبصق . أيهما يلعن : الحظ الذى جعلها أمه أم جمالها الذى شغف كثيرين حبا وأحاطه بالكوارث ؟ ! .. والحق أنه لم يكن بوسعه أن يغير أمرا مما قدر عليه ، ولم يكن بوسعه الا أن يذعن للقضاء الذى هرس عزة نفسه ، أفليس من الظلم أن يكفر بعد ذلك عن حكم القضاء كأنه هو الجانى الأثيم ؟ ! .. ولم يدر لم استحق اللعنة ، فالأطفال الذين استقبلوا الدنيا فى حضانة أمهات مطلقات مثله غير قليلين ، وعلى خلاف أكثرهم وجد من أمه حنانا غير مشوب وحبا لا يعرف الحدود وتدليلا سابغا لا تشكمه رقابة أب فتمتع بطفولة سعيدة قوامها الحب واللين والدماثة . ولا تزال ذاكرته تحتفظ بالكثير من ذكريات البيت القديم بقصر الشوق ، كسطحه الذى يشرف على أسطح لا عداد لها ويرى مآذن وقبابا من نواحيه الأربع ، ومشربيته التى تطل على الجمالية حيث تمر ليلة بعد أخرى مواكب الزفاف تضيئها الشموع ويكتنفها الفتوات فينجلى أكثرها عن معارك تشتجر فيها النبابيت وتسيل الدماء . فى ذاك البيت أحب أمه حبا لا مزيد عليه وفيه شاعت فى قلبه روح الريبة الغامضة ، وفيه رمى الى صدره بالبذرة الأولى لنفور غريب ـــ نفور ابن من أمه ـــ التى قدر لها أن تنمو وتستفحل حتى انقلبت مع الزمن كراهية كالداء العضال . وكثيرا ما قال لنفسه انه ربما كان فى وسع الارادة القوية أن تتيح لنا أكثر من مستقبل واحد ولكننا لن يكون لنا ـــ

مهما أوتينا من ارادة ــ الا ماض واحد لا مفر منــه ولا مهرب .
والآن يتساءل ــ كما تساءل من قبل كثيرا ــ متى فطن الى أن أمه لم تكن الشخص الوحيد فى حياته ؟ ! . . بعيد جدا أن يعرف هذا على وجه اليقين ، وما يذكر الا أنه فى فترة ما من طفولتــه دعت حواسه شخصا جديدا كان يطرأ على البيت من حين لآخر ، ولعله ــ ياسين ــ كان يتطلع اليه بغرابة وشىء من الخوف ، ولعل الآخر بذل ما فى وسعه لايناسه وارضائه ، انه يحملق فى المــاضى على استكراه ونفور شديدين ، ولكنه وجد المقاومة لا تجدى ، كأنما ذاك الماضى دمل يود لو يتجاهله على حين لا تمسك يده عن جسه من آن لآخر . ثم أن هنالك أمورا لا يمكن أن تنسى . . ففى مكان ما ووقت بين النور والظلمة وتحت أعلى نافــذة أو باب مطعــم بمثلثات من الزجاج الأزرق والأحمر . . فى ذاك المكان يذكر أنه اطلع فجأة ــ فى ظروف قرضها النسيان ــ على ذلك الشخص الطارىء وهو كأنه يفترس أمه ، فما تمالك أن صرخ من أعماق قلبه وولول باكيا حتى أقبلت المرأة عليه فى اضطراب باد وراحت تطيب خاطره وتسكن ثائره . وانقطعت من شــدة الامتعاض عند ذاك سلسلة خواطره فقلب عينيه فيما حوله واجما ، ثم صب من الدورق فى القدح وشرب ، وقد لمح وهو يعيــد القدح الى موضعه نقطة من ســائل منداحة فوق طرف جاكتته فظنها خمرا وأخرج منديله وأنشــأ يدلكها ، ثم خطر له خاطر فتفحص ظاهر القــدح فرأى قطرات من الماء عالقة بأسفله فرجح عنده أن ما سقط على سترته ماء لا خمر واسترد طمأنينته ، . . ولكن أى طمأنينة خادعة ! لقد رجعت عيناه الى مرآة المــاضى البغيض . لا يذكر متى وقعت الواقعة السالفة ، ولا كم كان عمره حين وقوعها ، ولكنه يذكر بلا ريب أن الشخص المفترس لم ينقطع عن البيت القديم ، وانه كثيرا ما تودد اليه بما لذ له وطاب من ألوان الفاكهــة ، ثم كان يراه بعد ذلك فى دكان الفاكهة عند رأس العطفة اذا استصحبته أمه معها فى

مشوار ، وبسذاجة الأطفال كان يلفت نظرها اليه فكانت تجذبه في عنف بعيدا عنه وتمنعه من الايماء اليه حتى تعلم أن يتجاهله وهو في صحبتها بالطريق ، وازداد الشخص في نظره ابهاما وغموضا : ثم حذرته من أن يعود الى ذكره أمام خال عجوز كان وقتذاك على قيد الحياة ويزورهم من حين لآخر فاتبع تحذيرها وما يزداد الا حيرة . ولم يقنع الحظ منه بذاك القدر فكانت — أمه — اذا غاب الرجل عن البيت أياما يكون مبعوثا — اليه ليدعوه الى أن يحضر « الليلة » ! وكان الرجل يستقبله بلطف وود ويملأ له قرطاسا من التفاح والموز . ويحمله موافقته أو اعتذاره كيفما اتفق . ثم بلغ به الحال أنه كان اذا اشتاق الى لذيذ الفاكهة استأذن أمه في أن يذهب الى الرجل ليدعوه « الليلة » . ذكر هذا وجبينه يندى خزيا ، ثم نفخ في قهر ، ثم صب وجرع . ورويدا انبعثت الحميا في دمه ، وبدأت تلعب دورها الساحر في معاونته على حمل متاعبه .. « قلت ألف مرة انه يجب أن أدع الماضي مدفونا في قبره .. لا فائدة .. لا أم لي وحسبي امرأة أبي الرقيقة الطيبة .. كل شيء طيب ما عدا ذكرى قديمة بيدي أن أميتها .. ترى لم أجاري الحاحها على فأبعثها من قبرها حينا بعد حين ! .. لم ؟! .. سوء الطالع وحده الذي رمى بالرجل في طريقي اليوم ولكن مصيره أن يموت يوما .. أود أن يموت كثيرون .. لم يكن الرجل الوحيد .. بيد أن خياله الثائر واصل اسراءه في ظلمات الماضي رغم مقاومته النظرية ولكن على حال أخف توترا . أجل لم يعد في تلك القصة باللذات من بقية طويلة ، ولعلها — هذه البقية — تمتاز بما يضيئها من نور نسبي بعد عبور طور الطفولة المعتم . كان هذا في السنوات القلائل التي سبقت انتقاله الى حضانة أبيه ، وقد وجدت أمه الشجاعة لتصارحه بأن ذاك « الفكهاني » يتردد عليها طلبا ليدها ، وانها مترددة في قبوله ، وانها غالبا سترفض اكراما له ! . ترى أصدق ما قيل له ؟ .. هيهات أن يستوثق من تفاصيل ذكرياته ،

ولكنه كان بلا ريب يشرئب للادراك والفهم ، ويعانى نوعا من الريبة الغامضة التى تنكشف للقلب دون العقل ، ويكابد ألوانا من القلق اطار عن هامته حمامة السلام ، فتهيأت فى نفسه تربة لتلقى بذرة النفور التى صارت مع الأيام الى ما صارت اليه . ثم انتقل فى التاسعة من عمره الى حضانة أبيه الذى لم يكن رآه الا مرات معدودة تحاميا للاحتكاك بامه . انتقل اليه غلاما على الفطره لم يتلقن من مبادىء العلم كلمة واحدة ، ومضى يكفر عن سيئات التدليل الذى غلته به أمه فتلقى التعليم بنفس كارهة وارادة خائرة ، ولولا شدة السيد وطيبة جو البيت الجديد ما دفع الى النجاح فى الابتدائية بعد أن نيف على التاسعة عشرة من عمره . وبنمو عمره وادراكه حقائق الأشياء ، استعرض حياته الماضية فى بيت أمه وقلبها على وجوهها ، ملقيا عليها من خبراته الجديدة أنوارا فاضحة فتكشفت له الحقائق ببشاعتها ومرارتها . وكلما تقدم فى الحياة خطوة بدا له الماضى سلاحا مسموما منغرسا فى صميم نفسه وكرامته . وقد دأب أبوه بادىء الأمر على أن يسأله عن حياته فى بيت أمه ولكنه على حداثة سنه ، تحاشى نبش الذكريات المحزنة وغلب كبرياءه الجريح على الرغبة فى استثارة أهتمام أبيه وحب الثرثرة الذى يستهوى أمثاله من الغلمان ، ولزم الصمت حتى ترامى اليه نبأ غريب عن زواج أمه من تاجر فحم بالمبيضة فبكى الغلام طويلا ، واشتد ضغط السخط على صدره حتى فضفض فانطلق يحدث أباه عن « الفكهانى » الذى زعمت يوما أنها رفضت الزواج منه اكراما له !.. وانقطعت صلته بها من ذاك العهد ــ منذ احدى عشرة سنة ــ فلم يعد يدرى عنها شيئا الا ما ينقله اليه أبوه من حين لآخر كطلاقها من الفحام بعد انقضاء عامين على زواجها منه ، ثم زواجها من باشجاويش فى العام التالى لطلاقها ، تم طلاقها مرة أخرى بعد حوالى عامين الخ .. الخ .. وفى فترة قطيعتها الطويلة سعت المرأة كثيرا الى رؤيته ، فكانت ترسل الى

أبيه من يستأذنه فى السماح له بالذهاب اليها ، ولكن ياسين صد عن دعوتها بإباء ونفور شـديدين رغم نصح أبيـه له بالتسامح والعفو . والحق أنه وجد عليها موجدة حامية نابعة من صميم قلب جريح ، فأغلق دونها باب العفو والغفران وأقام وراءه متاريس حنق وكراهية مؤمنا الى هذا بأنه لم يظلمها ولكن أنزلها بحيث أنزلتها فعالها . . « امرأة . أجل ما هى الا امرأة . . وكل امرأة لعنة قذرة . . لا تدرى امرأة ما العفة الا حين تنتفى أسباب الزنا . . حتى امرأة أبى الطيبة ، الله وحده يعلم ماذا كان يمكن أن تكون لولا أبى! » وقطع عليه أفكاره صوت رجل علا قائلا « الخمر ؟ ! كلها فوائد ، ومن يقل غير هذا أقطع رأسه . . الحشيش والمنزول والأفيون كثيرة الضرر . . أما الخمر فكلها فوائد . . » فتساءل صاحبه « وما فوائدها ؟ » فقـال الرجل مستنكرا « وما فوائدهـا ! ما أعجب سؤالك !. . كلها فوائد كما قلت . . وأنت تعلم هذا وتؤمن به . . » فقال صاحبه « ولكن الحشيش والأفيون والمنزول مفيدة كذلك فيجب أن تعلم هذا وتؤمن به . . الناس جميعا يقولون هذا فهل تخالف الاجماع ؟ ! » وتريث الرجل قليلا ثم قال « كلها مفيدة اذن ، الكل ، الخمر والحشيش والأفيون والمنزول وما يستجد ! » فعاد صاحبه يقول بلهجة تنم عن ظفر « ولكن الخمر حرام ! » فقال الرجل محتدا « وهل ضاقت السبل ! ، زكـ . . حج . . أطعم المساكين . . أبواب التكفير واسعة والحسنة بعشر أمثالها . . »

وابتسم ياسين فى شىء من الارتياح ، أجل أمـكنه أخيراً أن يبتسم فى شىء من الارتياح . . « لتذهب الى الجحيم ، ولتـأخذ الماضى معها . . لست عن شىء مسئولا . . كل انسان ملوث فى هذه الحياة ومن يزح الستار ير عجبا . شىء واحد يهمنى جدا هو عقارها ، دكان الحمزاوى وربع الغورية والبيت القديم بقصر الشوق . . وانى أعد أمام الله اذا ورثته كاملا يوما أن أترحم عليها بلا أسف . . آه . . زنوبة . . كدت أنسـاك وما أنسـانيك الا

الشيطان . امرأة عذبتنى وامرأة النمس عنـدها العزاء .. آه يا زنوبة . ما علمت قبل اليوم أن باطنك بهذا اللون الرائق .. آف ينبغى أن أمحو الفكر من رأسى .. الحق أن أمى كالضرس الثائر ، لا يسكن حتى ينخلع ... »

ـ ١٤ ـ

جلس السيد أحمد عبد الجواد وراء مكتبه بالدكان تعبث أنامل يسراه بشاربه الأنيق كشأنه كلما جرفه تيار خواطره ، ويرنو الى لا شيء بوجه تنم معالمه عن ارتياح ورضى . انه يرضيه بلا ريب أن يشعر بما يكنه له الناس من حب ومودة ، ولو عرض له من حبهم دليل كل يوم لأوجد له كل يوم سرورا مشرقا لا يبليه التكرار ، وقد واتاه اليوم دليل جديد بسبب أضطراره الى التخلف ليلة الأمس عن شهود حفلة أنس دعاه اليها أحد الأصدقاء ، فما استقر به مجلسه بالدكان هذا الصباح حتى وافاه الداعى وبعض الاخوان من المدعوين وأوسعوه عتابا لتخلفه وحملوه تبعة ما ضاع عليهم من بهجة وطرب ، ثم قالوا ــ فيما قالوا ــ أنهم لم يضحكوا من قلوبهم كما تعودوا أن يضحكوا معه ، ولم يجدوا للشراب لذته التى يجدون فى منادمته ، وان مجلسهم خلا ــ على حد تعبيرهم ــ من روحه . وها هو يستعيد أقوالهم فى سرور وزهو لطفا كثيرا مما لاقى من خدة الملام من ناحيتهم وحرارة الاعتذار من ناحيته ، بيد أنه لم يخل من تأنيب ضمير حريص بطبعه على ارضاء الخلان ، بدار الى النهل من موارد الصداقة والمودة فى اخلاص وايثار ، فكاد يكدر صفوه لولا ما أشاعت ثورة الأحباب الناطقة بحبهم فى نفسه من أريحية الرضا والعجب ، أجل طالما كان الحب الذى

يجذبه الى الناس ويجذبهم اليه معينا لقلبه يغدق عليه ما يشاء من فرح بهيج وزهو برىء وكأنه خلق للصداقة قبل كل شىء . وثمة آية أخرى على هذا الحب ـ والأصدق أن يقال انه حب من نوع آخر ـ تجلت له ضحى اليوم حين ألمت به أم على الخاطبة وقالت له بعد حديث دارت فيه حول غرضها ما شاء لها الدوران « ألا تعلم أن ست نفوسه أرملة الحاج على الدسوقى تملك سبعة دكاكين فى المغربلين ؟ » وابتسم السيد ، وفطن بالغريزة الى ما تومىء اليه المرأة ، وحدثه قلبه بأنها ليست خاطبة فحسب هذه المرة ولكنها رسول موصى بالكتمان ، ألم يخيل اليه فى أكثر من مناسبة أن الست نفوسة تكاد تعلن عن ودها أثناء ترددها على دكانه لابتياع حوائجها ؟ . . بيد أنه أراد استدراج المرأة ولو على سبيل التفكه فقال لها باهتمام ظاهرى « عليك باختيار زوج صالح لها ، فما أعز المطلوب ! » ، وظنت أم على أنها بلغت الغاية فقالت « قد اخترتك من دون الرجال ، فما قولك ؟ » ، وضحك السيد ضحكة مجلجلة وشت بسروره وثقته بنفسه ولكنه قال بلهجة قاطعة « لقد تزوجت مرتين ، أخفقت فى الأولى ووفقنى الله فى الأخرى ، ولن أبطر بنعمة الله ». والحق أنه طالما تغلب على مغريات الزواج على كثرة ما تهيأ له من فرص مواتية ، بقوة ارادة لاتنثنى ، وكأنه لم ينس مثل أبيه الذى انزلق الى زيجات متلاحقة بلا وعى ، بددت ثروته وجرت عليه المتاعب ، ولم تبق له هو ـ عقبه الوحيد ـ الا على شىء من المال لا يغنى . ثم أنه من ربحه ودخله فى بسطة من العيش هيأت لأسرته هناء ورغدا وأتاحت له ما يشاء للانفاق فى مسراته وملاهيه فكيف يقدم على ما يخل بهذا الوضع البديع المتناسق الذى يكفل له الكرامة والحرية ؟! . أجل لم يجمع السيد ثروة ، لا لقصور فى وسائلها عن تجميعها ولكن لما طبع عليه من جود جعل انفاقها والاستمتاع بآثارها المعنى الوحيد لها الذى يؤمن به ، الى ايمان عميق بالله وفضائله ملأ نفسه طمأنينة وثقة

وآمنه من الخوف الذى يساور كثيرين عن أرزاقهم ومستقبلهم ؛ على أن صده عن مغريات الزواج لم يمنعه من السرور والزهو كلما رامته فرصة طيبة ، وبالتالى لم يستطع أن يتناسى أن سيدة جميلة كالست نفوسة توده بعلا لها ، وغلبت هذه الذكرى على خواطره فراح يراقب وكيله والزبائن بعينين غائبتين وأساريرحالمة باسمة ، وذكر ــ باسما أيضا ــ ما قال له صاحب من صحبه صباح اليوم وهو يعابثه معرضا بأناقته وتعطره « حسبك ، حسبك يا عجوز ! . . » عجوز ؟ ! . . انه فى الخامسة والأربعين حقا ، ولكن ما قول العاذل فى هذه القوة العارمة والصحة الدافقة والشعر السبط اللامع السواد ! لم يهن احساسه بالشباب ولا تراخى ، وكأن فتوته ما تزداد مع الأيام الا قوة ، الى أن مزاياه لم تكن لتغيب عنه ، بل كان على تواضعه وسماحة نفسه شديد الشعور بها ، منطويا فى أعماقه على زهو وعجب ، يحب الثناء حبا جما ، وكأنه بتواضعه ولطفه يستزيد منه ويحث الرفاق بمكر حسن عليه ، ولكن مع أن ثقته بنفسه بلغت حد الاعتقاد بأنه خير الرجال قوة وبهاء وظرفا وكياسة الا أنه لم يثقل أبدا على أحد من الناس ، لأن تواضعه كان طبعا وسجية كذلك ، ولأنه نبع من فطرة تسيل بشاشة واخلاصا وحبا ، والحق أنه كان ينزع بفطرته الى أن يحب كما يحب ، ولا يمسك عن نشدان المزيد من الحب ، فاتجهت طبيعته بوحى من غريزته الظامئة للحب الى الاخلاص والوفاء والصفاء والتواضع ، تلك السجايا التى تجذب الحب والرضا كما تجذب الزهور الفراش ، ومن هنا استوى أن يقال أن تواضعه كياسة أو طبيعة والأصح أن يقال أنه طبيعة تستمد كياستها من وحى الغريزة لاتدبير الارادة ، فتجلت طبعا بسيطا لاتكلف فيه ولاتعمل، ولذلك كان السكوت عن فضائله ومواراة مزاياه بل والتندر بعيوبه وهناته التماسا للعطف والحب أحب اليه من نشرها والمباهاة بها اللذين يجران عادة الى الاستفزاز والحسد ، وهى كياسة سديدة

دفعت المحبين الى التنويه بما يفضى عنه حكمة وحيـاء ، وأذاعت سجاياه على نحو لم يكن ليقدر عليه بنفسه دون التضحية بأجمل جوانب شخصيته ، وبما يحظى من جاذبيـة وحب لا تشـوبهما شائبة . وبهذا الوحى الغريزى نفسـه استهدى حتى فى جانب حياته الماجن ، فى مجالس أنسه وطربه ، فلم يتخل فيها ـ مهما لعب الشراب برأسه ـ عن لباقته وكياسته ، ولو شاء ، بما أوتى من خفة الروح وحضور البديهة وحلاوة الفكاهة وحدة السخرية ، لاكتسح السمار بلا عناء ، ولكنه كان يدير مجالس الأنس بمهارة وأريحية تفسح المجال لكل سـامر ، ويشجع أهل الدعابة وان خالفهم التوفيق بضحكاته المجلجلة ، الى حرصه الشديد على ألا يخلف مزاحه فى نفس جرحا ، فان اضطره الموقف الى الحملة على قرين داوى عواقب حملته بتشجيعه والتودد اليه ولو بالسخرية من نفسه ، فلا ينفض المجلس الا وقد حظى كل سامر من أطايب ذكرياته بما يشرح الصـدر ويستأثر الفؤاد . على أن كياسـته الفطرية أو فطرته الكيسة ، لم تقتصر آثارها الطيبة على حياته الضاحكة فحسب ، ولكنها امتدت الى جوانب هامة من حيـاته الاجتماعية ، فأعلنت عن نفسها أروع اعلان فى كرمه المأثور ـ سواء ما يتجلى منه فى الولائم التى يدعو اليها من حين لآخر فى البيت الكبير أو فى الهبات التى ينفح بها المحتاجين ممن يتصلون بعمله أو بشخصه ـ وفى شهامته ومروءته ونجدته التى فرضت له على أصدقائه ومعارفه نوعا من الوصاية المشربة بالحب والوفاء يفيئون اليها اذا دعت الضرورة الى المشورة أو الشفاعة أو الخدمة فيما يعرض لهم من هموم العمل والمال أو شئون المسائل الشخصية والعائلية كالخطبة والزواج والطلاق ، أجل ارتضى لنفسه وظائف يؤديها بلا أجر ـ غير الحب ـ فكان سمسارا ومأذونا ومحكما ، ثم وجد دائما فى أدائها ـ على مشقته ـ حياة مليئة بالبهجة والغبطة . مثل هذا الرجل الذى تجود نفسه بفضـائل اجتماعية كثيرة ثم

يطويها كأن فى نشرها أذى وأى أذى ، مثل هذا الرجل يكون خليقا ــ اذا خلا الى خواطره وانقشع عنه الحياء الذى يتولاه حيال الناس ــ بأن يتملى مزاياه طويلا ويستسلم لزهوه وعجبه . لذلك راح يستعيد عتاب أصدقائه المحبين ودعوة أم على الخاطبة بلذة وسرور وانشراح تعانقت فى قلبه عن نشوة خالصة حتى تطفلت على خلوته لذعة أسف فمضى يحدث نفسه .. « نفوسة هانم سيدة ذات مزايا لا يستهان بها ... يتمناها كثيرون ولكنها رغبت فى أنا ... بيد أننى لن أتزوج ، هذا أمر مفروغ منه ... وليست هى بالمرأة التى تقبل أن تعاشر رجلا بغير زواج .. هذا أنا وهذه هى فكيف يمكن أن نلتقى ! .. ولو صادفتنى فى غير هذه الأيام التى سد فيها الأستراليون علينا المنافذ لهان الأمر ولكنها تصدت لنا ونحن فى حاجة اليها فوا أسفاه .. »

وقطع عليه أفكاره وقوف حانطور أمام مدخل الدكان فمد بصره مستطلعا فرأى العربة وهى تميل ناحية الدكان تحت ضغط امرأة هائلة مضت تغادرها فى بطء شديد على قدر ما تسمح طيات لحمها وشحمها وقد سبقتها الى الأرض جارية سوداء فمدت لها يدها لتعتمد عليها فى أثناء نزولها . وكالمحمل وقفت مليا وهى تتنهد كأنها تستجم من عناء النزول ، وكالمحمل راحت تتمايل وتتخطر الى ناحية الدكان بينما علا صوت الجارية فى لهجة شبه خطابية لتعلن عن مولاتها :

ــ وسع يا جدع انت وهو للست زبيدة ملكة العوالم ..

وندت عن الست زبيدة ضحكة مسجوعة وقالت تخاطب الجارية بلهجة تنم عن زجر كاذب :

ــ الله يسامحك يا جلجل .. ملكة العوالم مرة واحدة ! .. هلا عرفت فضيلة التواضع !

وهرع اليها جميل الحمزاوى مفتر الثغر عن ابتسامة عريضة وهو يقول :

ـ أهلا وسهلا ، كان حقا علينا أن نفرش الأرض بالرمل . .

ونهض السيد وهو يتفحصها بنظرة تنم عن دهشة وتفكير ثم قال متمما تحية وكيله :

ـ بل بالحناء والورد ولكن ما حيلتنا والحظ يقبل اذا أقبل غير مسبوق ببشير ؟ . .

ورأى السيد وكيله وهو يتجه الى كرسى ليأتى به فسبقه اليه بخطوة واسعة بدت كالوثبة فتنحى الرجل جانبا وهو يدارى ابتسامة ، وقدم السيد لها الكرسى بنفسه وهو يومىء براحته مرحبا كأنه يقول لها « تفضلى » بيد أن راحته انبسطت ـ ربما بلا شعور منه ـ لآخر طاقتها وانفرج ما بين أصابعه حتى صارت يده كالمروحة ، ولعله تأثر فى بسطها بما تركه فى خياله منظر العجيزة الهائلة التى ستملأ مقعد الكرسى وتفيض عن جوانبه حتما .. وشكرته المرأة بابتسامة من وجهها الذى أسفر حسنه بغير حجاب ، وجلست وهى تشع بزواقها وحليها نورا ، ثم التفتت الى جاريتها وخاطبتها قائلة وهى تعنى بالخطاب غيرها :

ـ ألم أقل لك يا جلجل انه ليس ثمة ما يدعونا للتخبط هنا وهناك لابتياع حوائجنا وعندنا هذا الدكان الفاخر ؟

فأمنت الجارية على قول سيدتها قائلة :

ـ صدقت كعادتك يا سلطانة ، لماذا نذهب بعيدا وعندنا السيد الكريم أحمد عبد الجواد . . !

فتراجع رأس الست كأنما هالها ما صرحت به جلجل وألقت عليها نظرة استنكار ثم رددت عينيها بين السيد والجارية لتشهده على استنكارها وقالت وهى تدارى ابتسامة :

ـ واخجلتاه ! . . حدثتك عن الدكان يا جلجل لا عن السيد أحمد . . !

وشعر فؤاد السيد الذكى بالجو الودى الذى ينفثه حديث المرأة فاندمج فيه بغريزته المتوثبة وتمتم باسما :

ـ الدكان والسيد أحمد شيء واحد يا سلطانة .
فرفعت حاجبيها فى دلال وقالت بعناد لطيف :
ـ ولكنا نريد الدكان لا السيد أحمد . .
وبدا أن السيد أحمد لم يكن الشخص الوحيد الذى شعر بالجو الطيب الذى خلقته السلطانة ، فهذا جميل الحمزاوى كان يراوح بين مساومة الزبائن واستراق النظر الى ما تيسر من جسم العالمة ، وهؤلاء الزبائن جعلوا يجيلون ابصارهم بين البضائع لتمر فى الذهاب والاياب بالست ، بل بدا أن الزيارة المباركة قد لفتت بعض الأنظار فى الطريق فرأى السيد أن يقترب من السلطانة وأن يولى الباب والقوم ظهره العريض ليحول بينها وبين تطفل المتطفلين ، بيد أن هذا لم ينسه ما كان فيه من أسباب الحديث فقال يصل منه ما انقطع :
ـ قضى الله جلت حكمته أن يكون الجماد أحيانا اسعد حظا من الانسان . .
فقالت بلهجة ذات معنى :
ـ أراك تغالى ، لن يكون الجماد اسعد حظا من الانسان ، ولكنه كثيرا ما يكون أجل فائدة . .
فتقبها السيد بعينيه الزرقاوين وقال متظاهرا بالدهشة :
ـ أجل فائدة ! . . (ثم مشيرا الى الأرض) . . هذا الدكان ! . .
فوهبته ضحكة قصيرة عذبة ولكنها قالت بلهجة لا تخلو من خشونة مدبرة :
ـ أريد سكرا وبنا وأرزا فهل يغنى الانسان فيها عن الدكان شيئا ! . . (وبنبرات اختلط فيها عدم الاكتراث بالدلال) . . ثم ان الرجال أكثر من الهم على القلب . .
وكان السيد قد تفتحت له من الطمع ابواب ، وشعر بأنه مقبل على شيء أجل خطرا من البيع والشراء ، فقال محتجا :

ـ ليست كل الرجال سـواء يا سلطانة ، فمن قال لك أن الانسان لا يغنى عن الأرز والسكر والبن شيئا ؟! .. الانسان حقا من تجدين فيه الغذاء والحلاوة والكيف .. !

فساءلته ضاحكة :

ـ انسان أم مطبخ هذا ؟

فقال السيد بلهجة تدل على الظفر :

ـ لو نظرت من قريب لوجدت تشابها عجيبا بين الرجل والمطبخ .. فكلاهما حياة للبطون .. !

وغضت المرأة بصرها مليا ، وانتظر السـيد أن ترفعـه اليه موسوما بابتسامتها المشرقة ، ولكنها واجهته بنظرة رزينة فأحس لتوه أنها غيرت « السياسة » أو لعلها لم ترتح كل الارتياح لانزلاقها فعدلت عنه ثم سمعها تقول فى هدوء :

ـ أفادك الله ! .. ولكن حسبنا اليوم الأرز والبن والسكر ..

وتحول السيد عنها متظاهرا بالجد ودعا اليه وكيله ثم وصاه بصوت مرتفع بطلبات الست فأوحى مظهـره بأنه قرر هو أيضا العدول عن « التودد » والعودة الى « العمل » ، ولكنها لم تكن الا مناورة اسـتعاد على أثرها ابتسامته الهجومية وتمتم مخاطبا السلطانة :

ـ الدكان وصاحبه تحت أمرك !

وكان للمناورة أثرها فقالت المرأة فى دعابة :

ـ أريد الدكان وتأبى الا أن تجود بنفسك !

ـ نفسى بلا ريب خير من دكانى ، أو خير ما فى دكانى ..

فأشرق وجهها بابتسامة ماكرة وهى تقول :

ـ هذا يخالف ما سمعناه عن جودة بضاعتك .. !

فقهقه السيد قائلا :

ـ ما حاجتك الى السكر وفى لسانك هذه الحلاوة كلها ؟ !

وأعقب هذه المعركة الكلامية فترة سكون بدا فيهـا كلاهما

راضيا عن نفسه ، ثم فتحت العالمة حقيبتها وأخرجت مرآة صغيرة ذات مقبض فضى وراحت تنظر فى صورتها فمضى السيد الى مكتبه ووقف مستندا الى حافته وهو يتفرس فى وجهها باهتمام . والحق لقد حدثه قلبه حين وقعت عليها عيناه بأنها جادت بالزيارة لأمور غير الشراء والبيع ، ثم جاء حديثها باستجاباته الحارة مؤكدا لظنه ، فلم يعد أمامه الا أن يقرر من الآن هل يوصلها بتاريخه او يودعها الوداع الأخير . ولم يكن يراها لأول مرة ، فقد رآها مرات فى أفراح بعض الأصدقاء ، وعرف عن الرواة أن السيد خليل البنان اتخذها خليلة دهرا حتى انفصلا منذ عهد غير بعيد ، ولعل هذا ما جعلها تستبضع من دكان جديد ! . . وهى موفورة الحسن وان لم تعد منزلتها كعالمة المرتبة الثانية بين العوالم ، بيد أن المرأة تهمه أكثر من العالمة ، وانها لشهية لطيفة وبها من طيات اللحم والدهن ما يدفىء المقرور فى زمهرير الشتاء الذى غدا على الأبواب ، واعترض أفكاره مجىء الحمزاوى حاملا ثلاث لفات ، فتناولتها الجارية ، ودست الست يدها فى الحقيبة لتخرج النقود فيما بدا ، ولكن السيد أشار اليها محذرا وهو يقول :

ــ يا له من عيب . .

وتظاهرت المرأة بالدهشة وقالت :

ــ أى عيب يا سى السيد ! . . ليس فى الحق عيب . .

ــ هذه زيارة ميمونة يحق علينا أن نحييها بما هى أهله من الاكرام ، وهيهات أن نوفيها حقها . .

وكانت قد نهضت وهو يتكلم فلم تبد مقاومة جدية لكرمه ولكنها قالت :

ــ ولكن كرمك هذا سيجعلنى أتردد مرة ومرتين قبل أن أقصدك مرة أخرى . .

فقهقه السيد قائلا :

ــ لا تخافى ، انى أكرم الزبون فى المرة الأولى ثم أعوض

خسارتى فى المرات اللاحقة ، ولو بالسرقة ! هذا شعارنا نحن التجار .. !

فابتسمت الست ، ومدت له يدها قائلة :

ــ الكريم مثلك يسرق ولا يسرق .. أشكرك يا سيد أحمد .

فقال من كل قلبه :

ــ العفو يا سلطانة ..

ووقف ينظر اليها وهى تتبختر صوب الباب حتى صعدت الى العربة واتخذت مجلسها ، وجلست جلجل على المقعد الصغير قبالتها ، وتحركت العربة بحملها النفيس ، ثم غابت عن ناظريه . هنالك قال الحمزاوى وهو يقلب صفحة من دفتر الحساب :

ــ كيف يمكن أن يسدد هذا الحساب ؟ !

فألقى السيد على وكيله نظرة باسمة وقال :

ــ اكتب مكان الأرقام « بضائع أتلفها الهوى » ..

ثم غمغم وهو يمضى الى مكتبه « الله جميل يحب الجمال » ..

ــ ١٥ ــ

وحين المساء أغلق السيد الدكان وغادره تحف به المهابة ويتضوع منه عرف طيب ثم مضى صوب الصاغة ، ومنها الى الغورية حتى قهوة سى على فلحظ فى مروره بها بيت العالمة وما يكتنفه فرأى الدكاكين التى تمتد على جانبيه لا تزال مفتوحة وتيار السابلة فى تدفقه ، فواصل السير الى بيت أحد الأصدقاء حيث قضى ساعة ثم استأذن عائدا الى الغورية وقد غشيتها ظلمة فانقلبت كالمقفرة ، وجعل يقترب من البيت آمنا مطمئنا ، ثم طرق الباب وانتظر وهو يدقق النظر فيما حوله ولم يكن ثمة نور الا ما ترامى

من كوة بقهوة سى على ، ومصباح غازى على عربة يد عند منعطف السكة الجديدة . وفتح الباب وبدا شبح خادم صغيرة فبادرها متسائلا بصوت قوى غير متردد ليوحى بما يود من الصدق والثقة :

ــ الست زبيدة موجودة ؟

فرفعت اليه الخادم رأسها وسألته بدورها فى تحفظ أملته عليها ظروف وظيفتها :

ــ من أنت يا سيدى ؟

فقال بصوته القوى :

ــ شخص يروم الاتفاق معها على احياء ليلة ..

وغابت الخادم دقائق ثم عادت وهى تقول : « تفضل وأوسعت له فدخل ، ورقى وراءها فى سلم متقارب الدرجات انتهى به الى دهليز ثم فتحت له بابا فى مواجهته انتقل منه الى حجرة مظلمة فظل واقفا على كثب من المدخل وهو ينصت الى أقدام الخادم وهى تجرى ، ثم وهى تعود حاملة مصباحا ، وتتبعها بعينيه وهى تضعه على خوان وتجىء بكرسى الى وسط الحجرة وتقف عليه لتشعل المصباح الكبير المدلى من السقف ثم تعيد الكرسى الى موضعه وتحمل المصباح الصغير وتغادر الحجرة قائلة فى أدب « تفضل بالجلوس يا سيدى » . واتجه السيد الى كنبة فى صدر الحجرة وجلس فى ثقة وهدوء دلا على اعتياد هذا الموقف وأمثاله ، وطمأنينة الى الخروج منه بما يرضى ويطيب ، ثم خلع الطربوش وجعله على نمرقة تتوسط الكنبة ومد ساقيه فى ارتياح . رأى حجرة متوسطة الحجم نضدت بجنباتها الكنبات والمقاعد وفرشت أرضها بسجادة فارسية وقام حيال كل كنبة من كنباتها الثلاث الكبرى خوان مطعم بالصدف ، وقد أسدلت الستائر على نافذتيها وبابها فحبست فى جوفها شذا بخور سر به متسليا بالنظر الى فراشة راحت ترف على المصباح فى نشاط عصبى ، وانتظر بغبض وقت جاوزت فى أثنائه الخادم بالقهوة ، حتى ترامى الى أذنيه

وقع شبشب منغوم ذى دقات مدغدغة فتنبهت أعصابه وحدق الى الباب الذى سرعان ما امتلأ فراغه بالجسم المفصل الهائل وقد لف لفة شهوانية فى فستان أزرق . وما كادت عينا المرأة تقعان عليه حتى توقفت دهشة وهتفت :

ـ بسم الله الرحمن الرحيم ! .. أنت .. !

فجرى بصره على جسمها فى عجلة ونهم كما يجرى الفأر على جوال أرز ليجد لنفسه منفذا ، وقال باعجاب :

ـ بسم الله ما شاء الله .. ؟

فواصلت تقدمها بعد التوقف باسمة وهى تقول فى خوف مصطنع :

ـ عينك ! .. أعوذ بالله .. !

فنهض السيد مستقبلا يدها الممدودة بترحاب وتشمم شذا البخور بأنفه العظيم وقال :

ـ أتخافين الحسد وعندك هذا البخور !

فاستخلصت يدها من يده وتراجعت الى كنبة جانبية وجلست وهى تقول :

ـ بخورى خير وبركة ، انه أخلاط من أنواع شتى بعضها عربى وبعضها هندى أؤلف بينها بنفسى ، فهو جدير بأن يخلص الجسد من ألف عفريت وعفريت ..

فعاود السيد الجلوس قائلا وهو يلوح بيديه فى يأس :

ـ الا جسدى ! .. بجسدى عفاريت من نوع آخر لا يجدى معها البخور ، الأمر أجل وأخطر ..

فضربت المرأة صدرا ناهضا كالقربة وهتفت :

ـ ولكنى أحيى حفلات أفراح لا حفلات زار !

فقال السيد برجاء :

ـ سنرى ان كان لدائى عندكم شفاء !

وساد الصمت قليلا فجعلت السلطانة تنظر اليه فيما يشبه

التفكير وكأنما تستخبره عن سر حضوره وهل جاء حقا للاتفاق على احياء ليلة كما قال للخادم ؟ .. وغلبتها الرغبة فى الاستطلاع فسألته :

ـ فرح أم ختان ؟

فقال السيد باسما :

ـ لك ما تشائين !

ـ عندك مختون أم عروس ؟

ـ عندى كل شىء ...

فأنذرته بنظرة كأنما تقول له « كم أنت متعب ! » ثم تمتمت فى تهكم :

ـ نحن فى خدمتك على أى حال ...

فرفع السيد يديه الى قمة رأسه فى هيئة تنم عن الشكر وقال بوقار يناقض نواياه :

ـ عظم الله قدرك .. بيد أننى ما زلت مصرا على أن أترك لك الاختيار !

فتنهدت فى غيظ بالدعابة أشبه وقالت :

ـ انى أفضل أفراح العرائس بطبيعة الحال !

ـ ولكنى رجل متزوج ولا حاجة بى الى زفة من جديد .. !

فصاحت به :

ـ يا لك من رجل مهذار .. اذن فليكن ختانا ..

ـ ليكن ...

وتساءلت وهى تحاذر :

ـ وليدك ؟

فقال ببساطة وهو يفتل شاربه :

ـ أنا ! ...

فأطلقت السلطانة ضحكة مائعة وقررت العدول عن التفكير فى مسألة احياء الليلة التى خمنت خبيئتها وهتفت به :

ـ يا لك من رجل قارح ، لو طالتك يدى لقسمت ظهرك . .
فنهض السيد وأقبل عليها قائلا :
ـ لا أحرمتك رغبة قط . .
وجلس جانبها فهمت بضربه ولكنها ترددت ثم أمسكت فسألها بقلق . . .
ـ لماذا لم تتكرمى بضربى ؟
فهزت رأسها وقالت ساخرة :
ـ أخاف أن أنقض وضوئى . .
فتساءل فى لهفة :
ـ أأطمع اذن فى أن نصلى معا ؟ !
واستغفر الله فى سره عقب النطق بدعابته مباشرة لأن هذه وأن كان لا يقف به فى سكرة المجون عند حد الا أن قلبه لم يكن ليطمئن ويواصل ابتهاجه حتى يستغفر فى باطنه صادقا مما يعبث به لسانه مازحا . أما المرأة فتساءلت فى دلال ساخر :
ـ أتعنى ، يا صاحب الفضيلة ، الصلاة التى هى خير من النوم ؟
ـ بل الصلاة التى هى والنوم سواء . .
ولم تتمالك العالمة الا أن تقول ضاحكة :
ـ يالك من رجل مظهره الوقار والتقوى وباطنه الخلاعة والفجور ، الآن صدقت حقا ما قيل لى عنك . .
واستوى السيد فى جلسته فى اهتمام وتساءل :
ـ وماذا قيل ؟ ! . . اللهم اكفنا شر القيل والقال . .
ـ قالوا لى أنك زير نساء وعبد شراب . .
فتنهد بصوت مسموع يذيع به ارتياحه وقال :
ـ حسبته ذما والعياذ بالله . .
ـ ألم أقل لك انك قارح فاجر . ؟ !
ـ هى الشهادة لى بأنى حزت القبول ان شاء الله . .

فرفعت المرأة رأسها فى غطرسة وقالت :

ـ بعدك ! .. لست كمن عرفت من النساء ... ان زبيدة معروفة ولا فخر بعزة النفس ودقة الاختيار ..

فبسط السيد راحتيه على صدره ونظر اليها فى تحد مشرب باللطف وقال بطمأنينة :

ـ عند الامتحان يكرم المرء أو يهان ...

ـ من أين لك بهذه الثقة وأنت لم تختن بعد بشهادتك ؟

فقهقه السيد طويلا حتى قال :

ـ لا تصدقى يا ختونة ، وان كنت فى شك ...

ولكمته فى منكبه قبل أن يتم جملته فأمسك ثم أغرقا فى الضحك معا ، وسر بمشاركتها اياه فى ضحكه ، وحدس وراء ذاك ـ بعد ما جرى بينهما من تلميح وتصريح ـ لونا من الجهر بالرضا ثبتته فى وعيه بسمة دلال سالت بطرفها المكحول ، وراح يفكر فى أن يحيى هذا الدلال بتحية تليق به لولا أن قالت له محذرة :

ـ لا تحملنى على مضاعفة سوء الظن بك ..

فأعاده قولها الى تذكر ما رددته عن القيل والقال ، وسألها باهتمام :

ـ من الذى حدثك عنى ؟

فقالت باقتضاب وهى تلحظه بنظرة اتهام :

ـ جليلة ... !

وفجأه الاسم كأنه عاذل يطرق مجلسهما فابتسم ابتسامة دلت على حرجه . جليلة ، تلك العالمة المعروفة التى عشقها دهرا حتى فصل بينهما الشبع ثم عاشا وما زالا على مودة متبادلة على البعد ، بيد أنه كخبير بالنساء لم ير بدا من أن يقول فى لهجة صادقة :

ـ لعنة الله على وجهها وصوتها معا ! .. (ثم متهربا) .. دعينا من هذا كله ولنتكلم فى الجد ..

فتساءلت متهكمة :

ـ الا تستحق جليلة كلمة أرق وألطف ! .. أم هذا شأنك عند ذكر من قطعتهن من النساء ؟ !

وداخل السيد شيء من الحرج الا أنه ذاب فى موجة الزهو الجنسى التى أثارها فى نفسه حديث عشيقة جديدة عن عشيقة ولت ، وأخذ مليا بنشوة ظفر حلوة ثم قال بلباقة معهودة :

ـ لا يسعنى وأنا بمحضر من هذا البهاء أن أغادره الى ذكريات طويت ونسيت ...

وبالرغم من أن السلطانة حافظت على نظرتها التهكمية الا أنها استجابت للثناء كما بدا فى رفع حاجبيها ومداراتها لابتسامة خفيفة اندست الى شفتيها ، ولكنها خاطبته بازدراء قائلة :

ـ لسان تاجر يسخو بالحلاوة حتى ينال غرضه ..

ـ لنا الجنة نحن التجار بما يظلمنا الناس ..

وهزت كتفيها استهانة ثم سألته فى اهتمام غير خاف :

ـ متى رافقتها ؟

فلوح السيد بذراعه كأنه يقول « ماأبعده من زمن ! » ثم تمتم

ـ منذ أزمان وأزمان ...

فضحكت فى تهكم وقالت بنبرات تنم عن التشفى :

ـ فى أيام الشباب الذى مضى .. !

فرنا السيد اليها معاتبا ثم قال :

ـ بودى أن أمص من لسانك الأذى ..

ولكنها واصلت حديثها بنفس اللهجة قائلة :

ـ أخذتك لحما وتركتك عظاما ..

فأومأ اليها بسبابته محذرا وقال :

ـ انى من صلب رجال يتزوجون فى الستين ..

ـ بدافع العشق أم بدافع الخرف ؟ !

فقهقه السيد قائلا :

ـ يا ولية اتقى الله ودعينا نتكلم فى الجد ..

ــ الجد ؟ ! . . أتعنى احياء الليلة التى جئت تتفق عليها ؟
ــ أعنى احياء العمر كله . .
ــ كله أم نصفه ؟ !
ــ ربنا يقدرنا على ما فيه الخير . .
ــ ربنا يقدرك على الطيب . .
واستغفر الله فى سره مقدما ثم تساءل :
ــ نقرأ الفاتحة ؟
ولكنها نهضت بغتة متجاهلة دعوته وهتفت متظاهرة بالجزع :
ــ رباه . . سرقنى الوقت ولدى الليلة عمل هام . .
ونهض السيد بدوره ، ومد يده فتناول يدها ثم بسط راحتها المخضبة بالحناء ورنا اليها بشوق وافتتان ، واصر على احتفاظه بها رغم جذبها اياها مرة ومرتين ، حتى قرصته فى أصبعه ورفعت يدها الى شاربه وصاحت به مهددة :
ــ دعنى أو تخرج من بيتى بفردة شارب واحدة . .
ورأى ساعدها قريبا من فيه فزهد فى النقاش وقرب منه شفتيه رويدا حتى غاصتا فى لحمه الطرى فتطاير منه الى أنفه رائحة قرنفلية ذات طعم حلو ، ثم تنهد مغمغما :
ــ الى الغد ؟ !
فتخلصت من يده مقاومة من ناحيته هذه المرة ، وحدقت اليه طويلا ثم ابتسمت وتمتمت :
عصفورى يا امه عصفورى   لالعب وأورى له أمورى
وجعلت تردد « عصفورى يا امه » مرات وهى تودعه .
وغادر السيد الحجرة وهو يردد مطلع الاغنية بصوت منخفض ملؤه الوقار والرزانة كأنما يستخبر الألفاظ عما وراءها من معان . .

- ١٦ -

كان ما يطلق عليه بهو الحفلات ببيت العالمة زبيــدة بتوسط الدار كالصالة ، أوكأن الصالة بالفعل استجدت لها أغراض أخرى. ولعل أغراضه أنها كانت تقوم فيه ــ هى وجوقتها ــ بالتجارب الغنائية وحفظ الأغانى الجديدة ، وقد اختارته لبعده عن الطريق العام بما يفصل بينهما من حجرات النوم والاســتقبال . وجعله اتساعه ــ الى هذا ــ صالحا لاحياء الحفلات الخاصة ، التى تتراوح عادة بين الزار والغنــاء ، والتى تدعو اليها الخاصة من أصدقائها ومعارفهم المقربين . ولم يكن الباعث على هذه الحفلات أريحية كرم فحسب ــ ان كان ثمة كرم على الاطلاق فانه غالبا ما ينهض بأعبائها الأصــدقاء أنفسهم ــ ولــكنها رمت من ورائهــا الى الاكثار من الأصدقاء المتازين الخليقين بأن يدعوها لاحياء الحفلات أو يقوموا لها بالدعاية النافعة فى الأوساط التى يتقلبون فيها ، ومن بينهم ــ الى هذا كله ــ تنتقى الخليل بعد الخليل . وجاء دور السيد أحمد عبد الجواد ليشرف البهو الســعيد محاطا بالخاصة من معــارفه . والحق أنه تبدى عن نشاط جم عقب المقابلة الجريئة التى تمت بينه وبين زبيدة فى بيتها فسرعان ما حمل رسله كريم الهدايا من النقل والحلوى والهدايا ، الى مدفأة أوصى على صنعها ونقشــها وطليها بالفضة لتكون ــ جميعا ــ عربونا للمودة المقبلة ، ففى لقاء هــذا دعته السلطانة ، تاركة له الخيار فى دعوة من يشاء من أصدقائه ؛ الى حفلة تعارف تكريما للحب الجديد ــ ولشد ماكان البهو موسوما بطابع بلدى جذاب بكنباته المتلاصقة المزركشة النــاعمة الموحية بالنفاسة والخلاعة ، الممتدة على الجانبين حتى الصدر حيث يقوم

ديوان الست تكتنفه الشلت والوسائد المعدة للجوقة ، أما أرضه المستطيلة فمفروشة بسجاد متعدد الألوان والشكول ، وعلى كنصول يتوسط الجناح الأيمن — كالشامة رواء وصفاء — أقيدت الشموع منغرسة فى الفنايير ، غير مصباح ضخم يتدلى من قمة منور يتوسط سقف الحجرة ذى منافذ على سطح الدار تفتح فى الليالى الدافئة وتغلق بأضلاف زجاجية فى ليالى البرد .

جلست زبيدة متربعة على الديوان والى يمينها زنوبة العوادة ربيبتها ، والى يسارها عبده عازف القانون الضرير ، واستوت النسوة جلوسا عن يمين وشمال ما بين ممسكة بالدف أو ماسحة على الدربكة أو عابثة بالصنج . وآثرت السلطانة السيد أحمد بأول مجلس فى الجناح الأيمن ، واتخذ الباقون من صحبه مجالسهم بلا كلفة كأنهم أصحاب الدار ، ولا عجب فلم يكن الجو بالجديد عليهم ، ولا السلطانة بالتى يرونها لأول مرة . وقدم السيد أحمد أصحابه الى العالمة مبتدئا بالسيد على بائع الدقيق فضحكت زبيدة قائلة :

— ليس السيد على بالغريب فقد أحييت فرح كريمته فى العام الماضى ..

ثم تنى بالسيد تاجر النحاس ، ولما رماه أحدهم بأنه من رواد عبة كشر بادر الرجل قائلا :

— وجئت تائبا يا ست ..

وتتابع التعارف حتى تم ، ثم جاءت الجارية جلجل بأقداح الشراب ودارت على المدعوين ، ومضت النفوس تستشعر حيوية مشبعة بالأريحية والمرح ، وبدا السيد عريس الحفلة بلا منازع ، بهذا دعاه الأصدقاء ، وبهذا شعر فى أعماقه ، وقد وجد لذلك بادىء الأمر لونا من الارتباك قل أن يلم به ، فداراه بالاسراف فى الضحك والمرح ، حتى اذا أخذ فى الشراب زايله بلا عناء ، فاستعاد طمأنينته واندمج فى الطرب بكل قلبه . وجعل كلما لج به الشوق — والأشواق فى مغانى الطرب تثار — يمد بصره الى

سلطانة المجلس بنهم فيتلكأ ناظره عند طيات جسمها المكتنز ، فطاب قلبا بما أفاء عليه الحظ من نعمة ، وهنأ نفسه على ما يترقبها من لذيذ المسرات ، وهذه الليلة والليالى الأخريات . « عند الامتحان يكرم المرء أو يهان » ، هذا التصريح الذى تحديتها به ، يجب أن أكون عند كلمتى ، أية امرأة هى يا ترى ، وأى مدى مداها ، سأعرف الحقيقة فى الساعة المناسبة ثم ألبس لكل حال لبوسها ، لكى تضمن الانتصار على غريم ينبغى أن تفترض فيه الغاية من المناعة والبأس ، لن أحيد عن شعارى القديم وهو أن أجعل من لذتى أنا مطلبا ثانويا ومن لذتها هى الهدف والنهاية ، وبذلك تتحقق لذتى على أكمل وجه . ومع أن السيد لم يخبر من ألوان الحب ــ على وفرة مغامراته ــ الا الحب العضوى وحى اللحم والدم ، الا انه تدرج فى اعتناقه الى أرق صوره وأنقاها ، فلم يكن حيوانا بحتا ولكنه الى حيوانيته وهب لطافة احساس ورهافة شعور وولع مغلغل بالغناء والطرب ، فسما بالشهوة الى أسمى ما يمكن أن تسمو اليه فى مجالها العضوى . بهذه البواعث العضوية وحدها تزوج أول مرة ثم ثانى مرة ، أجل أثرت عاطفته الزوجية ــ بمرور الأيام ــ بعناصر جديدة هادئة من المودة والألفة ولكنها ظلت فى جوهرها جسدية شهوانية ، ولما كانت عاطفة من هذا النوع ــ خاصة اذا أوتيت قوة متجددة وحيوية دافقة ــ لا يمكن أن تستنيم الى لون واحد فقد انطلق فى مذاهب العشق والهوى كالثور الهائج ، كلما دعته صبوة استجاب لها فى نشوة وحماس . لم ير فى أية امرأة الا جسدا ، ولكنه لم يكن يحنى هامته لهذا الجسد حتى يجده خليقا حقا بأن يرى ويلمس ويشم ويذاق ويسمع ، شهوة نعم ولكنها ليست وحشية ولا عمياء ، بل هذبتها صنعة ، ووجهها فن فاتخذت لها من الطرب والفكاهة والبشاشة جوا واطارا . فلم يكن أشبه بشهوته من جسمه ، فهو مثلها فى الضخامة والقوة اللتين توحيان بالقسوة والوحشية ولكنه ــ مثلها

أيضـا ـ فيما ينطوى عليه فى أعماقه من لطف ورقة ومودة على ما يتسربل به أحيانا ـ متعمدا ـ من الصرامة والشـدة . ولذلك فلم يتركز فى خياله النشيط ـ وهو يلتهم السلطانة بنظراته ـ فى المضاجعة ونحوها ولـكنه تاه ـ الى هذا ـ فى أفانين من أحـلام اللهو واللعب والغنـاء والسمر . وأحست زبيـدة بحرارة عينيه فقالت تخاطبه وهى تقلب عينيها فى وجوه المدعوين بعجب ودلال :

ـ حسبك يا عريس ، هلا استحييت حيال رفاقك !

فقال السيد متعجبا :

ـ وما انتفاعى بالحياء حيال قنطار من اللحم والدهن :

فأطلقت العالمة ضحكة رنانة وتساءلت فى غاية من الانبساط .

ـ كيف ترون صاحبكم ؟

فقالوا فى نفس واحد :

ـ معذورا .. ؟ !

وهنـا حرك عازف القانون الضرير رأسه يمنـة ويسرة وقد تدلت شفته السفلى وتمتم :

ـ قد أعذر من أنذر ..

ومع أن « حكمته » لاقت ترحيبا الا أن الست التفتت نحوه كالغاضبة ولكزته فى صدره هاتفة :

ـ اسكت انت وسد فاك الذى يبلع المحيط ..

وتلقى الضرير الضربة ضاحكا ثم فتح فاه كأنما ليتكلم ولكنه أغلقه مرة أخرى مؤثرا السـلامة فوجهت المرأة رأسـها صوب السيد وقالت بلهجة تنم عن الوعيد :

ـ هذا جزاء من يجاوز حده ..

فقال السيد متظاهرا بالانزعاج :

ـ ولكنى جئت لأتعلم قلة الأدب ..

فدقت المرأة صدرها بيدها وصاحت :

ـ يا خبر ! .. أسمعتم قوله ؟ !

فقال أكثر من واحد منهم فى وقت واحد :

ــ انه خير ما سمعنا حتى الآن ..

وأضاف الى هذا أحد الرفاق قائلا :

ــ بل عليك بضربه اذا جاوز حدود قلة الأدب ..

وقال آخر مؤمنا على قوله :

ــ الزمى طاعته ما قل أدبه .

فتساءلت المرأة وهى ترفع حاجبيها لتعلن عن دهشة لا أثر لها فى نفسها :

ــ لحد هذا تحبون قلة الأدب !

فتنهد السيد قائلا :

ــ ربنا يديها علينا ..

فما كان من العالمة الا أن تناولت الدف وهى تقول :

ــ سأسمعكم شيئا أفضل ..

ونقرت عليه فيما يشبه العبث ، ولكن علا النقر فى حومة اللغو كالنذير حتى أسكته ، وداعب الآذان متوددا فبدل القوم حالا بعد حال ، تحفز أفراد الجوقة للعمل ، وفرغ السادة الكئوس ثم مدوا رءوسهم نحو السلطانة وساد المكان صمت يكاد ينطق من شدة التهيؤ للطرب . وأومأت العالمة الى الجوقة فانطلقت تعزف بشرف عثمان بك ، وراحت الرءوس تذهب مع الأنغام وتجىء ، وسلم السيد نفسه لرنين القانون الذى جعل يلدغ قلبه فيشعل فيه أصداء الأنغام المختلفة من عهد طويل حافل بليالى الطرب كأنها ذرات نفط تساقط على جمر مكنون ، أجل كان القانون أحب آلات الطرب الى نفسه ــ لا لمهارة العقاد وحدها ــ ولكن لسر مستلهم من طبيعة أوتاره ، ومع أنه كان يعلم أنه لن يستمع الى العقاد أو سى عبده الا أن قلبه العاشق دارى بعشقه ما قصر دونه الفن . وما أن فرغت الجوقة من عزف البشرف حتى انطلقت العالمة تنشد « والذى أسكر من عذب اللما » فلحقت بها الجوقة فى حماس ،

وكان أجمل ما يطرب فيها صوتان متجاوبان ، أحدهما غليظ عريض للعازف الضرير والآخر رقيق يندى بالطفولة لزنوبة العوادة ، فجاش صدر السيد بالانفعال فابتدر الكأس الذى بين يديه فأفرغه فى جوفه واندفع يشارك فى انشاد التوشيح وقد وشت نبرات صوته ــ عند مطلع الغناء ــ بشرق فى حلقه لاندفاعه الى الانشاد قبل أن يتم بلع ريقه ، وما لبث أن تشجع بقية الرفاق فحذوا حذوه وسرعان ما انقلب البهو جوقة تنشد عن صوت واحد . ولما ختم التوشيح تهيأت روح السيد ــ بحكم العادة ــ لاستماع التقاسيم والليالى ولكن العالمة ذيلت الختام بضحكة من ضحكاتها الرنانة معلنة عن سرورها وعجبها ، ومضت تهنىء أفراد الجوقة المستجدين مداعبة وتسألهم عن الدور الذى يودون سماعه ، وانزعج السيد فى بطنه ومرت به لحظة كدرة امتحن فيها ولعه بالغناء امتحانا قاسيا لم يفطن اليه كثيرون ممن حوله ، ولكنه أدرك فى اللحظة التالية أن زبيدة ليست كفئا لتقاسيم الليالى شأن جميع العوالم بما فيهن « بمبة كشر » نفسها ، فتمنى لو تختار المرأة طقطوقة خفيفة مما تغنى للسيدات فى الأفراح ، مفضلا هذا على محاولة غناء دور من أدوار الفحول ستعجز حتما عن اجادة ترجيعه ، وصمم على أن يتفادى من المتاعب التى تخافها أذنه بأن يقترح أغنية خفيفة تناسب حنجرة الست فقال :

ــ ما رأيكم فى عصفورى يا امه ؟

وحدجها بنظرة ذات معنى كأنما ليثير فى نفسها أيحاء هذه الطقطوقة التى توجت بها حوار تعارفهما فى حجرة الاستقبال منذ أيام قلائل ، ولكن جاء صوت من أقصى البهو يصيح ساخرا :

ــ الأولى أن تطلبها من أمك . . !

وسرعان ما ضاع الاقتراح فيما تفجر من قهقهات أفسدت على السيد خطته ، وقبل أن يكرر المحاولة طلب نفر « يا مسلمين يا أهل الله » وطلب آخرون « سلامتك يا قلبى » ولكن زبيدة التى

تحاشت أن ترضى فئة على حساب أخرى أعلنت أنها ستغنيهم « على روحى أنا الجانى » فاستقبلت بترحاب حار . ولم يجد السيد بدا من توطين النفس على الانبساط مستعينا بالشراب ، وبأحلام ليلته الوادعة ، فتألق ثغره بابتسامة وضيئة أدرك بها ركب النشاوى بلا كدر ، بل وجد عطفا على رغبة المرأة فى محاكاة الفحول ارضاء لمستمعيها الراسخين فى السماع وان لم يخل حالها من غرور تألفه الغوانى . وفيما تتهيأ الجوقة للغناء نهض أحد الرفاق وهتف بحماس :

ـ دعوا الدف للسيد أحمد فهو به خبير .. !

فهزت زبيدة رأسها عجبا وتساءلت :

ـ حقا ؟ !

فحرك السيد أصابعه فى سرعة ورشاقة كأنما يعرض عليها مثالا من صنعته فقالت زبيدة باسمة :

ـ فيم العجب وأنت تلميذ جليلة ؟

وضحك السادة فى غير ما تحفظ ، وتواصل الضحك حتى علا صوت السيد ألفار وهو يسأل السلطانة قائلا :

ـ وماذا تنوين أن تعلميه أنت ؟

فقالت بلهجة ذات معنى :

ـ سأعلمه القانون .. ألا يروقك هذا ؟

فقال السيد باستعطاف :

ـ علمينى الهنك ان شئت ..

وحث كثيرون السيد على الانضمام الى التخت وأخذ الدف فما كان منه الا أن نهض وخلع الجبة فبدأ بطوله وعرضه فى القفطان الكمونى كجواد يقف مستوفزا على رجليه الخلفيتين ، ثم شمر عن ساعديه ومضى الى الديوان ليتخذ مجلسه الى جانب الست ، ولكى تفسح له قامت نصف قومة متزحزحة الى اليسار فانحسر الفستان الأحمر عن ساق لحيمة مرتوية بيضاء مشربة بلون وردى

من أثر الجف والنتف تحلى أسفلها بخلخال ذهبى أعيا ضمها ذراعيه ، ورأى بعضهم ذاك المنظر فصاح بصوت كالرعد :

ــ تحيا الخلافة !

وكان السيد يغمز ثديي المرأة بعينيه فهتف وراءه :

ــ قل يحيا الصدر الأعظم ..

فصاحت العالمة محذرة :

ــ خفضوا أصواتكم أو يبيتنا الانجليز فى السجن ..

فهتف السيد الذى لعبت الخمر برأسه :

ــ أذهب معك مؤيدا مع الشغل ..

وعلا أكثر من صوت يقول :

ــ لا عاش من يترككما تذهبان وحدكما ..

وأرادت المرأة أن تحسم النزاع الذى أثاره منظر ساقها فمدت يدها بالدف الى السيد وهى تقول :

ــ أرنى شطارتك ..

وتناول السيد الدف ، ومسح عليه براحته مبتسما ، وبدأت أصابعه تنقر عليه فى مهارة على حين انطلقت آلات الطرب عازفة ، ثم غنت زبيدة وهى ترنو الى الأعين المحدقة اليها :

على روحى أنا الجانى وخلى فى الهوى رمانى

ووجد السيد نفسه فى موقف عجيب ، تهفو اليه أنفاس السلطانة بين اللفتة واللفتة فتلتقى باشعاعات الخمر المتطايرة من يافوخه بين الحسوة والحسوة ، فما أسرع أن غابت عن وعيه أصداء الحامولى وعثمان والمنيلاوى ، وعاش فى لحظته الراهنة قانعا سعيدا، ثم سرى اليه من نبرات صوتها ما حرك أوتار قلبه فاستعر نشاطه ولعب بالدف لعبا لا يدانيه المحترفون ، وما بلغت المرأة فى الغناء قولها « أمانة يا رايح بيه تبوس لى الحلو من فمه » حتى كان من النشوة فى سكرة عاتية ملهمة مدغدغة محرقة ، ولحق به الرفاق أو

سبقوه اذ بلغت الخمر بالضرب نهايته ونثرت الشهوات نثرا فتركتهم كأدواح راقصة فى حومة عاصفة هوجاء ..

ورويدا رويدا شارف الدور الختام وراحت زبيدة تختمه مرددة نفس المطلع الذى افتتحت به وهو « على روحى أنا الجانى » ولكن بروح يوحى بالدعة والتذكير والوداع ثم النهاية ، وغابت الأنغام كما تغيب طيارة بحبيب وراء الأفق . ومع أن الختام قوبل بعاصفة من التهليل والتصفيق الا أنه سرعان ما ساد القاعة صمت دل على همود أنفس أعياها الجهد والانفعال ، ومضت فترة لم يسمع فيها الا سعلة أو نحنحة أو حكة عود ثقاب أوكلمة لاتستحق المراجعة . وقال لسان الحال للمدعوين « تفضلوا بسلام » فلاحت من بعضهم نظرات الى قطع الثياب التى تخففوا منها فى فورة الطرب فوضعوها وراءهم على مساند ، ولكن البعض الآخر ممن تعلقت نفوسهم بحلاوة السهرة أبوا أن يغادروها حتى يرشفوا آخر قطرة متاحة من الرحيق ، فصاح أحدهم :

— لا نبرح حتى نزف السلطانة الى السيد أحمد ..

وقوبل الاقتراح بترحاب وتأييد ، على حين أغرق السيد والعالمة فى الضحك غير مصدقين ، ومايدريان الا ونفر من الصحاب يحيطون بهما وينهضونهما ثم يشيرون الى الجوقة لشرع فىالنشيد السعيد .

وقفا جنبا لجنب ، هى كالمحمل وهو كالجمل ، عملاقين ملطفين بالحسن ، ثم تأبطت فى دلال ذراعه وأشارت الي المحدقين بهما ليفسحوا الطريق . ونقرت الدفافة على الدف فانطلقت الجوقة وكثرة من المدعوين يرددون نشيد الزفة « انظر بعينك يا جميل » ومضى العروسان فى خطو وئيد يتبختران طربا وسكرا فلم تتمالك زنوبة مع هذا المنظر الا أن تمسك عن اللعب بأوتار العود ريثما تطلق زغرودة مجلجلة طويلة النفس لو تجسدت لبدت لسانا متعرجا من

لهب يشق الفضاء كالشهاب . وتسابق الأصدقاء يزجون التهانى تباعا :

ـ بالرفاء والبنين ..

ـ ذرية صالحة من الراقصات والمغنيات ..

وصاح به أحدهم محذرا :

ـ لا تؤجل عمل اليوم الى غد ..

ولم تزل الجوقة تواصل الانشاد ، والأصدقاء يلوحون بأيديهم مودعين ، حتى توارى السيد والمرأة وراء الباب المفضى الى داخل الدار ...

ـ ١٧

كان السيد أحمد جالسا الى مكتبه بالدكان حين دخل ياسين على غير انتظار . ولم تكن زيارة غير منتظرة فحسب ، ولكنها كانت قبل كل شيء غير مألوفة ، أذ لم يكن من الطبيعى ان يزور الفتى اباه فى دكانه على حين يتحاشاه على قدر استطاعته فى بيته ، والى هذا بدا شارد اللب ساهم النظرة .. وأقبل على أبيه مكتفيا برفع يده الى رأسه بطريقة آلية دون أن يلتزم ما يلتزم عادة بمحضره من ادب بالغ وخضوع كأنما نسى نفسه ، ثم قال بلهجة نمت عن شديد تأثره :

ـ السلام عليكم يا أبى ، جئت لأحدثك فى أمر هام ...

ورفع السيد اليه عينيه متسائلا وقد ساوره قلق استعان على اخفائه بقوة ارادته ثم قال بهدوء :

ـ خير ان شاء الله .. !

وجاء جميل الحمزاوى بكرسى وهو يرحب بمقدمه فأمره والده

بالجلوس فقرب الشاب الكرسى من مكان أبيه وجلس ، وبدا لحظات كالمتردد ، ثم زفر ثائراً بتردده وقال بنبرات متهدجة وفى اقتضاب مؤثر :

ــ المسألة أن أمى شارعة فى الزواج .. !

ومع أن السيد توقع خبرا سيئا الا أن خياله لم يجنح فى جولته التشاؤمية الى تلك الناحية التى أودعها ركنا مهجوراً من ماضيه ، لذلك لقيت منه المفاجأة صيدا غافلا ، وسرعان ما قطب كما يقطب كلما عرض له عارض من ذكريات زوجه الأولى ، وتولاه لذلك ضيق ، ثم انزعاج لما يمس أبنه مباشرة فى صميم كرامته ، وكشأن السائلين الذين يلقون السؤال لا ليعرفوا جديدا ولكن ليلتمسوا منفذا للنجاة من الواقع وهم يائسون ، أو ليهيئوا لأنفسهم مهلة للتروى وتمالك الأعصاب ، وسأله :

ــ ومن أدراك بهذا ؟

ــ قريبها الشيخ حمدى ، زارنى اليوم بمدرسة النحاسين وألقى على الخبر مؤكدا بأنه سيتم فى ظرف شهر ..

الخبر حق لا ريب فيه ، وما هو بالأول من نوعه ، فى حياتها ، ولن يكون الأخير اذا اتخذ الماضى مقياسا للمستقبل ، ولكن أى ذنب جناه هذا الشاب ليلقى هذا الجزاء الصارم المتجدد الأذى ؟!.. ووجد الرجل نحو ابنه رثاء وعطفا ، وعز عليه أن يقف من آلامه موقف العجز وهو الذي يقصده الناس فى الملمات ، وتساءل فيما بينه وبين نفسه ماذا تكون حاله لو كان هو المبتلى بهذه الأم ! .. فانقبض صدره وتضاعف رثاؤه وعطفه نحو ابنه ، ثم شعر برغبة تدفعه الى السؤال عن ذلك الزوج المنتظر ، ولكنه لم يستسلم لها ، اما لأنه أشفق من أن تزيد جرح ابنه عمقا واتساعا واما لأنه أنكرها على نفسه لما آنس بها من حب استطلاع ــ لا يليق بالمأساة الراهنة ــ موجه الى المرأة التى كانت زوجا له ، بيد أن ياسين قال منفعلا من تلقاء نفسه وكأنه يجيب خاطرته :

ـ وممن تتزوج !.. من شخص يدعى يعقوب زينهم صاحب مخبز فى الدراسة .. فى الثلاثين من عمره !

واشتد انفعاله وتهدج صوته وهو ينطق العبارة الأخيرة كأنما يلفظ شظية ، فانتقل احساسه الى أبيه تقززا واشمئزازا ، وجعل يردد فى سره : فى الثلاثين من عمره .. يا له من عمل فاضح .. انه فسق فى ثياب زواج .. غضب الرجل لغضب ابنه ، وغضب لحساب نفسه هو كما اعتاد أن يغضب كلما ترامى اليه نبأ من مباذلها كأنما يتجدد شعوره بتبعته فى اعتبارها يوما زوجا له ، أو كأنما يعز عليه ـ ولو بعد كرور ذاك الزمن الطويل ـ انها أفلتت من تأديبه والاذعان لسنته ! . وانه ليذكر أيام معاشرته لها ـ على قصرها كما يذكر الانسان حمى هاضته ، وربما كان مغاليا فى تصوره ، ولكن رجلا فى مثل اعتداده بنفسه جدير بأن يرى فى مجرد الرغبة عن الاذعان لمشيئته جريمة لا تغتفر وهزيمة قتالة . ثم أنها كانت ـ ولعلها لاتزال ـ جميلة مترعة أنوثة وجاذبية فنعم بمعاشرتها أشهرا حتى بدا منها شىء من المقاومة لارادته التى نزع الى فرضها على المتصلين به من آله ، ولم تر بأسا فى الاستمتاع بالحرية ولو بالقدر الذى يتيح لها زيارة أبيها من آن لآن ، فغضب السيد وحاول منعها بالزجر أولا ثم بالضرب المبرح أخيرا ، فما كان من المرأة المدللة الا أن فرت الى والديها ! وأعمى الغضب الرجل المتعجرف فظن أن خير سبيل الى تأديبها وارجاع عقلها الى رأسها هو أن يطلقها الى حين ـ الى حين طبعا لأنه شديد التعلق بها ـ فطلقها ، وتظاهر باهمالها أياما وأسابيع وهو ينتظر آملا أن يجيئه وسيط خير من آلها ، فلما لم يطرق بابه أحد داس كبرياءه وبعث هو من يجس النبض تمهيدا للصلح فعاد الرسول يقول انهم يرحبون به على شرط الا يسجنها أو يضربها ! .. ولكنه كان ينتظر موافقته بلا قيد ولا شرط فثار غضبه ثورة عاتية وأقسم فيما بينه وبين نفسه الا يضمهما رباط الى الأبد . هكذا ذهب كلاهما الى حال

سبيله ، وهكذا قضي على ياسين أن يولد بعيدا عن أبيه وأن يلقى من حياته فى بيت أمه ما لقى من ضروب المذلة والألم ..

ومع أن المرأة تزوجت أكثر من مرة ، ومع أن الزواج كان ـ فى نظر ابنها ـ أشرف سقطاتها ، الا أن هذا الزواج الجديد المتوقع بدا أفظع من سوابقه وأمعن فى الايلام ، لأن المرأة استوت على الأربعين من ناحية ، ولأن ياسين اكتمل شابا مدركا بوسعه اذا شاء أن يدفع عن كرامته الاساءة والهوان من ناحية أخرى . فقد جاوز اذن موقفه القديم الذى ألزمته اياه حداثة سنه حين كان يتلقى الأنباء المثيرة عن أمه بالدهش والانزعاج والبكاء الى موقف جديد بدا فيه أمام نفسه رجلا مسئولا لا يصح له أن يلقى الاساءة مكتوف اليدين . دارت هذه الخواطر بذهن السيد ، وقدر خطورتها بقلق ، ولكنه صمم على التهوين من شأنها ما وسعته الحيلة ابتعادا بابنه الأكبر عن المتاعب ، فهز منكبيه العريضين متظاهرا بالاستهانة وقال :

ـ ألم نتعاهد على اعتبارها كشىء لم يكن .. ؟!

فقال ياسين فى حزن وقنوط :

ـ ولكنها شىء كائن يا أبى ! .. ومهما يكن من أمر تعاهدنا فلن تزال أمى الى ما شاء الله ، سواء فى نظرى أم فى نظر الناس جميعا .. لا مفر ولا خلاص ..

ونفخ الشاب من الأعماق ، ورنا الى أبيه بعينيه السوداوين الجميلتين ـ اللتين ورثهما عنها ـ فى استغاثة صارخة وكأنه يقول له : « انك أبى الجبار القادر فمد لى يدك » ، فبلغ التأثر بالسيد غايته ولكنه واصل تظاهره بالهدوء المقرون بالاستهانة قائلا :

ـ لا أنكر عليك تألمك ولكنى أنكر عليك أن تغالى فيه ، كذلك يطيب لى أن أعذرك على غضبك ولكن قليلا من العقل حرى بأن يزدك بلا عناء ، سائل نفسك فى هدوء ماذا عليك من زواجها ؟ .. امرأة تتزوج ، كما تتزوج النساء كل يوم وكل ساعة ، وليست

هى بالتى تحاسب على مثل هذا الزواج لما سلف من سلوكها ، بل لعلها خليقة بأن نشكر عليه ، وكما قلت لك مرارا لن يرتاح لك بال حتى تسقطها من حسابك كأنها لم تكن ، فافعل بالله وأرح نفسك ، وتعز ــ مهما يكن من أمر القيل والقال ــ بأن الزواج علاقة مشروعة . . شريفة . . .

قال السيد هذا بلسانه فحسب ــ اذ كان يناقض كل المناقضة ما طبع عليه من غيرة متطرفة فيما يتصل بالآداب المطلقة للأسرة ــ ولكنه قاله بحرارة كالصدق ، منشؤها ما مارسه من لباقة أهلته لأن يكون الحكم الحكيم ووسيط الخير الذى لا يعجزه فض نزاع بين الناس ، ومع أن كلامه لم يضع هباء ــ حيث أنه من المستحيل أن يضيع كلام للسيد هباء حيال أحد من أبنائه ــ الا أن غضب الفتى كان أعمق من أن يتبخر بنفخة واحدة فوقع منه موقع قدح بارد من ابريق بالماء المغلى ، وما لبث أن خاطب أبيه قائلا :

ــ هو علاقة مشروعة حقا يا أبى ولكنها تبدو احيانا أبعد ما تكون عن الشرع ، انى أسائل نفسى عما يدفع هذا الرجل الى الزواج منها ؟ !

وبالرغم من خطورة الحال قال السيد لنفسه فى شىء من السخرية « أولى بك أن تسأل عما يدفعها هى! » ، وقبل أن يحاور ابنه واصل ياسين حديثه قائلا :

ــ انه الطمع . . . ولا شىء غيره !

ــ أو لعلها رغبة صادقة فى الزواج منها . .

ولكن الشاب هاج ثائره وهتف فى حنق وألم معا :

ــ بل الطمع وحده . .

وبالرغم من خطورة الموقف لم تخف على السيد حدة اللهجة التى خاطبه بها ابنه ، بل لم يخل الرجل من ضيق الى تقديره لحاله وحزنه أو أن يعود الى توكيد قوله السابق ، فلما لم يفعل استطرد قائلا فى هدوء نسبى :

ــ ان ما يدفعه الى الزواج من امرأة تكبره بعشرة أعوام هو الطمع فى مالها وعقارها ..

وجد السيد فى تحول النقاش الى هذه النقطة فائدة لم تغب عن ألمعيته ، فهو ينتزع الفتى من تركيز تفكيره فى أمور أشد حساسية وأبعث للألم ويحسبه أنه يصرفه عن النظر فيما يدفع أمه الى الزواج الى ما يدفع الرجل ، والى هذا كله فلم يخف عليه ما فى رأى ابنه من وجاهة فيما يتعلق بالزوج فسرعان ما اقتنع به وشاركه مخاوفه فيه . أجل ان هنية ــ أم ياسين ــ غنية لدرجة لا بأس بها ، وقد سلمت لها ثروتها من العقار على ما خاضت من تجاريب الزواج والهوى ، بيد أنها كانت فيما مضى شابة حسناء ذات سحر وسلطان، يخاف منها ولا يخاف عليها ، أما الآن فبعيد عن الاحتمال أن تملك نفسها ــ فضلا عن أنفس الآخرين ــ ماملكت ، واذن فثروتها خليقة بأن تبدد فى معركة الغرام التى لم تعد من رماتها ، وانه لحرام وأى حرام أن يخرج ياسين من جحيم هذه المأساة جريح الكرامة وصفر اليدين . وقال السيد يخاطب ابنه وكأنه يحاور نفسه ويستلهمها الرأى :

ــ أراك على حق يا بنى فيما تقول ، ان امرأة فى سنها صيد يسير خليق بأن يغرى الطامعين من البشر ، فما عسى أن نفعل ؟.. أنتلمس سبيلا الى ذاك الرجل لنحمله على العدول عن مغامرته ؟ ! .. ان الحملة عليه بالوعيد والتهديد سلوك لا ترتضيه آدابنا وما عرفنا به بين الناس، كذلك التوسل اليه بالرجاء والاقناع مهانة لا تهضمها كرامتنا .. فلم يبق أمامنا الا المرأة نفسها ! .. ولست أجهل ما حفرت بينك وبينها من قطيعة كانت بها ــ ولا تزال ــ خليقة ، بل الحق انى لا أرتاح الى أن تصل ما انقطع بينك وبينها لولا ما استجد من أعذار قهرية ، فللضرورة أحكام ، ومهما يشق عليك الرجوع فهو رجوع الى أمك ، ومن يدرى فلعل ظهورك المفاجىء فى أفقها يردها الى شىء من الصواب . . .

وبدا ياسين أمام أبيه ، كالوسيط أمام المنوم المغناطيسى فى اللحظات التى تسبق تنفيذ ما يوحى به اليه ، ذاهلا صامتا ، فوشى حاله بنفاذ تأثير الرجل الى نفسه ، أو لعله دل على أنه لم يفاجأ بهذا الاقتراح ، وأنه يحتمل أن يكون مما دار بنفسه قبل مجيئه ، بيد انه تمتم قائلا :

ـ أليس ثمة حل أوفق .. ؟

فقال السيد بقوة ووضوح :

ـ أراه أوفق الحلول ..

فقال ياسين وكأنه يحادث نفسه :

ـ كيف أرجع اليها ؟!؟... كيف أزج بنفسى فى ماض فررت منه وليس أحب الى من أن يبتر من حياتى بترا ! .. لا أم لى .. لا أم لى ..

ولكن بالرغم من ظاهر قوله شعر السيد بأنه وفق الى جذبه الى رأيه فقال بلباقة :

ـ هذا حق ، ولكن لا أظن أن ظهورك أمامها فجأة بعد ذلك الغياب الطويل يمضى بلا أثر ، لعلها اذا رأتك بين يديها شابا ناضجا أن تتحرك أمومتها فتجفل مما عساه يسىء الى كرامتك وتعدل عن سيرتها ... من يدرى ؟!

فطامن ياسين رأسه غارقا فى أفكاره ، غير مبال بما دل عليه من ضيق وبأس . كان يرتعد خوفا من وقوع الفضيحة ، ولعل هذا كان أفظع ما يكربه ولكن خوفه على ضياع الثروة التى ينتظر أن يرثها يوما لم يكن دون ذلك ، وما عسى أن يفعل ؟! .. مهما يقلب أوجه الرأى فلن يجد حلا أوفق مما ارتأى أبوه ، بل ان صدور الرأى عن أبيه ألبسه فى نظره ــ على تقلقل حاله ــ وجاهة وأعفاه هو من هموم كثيرة . ليكن .. هكذا قال فى نفسه ، ثم قال مخاطبا أباه :

ـ كما ترى يا أبى ...

- ١٨ -

لما بلغت به قدماه طريق الجمالية انقبض صــدره حتى شعر بأنه يختنق . لقد غاب عنه أحد عشر عاما ، أحد عشر عاما تصرمت فلم ينازعه القلب اليه مرة واحدة ، أو ترف عليه ذكرى من ذكرياته الا فى هالة قاتمة مقبضة نسج وشيها من مادة الكابوس ، والحق أنه لم يكن غادره ولكن واتته فرصة ففــر منه فرارا ، ثم ولاه ظهره غاضبا حانقا يائسا ، ثم تجنبه بكل قوة نفسه فلم يعرفه بعد ذلك كغاية الى نفسه أو معبرا الى سواه من الأحياء بيد أنه هو الحى كما عهده فى طفولته وصباه ، لم يتغير منه شىء ، ما زال ضــيقا تكاد تشده عربة يد اذا اعترضت سبيله ، وها هى بيــوته تكاد تتماس مشربياتهــا ، ودكاكينه الصغيرة فى تلاصــقها وزحمتها والطنين الصادر عنها كخلايا النحل ، وأرضه الترية بفجواتها المفعمة وحلا ، وغلمانه الذين يغشون جوانبه ويطبعون على أديمه آثار أقــدامهم الحافية ، وســابلته الذين لا ينقطع لهم تيــار ، ومقلى عم حســن ومطعم عم سليمان ، كل أولئــك باق كما عهده فتــكاد ترف على شفتيه ابتسامة حنان يريد ثغر طفولته أن يفتر عنهــا لولا مرارة الماضى وسقم الحاضر ..

وتراءت لعينيه عطفة قصر الشوق فخفق قلبه بقوة حتى كاد يصم أذنيــه ، ثم لاحت على رأس منعطفها الأيمن ســلال البرتقال والتفاح منضدة على الطوار أمام دكان الفاكهة فعض على شــفتيه وغض طرفه فى خزى . المــاضى ملطخ بالعــار ، مدفون الرأس فى الطين من الخجل ، دائم الجأر بالشكوى من الخزى والألم ، ولــكنه كله فى كفة وهــذه الدكان فى كفة وحدها ، بل انهــا ترجح به ، اذ

انها رمزه الحى الباقى على الزمن ، جمعت فى صاحبها وسلالها وفاكهتها وموقعها وذكرياتها الخزى متبجحا والألم ناطقا والهزيمة مولولة ، واذا كان الماضى أحداثا وذكريات هى بطبعها عرضة للتخلخل أو النسيان فهذه الدكان تقوم شاهدا مجسما يكشف مخلخله ويستحضر منسيه . وكان كلما تقدم من المنعطف خطوة تقهقر عن الحاضر خطوات طاويا الزمن على رغم ارادته ، وكأنه يرى فى الدكان « غلاما » يرفع رأسه الى صاحبها ويقول « نينة تطلب منك أن تحضر الليلة » ، أو كأنه يراه وهو عائد بقرطاس الفاكهة ضاحك الأسارير ، أو وهو يلفت نظر أمه فى الطريق الى الرجل فتجذبه من ذراعه بعيدا أن يلفت اليهما الأنظار ، أو وهو ينشج باكيا أمام منظر الافتراس الوحشى الذى يخلقه خلقا جديدا ــ كلما ورد على ذهنه ــ على ضوء تجاربه الراهنة فينقلب البشاعة نفسها ، طفقت الصور الملتهبة تطارده وهو يجد فى الفرار منها ، ولكنه ماأن يتملص من قبضة احداها حتى يقع فى قبضة الأخري ، مطاردة عنيفة وحشية أثارت فى أعماقه بركان الحنق والحقد فواصل السير الى غايته وهو على أسوأ حال « كيف أمرق الى العطفة وعلى رأسها هذا الدكان .. وهذا الرجل .. أتراه بموقفه القديم منها ؟ . لن ألتفت نحوها ، أى قوة ماكرة تغرينى بالنظر ، أيعرفنى اذا التقت عينانا ؟!.. اذا بدا منه أنه عرفنى قتلته ، ولكن كيف له بأن يعرفنى ؟ .. لا هو ولا أحد من الحى ، أحد عشر عاما ، تركته غلاما وأعود اليه ثورا .. ذا قرنين !.ثم لا تواتينا القوة على ابادة الحشرات السامة التى لا تنفك تلدغنا .. » ؟

ومال الى العطفة مسرعا بعض الشىء ، متخيلا القوم وهم يستطلعونه بأنظارهم متسائلين « أين ومتى رأينا هذا الوجه ! » . ورقى فى الطريق المتصاعد فى غير استواء ، جامعا عزمه على نفض الغبار الخانق عن وجهه ورأسه ولو الى حين ، وتشجيعا لعزمه فر بنفسه بعيدا وراح يتأمل ما حوله ويحدث نفسه قائلا : « لا تضق

بالطـريق المتعب فـكم كنت تفرح به صـغيراً وأنت تتزحلق على منحدره فوق لوح من الخشب ! » بيد أنه عاد يقول حين تراءى له جدار البيت : « الى أين أسير ؟ ! .. الى أمى ! .. يا للعجب ، لا أصدق ، كيف ألقاها وكيف تلقانى ! .. وددت لو .. » ومال يمينا الى عطفة مسدودة ثم اتجـه الى أول باب فى جانبها الأيسر . هو البيت القديم بلا أدنى شك ، قطع الطريق اليه كما كان يقطعه وهو صغير ، بلاتردد أو تساؤل ، وكأنه ما تركه الا أمس القريب ، ولكنه اقتحم بابه هـذه المرة باضـطراب غير معهـود ، ورقى فى الدرج بخطوات ثقيلة بطيئة ، وبالرغم من قلقـه وجد نفسـه يتفحصه باهتمام مطابقا بينه وبين صورته المحفوظة فى خياله فألفاه أضيق قليـلا مما فى ذاكرته وقد تآكلت بعض جوانبـه وتهدمت أجـزاء صـغيرة من أطراف درجاته المطلة على بئر السـلم ، وسرعان ما حجبت الذكريات الحاضر كله . ومر وهو على تلك الحال بالدورين المأجورين حتى انتهى الى الدور الأخـير ، ووقف لحظات يتنصت وصدره يعلو وينخفض ، ثم هز منكبيه كالمستهين ونقر على الباب ، وبعد دقيقة أو نحوها فتح البـاب عن وجه خادم متوسطة العمر ما أن تبينت فيه رجلا غريبا حتى توارت وراء الباب وهى تسأله فى أدب عما يريد . وثارت أعصابه فجأة وبلا داع معقول لما بدا من الخادم من جهل بشخصه فدخل بأقدام ثابتة واتجه نحو حجـرة الاستقبال وهو يقول بلهجة آمرة :

ـ قولى لستك ياسين هنا !.

« ترى ماذا تظن الخـادم بى ؟ » .. والتفت وراءه فوجـدها مسرعة الى الداخل ، اما لأن لهجته الآمرة غلبتها على أمرها ، واما ... وعض على شفتيه وهو يمرق الى داخل الحجرة . انها حجرة الضيوف كما قدر بلا وعى فى لهوجته وحدته ولكن ذاكرته كانت تعرف أركان البيت بلا دليل ، ولو وجد فى ظرف غير الظرف لطاف مسترجعا ذكرياته من الحمام الذى كان يحمل اليه وهو يبكى الى

المشربية التي كان ينظر من وراء ثقوبها الى موكب الزفة مساء بعد مساء ، ترى أثاث الحجرة الراهن هو هو أثاث الماضي البعيد ؟ .

انه لا يذكر من الأثاث القديم الا مرآة طويلة ثبتت فى حوض مذهب تنبثق من ثغرات فى سطحه ورود صناعية مختلفة الألوان ، وتركز فى زاويتيه المتباعدتين فنايير تتدلى من أعناقها أهلة بلورية طالما ولع بالعبث بها والنظر خلالها الى المكان فيلوح فى حلل غريبة يذكر اغراءها وان غاب عنه منظرها ، ولكن لا داعى للتساؤل ، فأثاث اليوم غير أثاث الأمس ، لا لجدته البادية فحسب ، ولكن لأن حجرة امرأة مزواجة خليقة بأن تتغير أو تتجدد ، كما تغير أبوه ، وتاجر الفحم ، والباشجاويش . وركبه توتر وضيق فأدرك أنه لم يطرق باب البيت القديم فحسب ولكنه نكأ جرحا متورما وغاص فى قيحه . ولم يطل انتظاره ، ولعله جاء أقصر مما يتصور ، اذ آبتدر أذنيه وقع أقدام متتابعة متدافعة ، وصوت يتردد محاورا نفسه بكلام علا جرسه ولم يستبين ألفاظه ، ثم أحس بها — وهو لم يزل مولى الباب ظهره — وضلفة الباب المغلقة تطقطق تحت صدمة منكبها ، ثم جاءه هتافها وهى تقول بأنفاس مبهورة :

— ياسين ! .. أبنى ! .. كيف أصدق عينى ؟! .. ربى .. صار رجلا ..

وتدافع الدم الى وجهه المكتنز ، واستدار نحوها فى ارتباك وهو لا يدرى كيف يلقاها ولا كيف يكون اللقاء ، ولكن المرأة أعفته من تدبير أمره فهرعت اليه واحتوته بذراعيها وضمته آليها بشدة عصبية وراحت تقبل صدره — وهو غاية ما وسع شفتاها أن تبلغاه من جسمه المنتصب — ثم اختفت نبراتها واغرورقت عيناها فدفنت وجهها فى صدره مستسلمة له مليا ريثما تسترد أنفاسها . لم يكن حتى تلك اللحظة قد أتى حركة أو نطق بكلمة ، ومع أنه شعر شعورا عميقا أليما بأن جموده أشد من أن يحتمل الا أنه لم يبدر منه ما ينم عن حياة : أى حياة ، فلازم جموده وخرسه ، بيد

أنه كان متأثرا غاية التأثر وان لم يتضح له نوع التأثر بادىء الأمر بحال يطمئن اليها ، ولكنه ، على حرارة استقبالها ، لم يجد رغبة للارتماء فى حضنها أو تقبيلها ، لعله لم يستطع أن ينزع الذكريات المحزنة الناشبة فى نفسه كمرض مزمن رافقه منذ الصبا ، ومع أنه وجه ارادته بعزم وتصميم الى اخلاء المسرح من الماضى فى اللحظة الراهنة ليملك فكره وحكمته ، الا أن الماضى المطرود انعكس على صفحة قلبه ظلالا قاتمة كذبابة نشت عن الفم بعد أن خلفت وراءها جرثومة تسرى ، فأدرك فى ذاك الموقف الرهيب ، أكثر مما أدرك فى ماضيه كله ، الحقيقة المحزنة التى طالما أدمت فؤاده وهى أن أمه قد اقتلعت من صدره . ورفعت المراة رأسها اليه كانها تدعوه الى تقريب وجهه فلم يستطع الاباء وادنى وجهه منها فقبلته فى خديه وجبينه ، والتقت أثناء العناق عيناهما فلثم جبينها تأثرا بارتباكه وحيائه لا لعاطفة أخرى ، ثم سمعها تغمغم :

ــ قالت لى ياسين هنا ، قلت ياسين ! من يكون هذا ؟ ! ولكن من يكون غيره ؟ ليس لى الا ياسين واحد ، ذاك الذى حرم بيتى على نفسه وحرم نفسه على ، فماذا حدث ؟ وكيف استجيب الدعاء آخر الدهر ؟ ! وجئت عدوا كالمجنونة لا أصدق أذنى ، وها أنت ، أنت دون غيرك والحمد لله ، تركتنى غلاما وعدت الى رجلا ، كم قتلنى الشوق اليك وأنت لا تحس لى وجودا . .

وأخذته من ذراعه الى الكنبة فمضى معها وهو يسائل نفسه متى تنحسر هذه الموجة الطاغية من الاستقبال الحار حتى يتبين الطريق الى هدفه . وجعل يسترق اليها النظر فى استطلاع مقرون بالدهشة والقلق ؟ . . كأنها لم تتغير الا أن يكون جسمها قد زاد امتلاء ولكنه لا يزال محافظا على حسن تقطيعه ، أما الوجه القمحى المستدير والعينان السوداوان المكحولتان فعلى سابق عهدهما تقريبا من القسامة البارعة . ولم يرتح الى ما رآه على صفحة الوجه والعنق من زواق كأنه كان ينتظر أن تغير أعوام القطيعة من

دأبها القديم على العناية بنفسها وولعها بالتبرج لداع ولغير ما داع أى حتى فى تلك الأوقات التى تخلو فيها الى نفسها : وجلسا جنبا الى جنب وهى تحدق الى وجهه بحنان تارة وتقيس طوله وعرضه بعينين معجبتين تارة أخرى ثم تمتمت بصوت متهدج :

ــ آه يا ربى لا اكاد أصدق عينى ، أنا فى حلم ، هذا ياسين ! أى عمر ذهب هباء ، كم دعوتك ورجوتك ، وبعثت اليك الرسول تلو الرسول ، ماذا أقول ؟ .. دعنى أسالك كيف قسا قلبك على لهذا الحد ؟ .. كيف أعرضت عن دعواتى الحارة ، كيف تصاممت عن نداء قلبى المكروب ؟ كيف .. كيف ؟ .. كيف نسيت أن لك أما منزوية هنا ؟ !

ووقف انتباهه عند الجملة الأخيرة فوجدها غريبة تدعو الى السخرية والرثاء معا ، وكأنها أفلتت منها فى ذهول الانفعال ، أجل يوجد شىء ، وأشياء ، تذكره صباح مساء بأن له أما ، ولكن أى شىء وأى أشياء ؟ !

ورفع اليها عينيه فى حيرة دون أن ينبس فالتقت عيناهما لحظة ، وابتدرت المرأة قائلة فى لهفة :

ــ لماذا لا تتكلم ؟

فخرج ياسين من حيرته بتنهدة مسموعة ثم قال وكأنه لم يجد بدا مما قال :

ــ ذكرتك كثيرا ، ولكن آلامى كانت أفظع من أن تطاق ..

وقبل أن يتم كلامه كان النور الذى ينبعث من نظرتها قد خمد ، واحتلت الحدقتين غمامة خيبة وفتور ساقتها رياح تهب من جوف الماضى الأسيف ، فلم تعد تطيق التحديق فى عينيه وخفضت جفنيها وهى تقول بلهجة حزينة :

ــ ظننتك برئت من أحزان الماضى ، وانها علم الله لا تستحق بعض ما أوليتها من غضب حملك على هجرى أحد عشر عاما ..

وعجب لعتابها عجبا أحنقه ، واستنكره استنكارا ذر على

غضبه المكتوم فلفلا فانفعل انفعالا لولا القصد الذى جاء من أجله لثار بركانه ، أتعنى المرأة حقا ما تقول ؟ .. أهان عليهـا ما فعلت لهذا الحد ؟ أم تظن به الجهل بما كان ؟ ! بيد أنه ضبط أعصابه بقوة ارادته التى لم تغفل عن هدفها وقال :

ــ تقولين انها لا تستحق غضبى ؟ .. أراها تستحق الغضب كل الغضب وأكثر ..

فتركت ظهرها يسقط على مسند الكنبة كشىء تهدم ، ورمته بنظرة بين العتاب والاستعطاف قائلة :

ــ ما وجه العيب فى أن تتزوج امرأة بعد طلاقها ؟ ..

فشعر بنيران الغضب تتأجج فى عروقه وأن لم تبد منها آثار الا فى انطباق شفتيه ثم فى التصاقهما ، لا زالت تتكلم ببساطة كأنها مقتنعة على يقين ببراءتها ! .. وتتساءل عن وجه العيب فى أن تتزوج « امرأة » بعد طلاقها ، حسن ، لاعيب فى أن تتزوج« امرأة » بعد طلاقها ، أما أن تكون المرأة أمه فهـذا شىء آخر ، شىء آخر جدا ، وأى زواج الذى تعنيه ؟ ! .. انه زواج وطلاق ، ثم زواج وطلاق ثم زواج وطلاق ، وهنالك ما هو أدهى وأمر ، ذلك « الفكهانى » ! .. أيذكرها به ؟ .. أيصفعها بما فى نفسه من مر ذكرياته ؟ أيصارحها بأنه لم يعد جاهلا كما تظن ؟ وأرغمته حدة الذكريات على الخروج عن اعتداله هذه المرة فقال بامتعاض شديد :

ــ زواج وطلاق ، زواج وطلاق ، هـذه أمور شائنة لم تكن لتليق بك ، ولشد ما مزقت نياط قلبى بلا رحمة .

فشبكت ذراعيها على صدرها فى استسلام اليائس وقالت باشفاق حزين :

ــ انه سوء الحظ ولا شىء غيره ، انى سيئة الحظ ، هذا كل ما هنالك .

فبادرها قائلا ، وقد تقلصت أساريره وانتفخ لغده فلفظ الكلمات كأنما يلفظ مستخبثا تعافه النفس :

ـ لا تحاولى أن تبرئى ساحتك فما يزيدنى هذا الا ألما على الم ، من الخير أن نسدل على آلامنا ستارا يخفيها مادمنا لانستطيع أن نمحوها من الوجود محوا ..

ولاذت بالصمت على كره والقلب يشفق اشفاقا شديدا من هائج الذكريات على طيب اللقـاء وما بعثه فى نفسـها من آمال ، وجعلت تلحظه بقلق كأنما تستخبره عما يطوى عليه صدره ، فلما ثقل عليها صمته قالت مشتكية :

ـ لا تلح فى تعذيبى وأنت وحيدى ..

ووقع الكلام من نفسه موقعا غريبا كأنما يكشف له لأول مرة ، بيد أنه وجد فيه باعثا جديدا للهياج والتوتر ، أنه ابنها حقا ، وانها أمه الوحيدة كذلك ، ولكن كم رجلا ..! وأشاح عنها بوجهه ليخفى ما ارتسم على صفحته من آى التقزز والغضب ، ثم أغمض عينيه فرارا من ذكريات مناظر بشـعة ، عند ذاك سـمعها تقول برقة وتوسل :

ـ دعنى أعتقد بأن سعادتى الراهنة حقيقة لا وهم ، أجـل حقيقة لا وهم ، وبأنك جئتنى منفضا عن قلبك أحزان الماضى كله الى الأبد :

فنظر اليها نظرة طويلة مركزة وشت بخطورة أفـكاره ، ولم يكن شىء فى تلك اللحظة يستطيع أن يعدل به عن النفاذ الى غرضه ولو بتأجيله الى حين ، فقال بصوت يدل على أن ألفاظه التى يتفوه بها أقل بكثير من المعانى التى يوحى بها :

ـ هذا يتوقف عليك أنت ، فان شئت كان لك ما تحبين ..

فتجلت فى عينى المرأة نظرة قلق نمت عما تعـانى من ايحـاء الخوف وقالت :

ـ انى أرغب فى مودتك من أعماق قلبى ، وطالما تمنيتها ، وكم سعيت اليها فرددتنى بلا رحمة ..

ولكنه كان مشغولا عن كلامها الحار بما يضطرب فى ذهنه فقال :

ـ بيدك ما تتمنين ، بيدك أنت وحدك ، اذا جعلت من الحكمة رائدك ...

فتساءلت المرأة فى انزعاج :

ـ ماذا تعنى ؟

فأحنقه تجاهلها وقال بتذمر

ـ مضمون كلامى واضح ، هو أن تعدلى عما لو صح ما بلغنى عنه لكان فيه الضربة القاضية على !

فاتسعت عيناها وتجهم وجهها فى يأس غير خاف ، وتمتمت وهى لا تدرى :

ـ ماذا تعنى ؟

بيد إنه ظنها تصر على التجاهل فقال بغيظ :

ـ أعنى أن تلغى مشروع الزواج الجديد ، وألا تسمحى لنفسك بمعاودة التفكير فى شىء من هذا القبيل ، لم أعد طفلا ، وليس بصبرى متسع لطعنة جديدة ..

أطرقت فى حزن بالغ ، ولازمت الاطراق كأنما أخذتها سنة من النوم ، ثم رفعت رأسها فى بطء فلاح الحزن فى وجهها أعمق مما قدر ، ثم قالت بصوت ضعيف وكأنها تخاطب نفسها :

ـ اذن جئت من أجل هذا !

ودون تفكير فيما يقول قال :

ـ نعم !..

فوقع جوابه كطلقة نارية فاذا بكل شىء حوله يتغير ويتبدل سريعا ، ويكفهر الجو . وقد استرجع فيما بعد ـ وهو خال الى نفسه ـ ما دار من حديث بينه وبين أمه فى هذه المقابلة فأقر أقواله جميعا حتى بلغ هذا الجواب الأخير فتردد حياله لا يدرى أأخطأ أم أصاب ، وظل على تردده طويلا . أما المرأة فقد غمغمت وهى تنظر فيما أمامها :

ـ لشد ما أتمنى أن أكذب أذنى ..

وأدرك أنه تعجل بعد فوات الفرصة ، وسخط على نفسه حانقا ، ثم صب سخطه على ماحوله . فاندفع قائلا بلا وعى مداريا خطأه بما هو أمعن فى الخطأ :

ــ انك تفعلين ما تشائين دون تقدير للعواقب ، وكنت أنا دائما الضحية التى تتلقى الاساءة بلا ذنب جننته ، وقد ظننت ألعمر رادك الى شيء من العقل فما أعجب الا لقائل يقول انك شارعة فى الزواج من جديد ! . . يا لها من فضيحة تتجدد كل بضعة أعوام كأن لا نهاية لها .

من شدة اليأس راحت تصغى اليه فيما يشبه اللامبالاة ، ثم قالت بأسى :

ــ أنت ضحية ، وأنا ضحية ، كلانا ضحية لما يوسوس به اليك أبوك وتلك المرأة التى تعيش فى كنفها ! . .

وعجب لهذا الانحراف فى مجرى الحديث الذى بدا له مضحكا ، بيد أنه لم يضحك ، ولعله ازداد غضبا وهو يقول :

ــ ما دخل ابى وزوجه فى هذا الشأن ! . . لا تتملصى من فعالك بالقاء التهم فى وجوه الأبرياء .

فهتفت بصوت يشبه الأنين :

ــ ما رأيت ابنا أقسى منك ! . . أهذا خطابك لى بعد فراق أحد عشر عاما ! !

فلوح بيده فى احتجاج غاضب وقال بحدة وسخط :

ــ الأم الخاطئة خليقة بأن تلد ابنا قاسيا . .

ــ لست خاطئة . . لست خاطئة . . ولكنك قاس غليظ القلب كأبيك . .

فنفخ فى ملل وصاح بها :

ــ رجعنا الى أبى ! . . حسبنا ما نحن فيه . . اتقى الله وتراجعى عن الفضيحة الجديدة . . أريد أن أمنع هذه الفضيحة بأى ثمن . . .

ومن شدة اليأس والحزن خرج صوتها متلفعا بالبرودة وهى تقـول :

ـ وماذا يهمك منها ؟

فصاح فى دهش :

ـ كيف لا تهمنى فضيحة أمى ؟ !

فقالت فى حزن مشوب بما تيسر من التهكم :

ـ أنت فى الحق لا تعدنى أما لك . .

ـ ماذا تعنين ؟

فغمغمت فى يأس متجاهلة تساؤله :

ـ ما دمت قد خلعتنى من نفسـك فيجـدر بك أن تدعنى وشأنى . . .

فهتف غاضبا :

ـ حسبى ما كان ، لن أسمح لك بتلويث سمعتى من جديد . .

فقالت وهى تزدرد ريقها :

ـ لا شىء هنالك مما يلوث السمعة ، والله شهيد . .

فسألها مستنكرا :

ـ أتصرين على هذا الزواج ؟ !

فصمتت مليا ، مطرقة محزونة غارقة فى اليأس ، ثم ندت عنها تنهدة عميقة ، ثم قالت بصوت لا يكاد يسمع :

ـ قضى الأمر وكتب العقد ، ولم يعد بوسعى منعه !

فانتفض ياسين قائما وقد تصلب جسمه البدين وعلت وجهه صفرة وركز بصره فى رأسها المطرق وهو يغلى غضبا ، ثم صاح بها بصوت كالزئير :

ـ يا لك من امرأة . . مجرمة ! . .

فغمغمت بصوت مغموس يدل على الاستسلام المطلق :

ـ سامحك الله . . .

عند ذاك خطر له أن يلطمها بما يعرف ـ مما تظن أنه يجهله ـ

من ماضى سيرتها : بحديث « الفكهانى » الأسود ، قذيفة يصيبها على رأسها بغتة فتنثره اربا ويثأر بها أفظع الثأر ، وتوهج فى عينيه بريق مخيف تطاير من تحت جبهة عابسة مكفهرة تجمعت فى أخاديدها نذر الشر والوعيد ، وفغر فاه ليطلق قذيفته ، ولكن لسانه لم يتحرك ، التصق بسقف حلقه كأنما جذبه اليه مخه الذى لم يعمه العناء عن البلاء ، ومرت اللحظة الرهيبة فى سرعة الزلزال الخاطف الذى يشعر فيه الانسان بأنفاس الموت تتردد على وجهه لحظات ثم يعود كل شىء الى مستقره ، وزفر وهو كظيم ، وتراجع غير آسف وجبينه يسح عرقا باردا . وقد ذكر موقفه هذا ـ فيما بعد ـ فيما ذكر من مواقف هذه المقابلة الغريبة فارتاح لتراجعه كل الارتياح وان عجب له أشد العجب ، وكان أعجب ما عجبه شعوره بأنه انما تراجع رحمة بنفسه لا رحمة بها وكأنه تستر على كرامته لا على كرامتها وان لم يكن ثمة ما يجهله من الأمر ! . .

وأفرغ غضبه فى كفيه فجعل يضرب واحدة على الأخرى ويقول :

ـ مجرمة ! . . فضيحة مجسمة ! . . كم سأضحك من غبائى كلما أذكر أننى أملت خيرا من هذه الزيارة !. . (ثم بلهجة تهكمية) . . انى أعجب كيف طمعت بعد هذا فى مودتى ؟ !

فجاءه صوتها وهو يقول فى انكسار وحسرة :

ـ منتنى نفسى أن نعيش على مودة رغم كل شىء !. . وبعثت زيارتك المفاجئة فى قلبى آمالا حارة خيل الى معها أنى أستطيع أن أهبك أسمى ما فى قلبى من حب . . بلا كدر . .

وابتعد عنها متقهقرا كأنما يفر من لين كلامها الذى لم يعد شىء يؤرث غضبه مثلما يؤرثه ، وشعر حانقا يائسا بأنه لم تعد ثمة فائدة من بقائه فى هذا الجو الكريه فقال وهو يستدير ليأخذ سمته الى الخارج :

ـ وددت لو أستطيع قتلك . .

فغضت بصرها وقالت فى حزن بالغ :
ــ لو فعلت لأرحتنى من حياتى . .
وبلغ به الضيق النهاية فألقى عليها نظرة أخيرة مظلمة بالمقت ثم غادر المكان وأرض الحجرة ترتج تحت وقع قدميه . وعند ما انتهى الى الطريق ، وأخذ يثوب الى نفسه ، ذكر لأول مرة أنه نسى حديث العقار والمال فلم يطرقه بكلمة واحدة ، أنسيه كأنما لم يكن هو الباعث الأول لهذه الزيارة ! . .

ــ ١٩ ــ

فتحت الست أمينة الباب وأدخلت رأسها وهى تقول برقتها المعهودة :
ــ أفى حاجة الى خدمة يا سيدى الصغير ؟
فجاءها صوت فهمى قائلا :
ــ تعالى يا نينة ، خمس دقائق فقط . .
فدخلت المرأة مسرورة بتلبية الدعوة فرأته واقفا أمام مكتبه يلوح فى وجهه الجد والاهتمام فأخذها من يدها الى كنبة غير بعيدة من الباب وأجلسها ثم جلس الى جانبها وهو يتساءل :
ــ ناموا جميعا ؟
وأدركت المرأة أنها لم تدع لتقديم خدمة عابرة والا ما كان هذا الاهتمام وهذه الخلوة فانتقل الاهتمام بسرعة الى نفسها المطواعة للايحاء وقالت تجيبه :
ــ ذهبت خديجة وعائشة الى حجرتهما فى ميعاد كل ليلة ، أما كمال فقد تركته الآن فى فراشه .
كان فهمى يترقب هذه اللحظة منذ آوى الى حجرة المذاكرة

عند أول المساء فلم يستطع كعادته تركيز انتباهه فى الكتاب الذى بين يديه ، وجعل يتابع ، بين آونة وأخرى ، أحاديث أمه وشقيقتيه فى جزع لا يدرى متى ينتهين ، ثم الى أمه وكمال وهما يحفظان معا جملة من سورة عم . حتى ساد الصمت ثم جاءت أمه لتحييه تحية المساء فدعاها اليه ، وقد تناهى به توتر الانتظار . ومع أن أمه بدت كالحمامة الوديعة ، ومع أنه لم يشعر حيالها قط بتحفظ أو خوف ، الا أنه وجد عسرا فى التعبير عما يريد الافصاح عنه ، فعلاه ارتباك الحياء ، ومضت فترة صمت ليست بالقصيرة قبل أن يقول مختلج الجفنين :

ـ دعوتك يا نينة لأشاورك فى أمر يهمنى جدا .

واشتد الإهتمام بالمرأة حتى تمثله قلبها الرقيق خوفا أو شبيها بالخوف وقالت :

ـ انى مصغية اليك يا بنى ..

فتنفس تنفسا عميقا ليخفف عن أعصابه وقال :

ـ ما رأيك فيما لو .. أعنى أليس من الممكن أن ..

وتوقف مترددا ، ثم غير لهجته قائلا برقة وتردد وارتباك :

ـ ليس لى من أفضى اليه بدخيلة نفسى الا انت ..

ـ طبعا ، طبعا يا بنى ..

فقال متشجعا عما قبل :

ـ ما رأيك اذا اقترحت عليك أن تخطبى لى مريم بنت جارنا السيد محمد رضوان .. ؟

وتلقت أمينة كلماته بدهشة أولا ، فأجابته أول ما أجابت بابتسامة تدل على الحيرة أكثر من الفرح تم انقشع الخوف الذى قبض صدرها حينا وهى تترقب افصاحه عما يريد ، ثم اتسعت ابتسامتها واشرقت معلنة عن سرور صاف ، وترددت لحظات لا تدرى ماذا تقول ، ثم اندفعت قائلة :

ـ أهذه رغبتك حقا ؟ .. ســأقول لك رأيى صراحة .. ان يوما أمضى فيه لأخطب لك بنت الحلال لهو أسعد أيام حياتى ..

فتورد وجه الشاب وقال بامتنان :

ـ شكرا لك يا أماه ..

ورنت الأم اليه ببسمة لطيفة وقالت برجاء :

ـ يا له من يوم سعيد ، لقــد تعبت كثيرا وصبرت كثيرا ، وليس بالكثير على الله أن يجزينى على تعبى وصبرى بمثــل هذا اليوم المرجى ، بل بأيام مثله كثيرة ليقر عينى بك وبأختيك خديجة وعائشة ..

وغابت عيناها فى رؤى الأحلام السعيدة حتى بدأ لها ما أيقظها فجأة فتراجع رأسها فى قلق كقطة اقبــل نحوها كلب ، وتمتمت فى اشفاق :

ـ الكن .. أبوك ؟ !

وابتسم فهمى ممتعضا وقال :

ـ من أجل هذا دعوتك للمشاورة ..

ففكرت المرأة قليلا ثم قالت وكأنها تخاطب نفسها :

ـ لا أدرى ماذا يكون موقفه من هذا الرجاء ؟ . أبوك شخص غريب ، غير النــاس جميعا ، وقد يرى جريمة فيمــا يراه الغير شيئا عاديا ..

فقطب فهمى قائلا :

ـ ليس فى الأمر ما يدعو الى الغضب أو الاعتراض .

ـ هذا رأيى .. !

ـ وغنى عن البيان أن الزواج ســيؤجل حتى أتم دراستى وأجد لنفسى عملا ..

ـ طبعا .. طبعا ..

ـ فيم يكون الاعتراض اذن ؟ !

فنظرت اليه نظرة كأنما تقول له : « ومن ذا يحاسب أباك اذا

أراد أن ينبذ المنطق جانبا ؟ » هى التى لم تعرف حياله ألا الطاعة العمياء أصاب أم أخطأ ، عدل أم ظلم ، بيد أنها قالت :

ــ أرجو أن يبارك رجاءك بالقبول . .

فقال الشاب بحماس :

ــ لقد تزوج أبى وهو فى سنى هذه ، ولست أقصد شيئا من هذا ، ولكنى سأنتظر حتى يكون الزواج طبيعيا لا اعتراض عليه من أى ناحية . .

ــ ربنا يحقق رجاءنا . .

وسكنا الى الصمت مليا وهما يتبادلان النظرات ، مجتمعين فى فكرة واحدة وهما عن بداهة يدريان اذ كان كلاهما يفهم صاحبه خير فهم ، ويقرأ ما يدور بخاطره فى غير ما عسر ، ثم قال فهمى مفصحا عما يشغلهما معا :

ــ بقى أن نفكر فيمن يفاتحه بالموضوع . . !

وابتسمت المرأة ابتسامة أفقدها التفكير والقلق روحها ، وأدركت أن ابنها الأريب يذكرها بالواجب الذى لا يستطيع أن يؤديه أحد سواها بالأسرة ، ولم تعترض على هذا لأنه لا سبيل غيره ، الا أنها قبلته على كره كما تقبل أمورا كثيرة وهى تسأل الله حسن العاقبة ، وقالت برقة وعطف :

ــ ومن غيرى يفاتحه ؟ . . ربنا معنا . .

ــ انى آسف . . لو كان بوسعى أن أحدثه لفعلت .

ــ سأحدثه ، وسيوافق باذن الله ، مريم فتاة جميلة ، مؤدبة ، من أسرة كريمة . .

وسكتت لحظة ثم استدركت متسائلة كأنما خطر لها الخاطر لأول مرة :

ــ ولكن أليست هى فى مثل سنك أو تزيد ؟ !

فقال الفتى جزعا :

ــ لا يهمنى هذا بتاتا !

فقالت مبتسمة :

ـ على بركة الله ، ربنا معنا ، « ثم وهى تنهض » أدعك الآن لعناية المولى ، والى الغد . . ومالت نحوه فقبلته ثم غادرت الحجرة وأغلقت البـاب وراءها ، ولكن كم أدهشتها أن ترى كمال جالسا على الكنبة مكبا على كراسة بين يديه فهتفت به :

ـ ما الذى عاد بك الى هنا ؟

فنهض الغلام مبتسما فى ارتباك وقال :

ـ تذكرت انى نسيت كراسـة الانجليزى فعدت لآخذها ثم بدا لى أن أستعيد الكلمات مرة أخيرة .

وذهبت معه مرة أخرى الى حجرة النوم ولم تتركه حتى تمدد تحت الغطاء ، ولكنه لم ينم ، وكان النوم أعجز من أن يغلب اليقظة المـاكرة التى تنبعث فى شـعوره ، فلم يلبث أن وثب من السرير ومضى الى سـمعه وقع أقدام أمه وهى ترقى السـلم الى الدور الأعلى ، ثم فتح الباب وجرى الى حجرة شقيقتيه ودفع بابهـا ودخل دون أن يغلقه ليوسع للمصباح المعلق بالصالة منفذا يضىء منه جانبا من الظلمة الغاشية فى الداخل ، وهرع الى الفراش وهو يهمس « أبلة خديجة ! » فجلست الفتاة فى الفراش دهشة فوثب الى جانبها وهو يلهث من الانفعال ، وكأنه لم يقنع بمستمعة واحدة ليستودعها السر الذى أطار النوم من عينيه فمـد يده الى جسم عائشة وهزه ولكن الفتاة كانت قد تنبهت الى القادم وأزاحت عنها الغطاء ثم رفعت رأسها بين الاستطلاع والاحتجاج متسائلة :

ـ ماذا جاء بك الآن ؟

لم يأبه للهجة الاحتجاج لأنه كان على يقين من أن كلمة واحدة يشير بها الى سره خليقة بأن تقلبهما رأسا على عقب ، وقفز لهذا قلبه بهجة وسرورا ، ثم قال هامسا كأنه يحاذر أن يسمعه رابع :

ـ عندى سر غريب . .

فسألته خديجة :

ـ اى سر هذا ؟! .. هات ما عندك وأرنا شطارتك ..

ولم يعد باستطاعنه الكتمان فقال :

ـ أخى فهمى يريد أن يخطب مريم ..

عند ذاك جلست عائشة فى الفراش بدورها فى حركة آلية سريعة كأنما التصريح رشة ماء بارد ألقيت فى وجه وسنان ، وتقاربت الأشباح الثلاثة فى شكل هرمى كما بدا على الضوء الخافت النافذ الى الحجرة والمنعكس على أرضها فيما يلى الباب ألمفتوح على هيئة متوازى الأضلاع متبذب الأطراف تبعا لذبذبة ذبالة المصباح الذى تعرض ، بترك ألباب مفتوحا ـ الى تيار وان نسم من خصائص النافذة الى الصالة فى لطف همسات تذيع سرا ، ثم تساءلت خديجة فى اهتمام :

ـ كيف عرفت هذا ؟

ـ تركت فراشى لأحضر كراسة الانجليزى ، وعند باب أخى جاءنى صوته وهو يتكلم فلبثت فى الكنبة ثم أعاد على مسمعيهما ما تسرب اليه من وزاء الباب الموارب وهما ينصتان اليه فى اهتمام ملك عليهما الأنفاس حتى فرغ من حديثه ؛ وهنا تساءلت عائشة كأن بها حاجة الى المزيد من الاقتناع :

ـ أتصدقين هذا ؟

فقالت خديجة بصوت كأنه ينبعث من تليفون بمدينة بعيدة :

ـ أتتصورين أن يخترع هذا « مشيرة الى كمال » حكاية طويلة عريضة كهذه ؟

ـ لك حق « ثم ضاحكة لتخفف من حدة اهتمامها » اختلاق موت غلام فى الطريق شىء ، أما هذه الحكاية فشىء آخر ..

فتساءلت خديجة دون أن تلقى بالا الى احتجاج كمال الذى اعترض على التعريض به :

ـ كيف وقع هذا يا ترى ؟!

فضحكت عائشة قائلة :

ـ ألم أقل لك مرة أني أشـــك فى أن اللبلاب هو الذى يدعو فهمى الى السطح كل يوم ؟ !
ـ انه اللبلاب الآخر الذى التف حول ساقه هو .

فترنمت عائشة بصوت خفيض :

ـ لا ملام عليك يا عيونى فى حبه .

فنهرتها خديجة قائلة :

ـ هس .. ليس هــذا وقت الغنــاء .. مريم فى العشرين وفهمى فى الثامنة عشرة .. كيف توافق نينة على هذا ؟ !

ـ نينة ؟ ! .. نينة حمامة وديعة لا تدرى كيف تقـول لا ، ولكن صبرا ، أليس من الحق أن أقول أن مريم جميلة وطيبة ؟ !.. ثم ان بيتنا هوالبيت الوحيد فى الحى الذى لم يعرف الأفراح بعد..

كانت خديجة ـ كعائشة ـ تحب مريم ، ولكن الحب لم يستطع أبدا أن يخفى عن عينيها مواضع الانتقاد فى المحبوب أيا كان شأنه ، فلم يكن يعجزها ـ عند الضرورة ـ الوقوف عند مواضع الانتقاد فحسب ، ولما كانت سيرة الزواج تثير مخاوفها الكامنة ، وغيرتها ، فقد انقلبت على صديقتها دون مشـــقة ، وأبى قلبها أن يقبلهـــا زوجة لأخيها ، ومضت تقول :

ـ مجنونة أنت ؟ ! .. مريم جميلة ولكنها دون فهمى بمراحل بعيدة .. فهمى يا حمارة طالب بالعالى ، وسيكون قاضيا يوما ما ، فهل تتصورين مريم زوجة لقاض كبير المقام ؟ ! .. انها مثلنا على أكثر تقدير ، بل هى دوننا فى أكثر من ناحيـــة ولن تتزوج أحدانا بقاض .. !

وتساءلت عائشـــة فى نفسها : « من قال القاضى أحســـن من الضابط ! ! » ثم سألتها محتجة :

ـ لم لا ؟ !

فواصلت الأخرى حديثها دون اهتمام باعتراضها :

ـ يستطيع فهمى أن يتزوج بفتاة أجمل من مريم مائة مرة ،

وفى نفس الوقت تكون متعلمة وغنية وبنت بك أو حتى باشا ، فلماذا يتسرع بخطبة مريم ؟! .. ما هى الا أمية طويلة اللسان ، أنت لا تعرفينها كما أعرفها ..

وأدركت عائشة أن مريم انقلبت فى نظر خديجة الى جملة من العيوب والنقائص ، بيد أنها لم تتمالك نفسها — حيال وصفها بطول اللسان تلك الصفة التى لخديجة منها أكبر نصيب — من أن تبتسم مستترة بالظلمة ، وتحاشت اثارتها فقالت بتسليم :

— لندع الأمر لله ..

فقالت خديجة بثقة وايمان :

— الأمر لله فى السماء ولأبى فى الأرض وسوف نرى ماذا يكون رأيه غدا .. « ثم موجهة الخطاب الى كمال » .. آن لك أن تعود الى سريرك بسلام ..

عاد كمال الى حجرته وهو يقول لنفسه : « لم يبق الا ياسين ، وسأخبره غدا .. » .

— ٢٠ —

جلست خديجة وعائشة القرفصاء متواجهتين لصق الضلفة المغلقة من باب حجرة الوالدين بالدور الأعلى وهما تكتمان أنفاسهما فى حذر وتمدان آذانهما الى الداخل فى اهتمام وتلقف . كان الوقت قبيل العصر بقليل ، وكان السيد قد نهض من قيلولته فتوضأ وجلس كعادته يحتسى القهوة منتظرا الأذان ليصلى قبل عودته الى الدكان ، فتوقعت الأختان أن تفاتح الأم أباهما فى الأمر الذى أنبأهما عنه كمال اذ لم يكن أنسب لذلك الغرض من هذا الوقت . وتناهى اليهما من الداخل صوت أبيهما الجهورى وهو يتحدث

عن أمور البيت العادية فأنصتتا فى جزع وترقب وهما تتبادلان النظر متسائلتين حتى سمعتا أخيرا الأم وهى تقول فى أدب بالغ ولهجة خاشعة :

ــ سيدى ، اذا أذنت لى حدثتك عن شأن رجانى فهمى أن أبلغك اياه .

عند ذاك أومأت عائشة بذقنها الى الداخل كأنها تقول « هذا هو الحديث » على حين راحت خديجة تتخيل حال أمها وهى تتهيأ للكلام الخطير فرق قلبها لها وعضت على شفتيها فى أشفاق شديد ، ثم جاءهما صوت السيد وهو يتساءل :

ــ ماذا يريد ؟

وساد الصمت قليلا ، أو طويلا بالقياس الى اللتين تسترقان السمع ، ثم قالت المرأة برقة :

ــ فهمى يا سيدى شاب طيب ، حاز رضاك بجده وتفوقه وأدبه ، حماه الله من شر الأعين ، ولعله بلغنى رجاءه ! ادلالا بمنزلته عند والده ..

فقال الأب بلهجة تخيلتاه معها راضيا :

ــ ماذا يريد ؟ .. تكلمى ..

ومال رأساهما نحو الباب وكل منهما تحملق فى الأخرى ولا تكاد تراها فجاءهما الصوت المتهافت وهو يقول :

ــ سيدى يعرف جارنا الطيب السيد محمد رضوان .. ؟

ــ طبعا ..

ــ رجل فاضل مثل سيدى وأسرة كريمة وجيران ولا كل الجيران ..

ــ نعم ..

واستطردت بعد تردد :

ــ فهمى يسأل يا سيدى هل يجيز له والده أن . . يخطب مريم كريمة جارنا الطيب لتبقى على ذمته حتى يصير أهلا للزواج ؟

وهنا علا صوت السيد وقد غلظت نبراته بالغضب والاستنكار :

ـ يخطب ؟! .. ماذا تقولين يا ولية ؟ .. هذا الغلام ! .. ما شاء الله .. أعيدى على سمعى ما قلت ..

فقالت الأم بصوت متهدج وقد تخيلتها خديجة وهى تنكمش فى ذعر :

ـ ليس الا انه يتساءل ، مجرد تساؤل ياسيدى والأمر لك ..

فقال الصوت المتفجر بالغضب :

ـ لا عهد لى ولا له بهذا التدلل المائع ، ولا ادرى ما الذى أتلف تلميذا حتى يتمادى فى مطالبه الى هذا الحد ؟ .. ولكن أما مثلك خليقة بأن تفسد أبناءها ، فلو كنت أما كما ينبغى لما جسر على مفاتحتك بمثل هذا الهذر الوقح ..

ركب الفتاتين خوف ووجوم خالطهما فى قلب خديجة ارتياح ، ثم سمعا صوت الأم المتهدج المستخذى وهى تقول :

ـ لا تجشم نفسك مشقة الغضب يا سيدى ، كل شىء يهون الا غضبك ، ما قصدت من ناحيتى اساءة قط ، ولا تخيلها ابنى وهو يحملنى رغبته ببراءة ، ولكنه رجانى بحسن نية فرأيت أن أعرض الأمر عليك ، وما دام هذا هو رأيك فسأبلغه اياه ، وسيذعن له بكل خضوع كما يذعن لأمرك دائما ..

ـ سيذعن أراد أم لم يرد ، ولكنى أريد أن أقول لك انك أم ضعيفة لا يرجى منها خير .

ـ انى أتعهدهم بما توصى به ..

ـ خبرينى عما دعاه الى التفكير فى هذا الرجاء ؟

وأرهفت الفتاتان السمع فى اهتمام وانزعاج وقد فاجأهما هذا السؤال الذى لم يتوقعاه ، ولكنهما لم تسمعا لأمهما جوابا وتصورتاها وهى ترمش فى ارتباك وخوف فعطف قلباهما فى اشفاق شديد :

ـ ماذا أخرسك ؟ .. خبرينى هل رآها ؟

ـ كلا يا سـيدى ، ان ابنى لا يرفع عينيه الى جارة ولا الى غيرها . . .

ـ كيف رغب فى خطبتها دون أن يراها ؟ . . . ما كنت أحسب أن لى أبناء يسترقون النظر الى حرمات الجيران !

ـ معاذ الله يا سيدى معاذ الله . . ان ابنى اذا سار فى الطريق لا يلتفت يمنة ولا يسرة ، وهو فى البيت لا يكاد يغـادر حجرته الا لضرورة . .

ـ ما الذى دعاه الى طلابها اذن ؟

ـ لعله يا سيدى سمع شقيقتيه وهما تتحادثان عنها . .

وسرت فى بدن الفتاتين رعدة شديدة ففغرتا ثغريهما فى فزع وهما تنصتان . .

ـ ومتى كانت شقيقتاه خاطبتين ! . . يا سبحان الله أينبغى أن أهجر دكانى وعملى وأقبع فى البيت لأضبطه وأدفع عنه الفساد !

فهتفت الأم فى نبرات باكية :

ـ بيتك أشرف البيوت ، بالله يا سيدى ألا ما هونت عليك الغضب ، انتهى الأمر وكأن ما كان لم يكن . .

فصاح الرجل بصوت ملؤه الوعيد :

ـ قولى له أن يتأدب ويستحى ويلزم حدوده ، وأن من الخير أن يتفرغ لدروسه . .

وسمعت الفتاتان حركة فى الداخل فقامتا فى حذر وابتعدتا عن الباب على أطراف أصابعهما . .

رأت الست أمينة أن تغادر الحجرة كشأنها اذا ند عنها عفوا ما يثير غضبه فلا تعود اليها بعد ذلك الا اذا دعاها ؛ اذ علمتها التجربة أن مكثها بين يديه حال الغضب ثم سعيها الى تسكيته برقيق الكلام لايزيد النار الا استعارا . ووجد السيد نفسه وحيدا فزايلته آثار الغضب المحسوسة الذى تثور عادة فى عينيه وبشرة

وجهه وحركات يديه وكلامه ، ولكن بقى الغضب فى أعماق صدره كالعكارة فى قعر القِدر .

من المحقق أنه كان يغضب فى البيت لأتفه الأسباب لا اتباعا لخطته الموضوعة فى سياسة بيته فحسب ، ولكن مدفوعا كذلك بحدة طبعه التى لا تشكمها بين آله فرملة الكياسة التى يتقن استعمالها خارج البيت ، وربما ترويحا عما يعانى بين الناس كثيرا من ضبط النفس والتسامح واللطف ومراعاة الخاطر واكتساب القلوب بأى ثمن ، وليس بالنادر أن يتضح له أنه استسلم للغضب فى غير موجب ولكنه حتى فى تلك الحال لا يندم على ما فرط منه لاعتقاده بأن غضبته للتافه من الأمر عسية بأن تمنع وقوع الخطير منه مما يستحق الغضب عن جدارة ، بيد أنه لم يعد ما بلغه عن فهمى ذلك اليوم هفوة تافهة بل رأى فيها نزوة قبيحة لا يجوز أن تعتلج فى نفس تلميذ من آل بيته ، وما كان يتصور أن تتسرب « العواطف » الى بنيان البيت الذى يحرص على أن يشب فى جو من النقاء الصارم والطهارة المنقشعة . ثم جاءت صلاة العصر فرصة طيبة لرياضة النفس خرج منها أهدأ قلبا وأروح بالا ، فوسعه أن يتربع على سجادة الصلاة ويبسط راحتيه ويسأل الله أن يبارك له فى ذريته وماله ، وأن يدعو خاصة لفخر أبنائه بالهدى والرشاد والتوفيق ، فلما أن غادر البيت كان تجهمه مظاهرة يزاد بها التخويف لا أكثر . وفى الدكان التقى ببعض الأصدقاء فقص عليهم « نادرة اليوم » لا كفاجعة لأنه كان يكره أن يلقى أحدا بالفاجعات ، ولكن كدعابة سخيفة ، فعلقوا عليها بما حلا لهم من المزاح ، فلم يلبث أن شاركهم مزاحهم ؟ فغادروه وهو يقهقه فى غير تحفظ . بدت له « النادرة » فى الدكان على غير ما بدت فى حجرته بالبيت ، وأمكنه أن يضحك منها ، بل وأن يعطف عليها ، حتى قال لنفسه أخيرا باسما راضيا « من شابه أباه فما ظلم » . .

- ٢١ -

حين مرق كمال من باب البيت كان المساء يزحف فى خطوات حاسمة غاشيا الطرقات والأزقة والمآذن والقباب ، ولعله لم يعدل بسروره بهذه الخرجة المفاجئـة التى قل أن تتاح له فى مثل ذلك الوقت المتأخر الا زهوه بالرسالة الشفوية التى حمله اياها فهمى ، فلم يغب عنه أنه عهد بها اليه وحده دون غيره ، فى جو من السرية والتكتم الأمر الذى أضفى عليها ــ وعليه بالتالى ــ أهمية خاصة أحسها قلبه الصغير ورقص لها طربا وفخارا . وتساءل فى عجب عما زلزل فهمى حتى ركبته حال من القلق والحزن وبدأ فى لباسها القاتم شخصا غريبا لم يره ولم يسمعه من قبل ، هو مثال وحده ، ان أباه يثور كالبركان لأتفه الأسباب ، وأن ياسـين على حـلاوة حديثه قابل للالتهاب ، حتى خديجة وعائشة لا تخلوان من نوبات عفرتة ، هو مثال وحده ، ضحكه ابتسام وغضبه تقطيب ، وهدوءه عميق على صدق عواطفه وأصالة حماسه ، فلم يذكر أنه رآه على الحال التى رآه عليها اليوم . لن ينسى كيف خلا اليـه فى حجرة المذاكرة ، بصر زائغ ونفس مضطرب وصوت متهدج ، ولا كيف خاطبه لأول مرة فى حياته بلهجة توسـل حارة عجب لهـا أشد العجب حتى استوجب حفظ الرسالة التى حملها أن تكرر عليه مرات ومرات . وقد أدرك من فحوى الرســالة نفسها أن الأمر صلة وثيقة بالحديث الغريب الذى استرق السمع اليه من وراء الباب ، والذى نقله الى شقيقتيه فأثار بينهما جدلا ونزاعا ، وبالجملة انه يتعلق بمريم ، تلك الفتاة التى كثيرا ما تعابثه ويعابثها ، ويأنس اليها حينا ويضجر منها حينا آخر ، دون أن يعرف لها هذه الخطورة

التى أحاطت بهدوء أخيه وسلامته . مريم ؟ ! .. لماذا استطاعت دون سائر البشر أن تفعل هذا كله بأخيه العزيز الرائع ! !. ووجد فى الجو غموضــا ، كذلك الغموض الذى يكتنف حيــاة الأرواح والأشباح ، والذى طالما استثار حب استطلاعه وخوفه ، فتوثب قلبه للنفاذ الى مكنون سره فى تطلع وحيرة . ولكن حيرته لم تصرفه عن تسميع الرسالة لنفسه كما سمعها لأخيه من قبل حتى يضمن الا يضيع منه حرف واحد من مضمونها فمر تحت بيت آل رضوان وهو يستعيدها ، ثم مال الى أول عطفة تليه حيث يوجـد باب البيت . لم يكن البيت بالغريب عنه ، فطالما تسلل الى فنائه الصغير حيث تنزوى فى ركن منه عربة يد مندثرة العجلات كان يركبهــا مستعينا بخياله على اصلاح عجلاتها وتحريكها حيث شاء ، وطالما تردد بين حجراته بغير استئذان فقوبل بالترحيب والمداعبة من ربة البيت وابنتها اللتين يعدهما « على حداثة سنه » صديقتين قديمتين ، فكان يألف البيت بحجراته الثلاث التى تتوسطها صالة صغيرة وضعت بها ماكينة خياطة وراء النـافذة التى تطل على حمام السلطان مباشرة كما يألف بيته بحجراته الواسعة وبصالته الكبيرة حيث يجتمع مجلس القهوة مساء بعد مساء . والى هــذا خلفت بعض متعلقات البيت أثراً فى نفسه استجابت له عهداً طويلا من صباه ، كعش يمامة فى أعلى المشربية المتصلة بحجرة مريم الذى تبدو حافته فوق ركن المشربية الملتصق بالجدار كقطع من محيط دائرة يشتبك حوله القش والريش ويلوح منه أحيانا ذيل اليمامة الأم أو منقارها كيفما اتفق وضعها فيتطلع اليه تتنازعه رغبتان ، احـداهما ــ وهى المنبعثــة من نفســه ــ تدعوه الى العبث به واختطاف الصغار ، والأخرى ــ وهى المكتسبة عن أمه ــ توقفه عند حد التطلع والعطف والمشـاركة الخيـالية فى حيـاة اليمامة وأسرتها ، وكصورة للســفيرة عزيزة معلقة بحجرة مريم أيضــا زاهية الألوان رقراقة البشرة وسيمة القسمات فاقت بجمــالها

الحسناء التى تطالعه صورتها عصر كل يوم بدكان ماتوسيان فكان يديم النظر اليها متسائلا عن « حكايتها » فتقص عليــه مريم من أنبائها ما تعلم وما لا تعلم بزلاقة لســان تستهويه وتســتأثره .
لم يكن البيت بالغريب عليه اذن ، فشق سبيله الى الصالة دون أن يشــعر به أحد ، وألقى على أولى الحجرات نظرة عابرة فلمح السيد محمد رضــوان راقدا فى فراشــه كما أعتاد أن يراه منــذ سنوات . كان يعلم أن الشيخ مريض ، وقد سمع عنه كثيرا أنه مشلول ، حتى سأل أمه مرة عن معنى الشلل .. فجزعت وراحت تستعيذ بالله من شر الاسم الذى نطق به فانكمش متراجعا ، ومنذ ذلك اليوم والســيد يستثير رثاءه واستطلاعه المقرون بالخوف .
ثم مر بالحجرة التالية فرأى أم مريم واقفــة أمام المرآة وبيدها ما يشبه العجين تمطه فوق خدها وعنقها وتجذبه جذبات سريعة متتابعة ثم تتحسس موضــعه من بشرتها بأناملها لتعرف مسه وتطمئن الى نعومتــه ، ومع أنها كانت فى الأربعين الا أنهــا كانت بارعة الحسن كابنتها ، شغوفة بالضحك والدعابة ، فما تلقاه حتى تقبل عليه فى مرح فتقبله ثم تسأله فيما يشبه نفاد الصبر « متى تبلغ رشدك لأتزوجك ؟» فيعلوه الحيــاء والارتباك وأن اســتلذ مداعباتها وود الاكثار منها . وكم أثارت فضوله هذه العملية التى تعكف عليها من حين لآخر أمام المرآة ، وقد ســأل أمه عنها مرة فنهرته ــ والنهر أقصى ما تمارس من ضروب التأديب ــ مؤنبة اياه على سؤاله عما لا يعنيه ، بيد أن أم مريم أكبر سماحة ورقة فلما لحظته مرة يرمقها بدهشة أوقفته على مقعد أمامها ولزقت بأنامله ماحسبه أول الأمر عجينة وبسطت له صفحة وجهها وقالت ضاحكة « اشتغل وأرنى شطارتك » فمضى يقلد حركاتها حتى أثبت لها شطارته بخفة غبطته عليها ، ولكنه الم يقنع بلذة التجربة فسألها « لماذا تفعلين هذا ؟ » فقهقهت قائلة « هلا انتظرت عشرة أعوام أخرى حتى تعرف بنفسك ؟ ! . ولكن لا داعى للانتظــار

أليست البشرة الناعمة أحسن من الخشنة ؟ .. هذه هى ؟ .. »
وقد مر ببابها بخفة حتى لا يشعرها بنفسه لأن رسالته كانت أخطر من أن تسمح له بمقابلة أحد الا مريم ، وجدها فى الحجرة الأخيرة متربعة على فراشها تقزقز لبا وبين يديها طبق فنجان قد امتلأ بالقشر فلما رأته قالت بدهشة :

ـ كمال ! .. « كادت تسأله عما جاء به فى هذه الساعة ولكنها عدلت عما همت به أن تخيفه أو تخجله » .. شرفت البيت .. تعال اجلس الى جانبى ..

فمد لها يده بالسلام ، ثم فك أزرار حذائه ذى الرقبة الطويلة وخلعه ، ووثب الى الفراش فى جلباب مقلم وطاقية زرقاء منمنمة بخطوط حمراء ـ وضحكت مريم ضحكتها الرقيقة ودست فى يده شوية لب وهى تقول ـ قزقز يا عصفور وحرك أسنانك اللؤلؤية .. أتذكر يوم عضضت معصمى وأنا أدغدغك .. هكذا .. ومدت يدها صوب ابطه ولكنه ـ بحركة عكسية ـ شبك ذراعيه على صدره ليحمى ابطيه ، وندت عنه ضحكة عصبية كما لو كانت أناملها دغدغته بالفعل ، ثم هتف بها :

ـ فى عرضك يا أبلة مريم ..

فأمسكت عنه وهى تتعجب من خوفه قائلة :

ـ لماذا يقشعر بدنك من الدغدغة ؟ ! .. انظر الى كيف لا أبالى بها ..

وراحت تدغدغ نفسها باستهانة وهى ترميه بنظرة ازدراء فلم يملك أن قال لها متحديا :

ـ دعينى أدغدغك أنا وسنرى .. !

فما كان منها الا أن رفعت ذراعيها فوق رأسها فغرس أصابعه تحت ابطيها وراح يدغدغهما بما وسعه من خفة وسرعة ، مثبتا عينيه فى عينيها السوداوين الجميلتين ليتلقف أول بادرة تضعضع

عنها ، حتى اضطر أن يسترد يديه متنهدا فى يأس وخجل فشيعته بضحكة رقيقة ساخرة وقالت :

ـ أرأيت أيها الرجل الصغير العاجز ! .. لا تزعم أنك رجل بعد اليوم « ثم بلهجة من تذكر أمرا هاما بغتة » .. يا داهيتى ! .. نسيت أن تقبلنى ! .. ألم أنبه عليك مرارا بأن تكون تحية لقائنا قبلة ؟ ! وأدنت وجهها منه فمد شفتيه ولثم خدها ، ثم رأى فتاتا من اللب المتسرب من زاوية فيه قد التصق بخدها فأزاله بأنامله فى حياء ، أما مريم فتناولت ذقنه بأنامل يمناها وقبلت شفتيه مرة ومرة ، ثم سألته فيما يشبه الاعجاب :

ـ كيف استطعت أن تفلت من بين أيديهم فى هذه الساعة !؟. لعل تيزة تبحث عنك الآن فى كل حجرات البيت ..

آه .. لقد استنام الى الحديث واللعب حتى أوشك أن ينسى الرسالة التى جاء من أجلها ، ولكن تساؤلها ذكره بهمته فرنا اليها بعين أخرى . العين التى تود أن تنقب فى ذاتها عن السر الذى زلزل أخاه الرزين الطيب . الا أن تشوفه تهافت حيال شعوره بأنه يحمل أنباء غير سارة ، فقال بوجوم :

ـ فهمى الذى أرسلنى ..

ارتسمت فى عينيها نظرة جديدة تفيض جدا ، وتفرست فى وجهه باهتمام لترى ما وراءه فشعر بأن الجو قد تغير كأنما انتقل من فصل الى فصل ، ثم سمعها تسأل بصوت خافت :

ـ لم ؟ ! ..

فقال لها بصراحة دلت على أنه لم يقدر خطورة الأنباء التى يحملها رغم شعوره الفطرى بخطورتها ...

ـ قال لى بلغها تحياتى وقل لها انه استأذن والده فى خطبتها ولكنه لم يوافق على أن يعلن خطبته وهو تلميذ ، وطلب اليه أن ينتظر حتى يتم دراسته ..

كانت تحدق الى وجهه باهتمام شديد فلما بلغ السكوت

خفضت عينيها دون أن تنبس بكلمة ، فغشيت الجلسة صمتة واجمة ضاق بها قلبه الصغير ، وتلهف على كشفها مهما كلفه الأمر فقال :

ـ انه يؤكد لك أن الرفض جاء على رغمه وأنه يتعجل السنين حتى يحقق ما يتمنى ..

ولما لم يجد لكلامه أثرا فى اخراجها من غشاوة الصمت ازداد تلهفه على اعادتها الى ما كانت عليه من بهجة ومرح فقال باغراء :

ـ هل أحدثك عما دار بين فهمى وبين نينة من حديث عنك ؟

فتساءلت بلهجة بين الاكتراث وعدمه :

ـ ماذا قال وماذا قالت ؟

فانشرح صدره بهذا النجاح الجزئى وقص عليها ما ترامى اليه من حديث من وراء الباب حتى أتى عليه ، فخيل اليه أنها تتنهد ، ثم قالت ببرم :

ـ ان والدك رجل شديد مخيف ، الكل يعرفه هكذا ..

فقال وهو لا يدرى :

ـ نعم ... أبى كذلك ...

ورفع رأسه اليها فى خوف وحذر ولكنه وجدها كالغائبة ، فسألها متذكرا ما وصاه به أخوه :

ـ ماذا أقول له ؟

فضحكت من أنفها وهى تهز كتفيها ، وهمت بالكلام ، ولكنها أمسكت متفكرة مليا ، ثم قالت وقد التمعت فى عينيها نظرة ماكرة :

ـ قل له انها لا تدرى ماذا تفعل لو تقدم لها خاطب فى أثناء هذه المدة الطويلة من الانتظار .. !

وعنى كمال بحفظ الرسالة الجديدة أكثر مما عنى بفهمها ، وسرعان ما شعر بأن مهمته قد انتهت فأودع بقية اللب جيب جلبابه ، ومد لها يده بالسلام ، ثم انزلق الى أرض الحجرة ومضى خارجا ..

- ٢٢ -

بدت عائشة وهى تنظر فى المرآة شديدة الاعجاب بنفسها ، دون الأسرة اللامعة ، بل أى فتاة فى الحى كله تتحلى بمثل هذه الخصلات الذهبية وهاتين العينين الزرقاوين ؟! . . أن ياسين يتغزل بها جهارا ، وفهمى لا يخلو اذا تحدث اليها لأمر أو لآخر من نظرات تنم عن الاعجاب ، حتى كمال الصغير لا يحلو له الشراب من قلة الا من الموضع المبتل بريقها ، وهذه أمها تدللها فتدعوها « قمر » وان لم تخف قلقها نحو نحافتها ورقتها الأمر الذى جعلها تحث أم حنفى على تركيب وصفة لتسمينها . أما عائشة نفسها فلعلها كانت أعرف الجميع بحسنها البارع كما تدل عليه عنايتها الشديدة به واستئناسها اليه . على أن هذه العناية المفرطة لم تمر بخديجة دون تعليق ، بل مؤاخذة وتقريع ، لا لأنها تستنيم الى الاهمال فالحق أن خديجة هى الوريثة الأولى لأمها فى الولع بالنظافة والأناقة ، ولكن لأنها رأت الفتاة تستقبل النهار عادة بتمشيط شعرها واصلاح هندامها حتى قبل القيام بواجبات المنزل كأنها لا تطيق أن يبقى جمالها ساعة من العمر غير محاط بالعناية والرعاية . ولكن لم تكن العناية بالجمال وحدها هى الباعث على هذا التجمل الباكر ، فعند ذهاب الرجال كل الى عمله ـ تأوى الى حجرة الاستقبال وتفرج بين ضلفتى الشباك المطل على بين القصرين زيقا رقيقا فتقف وراءه مادة بصرها الى الطريق ، يعلوها قلق الانتظار واضطراب الخوف . هكذا وقفت ذاك الصباح فظل طرفها حائرا ما بين حمام السلطان وسبيل بين القصرين وفؤادها الفتى يواصل خفقاته حتى تراءى عن بعد

« المنتظر » وهو ينعـطف قادما من الخرنفش خاطرا فى بدلتـه العسكرية والنجمتان تلمعان على كتفه ، وجعل كلما اقترب من البيت يرفع فى حذر عينيه دون رأسه ، حتى تدانى من البيت فهفت فى أساريره ابتسامة خفيفة آية فى الخفة ــ تدرك بالقلب أكثر مما تدرك بالحواس ــ كأنها الهلال فى ليلته الأولى ، ثم اختفى تحت المشربية فاستدارت فى عجلة لتتابع مشاهدته من النافذة الأخرى المطلة على النحاسـين فما راعهـا الا أن ترى خديجـة منتصـبة على الكنبة بين النافذتين ملقية بنظرها الى الطريق من فوق رأسـها .. ! فرت منها آهة ، واتسـعت عيناها فى رعب فاضح ، فتسمرت فى موقفها .. متى وكيف جاءت ! كيف علت الكنبة دون أن تشعر بها ؟!.. وماذا رأت ؟ !.. متى وكيف وماذا ؟ أما خديجة فقد ثبتت بصرها عليها وهى تضيق عينيهـا رويدا صامتة ، مطيلة الصمت كأنما لتطيل تعذيبها . ثم تمالكت عائشـة بعض نفسها فخفضت عينيها فى جهد شديد ومالت نحو الفراش متظاهرة ــ عبثا ــ بضبط الأعصاب وهى تغمغم :

ــ أرعبتنى يا شيخة .. !

لم تبد خديجة اكتراثا ، ظلت بموقفها على الكنبة وعيناها على الطريق خلل الزيق .. ثم تمتمت ساخرة :

ــ أرعبتك ؟ ! .. اسم الله عليك ! .. أصلى بعبع .. !

وعضت عائشة على نواجذها فى غيظ وحنق ويأس بعد أن تراجعت قليلا الى مأمن من عينيها ، الا أنها قالت بصوت هادىء :

ــ رأيتك فجأة فوق رأسى دون أن أشعر بدخولك ، لمـاذا تسترقين الخطو ؟

فوثبت خديجة الى الأرض ، ثم جلست على الكنبة فى استرخاء ساخر وهى تقول :

ــ آسفة يا أختى ، فى المرة القادمة سأعلق جرسا فى عنقى مثل عربة المطافىء لتنتبهى الى حضورى فلا ترتعبين .

فقالت عائشة فى ضيق والرعب لم يفارقها :

ــ لا لزوم لتعليق الجرس ، حسبك أن تسيرى كالناس الذين خلقهم ربنا ..

فقالت الأخرى بنفس اللهجة الساخرة وهى ترميها بنظرة ذات معنى :

ــ ربنا يعلم أنى أسير كالناس الذين خلقهم ، ولكن الظاهر أنك اذا وقفت وراء النافذة ــ أقصد وراء هذا الزيق ــ استغرقت فيما أمامك بحيث تفقدين الوعى بما حولك فلا تبقين كالناس الذين خلقهم ربنا .

فنفخت عائشة مغمغمة :

ــ هكذا أنت دائما .

وعادت خديجة الى الصمت قليلا ، ثم حولت عينيها عن فريستها ، ورفعت حاجبيها كأنما تفكر فى مشكل عسير ، ثم تظاهرت بالسرور كأنما اهتدت للحل الموفق ، وقالت مخاطبة نفسها هذه المرة دون أن تنظر الى الأخرى :

ــ اذن لهذا فهى تغنى كثيرا « يا بو الشريط الأحمر ياللى أسرتنى ترحم ذلى » ! .. وكم حسبته بسلامة نيتى يا عينى غناء بريئا لمجرد التسلية !

وخفق قلب الفتاة خفقة قاسية ، وقع المحذور ولم يعد ينفع التعلق بأوهام الأمانى الكاذبة ، وركبها اضطراب زلزل أركان نفسها فكادت تشرق بالبكاء ، الا أن اليأس نفسه دفعها الى الاستماتة فى الذود عن نفسها فهتفت بصوت طمس اضطراب نبراته معانيه :

ــ ما هذا الكلام غير المفهوم !

ولكن لم يبد على خديجة أنها سمعت كلامها فواصلت مخاطبة نفسها قائلة :

ــ ولهذا أيضا تتزين فى الصباح الباكر ! طالما ساءلت نفسى

أيعقل أن تتبرج بنت قبل الكنس والتنفيض ؟ ! . ولكن أى كنس وأى تنفيض يا خديجة يا مسـكينة ، يا من ستعيشين بلهـاء ، وتموتين بلهاء ، أكنسى أنت ونفضى أنت ، ولا تتزينى لا قبل العمل ولا حتى بعـده ، ولماذا تتزينين يا تعيسـة ؟ ! انظرى من زيق الشباك من اليوم الى الغد فان اعتنى بك عسـكرى دورية أقطع ذراعى !

فهتفت عائشة فى اضطراب وعصبية :

ــ حرام عليك .. حرام .

ــ لها حق يا خديجة ، هذه فنون لا تستطيعين فهمها بعقلك المظلم ، عيون زرق ، وشـعر من سبائك الذهب ، شريط أحمر ونجمة لامعة ، شىء مفهوم ومعقول .

ــ خديجة ، أنت مخطئة ، كنت أنظر الى الطريق فحسب ، لا لأرى أحدا ولا ليرانى أحد ، فالتفتت خديجة اليها كأنما تنتبه الى اعتراضها لأول مرة وتساءلت كالمعتذرة :

ــ هل تخاطبيننى يا شوشو ؟ ! لا مؤاخذة انى أفكر فى بعض الأمور الهامة فأجلى حديثك الى حين ، وعادت تهز رأسها فى تفكير وتخاطب نفسها قائلة :

ــ شىء مفهوم ومعقول ، ولكن ما ذنبك أنت يا سيد أحمد عبد الجواد ؟ ! أسفى عليك يا سيد يا شريف يا كريم ، تعال شوف حريمك يا سيدى وتاج رأسى !

وقف شعر الفتاة عند سماع اسم أبيها ، فدار رأسها ، وورد على ذهنها قول السيد لأمها وهو يحمل على رغبة فهمى فى خطبة مريم « أخبرينى هل رآها ؟ » .. « ما كنت أحسب أن لى أبناء يسترقون النظر الى حرمات الجيران » هـذا رأيه فى الابن فكيف يكون فى البنت ! وهتفت بصوت مخنوق النبرات :

ــ خديجة .. لا يليق هذا .. أنت مخطئة .. أنت مخطئة .

ولكن خديجة تابعت حديثها دون التفات اليها :

ـ ترى أهذا هو الحب ؟ أيكن ! ألم يقولوا عنه : « الحب كبش فى قلبى .. قربت أروح منه طوكر » .

ترى أين طوكر هذه ؟ ! لعلها فى النحاسين ، بل لعلها فى بيت السيد أحمد عبد الجواد .

ـ لم أعد أحتمل كلامك ، ارحمينى من لسانك ، رباه .. لماذا لا تصدقيننى ؟ !

ـ تدبرى أمرك يا خديجة ، ليس ما نحن فيه لعبا ، وأنت الأخت الكبرى ، والواجب هو الواجب مهما بدا مرا ، يجب أن يعلم أولو الشأن ، هل تفضين بالسر الى والدك ؟ ! الحق أنى لا أدرى كيف أخاطبه فى مثل هذا السر الخطير ، ياسين ؟ ! ولكنه كعدمه وغاية ما يرجى منه أن يترنم بكلام غير مفهوم ، فهمى ؟ ولكنه يعطف بدوره على الشعر الذهبى أصل البلوى كلها ، أظن من الأفضل أن أخبر نينة ، وأترك لها التصرف بما ترى .

وندت عنها حركة كأنها تهم بالقيام فهرعت عائشة اليها كدجاجة مذبوحة وأمسكت بكتفيها صائحة بصدر يعلو وينخفض :

ـ ماذا تريدين ؟

فتساءلت خديجة :

ـ أتهددينني ؟ !

همت عائشة بالكلام فخنقتها العبرات بغتة وهينمت بكلام مزقه البكاء شر ممزق ، وجعلت خديجة تحدق اليها صامتة متفكرة ، ثم زايل أساريرها عبث السخرية حتى تجهم وجهها وهى تصغى فى غير ارتياح الى نشيج الفتاة ، ثم قالت بلهجة جدية لأول مرة :

ـ لقد أخطأت يا عائشة .

وأمسكت ووجهها يشتد تجهمه ، وكأن أنفها ازداد بروزا ، وبدا عليها التأثر واضحا ، فاستطردت قائلة :

ــ يجب أن تقرى بخطئك ، خبرينى كيف سولت لك نفسك هذا العبث يا مجنونة ؟

ففمغمت عائشة وهى تجفف عينيها :

ــ أنت تسيئين الظن بى .

فنفخت خديجة مقطبة كأنما ضاقت بهذه المكابرة الضائعة ، بيد أنها عدلت نهائيا عن نية الاعتداء أو حتى المعابثة ، أنها تعرف دائما أين ومتى تقف فلا تجاوز الحد ، وقد أشبعت السخرية ميولها العدوانية القاسية فقنعت بها كما تقنع بها عادة ، ولكن بقيت لديها ميول من نوع آخر ــ أبعد ما تكون عن العدوان والقسوة ــ لم تشبع بعد ، ميول تنبعث من عاطفة الأخت الكبرى ، بل من عاطفة أمومة لا يخطئها فيها أحد من الأسرة مهما اشتدت حملتها عليه أو حملته عليها ، وتحت تأثير الرغبة فى اشباع هذه الميول الودية قالت :

ــ لا تكابرى ، لقد رأيت كل شىء بعينى ، لست الآن أهزل ولكنى أريد أن أصارحك بأنك أخطأت خطأ كبيرا ، هذا عبث لم يعرفه هذا البيت فى الماضى ولا يود أن يعرفه فى حاضره أو مستقبله ، انه الطيش وحده الذى أوقعك فيه ، أصغى الى واعقلى نصيحتى ، لا تعودى الى هذا أبدا ، لا يخفى شىء وان طال كتمانه ، فتصورى ماذا يكون من أمرنا جميعا لو لمحك أحد فى الطريق أو أحد من الجيران ، وأنت أدرى بألسنة الناس ، تصورى ماذا يكون لو نمى الخبر الى أبى والعياذ بالله !

فنكست عائشة رأسها تاركة الصمت يعبر عن اعترافها ، وقد تضرج وجهها بحمرة الخجل ، ذلك الدم الذى ينزفه الضمير فى الداخل اذا جرحته خطيئة ، وعند ذاك تنهدت خديجة قائلة :

ــ حذار ، حذار ، فاهمة ؟ .. « ثم نسمت عليها نسمة سخرية فغيرت لهجتها شيئا ما » ، ألم يرك ؟ فماذا يقعده عن أن

يتقدم لك مثل الرجال الشرفاء ؟ وقتها تقول لك مع ألف سلامة ، بل فى ستين داهية يا ستى ..

استردت عائشة أنفاسها ، فافتر ثغرها عن ابتسامة لاحت كلمعة اليقظة الأولى فى العين عقب غيبوبة طويلة ، وكأن خديجة عز عليها — برؤية هذه الابتسامة — أن تفلت الفتاة من قبضتها بعد أن نعمت بامتلاكها فترة طويلة فصاحت بها :

— لا تظنى أنك بلغت بر الأمان ، ان لسانى لا يسكت اذا لم تحسنى مشاغلته ..

فتساءلت الأخرى فى ارتياح :

— ماذا تعنين ؟

— لا تتركيه وحده حتى لا تعاوده نزعة الشر ، الهيه بشىء من الحلوى ليشغل بها عنك ، علبة ملبس مثلا من شنجرلى ..

— لك ما تشتهين وأكثر .

وساد الصمت فشغلت كلتاهما بأفكارها ، على أن قلب خديجة كان — كما كان من بادىء الأمر — مرتعا لضروب من المشاعر متباينة .. غيرة وحنق واشفاق وحنان ..

— ٢٣ —

كانت ست أمينة مشغولة باعداد أدوات القهوة استعدادا لجلسة العصر التقليدية فجاءتها أم حنفى مهرولة ، يبشر لمعان عينيها بأنباء سارة ، ثم قالت بلهجة موحية :

— ستى ثلاث سيدات غريبات يرغبن فى زيارتك ..

أخلت الأم يديها من كل شىء .. وانتصبت قامتها فى عجلة دلت على تأثير الخبر فى نفسها ، وحدجت الخادم بنظرة اهتمام

شديدة كأنه من المحتمل أن تكون الزائرات من البيت المالك أو من السماء نفسها ، ثم تمتمت استزادة من التوكيد :

ــ غريبات ؟ !

فقالت أم حنفى بلهجة تنم عن فرحة الظفر :

ــ نعم يا ستى ، طرقن الباب ففتحت لهن فقلن لى « أليس هذا بيت السيد أحمد عبد الجواد ؟ » فقلت لهن « بلى » فقلن « الهوانم فوق ؟ » فقلت « نعم » فقلن « نريد أن نتشرف بالزيارة » فسألتهن « أقول من الزائرات ؟ » فقالت لى احداهن ضاحكة « دعى هذا لنا ، وما على الرسول الا البلاغ » فجئتك يا ستى طائرة وأنا أقول لنفسى « يا رب حقق لنا الأحلام » ...

فقالت الأم بعجلة دون أن يزايل الاهتمام عينيها :

ــ ادعيهن الى حجرة الاستقبال ... أسرعى ...

ولبثت دون حراك ثوان ، مستغرقة فى خواطرها الجديدة ، فى الحلم السعيد الذى تفتحت لها دنياه الغناء فجأة وان بدأ شغلها الشاغل طول الأعوام الأخيرة ، ثم أفاقت الى نفسها فنادت خديجة بلهجة لا تحتمل التأجيل فجاءت الفتاة على الأثر ، وما أن التقت عيناهما حتى غلبها الابتسام وقالت وهى لا تملك نفسها من الفرح :

ــ ثلاث سيدات غريبات فى حجرة الاستقبال .. ارتدى خير ملابسك .. واستعدى ..

ولما تورد وجه خديجة تورد وجهها أيضا كأنما انتقلت اليه عدوى الحياء ، ثم غادرت الصالة الى حجرتها فى الدور الأعلى لتستعد بدورها لاستقبال الزائرات . وجعلت خديجة تنظر الى الباب حيث اختفت أمها ، غائبة الطرف ، وقلبها يخفق لحد الألم ، متسائلة « ما وراء هذه الزيارة ؟ » ثم نزعت نفسها من موقفها ، وسرعان ما استرد عقلها نشاطه الفائق فنادت كمال الذى جاءها من حجرة فهمى فبادرته قائلة :

ـ اذهب الى أبلة مريم وقل لهـا ان خديجة تقرئك السلام وترجوك أن ترسلى لها معى علبة البودرة والكحل والأحمر ..

وتلقف الغـلام الأمر وهو يعـدو الى الخارج ، أما خديجة فأسرعت الى حجرتها ومضت تخلع جلبابها وهى تقول لعائشة التى لحظتها بعين متسائلة :

ـ اختارى لى أحسن فستان .. أحسن فستان بلا استثناء ..

فتساءلت عائشة :

ـ ما الداعى الى هذا الاهتمام ؟ .. زائرة ؟ ! من ؟ ! ..

فقالت خديجة بصوت خافت :

ـ ثلاث سيدات .. « ثم وهى تضغط على مخارج اللفظ » .. غريبات ... !

فتراجع رأس عائشة فى دهش ، ثم اتسعت عيناها الجميلتان سرورا ، وهتفت :

ـ آه .. هل يفهم من هذا أن .. يا له من خبر .

ـ لا تتسرعى فى الحكم .. فمن يدرى عما هناك .

فاتجهت عائشة نحو صوان الملابس لتنتقى الفستان المناسب وهى تقول ضاحكة :

ـ فى الجو شىء .. ان الفرح يشم كالروائح الزكية ..

فضحكت خديجة لتخفى اضـطرابها ، واقتربت من المرآة ونظرت الى صورتها بامعان ، ثم أخفت أنفها براحتها وقالت بتهكم :

ـ لابأس بوجهى الآن ، وجه مقبول ، « ثم رافعة راحتها » .. أما على هذه الحال فربنا وحده المنجى ! ..

فقالت عائشة ضاحكة وهى تسـاعدها فى نفس الوقت على ارتداء فستان أبيض موشى بأزهار بنفسجية :

ـ لا تغمطى نفسك .. ألا يسلم شىء من لسانك ! .. ليست العروس أنفا فحسب ، هنـاك العينان والشـعر الطويل ، والدم الخفيف ! ..

فلوت خديجة بوزها قائلة :

ــ الناس لا ترى الا العيوب ...

ــ هذا صحيح بالقياس الى من على شاكلتك من النـاس ، ولكن ليس كل الناس على شاكلتك والحمد لله ...

ــ سوف أجيبك حين أفرغ لك .. !

فربتت الأخرى على خاصرتها وهى تسوى الفستان قائلة :

ــ ولا تنسى هذا الجسم البض المتلىء .. يا له من جسم !

فضحكت خديجة فى سرور وقالت :

ــ لو كان العريس أعمى ما عملت حسابا لشىء .. وانى أرضى به فى تلك الحال ولو كان شيخا من شيوخ الأزهر ..

ــ وماذا يعيب شيوخ الأزهر ! .. أليس منهم من خيراته كالبحر ؟!

ولما فرغا من الفستان ندت عن عائشة نغمة تأفف فسألتها خديجة :

ــ ماذا بك ؟

فقالت بتذمر :

ــ ليس فى بيتنا كله نقطة بودرة أو كحل أو أحمر كأن ليس به نساء .. !

ــ من الأفضل أن تبلغى هذا الاحتجاج لوالدنا ..

ــ أليست نينة سيدة ومن حقها أن تتزين ؟

ــ انها جميلة هكذا بلا زينة !

ــ وحضرتك ؟ هل تلقين الزائرات هكذا ؟

فقالت خديجة ضاحكة :

ــ أرسلت كمال الى مريم ليعود بالبودرة والكحل والأحمر ، وهل وجهى وجه أقابل به الخاطبات عاطلا ؟!

ولما كان الوقت لا يحتمل تبديد دقيقة بلا عمل فقد نزعت خديجة منديل رأسها وأخذت تحل ضفيرتيها الغليظتين الطويلتين ،

على حين جاءت عائشة بالمشط وراحت تمشط شعرها المسترسل وهى تقول :

ـ يا له من شعر سبط طويل .. ما رأيك ؟ سأجدله فى ضفيرة واحدة ، ألا يكون ذلك أروع ؟

ـ بل ضفيرتين .. ولكن خبرينى هل أبقى الجراب فى قدمى أو أدخل عليهن عارية الساقين ؟

ـ ان الوقت شتاء يستوجب لبس الجراب ولكنى أخشى اذا أبقيته أن يحسبن بساقك أو قدميك عيبا تتعمدين اخفاءه .. !

ـ صدقت ، ان المحكمة أرحم من الحجرة التى تنتظرنى الآن ..

ـ قوى قلبك ، ربنا يوعدنا ..

وهنا دخل الحجرة كمال مسرعا وهو يلهث فقدم الى أخته أدوات الزينة وهو يقول :

ـ قطعت السلم والطريق جريا ..

فقالت له خديجة باسمة :

ـ عفارم ، عفارم .. ماذا قالت لك مريم ؟

ـ سألتنى هل عندنا ضيوف ... ومن هن ، فأجبتها بأنى لا أدرى ...

فتجلت فى عينى خديجة نظرة اهتمام وهى تسأله :

ـ وهل قنعت بهذه الاجابة ؟

ـ حلفتنى بالحسين أن أصرح لها بما عندى فحلفت لها بأنه ليس عندى غير ما قلت ..

فضحكت عائشة قائلة ويداها لا تكفان عن العمل ...

ـ ستخمن ما هنالك ...

فقالت خديجة وهو تذر البودرة على وجهها :

ـ أنها بنت هرمة ، وهيهات أن يفوتها شىء ، وأراهنك على أنها سوف تزورنا غدا على الأكثر لاجراء تحقيق شامل ..

ولم يشأ كمال أن يغادر الحجرة كما كان المنتظر ، أو لعله لم

يستطع مغادرتها تحت اغراء المشـــهد الذى يمثل أمام عينيــه ، والذى يراه لأول مرة فى حياته فلم يسبق له أن رأى وجه أخته وهو يلقى هذا التغير الذى استحال معه وجها جديداً ، البشرة تبيض والوجنتان تتوردان والعينان تصطبغ أشفارهما بســواد لطيف يرسم لهما حدودا جذابة ويضفى على حدقتيهما صــفاء بهيجا ، وجه جديد هش له قلبه فطرب هاتفا :

ـ أنت يا أبلة الآن كالعــروس التى يشــتريها بابا فى مولد النبى ...

فضحكت الفتاتان ، وسألته خديجة :

ـ هل أعجبك الآن ؟

فاقترب منها مسرعا ومد يده صوب أرنبة أنفها وهو يقول :

ـ لو تزول هذه !

فتفادت من يده ، ثم قالت لأختها :

ـ أخرجى هذا النمام ..

فقبضت عائشـــة على يده وجذبته الى الخارج رغم مقاومته حتى أخرجته وأغلقت البــاب ، ثم عادت الى اسـتئناف عملها الجميل ، فواصلتا نشاطهما فى صمت وجد . ومع أنه كان من المتفق عليه فى الأسرة أن تقتصر مقابلة الخاطبات على خديجة وحدها الا أن الفتاة قالت لعائشة على سبيل المكر :

ـ ينبغى أن تتأهبى أنت أيضا لاستقبال الزائرات .

فقالت عائشة بمثل مكر أختها :

ـ لن يكون هذا قبل أن تزفى الى عريسك !

ثم استدركت قائلة قبل أن تتكلم خديجة :

ـ أما الآن فكيف للنجوم أن تطلع مع القمر ؟ !

فرمتها أختها بنظرة مستريبة وتساءلت :

ـ من يكون القمر ؟

فقالت عائشة ضاحكة :

ـ طبعا أنا . . . !

فلكزتها بكوعها ، ثم تنهدت قائلة :

ـ لو تعيريننى أنفك كما أعارتنى مريم علبة بودرتها !

ـ تناسى انفك ولو الليلة على الأقل ، أن الأنف ـ كالدمل يضخم بالدأب على التفكير فيه ! . .

أوشكتا عند ذلك على الفراغ من عملية التجميل ، فتراخى انتباه خديجة عن التركيز فى مظهرها واتجه فى رهبة الى موقف الامتحان الذى ينتظرها فشعرت بخوف لم تشعر بمثله من قبل ، لا بالقياس الى جدته فحسب ولكن ـ قبل كل شىء ـ بالقياس الى خطورة عواقبه ، وما لبثت أن قالت متشكية :

ـ أية جلسة هذه التى قضى على بها ! . . تصورى نفسك فى مكانى ، بين نسوة غريبات لا تدرين أى خلق خلقهن ولا أى أصل أصلهن ، وهل جئن بنية صادقة أو لمجرد الفرجة والتسلية ، وماذا يكون من أمرى لو كن عيابات شتامات (ثم ضاحكة ضحكة مقتضبة) مثلى مثلا . . هه ؟ وماذا بوسعى الا أن أجلس بينهن فى أدب واستسلام أتلقى نظراتهن من اليمين والشمال ، ومن الأمام والخلف ، وأصدع بأمرهن بلا أدنى تردد ، اذا طلبن قياما قمت ، أو مشيا مشيت أو كلاما تكلمت حتى لا يفوتهن شىء من جلوسى وقيامى وصمتى وكلامى واعضائى وقسماتى ، وعلينا بعد هذه « البهدلة » كلها أن نتودد اليهن ونطرى لطفهن ، وكرمهن ، ثم لا ندرى بعد ذلك أنفوز بالرضى أو نفوز بالغضب ، أف . . أف . . ملعون الذى أرسلهن !

فعاجلتها عائشة قائلة بلهجة ذات معنى :

ـ بعد الشر عنه !

فقالت خديجة ضاحكة أيضا :

ـ لا تدعى له حتى نتأكد أنه من نصيبنا . . آه يا ربى كم أن قلبى يدق ! . . .

فتراجعت عائشة خطوة عن مرمى كوعها وقالت :

ـ صبرك .. ستجدين فى المستقبل فرصا كثيرة للانتقام من مجلس اليوم الرهيب ، فكم سيصلين من نار لسانك وأنت ست البيت ... ولعلهن يذكرن امتحان اليوم وهن يقلن لأنفسهن ياليت الذى جرى ما كان ... !

وقنعت خديجة بالابتسام ، لم يكن فى الوقت متسع لرد الهجوم ، ولم تجد فى الهجوم ـ الذى تجد فيه عادة سرورا شافيا ـ لذة على الاطلاق لغلبة الرهبة على نفسها وحيرتها بين الخوف والرجاء ، ولما فرغا من مهمتهما وقفت تلقى على صورتها نظرة شاملة ، وعائشة ـ الى الوراء خطوتين ـ تردد نظرها بعناية بين الصورة والأصل ، وجعلت خديجة تتمتم :

ـ أحسنت يداك ، منظر حسن أليس كذلك ؟ .. هذه خديجة حقا .. لا بأس بأنفى الآن .. جلت حكمتك يا رب ، بقليل من الجهد صار كل شىء مقبولا فلماذا (ثم مستدركة بسرعة) أستغفر الله العظيم ، لك فى كل شىء حكمة ..

وتراجعت خطوات وهى تفحص صورتها بعناية ثم قرأت الفاتحة فى سرها ، والتفتت نحو عائشة قائلة :

ـ ادعى لى يا بنت ...

وغادرت الحجرة ...

- ٢٤ -

اكتسب مجلس القهوة بحلول الشتاء ميزة جـديدة تمثلت فى المدفأة الكبيرة التى توسطت الصالة فتكأكأت حولها الأسرة ، الذكور فى معاطفهم والنساء ملتفات بخماراتهن ، فهيأ لهم المجلس الى لذة الشراب وحلو السمر متعة الدفء ، وقد بدا فهمى ـ على حزنه الصامت الطويل فى الأيام الأخيرة ـ كمن يتحفز لمواجهة أهله بخبر هام ، ولم يكن تردده وطول تفكيره الا دليـلا على خطورة الخبر وأهميته ، بيد أنه انتهى من تفكيره وتردده الى التصميم على ابلاغه ملقيا عبأه بعد ذلك على والديه والأقدار ، فلذلك قال :

ـ عندى خبر هام لكم فاسمعوا ..

فتطلعت اليه الأعين باهتمام لم يشذ عنه أحد ، لأن ما عرف به الشاب من اتزان جعـل الجميع ينتظرون خبرا هاما حقـا كما قال ، أما فهمى فاستطرد قائلا :

ـ الخبر هو أن حسن افندى ابراهيم ضابط قسم الجمالية ـ وهو من معارفى كما تعلمون ـ قابلنى ورجانى أن أبلغ والدى رغبته فى خطبة عائشة .. !

وأحدث الخبر ـ كما قدر فهمى من قبل ما دعاه الى التردد وطول التفكير ـ آثارا جد متباينة ، فتطلعت الأم اليـه باهتمام شديد ، على حين صفر ياسين وهو يرمق عائشة بنظرة مداعبة ويهز رأسه ، وخفضت الفتاة الصغيرة رأسها حياء ولتخفى وجهها عن الأعين أن تفضحها أساريرها فتعلن للناظرين ما يضطرب فى قلبها الخافق ، أما خديجة فقد تلقت الخبر بدهشة بادىء الأمر لم تلبث أن انقلبت خوفا وتشاؤما لم تدر لهما سببا واضحا ولكنها

كانت كتلميذ ، يتوقع بين آونة وأخرى ظهور نتيجة الامتحان ـ اذا تناهى اليه نجاح زميل له بلغته النتيجة من مصـدر خاص ، وتساءلت الأم فى ارتباك لا يتناسب ومناسبة الفرح الراهنة :

ـ أهذا كل ما قال ؟

فقال فهمى وهو يتحاشى النظر ناحية خديجة :

ـ بدأنى بقوله انه يود أن يتشرف بطلب يد شقيقتى الصغرى .

ـ وماذا قلت له ؟

ـ شكرت له حسن ظنه بطبيعة الحال ..

لم تطرح عليه السؤال تلو السؤال رغبة فى استطلاع شىء تود معرفته ، ولكن لتدارى ارتباكها وتنتزع من المفاجأة مهلة للتروى ، ثم راحت تتسـاءل ترى هل لهذا الطلب علاقة بالزائرات اللاتى جئنها منذ أيام ؟ ! وذكرت عند ذاك كيف قالت احداهن ـ قبل ظهور خديجة ـ وهى بمعـرض الحديث عن أسرة السـيد أحمد أنهن سمعن أن للسـيد كريمتين فأدركت وقتها أنهن جئن لرؤية الفتاتين ولكنها تصامت عن الاشارة ، وقد انتسبت الزائرات الى أسرة تاجر بالدرب الأحمر ـ غير والد الضابط الذى قال فهمى عنه مرة أنه موظف بوزارة الأشـغال ـ ولكن هذا لا ينفى نفيـا قاطعا العلاقة بين الأسرتين لأنه من المألوف أن تبعث الأسر بخاطبات من بعض فروعها دون الأصل على سبيل الحرص ، وكم ودت أن تسأل فهمى عن هذه النقطة بالذات وكأنها أشفقت من أن يجىء الجواب مصداقا لمخاوفها فيقضى على آمال ابنتها بالكبرى ويسيمها خيبة جديدة ، بيد أن خديجة نابت عن أمها ـ اتفاقا ـ يطـرح مايعتلج فى صدرها خارجا حين دارت هبوطها بضحكة فاترة وقالت متسـائلة :

ـ لعله هو الذى بعث بالزائرات اللاتى زرننا منذ أيام ؟

ولكن فهمى بادر قائلا :

ــ كلا ، فقد قال لى انه سيرسل أمه الينا فى حالة الموافقة على طلبه ...

ولكنه بخلاف لهجته الموحية بالصدق ، لم يكن صادقا فيما قال ، فقد فهم من حديث الضابط أن السيدات اللاتى زرن والدته قريباته ، بيد أنه أشفق من ايلام شقيقته الكبرى التى كان ــ على حبه عائشة واقتناعه بجدارة صديقه الضابط ــ يعطف عليها عطفا أخويا ، ويألم أشد الألم لسوء حظها ، ولعله كان لما منى به هو من خيبة أثر قوى فى البلوغ بهذا العطف ذروته . وضحك ياسين ضحكة غليظة وقال بجذل صبيانى :

ــ يبدو أننا سنجمع قريبا بين فرحتين ..

فهتفت الأم فى فرح صادق :

ــ ربنا يسمع منك ..

ــ هل تخاطبين أبى نيابة عنى ؟ ..

ند عنه السؤال وهو مشغول بمسألة الخطبة عما عداها ، ولكنه ــ عقب النطق به ــ وقع من أذنيه موقعا غريبا ، فكأنه ألقى عليه من حافظة ذكرياته لا من طرف لسانه ، أو كأنه حين ألقى على سمعه لم يقف عند أذنيه ولكنه غاص الى أعماقه ثم طفا عالقا به ما علق من ذكرياته . وللحال ذكر سؤالا مماثلا لهذا السؤال توجه به الى أمه فى ظروف مشابهة فانقبض قلبه ، وهاجت آلامه ، وعاوده احساسه بالظلم الذى وأد أمله ، وجعل يقول لنفسه كما قال لها مرارا فى الأيام الأخيرة ، كم كان يكون سعيدا بيومه مستبشرا بغده راضيا عن الحياة كلها لولا ارادة أبيه القاسية ، وانتزعته الذكرى من الاهتمام بشئون غيره ، فاستسلم للحزن الذى يقرض شغاف قلبه . أما الأم ففكرت مليا ثم تساءلت :

ــ ألا يحسن بنا أن نفكر فيما عسى أن أجيب أباك اذا سألنى عما دعا الضابط الى طلب يد عائشة بالذات ، ولماذا لم يطلب يد خديجة ، ما دام لم ير لا هذه ولا تلك ؟ ..

وانتبهت الفتاتان الى ملاحظة أمهما معا ، ولعلهما ذكرتا موقفهما وراء النافذة فى وقت واحد ، بيد أن خديجة تلقت الذكرى بامتعاض ضاعف من امتعاضها الراهن ، واحتج قلبها على الحظ الأعمى الذى يأبى الا أن يجزى النزق والاستهتار بالاحسان ، أما عائشة فقد اعترضت تيار سرورها ملاحظة أمها كما تعترض الحلق ـ وهو نشوان بازدراد أكلة لذيذة شهية ـ شوكة حادة مدسوسة فى الطعام ، وسرعان ما امتص الخوف حراره الفرح التى كان ينتفض بها روحها . فهمى وحده ألذى ثار على قول أمه ، لا دفاعا كما بدأ عن عائشة ـ فانه ما كان يجيز الدفاع عن عائشة تحت سمع خديجة فى هذه النقطة الحساسة بالذات ـ ولكن غضبا لحزنه الكظيم الذى لم يسعه الجهر بالدفاع عنه حيال أبيه ، فقال محتدا يخاطب اباه فى شخص أمه ، وهو لا يدرى :

ـ هذا تعسف ظالم لا مبرر له من عقل أو حكمة . ألا يعرف الرجال أشياء كثيرة عن نساء مخدرات عن طريق الفضليات من قريباتهم اللاتى لا يقصدن بحديثهن الا الجمع بين رجل وامرأة فى الحلال .

ولكن الأم لم تقصد باعتراضها الا تواريا وراء أبيه حتى تجد مخرجا من المأزق الذى وجدت فيه نفسها بين عائشة وخديجة ، فلما صارحها فهمى باحتجاجه لم تجد بدا من مصارحته بما يدور :

ـ ألا ترى أنه من الأفضل أن ننتظر حتى يأتينا نبأ الزائرات ؟!

ولم تعد خديجة تطيق الصمت مدفوعة بكبريائها ألتى ابت عليها الا أن تعلن عدم المبالاة بالأمر كله بالرغم مما يصطرع داخلها من القلق والتشاؤم ، فقالت :

ـ هذا شىء وذاك شىء آخر وليس ثمة داع لتأجيل هذا من أجل ذاك ..

فقالت الأم بهدوء مؤثر :

ـ كلنا متفقون على تأجيل زواج عائشة حتى تتزوج خديجة .

ولم يسع عائشة الا أن تقول برقة وتسليم :

ــ هذا أمر مفروغ منه ..

امتلأ صدر خديجة حنقا لدى سماع النبرات الرقيقة التى تتكلم ، ولعل رقتها نفسها كانت أشد ما أحنقها ، ربما لأنها أوحت بعطف أبته كل الاباء ، أو لأنها ودت لو تعلن الفتاة معارضتها صريحة لتتيح لها فرصة لمهاجمتها بما يشفى حنقها على حين قام ذاك العطف الكاذب البغيض درعا يدفع عنها الأذى ويضاعف من حنق المتربص المتحفز ، وأخيرا لم يسعها الا أن تقول بلهجة لم تخل من حدة :

ــ لا أوافق على أن هذا أمر مفروغ منه ، فليس من العدل أن يحملكم حظ عاثر على كسر حظ سعيد ! ..

وتنبه فهمى الى ما ينطوى عليه كلام خديجة من حزن غاضب بالرغم من ظاهره الموحى بالايثار فانتزع نفسه من قبضة أحزانه الشخصية نادما على ما صدر منه من قول فى غضبته مما قد تحسبه خديجة ميلا صريحا منه الى قضية أختها فقال موجها خطابه اليها :

ــ ان مفاتحة بابا عن رغبة حسن افندى لا تعنى التسليم بتقديم زواج عائشة على زواجك ، وما علينا من بأس اذا نلنا موافقته على الخطبة ، أن نؤجل اعلانها للوقت المناسب ! ..

ولم يكن ياسين مقتنعا بوجاهة الرأى الذى يحتم تقديم زواج على زواج ولكنه لم يجد الشجاعة الكافية للافصاح عن رأيه الا أنه روح عنه بكلام عام يفهم منه من يشاء ما يشاء فقال :

ــ الزواج مصير كل حى ، ومن لم تتزوج اليوم فستتزوج غدا .

وهنا انطلق صوت كمال الرفيع ــ الذى كان يتابع الحديث باهتمام ــ متسائلا على غير انتظار :

ــ نينة .. لماذا كان الزواج مصير كل حى ؟

ولكنها لم تعن بالالتفات اليه ، فلم يحدث تساؤله من أثر الا عند ياسين الذى قعقع بضحكة غليظة دون أن ينبس بكلمة ، على حين قالت الأم :

ـ أعلم أن كل فتـاة ستتزوج اليوم أو غدا ، ولـكن هناك اعتبارات لا ينبغى اغفالها ..

وعاد كمال يسألها :

ـ وهل ستتزوجين أنت أيضا يا نينة ؟

وضج الجميع ضحكا فخفف هـذا من حدة التـوتر وانتهز يا سين هذه الفرصة السانحة فتشجع قائلا :

ـ أعرضى الأمر على أبى ، فالكلمة كلمته على أى حال ..

وقالت خديجة باصرار غريب :

ـ لابد من هذا ، لابد من هذا ..

كانت تعنى ما تقول : لأنهـا من ناحية تعلم باستحالة اخفاء مثل هذا الأمر عن أبيها ، ولأنها من ناحية أخرى تعتقد بأن والدها لا يمكن أن يقبل تقديم زواج عائشة عليها ، ولأنها ــ الى هذا وذاك ــ ما زالت تصر على التظاهر باللامبالاة ، ومع أنها لم تكن تعلم بمـا بين الضابط والزائرات من سبب .. الا أن القلق والتشاؤم اللذين شعرت بهما من بادىء الأمر لم يتخليا عنها لحظة واحدة .

ـ ٢٥

مع أن السـيدة أمينة جربت فى حياتها أكثر من سـبب من الأسباب التى تكدر الصفو الا أنها لم تكن قديمة عهد بنوع طارىء من هذه الأسباب ، امتاز بطابع خاص به ، اذ بدا فى ذاته ــ على خلاف سوابقه ــ مما يجمع الناس على اعتباره من أسس السعادة

الجوهرية فى الدنيا ، ومع هذا انقلب فى بيتها ، بل فى قلبها خاصة ، باعثا هاما من بواعث القلق والكدر ، وكم كانت صادقة وهى تسائل نفسها : من كان يظن أن مقدم عريس ، الأمر الذى تتلهف النفوس على استقباله ، يجر علينا هذا التعب كله ! .. ولكن هكذا جرى الحال ، فتنازع قلبها أكثر من رأى دون أن تطمئن الى واحد منها ، رأت حينا أن الموافقة على زواج عائشة قبل خديجة كفيلة أن تقضى على مستقبل ابنتها الكبرى ، ورأت حينا آخر أن الالحاح فى معارضة الأقدار موقف شديد الخطورة قد يعود على الفتاتين بأوخم العواقب ، والى هذا وذاك شق عليها كثيراً أن توصد الباب فى وجه عريس رائع كالضابط الشاب ليس من اليسير أن يجود الحظ بمثله مرة أخرى . ولكن ما عسى أن يكون حال خديجة اذا تمت الموافقة وما عسى أن يكون حظها ومستقبلها ؟ ! . . ولم تدر لنفسها مستقراً ، خاصة وان ما طبعت عليه من سلبية شاملة جعلها أعجز من أن تجد حلا موفقا لمشكل من المشاكل ، ولهذا وجدت راحة وهى تتحفز لالقاء العبء كله على عاتق السيد ، بل وجدت هذه الراحة بالرغم مما يخامرها من خوف كلما أقدمت على مفاتحته بأمر ترتاب فى حسن تقبله له ، وقد انتظرت حتى فرغ من احتساء قهوته ثم قالت بصوتها المهموس الناطق بالأدب والخضوع :

ــ سيدى .. حدثنى فهمى قال أن صديقا له رجاه أن يعرض عليك رغبته فى خطبة عائشة . .

سددت العينان الزرقاوان نظرة اهتمام ودهشة من فوق الكنبة الى حيث تجلس المراة على شلتة غير بعيدة من قدميه ، كأنما تقول لها : « كيف تحدثينني عن عائشة وأنا فى انتظار أخبار عن خديجة بعد ما كان من نبأ الزائرات الثلاث » .. ثم تساءل ليستوثق مما سمع :

ــ عائشة ؟ ..

ـ نعم يا سيدى ..
ونظر السيد أمامه فى ضيق ، ثم قال وكأنه يحدث نفسه :
ـ قررت من زمن بعيد أن هذا أمر سابق لأوانه ..
فقالت المرأة فى عجلة أن يظن بها معارضة لرأيه :
ـ انى أعلم رأيك يا سيدى ، ولكن يجب على أن أطلعك على كل شىء مما يدور بيننا ..
تفحصها الرجل ببصر حاد كأنه يسبر ما فى قولها من صدق واخلاص ولكن لمعت عيناه بخاطر طارىء حال بينه وبين تفحصها ، فتساءل فى اهتمام وقلق :
ـ ترى ألهذا علاقة بالسيدات اللاتى زرنك ؟
أجل ، علمت بهذه العلاقة ، وهى منفردة بفهمى ، وقد اقترح عليها الشاب أن تخفى أمرها عن والده عند مفاتحته بالخبر فوعدته بالتفكير فى المسألة طويلا ، وترددت بين قبولها ورفضها ، ثم مالت أخيرا الى كتمانها كما اقترح فهمى ، ولكنها حين جوبهت بسؤال السيد وهى تشعر بنظرة عينيه كضوء الشمس الوهاج شعت عزمتها وتبدد رأيها فقالت بلا تردد :
ـ نعم يا سيدى ، علم فهمى أنهن قريبات صديقه ..
فعبس السيد غاضبا ، وكعهده اذا غضب امتلأت صفحة وجهه البيضاء بالدم وتطاير الشرر من عينيه . من يستهن بخديجة فكأنما استهان بشخصه ، ومن يمس كرامتها فكأنما طعنه فى صميم كرامته ، ولكنه لم يدر كيف يعلن غضبه الا عن طريق صوته الذى علا وغلظ وهو يتساءل بحنق وازدراء :
ـ من هو هذا الصديق ؟
فقالت ـ وهى تجد للنطق بالاسم قلقا لا تدرى له من سبب :
ـ حسن ابراهيم ضابط قسم الجمالية .
فقال السيد متسائلا فى انفعال :
ـ قلت انك أدخلت خديجة وحدها على السيدات ! ؟ ..

ـ نعم يا سيدى ..

ـ هل زرنك مرة أخرى ؟

ـ كلا يا سيدى والا كنت أخبرتك .

فسألها منتهرا كأنها هى المسئولة عن هذه الغرابة :

ـ أرسل قريباته فرأين خديجة ، واذا به يطلب عائشة ! .. ما معنى هذا ؟ ! ..

فازدردت الأم ريقها الذى جف بين الأخذ والرد وتمتمت :

ـ فى مثل هذه الحال لا تدخل الخاطبات البيت المقصود الا بعد أن يزرن كثيرا من بيوت الجيران متحريات عما يهمهن ، وبالفعل قد أشرن فى حديثهن معى الى أنهن سمعن بأن للسيد كريمتين ، ولعل تقديم واحدة دون الأخرى ..

أرادت أن تقول « لعل تقديم واحدة دون الأخرى وكد لديهن ما سمعن عن جمال الصغرى » ولكنها أمسكت خوفا من مضاعفة غضبه من ناحية ، واشفاقا من الجهر بهذه الحقيقة التى ترتبط فى ذهنها بألوان قاتمة من القلق والأسى من ناحية أخرى ، فأمسكت مكتفية باتمام الحديث باشارة من يدها كأنها تقول «الخ الخ » .

وحدج السيد اليها بنظر حاد حتى غضت الطرف استخذاء ، وانقلب الى حال من الامتعاض والحزن كثفت الغضب فى صدره فمضى يقرع أضلعه يروم متنفسا أو ينشد صحبة ، ثم صاح بصوت عاصف :

ـ عرفنا كل شىء ، ها هو ذا عريس يتقدم طالبا يد ابنتك فاسمعينى رأيك ؟ ..

شعرت بسؤاله يستدرجها الى حفرة لا قرار لها فقالت بلا تردد وهى تبسط راحتيها فى تسليم :

ـ رأيى رأيك يا سيدى ولا رأى لى غيره ...

فصاح فى زمجرة :

ـ لو كان الأمر كما تقولين ما فاتحتنى فى الأمر .

فقالت فى لهجة ملهوجة واشفاق :
ــ ما حدثتك يا سيدى الا لأخبرك عما جد فى الأمر ، لأن واجبى يقضى على بأن أطلعك على كل ما يتصل ببيتك من قريب أو بعيد ..
فهز رأسه فى حنق قائلا :
ــ من يدرى .. أى والله من يدرى .. ما أنت الا أمرأة ، وكل أمرأة ناقصة عقل ، والزواج خاصة يفتنكن عن الرشاد ، فلعلك ..
فقاطعته بصوت متهدج :
ــ سيدى أعوذ بالله مما تظن بى ، أن خديجة ابنتى ومن لحمى ودمى كما هى ابنتك .. وان حظها ليفتت كبدى ، أما عائشة فما تزال فى أول ربيعها ولن يضيرها أن تنتظر حتى يأخذ الله بيد شقيقتها ..
فراح يمسح براحته على شاربه الغليظ بحركة عصبية حتى توقف فجأة ، كأنما تذكر أمرا وتساءل :
ــ هل علمت خديجة ؟
ــ نعم يا سيدى ..
فلوح بيده غاضبا وهو يصيح :
ــ كيف يطلب هذا الضابط يد عائشة بالرغم من أن أحدا لم يرها ؟!
فقالت بحرارة وقلبها يرتجف :
ــ قلت يا سيدى لعلهن سمعن عنها ..
ــ ولكنه يعمل فى قسم الجمالية أى فى حينا ، وكأنه من أهله ..
فقالت الأم فى تأثر شديد :
ــ ان عين رجل لم تقع على احدى ابنتى منذ انقطاعهما عن المدرسة فى سن الطفولة ..
فضرب كفا بكف وصاح بها :

ـ مهلا .. مهلا .. هل حسبتنى اشك فى هذا يا ولية ؟ !
لو شككت فيه ما أشبعنى القتل !

انما أتحدث عما قد يجرى فى عقول بعض الناس ممن لا يعرفوننا ، « ان عين رجل لم تقع على أحدى ابنتى » .. ما شاء الله ، وهل كنت تريدين أن تقع عين رجل عليهما ؟ ! .. يا لك من مجنونة مهذارة ، انى أردد ما قد تشيع به ألسنة السفهاء من الناس ، أجل .. انه ضابط الحى ، يسير فى شوارعنا صباح مساء فلا يبعد أن يقوم عند البعض ظن عن احتمال رؤيته لاحدى الفتاتين اذا علموا بزواجه منها .. لا أحب ، لا أريد أن أعطى ابنتى لأحد ليثير الشبهات حول سمعتى ، بل أن تنتقل ابنتى الى بيت رجل الا اذا ثبت لدى أن دافعه الأول الى الزواج منها هو رغبته الخالصة فى مصاهرتى أنا .. أنا .. أنا .. » لم تقع عين رجل على احدى ابنتى » .. مبارك .. مبارك يا ست أمينة ..

وصمت الأم دون أن تنبس بكلمة فساد الصمت الحجرة ، ثم نهض الرجل فآذنها نهوضه بأنه سيشرع فى ارتداء ملابسه استعدادا للعودة الى الدكان فبادرت بالقيام ، ونزع السيد ذراعيه من الجلباب ورفعه ليخلعه ، ولكنه توقف قبل أن تجاوز طاقة الجلباب ذقنه ، وقال والجلباب مكوم فوق منكبه كلبدة الأسد :

ألم يقدر سى فهمى خطورة الطلب الذى تقدم به صديقه ؟ .

(ثم محركا رأسه فى أسف) : يحسدنى الناس على انجاب ثلاثة ذكور ، والحق أنى لم أنجب الا اناثا .. خمس اناث .

على أثر مغادرة السيد البيت ذاع رأيه فى خطبة عائشة ، ومع أنه قوبل بتسليم عام — من لا حيلة لهم سوى التسليم — الا أنه كان متباين الصدى فى النفوس . أسف فهمى للخبر ، وساءه أن تفقد عائشة زوجا صالحا مثل صديقه حسن ابراهيم ، أجل كان قبل أن يبت أبوه فى الأمر مترددا بين التحمس للعريس المتقدم وبين العطف على موقف خديجة الدقيق ، فلما أن قضى الأمر واستراح جانبه المشفق على خديجة أسف جانبه الآخر الراغب فى سعادة عائشة ، وأمكنه أن يجهر برأيه فقال :

— لا شك أن مستقبل خديجة يهمنا جميعا ولكننى لا أوافق على الاصرار على حرمان عائشة من الفرص الحسنة التى تتاح لها ، الحظ غيب لا يعلمه الا الله ، ولعل يدخر للمتأخر حظا أوفر من المتقدم ..

ولعل خديجة كانت أشد الجميع شعورا بالحرج لوقوفها للمرة الثانية عشرة فى سبيل أختها ، لم تكن تفكر فى الحرج وهى تحت المطرقة ، ولكن حين نما اليها رأى أبيها الحاسم ، وتقهقر الخطر الذى يتهددها ، زايلها الحنق والألم وحل محلهما شعور أليم بالخجل والحرج ، ومع أن حديث فهمى لم يترك فى نفسها أثرا حسنا لأنها طمعت فى أعماقها أن تجد من الجميع حماسا لرأى أبيها وأن تبقى هى الوحيدة المعارضة له ، الا أنها قالت معلقة عليه :

— صدق فهمى فيما قال : وكان هذا رأيى دائما ..

فعاد ياسين يؤكد رأيه السابق قائلا :

— الزواج مصير كل حي .. لا تخافوا .. ولا تجزعوا ..

قنع هذه المرة بالكلام العام على ولعه بعائشة وشدة استيائه لما حاق بها من ظلم ، ولكنه خاف أن يعلن رأيه كله صراحة أن تسىء خديجة فهمه أو تظن ثمة علاقة بين هذا الرأى وبين ما ينشب بينهما كثيرا من نقار برىء ، والى هذا وذاك كان احساسه الباطنى بأنه نصف أخ فقط يقعده عند مواجهة الخطير من شئون الأسرة الحساسة عن ابداء الرأى الخليق بجرح أحد من أفرادها .. ولم تكن عائشة قد نبست بكلمة فقسرت نفسها على الكلام قسرا أن يشى صمتها بآلامها التى صممت على اخفائها والتظاهر بعدم الاكتراث لها مهما سامها ذلك من عذاب وتوتر ، بل أجمعت على اعلان الإرتياح مجاراة لجو البيت الذى لا يعترف للعواطف بحق من حقوقها .. والذى تدارى فيه أهواء القلوب بأقنعة الزهد والرياء ، فقالت :

ـ لا يصح أن أتزوج قبل خديجة . والخير كل الخير فيما يرى أبى (ثم مبتسمة) .. لماذا تتعجلون الزواج ؟ .. ومن أدراكم بأننا سنحظى فى بيوت الأزواج بحياة سعيدة كالتى نحظى بها فى بيت أبينا ؟!

ولما تواصل الحديث كشأنه فى كل مساء حول المدفأة لم تمسك عن الاشتراك فيه بما وسعها قوله بالرغم من شرود ذهنها وتشتت نفسها ، وكم فى الواقع شابهت الدجاجة المذبوحة التى تندفع مبسوطة الجناحين ـ كأنما تنتفض حيوية ونشاطا ـ على حين يتدفق الدم من عنقها مستصفيا آخر قطرات الحياة ..

على أنها توقعت هذه النتيجة قبل عرض الأمر على أبيها ، أن لا ثمة أمل غامض داعب أحلامها كما يداعبنا الأمل فى كسب النمرة الأولى فى اليانصيب الكبير .. وقد تطوعت أول الأمر للمعارضة فى زواجها مدفوعة بأريحية الظفر والسعادة ، وبالعطف على شقيقتها السيئة الحظ ، الآن خمدت الأريحية ونضب العطف ، فلم يبق الا الامتعاض والسخط واليأس . ليس لها من الأمر

شيء . هـذه ارادة الأب ولا معقب لهـا ، وما عليهـا الا الاذعان والاستسلام ، بل عليها أكثر من هذا الرضى والارتياح ، لأن محض الوجوم ذنب لا يغتفر ، أما الاحتجاج فاثم لا يطيقه أدبها وحياؤها ، أفاقت من سكرة السعادة الغامرة التى انتشت بها يوما وليلة على يأس مظلم ، ما أكثف الظلمـة تجيء عقب النور البـاهر ، فى تلك الحال لا يقتصر الألم على الظلمة الراهنة ، ولكنه يضـاعف مرات ومرات بالحسرة على النور الذاهب وتسائل نفسها اذا كان ثمة نور أمكن أن يضيء مليا فلماذا لم يواصل الضياء ، لماذا لا يخبو ، لماذا خبا ، فتكون حسرة جديدة تنضم الى بقية الحسرات التى ينسجها الحزن حول قلبها منتزعا اياها من ذكريات المـاضى وواقع الحال وأحلام المستقبل ، وعلى اغراقها فى التفكير فى هذا كله وحضوره ـ تبعا لذلك ـ فى شعورها فانها تعود تتساءل وكأنها تتساءل لأول مرة ، وكأن الحقيقة المرة ترتطم بشعورها للمرة الأولى : هل حقا خبا النور ؟ !

هل تمزقت الأسـباب بينها وبين الشـاب الذى ملأ قلبهـا وخيالها ؟ !

سؤال جديد رغم تكراره ، وصدمة جديدة رغم نفاذها الى العظام ، ذلك أن الحسرة الكاوية لا تنفك يتنازعها اليأس المستقر فى الأعماق والآمال المتطايرة فى الهواء كلما تطاير منها شعاع الأمل المتطاير ، ثم تعـود فتستقر فى الأعماق ، ثم تطـفو مرة أخرى ، وثالثة ، حتى تأوى الى مستقرها ـ وقد ودعت النفس آخر آمالها ـ فلا تغادره الى الأبد ، انتهى كأنه لم يكن ، لا سبيل اليه أبدا ، ما أهون الأمر عليهم ، عالجوه كما يعالجون أمور يومهم العادية مثل ماذا تأكل غدا أو حلمت ليلة الأمس حلما غريبا أو رائحة الياسمين تملأ جو السطح ، كلمة من هنا . . كلمة من هناك ، واقتراح يعلن ورأى يبسط ، فى هدوء وحلم غريبين ، ثم تعزية باسمة ، وتشجيع كأنه الدعابة ، ثم تغير الحديث وتشعب ، انتهى كل شيء ، وأدرج

فى التاريخ الذى تنزل عنه الأسرة للنسيـــان ، أين قلبها من هذا كله ؟ ! . . لا قلب لها ، لا يتصور وجوده أحد ، لا وجود له ، فى الواقع ، ما أشد غربتها ، ضـــائعة مفقودة ، ليسوا منها وليست منهم ، وحيدة منبوذة مقطوعة الصلات ، ولكن كيف تنسى أن كلمة واحدة لو جاد بها لسان أبيها ، كانت تكفى لتغيير وجه الدنيا وخلقها خلقا جديدا ؟ ! . . كلمة واحدة لا أكثر ، لا تزيد عن لفظة « نعم » ثم تحـــدث المعجزة ، لم تكن لتكلفه الا عشر ما تكلف من جهد فى المنـــاقشة الطويـــلة التى انتهت الى الرفض ولـــكن لم تجر بذلك مشيئته ، وارتضى لها هـــذا العذاب كله . ومع انها كانت متألمة حانقة ساخطة الا أن ألمها وحنقها وسخطها وقفت عنـــد شخص أبيها وارتدت عنه خائبـــة ارتداد الوحش الهـــائج اذا اعترضـــه مروضه ، الذى يحبه ويخافه ، لم يسعها أن تحمل عليه ، ولو فى أعماق سريرتها ، وظل قلبها على ولائه وحبه فلم تضـــمر له الا الاخلاص والوفاء كأنه اله لا يجـــوز أن تقابل قضاءه الا بالتسليم والحب والوفاء ..

شدت الصغيرة ذاك المساء حبل اليأس حول عنقها الرقيق فآمن قلبها المتفتح بأنه نضب وأجدب الى الأبد ، وضاعف من توتر أعصـــابها الدور الذى صممت على أن تمثـــله بينهم ، دور البشر واللامبالاة وما سامته نفسها من المشاركة فى سمرهم حتى ناءت هنامتها الذهبية بحمله ، وانقلبت الأصوات فى أذنيها وقرا ، فما جاء وقت الانسحاب الى حجرة النوم حتى مضت فى أعياء كالمرضى ، وهنـــاك فى أمن من ظلمة الحجرة تجهم وجههـــا لأول مرة وعكس صورة صادقة من قلبها ...

بيد أنه لحق بها رقيب ـــ خديجة ـــ أيقنت من بادىء الأمر أن تصنعها لن يجدى معها شيئا ، وقد تحامت فى المجلس نظراتها أما الآن ـــ اذ جلست اليها ـــ فلا مهرب منها ولا مفر . وتوقعت أن تهجم الفتاة على الموضـــوع بعنادها المعروف ، وانتظرت تســـلل

صوتها الى أذنيها بين لحظة وأخرى ، ورحب قلبها بالحديث ، لا لأنه سيبعث رجاء جديدا ، ولكن لأنها أملت وراء الاعتذار والحرج اللذين ستعلنهما الفتاة صادقة حتما شيئا من العزاء ولم يطل بها الانتظار فما لبث أن جاءها الصوت يشق الظلمة قائلا :

ــ عائشة ، انى حزينة آسفة ، ولكن علم الله لا حيلة لى ، وكم وددت لو تواتينى الشجاعة فأرجو أبى أن يعدل عن رأيه ..

وتساءلت عما وراء هذا الكلام من صدق أو رياء منفعلة بثورة حنق ثارت بها لدى سماعها النبرات الأسيفة مباشرة ، ولكنها اضطرت الى العودة الى استعارة النبرات التى ظلت تتحدث بها فى مجلس أمها فقالت :

ــ فيم الحزن والأسف ، ما أخطأ أبى وما ظلم ولا داعى للعجلة ! ..

ــ هذه ثانى مرة يؤجل زواجك بسببى .

ــ لست آسفة مطلقا ..

فقالت خديجة بلهجة ذات مغزى :

ــ ولكن هذه المرة غير المرة الأولى ..

أدركت الفتاة ماوراء هذه الكلمات بسرعة البرق ، فخفق قلبها خفقان اللوعة والحسرة ، وبكى وجدا وحبا ، ذلك الحب الكامن يثار بالاشارة تجيئه من الخارج عفوا أو قصدا كما يثار الجرح أو الدمل باللمس والشك ، وهمت بالكلام. ولكنها أمسكت مضطرة لأن أنفاسها لم تسعفها فخافت أن تفضحها نبراتها ، وعند ذاك تنهدت خديجة قائلة :

ــ لهذا تجديننى فى غاية الحزن والأسف ، ولكن ربنا كريم ، وما شدة الا وبعدها الفرج ، فعسى أن ينتظر ويصبر ويكون من نصيبك بالرغم مما بدا ...

وهتفت جوارحها :

« يا ليت »

أما لسانها فقال :

ـ سيان عندى ، الأمر أبسط مما تظنين ..

ـ أرجو أن يكون كذلك.. انى جد حزينة وآسفة ياعائشة ..

وفتح الباب فجأة وبدا شبح كمال فى الشعاع الخافت الذى تسلل من فرجة الباب فصاحت به خديجة فى ضيق :

ـ لماذا جئت ؟ وماذا تريد ؟

فقال الغلام بصوت يشى باحتجاجه على سوء مقابلتها له :

ـ لا تنهرينى .. وافسحى لى ..

ووثب الى الفراش وركع بينهما ، ثم دس يدا الى واحدة ويدا الى الأخرى ، وراح يدغدغهما ، ليهيىء لحديثه جوا طيبا غير الجو الذى أنذرت به نهرة خديجة ، ولكنهما نثرتا يديه ، وقالتا بصوتين متتابعين :

ـ آن لك أن تنام ، فاذهب ونم ..

ولكنه هتف فى غيظ :

ـ لن أذهب حتى أعرف ما جئت أسأل عنه !

ـ عم تسأل فى هذه الساعة من الليل ؟

فقال مغيرا لهجته حتى يستجيبا له :

ـ أريد أن أعرف هل تتركان بيتنا اذا تزوجتما ؟

فصاحت به خديجة :

ـ انتظر حتى يجىء الزواج !

فتساءل فى عناد :

ـ ولكن ما هو الزواج ؟

ـ كيف أجيبك وأنا لم أتزوج .. اذهب ونم الله لا يسيئك .

ـ لن أذهب حتى أعرف ..

ـ يا حبيبى توكل على الله وفارقنا ..

فقال بصوت حزين :

ـ أريد أن أعرف هل تغادران البيت اذا تزوجتما ؟

فقالت فى ضجر :
ـ نعم يا سيدى .. ماذا تريد أيضا ؟
فقال فى جزع :
ـ اذن لا تتزوجا .. هذا ما أريد ..
ـ سمعاً وطاعة ..
فعاد يقول فى احتجاج ثائر :
ـ أنا لا أطيق أن تذهبا بعيدا عنا وسأدعو الله ألا يزوجكما ..
فهتفت :
ـ من فمك لباب السما .. عال .. عال .. ربنا يكرمك .
تفضل فارقنا مع السلامة .

ـ ٢٧ ـ

سرى فى البيت شعور بأنه يستقبل من حياته المرهقة بالتزمت يوم راحة يستطيع ـ اذا شاء ـ أن يستروح فيه نسمة من الحرية البريئة فى أمن من الرقيب ، فظن كمال أنه غداً فى حل من أن يقطع اليوم كله فى اللعب داخل البيت أو خارجه ، وتساءلت خديجة وعائشة الا يمكن أن تتسللا مساء الى بيت مريم لقضاء ساعة فى لهو ومرح ؟ لم تجىء هذه الراحة نتيجة لانقضاء شهور الشتاء الكالح وحلول بشائر الربيع ملوحة بالدفء والبشاشة ، اذ ليس من شأن الربيع أن يهب هذه الأسرة حرية يحرمها اياها الشتاء ، ولكنها جاءت نتيجة طبيعية لسفر السيد أحمد الى بور سعيد فى مهمة تجارية تدعوه كل عدة أعوام الى السفر يوما أو بضع يوم ، واتفق أن سافر الرجل صباح الجمعة فجمعت العطلة الرسمية بين أفراد الأسرة ... وتجاوبت رغباتهم الظمأى الى الحرية فى الجو الطليق الآمن الذى خلقه على غير انتظار رحيل

الأب عن القاهرة كلها ، بيد أن الأم وقفت من رغبة الفتاتين وجماح الغلام وقفــة المتردد ، لأنهـا كانت تحرص على أن تواظب الأسرة على سـيرتها المألوفة ، وأن تلتزم ــ فى غياب الأب ــ الحدود التى تلتزمها فى حضوره خوفا من مخالفته أكثر منهـا اقتناعا بوجاهة شدته وصرامته ، ولكنها ما تدرى الا وياسين يقول لها :

ــ لا تعارضى بالله .. اننا نحيا حياة لايحياها أحد من الناس ، بل أريد أن أقول شـيئا جديدا .. لمـاذا لا تروحين عن نفسـك انت ؟ ! ..ما رأيكم فى هذا الإقتراح ؟ !

وتطلعت اليه الأعين فى دهشة ولـكن أحدا لم ينبس بكلمة ، ولعلهم ــ كأمهم التى رمته بنظرة تأنيب ــ لم يحملوا قوله محمل الجد ، الا أنه استطرد قائلا :

ــ لماذا تنظرين الى هـكذا ؟ ! .. لم أخطىء فى البخـارى ، وليس ثمة جريمة والحمد لله ، ما هو الا مشوار قصير ترجعين منه وقد ألقيت على جزء صغير من الحى الذى عشت فيه أربعين عاما دون أن ترىَ منه شيئا ..

فتنهدت المرأة متمتمة :

ــ سامحك الله ..

فقهقه الشاب قائلا :

ــ علام يســامحنى ؟ .. هل اقترفت ذنبا لا يغتفر ؟ . والله لو كنت مكانك لمضيت من توى الى سيدنا الحسين .. سـيدنا الحسين الا تسمعين ؟ .. حبيبك الذى تهيمين به على البعد وهو قريب ، قومى انه يدعوك اليه ..

وخفق قلبها خفقانا لاحت آثاره فى احمرار وجهها فخفضت رأسها لتخفى تأثرها الشـديد ، انجذب قلبهـا الى الدعاء بقوة تفجرت فى نفسها فجأة على غير انتظار لا منها ولا من احد ممن حولها حتى ياسين نفسه ، كأنها زلزال قد وقع بأرض لم تعرف الزلازل ، فلم تدر كيف استجاب قلبهـا للنداء ، ولا كيف تطلع

بصرها الى ما وراء الحدود المحرمة ، ولا كيف تراءت المغامرة ممكنة بل مغرية بل طاغية ، أجل بدت زيارة الحسين عذرا قويا ــ له صفة القداسة ــ للطفرة اليسارية التى نزعت اليها ارادتها ، ولكنها لم تكن وحدها التى تمخضت عنها نفسها اذ لبت دعاءها فى الأعماق تيارات حبيسة متلهفة على الانطلاق كما تلبى الغرائز المتعطشة للقتال نداء الدعاة الى الحرب بحجة الدفاع عن الحرية والسلام . ولم تدر كيف تعلن استسلامها الخطير ولكنها نظرت الى ياسين وسألته بصوت متهدج :

ــ زيارة الحسين منية قلبى وحياتى .. ولكن .. أبوك ؟

فضحك ياسين قائلا :

ــ أبى فى طريقه الى بور سعيد ولن يعود قبل ضحى الغد ، وبوسعك ــ زيادة فى الحيطة ــ أن تستعيرى ملاءة أم حنفى اللف حتى اذا اتفق أن رآك أحد وأنت تغادرين البيت أو وأنت تعودين اليه ظنك زائرة ...

ورددت عينيها بين الأبناء فى خجل وتهيب كأنها تنشد المزيد من التشجيع ، فتحمست خديجة وعائشة للاقتراح ، وكأنهما تعبران بحماسهما عن رغبتهما الحبيسة فى الانطلاق ، وفرحتهما بزيارة مريم التى باتت ــ بعد هذا الانقلاب ــ فى حكم المقرر ، وهتف كمال من أعماق قلبه :

ــ سأذهب معك يا نينة لأدلك على الطريق ..

وحدجها فهمى بنظرة عطف أثاره فى نفسه ما طالعه فى وجهها البرىء من سرور حائر كسرور الطفل اذا منى بلعبة جديدة فقال لها فى تشجيع واستهانة :

ــ ألقى نظرة على الدنيا ، لا عليك من هذا فانى أخاف أن تنسى المشى من طول لزومك للبيت .. !

وفى فورة الحماس جرت خديجة الى أم حنفى ثم عادت بملاءتها ، وتزاجمت الأصوات بالضحك والتعليق ، فغدا اليوم

عيدا سعيدا لا عهد لأحد به ، واشترك الجميع ـ وهم لا يدرون ـ في الثورة على ارادة الأب الغائب ، والتفت الست أمينة فى الملاءة وأسدلت البرقع الأسود على وجهها ، ثم نظرت فى المرآة فلم تتمالك من أن تضحك طويلا حتى اهتز جذعها ، وارتدى كمال بدلته وطربوشه وسبقها الى فناء البيت ، ولكنها لم تتبعه ، ركبها شعور الرهبة الذى يلازم المواقف الفاصلة فرفعت عينيها الى فهمى وتساءلت :

ـ ما رأيكم ، هل أذهب حقا ؟

فصاح بها ياسين :

ـ توكلى على الله ...

وتقدمت منها خديجة ، ووضعت يدها على منكبها ودفعتها برفق وهى تقول :

ـ الفاتحة أمانة ..

ولم تزل تدفعها حتى أوصلتها الى السلم ، ثم رفعت يدها فنزلت المرأة والجميع فى أعقابها .. ووجدت أم حنفى فى انتظارها ، فألقت الخادم على سيدتها ـ أو بالأحرى على الملاءة الملتفة بها ـ نظرة فاحصة ، ثم هزت رأسها هزة انتقادية ، وتقدمت منها وأعادت لف الملاءة حول جسمها وعلمتها كيف تمسك بطرفها فى الوضع المناسب ، فانقادت لها سيدتها التى كانت ترتدى الملاءة اللف لأول مرة ، وعند ذاك ارتسمت ملامح قامتها وقدها فى تفصيل وسيم ، تخفيه عادة جلابيبها الفضفاضة ، فألقت خديجة عليها نظرة اعجاب باسمة وغمزت بعينها لعائشة وأغرقتا فى الضحك ...

ولاقت وهى تعبر عتبة الباب الخارجى الى الطريق لحظة دقيقة جف لها ريقها فضاع السرور فى نوبة القلق ووطأة الاحساس بالذنب ، وتحركت فى بطء وهى قابضة على يد كمال بحال عصبية ، وبدت مشيتها مضطربة مخلخلة كأنها عاجزة عن مبادىء

المشى الأولية ، الى ما اعتراها من حياء شديد ، وهى تتعرض لأعين الناس الذين عرفتهم من عهد بعيد وراء خصاص المشربية — عم حسنين الحلاق ، ودرويش بائع الفول والفولى آللبان وبيومى الشرباتلى وأبو سريع صاحب المقلى — حتى توهمت أنهم سيعرفونها كما تعرفهم — أو لأنها تعرفهم — ووجدت مشقة فى تثبيت حقيقة بديهية فى رأسها وهى أن عينا منهم لم تقع عليها مدى الحياة ، وعلى تلك الحال عبرا الطريق الى درب قرمز لأنه وان يكن أقصر الطرق الى جامع الحسين الا أنه كان لا يمر — كطريق النحاسين — بدكان السيد فضلا عن خلوه من الدكاكين وانقطاع المارة عنه الا فيما ندر ، وتوقفت لحظة قبل أن توغل فيه ، والتفتت صوب المشربية فرأت شبحى ابنتيها وراء ضلفة منها بينما رفعت ضلفة أخرى عن وجهى ياسين وفهمى الباسمين ، فاستمدت من منظرهما شجاعة استعانت بها على أرتباكها ، ثم جدت فى السير — هى وغلامها — يقطعان الدرب المقفر فى شىء من الطمأنينة ، لم يغب عنها القلق ولا الاحساس بالذنب ولكنهما تراجعها الى حاشية الشعور الذى احتلت مركزه عاطفة آستطلاع حماسية نحو آلدنيا التى يتراءى لها درب من دروبها وميدان من ميادينها وغرائب من مبانيها وعديد من أناسها ، ووجدت سرورا ساذجا لمشاركة الأحياء فى الحركة والانطلاق ، سرور من قضت ربع قرن سجينة الجدران ما عدا زيارات معدودات لأمها فى الخرنفش — بضع مرات فى العام — تقوم بها داخل حنطور بصحبة السيد فلا تسعفها الشجاعة حتى لاستراق النظر الى الطريق . . وجعلت تسأل كمال عما يصادفهما فى طريقهما من مشاهد وأبنية وأماكن ، والغلام يحدثها فى اسهاب مزهوا بدور المرشد الذى يقوم به ، فهذا قبو قرمز المشهور الذى يجب — قبل آلدخول فيه — تلاوة الفاتحة ، وقاية من العفاريت ألتى تسكنه ، وهذا ميدان بيت القاضى بأشجاره الباسقة وكان يسميه ميدان « ذقن

الباشا » مطلقا عليه اسم الزهر الذى يعلو اشجاره أو يسميه أحيانا أخرى « ميدان شنجرلى » ساحبا عليه اسم بائع الشيكولاتة التركى ، أما هذا البناء الكبير فهو قسم الجمالية ، ومع أن الغلام لم يجد به ما يستحق اهتمامه سوى السيف المدلى من وسط الديدبان الا أن الأم ألقت عليه نظرة مليئة بحب الاستطلاع الخليق بمكان يقيم به الرجل الذى سعى الى طلب يد عائشة ، حتى بلغا مدرسة خان جعفر الأولية ، التى قضى بها عاما قبل التحاقه بمدرسة خليل أغا الابتدائية ، فأشار الى شرفتها الأثرية وهو يقول « فى هذه الشرفة كان الشيخ مهدى يلصق وجوهنا بالجدار لأقل هفوة ، ويركلنا بحذائه خمسا أو ستا أو عشرا كما يحلو له » ، ثم أومأ الى دكان تقع تحت الشرفة مباشرة وقال بلهجة لم يغب عنها مغزاها وهو يتوقف عن السير « وهذا عم صادق بائع الحلوى » تم لم يقبل التزحزح عن موضعه حتى أخذ قرشا وابتاع به ملبنا احمر ، انعطفا بعد ذلك الى طريق خان جعفر فلاح لهما عن بعد جانب من المنظر الخارجى لجامع الحسين ، يتوسطه شباك عظيم الرقعة محلى بالزخارف العربية ، وتعلوه فوق سور السطح شرفات متراصة كأسنة الرماح ، فتساءلت والبشر يسجع فى صدرها « سيدنا الحسين ؟ » ولما أجابها بالايجاب مضت تقارن بين المنظر الذى تقترب منه — وقد حثت خطاها لأول مرة مذ غادرت البيت — وبين الصورة التى خلقها خيالها له مستعينا فى خلقه بنماذج من الجوامع التى فى متناول بصرها كجامع قلاوون وبرقوق فوجدت الحقيقة دون الخيال ، لأنها كانت تنفخ فى الصورة طولا وعرضا على قدر يناسب منزلة صاحب الجامع من نفسها ، بيد أن هذا الاختلاف بين الحقيقة والخيال لم يكن ليؤثر شيئا فى فرحة اللقاء التى ثملت بها جوانحها ، ودارا حول الجامع حتى الباب الأخضر ودخلا فى زحمة الداخلات . ولما وطئت قدما المرأة أرض المسجد شعرت بأن بدنها

يذوب رقة وعطفا وحنانا ، وأنها تستحيل روحا طائرا يرفرف بجناحيه فى سماء يسطع بجنباتها عرف النبوة والوحى فاغرورقت عيناها بالدمع الذى أسعفها للترويح عن جيشان صدرها وحرارة حبها وايمانها وأريحية امتنانها وفرحها ، وراحت تلتهم المكان بأعين شيقة مستطلعة ، جدرانه وسقفه وعمده وأبسطته ونجفه ومنبره ومحاريبه ، والى جانبها كان كمال ينظر الى هذه الأشياء من ناحية أخرى خاصة به ترى أن الجامع يكون مزارا للناس فى النهار والهزيع الأول من الليل ، وبيتا من بعد ذلك لصاحبه الشهيد يذهب فيه ويجىء مستعملا ما فيه من أثاث على نحو ما يستعمل المالك ملكه ، فيطوف بأرجائه ويصلى فى المحراب ويرتقى المنبر ويعلو النوافذ ليشرف على حيه المحيط . وكم تمنى حالما لو ينسونه فى الجامع بعد أن يغلق أبوابه فيمكنه أن يلقى الحسين وجها لوجه وأن يمضى فى حضرته ليلة كاملة حتى الصباح وتخيل ما يخلق به أن يقدمه له عند اللقاء من آى الحب والخضوع وما يجدر به أن يلقيه عند قدميه من أمانيه ورغباته وما يرجوه بعد ذلك عنده من العطف والبركة ، تخيل نفسه وهو يقترب منه خافض الرأس فيسأله الشهيد برقة « من أنت ؟ » فيجيبه وهو يقبل يده « كمال أحمد عبد الجواد » ويسأله عن عمله فيقول له « تلميذ ــ ولن ينسى التنويه بتفوقه ــ بمدرسة خليل أغا » ويسأله عما جاء به فى هذه الساعة من الليل فيجيبه بأنه حب آل البيت عامة والحسين خاصة ، فيبسم اليه عطفا ، ويدعوه الى مرافقته فى تجواله الليلى ، وعند ذاك يبوح له بأمانيه جملة قائلا : « اضمن لى أن ألعب كما أشاء داخل البيت وخارجه ، وأن تبقى عائشة وخديجة فى بيتنا الى الأبد ، وأن تغير طبع أبى ، وأن تمد فى عمر أمى الى ما لا نهاية ، وأن آخذ من المصروف قدر كفايتى ، وأن ندخل الجنة جميعا بغير حساب » .... هذا وتيار الزائرات الزاحف فى بطء يدفعهما رويدا حتى وجدا نفسيهما فى مثوى

الضريح ، طالما تلهفت أشواقها على زيارة هذا المثوى كما تتلهف على حلم يستحيل تحقيقه فى هذه الدنيا ، ها هى تقف بين أركانه ، بل ها هى لصق جدران الضريح نفسه ، تشرف نفسها عليه خلال الدموع ، وتود لو تتريث لتتملى مذاق السعادة لولا شدة ضغط الزحام ، ومدت يدها الى الجدران الخشبية واقتدى كمال بها ، ثم قرءا الفاتحة ، ومسحت بالجدران وقبلتها ولسانها لا ينى عن الدعاء والتوسل ، ودت لو تقف طويلا أو تجلس فى ركن من الأركان لتعيد النظر والتأمل ثم لتعيد الطواف ، ولكن خادم المسجد وقف للجميع بالمرصاد ، لا يسمح لواحدة بالتلكؤ ويحث المتباطئات ، ويلوح منذرا بعصاه الطويلة ، وهو يدعو الجميع الى اتمام الزيارة قبل حلول ميعاد صلاة الجمعة ، ارتوت من المنهل العذب ولكنها لم تطفىء ظمأها ، وهيهات أن يروى لها ظمأ ، لقد هاج الطواف حنينها فتفجرت عيونه وسال وزخر ولن يزال ينشد المزيد من القرب والابتهاج ، ولما وجدت نفسها مرغمة على مغادرة المسجد انتزعت نفسها منه انتزاعا ، وأودعته قلبها وهى توليه ظهرها ثم مضت حسرى يعذبها شعورها بأنها تودعه الوداع الأخير ، بيد أن ما طبعت عليه من قناعة واستسلام آخذها على ما استسلمت له من الحزن فردها الى تملى ما ظفرت به من سعادة طاردت بها هواجس الفراق ، ودعاها كمال الى مشاهدة مدرسته فمضيا اليها فى نهاية شارع الحسين ، ووقفا عندها مليا ، ولما أرادت الرجوع من حيث أتت أنذره ذكر العودة بانتهاء الرحلة السعيدة مع أمه التى لم يحلم بمثلها من قبل فأبى التفريط فيها واستمات فى الدفاع عنها فاقترح عليها أن يسيرا فى السكة الجديدة حتى الغورية ، ولكى يقضى على المقاومة التى بدت فى صورة تقطيبة باسمة من وراء البرقع حلفها بالحسين فتنهدت ، واستسلمت ليده الصغيرة ، ومضيا يشقان طريقهما فى زحمة شديدة وبين تيارات متلاطمة من السائرين فى جميع الجهات مما لم تجد عشر معشاره فى الطريق

الهادىء الذى جاءت منه فعلاها الارتباك ، وأخذت تفقد نفسها فى اضطراب شامل ، ولم تلبث أن شكت اليه ماتلقى من عناء واعياء ، ولكن تهالكه على اتمام الرحلة السعيدة جعله يصم أذنيه عن شكاتها ويشجعها على مواصلة السير ويلهيها عن متاعبها بلفت نظرها الى الدكاكين والعربات والمارة ، وهما يقتربان فى بطء شديد صوب منعطف الغورية ، وعند ذاك المنعطف لاحت لناظريه دكان فطائر فسال لعابه وثبتت عيناه عليها لا تتحولان وراح يفكر فى وسيلة لاقناع أمه بالدخول الى الدكان وابتياع فطيرة ، وبلغا الدكان وهو لا يزال يفكر ، ولكنه ما يدرى الا وأمه تفلت من يده فالتفت نحوها متسائلا فرآها وهى تسقط على وجهها وقد ندت عنها آهة عميقة ، واتسعت عيناه فى ذهول ورعب دون أن يبدى حراكا ولكنه على ذهوله ورعبه رأى بجانب عينه ــ فى نفس الوقت تقريبا ــ سيارة تفرمل محدثة صوتا عنيفا ومرسلة وراءها ذيلا من الدخان والغبار فكادت تدوس الملقاة لولا أن انحرفت عنها مقدار شبر ، وتعالى صياح وحدثت ضجة وهرع الناس الى المكان من جميع نواحى الطريق كما تهرع الصبية الى صفارة الحلوى فضربوا حولها حلقة غليظة بدت أعينا مستطلعة ورءوسا مشرئبة وألسنة تهتف بكلام اختلطت أسئلته بأجوبته ، وأفاق كمال من الصدمة بعض الشىء فراح يردد عينيه بين أمه الملقاة عند قدميه وبين الناس فى حال ناطقة بالخوف والاستغاثة ثم ارتمى على ركبتيه الى جانبها ووضع كفه على منكبها وناداها بصوت تفتت نبراته بحرارة الرجاء ولكنها لم تستجب له فرفع رأسه مقلبا عينيه فى وجوه الناس ، ثم صرخ باكيا فى نحيب حار علا على الضجة التى تكتنفه حتى كاد يسكتها وتطوع البعض لمواساته بكلمات لا معنى لها ، وانحنى آخرون فوق أمه مستطلعين بنظرات كمنت وراءها رغبتان ، تنشد أحداهما السلامة للضحية ، وتنزع الأخرى ــ فى حال اليأس من السلامة ــ الى أن ترى الموت ــ ذلك الحتم

المؤجل ـ وهو يطـرق بابا غير بابهم ، وينتزع روحا غير روحهم كأنهم يودون أن يقوموا بشبه بروفا آمنة لأخطر دور قضى عليهم جميعا أن يختموا الحياة بلعبه ، وصـاح أحدهم قائلا « صـدمها باب السيارة الأيسر فى ظهرها » ، وقال السائق الذى غادر السيارة ووقف مختنقا بجو الاتهـام الذى يطبق عليه « لقد انحرفت عن الطوار بغتة فلم أسـتطع أن أتفادى من صدمها ، ولكنى فرملت بسرعة فجاءت الصدمة خفيفة ، ولولا رعاية الله لدسـتها » .. وجاء صوت من المحدقين اليها قائلا « ما زالت تتنفس .. أغمى عليها فقط » ، وعاد السائق يقول وقد لمح الشرطى قادما يترنح سيفه بجنبه الأيسر « انها صدمة خفيفة .. لم تتمكن منها أبدا .. انها بخير .. بخير يا جماعة والله ..... » .. ثم انتصـبت قامة أول رجل تقدم لفحصها وقال كأنما يلقى خطبة « ابتعدوا لا تمنعوا الهواء .. فتحت عينيهـا .. بخير .. بخير والحمـد لله ! .. » كان يتكلم بابتهاج لا يخلو من زهو كأنه هو الذى رد اليها الحياة ، ثم تحول الى كمال الذى غلبه بكاء عصبى فاسترسل فيه فى انفعال لم تجد معه مواساة المواسين ، تحول اليه وربت على خده بحنان وقال له « حسبك يا بنى .. أمك بخير .. انظر .. هلم ساعدنى على اقامتها » .. ولكن كمال لم يمسك عن البكاء حتى رأى أمه تتحرك فمال نحوها ووضع يسراها على كتفه ، وعاون الرجل على اقامتها حتى أمكن بجهد شديد أن تقف بينهما فى اعياء وخـور وقد سقطت عنها الملاءة التى امتدت بعض الأيدى لتعيـدها الى موضعها ـ قدر الامكان ـ حول كتفيها ، ثم قـدم لها الفطاثرى الذى وقعت الحادثة أمام دكانه مقعدا فأقعدوها عليه وجاءها بقدح من الماء فتجرعت جرعة سال نصفها على عنقها وصدرها فمسحت بيدها على صدرها بحركة عكسية وهى تزفر زفرة عميقة ، وجعلت تردد أنفاسا مضطربة بصعوبة وتنظر فى وجوه المحـدقين بها فى ذهول وهى تتساءل « ماذا جرى ؟ .. ماذا جرى ؟ .. رباه لماذا

تبكى يا كمال ؟ ! » وعند ذاك اقترب الشرطى منها وسألها « هل بك سوء يا سيدتى ؟ وهل تستطيعين السير الى القسم ؟ » فصدم اسم « القسم » عقلها فرجًها من الأعماق وهتفت بفزع « لماذا أذهب الى القسم ؟ ... لا أذهب الى القسم ابدا » فقال لها الشرطى « لقد صدمتك السيارة فأوقعتك ، فاذا كان بك سوء وجب أن تذهبى أنت وهذا السائق الى القسم لتحرير المحضر » ولكنها قالت وهى تلهث « كلا .. كلا .. لن أذهب .. أنا بخير » فقال لها الشرطى « توكدى مما تقولين ، انهضى وامشى لنرى أن كان أصابك سوء » ، ولم تتردد عن النهوض ــ مدفوعة بالفزع الذى أثاره ذكر القسم ــ فنهضت وأصلحت ملاءتها ثم سارت تحت الأعين المستطلعة وكمال الى جانبها ينفض عن الملاءة ما علق بها من تراب ، ثم قالت للشرطى وهى ترجو أن تنتهى هذه الحال المؤلمة بأى ثمن « انى بخير .. (ثم مشيرة الى السائق) .. دعوه .. لا شىء بى » لم تعد تشعر بخور فيما ركبها من خوف ، هالها منظر الناس المحدقين بها ، خاصة الشرطى الذى يتقدمهم ، وارتعدت تحت وقع النظرات المصوبة نحوها من كل مكان متحدية باستهانة بالغة تاريخا طويلا من التستر والتخفى فتخايلت لعينيها فوق هذا الجمع صورة السيد وكأنها تتفرس فى وجهها بعينين باردتين متحجرتين منذرتين بما لا تطيق تصوره من الشر ، فلم تأل أن قبضت على يدالغلام واتجهت به صوب الصاغة فلم يعترض سبيلها أحد وما غيبهما منعطف الطريق حتى شهقت من الأعماق وخاطبت كمال وكأنما تخاطب نفسها « يا ربى ماذا حدث ؟ ماذا رأيت يا كمال ؟ كأنه حلم مفزع ، خيل الى أنى أهوى من عل الى هاوية مظلمة ، وأن الأرض تدور تحت قدمى ، ثم غبت عن كل شىء حتى فتحت عينى على ذاك المنظر المخيف ، رباه .. هل أراد حقا أن يذهب بى الى القسم ؟ ! يا لطيف يا رب .. يا منجى يا رب ، متى نبلغ بيتنا ؟ ! بكيت كثيراً يا كمال لا عدمت عينيك

أبدا ... جفف عينيك بهذا المنديل حتى تغسل وجهك فى البيت .. آه » .

وتوقفت عن السير بعد أن أوشكا أن يطويا طريق الصاغة ، واعتمدت بيدها على منكب الغلام وقد تقلص وجهها ، فرفع كمال وجهه اليها منزعجا وسألها :

ـ ماذا بك ؟

فأغمضت عينيها وهى تقول بصوت ضعيف :

ـ انى تعبة ، تعبة جدا ، لا تكاد تحملنى قدماى ، أدع أول عربة تصادفك يا كمال ...

ونظر كمال فيما حوله فلم ير الا عربة كارو واقفة عند باب مستشفى قلاوون فنادى الحوذى الذى بادر الى سوق العربة حتى وقف بها أمامهما واقتربت الأم منها متكئة على كتف كمال ثم صعدت الى سطحها بمعاونته واعتمادا على منكب الحوذى الذى وطأه لها حتى تربعت وهى تتنهد فى اعياء شديد ، وجلس كمال الى جانبها ثم وثب الحوذى الى المقدمة ونخس الحمار بقبضة سوطه فمشى مشيته الوئيدة والعربة تترنح وراءه مطقطقة .. وتأوهت المرأة متمتمة « ما أشد الى ، عظام كتفى تتفكك » هذا وكمال يرمقها فى جزع وقلق .. ومرت العربة فى طريقها بدكان السيد دون أن يعيراها التفاتا ، ومضى كمال يتطلع الى الأمام حتى لاحت لعينيه مشربيات البيت .. لم يعد يذكر من الرحلة السعيدة الا نهايتها المحزنة ...

— ٢٨ —

فتحت أم حنفي الباب فأذهلها أن ترى سـيدتها متربعة على عربة كارو ، وقد ظنت لأول وهلة أنه ربما يكون قد خطر لها أن تختم رحلتها بجولة فى العربة على سبيل اللهو فلاحت على وجهها ابتسامة ولكن الى لحظة قصـيرة اذ ما لبثت أن رأت عينى كمال المحمرتين من البـكاء فارتدت عينـاها الى سـيدتها فى أنزعاج واستطاعت هذه المرة أن تلمس ما تعانى من أعياء وألم فندت عنها آهة وهرعت الى العربة هاتفة « ستى ، مالك ، بعد الشر عنك » فقال لها الحوذى « تعب بسيط ان شاء الله ، عاونينى على أنزالها » وتلقتها المرأة بين ذراعيها ، وسارت بها الى الداخل وتبعهما كمال واجما محزونا ، وكانت خديجة وعائشة قد غادرتا المطبخ وانتظرتا فى الفناء وكلتاهما تفكر فى دعابة تلقى بها القادمين فما راعهما الا أن تطلع عليهما أم حنفى من الدهليز الخارجى وهى تـكاد تحمل الأم حملا فندت عنهما صرخة ، وهرعتا اليها فزعتين وهما تهتفان :

— نينة ... نينة ... مالك !

وتعاونوا جميعا على حملها ، ولم تكف خديجة فى أثناء ذلك عن أن تسأل كمال عما حدث حتى اضطر الغلام الى أن يغمغم فى خوف بالغ :

— سـيارة !

— سـيارة !

هـكذا هتفت الفتـاتان معا مرددتين الاسم الذى وقع من نفسيهما موقعـا مفزعا فاق الاحتمال . فولولت خديجة هاتفـة « يا خبر أسود .. بعد الشر عنك يا نينة » أما عائشـة فانعقـد

لســانها وأفحمت فى البكاء ، ولم تكن الأم غائبة عن الوجود وان كانت من الاعياء فى نهــاية فهمست على اعيائها رغبة فى تسكين اضطرابهما :

ــ انى بخير ، لم يحدث سوء ، ما بى الا تعب .

وتناهت الضجة الى ياسين وفهمى فخرجا الى رأس السلم ، وأطلا من فوق الدرابزين وما لبثا أن نزلا مهرولين منزعجين وهما يتساءلان عما حدث ، ولم تملك خديجــة الا أن تشــير الى كمال ليجيب بنفسه مشفقة من ترديد الاسم الرهيب فاتجه الشابان الى الغلام الذى عاد يغمغم بحزن وارتباك :

ــ سيارة !

ثم انتحب باكيا ، وتحول الشابان عنه مؤجلين ما يلح عليهما من أســئلة الى حين ، وحملا الأم الى حجرة الفتاتين وأجلســاها على الكنبة ثم سألها فهمى قلقا معذبا :

ــ خبرينى عما بك يا نينة ، أريد أن أعرف كل شىء ..

ولكنها مالت برأسها الى الوراء ولم تنبس بكلمة ريثما تسترد انفاسها على حين علا بكاء خديجة وعائشة وأم حنفى وكمال حتى فقد فهمى أعصابه فثار بهن ونهرهن حتى أمسكن ، ثم جذب كمال اليه ليستجوبه عما يريد ، كيف وقع الحادث ، وماذا فعل الناس بالسائق ، وهل أخذوكما الى القسم ، وكيف كان حال الأم فى أثناء ذلك كله ، هذا وكمال يجيبه على أسئلته بلا تردد وفى اســهاب ، وعن أكثر التفاصيل ، وكانت الأم تتابع الحديث بالرغم من وهنها فلما سكت الغلام استجمعت قواها وقالت :

ــ انى بخير يا فهمى ، لا تزعج نفســك ، كانوا يريدون أن أذهب الى القسـم فرفضت ، ثم واصلت السير حتى نهاية الصاغة وهناك خارت قواى فجأة ، لا تنزعج ، سأسترد قواى بعد راحة قصيرة ..

الا أن ياسين عانى ــ الى انزعاجه للحادث ــ حرجا شــديدا

لأنه كان المسئول الأول عن الرحلة المشئومة ــ بهذا وصفت بعد الحادث ــ فاقترح عليهم أن يستدعوا طبيبا ، وغادر الحجرة لتنفيذ اقتراحه دون انتظار لمعرفة رأى الآخرين ، وارتعدت الأم لذكر الطبيب كما ارتعدت من قبل لذكر القسم فرجت فهمى أن يلحق بأخيه وأن يثنيه عن عزمه مؤكدة له بأنها ستبرأ دون حاجة الى طبيب ولكن الشاب رفض الاذعان لرجائها مبينا لها أوجه الفائدة المنوطة بمجيئه ، وفى أثناء ذلك تعاونت الفتاتان على نزع الملاءة عنهـا وجاءتها أم حنفى بقـدح ماء ثم أحاطوا بهـا جميعا وهم يتفحصون بقلق وجههـا الذى علاه الشحوب ويسألونها مرارا وتكرارا عما تجد ، وهى تحاول ما استطاعت أن تتظاهر بالهدوء أو تقنع بأن تقـول اذا ألح عليهـا الألم « ثمة ألم خفيف فى كتفى اليمنى » ثم تستدرك قائلة « ولكن لم يكن من داع لاستدعاء طبيب » ، والحق أنهـا لم ترتح لاستدعائه أبدا ، لأنها من ناحية لم تلق طبيبـا قط ــ لا لحصانة صحتها فحسب ــ ولـكن لأنها نجحت دائما فى مداواة ما يلم بهـا من توعك أو انحراف بطبعهـا الخـاص فلم تؤمن بالطب الرسـمى ، الى أنه آقترن فى ذهنهـا بالحوادث الخطيرة والخطـوب الفادحة ، ومن ناحيـة أخرى فقد شعرت بأن استدعاء الطبيب من شأنه أن يهول الأمر الذى تود له الستر والطى قبل عودة السيد .. ولم تأل أن أفصحت لأبنائها من مخاوفها ، ولـكنهم لم يهتموا فى تلك اللحظة الدقيقة الا بشيء واحد ، هو سلامتها ..

ولم يغب ياسين أكثر من ربع ساعة لأن عيادة الطبيب كانت فى ميدان بين القاضى ، ثم عاد يتقدم الرجل الذى أدخل الى الأم حال حضوره ، وأخليت الغرفة فلم يبق بها معه الا ياسين وفهمى ، وسأل الطبيب الأم عما تشكو فأشارت الى كتفها اليمنى وقالت وهى تزدرد ريقها الذى جف من الخوف :

ــ أشعر هنا بألم ...

وعلى هدى اشارتها ، الى ما حدثه به ياسين فى الطريق عن الحادث جملة ، تقدم لفحصها ، وطال وقت الفحص فى شعور الشابين المنتظرين فى الداخل ، وشعور المنتظرات وراء الباب مرهفات السمع خافقات القلب ، وتحول الطبيب عن المصابة الى ياسين قائلا :

ــ كسر فى الترقوة اليمنى ، هذا كل ما هنالك .

وأحدثت « لفظة » الكسر ارتياعا فى الداخل والخارج ، وعجب الجميع لقوله « هذا كل ما هنالك » كأن وراء الكسر شيئا يتسع له احتمالهم ، على أنهم وجدوا فى ذات التعبير ، واللهجة التى ألقى بها ما يغرى بالطمأنينة فتساءل فهمى وهو بين الخوف والأمل ..

ــ وهل هو شىء خطير .. ؟

ــ كلا البتة ، سأعيد العظم الى سابق موضعه وأشده ولكن عليها أن تنام بضع ليال وهى قاعدة مسندة الظهر الى وسادة لأنه سيتعذر عليها أن تنام على الظهر أو الجنبين ، وسوف يجبر الكسر وتعود الى ما كانت عليه فى ظرف أسبوعين أو ثلاثة على الأكثر ، لا داعى للخوف مطلقا .. والآن دعونى أعمل ...

ومهما يكن من أمر فقد استروحوا نسمة سلام بعد أن جفت منهم الحناجر ، وبدا هذا الأثر واضحا بين الجماعة خارج الحجرة فتمتمت خديجة :

ــ فلتحل بها بركة سيدنا الحسين الذى ما خرجت الا لزيارته ..

وكأنما تذكر كمال بقولها أمرا هاما أنسيه طويلا فقال بدهشة :

ــ كيف أمكن أن يقع لها هذا الحادث بعد تبركها بزيارة سيدنا الحسين ؟

ولكن أم حنفى قالت ببساطة :

ــ ومن أدرانا بما كان يحدث لها ــ والعياذ بالله ــ لو لم تتبرك بزيارة سيدها وسيدنا ؟

ولم تكن عائشة قد أفاقت من أثر الصدمة فضاق صـدرها بالحديث وهتفت برجاء حار :

ــ آه يا ربى متى ينتهى كل شىء كأنه لم يكن ! ..

وعادت خديجة تقول بأسف وحسرة :

ــ ما الذى ذهب بها الى الغورية ؟ ! لو رجعت بعـد الزيارة الى البيت مباشرة لما حدث لها الذى حدث ! ..

فدق قلب كمال خوفا وانزعاجا وتجسم ذنبه لعينيه جريمة نكراء ولكنه حاول التملص من الشبهات فقال بلهجة تنم عن لوم :

ــ أرادت أن تتمشى فى الطريق وعبثـا حاولت أن أثنيها عن ارادتها ..

فحدجته خديجـة بنظرة اتهـام وهمت بالرد عليه وكأنها أمسكت اشفاقا وعطفا على وجهه الذى علاه الاصفرار ، ثم قالت لنفسـها « حسبنا ما نحن فيه الآن » ..

وفتح الباب وغادر الطبيب الحجرة وهو يقول للشابين اللذين تبعاه :

ــ ينبغى أن أعودها يوما بعد يوم حتى يجبر الكسر ، وكما قلت لكما لا داعى للخوف مطلقا ...

واقتحم الجميع الحجرة فرأوا أمهم قاعدة فى الفراش ، مسندة الظهر الى وسادة مكسورة وراءها ولم يكن ثمة تغيير الا ارتفاع فى كتف الفسـتان فوق منكبها الأيمن وشى بالرباط الذى تحتـه ، فهرعوا اليها ووقفوا :

ــ الحمد لله ...

كم اشتد بها الألم والطبيب يعالج الكسر فأنت أنينا متواصلا ، ولولا ما طبعت عليه من حيـاء لصرخت عاليا ، ولكن زايلها الآن الألم ، أو هكذا بدا ، وشـعرت براحة نسبية وسكينة ، بيد أن زوال حدة الألم مكنت لعقلها من اسـتئناف نشاطه فاستطاعت

أن تفكر فى الموقف من مختلف نواحيه وما لبث أن ركبهـا الخوف فقالت متسائلة وهى تردد بينهم بصرا زائغا :

ــ ما عسى أن أقول لأبيكم اذا رجع ؟

اعترض هذا السؤال ــ ساخرا متحديا ــ نسمات الطمأنينة التى سكنوا اليها كما تعترض الصخور الناتئة سبيل سفينة آمنة ، على أنه لم يجىء مفاجأة لوعيهم ، بل لعله اندس فى زحمة المشاعر الأليمة التى ورت بها قلوبهم لدى ارتطامها بالخبر ولكنه ضاع فى زحمتها فتأجل حسابه الى حين ، الآن قد عاد ليحتل الصدارة من نفوسهم ، فلم يجدوا مهربا من مواجهته ، ورأوا بحق أنه أشد عليهم وعلى أمهم من الاصابة التى خرجت منها وشيكة الشفاء ، وشعرت الأم ــ للصمت الذى قوبل به سؤالها ــ بعزلة المذنب اذا تخلى عنه رفاقه حين انكشاف تهمته فتمتمت بنبرات شاكية :

ــ سيعلم حتما بالحادث ، وسيعلم أكثر من هذا بخروجى الذى أدى اليه ..

ومع أن أم حنفى لم تكن دون أفراد الأسرة قلقا ولا أقل ادراكا لخطورة الموقف الا أنها أرادت أن تقول كلمة طيبة ، تلطيفا للجو من ناحية ، ولأنها كانت تشعر من ناحية أخرى بأن الواجب يقضى عليها ــ كخادم الأسرة القديمة الأمينة ــ بألا تلوذ عند الشدائد بالصمت أن يظن بها عدم اكتراث ، فقالت وهى أدرى ببعد قولها عن الواقع :

ــ اذا علم سيدى بما وقع لك فلن يسعه الا أن يتناسى هفوتك حامدا الله على نجاتك ..

وقوبل قولها بالاهمال الذى يستحقه عند قوم لا تخفى عليهم من حقيقة الموقف خافية ، الا أن كمال آمن به ، وقال متحمسا وكأنه يتم كلام أم حنفى ...

ــ خصــوصا اذا قلنــا له ان خروجنا كان لزيارة ســيدنا الحسين ..

ورددت المرأة عينيها الخابيتين بين ياسين وفهمى وتساءلت :

ــ ما عسى أن أقول له ؟

فقال ياسين الذى هاضته شدة مسئوليته :

ــ أى شيطان أضلنى حين نصحت لك بالخروج ، كلمة جرت على لسانى وليتها ما جرت ، ولكن هكذا شاءت الأقدار لترمى بنا فى هذا المــأزق الأليم ، على أننى أقول لك بأننا سنجد ما نقوله ، وأيا كان الأمر فلا ينبغى أن تشغلى فكرك بما سيكون ، دعى الأمر لله ، وحسبك ما قاسيت فى يومك من آلام ومخاوف ...

تكلم ياسين بحماس وعطف معا ، فصب سخطه على نفسه ، وعطف على الأم عطف المتألم لحالها ، ومع أن كلامه لم يقدم ولم يؤخر الا أنه روح عن شعوره الضيق بالحرج ، وأفصح به فى نفس الوقت عما عساه يدور فى عقول بعض ــ أو كل ــ من يقفون آلى جانبه فأغناهم عن الافصاح عنه بأنفسهم اذ أن التجربة علمتــه بأنه أحيانا ما يكون السبيل خير السبيل للدفاع عن النفس هو فى الهجوم عليها وأن الاعتراف بالذنب يغرى بالصفح بقدر ما يغرى الدفاع عنه بالغضب ، وكان أخوف ما يخــاف أن تنتهز خديجــة الفرصة السانحة لتحمله جهــارا مسئولية ما أدت اليه مشورته وتتخذها سبيلا الى مهاجمته فسبقها الى غرضها قاطعــا عليها الطريق ، ولم يكذب ظنه فالحق أن خديجــة كانت على وشك أن تطالبه ــ بصفته المسئول الأول عما وقع ــ بأن يجد لهم مخرجا ، فلما أن ألقى خطابه استحيت من مهاجمته خاصة وأنها لا تهاجمه عادة الا على سبيل النقار لا الكراهة ، بذلك تحسن موقفه بعض الشىء ولكن الموقف العام بقى على سوئه ، وظل كذلك حتى خرجت خديجة من صمتها قائلة :

ــ لماذا لا ندعى أنها سقطت على السلم ؟

فتطلعت اليها أمها بوجه يتلهف على النجاة من أى سبيل ، وقلبته بين فهمى وياسين وقد لاحت بعينيها لمعة أمل ، بيد أن فهمى تساءل فى حيرة :

ــ والطبيب ؟ .. سيعودها يوما بعد يوم وسيقابل أبى بالضرورة ..

ولكن ياسين أبى أن يغلق الباب الذى تسللت منه نسمة أمل حرية بأن تستنقذه من آلامه ومخاوفه فقال :

ــ نتفق مع الطبيب على ما ينبغى أن يقال لأبى ؟

وتبودلت النظرات بين التصديق والتكذيب ، ثم شاع فى الوجوه البشر للاحساس المشترك بالنجاة وتغير الجو القاتم الى جو بهيج كما تبدو وسط السحاب المكفهر فجوة زرقاء على غير انتظار فتنداح بمعجزة عجيبة حتى تشمل القبة السماوية فى دقائق معدودات ثم تضىء الشمس ؛ قال ياسين وهو يتنهد :

ــ نجونا والحمد لله ..

فقالت خديجة بعد أن استعادت فى الجو الجديد نشاطها المألوف :

ــ بل نجوت أنت يا صاحب المشورة ..

فقهقه ياسين حتى اهتز جسمه الضخم وقال :

ــ أجل نجوت من عقرب لسانك ، طالما توقعت أن تمتد الى بين حين وآخر لتلسعنى ..

ــ ولكنها هى التى أنقذتك ، ومن أجل الورد يسقى العليق ..

كادوا ينسون فى فرحة النجاة أن أمهم طريحة الفراش مكسورة الترقوة ، ولكنها هى نفسها كادت أن تنسى ..

فتحت عينيها فوقع بصرها على خديجة وعائشة جالستين على الفراش عند قدميها رانيتين اليها بعينين يتنازعهما الخوف والرجاء ، فتنهدت ثم التفتت صوب النافذة فرأت خصاصها ينضح بضوء الضحى فتمتمت كالمستغربة :

— نمت طويلا ...

فقالت عائشة :

— ساعات معدودة بعد أن طلع عليك الفجر دون أن يغمض لك جفن ، يا لها من ليلة لن أنساها مهما أمتد بى العمر ..

وعاودتها ذكريات الليلة الماضية من الأرق والألم فنطقت عيناها بالرثاء — لنفسها وللفتاتين اللتين سهرتا الى جانبها طوال الليل يبادلانها الألم والأرق — وتحركت شفتاها وهى تستعيذ بالله بصوت غير مسموع ثم همست قائلة فيما يشبه الحياء ..

— شد ما أتعبتكما ..

فقالت خديجة بلهجة توحى بالدعابة :

— تعبك راحة ، ولكن اياك وأن تعودى الى ارعابنا .. (ثم بنبرات غالبها التأثر) .. كيف هاجمك ذاك الألم المخيف ؟ ! .. لقد حسبتك استغرقت فى النوم وأنت على أحسن حال ، واستلقيت لأنام بدورى ، واذا بى أستيقظ على أنينك ، ثم لم تمسكى عن آه .. آه .. حتى مطلع الفجر ..

وتهلل وجه عائشة بالتفاؤل وهى تقول :

— على أى حال أبشرى ، لقد أخبرت فهمى عن حالك حين

سألنى عن صحتك فى الصباح فقال لى ان الالم الذى انتابك دليل على أن العظم المكسور كان آخذا فى الالتئام ..

وجذبها أسم فهمى من لجة أفكارها فتساءلت :

ـ ذهبوا بسلامة الله ؟

فقالت خديجة :

ـ طبعا ، كانوا يريدون محادثتك ليطمئنوا عليك بأنفسهم ولكنى لم أسمح لأحد بأن يوقظك من النوم الذى لم تدخليه حتى شيبتنا ...

فتنهدت الأم فى استسلام :

ـ الحمد لله على كل حال ، ربنا يجعل العواقب سليمة .. فى أى وقت نحن الآن ...

فقالت خديجة :

ـ كلها ساعة ويؤذن الظهر ..

ودعاها تأخر الوقت الى أن تخفض عينيها متفكرة ثم رفعتهما فاذا بهما تعكسان نظرة قلق ، وتمتمت :

ـ لعله الآن فى الطريق الى البيت ..

وأدركتا من تعنى ، ومع أنهما شعرتا بدبيب الخوف فى قلبيهما الا أن عائشة قالت بثقة :

ـ أهلا به وسهلا ، لا داعى للقلق ، آتفقنا على ما ينبغى أن يقال وانتهى الأمر ..

ولكن اقتراب عودته أشاع فى نفسها المهزولة القلق فتساءلت :

ـ ترى هل يمكن التستر على ما وقع ؟

فقالت خديجة بصوت أرتفعت حدته بنسبة قلقها المتزايد :

ـ ولم لا ؟ .. سنخبره بما تم الاتفاق عليه فيمر الأمر بسلام..

تمنت فى تلك الساعة لو بقى ياسين وفهمى الى جانبها ليشجعاها ، تقول خديجة ستخبره بما تم الاتفاق عليه فيمر الأمر بسلام ، ولكن هل يظل ما وقع سرا مغلقا الى الأبد .. الا تجد الحقيقة

فرجة تنفذ منها الى الرجل ؟.. كم تخاف الكذب بقدر ما تخاف الحقيقة ، ولا تدرى أى مصير يتربص بها .. ورددت عينيها بعطف بين الفتاتين وفتحت فاها لتتكلم حين دخلت أم حنفى مهرولة وهى تقول بصوت مهموس كأنها تخاف أن يسمع خارج الحجرة :

ـ سيدى جاء يا ستى ..

وخفقت قلوبهن فى اضطراب ، وجلت الفتاتان عن الفراش فى وثبة واحدة ثم وقفتا حيال أمهما يتبادلن جميعا النظر صامتات حتى غمغمت الأم ..

ـ لا تتكلما أنتما فانى أخاف عليكما مغبة مخادعته ، اتركا لى القول والله المستعان ..

وساد صمت مشحون بالتوتر كالصمت الذى يركب أطفالا فى الظلام اذا قرع آذانهم وقع أقدام من يظنونهم عفاريت يجوسون فى الخارج ، حتى ترامى اليهن وقع أقدام السيد على السلم وهى تقترب فأزاحت الأم كابوس الصمت بمشقة وغمغمت ..

ـ اذا تركناه صعد الى حجرته لم يجد أحدا ؟ !

ثم التفتت صوب أم حنفى قائلة :

ـ أخبريه بأننى هنا ، مريضة ، ولا تزيدى ...

وازدردت ريقها الجاف ، أما الفتاتان فمرقتا من الحجرة مستبقتين وغادرتاها وحيدة ، ووجدت نفسها وكأنها فى عزلة عن العالم كله فاستسلمت للمقادير ، وكثيرا ما يبدو هذا الاستسلام فى سلوكها ـ الأعزل من كل سلاح ـ كأسلوب من أساليب الشجاعة السلبية ، واستجمعت فكرها لتتذكر ما يجب قوله بيد أن الشك فى سلامة تدبيرها لم يزايلها قط وكمن فى أعماق شعورها معلنا عن ذاته بحال من القلق والتوتر وتبدد الثقة وجاءها وقع طرف عصاه على أرض الصالة فغمغمت « رحمتك يا رب وعونك » ثم تطلع بصرها الى الباب حتى اعترضه جسمه الطويل العريض ، ورأته وهو يدخل مقتربا ملقيا عليها نظرة متفحصة من عينيه الواسعتين

حتى وقف فى منتصف الحجرة وهو يتساءل بصوت خالته رقيقا على غير عادته :

ـ مالك ؟ . .

فقالت وهى تغض بصرها :

ـ حمد الله على سلامتك يا سـيدى ، بخير ما دمت بخير . .

ـ لكن أم حنفى قالت لى انك مريضة . .

فأشارت بيسراها الى كتفها اليمنى وقالت :

ـ أصيب كتفى يا سيدى لا أراك الله سوءا .

فتساءل الرجل وهو يتفرس فى كتفها باهتمام وقلق :

ـ ماذا أصابه ؟

حم الأمر ، وجاءت الدقيقة الفاصـلة ، ما عليها الا أن تتكلم ، أن تنطق بكذبة النجاة ، فتمر الأزمة بسلام وتستزيد من العطف المتاح ، ورفعت عينيهـا وهى تتوثب ، فالتقت عيناها بعينيه ، أو بالأحرى غابت عيناها فى عينيه ، فاشتد وجيب قلبها ، وتتابع بلا رحمـة ، هنـاك تبخر ما جمعته فى رأسها من رأى ، وانتثر ما كتلته فى ارادتهـا من عزم ، ورمشـت عينـاها فى اضـطراب وذهول ، ثم رنت اليه بطرف حائر دون أن تنبس بكلمة ، وعجب السيد لاضطرابها فتعجلها متسائلا :

ـ ماذا حدث يا أمينة ؟ !

لا تدرى ماذا تقول ، كأنه ليس لديهـا ما تقـوله ولكن بات فى حكم اليقين أنه لم يعد بوسعها أن تكذب ، أفلتت الفرصة دون أن تدرى كيف ، ولو أنها أعادت المحاولة لخرجت من صدرها مبتورة مكشوفة ، كانت كمن يسير وهو منوم تنويما مغناطيسيا على حبل اذا دعى الى اعادة مخاطرته وهو صاح ، وكلما مرت الثوانى غاصت فى الارتباك والهزيمة حتى أشفت على اليأس . .

ـ لماذا لا تتكلمين ؟ . .

ها هى لهجته قد بدأت تنم عن نفاد صـبر ولا يبعد أن تقعقع

قريبا بالغضب ، رباه لشد ما هى فى حاجة الى العون ، أى شيطان أغواها بتلك الخرجة المشئومة . .

ــ عجبا ألا تريدين أن تتكلمى ؟!. .

وبات السكوت فوق طاقتها فتمتمت بصوت متهدج مدفوعة باليأس والقهر . .

ــ أخطأت خطأ كبيرا يا سيدى .. صدمتنى سيارة . .

واتسعت عينا السيد دهشة ولاح فيهما انزعاج مقرون بالانكار . . وكأنه بات يشك فى صحة قواها العقلية ، ولم تعد المرأة تحتمل التردد وصممت على أن تبوح باعترافها كاملا مهما تكن العواقب ، كمن يقدم ــ مغامراً بحياته ــ على اجراء عملية جراحية خطيرة ليتخلص من آلام داء لا قبل له به ، وتضاعف عند ذاك شعورها بفداحة الذنب وخطورة الاعتراف فدمعت عيناها وقالت بصوت لم تعن باخفاء نبراته الباكية أما لأنه غلبها على صوتها أو لأنها أرادت أن تبذل محاولة يائسة لاستدرار العطف .

ــ ظننت أن سيدنا الحسين يدعونى الى زيارته فلبيت . . ذهبت للزيارة . . وفى طريق العودة صدمتنى سيارة .. قضاء الله ياسيدى . . ولقد نهضت من سقطتى دون معاونة أحد (قالت العبارة الأخيرة بوضوح) ولم أشعر بادىء الأمر بأى ألم فحسبتنى بخير وواصلت السير حتى عدت الى البيت ، وهنا تحرك الألم فأحضروا لى الطبيب ففحص كتفى وقرر أن به كسرا ووعد بأن يعودنى يوما بعد يوم حتى يجبر الكسر ، لقد أخطأت خطأ كبيرا يا سيدى وجوزيت عليه بما أستحق . . والله غفور رحيم . . .

انصت السيد اليها صامتا جامدا ، لم تتحول عنها عيناه ، ولم يبد فى وجهه أثر مما يعتلج فى صدره على حين نكست هى رأسها فى تخشع بحال من ينتظر النطق بالحكم ، وطال الصمت ، واشتد ، وشاعت فى جو المقبض نذر الخوف والوعيد ، وتحيرت

من أمره لا تدرى عن أى قضاء يتمخض ولا الى أى مصير يقذف بها ، حتى جاءها صوته وهو يقول فى هدوء غريب :

ـ وماذا قال الطبيب ؟ .. هل ثمة خطر على الكسر ؟..

فالتفت رأسها صوبه بذهول .. أجل توقعت كل شىء الا أن يجود بهذا القول اللطيف ، ولولا رهبة الموقف لاستعادته لتتوكد من صحة ما سمعت ، وغلبها التأثر فطفرت من عينيها دمعتان غزيرتان فشدت على شفتيها أن تفحم فى البكاء ، ثم غمغمت فى ذل وانكسار :

ـ قال الطبيب انه لا داعى للخوف مطلقا ، نجاك الله من كل سوء يا سيدى ..

ووقف الرجل بعض الوقت وهو يقاوم رغبة تدعوه الى المزيد من السؤال حتى تغلب عليها فتحول عن موقفه ليغادر الحجرة وهو يقول :

ـ الزمى فراشك حتى يأخذ الله بيدك ..

ـ ٣٠ ـ

هرعت خديجة وعائشة الى الحجرة بعد ذهاب والدهما ، ووقفتا حيال أمهما تنظران اليها بعينين مستطلعتين تنطق نظراتهما بالاهتمام والقلق ، ثم لاحظتا احمرار عينيها من أثر البكاء ، فوجمتا وتساءلت خديجة وقد استشعر قلبها الخوف والتشاؤم :

ـ خير ان شاء الله ؟..

فلم تعد الأم أن قالت باقتضاب وهى ترمش بعينيها ارتباكا :

ـ اعترفت له بالحقيقة ...

ـ الحقيقة !..

فقالت باستسلام :

ـ لم يسعنى الا الاعتراف ، فما كان من الممكن أن يخفى الأمر عليه الى الأبد ، وحسنا فعلت . . .

فدقت خديجة صدرها بيدها وهتفت :

ـ يا نهارنا الأسود . . .

على حين بهتت عائشـــة فحملقت فى وجه أمها دون أن تنبس بكلمة ، ولــكن الأم ابتسمت فيما يشبه الزهو المقرون بالحيــاء ، وتورد وجهها الشاحب وهى تستعيد ذكرى العطف الذى شملها به حين لم تكن تتوقع الا غضبا كاسحا يعصف بها وبمستقبلها . . أجل شعرت بزهو وحياء وهى تتهيأ للحديث عن عطف الســـيد عليها فى محنتها وكيف نسى غضبه فيما اعتراه من تأثر واشفاق ، ثم غمغمت بصوت لا يكاد يسمع :

ـ كان بى رحيما أطال الله عمره ، أنصت الى قصتى صامتا ، ثم سألنى عن رأى الطبيب فى خطورة الكسر وغادرنى وهو يشير على أن ألزم الفراش حتى يأخذ الله بيدى . .

وتبادلت الفتــاتان النظرات فى دهشـــة وعدم تصــديق ولكن زايلهما الخوف سريعا فتنهــدتا فى ارتياح عميق وأضاء وجهاهما بالبشر ، وهتفت خديجة :

ـ أرأيت بركة الحسين ؟

وقالت عائشة بخيلاء :

ـ لكل شىء حدود حتى غضب بابا ، ما كان يسعه أن يغضب وهو يراها على هذه الحال ، الآن عرفنا قيمتها عنده . . (ثم مخاطبة أمها فى دعابة) . . يالك من أم محظوظة ، هنيئا لك التكريم والعطف !

فعاود وجه الأم التورد وقالت بتلعثم وحياء :

ـ أطال الله عمره ... (ثم متنهدة) والحمد لله على النجاة !

وتذكرت أمرا فالتفتت الى خديجة وقالت باهتمام :

ـ يجب أن تلحقى به لأنه ســيحتاج الى خدمتك حتمــا . .

وشعرت الفتـاة ـ لما يركبها فى محضر أبيها من الارتبـاك والاضطراب ـ كأنها وقعت فى شرك ، فقالت محتدة :

ـ ولماذا لا تذهب عائشة ؟ !

ولكن الأم قالت فى عتاب :

ـ أنت أقدر على خدمته ، لا تتلكئى يا شابة اذ ربما يكون فى حاجة اليك الآن . .

وكانت تعلم ان احتجاجها لن يغنى عنها شيئا كما لا يغنى عنها عادة كلما دعيت الى أداء واجب ترى الأم أنها أقدر عليه من أختها ، ولكنها أصرت على اعلانه كما تصر عادة على اعلانه فى أمثـاله من المواقف ، مدفوعة بأعصابها السريعة الالتهاب ، وجريا مع نزعتها العدوانية التى تجد من لسانها أطوع أداة وأحدها ، ثم لتحمل أمها على اعادة القول بأنها « أقدر على كيت وكيت من عائشة » كاقرار من أمها وانذار لشقيقتها وعزاء لها هى نفسها ، والحق أنه لو حدث أن عهدت الأم بواجب من هذه الواجبات « الخطيرة » لعائشة دونها لثارت ثورة أشد ، ولحالت بينها وبينه ، ما دامت تجد ـ فى أعماق قلبها ـ أن القيـام بهذه الواجبات حق من حقوقها وامتياز لها كامرأة جديرة بالمكانة التالية لأمها فى البيت ، ولكنها أبت فى الوقت نفسه أن تعترف جهارا بأنها تمارس ـ بالقيـام بها ـ حقا من حقوقها ولكن واجبا ثقيلا تقبله مضطرة ، حتى تدعى اليه ـ اذا دعيت ـ فى حرج من الداعى ، ولتحتج عليه ـ اذا احتجت ـ فى غضب يروح عن نفسها ، ولتسمع بالمناسبة التعليق الذى تود ، ثم ليحسب لها بعد ذلك كله جميلا تستحق من أجله الشكر ! . .

ولذلك غادرت الحجرة وهى تقول :

ـ فى كل مأزق تنادين خديجـة ، كأنه لا يوجـد أمامك غير خديجة ، ماذا تصنعين لو لم أكن موجودة !

ولكن خيلاءها تخلى عنها بمجرد مغادرتها للحجرة وحلت محله رهبة واضطراب فعجبت كيف يتأتى لها أن تمثل بين يدى الرجل ،

وكيف تقوم على خدمته ، وماذا تلقى منه اذا تلجلجت أو ابطأت أو أخطأت ؟ ! على أن السيد كان قد خلع ملابسه وارتدى جلبابه بنفسه ، ولما وقفت بالباب تسأله عما هو فى حاجة اليه أمرها بأن تصنع له فنجان قهوة ، فبادرت تعـدها ثم قدمتها له خافضة العينين خفيفة الخطى من الخوف والحياء .. ورجعت الى الصالة فمكثت بها لتكون رهن اشارته اذا دعاها فلم يفارقها احســاس الرهبة حتى تساءلت كيف يا ترى يمكنها أن تواصل خدمته طوال الساعات التى يقضيها فى البيت يوما بعد يوم حتى تنقضى الأسابيع الثلاثة ؟!.. وبدأ لها الأمر شاقا حقا وأدركت لأول مرة خطورة الفراغ الذى تسده أمها فى البيت فدعت لها بالشفاء ، حبا فيها من ناحية ورحمة بنفسها من ناحية أخرى .

ومن سوء حظها أن السيد شعر برغبة فى الراحة عقب تعب السفر فلم يذهب الى الدكان كما كانت تأمل ، واضطرت تبعـا لذلك أن تبقى فى الصالة كالسجينة ، وفى أثناء ذلك صعدت عائشة الى الدور الأعلى وتسللت الى الصالة حيث تجلس أختها دون أن تحدث صوتا لتريها نفسها وتغمز لها بعينها على سبيل التنديد بحالها ثم تعود الى أمها تاركة اياها وهى تغلى من الغيظ اذ كان مما يحنقها أشد الحنق أن يعابثها أحد بالمزاح وان لذ لها هى أن تعابث الجميع بمزاحها ، ولم تسترد حريتها ـ الى حين طبعا ـ الا عندما أسلم السيد جنبه للنوم فطارت الى أمها وأنشأت تحدثها عما قدمت لأبيها من خدمات حقيقية ووهمية وتصف لها ما قرأت فى عينيه من آى العطف والتقدير لخدماتها !.. ولم تنس أن تعرج على عائشة فتنهال عليهـا بالزجر والتوبيخ على ما بدأ منها من تصرف صبيانى ، ثم عادت الى الأب بعد استيقاظه فقدمت له الغداء ، ولمـا فرغ الرجل من غدائه جلس يراجع بعض الأوراق وقتا غير قصير ثم دعاها اليه وطلب اليهـا أن تبعث له بياسين وفهمى بمجرد رجوعهما الى البيت ..

وقلقت الأم للطلب وخافت أن يكون قد حز فى نفس الرجل غضب مكظوم وأنه يروم الآن ــ فى الشابين ــ متنفسا عن غضبه ، ولما جاء ياسين وفهمى وعلما بما كان ثم بلغا أمر أبيهما بمقابلته دار بخاطرهما ما دار بخاطر المرأة من قبل وذهبا الى حجرته وهما يتوجسان خيفة ، ولكن الرجل خيب ظنونهما فقد لاقاهما بهدوء غير معهود وسألهما عن الحادث وظروفه وتقرير الطبيب فحدثاه طويلا بما يعلمان وهو يصغى اليهما باهتمام ، وفى النهاية سألهما :
ــ أكنتما فى البيت حين خروجها ؟

ومع أن هذا السؤال كان متوقعا لهما من بادىء الأمر الا أنه وقع من نفسيهما ــ بعد الهدوء العجيب غير المنتظر ــ موقع الانزعاج فخافا أن يكون مقدمة لتغيير طبقة النغمة التى ارتاحا اليها ارتياح النجاة ، ولم يسعهما الكلام فلاذا بالصمت .. بيد أن السيد لم يلحف فى السؤال وكأنه لم يعبأ بسماع الجواب الذى استنتجه مقدما ، أو لعله أراد أن يسجل عليهما الخطأ بلا اكتراث باقرارهما به .. ولم يزد بعد ذلك على أن يشير الى باب الحجرة آذنا لهما بالانصراف ، وعند ما مضيا الى الخارج سمعاه يقول مخاطبا نفسه :

ــ ما دام الله لم يرزقنى رجالاً فليهبنى الصبر .

ومع أن الظواهر دلت على أن الحادث قد هز نفس السيد حتى غير المألوف من سلوكه تغيرا دهش له الجميع الا أنه لم يستطع أن يثنى ارادته عن قضاء سهرته الليلية التقليدية ! .. فما جاء المساء حتى ارتدى ملابسه وغادر حجرته ناشرا بين يديه شذا طيبا ، الا أنه مر فى طريقه الى الخارج بحجرة الأم وسأل عنها فدعت له طويلا ممتنة شاكرة .. لم تر فى ذهابه الى سهرته ــ وهى طريحة الفراش ــ تجافيا للعطف ، ولعلها وجدت فى مروره بها وسؤاله عنها تكريما فاق ما كانت تنتظر ، بل أليس مجرد امتناعه عن صب غضبه عليها منة لم تكن تحلم بها ؟ .. وكان الأخوة ــ قبل مبارحته

حجرته ــ قد تســاءلوا « ترى هل يعدل الليلة عن سهرته ؟ » ولكن الأم أجابت قائلة «ولماذا يبقى بعد أن علم أن الحال مطمئنة ؟!» ولعلها تمنت فيما بينها وبين نفسها لو يتم نعمته عليها فيعدل عن سهرته كما يليق بزوج أصيبت زوجه بما أصيبت هى به ، ولكنها كانت أدرى بطبعه فسبقت بانتحال العذر له حتى اذا انطلق الى سهرته كما تتوقع أمكنها ــ مدارة لموقفهــا ــ أن تسوغ انطلاقه بالعــذر الذى انتحلت لا بقلة الاكتراث ؟ ولــكن خديجة قالت : « كيف يطيق الســهر وهو يراك على هــذه الحال ؟ » فأجابهــا ياسين : « لا عليه اذا فعل ما دام قد اطمأن عليها ، حزن الرجال غير حزن النساء ، وذهاب الرجل الى سهرته لا يتنافى مع حزنه ، بل لعل التفريج عن نفسه واجب عليه ليتسنى له مواصلة حياته الشاقة » ولم يكن ياسين يدافع عن أبيه بقدر ما كان يدافع عن رغبته فى الانطلاق التى بدأت تتحرك فى أعماقه ، الا أن مكره لم يجز على خديجة فســألته : « هل تطيق أنت مثلا أن تســهر فى قهوتك الليلة ؟ » فبادرها قائلا وهو يلعنها فى سره : « طبعا لا ، ولكن أنا شىء وبابا شىء آخر ! »

ولما فارق السيد الحجرة عاودها الشعور بالراحة الذى يعقب النجاة من خطر محقق فتألق محياها بابتسامة وقالت :

ــ لعله رأى أن جزائى كفاف ذنبى فعفــا عنى ، عفــا الله عنه وعنا جميعا . .

فضرب ياسين كفا بكف وهو يقول محتجا :

ــ ان رجالا غيورين مثله ، منهم أصــدقاء له ، لا يرون بأسا فى السماح لنسائهم بالخروج كلما دعت ضرورة أو مجاملة ، فما باله يقيم لكن من البيت سجنا مؤبدا ؟

فلحظته خديجة بهزء وسألته :

ــ لم لم تلق بدفاعك هذا وأنت بين يديه ؟.

فانقلب الشاب مقهقها حتى ارتجت كرشه ثم أجابها قائلا :

ـ يلزمنى مثـــل أنفك أولا كى أدافـــع به عن نفسى عنـــد الضرورة ..

وتتـــابعت أيام الرقاد ، فلم يعـــاودها الألم الذى هصرها أول ليلة وأن تهدد جذعها وكتفها الوجع لأقل حركة تأتيها ، ثم تقدمت نحو الشفاء بخطوات سريعة بفضل بنيتها القوية وحيويتها الدافقة التى تكره بطبعها السكون والقعود مما جعل الاذعان لأوامر الطبيب مهمة شاقة غطى عذابها على آلام الكسر ابان احتدامها ، ولعلهـــا لولا تشدد الأبنـــاء فى مراقبتها لخرقت وصـــايا الطبيب ونهضت عجلى لأمورها .. على أن رقادها لم يمنعها من نشر الرقابة على شئون البيت من فراشها ، ومراجعة الفتـــاتين بدقة متعبة فيما يعهد اليهما به .. خاصة عن دقائق الواجبات التى تخاف عليها الاهمال أو النسيان ، فتسأل وتلح فى السؤال « هل نفضت أعلى الستائر ؟.. وخصائص الشبابيك ؟.. هل بخرت الحمام لأبيك ؟. هل سقيت اللبلاب والياسمين ؟ » الأمر الذى أحنق خديجة مرة فقالت لها « اعلمى أنك اذا كنت تعنين بالبيت قيراطا فانى أعنى به أربعة وعشرين » .. والى هذا كله أورثها تخليها الاجبارى عن مركزها المرموق شعورا معقدا عانت منه كثيرا ، فربما تســـاءلت ترى ألم يفقد البيت ـ أو أحد من أهله ـ بتخليها عنه شيئا من نظامه أو راحتـــه ؟!. وأيهمـــا يا ترى أحب اليهـــا ، أن يبقى كل شىء كما كان بفضل فتاتيها ـ غرس يديها ـ أم أن يختل شىء من توازنه يكون خليقـــا أن يذكر الجميع بالفـــراغ الذى خلفته وراءها ؟! . وهب السيد بالذات استشعر هذا الفراغ فهل يكون ذاك مدعاة لتقديره لأهميتها أو لسخطه على ذنبها الذى جر هذا كله ؟!.. تحيرت المرأة طويـــلا بين عاطفتها المستحيية نحو نفسها وعاطفتها الصريحة نحو فتاتيها ، ولكن المحقق أنه لو اختل شىء من النظام لأحدث لها كربا شديدا ، كما أنه لو حافظ على كماله كأن لم يطرأ نقص لما خلت من ضيق ...

أما الواقع فهو أن فراغها لم يسده أحد ، وأثبت البيت أنه أكبر من الفتاتين على نشاطهما واخلاصهما .. ولم تسر الأم لهذا لا فى الظاهر ولا فى الباطن ، توارى شعورها نحو ذاتها ، ودافعت عن خديجة وعائشة دفاعا حارا صادقا ، ثم ركبها الجزع والألم فلم تعد تطيق صبرا على انزوائها ..

— ٣١ —

وفى فجر اليوم الموعود الذى انتظرته طويلا هبت من الفراش فى خفة صبيانية من الفرح كأنها ملك يعود الى عرشه بعد نفى .. ونزلت الى حجرة الفرن متداركة عادتها التى انقطعت عنها ثلاثة أسابيع فنادت أم حنفى ، واستيقظت المرأة وهى لا تصدق أذنيها ، ثم نهضت الى سيدتها فعانقتها ودعت لها ، ثم باشرا عمل الصباح فى سرور لا يوصف ، وعند شروق أول شعاع للشمس صعدت الى الدور الأول فتلقاها الأبناء بالتهانى والقبل ، ثم مضت الى حيث ينام كمال فأيقظته ، وما فتح الغلام عينيه حتى بهت دهشة وفرحا ، ثم تعلق بعنقها ولكنها بادرت الى التخلص من ذراعيه برقة وهى تقول :

— ألا تخاف أن ترد كتفى الى ما كانت عليه ؟ ..

فأمطرها قبلا ، ثم ضحك متسائلا فى خبث :

— متى يا عزيزتى نخرج معا مرة أخرى ؟!

فأجابته بلهجة لا تخلو من عتاب باسم :

— عند ما يهديك الله فلا تسوقنى رغم ارادتى الى الطريق الذى كدت أهلك فيه .. !

وأدرك أنها تشير الى عناده الذى كان السبب المباشر فيما وقع

لها فضحك ملء فيه ضحك مذنب واتته النجاة بعد أن ظل ذنبه معلقا فوق رأسه ثلاثة أسابيع ، أجل لشد ماخاف أن يجرالتحقيق الذى باشره اخوته الى معرفة الجانى المستتر ، وقد أوشكت الريبة التى سلطتها عليه خديجة حينا وياسين حينا آخر أن تكشفه فىالركن المنزوى فيه لولا صمود أمه فىالدفاع عنه وتصديها لتحمل مسئولية الحادث وحدها، فلما انتقلالتحقيق الىيدى والده تناهى به الخوف وتوقع بين لحظة وأخرى أن يدعى الى مقابلته ، هذا الى عذابه ـ طوال الأسابيع الثلاثة ـ وهو يرى أمه المحبوبة طريحة الفراش ، شديدة العناء ، عاجزة عن الاستلقاء والنهوض معا .. الآن مضى الحادث ، ومضت فى أثره عقابيله ، وانتهى التحقيق ، وعادت أمه توقظه فى الصباح ، وسوف تنيمهفى المساء ، رجع كل شىء الى أصله ، ونشر الأمان ألويته ، فحق له أن يضحك ملء فيه وأن يهنىء ضميره على الراحة المتاحة ..

وغادرت الأم الحجرة فصعدت الى الدور الأعلى ، ولما تدانت من باب حجرة السيد ترامى اليها صوته وهو يردد فى صلاته « سبحان ربى العظيم » فخفق قلبها ووقفت على قيد خطوة من الباب كالمترددة ، ثم وجدتها نفسها تتساءل « أتدخل لتصبح أو الأجدر أن تعد مائدة الفطور أولا ؟ » لا على سبيل التساؤل حقا ولكن فرارا مما شاع فىنفسهامنالخوف والخجل ، أو كليهما معا ، كمايقع للانسان أحيانا أن يخلق مشكلة وهمية يلوذ بها من مشكلة راهنة يشق عليه فضها ... ومضت الى حجرة المائدة فاقبلت على العمل بعناية مضاعفة ، الا أن قلقها تزايد ، فلم تنتفع بمهلة التأجيل التى اقتنصتها ، ولم تجدها راحة كما أملت ولكن محنة انتظار أشد عناء من الموقف الذى نكصت عن مواجهته .. وعجبت كيف جفلت من دخول « حجرتها » كأنها كانت تهم بدخولها لأول مرة ، خاصة وأن السيد لم ينقطع عن زيارتها يوما بعد يوم فىأثناء رقادها ، ولكن الحق أن برءها رفع عنها الحماية التى ضربها حولها

المرض فشعرت بأنها ستلقاه بمفردها لأول مرة مذ كشفت خطيئتها .. ولما جاء الأبناء تباعا خفت وحشتها قليلا ، وما لبث أن دخل السيد الحجرة فى جلبابه الفضفاض ولكن لم يبد فى وجهه أثر لدى رؤيتها ، وقال بهدوء وهو يتجه الى مكانه فى المائدة :

جئت ..؟ (ثم مخاطبا الأبناء وهو يتخذ مجلسه) .. اجلسوا

وأخذوا فى تناول فطورهم على حين وقفت هى بمكانها المعتاد ، ومع أن الخوف تناهى بها حال دخوله الا أنها مضت تسترد أنفاسها بعد ذلك ، أى بعد أن تم أول لقاء بعد الشفاء ومر بسلام ، وشعرت عند ذلك بأنها لن تجد مشقة فى الانفراد به فى حجرته عما قليل .. وانفضت المائدة فعاد السيد الى حجرته ، ولحقت به بعد دقائق حاملة صينية القهوة التى وضعتها على الخوان وتنحت جانبا فى انتظار فراغه من احتسائها لتساعده على ارتداء ملابسه .. وحسا السيد قهوته فى صمت عميق ، لا ذاك الصمت الذى يقع عفوا أو كالراحة عقب التعب أو كغطاء لصدر فارغ من شئون الحديث ، ولكنه صمت صامت مسربل بالتعمد ، ولم تكن تعدم أملا ــ ولو ضعيفا ــ فى أن يتعطف عليها بكلمة رقيقة ، أو فى الأقل أن يلم بشأن من شئون حديثه المعتاد فى مثل هذه الساعة من الصباح ، فحيرها صمته المتعمد وعادت تسائل نفسها ترى ألا يزال بنفسه شىء ، وأخذ القلق ينشب ابره فى قلبها مرة أخرى ، على أن الصمت الغليظ لم يمتد طويلا .. كان الرجل يفكر فى سرعة وتركيز لم يذق معهما طعما ، لا ذاك التفكير الذى ينبعث من وحى الساعة ، ولكن آخر عنيدا قديما لم يزايل نفسه طوال الأيام المنقضية .. وأخيرا تساءل دون أن يرفع رأسه عن فنجان القهوة الفارغ :

ــ استرددت صحتك ؟

فقالت أمينة بصوت خفيض :

ــ الحمد لله يا سيدى ..

فاستطرد الرجل قائلا بمرارة :

ـ انى أعجب ـ وهيهات أن ينتهى لى عجب ـ كيف أقدمت على فعلتك !.

فدق قلبها بعنف وأطرقت فى وجوم .. لم تكن تطيق غضبه وهى تدافع عن خطأ ارتكبه غيرها فكيف بها الآن وهى المذنبة !.. وعقل الخوف لسانها ولكنه بانتظار الجواب فواصل حديثه متسائلا فى استنكار :

ـ أكنت مخدوعا بك طوال هذه السنين وأنا لا أدرى ؟ !

عند ذاك بسطت راحتيها فى جزع وألم وهمست بأنفاس مضطربة :

ـ أعوذ بالله يا سيدى ، ان خطئى كبير حقا ولكنى لا أستحق هذا القول ..

ولكن الرجل واصل حديثه بهدوئه الرهيب الذى يهون الى جانبه الزعيق قائلا :

ـ كيف اقترفت هذا الخطأ الكبير ! .. ألأنى ابتعدت عن البلد يوما واحدا ؟!

فقالت بصوت متهدج وشت نبراته بالرجفة التى ملكت جسمها :

ـ أخطأت يا سيدى ، وعندك العفو ، كانت نفسى تتوق الى زيارة سيدنا الحسين ، وحسبت أن زيارته المباركة تشفع لى فى الخروج ولو مرة واحدة ..

فهز رأسه فى شىء من الحدة كأنما يقول « لا فائدة ترجى من الجدال » ثم رفع اليها عينيه متجهما ساخطا وقال بلهجة لا تقبل المراجعة :

ـ ليس عندى الا كلمة واحدة ! غادرى بيتى بلا توان ...

هوى أمره على رأسها كالضربة القاضية فبهتت لاتنبس بكلمة ولا تستطيع حراكا ، طالما توقعت فى أشد أوقات محنتها ـ وهى تنتظر عودته من رحلة بورسعيد ألوانا من المخاوف ، كأن يصب

عليها غضبه أو يصمها بزعيقه وسبابه ، حتى الضرب لم تستبعده، أما الطرد من البيت فلم يزعج لها خاطرا ، لا لشيء الا أنها سكنت الى معاشرته خمسة وعشرين عاما فلم تتصور أن ثمة سببا يمكن أن يفرق بينهما أو ينتزعها من البيت الذى صارت جزءا منه لا يتجزأ .. أما السيد فقد تخلص ــ بكلمته الأخيرة ــ من عبء فكر دوخ دماغه طوال الأسابيع الثلاثة المنقضية .. وقد بدأ الصراع فى اللحظة التى اعترفت فيها المرأة بخطئها باكية وهى طريحة الفراش ، لم يصدق أذنيه لأول وهلة ، ثم أخذ يفيق الى نفسه والى الحقيقة البغيضة التى تطالعه متحدية كبرياءه وصلفه ، بيد أنه أجل حنقه ريثما يرى ما أصابها ، أو أنه ــ وهو الأصدق ــ لم يسعه أن يفكر فيما تحدى كبرياءه وصلفه لما اعتراه من قلق عميق بلغ حد الخوف والجزع على المرأة التى يألفها ويعجب بمزاياها فعطف عليها عطفا أنساه خطأها وسأل الله لها السلامة ، انكمش جبروته حيال الخطر المحدق بها واستيقظ ما تنطوى عليه نفسه من حنان موفور فعاد ــ يومذاك ــ الى حجرته محزونا مكتئبا وان لم يفصح وجهه .. لا أمامها ولا أمام أحد من الأبناء ــ عن شىء مما يعتلج فى صدره .. الا أنه مضى يستعيد طمأنينته وهو يراها تتماثل للشفاء بخطى سريعة ثابته ، ومضى بالتالى يعيد النظر الى الحادث كله ــ أسبابه ونتائجه ــ بعين جديدة أو بالأحرى بالعين القديمة التى اعتاد أن ينظر بها فى بيته ، فكان من سوء الحظ ــ حظ الأم طبعا ــ أن يعيد النظر فى هدوء وهو خال الى نفسه ، وأن يقتنع بأنه اذا غلب العفو ولبى نداء العطف ــ وهو ما نزعت اليه نفسه ــ فقد أضاع هيبته وكرامته وتاريخه وتقاليده جميعا فأفلت منه الزمام وانتثر عقد الأسرة التى يأبى الا أن يسوسها بالحزم والصرامة، وبالجملة لن يكون فى تلك الحال أحمد عبد الجواد ولكن شخصا آخر لن يرتضى أن يكون أبدا .. أجل كان من سوء الحظ أن يعيد النظر فى هدوء وهو خال الى نفسه ، اذ لو أتيح له أن ينفس عن

غضبه حين اعترافها لانفثأ حنقه ومر الحادث دونأن يسحب وراءه عواقب خطيرة ، ولكنه لم يسعه الغضب فى وقته كما لم يكن مما يرضى كبرياءه أن يعلن غضبه عقب شفائها ــ بعد هدوء دام ثلاثة أسابيع ــ اذ أن هذا الغضب يكون أقرب الى الزجر المتعمد منه الى الغضب الحقيقى ، ولما كانت حساسيته الغضبية تستعر عادة عن طبع وتعمد معا ، ولما كان الجانب الطبيعى منها لم يجد متنفسا فى حينه فقد وجب على الجانب المتعمد ــ وقد اتيحت له فرصة من الهدوء لمعاودة التفكير ــ أن يجد وسيلة فعالة لتحقيق ذاته على صورة تتناسب وخطورة الذنب ، هكذا انقلب الخطر الذى تهدد حياتها حينا والذى أمنها من غضبه بما أثار من عطفه أداة عقاب بعيدة المدى بما أتاح له من وقت للتدبير والتفكير .. ونهض مقطبا قولاها ظهره مستقبلا ملابسه على الكنبة ثم قال بجفاء :

ــ سأرتدى ملابسى بنفسى ..

كانت لم تزل متسمرة فى مكانها ذاهلة عما حولها فأفاقت على صوته ، وسرعان ما أدركت من قوله ووقفته أنه يأمرها بالانصراف فاتجهت نحو الباب فى خطى لا وقع لها ، وقبل أن تجاوزه أدركها صوته وهو يقول :

ــ لا أحب أن أجدك هنا اذا عدت ظهرا .

ــ ٣٢ ــ

خارت قواها فى الصالة فارتمت على طرف كنبة وكلماته القاسية الحاسمة تتردد فى باطنها ، ليس الرجل هازلا ، ومتى كان هازلا ؟ ! ولم تستطع مبارحة مكانها ــ على رغبتها فى الفرار ــ أن يثير نزولها قبل مغادرته البيت على خلاف المألوف ريبة الأبناء الذين لا تحب لهم أن يستقبلوا يومهم أو يذهبوا الى أعمالهم



متجرعين خبر طردها ، وثمة احساس آخر ـ لعله الحياء ـ أقعدها عن أن تلقاهم فى ذل المطرود وقررت أن تبقى حيث هى حتى يغادر البيت ، أو أن تأوى الى حجرة المائدة وهو الأفضل حتى لاتقع عليها عيناه اذا مضى الى الخارج فتسللت الى الحجرة كسيرة الفؤاد وقعدت على شلتة ساهمة واجمة . ترى ماذا يعنى ؟.. أيطردها الى حين أم الى الأبد ؟ انها لا تصدق أنه ينوى تطليقها . هو أكرم من هذا وانبل ، أجل أنه غضوب جبار ولكن من الاسراف فى التشاؤم أن تغيب عنها آى شهامته ومروءته ورحمته ، وهل تنسى كيف حزن لحالها حين الرقاد ؟.. وكيف عادها يوما بعد يوم مستفسرا عن صحتها ؟.. مثل هذا الرجل لا يهون عليه أن يخرب بيتا أو يكسر قلبا أو ينزع أما من بين أبنائها . وجعلت تدير هذه الأفكار فى رأسها كانما لتدخل بها بعض الطمأنينة الى نفسها المزعزعة ، وألحت فى هذا الحاحا ان دل على شىء فعلى أن الطمأنينة لاتريد أن تستقر بنفسها كبعض المرضى الذين يزيدون تغنيا بقوتهم كلما زادوا احساسا بضعفهم اذ كانت لا تدرى ماذا تصنع بحياتها أو ماذا يمكن أن تعنى الحياة لها لو خاب الرجاء ونفذ المحذور . وترامى الى أذنيها وقع عصاه على أرض الصالة وهو يمضى خارجا فأطار أفكارها وأنصتت باهتمام تتابعه حتى غاب . وشعرت عند ذلك بألم جارح لحالها وسخط على الارادة المتحجرة التى لم ترع لضعفها حقا ، ثم نهضت فيما يشبه الاعياء وغادرت الحجرة لتنزل الى الدور الأول فجاءتها عند رأس السلم أصوات الأبناء وهم ينزلون تباعا فمدت رأسها من فوق الدرابزين فلمحت فهمى وكمال وهما يتبعان ياسين الى الباب المفضى الى الفناء ، هنالك غمزت خطرة من الحنان قلبها فأذهلته ، وعجبت لنفسها كيف تركتهما يذهبان دون أن تودعهما ، أليست قد تحرم عليها رؤيتهما أياما أو أسابيع ؟ وربما لا تراهما مدى العمر الا لماما كالغرباء ؟.. وعاودها غمز الحنان متتابعا وهى بموقفها من السلم

لاتريم ، بيد أن قلبها — على امتلائه — كبر عليه أن يصدق أن يكون هذا المصير الأسود نصيبها المقـدور ، لايمانها اللانهائى بالله الذى حفظها فى وحدتها الغابرة من العفاريت نفسها ، ولثقتهـا برجلها التى تأبى أن تنهار ، ولأنها لم يصبها فى حياتها الماضية شر خطير خليق بأن يسلبها الطمأنينة الى الحياة الوادعة فمالت نفسها الى اعتبار محنتها تجربة قاسية ستمر بها دون أن تنشب فيهـا ، ووجدت خديجة وعائشة مشتبكين فى جـدال كعادتهما ولكنهما نزعتا عمـا كانتا فيه حين رأتا وجومها ونظرة عينيهـا الخابية ، ولعلهما خافتا أن تكون قد برحت الفراش قبل أن تسترد كامل صحتها فسألتها خديجة فى قلق :

— ماذا بك يا نينة ؟

— لا أدرى والله ماذا أقول .. انى ذاهبة ...

ومع أن العبارة الأخيرة جاءت مقتضبة غير محددة الهدف الا أنها اكتسبت من نظرتها اليائســة ونبراتها الشاكية معنى حالكا ريعتا له فهتفتا معا :

— الى أين ؟ !

فقالت بانكسار وهى تشفق سلفا من وقع كلامها من أذنيهما بل ومن أذنيها هى نفسها :

— الى أمى ..

فهرعتا اليها مذعورتين وهما تقولان :

— ماذا تقولين ؟ .. لا تعيدى هذا القول .. ماذا جرى ؟!

وجدت فى فزع فتاتيها عزاء ولكنه كشأنه فى مثل هذا الموقف فجر أشجانها فقالت بصوت متهدج وهى تمانع دموعها :

— لم ينس شيئا ولم يعف (رددت هـذا بأسى دل على عمق حزنها) .. كان يضمر لى الغضب ويؤجله ريثما ابرأ ، ثم قال لى غادرى بيتى بلا توان ، وقال لى أيضا لا أحب أن أجدك هنا اذا

عدت ظهرا (ثم بلهجة تنم عن عتاب أسيف وخيبة أمل) سمعا وطاعة . . سمعا وطاعة .

فصاحت خديجة بحال عصبية :

ـ لا أصدق ، لا أصدق ، قولى قولا آخر . . ماذا جرى للدنيا ؟ !

وصاحت عائشة بصوت متهدج :

ـ لن يكون هذا أبدا ، أهانت عليه سعادتنا جميعا لهذا الحد ؟!

وعادت خديجة تتساءل فى حدة وحنق :

ـ ماذا يقصد !. . ماذا يقصد يانينة ؟

ـ لا أدرى ، هذا قوله بلا زيادة ولا نقصان . .

اكتفت أول وهلة بهذا القول ، ولعلها رغبت بالاقتصار عليه أن تستزيد من عطفهما وتتعزى بجزعهما ، ولكن غلبها الاشفاق من ناحية والرغبة فى طمأنة نفسها من ناحية أخرى فاستطردت قائلة :

ـ لا أظنه يقصد أكثر من ابعادى عنكم أياما عقابا لى على ما فرط منى . .

فتساءلت عائشة محتجة :

ـ أما كفاه ما وقع لك ؟!

فتنهدت الأم محزونة وغمغمت قائلة :

ـ الأمر لله . . يجب الآن أن أذهب . .

ولكن خديجة اعترضت سبيلها وهى تقول بصوت مختنق بالبكاء :

ـ لن ندعك تذهبين ، لا تتركى بيتك ، فلا أظنه يصر على غضبه اذا عاد ووجدك بيننا . .

وقالت عائشة برجاء :

ـ انتظرى حتى يعود فهمى وياسين ، ولن يرضى أبى أن ينتزعك من بيننا جميعا .

ولكنها قالت فيما يشبه التحذير :

ــ ليس من الحكمة فى شىء أن تتحدى غضبه ، فمثله من يلين بالطاعة ويشتد بالعصيان . .

وهمتا بالاعتراض مرة أخرى ولكنها أسكتتهما باشارة من يدها واستطردت قائلة :

ــ لا جدوى من الكلام ، لابد من الذهاب ، سأجمع ثيابى وارحل ، لا تجزعا ، لن يطول افتراقنا ، وسنجتمع مرة أخرى ان شاء الله . .

وانتقلت المرأة الى حجرتها بالدور الثانى والفتاتان فى أعقابها وهما تبكيان كالأطفال ، وأخذت تخرج ملابسها من الصوان حتى أمسكت خديجة بيدها وسألتها بانفعال :

ــ ماذا تفعلين ؟

وشعرت الأم بدموعها تغالبها فامتنعت عن الكلام أن تفضحها نبراتها أو تستسلم للبكاء الذى صممت على مقاومته ما دامت بمرأى من ابنتيها ، فأشارت بيدها كأنها تقول « الحال يوجب أن أجمع ملابسى » .

ولكن خديجة قالت بحدة :

ــ لن تأخذى معك الا تغييرة واحدة .. واحدة فقط ..

فندت عنها تنهدة . ودت فى تلك اللحظة لو يكون الأمر كله حلما مزعجا ، ثم قالت :

ــ أخاف أن تثور ثائرته اذا رأى ملابسى بمكانها !..

ــ سنحفظها عندنا . .

وجمعت عائشة الثياب الا تغييرة واحدة كما اقترحت أختها فأذعنت الأم لهما فى ارتياح عميق كأن بقاء ملابسها فى البيت مما يثبت لها حقا فى العودة اليه ، ثم جاءت ببقجة وصرت فيها الملابس التى سمح لها بها ، وجلست على الكنبة لتلبس جوربها وحذاءها

والفتاتان حيالها تنظران فى حزن ذاهل حتى رق قلبها لهما فقالت متكلفة الهدوء :

ـ سيعود كل شىء الى أصله ، تشجعا حتى لا تستفزا غضبه ، انى أعهد اليكما بالبيت وآله ولى كل الثقة فى كفاءتكما ، ولا شك عندى فى أنك ستجدين من عائشة كل معاونة ، قوما بما كنا نقوم به معا كما لو كنت معكما ، كلتاكما شابة خِليقة بأن تفتح بيتا وتعمره ..

ونهضت الى ملاءتها فارتدتها وأسدلت على وجهها البرقع الأبيض فى تمهل متعمد لتؤجل مما استطاعت اللحظة الأخيرة المعنية المحيرة ووقفن حيال بعض لا يدرين كيف تكون الخطوة التالية . لم يسعفها صوتها على النطق بكلمة الوداع ، ولم توات احداهما الشجاعة على الارتماء فى حضنها كما تود ومرت الثوانى محملة بالعذاب والقلق بيد أن المرأة المتجلدة خافت أن يخونها تجلدها فخطت خطوة نحوهما ومالت اليهما فقبلتهما بالتتابع وهى تهمس :

ـ تشجعا ، ربنا معنا جميعا .

هنالك تعلقتا بها وأفحمتا فى البكاء ..

وقد غادرت الأم البيت بعينين ذارفتين تراءى الطريق خلال دمعهما وهو يتميع ..

ـ ٣٣ ـ

طرقت باب البيت القديم وهى تفكر ـ بألم وحياء معا ـ فيما سيحدثه مجيئها مغضوبا عليها من الانزعاج والكدر ، وكان الباب يفتح على عطفة مسدودة متفرعة من شارع الخرنفش تنتهى بزاوية أقيمت بها الصلاة عهدا طويلا ثم هجرت من أعوام لقدمها

ولكن بقيت آثارها المتهدمة لتذكرها ــ كلما زارت أمها ــ بطفولتها حين كانت تنتظر ببابها أباها حتى يفرغ من صلاته ويعود اليها ، وحين تمد رأسها داخلها فى أويقات الصلاة لتلهو بمنظر الركع السجود ، أو حين تتفرج على بعض أهل الطرق الذين كانوا يجتمعون فيما يليها من العطفة فيضيئون المصابيح ويفرشون الحصر وينشدون الأذكار . ولما فتح الباب أطل منه رأس جارية سوداء فى العقد الخامس ، ما أن رأت القادمة حتى تهلل وجهها وهتفت مرحبة بها ، ثم تنحت جانبا لتوسع لها فدخلت أمينة ، ولبثت الخادم بموقفها كأنها تنتظر دخول قادم آخر فأدركت أمينة ما تعنيه وقفتها فهمست بامتعاض :

ــ أغلقى الباب يا صديقة ..

فتساءلت الجارية بدهشة :

ــ ألم يأت السيد معك ؟

فهزت رأسها بالنفى متجاهلة دهشتها ومضت ــ عابرة فناء البيت الذى تتصدره حجرة الفرن وتقع البئر فى ركنه الأيسر ــ الى سلم ضيق فرقيته الى الدور الأول والأخير . ثم اجتازت دهليزا الى حجرة أمها ودخلت ، رأت أمها متربعة على كنبة فى صدر الحجرة الصغيرة قابضة بكلتا راحتيها على مسبحة طويلة متدلية فى حجرها ، متجهة العينين صوب الباب فى تطلع أثاره بلا ريب طرق الباب ثم وقع القدمين المقتربتين ، ولما تدانت أمينة منها تساءلت :

ــ من .. ؟

وافتر ثغرها وهى تتساءل عن ابتسامة خفيفة تنم عن البشر والترحاب ، كأنما حدست هوية القادم ، فأجابتها أمينة قائلة بصوت منخفض من الانقباض والحزن :

ــ أنا أمينة يا أمى ..

فألقت العجوز بساقيها الى الأرض وتحسست بقدميها

موضع الشبشب حتى عثرت عليه فدستهما فيه ووقفت باسطة ذراعيها منتظرة فى شوق فرمت أمينة بالبقجة آلى طرف الكنبة وانطوت بين ذراعى أمها وهى تقبل جبينها وخديها والأخرى تلثم ما يتفق وقوع شفتيها عليه من الرأس والخد والعنق ، ولما انتهى العناق ربتت العجوز على ظهرها بحنان ثم لبثت بموقفها متطلعة صوب الباب وعلى شفتيها ابتسامة تعلن عن ترحيب جديد ، كما فعلت صديقة من قبل فأدركت أمينة للمرة الثانية ما تعنيه هذه الوقفة وقالت بامتعاض واستسلام :

ــ جئت وحدى يا أمى ..

فتحول الرأس اليها كالمتسائل ، وتمتمت المرأة :

ــ وحدك ؟!.. (ثم مبتسمة ابتسامة متكلفة لتطرد ما انتابها من قلق) سبحان الذى لا يتغير !.

وتراجعت الى الكنبة فجلست وهى تتساءل بلهجة أفصحت هذه المرة عن قلقها :

ــ كيف الحال ؟.. لماذا لم يحضر معك كعادته ؟

فجلست أمينة الى جانبها وهى تقول بلهجة التلميذ الذى يعترف برداءة اجاباته فى الامتحان :

ــ أنه غاضب على يا أمى ..

ورمشت الأم واجمة ثم تمتمت بنبرات حزينة ــ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، قلبى لا يكذبنى أبدا ، وقد انقبض وانت تقولين لى « جئت وحدى يا أمى » ترى ماذا هيج غضبه على ملاك كريم مثلك لم يحظ رجل به قلبه ؟!.. خبرينى يا بنتى ..

فقالت أمينة متنهدة :

ــ زرت سيدنا الحسين فى أثناء سفره آلى بور سعيد ..

فتفكرت الأم فى حزن وكآبة ثم تساءلت :

ــ وكيف علم بأمر الزيارة ؟

حرصت أمينة من بادىء الأمر على الا تشير الى حادث السيارة

رحمة بالعجوز من ناحية وتخففا من المسئولية من ناحية أخرى .
ولهذا أجابتها بما أعدته سلفا لهذا السؤال قائلة :

ــ لعل أحداً رآنى فوشى بى عنده . .

فقالت العجوز بحدة :

ــ لا يعرفك أحد من البشر الا من اختلط بك داخل بيتك ، ألم تشكى فى أحد ؟ . . هذه المرأة أم حنفى ؟ ! أو ابنه من المرأة الأخرى ؟

فبادرتها أمينة قائلة بثقة ويقين :

ــ لعل جارة رأتنى فأخبرت زوجها بحسن نية فأعاد الرجل الخبر على مسمع السيد غير مقدر لخطورة عواقبه ، ظنى ما تشائين الا الشك فى أحد من أهل بيتى . .

فهزت العجوز رأسها فى حيرة وشك وانشأت تقول :

ــ طول عمرك سليمة الطوية ، الله وحده المطلع وهو الكفيل برد كيد الكائد ، ولكن زوجك !. . الرجل العاقل . . الداخل على الخمسين . . ألم يجد وسيلة لاعلان غضبه الا طرد عشيرة العمر من بين أولاده ؟ ! . . سبحانك يا رب . الناس تكبر تعقل ونحن نكبر نتهور ، هل من الكفر أن تزور امرأة فاضلة سيدنا الحسين !. الا يسمح أصدقاؤه ، وهم لا يقلون عنه غيرة ورجولة ، لزوجاتهم بالخروج لمختلف الأغراض ؟!. . أبوك نفسه الذى كان شيخا من حملة كتاب الله كان يأذن لى فى الذهاب الى بيوت الجيران للتفرج على المحمل . .

وغلب الصمت والكآبة مليا حتى التفتت العجوز ناحية ابنتها وعلى شفتيها ابتسامة عتاب حائرة ثم تساءلت ؟

ــ أى شىء أغراك بعصيانه بعد ذاك العمر الطويل من الطاعة العمياء ؟! . . لشد ما يحيرنى هذا . . اذ مهما يكن من حمية طبعه فهو زوجك ومن السلامة الحرص على طاعته من أجل راحتك

وسعادة الأولاد ، أليس كذلك يا ابنتي ؟ .. أعجب شيء أنني لم أجدك يوما فى حاجة الى نصح ناصح ... !!

فندت عن أمينة ابتسامة ارتسمت على زاوية ثغرها على صورة انحراف خفيف من الارتباك والحياء ، وغمغمت :

ــ تحكم الشيطان !

ــ عليه لعنة الله ، أيزل اللعين قدمك بعد خمسة وعشرين عاما من الوئام والسلام ! .. ولكنه هو الذى أخرج أبانا آدم وأمنا حواء من الجنة !.. لشد ما يحزننى يا ابنتى ، ولكنها سحابة صيف ثم تنقشع ويعود كل شيء الى أصله .. (ثم وهى كأنها تحادث نفسها) ماذا كان عليه لو استوصى بالحلم ؟ ! .. ولكنه رجل ، ولن يخلو رجل من عيوب تخفى عين الشمس .. (ثم بلهجة ترحيب وسرور متكلفة) اخلعى ملابسك واستريحى ، لا تجزعى ، ماذا يضيرك من قضاء عطلة قصيرة مع أمك فى الحجرة التى ولدت فيها ؟ !

فجرى بصرها فى غير اكتراث على الفراش القديم الذى حال لون عمده ، والسجادة البالية التى انجرد وبرها ونسلت أطرافها وان بقيت رسوم ورودها حافظة لحمرتها وخضرتها ، ولكن صدرها ــ لما ران عليه من فرقة الأحباب ــ لم يكن مهيئا لتلقى موجات الذكريات ، فلم تهج دعوة أمها فى قلبها الحنان الذى تهيجه عادة ذكرياتها المتباعدة لهذه الحجرة وهى قريرة العين ، ولم يسعها الا أن تتنهد قائلة :

ــ ما بى الا القلق على الأولاد يا أمى ..

ــ انهم فى رعاية الله ، ولن يطول بعدك عنهم باذن الرحمن الرحيم ...

وقامت أمينة لتخلع ملاءتها على حين انسحبت صديقة ــ حزينة أسيفة لما سمعت ــ من موقفها عند مدخل الحجرة الذى لزمته أثناء الحديث ، ثم عادت المرأة الى مجلسها جنب أمها وما

لبثتا أن قلبتا الحديث ظهرا لبطن وهما تبدآن وتعيدآن وكأن فى تقابلهما جنبا لجنب مايدعو الى تأمل قوانين الوراثة العجيبة وقانون الزمن الصارم ، كأنها شخص واحـد وصورته المنعكسة فى مرآة المستقبل أو نفس الشخص وصورته المنعكسة فى مرآة الماضى وبين الأصل والصورة على الحالين ما يشير الى الصراع الرهيب الناشب بين قوانين الوراثة التى تعمل على التشابه والبقاء من ناحية وبين قانون الزمن الذى يدفع الى التغير والنهاية من ناحية أخرى ، ذاك الصراع الذى ينجلى عادة عن سلسلة من الهزائم تلحق تباعا بقوانين الوراثة حتى يغدو قصاراها أن تؤدى وظيفة متواضعة فى نطاق قانون الزمن الصارم . فى نطاق ذاك القانون استحالت الأم العجوز جسما نحيلا ووجها ذابلا وعينين لا تبصران الى تطورآت باطنية لا تنالها الحواس ، حتى لم يبق لها من بهجة الحياة الا ما يدعونه بجمال الشيخوخة أى السمت الهادىء والوقار المكتسب الحزين والرأس المرصع بالبياض . بيد أنها كانت تنحدر من جيل معمر عرف بصلابة المقاومة فلم يكن طعنها فيما بعد الخامسة والسبعين بمقعدها عن أن تنهض فى الصباح كعادتها منذ نصف قرن فتتحسس سبيلها ــ بدون ارشاد الجارية ــ الى الحمام فتتوضأ ثم تعود الى حجرتها فتصلى ، أما بقية النهار فتقطعها فى التسبح والتأمل الصامت الذى لا يدرى به أحد طالما كانت الجارية مشغولة بأعمال البيت ، أو مستأنسة الى حديث المرأة اذا فرغت لمجالستها ، حتى الصفات التى تلازم عادة وفرة النشاط للعمل وحدة الحماس للحياة لم تزايلها بحال ، مثال هذا شدة محاسبتها للجارية على كل صغيرة وكبيرة فيما يتعلق بالمصروفات ، وتنظيف البيت وترتيبه وتلكئها اذا تلكأت فى مهمة ، وتأخيرها اذا تأخرت فى مشوار ، ولم يكن بالنادر أن تحلفها على المصحف لتطمئن الى صحة تقاريرها عن غسل الحمام والأوانى وتنفيض النوافذ ، دقة بالوسوسة أشبه، ومن الجائز أن تكون مثابرتها عليها استمرارا لعادة تأصلت فى صدر

الشباب ، كما أنه من الجائز أن تكون نكسة مما يعترى الشيخوخة ويلحق بطباعها المتطرفة استمساكها بالبقاء فى بيتها فى شبه وحدة كاملة بعد وفاة بعلها ، ثم اصرارها على البقاء فيه حتى بعد فقدانها لبصرها ، متصامة عن دعوات السيد المتكررة لها بالانتقال الى بيته لتعيش فى رعاية ابنتها وأحفادها ، مما عرضها لتهمة الخرف وجعل السيد يعرض عن دعوتها نهائيا ، ولكن الحق أنها كرهت هجر بيتها لتعلقها الشديد به ، ولتحاميها ما عسى أن تلقى فى البيت الجديد من اهمال غير مقصود أو ما يستوجبه وجودها من القاء أعباء جديدة على عاتق ابنتها المثقل بالواجبات ، ولنفورها من الزج بنفسها فى بيت اشتهر صاحبه بين آله بالشراسة والغضب أن تنزلق وهى لا تدرى الى ملاحظاته الأمر الذى تشفق من عواقبه على سعادة ابنتها ، وأخيرا لما تنطوى عليه فى قرارة نفسها من حياء وكبرياء حببا اليها الحياة فى البيت الذى تملك معتمدة ــ بعد الله ــ على المعاش الذى تركه لها زوجها الراحل . على أن ثمة أسبابا أخرى لاصرارها على البقاء فى بيتها لا يمكن تبريرها برهافة الحساسية أو سداد البصيرة ، كخوفها ــ اذا أخلت البيت ــ من أن تجد نفسها مضطرة الى اختيار أمر من اثنين ، فاما أن تسمح للغرباء بأن يسكنوه وهو أعز شيء لديها بعد ابنتها وأحفادها ، واما أن تتركه مهجورا فتتخذه العفاريت ملعبا بعد أن ظل طوال عمره مقاما لشيخ من حملة كتاب الله هو زوجها ، الا أن انتقالها الى بيت السيد كان خليقا بأن يخلق لها مشاكل معقدة لا تفض فى نظرها بيسور الحلول لأنها ما انفكت تسائل نفسها وقتذاك أتقبل ضيافته بدون مقابل وهو ما لاترتاح اليه بحال ، أم تنزل له عن معاشها لقاء اقامتها فى بيته وهو ما يقلق غريزتها فى الامتلاك التى اضحت ــ مع الكبر ــ عنصرا جوهريا من عناصر « وسوستها » العامة ؟ !

بل قد توهمت أحيانا عند الحاحه عليها فى الانتقال الى بيته أنه يضمر نية استغلالية نحو معاشها وبيتها الذى سيخلو بعد انتقالها

ففزعت الى الرفض لحد العناد الأعمى ولما نزل السيد عند ارادتها قالت له بارتياح «لاتؤاخذنى باصرارى يا ابنى ، ربنا يكرمك بما أوليتنى من عطف ، ألا ترى أنه لا يسعنى أن أهجر بيتى ؟ .. وما أجدرك أن تجارى عجوزا مثلى على علاتها بيد أنى استحلفك بالله الا ما سمحت لأمينة والأولاد بزيارتى الحين بعد الحين بعد أن أمسى خروجى من البيت متعذرا» وهكذا بقيتفى بيتها كما أرادتمتمتعة بسيادتها وحريتها وكثير من عادات الماضى العزيز واذا كان بعض هذه العادات ، كالمغالاة الشاذة فى الاهتمام بشئون البيت والمال ، مما يتنافر مع هدوء الشيخوخة الحكيمة وتسامحها ، وبالتالى مما يبدو كعارض من أعراض الهرم الانتكاسية ، فثمة عادة أخرى مما حافظت عليه جديرة بأن تزين الشباب ، وبأنتضفىعلىالشيخوخة جلالا ، تلك هى العبادة . كانت ولم تزل مطمح حياتها ومشرق آمالها وسعادتها ، رضعنها صغيرة فى كنف أب شيخ من شيوخ الدين ، وتغلغلت فى أعماقها بزواجها من شيخ آخر لم يكن دون أبيها ورعا وتقوى ، وظلت تمارسها بحب واخلاص غير مفرقة فى اخلاصها بين ما هو دين حقا وما هو خرافة خالصة حتى عرفت بين جاراتها بالشيخة المباركة ، صديقة الجارية وحدها التى عرفتها بخيرها وشرها ، فربما قالت لها على أثر مشادة مما ينشب بينهما « يا ستى أليست العبادة أولى بوقتك من الشجار والنقار على التافه من الأمور !؟» فتجيبها محتدة « يا لئيمة انك لاتوصيننى بالعبادة حبا فيها ولكن كى يخلو لك مجال العبث والاهمال والقذارة والسلب والنهب ، انالله يأمربالنظافة والأمانةفمراقبتك ومحاسبتك عبادة وثواب !» ولأن الدين قد شغل من حياتها تلك المكانة العالية فقد سما أبوها ومن بعده زوجها الى مكانة رفيعة من نفسها فوق ما كان لهما بحكم القرابة ، وطالما غبطتهما على ما شرفا به من حيازة كلمات الله ورسوله فى صدريهما ، ولعلها ذكرت هذا حين خاطبت أمينة مواسية ومشجعة فقالت :

ــ ما أراد السيد باخراجك من بيتك الا اعلان غضبه على مخالفتك لأمره ولكنه لن يجاوز حدود التأديب ، أجل لن يحيق سوء بمن كان لها أب كأبيك أو جد كجدك . .

وابتل صدر أمينة بذكر أبيها وجدها كما يبتل صدر المنقطع به الطريق فى الظلماء اذا ترامى اليه صوت الغفير وهو يهتف «هوه» فآمن قلبها بقول أمها ، لا لتلهفها على الطمأنينة فحسب ، ولكن لايمانها قبل كل شىء ببركة الشيخين الراحلين ، فلم تكن الا صورة من أمها فى جسمها وايمانها وجل طباعها . وانثالت على وجدانها فى تلك اللحظة ذكريات أبيها الذى أفعم قلبها وليدة الحب والايمان فدعت الله أن ينتشلها من ورطتها اكراما لبركته ، وعادت العجوز الى مواساتها فقالت وعلى شفتيها الجافتين ابتسامة رقيقة :

ــ ان الله يرعاك دائما برحمته ، اذكرى عهد الوباء لا أرجعه الله وكيف نجاك الله من شره فقضى أخواتك ولم يمسسك سوء ! .

غلبها الابتسام على كآبتها فابتسمت ، وتفرست فى غبش من الماضى كاد يمحوه النسيان فوضحت ــ بعض الوضوح ــ من خليط الذكريات صور أحيت فى نفسها أصداء من عهد الرعب ، وهى صبية تحجل خارج أبواب غلقت على أخوات مستلقيات على أسرة المرض والموت ، وهى وراء النافذة تنظر الى سيل من النعوش لاينقطع والناس تفر من طريقها ، أو هى تسمع الى جماهير من الشعب التقت فى ذعرها ويأسها برجل من رجال الدين ــ كما كان يتفق لأبيها ــ وراحت تجأر بالشكوى وترسل الدعوات الى رب السماء ، وعلى رغم استفحال الشر وهلاك أخواتها جميعا فقد أفلتت من براثن الوباء سالمة آمنة لم يكدر صفوها الا عصير الليمون والبصل الذى كانت تجبر على تجرعه مرة أو مرتين فى اليوم ، واستطردت الأم بصوت نمت رقته وحنانه على الاسترسال فى الأحلام كأنما قد ردها التذكر الى العهد الخالى فاستعادت حياته وذكرياته ــ العزيزة

الغالية لاقترانها بالشباب ـ خالصة من شوائب الألم المنسى ، فقـالت :

ـ ولم يقنع حظك السعيد بانقاذك من الوباء لكنه أبقاك وحيدة الأسرة وكل ما لها فى الدنيا من أمل وعزاء وسعادة فترعرعت فى صميم قلوبنا .

لم تعد أمينة ترى الحجرة ـ بعد هـذا الخطاب ـ كما كانت تراها قبله ، بعثت جدة الشباب فى كل شىء ، فى الجدران والسجادة والسرير ، فى أمها وفيها هى نفسها ، ورد أبوها الى الحياة واتخذ مجلسه المعهود ، وعادت تصغى الى مناغاة الحب والتدليل ، وتحلم بقصص الأنبياء والمعجزات ، وتستعيد نوادر السابقين من الصحابة والكفار الى عرابى باشا والانجليز ، بعثت الحياة الماضية بأحلامها السحرية وآمالها الواعدة وسعاداتها المرجوة ثم قالت العجوز بلهجة من يقرر النتيجة النهائية لما مهد به من مقدمات منطقية :

ـ أليس الله حافظك وراعيك ؟!

بيد أن القول نفسه تضمن عزاء موحيا ذكرها بحالها الراهنة فاستيقظت من حلم المـاضى السعيد عائدة الى كآبتها كما يعود السالى الى اجترار أحزانه بكلمة مواساة تلقى اليه بحسن نية ، ولبثت الى جانب أمها فى حال من الفراغ الصارم لم تعهدها الا حين مرضها فأنكرتها وضاقت بها ولم يشغل حديثها المتواصل مع أمها الا نصف انتباههـا على حين بقى النصف الآخـر مرعى للضيق والقلق ، ولما جاءت صديقة ظهرا بصينية الغداء قالت لها العجوز بقصـد تسـلية ابنتها أولا « جاءك رقيب ليكشف عن سرقاتك ! » ولكن أمينة لم يكن يهمها وقتذاك أن تسرق المرأة أو تلتزم الأمانة ولم ترد الجارية على سيدتها اكراما للضيفة من ناحية ولأنها من ناحية أخرى ألفت مرارة سيدتها وحلاوتها فلم يعد لها غناء عن الاثنتين . وباستدارة النهار اشتد تعلق فكرها ببيتها وتهالك عليه لأنه فى ذلك الوقت يعود السيد الى البيت للغـداء

والقيلولة ، ثم يرجع الأبناء تباعا عقب خروج الرجل الى الدكان ، فرأت بخيالها الذى استمد من الألم والحنين قوة خارقة ، البيت وآله كأنهم شهود ، رأت السيد وهو يخلع جبته وقفطانه دون مساعدتها التى تخاف أن يكون قد ألف الاستغناء عنها منذ رقادها الطويل ، وحاولت أن تقرأ ما يدور وراء جبينه من أفكار ونوايا ، هل يستشعر الفراغ الذى خلفته وراءها ، وكيف كان احساسه حين لم يجد لها من أثر فى البيت ، وألم يرد لها ذكر على لسانه لسبب أو لآخر ؟.. وها هم الأبناء عائدون وها هم يهرعون الى الصالة بعد طول اشتياق الى مجلس القهوة فيلقون مجلسها شاغرا، ويسألون عنها فتجيبهم نظرات أختيهم المتجهمة الدامعة ، ترى كيف يتلقى فهمى الخبر ، وهل يدرك كمال ــ وهنا خفق قلبها خفقة جارحة ــ معنى غيابها ؟ أيتشاورون طويلا ؟ .. ماذا ينتظرون ؟ .. لعلهم فى الطريق يستبقون اليها .. يجب أن يكونوا فى الطريق ، أم يكون قد أصدر أمرا بعدم زيارتها ؟ يجب أن يكونوا فى الخرنفش .. سترى عما قليل ..

ــ أتحدثينني يا أمينة ؟

بهذا السؤال قاطعت العجوز تيار خيالها فانتبهت اليها فى دهشة ممزوجة بالحياء ، اذ فطنت الى أن كلمات ــ من حديثها الباطنى مع نفسها ــ قد تسللت فى غفلة منها الى طرف لسانها محدثة الحس الذى التقطته اذن أمها المرهفة فلم تر بدا من أن تجيبها قائلة :

ــ انى أتساءل يا أمى ألا يجىء الأولاد لزيارتى ؟

ــ أظنهم جاءوا .. !

قالت العجوز هذا وهى ترهف السمع مادة رأسها الى الأمام فأنصتت أمينة صامتة فترامى اليها صوت مطرقة الباب وهى ترسل ضربات سريعة متلاحقة كأنها صوت يبعث فى لهفة بصرخات استغاثة حادة فعرفت وراء هذه الضربات العصبية قبضة كمال

الصغيرة كما كانت تعرفها وهى تدق عليها باب حجرة الفرن ، وسرعان ما هرعت الى رأس السلم وهى تنادى صديقة لتفتح الباب ، ثم أطلت من فوق الدرابزين فرأت الغلام وهو يثب فوق درجات السلم وفى أثره فهمى وياسين وتعلق كمال بعنقها فعاقها قليلا عن عناق الآخرين ، ثم دخلوا الحجرة وهم من جيشان النفس وتبلبل الخاطر يتكلمون فى وقت واحد لا يبالى أحدهم ما يقول الآخرون ، ولما رأوا الجدة واقفة مبسوطة الذراعين مشرقة الوجه بابتسامة ترحاب مفعمة بالحب أمسكوا عن الكلام الى حين وأقبلوا عليها تباعا فساد صمت نسبى تخللته همسات القبل المتبادلة وأخيرا هتف ياسين بصوت ينم عن الاحتجاج والحزن :

ــ نحن الآن لا بيت لنا ، ولن يكون لنا بيت حتى تعودى اليه .

وآوى كمال الى حجرها كالهارب وهو يقول مفصحا لأول مرة عن نيته التى طوى صدره عليها فى البيت وفى الطريق :

ــ سأبقى هنا مع نينة .. لن أعود معكما .

أما فهمى فقد رنا اليها طويلا صامتا ، كشأنه اذا أراد أن يحدثها بالنظر ، فوجدت فى نظرته الصامتة خير معبر عما يعتلج فى صدريهما معا . هذا الحبيب الذى لايفوق حبه لها الا حبها له ، والذى يندر أن يشير فى أحاديثه معها الى عواطفه ولكن تشى به خطرات نفسه وكلماته وفعاله ، وقد قرأ الفتى فى عينيها نظرة تدل على الألم والخجل فاشتد تأثره وقال بحزن وتألم :

ــ نحن الذين اقترحنا عليك الخروج ، وشجعناك عليه ، ولكن ها أنت وحدك تتلقين العقاب ..

فابتسمت الأم فى ارتباك وقالت :

ــ لست طفلة يا فهمى ، وما كان ينبغى لى أن أفعل ..

فتأثر ياسين لهذا الحوار المتبادل ، واشتد كربه لفرط احساسه بالحرج بصفته صاحب الاقتراح المشئوم ، وتردد طويلا بين معاودة الاعتذار عن اقتراحه ، على مسمع من الجدة أن تعاتبه

أو تضمر له حنقا ، وبين السكوت على ما به من رغبة فى التنفيس عن تحرجه ، ثم خرج من تردده بأن ترجم كلام فهمى الى لغة أخرى قائلا :

ـ أجل ، نحن المذنبون وانت المتهمة . (ثم ضاغطا على مخارج الكلمات كأنما يضغط على عناد أبيه وصلابته) ولكنك ستعودين ، وسوف تنقشع السحابة التى تظلنا جميعا .

ولفت كمال وجهها اليه من ذقنها ، وانهال عليها بسيل من الأسئلة ، عن معنى مغادرتها للبيت ، وكم تطول أقامتها فى بيت جدته ، وعما يحدث لو عادت معهم ، وغير ذلك من الأسئلة التى لم يسمع عنها جوابا واحدا حقيقا بأن يسكن خاطره الذى لم ينفع فى تسكينه عزمه على أن يبقى مع أمه حيث هى ، ذلك العزم الذى كان أول من يرتاب فى قدرته على تحقيقه ، وتغيرت وجهة الحديث بعد أن فرغ كل منهم من التعبير عن عواطفه ، فأخذوا يعالجون الموقف معالجة جدية لأنه ـ كما قال فهمى ـ « لا يجدى التكلم فيما كان ولكن ينبغى أن نتساءل عما سيكون » وقد أجابه ياسين على تساؤله قائلا « ان رجلا كأبينا لا يرضى بأن يمر بحادث كخروج أمنا مرا كريما ، فلم يكن بد من أن يعلن غضبه بطريقة لا يسهل نسيانها ، ولكنه لن يجاوز حدود ما فعل » بدا هذا الرأى مقنعا لما صادف من ارتياح النفوس اليه فقال فهمى مفصحا عن اقتناعه ومرجوه معا « والدليل على صحة رأيك أنه لم يقدم على فعل شىء آخر ، ومثله لا يؤجل عزمه لو صحت نيته عليه » وتكلموا كثيرا عن « قلب » أبيهم فاتفقت كلمتهم على أنه قلب خير رغم ثورته وحدته وأن أبعد شىء عن تصورهم هو أن يقدم على عمل من شأنه أن يسىء الى السمعة أو يؤذى أحدا وعند ذاك قالت الجدة على سبيل الدعابة وهى تعلم باستحالة ما تدعو اليه :

ـ لو كنتم رجالا حقا لالتمستم الوسيلة الى قلب أبيكم ليتحول عن عناده ..

فتبادل ياسين وفهمى نظرات ساخرة من هذه « الرجولة » المزعومة التى تذوب لدى ذكر أبيهم ، وخافت الأم من ناحيتها أن يتطور الحديث بين الشابين والجدة الى ذكر حادث السيارة فأفهمتهما بالاشارة ـ وهى تردد يدها بين كتفها وأمها ـ أنها أخفت عنها الأمر ، ثم قالت تخاطب أمها وكأنها تنبرى للدفاع عن رجولة الشابين :

ـ لا أحب أن يتعرض أحدهما لغضبه فلنتركه لنفسه حتى يعفو . .

وهنا تساءل كمال :

ـ ومتى يعفو ؟

فأشارت الأم بسبابتها الى فوق وهى تغمغم « ربنا عنده العفو » . وكالمألوف فى مثل هذه الحال دار الحديث حول نفسه فأعاد كل ما سبق له قوله بنفس الألفاظ أو بألفاظ جديدة من ايثار متواصل للظنون الوردية فطال الحديث دون أن يستجد به جديد ، حتى خيم الظلام ووجب الرحيل . وحين وجب الرحيل وغشيت كآبته القلوب كالضباب شغل به الفكر عن الكلام فساد سكون كالسكون الذى يسبق العاصفة ، اللهم الا كلمات لا يراد بها الا التخفيف من وطأة الصمت أو التهرب من الاعتراف بجثوم الوداع وكأن كلا منهم يلقى تبعة اعلانه على عاتق غيره رحمة بالجانب الآخر ، هنالك حدس قلب العجوز ما تضطرم به النفوس حولها فرمشت عيناها المظلمتان ولعبت أصابعها بحبات السبحة فى عجلة ولهوجة ، ومضت بها دقائق بدت على قصرها كاتمة للأنفاس كاللحظات التى يترقب فيها الحالم فى كابوس سقطة من علو شاهق ، حتى جاءها صوت ياسين وهو يقول « أظن آن لنا أن نذهب ، وسنعود لنأخذك معنا قريبا ان شاء الله » وتسمعت العجوز لترى كيف تتهدج نبرات ابنتها عند الكلام ، ولكنها لم

تسمع كلاما بل سمعت حركة دالة على نهوض الجلوس ، وأصوات قبل وهمهمة توديع ، واحتجاج كمال على انتزاعه بالقوة فبكاءه ، ثم جاء دورها فى التسليم فى جو مشبع بالحزن والفتور ، وأخيرا أخذت الأقدام تبتعد تاركة اياها فى وحدة وشجن ..

وعادت قدما أمينة الخفيفتان فمضت العجوز تتصنت فى قلق حتى هتفت بها :

ــ أتبكين ؟! . . يا لك من عبيطة !.. كأنك لا تطيقين أن تبيتى ليلتين فى حضن أمك !..

ــ ٣٤ ــ

بدت خديجة وعائشة أضيق الجميع بغياب الأم ، فالى حزنهما الذى يشاركهما فيه الأخوة تحملتا وحدهما أعباء البيت وخدمة الأب بيد أن أعباء البيت لم تكن لتنوء بهما ، أما خدمة الأب فهى التى عملا لها ألف حساب ونزعت عائشة الى الهرب من منطقة أبيها معتلة بأن خديجة سبق لها أن تدربت على خدمته فى أثناء رقاد الأم فوجدت خديجة نفسها مرغمة على العودة الى تلك المواقف الدقيقة الرهيبة التى تكابدها وهى على كثب من السيد أو وهى تقضى له حاجة من حاجاته . ومنذ الساعة الأولى لذهاب الأم قالت خديجة « ينبغى ألا تطول هذه الحال ، أن الحياة بدونها فى هذا البيت عناء لا يطاق » فأمنت عائشة على قولها ولكنها لم تجد من حيلة فى وسعها غير الدموع فذرفتها ، وانتظرت عودة أخوتها من بيت الجدة حتى جاءوا وقبل أن تلفظ كلمة مما يدور فى نفسها راحوا يحدثون عن حال أمهم فى « منفاها » فوقع الحديث من نفسها موقع الغرابة والاستنكار لأنها كانت تسمع عن

قوم غرباء لا يتاح لها لقاؤهم فغلبها الانفعال وقالت بحدة :
ـ اذا قنع كل منا بالسكوت والانتظار فربما تلاحقت الأيام والأسابيع وهى مبعدة عن بيتها حتى يضنيها الحزن ، أجل ان مخاطبة بابا فى هذا الشأن مهمة شاقة ولكنها ليست أشق من السكوت الذى لا يليق بنا ، ينبغى أن نجد طريقة .. ينبغى أن نتكلم ..
ومع أن صيغة « نتكلم » التى ختمت بها جملتها جاءت شاملة لجميع الحاضرين الا أنه قصد بها ـ كما فهم بالبداهة ـ شخصا أو شخصين شعر كلاهما لدى سماعها بارتباك لم تخف بواعثه على أحد ، بيد أن خديجة واصلت حديثها قائلة :
ـ لم تكن مهمة مخاطبته فيما يعرض لنا من أمور بأيسر على نينة مما هى علينا ومع ذلك لم تكن تتردد عن مخاطبته اكراما لأى واحد منا ، فمن الانصاف أن نتحمل نفس التضحية من أجل خاطرها ...
تبادل ياسين وفهمى نظرة فضحت احساسهما بالخناق الذى أخذ يضيق حولهما سريعا ولكن واحداً منهما لم يجرؤ على فتح فيه أن ينتهى به الكلام الى أن يقع عليه الاختيار ليكون كبش الفداء فاستسلما لانتظار ما يجىء به النقاش كما يستسلم الفأر للهرة .
وتركت خديجة التعميم الى التخصيص فالتفتت الى ياسين قائلة :
ـ انت أخونا الأكبر والى هذا فأنت موظف ، اى رجل كامل ، فأنت أجدرنا بالقيام بهذا الواجب ..
ملأ ياسين صدره بالهواء ثم نفخ وهو يعبث بأنامله فى ارتباك ظاهر وتمتم قائلا :
ـ والدنا رجل نارى الغضب لايقبل مراجعة لرأيه ، وأنا من ناحيتى لم أعد غلاما بل صرت رجلا وموظفا كما تقولين ، وأخوف ما أخاف أن ينفجر فى غاضبا فيفلت منى زمام نفسى ويثور غضبى بدوره !

وغلبهم الابتسام على أعصابهم المتوترة وأنفسهم المحزونة فابتسموا ، وأوشكت عائشة أن تضحك فأخفت وجهها فى كفيها ، ولعل حالهم المتوترة نفسها مما هيأهم لقبول الابتسام كمسكن وقتى للتوتر والألم كما يحدث للنفوس أحيانا عند اشتداد الحزن من الاستسلام للطرب لأتفه الأسباب على سبيل التخفيف عن حال بأضدادها ، ذلك انهم عدوا قوله نوعا من الدعابة الجدير بالضحك والسخرية ، وكان هو أول من يعلم بعجزه التام عن مجرد التفكير فى الغضب أو المقاومة حيال والده وأول من يعلم أنه قال ما قال فرارا من مواجهة أبيه واتقاء لسخطه ، فلما رأى هزءهم لم يسعه الا أن يبتسم بدوره وهو يهز منكبيه كأنما يقول لهم « دعونى وشأنى » . فهمى وحده بدأ متحفظا فى ابتسامه لشعوره بأن القرعة ستصيبه قبل أن تغيب ابتسامته ، وصدق شعوره اذ أعرضت خديجة عن ياسين فى ازدراء ويأس وخاطبته قائلة برجاء واشفاق :

ــ فهمى ... أنت رجلنا ..!

فرفع حاجبيه فى ارتباك متطلعا اليها بنظرة كأنما يقول لها « أنت أدرى بالعواقب ! » حقا كان يتمتع بمزايا لا يتمتع ببعضها أحد فى الأسرة فهو طالب بمدرسة الحقوق ، وهو أكبرهم عقلا وأنفذهم رأيا ، وله من ضبط النفس فى المواقف الحرجة ما يدل على الشجاعة والرجولة ولكنه سرعان ما يفقد جملة مزاياه اذا مثل بين يدى أبيه فلا يعرف غير الطاعة العمياء . وبدا وكأنه لا يدرى ماذا يقول فحثته على الكلام بايماءة من رأسها فقال متحيرا :

ــ هل ترينه يقبل رجائى ؟ .. كلا .. ولكنه سينتهرنى قائلا :

« لا تتدخل فيما لا يعنيك » .. هذا اذا لم يثر غضبه فيوجه الى كلاما أشد وأقسى ..!

وارتاح ياسين الى هذا الكلام « الحكيم » الذى وجد فيه دفاعا عن موقفه أيضا فقال وكأنه يكمل رأى أخيه :

ـ وربما جر تدخلنا الى محاسبتنا من جديد على موقفنا يوم خروجها فنفتح على أنفسنا فتحة لا ندرى كيف نسدها !

فالتفتت الفتاة نحوه مغيظة محنقة وقالت بمرارة وسخرية :

ـ لا منك ولا كفاية شرك !

فقال فهمى الذى استمد من غريزة «حب البقاء» قوة جديدة للدفاع عن نفسه :

ـ فلنفكر فى الأمر بعناية شاملة .. لاأظنه يقبل لى أو لياسين رجاء مادام يعتبرنا شريكين فى الخطأ ، وعليه فالقضية خاسرة اذا تقدم أحدنا للدفاع عنها ، أما اذا حدثته واحدة منكما فلعلها تنجح فى استعطافه أو لعلها تجد ــ على أسوأ الظنون ــ اعراضا هادئا لا يبلغ حد العنف ، فلماذا لا تحدثه احداكما ؟ .. أنت مثلا يا خديجة ! ؟

فانقبض قلب الفتاة التى وقعت فى الشرك وحدجت ياسين لا فهمى بنظرة غيظ وهى تقول :

ـ ظننت هذه المهمة أخلق بالرجال !

فقال فهمى مواصلا هجومه السلمى :

ـ العكس هو الصحيح ما دمنا نتوخى نجاح المسعى ، ولا ننسى أنكما لم تتعرضا لغضبه طول حياتكما الا فى النادر الذى لا يقاس عليه ، فهو يألف الرفق بكما كما يألف البطش بنا !..

فأطرقت خديجة متفكرة فى قلق غير خاف ، وكأنها خافت ان طال صمتها أن تشتد عليها الحملة فتستقر المهمة الخطيرة فى قرعتها فرفعت رأسها قائلة :

ـ اذا كان الأمر كما تقول فعائشة أخلق منى بالكلام !

ـ أنا ! .. لم ؟ !

نطقت بها عائشة فى فزع من وجد نفسه بغتة فى مرمى الخطر

بعد أن اطمأن طويلا الى موقف المتفرج الذى ليس له من الأمر شىء خاصة وانها ــ لحداثة سنها وغلبة احساس الطفولة المدللة عليها ــ لم تكن تندب لشىء هام فضلا عن أخطــر مهمة يمكن أن تعرض لأحد منهم ، الا أن خديجة نفسها لم تجد فكرة واضحة لتبرير اقتراحها بيد أنهــا أصرت عليه فى عناد مشــبع بالمرارة والتهكم فقالت تجيب شقيقتها :

ــ لأنه ينبغى الانتفاع بصفرة شعرك وزرقة عينيك فى انجاح مسعانا !

ــ وما دخل شعرى وعينى فى مواجهة أبى ؟

لم تكن خديجة تهتم فى تلك اللحظة بالاقناع بقدر ما تهالكت على ايجاد مخرج لها ولو بتحويل الأذهان الى أمور هى بالمعــابثة أشبه تمهيدا للتقهقر ، فالفرار من أسلم السبل الممكنة كمن يقع فى مأزق حرج وتعوزه الحجة فى الدفاع عنه فيلجأ الى المزاح ليمهد لنفســـه مفرا فى ضــجة من السرور بدلا من الشماتة والازدراء لذلك قالت :

ــ أعرف لهما تأثيرا ساحرا فى كل من يتصل بك ، ياسين .. فهمى .. حتى كمال ، فلماذا لا يكون لهما نفس التأثير عند أبى ؟

فتورد وجه عائشة وقالت بانزعاج :

ــ كيف أخاطبه فى هــذا الشأن وانا لا تقع على عينــاه حتى يطير ما فى رأسى ؟ !

عند ذاك ــ وبعد أن تهربوا تباعا من المهمة الخطيرة ــ لم يعد يشعر أحد منهم بتهديد مباشر ولكن النجاة لم تعفهم من احســاس بالذنب ، بل لعلها كانت أول دافع اليه ، حيث أن الانسان يركز تفكيره فى النجاةعند الخطر حتى اذا ظفر بالنجاة عادضميره يناوشه، كالجسم الذى يســتنفد حيويته كلها فى العضو المريض حتى اذا ما استرد صحته توزعت حيويته بالتساوى على الأعضاء التى أهملت

الى حين ، وكأن خديجة ارادت أن تتخفف من هـذا الاحساس فقـالت :
ـ ما دمنا نعجز جميعا عن مخاطبة بابا فلنستعن بجارتنا ست أم مريم ..
وما أن نطقت باسم « مريم » حتى لحظت فهمى بحركة عكسية فالتقت عيناهما لحظة قصيرة فى نظرة لم يرتح الشاب لايحائها فأشاح عنها بوجهه متظاهرا بعدم الاكتراث ، ذلك أن اسم مريم لم يجر على لسان أمام فهمى منذ نبذت فكرة خطبتها ، أما مراعاة لعواطفه ، واما لأن مريم اكتسبت معنى جديدا بعد اعترافه بحبها سلكها فى زمرة المحرمات التى لا تتسامح تقاليد البيت بلوكها علانية حيال صاحب الشأن ، بالرغم من أن مريم نفسها لم تنقطع عن زيارة الأسرة متظاهرة بجهل ما دار بشأنها وراء الأبواب .. ولم تفت ياسين لحظة الارتباك المتبادل بين فهمى وخديجة فأراد أن يغطى على أثرها المحتمل بتوجيه الانتباه الى وجهة جديدة فوضع يده على كتف كمال وقال بلهجة بين التهكم والتحريض :
ـ هذا رجلنا الحق ، هو وحده الذى يستطيع أن يرجو والده ليعيد اليه أمه !..
لم يحمل كلامه محمل الجد أحد ، وأولهم كمال نفسه ، بيد أن قول ياسين وثب الى ذاكرته فى اليوم التالى وهو يقطع ميدان بيت القاضى عائدا من المدرسة ، بعد نهار مضى أكثره فى التفكير فى أمه المنفية ، فتوقف عن السير صوب درب قرمز ، والتفت الى طريق النحاسين مترددا وقلبه المحزون يتابع خفقاته فى كآبة وتألم ، ثم غير طريقه متجها نحو النحاسين فى خطوات متباطئة دون أن يجمع عزمه على رأى ، يسوقه العذاب الذى يعانى لفقد أمه ، ويرجعه الخوف الذى يركبه لمجرد ذكر أبيه فضلا عن مخاطبته أو التوسل اليه ، لم يكن يتصور أنه يستطيع أن يقف بين يديه محادثا فى هذا الأمر ، ولم تغب عن شعوره المخاوف العسية بأن تحيق به لو فعل ،

ولم يصمم على شيء الا أنه رغم هذا كله واصل السير البطيء حتى لاح لعينيه باب الدكان كأنما ينزع الى ارضـاء قلبه المعـذب ولو ارضاء عقيما ـ كالحداة التى تحوم حول خاطف صغارها دون أن تجد الشجاعة على مهاجمته ـ وتدانى من الباب حتى وقف على بعد أمتار منه وطال الوقوف وهو لا يتقدم ولا يتأخر ، ولا يستقر على رأى ، وفجأة خرج من الدكان رجل وهو يقهقه عاليـا واذا بأبيه يتبعه حتى عتبة الباب مودعا وهو يغرق فى الضحك كذلك ، فأذهلته المفاجأة ، فتسمر فى مكانه مستشرفا وجه أبيه الضاحك الطليق فى انكار ودهشة لا توصفان ، لم يصدق عينيه وخيل اليه أن شخصية جديدة قد حلت فى جسم أبيه ، أو أن هذا الرجل الضاحك ـ على ما به من شبه بأبيـه ـ شخص آخر يراه لأول مرة ، شخص يضحك ، ويغرق فى الضحك ، وينطلق البشر من وجهه كما ينطلق الضوء من الشمس . واستدار السيد ليدخل فوقع بصره على الغلام المتطلع اليه بذهول فأخذته الدهشة لموقفه وهيئته على حين استردت أساريره بسرعة مظهر الجد والرزانة ، ثم سأله وهو يتفرس فى وجهه :

ـ ماذا جاء بك ؟ !

وللحال دبت فى أعماق الغلام غريزة الدفاع عن النفس ـ رغم ذهوله ـ فتقدم من أبيه ومد يده الصغيرة الى يده وتطامن عليها حتى لثمها فى أدب وخشوع دون أن ينبس بكلمة ، فسأله السيد مرة أخرى :

ـ أتريد شيئا ؟!

فازدرد كمال ريقه وهو لا يجد ما يتلفظ به الا أن يقول مؤثرا السلامة « انه لا يريد شيئا وأنه كان فى طريقه الى البيت » ولكن السيد استبطأه فلاح فى وجهه الضيق وقال بخشونة :

ـ لا تقف كالصنم وقل ماذا تريد . .

ونفذت خشونة الصـوت الى قلبه فارتعـد ، وانعقد لسانه

فكأن الكلام قد التزق بسقف حلقه ، فازداد الأب ضيقا وهتف بحدة :

ــ تكلم . . . هل فقدت النطق ؟!

وتجمعت قوته كلها فى ارادة واحدة وهى أن يخرج من صمته بأى ثمن اتقاء لغضب أبيه ففتح فاه قائلا كيفما اتفق له :

ــ كنت عائدا من المدرسة الى البيت . .

ــ وماذا أوقفك هنا كالمعتوه ؟ !

ــ رأيت . . رأيت حضرتك فأردت أن أقبل يدك . .!

فتجلت فى عينى السيد نظرة استرابة ، وقال بجفاء وتهكم :

ــ أهذا كل ماهنالك !. . أوحشتك لهذا الحد ! ألم تستطع أن تنتظر الى الصباح لتقبل يدى اذا أردت ؟!. . اسمع . . اياك وأن تكون قد عملت عملة فى المدرسة . . سأعرف كل شىء . .

فقال كمال بسرعة واضطراب :

ــ لم أعمل شيئا وحياة ربنا . .

فقال الرجل بنفاد صبر :

ــ اذن تفضل . . ضيعت وقتى بلا مناسبة . . غر من وجهى . .

فغادر كمال موقفه لا يكاد يرى موضع قدمه من الاضطراب ، وتحرك السيد عن مكانه ليدخل ولكن عاودت الغلام الحياة بمجرد تحول عينى أبيه عن عينيه ، وصاح بلا شعور قبل أن يغيب الرجل وتضيع الفرصة :

ــ رجع نينه الله يخليك . .

وأطلق ساقيه للريح . .

— ٣٥ —

كان السيد يحتسى قهوة العصر فى حجرته حين دخلت خديجة وقالت بصوت كاد من التخشع لا يسمع :

ــ جارتنا ست أم مريم تريد مقابلة حضرتك ..

فتساءل السيد متعجبا :

ــ حرم السيد محمد رضوان ؟. ماذا تريد ؟.

فقالت خديجة :

ــ لا أعرف يا بابا ..

فأمرها بادخالها وهو لا يمسك عن التعجب . ومع أن مجىء بعض الفضليات من الجارات لمقابلته ــ لشأن يتعلق بتجارته أو لصلح يسعى به بينهن وبين أزواجهن من أصدقائه ــ لم يكن مع ندرته بالجديد عليه الا أنه استبعد أن يكون ما دعا هذه السيدة الى مقابلته واحد من هذه الأسباب . وخطرت على ذهنه ، وهو يتساءل ، مريم وما دار عن خطبتها بينه وبين زوجه ، ولكن أى علاقة ثمة بين هذا السر الذى لا يمكن أن يتعدى دائرة أسرته وبين هذه الزيارة !؟ ثم ذكر السيد محمد رضوان لاحتمال أن تكون الزيارة لسبب يمت اليه بيد أنه كان ولم يزل مجرد جار ، لا تربطه به الا صلة الجيرة التى لم ترتفع يوما لمرتبة الصداقة ، فاقتصر تزاورهما قديما على المناسبات الضرورية حتى شل الرجل فعاده مرات . ثم لم يعد يطرق بابه الا فى الأعياد ، على أن ست أم مريم ليست بالغريبة عليه ، فانه ليذكر أنها قصدت دكانه مرة لابتياع بعض الحوائج ، وهناك عرفته بنفسها استرعاء لاهتمامه فبذل لها من كرمه ما رآه جديرا بحسن الجوار ، ومرة أخرى التقى بها عند

باب بيته اذ صادف خروجــه قدومها للزيارة مصطحبة كريمتها وعند ذاك أدهشـــته بجسارتها حين حيته قائلة « مســاء الخير ياسى الســـيد » ، أجل علمه اختــلاطه بالأصدقاء أن بينهم من يتسامح فيما يتشدد هو فيه متطرفا من التزام الآداب المتوارثة للأسرة ، فلا يرون بأســا من أن تخــرج نســـاؤهم للزيارة أو للاستبضــاع ، ولا يجدون حرجا فى توجيه تحيــة بريئة كالتى وجهتها أم مريم اليه ، ولم يكن ــ رغم حنبليته ــ بالذى يطعن فيما يرتضون لأنفسهم ولنسائهم ، بل لم يكن يسىء الظن حتى ببعض الأعيان من أصدقائه الذين يصطحبون زوجاتهم وبناتهم فى العربات للتنزه فى الخلوات أو لغشيان الملاهى البريئة مكتفيا فى مثل هذه الحال بترديد قوله : «لكم دينكم ولى دين» ، أى أنه لا ينزع الى تطبيق آرائه على الناس تطبيقا أعمى ، الى أنه يحسن التمييز حقا بين ماهو خير وما هو شر ، الا أنه لايفتح صدره لكل «ماهو خير» ضالعا فى ذلك مع طبيعته التقليدية الصارمة حتى أنه عد زيارة زوجه للحسين جريمة قضى فيها بأقسى عقوبة أصدرها فى حياته الزوجية الثانيــة ، ولهذا كله لاقت تحيــة أم مريم له من نفسه دهشة مقرونة بما يشبه الانزعاج دون أن يسىء بأخلاقها الظن . وسمع خارج باب الحجرة نحنحة فأدرك أن القادمة تنذره بالدخول ، ثم دخلت ملتفة فى ملاءتها ، مســتورة الوجه ببرقع أسود تتوسط عروسه الذهبية عينين مكحولتين دعجاوين وتدانت منه بجسم جسيم لحيم مترنح الأرداف ، فنهض السيد لاستقبالها وهو يمد يده قائلا :

ــ أهلا وسهلا ، شرفت البيت وأهله .

فمدت له يدها بعد أن لفتها فى طرف الملاءة أن تنقض وضوءه وقالت :

ــ ربنا يشرف قدرك يا سى السيد ..

ودعاها للجلوس فجلست ، ثم جلس وهو يسألها مجاملة :

ـ كيف حال السيد محمد ؟..
فقالت متنهدة بصوت مسموع كأن السؤال حرك أشجانها :
ـ الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه ، ربنا يلطف بنا جميعا ..
فهز السيد رأسه كالآسف وتمتم :
ـ ربنا يأخذ بيده ويمنحه الصبر والعافية ..
وأعقب حديث المجاملات صمت قصير فأخذت السيدة تتهيأ للحديث الجدى الذى جاءت من أجله كما يتهيأ المطرب للغناء بعد الفراغ من عزف المقدمة الموسيقية على حين غض السيد بصره تحشما تاركا على شفتيه ابتسامة لتعلن ترحيبه بالحديث المنتظر :
ـ يا سيد أحمد ، أنت فى المروءة مثل يضرب فى الحى كله ، فلن يخيب رجاء لمن يقصدك مستشفعا مروءتك .
فتمتم السيد بصوت حيى وهو يتساءل فى نفسه « ترى ما وراء هذا كله ؟!.. » :
ـ أستغفر الله ..
ـ المسألة انى جئت الساعة لأزور أختى ست أم فهمى فما هالنى الا أن أعلم بأنها ليست موجودة فى بيتها وأنك غاضب عليها ..
وأمسكت المرأة لتسبر أثر كلامها ولتسمع رأى السيد فيه ، ولكنه لاذ بالصمت كأنه لا يجد ما يقوله ومع أنه شعر بعدم ارتياح الى فتح هذا الموضوع الا أن ابتسامة الترحيب ظلت معلقة بشفتيه ..
ـ هل توجد ست أكمل من ست أم فهمى ؟!.. ست العقل والحياء ، جارة عشرين عاما وأكثر ، لم نسمع خلالها منها الا ما يسر الخاطر ، فما عسى يمكن أن تجنى مما تستحق عليه غضب رجل عادل مثلك ؟ !.
فثابر السيد على صمته متجاهلا تساؤلها ، ثم دارت برأسه خواطر زادت من عدم ارتياحه .. ترى أجاءت زيارة المرأة للبيت

اتفاقا أم أنها استدعيت بتدبير مدبر ؟!.. خديجة ؟.. عائشة ؟..
أمينة نفسها ؟ .. أنهم لا يملون الدفاع عن أمهم ، هل ينسى كيف
تجرأ كمال على الصراخ فى وجه مطالبا بعودة أمه ، الأمر الذى
عرضه فيما بعد لعلقه ساخنة تطاير بخارها من يافوخه ؟ !

ـ يا لها من سيدة طيبة لا تستأهل عقابا ... ويا لك من
سيد كريم لا يليق به العنف ، ولكنه الشيطان اللعين أخزاه الله
وما أجدر نبلك بافساد كيده ..

وشعر عند ذاك بأن الصمت غدا أثقل من أن يحتمل مجاملة
للزائرة فتمتم قائلا باقتضاب متعمد :

ـ ربنا يصلح الحال ..

فقالت أم مريم بحماس متشجعة بما أصابت من نجاح فى
استدراجه الى الكلام :

ـ لشد ما يعز على أن تترك جارتنا الطيبة بيتها بعد ذاك
العمر الطويل من الستر والكرامة ..

ـ ستعود المياه الى مجاريها ، ولكن لكل شىء ميعاد ..

ـ أنت أخى ، بل أعز من الأخ ، ولن أزيد على هذا كلمة
واحدة ..

جد جديد من الأمر لم يغب عن وعيه اليقظ فسجله كما
يسجل المرصد الزلزال البعيد مهما تدق حركته . خيل اليه وهى
تقول « أنت أخى » أن صوتها رق وعذب ، فلما قالت « بل أعز
من الأخ » جهر الصوت بحنان دافىء نشر فى الجو المحتشم نفحة
طيبة ، فتعجب وتساءل ، ولم يعد يطيق غض بصره على الشك
فرفعه مستأنيا .. واسترق الى وجهها النظر ــ فوجدها ــ على
غير ما توقع ــ تتطلع اليه بعينيها الدعجاوين ، فجاش صدره
وخفض بصره مستعجلا بين الدهشة والحرج ثم قال مواصلا
الحديث كى يغطى على تأثيره :

ـ أشكرك على ما أوليتنى من أخوة ..

وعاد يتساءل ترى أكانت تتطلع اليه هكذا طوال الحديث أم صادف رفع بصره اليها تطلعها اليه ؟ . . وما القول فى أنها لم تغض بصرها عند التقاء العينين ؟ . . ولكنه سرعان ما هزأ بأفكاره قائلا لنفسه أن ولعه بالنساء وخبرته بمعاشرتهن أرهفا حاسة سوء الظن بهن عنده ، وأن الحقيقة بلاريب أبعد ما تكون عن تصوره ، أو لعل المرأة من النساء اللاتى يفضن الحنان طبعا وسجية فيظنه من لايعرفهن غزلا وما هو بالغزل . ولكى يتحقق من صدق رأيه ــ لأنه لم تزل ثمة حاجة الى التحقق ــ رفع بصره مرة أخرى فما هاله الا أن يراها رانية اليه ، فتشجع هذه المرة وثبت عليها عينيه قليلا فلم تزل ترنو اليه باستسلام جسور حتى غض بصره فى حيرة شاملة ، وعند ذاك لاحقه صوتها الناعم وهو يقول :

ــ سأرى بعد هذا الرجاء ما اذا كنت حقا أثيرة عندك . .

أثيرة ؟ ! . . لو قيلت هذه الكلمة فى غير هذا الجو المشبع بالحساسية المكهرب بالشك والحيرة ، لمرت دون أن تترك أثرا ، أما الآن ؟!. . وعاود النظر فى غير قليل من الحرج فقرأ فى عينيها بعض المعانى التى عابثت ظنونه ، هل صدق احساسه ؟ وهل يمكن هذا حال استشفاعها لزوجه ؟. . ولكن كيف يعجب من كان فى مثل خبرته بالنساء ؟. . سيدة لعوب ذات بعل مشلول ، وسرت فى وجدانه وثبات بهيجة ملأته حرارة وزهوا ، ولكن متى نشأت هذه العاطفة ؟. أهى قديمة وكانت تتحين الفرص ؟. . ألم تزر دكانه مرة فلم يند عنها ما يريب . . ولكن الدكان ليس بالمكان الذى تطمئن مثلها اليه فى بث هوى مكتم غير مسبوق بتمهيد كما فعلت زبيدة العالمة ، أم هى عاطفة بنت ساعتها وجدت مع الفرصة السانحة فى الغرفة الخالية ؟. . لو صح هذا فهى «زبيدة» أخرى فى لباس سيدة مصونة ، وليس غريبا أن يجهل أمرها ــ وهو العليم ببنات الهوى ــ ما دام يحرص الحرص كله على احترام الجيران احتراما مثاليا ، وأيا كان الأمر فكيف يجيبها ؟ . .

« أنت آثر عندى مما تظنين ؟ . . » قول جميل ولكنها حرية بأن ترى فيه تحية استجابة لدعائها ، كلا أنه لا يريد هذا ، انه يأباه كل الاباء ، لا لأنه لم يشبع بعد من زبيدة ، ولكن لأنه لا يقبل بحال أن يحيد عن مبادئه فى تقديس الأعراض عامة ، وما يمس الأصدقاء والجيران منها خاصة . لهذا لم تسود صفحته نقطة واحدة يمكن أن يخزى بها أمام صديق أو جار أو أحد من الأطهار على افراطه فى العشق والصبوات ، ولم يزل دأبه أن يخاف الله فى لهوه كما يخافه فى جده فلا يبيح لنفسه الا ما يراه مباحا أو فى حدود الهفوات . لا يعنى هذا أنه أوتى ارادة خارقة تعصمه من الأهواء ، ولكنه لهج بالهوى المبذول ، وصان طرفه عن الحرمات حتى أنه لم يتعمد النظر الى وجه امرأة من حيه طوال عمره ، على أنه مما يذكر له أنه صد مرة عن هوى متاح رحمة بأحد معارفه ، اذ جاءه يوما رسول يدعوه الى لقاء أخت ذاك الرجل ــ أرملة نصف ــ فى ليلة سماها فتلقى السيد الدعوة صامتا وصرف الرسول متلطفا كعادته ثم قاطع الطريق الذى يوجد به البيت أعواما متواصلة . ولعل أم مريم كانت أول تجربة ــ عرضت لمبادئه ــ يكابدها بعينيه ، ومع أنها أعجبته الا أنه لم يستجب لنوازع الهوى، وغلب صوت الحكمة والوقار ، صائنا سمعته التى يتحدث بها الناس عن موطن المؤاخذة ، كأن هذه السمعة الطيبة آثر عنده من اقتناص لذة مواتية ، متعزيا فى نفس الوقت بما يتاح له من حين لآخر من غراميات مأمونة العواقب . وهذه الروح الراعية للعهد المخلصة للاخوان لا تزايله حتى فى مغانى اللهو والشهوات فلم يؤخذ عليه أبدا أنه سطا على محظية صاحب أو طمح بطرف الى خليلة صديق ، مؤثرا الصداقة على الأهواء ، لأنه كما اعتاد أن يقول « الصديق ود دائم والعشيقة هوى عابر » ، ولهذا قنع بانتقاء خليلاته ممن يجدهن بلا خليل ، أو ينتظر حتى تنقطع علاقة فينهض لانتهاز فرصته وأحيانا يستأذن الخليل القديم قبل

ان يتودد الى من كانت خليلته ، مواصلا العشق فى سرور لا يشوبه الندم ولا تكدر صفوه أحن النفوس . بمعنى آخر أنه نجح فى التوفيق بين « الحيوان » المتهالك على اللذات وبين « الانسان » المتطلع الى المبادىء العالية توفيقا ائتلافيا يجمعهما فى وحدة منسجمة لا يطغى أحد طرفيها على الآخر ويستقل كل منهما بحياته الخاصة فى يسر وارتياح ، كما وفق من قبل فى الجمع بين التدين والغواية فى وحدة خالية من الاحساس بالذنب والكبت معا ، غير أنه لم يكن يصدر فى وفائه عن اخلاص مجرد للأخلاق ولكن ــ الى هذا أو قبل هذا ــ عن رغبته التليدة فى أن يظل حائزا للحب متمتعا بالسمعة العطرة ، الى أن غزواته المظفرة فى العشق هونت عليه الاعراض عن الحب الموسوم بالخيانة أو النذالة ، وفضلا عن هذا وذاك فانه لم يعرف الحب الحقيقى الذى كان خليقا بأن يدفعه الى احدى اثنتين ، فاما الاذعان للعاطفة القوية دون مبالاة بالمبادىء ، واما الوقوع فى أزمة عاطفية خلقية حادة لم يقدر عليه الاكتواء بنارها . فلم يكن يرى فى أم مريم الا صنفا لذيذا من الطعام لن يضيره ــ اذا هدده تناوله بسوء الهضم ــ أن يعدل عنه الى غيره من الأصناف المأمونة الشهية التى تحفل بها المائدة ، لذلك أجابها برقة قائلا :

ــ شفاعتك مقبولة ان شاء الله وستسمعين ما يسرك عما قريب ..

فقامت المرأة وهى تقول :

ــ ربنا يكرمك يا سى السيد ..

ومدت له يدا بضة فمد لها يده وهو يغض بصره فخيل اليه ــ وهى تسلم ــ أنها ضغطت قليلا على يده ، وجعل يتساءل أهذه طريقتها المعتادة فى التسليم أم أنها تعمدت الضغط على يده ، وحاول أن يتذكر كيفية تسليمها عند استقبالها ولكن الذاكرة لم

تسعفه ، وقضى أكثر الوقت الذى سبق عودته الى الدكان وهو يفكر فى المرأة ، حديثها ، ولينها ، وتسليمها . .

- ٣٦ -

تيزه حرم المرحوم شوكت تريد مقابلة حضرتك .

رمى السيد خديجة بنظرة حمراء وصاح بها :

ـ لمـاذا ؟ !

ولكن أعلنت نبراته الغاضبة ونظراته الثائرة على أنه لم يقصد الوقوف عند مدلول «لماذا» وكأنه أراد أن يقول لها « لم أكد أفرغ من وسيط الأمس حتى جئتنى بوسيط جديد اليوم ، من قال لك أن هذه الحيل تجوز على ؟ .. كيف تجسرين أنت واخوتك على المكر بى ؟ »

واصفر وجه خديجة وهى تقول بصوت متهدج :

ـ لا أدرى والله . .

فحرك رأســه حركة كأنها تقول لهـا « بل تدرين وأدرى أنا أيضا ولن يجرك مكرك الا الى أوخم العواقب » ثم قال ساخطا :

ـ خليها تتفضــل ، لن أشرب قهــوتى براحة بال بعد الآن ، أصل حجرتى محكمة وقضاة وشهود ، وهــذه هى الراحة التى أجدها فى بيتى ، لعنة الله عليكم أجمعين !.

اختفت خديجة قبل أن يتم كلامه كما يختفى الفأر اذا قرعت سمعه فرقعة ، وظل السيد لحظات متجهما حانقا ، حتى خطرت على ذهنة صورة خديجة وهى تنسحب خائفة فعثرت قدمها بقبقابه وكاد رأسـها يصطدم بالباب ، فارتسمت على شــفتيه ابتسامة اشفاق مسحت غضبته المتعسفة وقطرت على صــدره

عطفا ، يا لهم من أطفال يأبون أن ينسوا أمهم ولو دقيقة واحدة ، واتجه بصره الى الباب وهو يتهيأ لاستقبال الزائرة بوجه انبسطت أساريره كأنه لم يصب غضبه منذ ثوان على فكرة فى زيارتها ، ولكن لم يكن له حيلة فيما يركبه من غضب ــ وهو فى بيته ــ لأتفه الأسباب أو بلا سبب على الاطلاق ، وفضلا عن هذا كله كان للقادمة منزلة خاصة لا يرتقى اليها أحد من النساء اللاتى يترددن على البيت من حين لآخر ، حرم المرحوم شوكت ، والمرحوم شوكت من قبل ، أسرة ارتبطت مع أسرته بآصرة الود الخالص من عهد الجدود ، كان للراحل منزلة الأب من نفسه ، ولم تزل أرملته عنده ــ وعند أسرته بالتبعية ــ بمنزلة الأم ، هى التى خطبت له أمينة بنفسها ، وتلقت أبناءه بيديها وهم يستقبلون نور الدنيا ، والى هذا كله فآل شوكت أناس صداقتهم شرف ، لا لأصلهم التركي فحسب ، ولكن لمرتبتهم الاجتماعية وعقاراتهم الكثيرة ما بين الحمزاوى وبين الصورين ، فاذا كان السيد من أوساط الطبقة الوسطى فهم من أهل القمة فيها بلا جدال ، ولعل الأمومة التى تشعر بها المرأة له ويشعر بها لها هى التى جعلته يقف من شفاعتها المنتظرة موقف التهيب والحرج ، فليست هى بالتى تلتزم الاحترام فى مخاطبته ، ولا بالتى تتعب فى استعطافه ، فضلا عما عرفت به من صراحة جارحة لها مبرراتها من شيخوختها ومكانتها معا ، أجل ليست هى ..

وأمسك عن أفكاره لدى سماعه وقع خطواتها ، ثم نهض وهو يقول بترحيب :

ــ أهلا وسهلا ، زارنا النبى ..

اقتربت منه سيدة طاعنة فى السن ، تدب على مظلة وهى ترفع اليه وجها ناصع البياض كثير التجاعيد لم يكد يحجب منه شيئا برقعها الأبيض الشفاف ، وتلقت تحيته بابتسامة جلت

عن أسنانها الذهبية ، وسلمت ، ثم اتخـذت مجلسها الى جانبه بلا كلفة وهى تقول :

ــ من يعيش ير ، حتى أنت يا زين الرجال !.. وحتى هـذا البيت تحدث فيه هذه الأمور التى لا يطيب التحدث عنها !.. شخت ورب الحسين وبادرك الخرف ..

واسترسلت فى الكلام مطلقة العنان للسـانها يقول ويعيد غير تاركة للسيد من فرصة لمقاطعتها أو التعقيب عليها ، حدثته كيف جاءت للزيارة ، وكيف اكتشفت غياب زوجه «ظننت بادىء الأمر أنها خرجت فى زيارة فدققت صدرى بيدى دهشة وقلت ماذا حدث الدنيا ؟ ! .. وكيف سمح لها السـيد بالخروج مسـتهينا بالشرائع الالهية والقوانين البشرية والفرمانات العثمانية ! ..» بيد أنها سرعان ما عرفت الحقيقة كلها « فثبت الى رشدى وقلت الحمد لله الدنيا بخير ، هذا حقا هو السيد ، وهذا أقل ما ينتظر منه » ثم غيرت لهجتها الساخرة وراحت تؤنبه على قسوته ، ولم تقتصد فى الرثاء لزوجه التى تعدها آخر امرأة تستحق عقابا ، وجعلت كلما هم بمقاطعتها تصـيح به « هس » ، ولا كلمة ، دع حديثك الحلو الذى تحسن تنميقه فلن أخدع به ، آنى أريد عملا صالحا لا قولا مزوقا » وصارحته بأنه يغالى فى المحافظة على أسرته مغالاة خرقت المألوف ، وانه يجمل به أن يأخذ نفسه بشىء من الهوادة والرفق ، استمع السيد اليها طويلا ، ولمـا سمحت له بالكلام ــ بعد أن أعياها الكلام ــ شرح لها وجهة نظره المعروفة ولم يمنعه دفاعهـا الحار ، ولا مكانتها عنده من أن يؤكد لهـا بأن سياسته مع أسرته عقيدة لا يتحول عنها وان وعدها فى النهاية ــ كما وعد أم مريم من قبل ــ خـيرا ، وظن أن آن للجلسة أن تنفض ولكنه ما يدرى الا وهى تقول :

ــ غياب أمينة هانم مفاجأة غير سارة لى لأنى كنت أريدها لأمر هام جدا ، ولأن الخروج لم يعد بالمهمة اليسيرة على صحتى ،

ولا أدرى الآن ان كأن يحسن بى أن أتكلم فيما اردت الكلام فيه ام انتظر عودتها ! .

فقال السيد مبتسما :

ــ كلنا تحت أمرك ..

ــ وددت لو كانت هى أول من يسمعنى وان كنت لم تترك لها من الأمر شيئا ، ولكن لئن فاتنى هذا فعزائى انى أهيىء لها فرصة سعيدة للعودة ..

فاحتار السيد فى فهم حديثها وحدج اليها متسائلا :

ــ ما وراء هذا ؟

فقالت وهى تنكت السجادة بسن مظلتها :

ــ لا أطيل عليك ، لقد وقع اختيارى على عائشة لتكون زوجا لخليل ابنى ..

ودهش السيد دهش من أخذ على غرة من حيث لم يتوقع فركبه الارتباك ، بل الانزعاج ، لبواعث غير خافية ، أدرك من أول وهلة أن تصميمه القديم على ألا يزوج الصغرى حتى تتزوج الكبرى سيرتطم هذه المرة برغبة عزيزة لا يسعه اهمالها .. رغبة عالنته بها من لا تجهل تصميمه ذاك مما دل على أنها ترفضه سلفا وتأبى أن تنزل عند حكمه ..

ــ مالك صامتا كأنك لم تسمعنى ؟ !.

وابتسم السيد ارتباكا وحياء ، ثم قال على سبيل الملاحظة والمجاملة ريثما يقلب الأمر على وجوهه :

ــ هذا شرف عظيم لنا ..

فرمته السيدة بنظرة كأنما تقول له « ابحث لك عن طريقة أخرى غير معسول الكلام » وقالت بلهجة هجومية :

ــ لا حاجة بى الى الضحك على بأجوف الكلام ، لن أرضى بغير الموافقة التامة : لقد ندبنى خليل لاختيار زوجة له فقلت له عندى عروس هى خير ما يمكن أن تظفر به فسر لاختيارى ولم

يعدل بمصاهرتك شيئا .. فهل جاء زمن تقابل فيه مثل هـذه الرغبة ، منى أنا ، بالصمت والتهرب ؟ ! الله .. الله ..

الام يقع فى هذه المشكلة المعقـدة التى لا يمكن أن يخرج منها دون أن يصيب احدى ابنتيه بصدمة قاسية ؟ !.. ونظر اليها كما يستجدى عطفها على موقفه ، وغمغم :

ــ ليس الأمر كما تتصورين ، رغبتك فوق العين والراس ، ولكن ...

ــ آه من لـكن !.. لا تقـل أنك قررت ألا تزوج الصـغرى حتى تتزوج الكبرى ، من أنت حتى تقرر هذا أو ذاك ؟ .. دع ما لله لله وهو ارحم الراحمين ، ان شـئت ضربت لك عشرات الأمثال عن أخوات صغار تزوجن قبل الكبار فلم يحل زواجهن دون زواج اخواتهن بأحسن الأزواج ، وخديجة شابة ممتازة ولن تعدم زوجا صالحا عند ما يشاء الله .. الام تقف حائلا بين عائشة وبين حظها ؟.. أليست هى الأخرى جديرة بعطفك ورحمتك ؟ !

قال لنفسـه : اذا كانت خديجـة شـابة ممتـازة فلمـاذا لا تختارينها ؟ ! .. وهم باحراجها كما أحرجته ولكنه خاف أن ترميه باجابة تتضمن اساءة ــ ولو بحسن نية ــ لخديجة وبالتالى له هو ، وقال بصوت ملؤه الجد والاهتمام :

ــ ليس الا أننى أشفق على خديجة .

فقالت بحدة كأنما هى المطالبة لا هو :

ــ كل يوم تقع أمور كهذه دون أن تربك أحدا ، ان الله يكره من عبده العناد والمكابرة ، أقبل رجائى وتوكل على الله ، لا ترفض يدى فانى ما مددتها الى أحد قبلك ..

فدارى السيد انفعاله بابتسامة وقال :

ــ هذا شرف عظيم كما قلت لك منذ لحظة .. فقط أمهلينى قليلا ريثما أراجع نفسى وأرتب أمورى ، وستجدين رأيى عند حسن ظنك ان شاء الله ..

فقالت بلهجة من يجهز على الحديث :

ــ لا يجوز أن آخذ من وقتك أكثر مما أخذت ، ثم انه كلما طال الأخذ والرد خيل الى أنك لا تتقبل رغبتى بقبول حسن ، ومثلى من تطمع اذا قالت لك أريد أن تبادرها بنعم دون لت وعجن ، فلن أزيد عما قلت الا كلمة واحدة : خليل ابنى وابنك وعائشة بنتك وبنتى ..

وقامت فقام السيد ليودعها ، لم يكن يتوقع الا كلمة توديع وتحية ، ولكنها أبت الا أن تذكره بوصاياها جملة . وكأنما خافت أن يفوته شىء منها فأعادتها تفصيلا ، وما يدرى ــ أو ما تدرى ــ الا وهى ترجع لتأييد بعض آرائها وتوكيد البعض الآخر ، ثم غلبها تداعى الأفكار فاسترسلت فيه بلا ممانعة حتى أعادت على مسمعه جل ما قالت عن الخطبة ، والى هذا كله لم تشأ أن تنهى ذاك الحديث دون أن تودع حديث الأم المبعدة بكلمة أو كلمتين أو ثلاث واذا بتداعى الأفكار يغلبها مرة أخرى فتسترسل فيه حتى كاد الرجل يفقد أعصابه ، ثم أوشك على أن يضحك فى النهاية وهى تقول له : «لايجوز أن آخذ من وقتك أكثر مما أخذت » وأوصلها الى الباب مشفقا فى كل خطوة من أن تتوقف عن السير وتشتبك فى الكلام كرة أخرى ، ثم عاد أخيرا الى مجلسه وهو يتنفس من الأعماق ، عاد مغتما مكتئبا ، قلب رقيق ، أرق مما يظن الكثيرون ، بل أرق مما ينبغى ، فكيف يصدق هذا من لا يرونه الا مكشرا أو صاخبا أو ضاحكا ساخرا !... أن مسة حزن تلذع فلذة من كبده خليقة بأن تنغص العيش كله وتطين وجه الحياة فى عينيه ، ولكم يسعده أن يجود بكل غال فى سبيل أسعاد فتاتيه سواء هذه التى يرى فى وجهها الجميل وجه أمه أو تلك التى لم تصب من الحسن الا لونا شاحبا ، كلتاهما من نبض قلبه وعصارة روحه ، بيد أن الزوج الذى تقدمه حرم المرحوم شوكت لقية بكل ما فى هذه الكلمة من معنى ، فتى فى الخامسة والعشرين ، ذو دخل

شهرى لا يقل عن الثلاثين جنيها ، حقـا أنه ككثير من الأعيـان لا عمل له ، وحقا أن حظه من التعليم ضـئيل لا يتعدى معرفة القراءة والكتابة ، ولكنه يتصف بجملة من خلال أبيه فى الطيبة وكرم الأخلاق ، ما عسى أن يفعل ؟.. يجب أن يحسم أمره لأنه لم يألف التردد ولا الشورى ولا يقبل أن يبدو أمام أهله ــ ولو لحظة قصيرة ــ كمن لارأى قاطعا له ، الا يشاور خاصته المقربين ؟. انه لا يرى غضاضة فى مشـاورتهم كلما جـد أمر ، والواقع أن سمرهم يبدأ عادة بمناقشة الهموم والمشـاكل قبل أن تطير بهم الخمر الى الدنيا التى لا تعترف بالهموم والمشـاكل ، ولكنه على قدر ما يسـتبد فى باطنه برأيه فلا يحيـد عنه ، فهو من الذين يلتمسون فى الشورى ما يؤيد رأيهم لا ما يعدل بهم عنه ، ولكنها حتى فى هـذه الحال عزاء ومتنفس ، ولمـا ضاق الرجل بأفكاره هتف قائلا :

ــ من يصدق أن ما بى من هم لا يحتمل ما هو الا نتيجة لخير أكرمنى به الله ؟ !.

ــ ٣٧ ــ

لم يكن لأمينة من عمـل فى ايام منفاها الا الجلوس الى جانب امها والاسترسال فى الحديث ، كل مايخطر على البال من أحاديث تجاذبها الماضى البعيد والماضى القريب والحاضر ، ما بين الذكريات العزيزة والمأساة الراهنة ولولا عذاب الفراق وشبح الطلاق لاطمأنت الى حياتها الجديدة كعطلة للاستجمام من عناء الواجبات أو كرحلة خيالية ، فى عالم الذكريات ، بيد أن مرور الأيام دون وقوع الشيء الذى تخاف وما بلغها من شفاعة أم مريم وحرم المرحوم شوكت

لدى السيد ، كل أولئك ثبت قلبهــا وروح عن نفسها ، الى أن زيارات الأبناء المســائية التى لم تنقطع يوما واحدا طلت جوى صدرها بنفحات أمل متجدد ، ومن أن الزمن الذى يتغيبونه عنها فى البيت الجديد لم يزد كثيرا عن نظيره فى البيت القديم ـ فى كلتا الحالتين لم تكن تجتمع بهم الا حين فراغهم فى جلســة المساء ـ الا أنها باتت تشتاق اليهم اشتياق المغترب فى بلد بعيد الى أحباب فرق الدهر بينه وبينهم ، اشــتياق من حرم عليه تنفس جوهم والعيش بين ذكرياتهم ، والاشراف على مواطن جدهم ولهوهم ، كأن الجسم كلما قطع فى طريق الفراق قيراطا كابده القلب أميالا ، ودأبت العجوز على أن تقول لها كلما وجدت منها صمتا أو آنست فى حديثها الشرود :

ـ الصبر يا أمينة ، أنى أرثى لحالك . الأم غريبة ما ابتعدت عن أبنائها ، غريبة ولو حلت البيت الذى ولدت فيه ..

أجل أنها غريبــة ، كأنه ليس البيت الذى لم تعرف حياتها الأولى سواه موطنا ، وكأنها ليست الأم التى لم تكن تطيق البعد عنها لحظة واحــدة ، لم يعد «بيتها» ، ما هو الا منفى تنتظر بين جدرانه على لهف العفو من السماء . وجاء العفو بعد طول انتظار ، حمله الأبناء ذات مساء . دخلوا عليها وفى أعينهم لمعة كسنا البرق خفق لها فؤادها خفقة اهتز لها الصدر كله حتى أشفقت من أن تكون قد ذهبت فى تأويلها الى أبعد مما تحتمل ، ولكن كمال جرى نحوها وتعلق بعنقها ثم هتف بها وهو لا يتمالك نفسه من الفرح :

ـ البسى ملاءتك وهيا بنا ..

وقهقه ياسين قائلا :

ـ جاء الفرج (ثم هو وفهمى معا) دعانا أبى وقال لنا اذهبا فعودا بأمكما ...

وغضت بصرها لتدارى فرحتها الغامرة . ما أعجزها عن كتمان مايضطرب فى نفسها من شتى العواطف ، كأن وجهها مرآة شديدة

الحساسية لا تترك كبيرة ولا صغيرة مما فى أعماقها الا سجلته . لشد ما ودت أن تتلقى النبأ السعيد بهدوء خليق بأمومتها ، ولكن الفرح استخفها فضحكت أساريرها ونطقت بابتهاج صبيانى ، وفى نفس الوقت تولاها حياء لم تدر له سببا . وطال جمودها فى مكانها فنفد صبر كمال فشدها من يدها راميا بثقله الى الوراء حتى طاوعته ناهضة ، ووقفت قليلا فى ارتباك غريب وما تدرى الا وهى تلتفت الى أمها متسائلة :

ـ أذهب يا أمى ؟

بدا السؤال الذى ند عنها فى نغمة الارتباك والحياء ـ غريبا ، فابتسم فهمى وياسين ، ودهش كمال وحده فيما يشبه الانزعاج وراح يؤكد لها نبأ العفو الذى جاءوا به ، أما الجدة فقد شعرت شعورها كله وحدست باطنها فرق قلبها وتحاشت أن تظهر الانكار لسؤالها ولو بابتسامة خفيفة ، وقالت بلهجة جدية :

ـ الى بيتك مصحوبة بسلامة الله . .

فذهبت أمينة لترتدى ملاءتها وتصر ثيابها وكمال فى أعقابها ، وهنا خاطبت الجدة الشابين متسائلة بلهجة انتقادية خففتها بابتسامة رقيقة :

ـ أما كان الأخلق بأبيكما أن يأتى بنفسه . . . ؟ !

فأجابها فهمى كالمعتذر قائلا :

ـ أنت أدرى يا جدتى بطبع أبينا . . .

على حين قال ياسين ضاحكا :

ـ فلنحمد الله على ما كان . . !

فهمهمت الجدة بأصوات غير مفهومة ثم تنهدت قائلة كأنما ترد على همهمتها :

ـ على أى حال السيد أحمد رجل ولا كل الرجال .

وغادروا البيت ودعاء الجدة لهم بالبركة يتردد فى آذانهم ، وقطعوا الطريق معا لأول مرة فى حياتهم حتى بدا المنظر فى أعينهم

بالغا فى غرابته فتبادل فهمى وياسين نظرات باسمة . وتذكر كمال يوم سار ـ كما يسير الآن ـ ممسكا بيد أمه يقودها من عطفة الى عطفة ، ثم ماتلى ذلك من آلام ومخاوف لا يحيط بها الكابوس نفسه فتعجب طويلا ، بيد أنه تناسى سريعا أحزان الماضى فى فرحة الساعة ، ووجد من نفسه ميلا للدعابة فقال لأمه ضاحكا :

ـ تعالى نخطف أرجلنا الى سيدنا الحسين . .!

فضحك ياسين قائلا بلهجة ذات معنى :

ـ رضى الله عنه ، انه شهيد يحب الشهداء .

ولاحت لهم المشربية وشبحان يتحركان وراء خصاصها فهفا قلب الأم اليهما فى حنو واشتياق ، ثم وجدت وراء الباب أم حنفى فى استقبالها فغمرت يدى سيدتها بالقبل ، والتقت فى فناء الدار بخديجة وعائشة اللتين تعلقتا بها كالأطفال ، ورقوا السلم فى مظاهرة صاخبة ، ونشوة من الفرح مطربة حتى استقروا جميعا فى حجراتها فتبادروا الى نزع ملابسها ـ رمز الفراق البغيض ـ وهم يضجون بالضحك ، فلما جلست بينهم كانت تلهث من الانفعال والتأثر . وأراد كمال أن يعبر عن فرحه بها فلم يجد خيرا من أن يقول لها :

ـ هذا اليوم أعز عندى من يوم المحمل نفسه . !

واجتمع شمل الأسرة لأول مرة منذ زمن غير يسير فى مجلس القهوة فعاودوا السمر فى جو من المسرة ضاعف من بهجته ماسبقه من أيام فراق وكآبة كما تزداد لذة اليوم الدفىء يجىء فى أعقاب أسبوع من الزمهرير ، ولم تنس الأم ـ التى استيقظت غرائزها رغم فرحة اللقيا ـ أن تسأل الفتاتين عن شئون البيت متدرجة من حجرة الفرن حتى الليلاب والياسمين ، كما سألت كثيرا عن الأب ، وكم سرها أن تعلم أنه لم يسمح لأحد بمعاونته عند خلع ملابسه أو عند ارتدائها ، فمهما يكن من أمر الراحة التى تهيأت له فى غيابها فثمة تغيير قد طرأ على نظام حياته حمله بلا ريب عناء سيزول بعودتها ، عودتها التى تكفل له ـ وحدها ـ الحياة التى يألفها ويرتاح

اليها .. ! الشيء الوحيد الذى لم يخطر لأمينة على بال أن تكون بعض القلوب السعيدة بعودتها قد وجدت فى هذه العودة بالذات مبررا لاجترار الحزن والأسى ! .. ولكن هكذا كان ، فهذه القلوب التى شغلت بحزن الأم عن أحزانها عادت الى التفكير فى أشجانها بعد أن اطمأنت على سلامة الأم كالمغص الشديد الطارىء ننسى به رمدا مزمنا حتى اذا ذهب عادتنا آلام الجفون ، عاد فهمى يقول لنفسه « لكل حزن — فيما يبدو — نهاية ، هذه أمى قد رفع عنها الهم ، ولكن حزنى يبدو كأن لا نهاية له » ، ورجعت عائشة الى أفكارها التى لا يطلع على سرها أحد ، تتراءى لها الأحلام وتلم بها الذكريات وان عدت بالقياس الى أخيها أهدأ حالا وأسرع الى النسيان خطوة ، ولكن أمينة لم تكن تقرأ الأفكار فلم ينغص عليها صفوها منغص ، ولما آوت الى حجرتها ليلا تبين لها أن النوم لايجد متسعا فى نفسها التى أفعمها الفرح فلم تذقه الا لماما حتى انتصف الليل فغادرت الفراش الى المشربية تنتظر كعهدها مسرحة البصر من خصاص النوافذ الى الطريق الساهر حتى جاءت العربة تتهادى حاملة بعلها الى بيته . خفق قلبها بشدة ، وتورد وجهها حياء وارتباكا ، كأنها ستلقاه لأول مرة ، وكأنها لم تفكر طويلا فى هذه اللحظة ... لحظة اللقاء المنتظر ، كيف تقابله ؟ .. كيف يعاملها بعد هذه الغيبة الطويلة ؟ .. ما عسى أن تقول له أو يقول لها ؟ . لو يسعها أن تتصنع النوم ! . ولكنها لا تجيد التمثيل قط ولا تطيق أن يدخل عليها وهى مستلقية ، بل لايسعها أن تهمل واجب الخروج الى السلم بالمصباح لتضيء له ، وأكثر من هذا كله أنها بعد ظفرها بالعودة وزوال السخط عنها — شاعت أريحية الرضا فى قلبها فعفت عما سلف بل وحملت نفسها الذنب كله حتى رأت بعلها — بالرغم من أنه لم يعن بالذهاب الى بيت أمها لمصالحتها — حقيقا بالاسترضاء ، فتناولت المصباح ومضت الى السلم ومدت ذراعها من فوق الدرابزين ووقفت تتابع وقع القدمين المقتربتين

بفؤاد خافق حتى صعد اليها ، لقيته برأس مطأطأ فلم تر وجهه عند اللقاء ، ولم تدر أى تغير طرأ عليه حين مرآها ، حتى سمعته يقول لها بلهجة طبيعية لا أثر فيها من الماضى القريب الأسيف :

ـ مساء الخير ...

فغمغمت :

ـ مساء الخير يا سيدى ...

وذهب الى الحجرة وهى فى أثره رافعة يدها بالمصباح . وبدأ يخلع ملابسه صامتا فتقدمت منه لمعاونته وباشرت عملها وقلبها يردد أنفاس الراحة . ومع أنها ذكرت صباح القطيعة المشئوم حين نهض لارتداء ملابسه وقال لها بجفاء « سأرتدى ملابسى بنفسى » الا أن ذكراه خطرت عارية عن أحاسيس الألم واليأس التى غشيتها وقتذاك ، وشعرت وهى تتعهده بهذه الخدمة التى لم يسمح بها لسواها بأنها تسترد أعز ما تملك فى الوجود . واتخذ مجلسه على الكنبة فتربعت على الشلتة عند قدميه دون أن ينبس أحدهما بكلمة ، وكانت تتوقع أن يشيع «الماضى الأسيف» بكلمة ، نصيحة أو تحذير أو ماشابه ذلك ، وعملت لذلك ألف حساب ، ولكنه سألها ببساطة :

ـ كيف حال أمك ؟

فأجابته وهى تتنهد بارتياح :

ـ بخير يا سيدى وتهديك التحية والدعاء .

ومضت فترة صمت أخرى قبل أن يقول فيما يشبه عدم الاكتراث :

ـ حرم المرحوم شوكت فاتحتنى برغبتها فى اختيار عائشة زوجا لخليل ...

فرفعت اليه أمينة عينيها فى دهشة ناطقة بأثر المفاجأة ، ولكنه هز كتفيه استهانة ، وكأنما خاف أن تدلى برأى يتفق أن يكون موافقا لقراره الذى لم يعلم به أحد فتقوم عندها شبهة ظن بأنه أخذ برأيها فسبق قائلا :

ــ فكرت فى الأمر طويلا فانتهى بى التفكير الى الموافقة ، لا أريد أن أعترض حظ البنت أكثر مما فعلت ، ولله الأمر من قبل ومن بعد ...

- ٣٨ -

تلقت عائشة البشرى بفرح جدير بفتاة تستشرف حلم الزواج منذ الصبا الباكر لا يشغلها عنه شاغل . وكادت لا تصدق أذنيها حتى زف اليها الخبر ، هل حقا وافق أبوها ؟ هل بات الزواج حقيقة قريبة لا حلما ذا دعابات قاسية ؟. لم يكن قد فات على الخيبة التى منيت بها الا قرابة أشهر ثلاثة ، ومع أن وقعها فى نفسها كان شديدا قاسيا الا أنه مضى يخف ويهون مع الأيام حتى أمسى ذكرى شاحبة تستثير ــ اذا استثيرت ــ حزنا رقيقا غير ذى خطورة ، كل شىء فى هذا البيت يخضع خضوعا أعمى لارادة عليا ذات سيطرة لا حد لها هى بالسيطرة الدينية أشبه ، حتى الحب نفسه ــ بين جدرانه ــ يسترق خطاه الى القلوب فى حياء وتردد وعدم ثقة بالنفس ، فلا يتمتع بما يتمتع به عادة من سطوة واستبداد ، اذ لا استبداد هنا الا لتلك الارادة العليا ، ولذلك فعند ما قال الأب « لا » استقر قوله فى أعماق نفسها وآمنت الفتاة ايمانا راسخا ان كل شىء قد انتهى حقا ، لا مهرب ولا مراجعة ولا رجاء بنافع ، كأن « لا » هذه حركة كونية كاختلاف الليل والنهار ، غير مجد أى اعتراض عليها ، ولا محيد عن اتخاذ موقف موافق لها ، وعمل هذا الايمان من ناحيته ــ بشعور وبغير شعور منها ــ على انهاء كل شىء فانتهى . على أنها تساءلت فيما بينها وبين نفسها : اذا كانت الموافقة على زواجها قد تمت ولما ينقض على الرفض السابق ثلاثة

أشهر فلم تكن من نصيب الشاب الذى هفا الفؤاد اليه ؟.. الا ينطوى حظها السعيد نفسه ـ تبعا لذلك ـ على معاكسة غير مفهومة ؟ بيد أنه تساؤل ظل فى طى الكتمان ، لم يطلع عليه أحد ولا أمها نفسها ، لأن اعلان الفرح بالعريس ـ كشخصية معنوية فحسب ـ عد استهتارا يجافى الحياء ، فما بالك باظهار الرغبة فى رجل بالذات !.. ولكن بالرغم من هذا كله ، وبالرغم من أن العريس الجديد كان مجهولا لديها الا فيما حدثت عنه أمه فى جملة حديثها عن أسرتها فقد سعدت بالبشرى أيما سعادة ، ووجدت عواطفها الظامئة قطبا تنجذب اليه فى هيمانها ، كأن حبها نوع من «القابلية» أكثر منه تعلقا برجل بالذات ، فاذا استبعد رجل وحل محله آخر ظفرت قابليتها بما يشبعها ، ومضى كل شىء فى سبيله ، وقد يكون رجل آثر عندها من آخر ولكن ليس الى الحد الذى يفسد معه طعم الحياة أو يدفع الى التمرد والعصيان ، ولما طابت نفسا ورف قلبها رفيف الغبطة انبعث منها نحو أختها ـ كشأنها فى مثل هذه الحال ـ عطف ورحمة غير مشوبين ، فودت لو أنها سبقتها الى الزواج ، وقالت لها بين الاعتذار والتشجيع :

ـ وددت لو تقدمتنى الى بيت الزوجية !.. ولكنها القسمة والنصيب ، وكل آت قريب ..

ولكن خديجة ـ التى تضيق عند الهزيمة بعزاء العطف ـ تلقت قولها بامتعاض شديد لم يخف عليها . وقبل ذلك اعتذرت لها أمها قائلة برقتها وحيائها المعهودين :

ـ تمنينا جميعا أن يكون دورك السابق ، وعملنا على هذا أكثر من مرة ، ولكن لعل عنادنا فيما ليس لنا فيه من حيلة هو الذى عاق حظك الى اليوم ، فلندع الأمور تسير كما يشاء الله ، وكل تأخيرة فيها خيرة ..

ووجدت من ياسين وفهمى نفس العطف يبديانه تارة بالكلام المباشر ، ويصدران عنه تارة أخرى فيما يحيطانها به من مجاملة

حلت ـ ولو الى حين ـ محل المزاح القارص الذى كان مألوفا بينها وبينهما أو بينها وبين ياسين خاصة ، والحق أنه لم يعدل حزنها على سوء خظها الا نرفزتها من العطف الشائع فى جوها ، لا لنفور من العطف مركب فى طبعها ، ولكن لأن مثلها مثل المصاب بالانفلونزا يضار بالتعرض للهواء الطلق الذى ينعشه عادة وهو صحيح ، فما كانت تأبه لعطف تعلم أنه بديل غير مجد لأمل ضائع ، ولعلها ارتابت ـ الى هذا كله ـ فى البواعث التى تدفعهم الى اغداق العطف عليها، ألم تكن أمها الوساطة دائما بين الخاطبات وبين أبيها ؟ فمن يدريها أنها كانت تقوم بالوساطة أداء لواجب ربة البيت لا سعيا وراء رغبة خفية فى تزويج عائشة ؟ ! أو ليس فهمى هو الذى حمل رسالة ضابط قسم الجمالية ؟.. ألم يكن بوسعه أن يعدل به عن رأيه من وراء وراء ؟ !..

أو ليس ياسين .. ولكن بأى وجه تلوم ياسين وقد خانها من هو أقرب منه اليها ؟.. فأى عطف هذا ؟ ! بل أى رياء وأى كذب ! لذلك برمت بالعطف ، وذكرت به الاساءة لا الاحسان ، فامتلأت حنقا وامتعاضا ولكنها طوتهما فى الأعماق أن تظهر بمظهر الكاره لسعادة أختها أو تعرض نفسها ـ هكذا صور لها سوء ظنها ـ لشماتة الشامتين ، على أنه لم يكن لها محيد عن كتمان عواطفها لأن الكتمان فى هذه الأسرة ـ خاصة فيما يتعلق بالعواطف ـ عادة متأصلة وضرورة أخلاقية طبعت عليه فى ظل الارهاب الأبوى ، وبين الحنق والامتعاض من ناحية والكتمان والتظاهر بالرضى من ناحية أخرى لاقت من حياتها عـذابا متصلا وجهـدا مطردا . وأبوها ؟!.. ماذا عدل به عن رأيه القديم ؟!.. أهانت عليه بعد اعزاز ؟! .. هل نفد صبره فى انتظار زواجها فقرر التضحية بها وتركها للأقدار ؟! لشد ماتعجب لتخليهم عنها كأنها شىء لايكون ؛ نسيت فى ثورتها مواقفهم السابقة فى الدفاع عنها فلم تذكر الا « خيانتهم » الأخيرة ، على أن غضبتها العامة هذه لم تكن شيئا

بالقياس الى ما تجمع فى صدرها نحو عائشة من مشاعر الغيرة والحنق ! كرهت سعادتها ، وكرهت أكثر مداراتها لهذه السعادة ، وكرهت جمالها الذى بدا فى عينيها أداة تنكيل وتعذيب كما يبدو البدر الساطع فى عين المطارد ، ثم كرهت الحياة التى لم تعد تدخر لها الا اليأس ، وتتابعت الأيام لتزيدها حزنا على حزن بما حملت الى البيت من هدايا العريس ونفحاته وبما نشرت فى الجو كله من بواعث الغبطة والفرح فوجدت نفسها فى غربة موحشة تتوالد فيها الأشجان كما تتوالد الحشرات فى البركة الآسنة ، ثم شرع السيد فى تجهيز العروس فاستأثر حديث الجهاز بجلسات الأسرة المسائية، تعرض عليها أنواع من الأثاث والثياب فتطرى شيئا وتعرض عن شىء ، أو توازن بين لون ولون ، فى اهتمام نسـوا فيه الشقيقة الكبرى وما يجب لها من عزاء ومجاملة ، وحتى هى نفسها اضطرت مجاراة لما تتظاهر به من رضى الى المشاركة فى نشاطهم وحماسهم ومناقشاتهم التى لا تنتهى . بيد أن هذا الموقف العاطفى المعقد ، الذى يبدو لعين الغريب عن الأسرة كنذير شر لا تحمد عواقبه ، تغير فجأة حين اتجه التفكير الى تفصيل ثياب العروس ، وبالتالى حين تعلقت الأبصار بخديجة وتركز فيها الاهتمام كله والأمل كله . وقد توقعت هذا الواجب كأمر لا مفر منه ، يحنقها قبوله أشد الحنق ولا يسعها رفضه والا فضحت خبيئتها ، ولكنها ، حين تطلعت اليها الأبصار فأوصتها أمها بأختها خيرا ورنت اليها شقيقتها بعين ملؤها الحياء والرجاء وقال فهمى لعائشة على مسمع منها : « لن تكونى عروسا حقا حتى تحيك لك خديجة ثياب العرس. » ، وقال ياسين معلقا على قوله : « صدقت .. هذه الحقيقة فوق الجدل » ، حين حدث هذا كله فتر حنقها وعقل ثورتها الحياء فطفت عواطفها الطيبة المطمورة ، كما يستخرج الماء العذب الأخضر من البذور الكامنة تحت الطين ، ولم ترتب فى بواعث هذا الاهتمام كما ارتابت من قبل فى بواعث العطف «الزائف» لشعورها بصدقه

من ناحيــة ولأنه اتجه الى براعتها التى لاشــك فيها من ناحية أخرى . فكأنه اعتراف جامع بأهميتها وخطورة شأنها ، وبأن هذه السعادة ــ التى أبت أن تكون من نصيبها ــ لن تستكمل عناصرها حتى تسهم هى فيها ، فاستقبلت العمل الجديد بنفس تخففت الى أقصى حد ممكن من انفعالاتها السوداء ، أن الانفعالات السوداء تلم بأنفس هذه الأسرة كما تلم بغالبية البشر ولكنها لا تظفر منها بقلب أسود فترسب فيه وتستقر ، منهم من قابليته للغضب كقابلية الكحول للاشتعال ، ولكن سرعان ما يسكت عنهم الغضب فتصفو نفوسهم وتعفو قلوبهم كأيام من شتاء مصر يطلخم سحابها حتى تمطر رذاذا وما هى الا ســاعة أو بعض ساعة حتى تنقشع السحب عن زرقة صافية وشمس ضاحكة ، لايعنى هذا أن خديجة نسيت أحزانها ولكن السماحة صفتها من الضغينة والحقد ، ويوما فيوما لم تعد تعتب على عائشة ولا على أحد من أهلها بقدر ماعتبت على بختها حتى نصبته فى النهاية هدفا لامتعاضها وتذمرها ، ذلك البخت الذى قتر عليها فى الحسن وأجــل زواجها حتى جاوزت العشرين وكدر غدها بالقلق والمخاوف ، واستسلمت أخيرا ــ كأمها ــ للمقادير . عجز جانبها الحامى الموروث عن أبيهــا ، كما عجز جانبها المعقد المكتسب من موقفها حيال بيئتها ، عن معالجة حظها العاثر ، فوجدت السلامة فى أن تلوذ بالجانب السلمى الموروث عن أمها فاستسلمت للمقادير . كالقائد الذى تعييه الحيل عن بلوغ الهدف فيختار موقعا ذا حصانة طبيعية ليثبت فيه فلوله ، أو يدعو الى الصلح والسلام ، وراحت تشكو بثها فى الصلاة ومناجاة الرحمن ، والحق أنها كانت ــ منذ صباها ــ تجارى أمها فى تدينها ومحافظتها على الفرائض بمثابرة دلت على يقظة عاطفتها الدينية ، لا كعائشة التى تلم بالعبادة فى نوبات حماسية متباعدة ولا تطيق المداومة عليها ، وطالما تعجبت خديجة ــ وهى بمعرض المقارنة بين حظها وبين حظ أختها ــ من سوء الجزاء الذى تثاب به على اخلاصها ،

وحسن الجزاء الذى تثاب به الأخرى على تهاونها .. « بى أحافظ على الصلاة أما هى فلم تطق المحافظة عليها يومين متتاليين ، وانى أصوم رمضان كله وأما هى فتصــوم يوما أو يومين ثم تتظاهر بالصوم على حين تنسل خفية الى المخزن فتملأ بطنها بالنقل حتى اذا أطلق مدفع الافطار هرعت الى المــائدة قبل الصائمين ! » .
وحتى من ناحية الجمال لم تسلم لعائشة بدون قيد ولا شرط ، نعم انها لم تجهر برأيها لأحد ، بل لعلها تؤثر كثيرا أن تهاجم نفسها بنفسها لتقطع الطريق على المتحفزين ولكنها كانت تطيل النظر الى وجهها فى المــرآة وتناجى نفسها قائلة « عائشة جميلة بلا شك ولكنها نحيلة ، السمانة نصف الجمال ، أنا سمينة ، واكتناز وجهى يكاد يغطى على كبر أنفى ، لم يبق الا أن يشد بختى حيله .. » على أنها فقدت ثقتها بنفسها فى الأزمة الأخيرة ، ومع أنها عاودت كثيرا تلك المناجاة عن الجمال والسمانة والبخت الا أنها عاودتها هذه المرة لتذرى — أمام نفسها — احساسها المقلق بعدم الثقة كما نلجأ أحيانا الى المنطق لنستمد منه الطمأنينــة على أمور — كالصحة والمرض والسعادة والشقاء والحب والكراهية — لا تمت الى المنطق بسبب ..
ولم تنس أمينة — رغم كثرة مشاغلها كأم العروس — خديجة ، أو أن فرحها للعروس كان يذكرها بحزنها على أختها كما تذكرنا الراحة التى نحظى بها بفعل مخدر بالألم الذى سيعاودنا بعد حين ، وكأن زواج عائشة قد أثار مخاوفها القديمة عن خديجة فأرسلت — التماسا للطمأنينة من أى سبيل — أم حنفى الى الشيخ رءوف بالباب الأخضر حاملة منديل خديجة ليقرأ طالعها ، وعادت المرأة بنوع من البشرى فقالت لسيدتها ان الشيخ قال لها « ستحملين الى رطلين من السكر عما قريب » ومع أنها لم تكن أول بشرى من هذا النوع تزف اليها عن خديجة الا أنها أملتها خيرا ورحبت بها كمسكن للقلق الذى لا يزايلها .

« ألم يئن الأوان يا بنت المركوب ؟ ! ذبت يا مسلمين ، ذبت كالصابونة ولم يبق منها الا رغوة ، هى تعلم بهذا ولا تريد أن تفتح النافذة ، تدللى ... تدللى يابنت المركوب ، ألم نتفق على هذا الميعاد ؟ ولكن لك حق .. فردة ثدى من صدرك تكفى لخراب مالطة .. وفردة الية تطير مخ هندنبرج ، عندك كنز ، ربنا يلطف بى ، ربنا يلطف بى وبكل مسكين مثلى يؤرقه الثدى الناهد والعجيزة المدملجة والعين المكحولة ، العين المكحولة فى الآخر ، اذ رب ضريرة ريا الروادف كاعب الثديين خير ألف مرة من عجفاء مسحاء مكحولة العينين ، يابنت العالمة وجارة التربيعة .. تلك لقنتك أصول الدلال وهذه تمدك بأسرار الجمال ، لهذا ينهد ثدياك من كثرة من عبث بهما من العشاق ، اتفقنا على الميعاد لست أحلم ، افتحى النافذة ، افتحى يا بنت المركوب ، أفتحى يا أجمل من اقشعرت لها سرتى ، ومص الشفة ورضع الحلمة لانتظرن حتى مطلع الفجر ، ستجديننى طوع بنانك ، أن أردت أن أكون مؤخر عربة الكارو الذى تتأرجحين عليه أكنه ، أن أردت أن أكون الحمار الذى يجر العربة أكنه ، يا واقعتك يا ياسين ، يا خراب بيتك يا بن عبد الجواد ، يا شماتة الاستراليين فيك يا أنا يا طربا، الأزبكية وحبيس الجمالية ، الحرب يا هوه ، شنها غليوم فى أوروبا ورحت ضحيتها أنا فى النحاسين ، أفتحى النافذة يا روح أمك ، افتحى يا روحى أنا .. » هكذا جعل ياسين يحادث نفسه وهو جالس على الأريكة بقهوة سى على ، وعيناه تتطلعان الى بيت زبيدة العالمة خلل الكوة المطلة على الغورية ، كلما شكه الجزع غرق فى

أحلامه وخواطره فترفه جـزعه وتهيج أشـواقه معـا ، كبعض المنومات الطبية التى تعالج الأرق وتتعب القلب ، كان قد تقدم خطوة موفقة فى مغازلة زنوبة العوادة مغازلة خرج بها من دور التحضير ـ ملازمة قهوة سى على مساء والنظر والسـير وراء عربة الكارو والابتسام وفتل الشارب وتلعيب الحاجب ـ الى دور المفاوضة والتأهب للعمل ، حدث ذلك فى عطفـة التربيعة الطويلة الضيقة المسقوفة بالخيش الملتوية ذات الدكاكين الصـغيرة المتلاصقة على الجانبين كخلايا النحـل . ولم تكن التربيعة بالجـديدة عليه ، كيف وهى سوق النسوان من جميع الطبقات يتقاطرن عليها لابتياع ما خف حمله وجلت فوائده من مختلف صـنوف العطارة ذوات البهجة والجمال والنفع ، فهى هدفه كلما خلا طريقه من هدف يجذبه اليه ، وهى مراحه صباح الجمعة يقطعها متمهلا ـ بحكم الزحمة والرغبة معا ـ من طرف الى طرف كأنما يستعرض الدكاكين لانتقاء حاجة وهو فى الحقيقة يتصفح الوجوه والأجسام ما تنحسر عنه البراقع وما تضيق به الملاءات ، ما يرى جملة وما يرى تفصيلا ، ما يسطع هنا وهناك من روائح زكية ، ما يند من حين لآخر من أصوات أو يوسوس من ضحكات ، ملتزما عادة حـدود الأدب لغلبة العناصر الطيبة على الزائرات ، قانعا بالمشـاهدة والموازنة والنقد ، لاقطا من المرئيات صورا ممتازة يزين بها متحف ذاكرته ، فلا يفوق سعادته شىء اذا ظفر بلون بشرة صاف لم يره من قبل ، أو بلحظ عين لم يتعرض لمثـله ، أو لثدى عجيب فى نهـوده ، أو لعجيزة خرقت المألوف فى ضخامتها أو حسن تكوينها فيرجع مرة وهو يقول : « فاز بالسبق اليوم نهد الست التى كانت واقفة أمام الدكان الفلانية » أو « هذا يوم الكفل الرابى رقم ٥ » أو « يالها من حقيبة ويالها من حقيبة .. هذا يوم الحقائب المشرفة » اذ تأدى به مزاجه الى التهالك على جسم المرأة متجاهلا شخصيتها ثم الى تركيز العناية فى أجزاء من الجسم متجاهلا جملته ، وكأنه فى هذا

كله ينعش آماله ويجددها أبدا كرجل لا يقدم على النسوان غاية في دنياه ــ عند الفرص المحتملة المدخرة ليوم أو لغد ، الى مايسنح له في هذه الجولات الجنسية من صيد طيب في أحوال نادرة ، ففي ذات أصيل ــ وهو بمجلسه تحت الكوة بقهوة سي على ــ رأى العوادة تغادر البيت بمفردها فنهض من توه وتبعها ، ومالت الى عطفة التربيعة فمال وراءها ، ثم وقفت أمام دكان فوقف الى جانبها ، وانتظرت حتى يفرغ العطار من بعض الزبائن فانتظر ولم تلتفت ناحيته فاستدل بذاك « التجاهل » على أنها فطنت لوجوده ــ كما لابد أن تكون حدست متابعته لها من بادىء الأمر ــ فهمس قريبا من أذنها «مساء الخير» فواصلت النظر الى الأمام الا أنه لمح بجانب فيها انحراف ابتسامة ، ردا لتحيته ، أو مكافأة له على طول متابعته لها مساء بعد مساء ، فتنهد تنهد الراحة والظفر مطمئنا الى جنى ثمرة صبره فسال لعاب شهوته كما يتحلب ريق الجائع النهم اذا تطايرت الى أنفه رائحة الشواء الذى يهيأ له ورأى عن حكمة أن يتظاهر بأنهما جاءا معا فأدى ثمن مشترياتها من الحناء والمفات عن طيب خاطر خليق برجل يؤمن بأنه ــ بأداء هذا الواجب اللذيذ ــ يكتسب حقا ألذ وأمتع ، غير مكترث لما بدا منها من الميل الى الاكثار من المشتريات حين اطمأنت الى أنه سيدفع الثمن . وفي طريق العودة قال لها بعجلة من يخاف وشك انتهاء الطريق « ياست الحسن والجمال قضيت العمر كما تشهدين وراءك ، وجزاء المحب « اللقاء فقط ؟ » فلحظته بنظرة شيطنة متسائلة في تهكم « اللقاء فقط ؟ » فكاد يضحك بروحه وجسمه كحاله اذا أخذته نشوة فرح ولكنه بادر الى احكام اغلاق فيه أن يحدث ضجة تلفت الأنظار وأجابها هامسا « اللقاء ولوازمه ! » فقالت بلهجة انتقادية « الواحد منكم يطلب بكل بساطة « اللقاء » .. كلمة صغيرة .. ولكنه يعني بها عملا ضخما لا ينال عند بعض الناس الا بالسؤال والشفاعة وقراءة الفاتحة والمهر والجهاز

والمـأذون ، أليس كذلك يا حضرة الأفندى ألذى يضاهى الجمل طولا وعرضا ؟ ! » فتورد وجهه فيما يشبه الارتباك وقال « يا له من تأديب مهما يكن من قسوته فانه من شفتيك كالشهد ، أليس هكذا العشق يا ست الحسن مذ خلق الله الأرض ومن عليها ؟ » فقالت وهى ترفع حاجبيهـا حتى حاذيا طرف عـروس البرقع فبدت كيعسوب باسط جناحيه « ومن أدرانى بالعشق ياجملى؟. لست الا عوادة ، ترى هل للعشق لوازم أيضا ؟» فقال وهو يغالب الضحك « هى ولوازم اللقاء شيء واحد» «بلا زيادة ولا نقصان ؟. » «بلا زيادة ولا نقصان» «لا واحدة طالعة ولا واحدة نازلة ؟!. . » «لا واحدة طالعة ولا واحدة نازلة» «لعلها التى يسمونها الزنا ؟!» « بلحمه وعظمه !. » فندت عنها ضـحكة ثم قالت « اتفقنا . . انتظر حيث تنتظر كل مساء بقهوة سى على وعندما أفتح النافذة قم الى البيت » . انتظر مساء ومساء ومساء ، مساء خرجت مع الجوقة على الكارو ، ومساء ذهبت مع العالمة فى حانطور ، ومساء لم يبد على البيت أثر للحياة ، وها هو ينتظر وقد أعيا أعصاب رأسه طول النظر الى الشباك . ومر موهن من الليـل فأغلقت الدكاكين واقفر الطريق وشمل الغورية ظلام ، ووجد ــ كما يقع له كثيرا ــ فى اقفار الطريق واظلامه مثارا غريبا لكمن الشهوة فى جسده فازداد جزعا على جزع . بيد أنه لكل شيء نهاية حتى الانتظار الذى يبدو وكأن لا نهاية له فترامى اليه من ناحية الشباك الغارق فى الظلمة طقطقة نفخت فى حواسه روح أمل جديد كما تنبعث روح الأمل فى نفس التائه فى القطب اذا ترامى الى سمعه أزيز الطيـارة التى يحدس أنهـا جاءت للبحث عنه بين الثلوج ، ولاحت فرجة يشع منها ضـوء ، ثم تنور شبح العوادة وسط الفرجة فقام من فوره وغادر القهوة عابرا الطريق الى بيت العالمة ودفع الباب دون أن يطرقه فانفتح كأن يدا رفعت مزلاجه فمرق الى الداخل ليجـد نفسـه فى ظلمة دامسة لم يهـد معها الى موقع

السلم فلزم موقفه ليأمن الاصطدام أو العثار ووثب الى رأسه سؤال لايخلو من قلق ، ترى أدعته زنوبة على غيرعلم من العالمة ؟. وهل تبيح لها العالمة الاجتماع بعشاقها فى بيتها ؟ ولكنه أبرز لسانه استهانة لأن رادعا لم يكن ليثنيه عن مغامرة ، ولأن ضبط عاشق فى بيت تقوم جدرانه على مهج العاشقين ليس مما تحاذر عواقبه .
وانقطع عن التفكير حين لاح لعينه ضوء شاحب يهبط من أعلى ، ثم لمحه يترنح على الجدران التى وضحت رويدا فتبين موقفه على بعد ذراع من أولى درجات السلم عن يمينه ، وما عتم أن رأى زنوبة قادمة وبيدها مصباح فمضى نحوها فى سكزة من الشوق وضغط فى حنان على ساعدها امتنانا ورغبة حتى ضحكت ضحكة رقيقة أوحت على رقتها بأنها لا تحاذر ، وتساءلت بمكر :
ــ طال انتظارك ؟
فمس سوالفه بأنامله وهو يقول بصوت شاك :
ــ شاب شعرى الله يسامحك (ثم بصوت خافت) الست هنا ؟
فحاكت صوته الخافت على سبيل المزاح وقالت :
ــ نعم .. فى خلوة مع رفيق قد الدنيا ..
ــ ألا تغضب اذا علمت بحضورى فى هذه الساعة ؟
فاستدارت وهى تهز منكبيها استهانة ورقت فى الدرج وهى تقول :
ــ وهل أنسب من هذه الساعة لحضور عاشق مثلك ؟
ــ اذن لا ترى بأسا فى اجتماعنا ببيتها ؟
فحركت رأسها حركة راقصة وقالت :
ــ لعلها ترى كل البأس فى عدم اجتماعنا .. !
ــ عاشت .. عاشت ..
فاستطردت فى لهجة تنم عن الفخر قائلة :
ــ لست عوادة فحسب ، أنا بنت أختها ، وهى لا تضن على بغال .. تقدم بسلام ..

ولما بلغا الدهليز جاءهما من الداخل صوت غناء لطيف يصاحبه عود ودف فانصت ياسين قليلا ثم تساءل :

ــ خلوة أم حفلة ؟

فهمست فى أذنه :

ــ خلوة وحفلة معا ، عشيق السلطانة رجل صاحب طرب ومزاج ، لا يطيق أن يخلو مجلسه ساعة من العود والدف والكأس والضحك .. وعقبى لك ..

ومالت الى باب ففتحته ودخلت وهو وراءها ، ووضعت المصباح على كنصول ثم وقفت أمام المرآة لتلقى نظرة فاحصة على صورتها فتناسى ياسين زبيدة وعشيقها الطروب وسدد عينيه المنهومتين الى الجسم المشتهى الذى بدا لناظريه متجردا عن الملاءة لأول مرة ، سددهما بقوة وتركيز وحركهما فى أناة وتلذذ من فوق لتحت ومن تحت لفوق ، ولكنه قبل أن ينفذ نية من عشرات النوايا التى اعتلجت فى صدره قالت زنوبة كأنما تصل ما انقطع من حديثها :

ــ رجل لا نظير له فى لطفه وطربه ، أما كرمه فحدث عنه من اليوم الى الغد .. هكذا يكون العشاق والا فلا ...

لم يغب عنه مافى اشارتها الى «كرم» عشيق العالمة من معان ، ومع أنه سلم من بادىء الأمر بأن غرامه الجديد سيفرض عليه ضرائب باهظة الا أن تلميحها ــ الذى بدا له مبتذلا ــ ضايقه ، فلم يسعه الا أن يقول مدفوعا بغريزة الدفاع عن النفس :

ــ لعله رجل واسع الثراء !

فقالت وكأنها تجيبه على مناورته :

ــ الثراء شىء والكرم شىء آخر .. رب ثرى بخيل .. !

فتساءل لا عن رغبة فى المعرفة ولكن تفاديا من الصمت الذى خاف أن يفضح استياءه :

ــ ترى من يكون هذا الرجل الكريم ؟

فقالت وهى تدير عجلة المصباح لترفع فتيلته :

ــ انه من حيتا ولابد أنك تسمع عنه .. السيد أحمد عبد الجواد ..

ــ من .. !

فالتفتت نحوه دهشة لترى ما أفزعه فألفته متصلب القامة جاحظ العينين فسألته مستنكرة :

ــ مالك ؟..

كان تلقى الاسم الذى نطقت به كأنه مطرقة هوت بعنف على يافوخه فند عنه التساؤل فى نبرات صارخة من الفزع وهو لا يدرى ، وغاب عما حوله لحظات مليئة بالذهول ، ثم تراءى له وجه زنوبة فى حالة من الدهشة والانكار فخاف افتضاح أمره وركز ارادته كلها فى الدفاع عن موقفه فعمد الى التمثيل يدارى به فزعه فضرب كفا بكف كأنما لا يصدق ما قيل عن الرجل لظنه الوقار به وتمتم مستغربا :

ــ السيد أحمد عبد الجواد !.. صاحب دكان النحاسين ؟

فحدجته بنظرة انتقاد مر لازعاجها بلا سبب وسألته مستهزئة :

ــ نعم هو .. فماذا استصرخك كأنك عذراء تفض بكارتها ؟.

فضحك ضحكة آلية وقال كالداهش وهو يحمد الله فى سره على أنه لم يذكر لها اسمه كاملا يوم التعارف :

ــ من يصدق عن هذا الرجل الوقور الورع ؟ !

فرمته بنظرة ارتياب ثم قالت ساخرة :

ــ أهذا ما أفزعك حقا ؟.. ولا شىء غيره ؟!.. أظننته من المعصومين ؟.. وماذا عليه من هذا ؟.. هل يكمل الرجل الا بالعشق ؟ !

فقال بلهجة المعتذر :

ــ صدقت .. لا شىء يستحق الدهش فى هذه الدنيا (ثم

ضاحكا فى عصبية) تصورى هذا الرجل الوقور وهو يطارح السلطانة الغرام ويشرب الخمر ويطرب للغناء .. !

فقالت وكأنها تكمل حديثه بنفس لهجتها الساخرة :

ـ ويلعب بالدف بيد ولا يد عيوشة الدفافة وينثر النكات كالدرر فيقتل من حوله ضاحكا ، وليس عجبا ـ بعد هذا كله ـ أن يرى فى دكانه مثالا للجد والوقار فالجد جد واللهو لهو ، وساعة لربك وساعة لقلبك ..

يلعب بالدف بيد ولا يد عيوشة الدفافة !.. ينثر النكات فيقتل من حوله ضحكا !.. من عسى أن يكون هذا الرجل ؟ !

أبوه ؟!.. السيد أحمد عبد الجواد ؟ !. الصارم الجبار الرهيب التقى الورع ؟!.. الذى يقتل من حوله رعبا ؟!

كيف يصدق ما سمعت أذناه ؟ !.. كيف ، كيف ؟ ! .. ألا يكون ثمة تشابه فى الأسماء وألا علاقة بين أبيه وبين هذا العاشق الدفاف ؟!. ولكن زنوبة وافقت على أنه صاحب دكان «النحاسين» وليس فى النحاسين من دكان تحمل هذا الاسم الا دكان أبيه !.. رباه هل ما سمعه حقيقة أو أنه يهذى ؟ ! .. لشد ما يود أن يطلع على الحقيقة بنفسه ، أن يرى بعينيه دون وسيط ، رغبة تملكته لحظتئذ فبدا تحقيقها كأخطر شىء فى الحياة ولم يستطع لها مقاومة فابتسم الى الفتاة وهو يهز رأسه هزة حكيم كأنما يقول « يا لها من أيام كلها عجائب » ثم سألها بلهجة من يدفعه حب الاستطلاع وحده :

ـ ألا أستطيع أن أراه من حيث لا يرانى ؟

فقالت معترضة :

ـ أمرك عجيب ، وما الداعى الى هذا التجسس !

فقال برجاء :

ـ منظر يستحق المشاهدة فلا حرمتنى منه !..

فضحكت باستهانة وقالت :

ـ عقل طفل فى جسم جمل ، أليس كذلك يا جملى ؟ ..
ولكن لا عاش من خيب لك رجاء .. أنزو فى الدهليز وسأدخل عليهما بطبق من الفاكهة تاركة الباب مفتوحا حتى أرجع ..

وغادرت الحجرة فتبعها على الأثر بفؤاد خافق وانزوى فى ركن من الدهليز المظلم على حين تابعت العوادة سيرها الى المطبخ ، وبعد قليل عادت حاملة طبقا من العنب فاتجهت الى الباب الذى ينبعث منه الغناء فنقرت عليه ، وانتظرت دقيقة ثم دفعته ودخلت دون أن تغلقه وراءها ، هناك بدا مجلس الطرب فى صدر الحجرة تتوسطه زبيدة محتضنة العود وهى تلعب بالأوتار بأناملها وتغنى «يامسلمين يا أهل الله» وعلى كثب منها جلس « أبوه » دون غيره ـ وقد اشتد خفقان قلبه لدى رؤيته ـ متجردا من جبته مشمرا عن ساعديه راعشا الدف بين يديه متطلعا الى العالمة بوجه يقطر بشاشة وبشرا . لم يلبث الباب مفتوحا الا ريثما رجعت زنوبة ، دقيقة أو دقيقتين ، ولكنه رأى فيهما منظرا عجبا ، حياة غامضة ، قصة طويلة عريضة ، استيقظ فى أعقابها كالذى يستيقظ من نوم طويل عميق على قلقلة زلزال عنيف ، رأى فى دقيقتين عمرا كاملا ملخصا فى صورة كمن يرى فى حلم هنيهة صورة جامعة لأحداث شتى يستغرق وقوعها فى عالم الحقيقة أعواما طويلة ، رأى أباه حقا ، أباه دون غيره من البشر ، ولكن لا كما تعود أن يراه ، فلم يسبق له أن رآه متجردا من جبته فى جلسة مريحة منسابة مع سجيتها ، ولا رأى شعره الفاحم ثائر الأطراف كأنما جاء يعدو حاسر الرأس ، ولا رأى ساقه العارية كما لاحت على حافة الديوان تحت ذيل القفطان المنحسر ، ولا رأى ـ أى والله ـ الدف بين يديه يرعش باعثا شخشخته الراقصة المتقطعة بالنقر الرشيق ، ولا رأى ـ ولعله أعجب ما رأى ـ هذا الوجه الضاحك المتألق الريان بالود والصفاء الذى أذهله كما أذهل كمال من قبل حين رآه يضحك أمام الدكان يوم قصده مدفوعا برغبته فى الافراج عن أمه ، رأى هذا

كله فى دقيقتين ولما اغلقت زنوبة الباب وعادت الى حجرتها لبث بموقفه يستمع الى الغناء وشخشخة الدف برأس دائر ، نفس الصوت الذى استمع اليه حال دخوله البيت ، ولكن أى تغير اعتور الأثر الذى ينطبع منه على نفسه ، أى معان وصور جديدة ينقلها الآن الى وجدانه ! كرنين جرس المدرسة يهش له الطفل اذا سمعه وهو غريب عنها وينقلب فى أذنيه نذيرا لمتاعب جمة اذا سمعه وهو ضمن تلاميذها . ونقرت زنوبة على الحجرة كأنما تدعوه ليلحق بها فأفاق من غيبوته ومضى اليها وهو يحاول أن يتمالك نفسه كيلا يبدو أمامها مضطربا أو ذاهلا فدخل وعلى شفتيه ابتسامة عريضة ..

ــ هل أنساك نفسك ما رأيت ؟

فقال بلهجة تشى بالرضا والارتياح :

ــ منظر نادر ، وغناء بديع ...

ــ أتحب أن نفعل مثلهما ؟

ــ فى ليلتنا الأولى ؟!.. كلا .. لا أحب أن أخلط بك شيئا آخر ولو كان الغناء نفسه ..!

ولئن تكلف بادىء الأمر الحديث ليبدو أمامها ــ وأمام نفسه على السواء ــ هادئا طبيعيا فقد انتهى الى الانهماك فيه بلا تكلف ثم الى استرداد حالة الطبيعية بأسرع مما قدر ، كالذى يتصنع هيئة الباكى فى مأتم فينخرط فى البكاء . على أنه ربما عاودته الدهشة فجأة فيقول لنفسه « أعجب بها من حال لم تخطر لى على بال من قبل ، أنا هنا مع زنوبة وأبى فى الحجرة القريبة معزبيدة ، كلانا فى بيت واحد ! » ولكنه سرعان ما يهز كتفيه ويستطرد فى حديثه مع نفسه « كيف أحمل نفسى مشقة العجب لوقوع شىء باعتباره بعيدا عن التصديق ما دمت ألمسه واقعا !.. أنه هناك فمن السخف أن أتساءل ذاهلا هل يمكن تصديق هذا .. فلأصدق ولا أتعجب .. وماذا عليه من هذا!» ولم يشعر الى تفكيره بارتياح

فحسب ولكنه فرح به فرحة فاقت كل تقدير ، لا لأنه كان بحاجة الى منسجع ليواصل حياته الشهوية ، ولكن لأنه ــ كأكثرية الغارقين فى الشهوات المحرمة ــ يستأنس الى الشبيه ، فكيف أن وجده فى شخص أبيه ــ القدوة التقليدية ــ الذى طالما أزعجه ، بشعور وبلا شعور منه ، أن يجد نفسه واياه على طرفى نقيض . تناسى كل شىء الا فرحته ، كأنها أعز ما ظفر به فى حياته ، وشعر نحو أبيه بحب واعجاب جديدين ــ غير الحب والاعجاب اللذين اكتسبهما قديما تحت ستار كثيف من الاجلال والخوف ــ حب واعجاب ينبعان من أعماق النفس ويختلطان بجذورها الأولى ، بل كأنهما وحب الذات والاعجاب بها شىء واحد ، لم يعد الرجل بعيدا عزيز المنال مغلق الأبواب ولكن دانيا قريبا ، قطعة من نفسه وقلبه ، أبا وابنا ، روحا واحدا ، ليس الرجل الذى يرعش الدف فى الداخل السيد أحمد عبد الجواد ولكنه ياسين نفسه ، كما يكون وكمايجب أن يكون ، وكما ينبغى أن يكون ، لا يفرق بينهما الا اعتبارات ثانوية من العمر والتجربة « هنيئا لك يا والدى ، اليوم اكتشفتك ، اليوم عيد ميلادك فى نفسى ، ياله من يوم ويا لك من أب لم يكن قبل الليلة الا يتيما ، اشرب والعب بالدف لعبا ، ولا يد عيوشة الدفافة ، انى فخور بك ، هل تغنى أيضا يا ترى ؟.. »

ــ ألا يغنى السيد عبد الجواد أحيانا ..؟

ــ ألا زال فكرك مشغولا به ؟ ! ياويل الناس من الناس !.. بل يغنى أحيانا يا جملى .. يشترك فى الهنك اذا سكر ..

ــ وكيف صوته ؟

ــ غليظ جميل كعنقه ..

« الى هذا الأصل ترجع الأصوات التى تغنى فى بيتنا ، الجميع يغنون ، أسرة عريقة فى الطرب ، ليتنى أسمعك ولو مرة ، لا أحفظ لك فى ذاكرتى الا الزعق والنهر ، غنوتك الوحيدة المشهورة بيننا

« يا ولد ـ ـ يا ثور ـ يابن الكلب » أريد أن أسمع منك « الوداد فى الملاح صدف » أو « حبيبت جميـــل » كيف تسكر يا أبى ؟ كيف تعربد ؟ ينبغى أن أعرف لأحتذى مثالك وأحيى تقاليدك ، كيف تعشق ؟ كيف تعانق ؟ . . »

وانتبه الى زنوبة فرآها أمام المرآة وهى تسوى أهداب شعرها بأناملها وقد لاح أبطهـا من فرجة الفستان أملس ناصـعا يتصل منحدره بأصل نهد كقرصة العجين فسرت فى بدنه سكرة الهياج وانقض عليها كأنه فيل ينقض على غزال . .

— ٤٠ —

وقفت ثلاث سيارات تطوع بتقديمها بعض الأصدقاء أمام بيت السيد أحمد فى انتظار العـروس وحاشـيتها لحملهن الى بيت آل شوكت بالسكرية ، كان الوقت أصـيلا وقد انحسرت أشـعة شمس الصيف المائلة عن الطريق واستقرت على البيوت المواجهة لبيت العروس ، ولم تكن ثمة مظاهر تدل على عـرس ، اللهم الا الورود التى أزينت بها أولى السيارات الثلاث فلفتت أنظار أصحاب الدكاكين القريبة وكثير من المارة ، ومن قبل ذلك اليوم تمت الخطبة ووردت الهدايا ونقل الجهاز وعقد القران فلم تنطلق من البيت زغرودة أو تعلق ببابه زينة أو تشى بما يدور داخله عـلامة من علامات الأفراح المألوفة التى تفاخر الأسر باعلانها ، فى أمثال هـذه المناسبات وتتعلل بسوانحها لتفصح عن مكنون حنينها للمسرة بالغناء والرقص والزغاريد ، تم كل شىء فى صمت وهدوء فلم يدر به الا الأقارب والأصدقاء وخاصة الجيران ، وأبى السيد أن يتزحزح عن تزمته أو أن يسمح لأحد من آل بيته بأن يتزحزح عنه ولو ساعة

واحدة ، وفى ظل هذا الجو الصامت غادرت العروس والمدعوات البيت رغم احتجاج أم حنفى على الخرجة الصامتة ، فمرقت عائشة الى السيارة فى سرعة خاطفة كأنما تخاف أن يشتعل فستان العرس أو قناعه الحريرى الأبيض الموشى بالفل والياسمين تحت نظرات المتطلعين ، وتبعتها خديجة ومريم وبعض الفتيات ، واستقلت الأم وبعض النسوة من الأهل والجارات السيارتين الآخريين ، على حين اتخذ كمال مجلسه الى جانب سائق سيارة العروس ، ورغبت الأم فى أن يمضى الركب الى السكرية عن طريق الحسين لتلقى نظرة جديدة على مقامه الذى كلفها الشوق اليه قبل ذلك غاليا ولتستوهب صاحب المقام البركة لعروسها الحسناء ، فاخترقت السيارات الطرق التى قطعتها هى ذلك اليوم مع كمال ، ثم مالت الى الغورية عند المنعطف الذى كادت تلقى فيه حتفها حتى وقفت بهن عند بوابة المتولى أمام مدخل السكرية الذى يضيق عن دخول السيارات ، وترجلن جميعا ودخلن العطفة فطالعتهن معالم الزينات وهرع اليهن غلمان الحارة هاتفين وتعالت الزغاريد من بيت آل شوكت ، أول بيت الى يمين الداخل ـ حيث ازدحمت نوافذه برءوس الطلات المزغردات ، ووقف عند مدخله العريس خليل شوكت وشقيقه ابراهيم شوكت وياسين وفهمى ، وتقدم خليل مبتسما من العروس ومنحها ساعده فارتبكت ولم تبد حراكا حتى بادرت مريم الى يدها فشبكتها بساعده ، ثم سار بها الى الداخل مارا بحذاء الفناء المزدحم والورد والملبس ينهال على أقدامها وعلى أقدام من تبعنها من حاشية العروس حتى واراهن باب الحريم ، ومع أن قران عائشة بخليل تم قبل ذلك اليوم بشهر أو أكثر الا أن منظر اشتباكهما وسيرهما معا لاقى من ياسين وفهمى ـ والأخير خاصة ـ دهشة مقرونة بالحياء وشعورا بالانكار أشبه كأن جو أسرتها لايهضم حتى طقوس حفلات الزفاف المشروعة ، وبدا هذا الأثر بصورة أوضح عند كمال الذى جعل يجذب أمه من يدها فى انزعاج وهو يشير الى العروسين

اللذين يتقدمان الجميع على السلم كأنه يستعديها على دفع شر فظيع ، وخطر للشابين أن يسترقا النظر الى وجه أبيهما ليريا أى أثر تركه ذاك المنظر الفريد ، فشملا المكان بنظرة سريعة ولكنهما لم يقفا له على أثر ، لم يوجدعند المدخل ، ولا فيما يلىهذا من فناء البيت الذى اصطفت به الأرائك والمقاعد وأقيمت فى صدره منصة الغناء . والواقع أن السيد خلا الى نفر من خاصة أصدقائه بمنظرة الغناء فلم يفارقها مذ حل بالبيت مصمما على ألا يفارقها حتى ختام الليلة مبتعدا بنفسه عن « الجمهور » الصاخب خارجها ، لم يكن أشد احراجا لنفسه من الظهور بين آله فى ليلة زفاف ، اذ لا يرضى أن ينشر فوقهم رقابته فى يوم خالص للسرور ، ولا يطيق من ناحية أخرى أن يشهد عن كثب انطلاقهم مع دواعى الفرح ، وفضلا عن هذا وذاك لم يكن أكره لديه من أن يرى ــ بينهم ــ على غير ماعهدوا من وقار صارم ، ولو كان الأمر بيده لتم الزفاف فى صمت شامل ولكن حرم المرحوم شوكت وقفت من اقتراحاته فى هـذا الشأن موقف معارض لا تلين صلابته ، وأبت الا أن تحييها ليلة حافلة فاتفقت على احيائها مع العالمة جليلة والمغنى صبـابر ، وبدا كمال لفرط ابتهاجه بما أتيح له من حرية وسرور كأنه عريس الليلة ،وكان احد أفراد قلائل أبيح لهم التنقل كيفما شاءوا بين الحريم فى الداخل وبين مجلس الطرب فى فناء الدار،لبثطويلا معأمه بين النساء منقلا طرفه بين زيناتهن وحليهن مصغيا الى دعاباتهن وأحاديثهن التى يستأثر الزواج بخلاصتها ، أو منصتا معهن الى العالمة جليلة التى تصدرت البهو كالمحمل ضخامة وزينة وراحت تنشد الطقاطيق وتعاقر الشراب جهارا ، فاستـأنس الى الجو الضـاحك لغرابته وجاذبيته ــ والأهم من هـذا كله ــ لوجود عائشة على حال من التبرج لم يحلم بها من قبل ، وشجعته أمه على البقاء ليظل تحت رعايتها ، بيد أنها عدلت عن موقفها بعد حين واضطرت الىأن تحثه همسا على الانتقال الى مجلس أخويه لأمور لم تتوقع حدوثها . من

ذلك مابدا من اهتمامه بعائشة ، بفستانها حيناوبزواقها حينا آخر، فخيف منه على هندامها ، أو مابدر منه من ملاحظات صبيانية صريحة نحو بعض السيدات كما هتف بأمه مرة وهو يشير الى امرأة من آل العريس قائلا : « أنظرى يانينة الى أنف هذه الست . . اليس أكبر من أنف أبله خديجة» أو مافاجأ به الجميع وجليلة تغنى من الاشتراك مع التخت فى ترديد «يمامة حلوة . . ومنين أجيبها» حتى دعته العالمة الى الجلوس بين أفراد تختها ، بهذا وغيره جذب الأنظار اليه فأخذت المدعوات فى مداعبته ولكن أمه لم ترتح الى الضجة التى أثارها ، وآثرت على كره منها ــ أشفاقا على البعض من عبثه واشفاقا عليه من أعين المعجبات ــ أن تحمله على مغادرة المكان ، انضم الى مجلس الرجال ، وتردد بين الصفوف ، ثم وقف بين فهمى وياسين حتى ختم صنابر دور « بس ليـه تعشق يا جميل » واستأنف تجواله حتى مر بالمنظرة فأغراه حب الاستطلاع بالنظر الى داخلها فمد رأسه وما يدرى الا وعيناه تلتقيان بعينى والده فتسمر فى مكانه وعجز عن استردادهما ، ورآه أحد أصدقاء أبيه ــ السيد محمد عفت ــ فناداه فلم يجد بدا من تلبية النداء ليتفادى من اغضاب أبيه فتدانى من الرجل على كره وخوف حتى وقف أمامه منتصب القامة مضموم الذراعين الى جانبيه كأنه عسكرى فى طابور ، وصافحه الرجل قائلا :

ــ ما شاء الله . . فى أى سنة يا عم ؟

ــ سنة ثالثة رابع . .

ــ عال . . عال . . سمعت صابر ؟

ومع أنه كان يجيب على أسئلة محمد عفت الا أنه راعى من بادىء الأمر أن تكون اجاباته بحيث ترضى أباه . . . فلم يدر كيف يجيب على السؤال الأخير أو أنه تردد قبل أن يعد الاجابة ولكن الرجل بادره متلطفا :

ــ الا تحب الغناء ؟

فقال الغلام بتوكيد :

ــ كلا ..

وبدا من بعض الحاضرين ما يدل على أنهم سيعلقون على هذه الاجابة ــ آخر ما ينتظر من شخص ينتمى الى عبد الجواد ــ مازحين ــ ولكن السيد حذرهم بعينيه فأمسكوا ، أما السيد محمد عفت فعاد يسأله :

ــ ألا تحب أن تسمع شيئا ؟

فقال كمال وهو يلحظ أباه :

ــ القرآن الشريف ..

فتعالت أصوات الاستحسان وسمح للغلام بالانصراف فلم يتأت له أن يسمع ما قيل عنه وراء ظهره حين قهقه السيد الفار قائلا :

ــ ان صح هذا فالغلام ابن زنا ..

فضحك السيد أحمد عبد الجواد وقال وهو يشير الى حيث كان يقف كمال ...

ــ هل رأيتم أمكر من ابن الكلب الذى يدعى التقوى أمامى !.. رجعت مرة الى البيت فترامى الى صوته وهو يغنى « يا طير يا اللى على الشجر » ..

فقال السيد على :

ــ آه لو رأيته وهو ينصت بين أخويه الى صابر وشفتاه تتحركان مع الغناء فى انسجام تام ولا انسجام أحمد عبد الجواد نفسه ..

على حين خاطب محمد عفت السيد أحمد متسائلا :

ــ المهم أن تخبرنا هل أعجبك صوته فى دور « يا طير يا اللى على الشجر » ؟ ..

فضحك السيد قائلا وهو يشير الى نفسه :

ــ ذاك الشبل من هذا الأسد !

فهتف القار قائلا :

— الله يرحم اللبؤة الكبيرة التى أنجبتكم ..

غادر كمال المنظرة الى الحارة وكأنه يفيق من كابوس ووقف بين الغلمان الذين ازدحم بهم الطريق ، وما لبث أن استعاد ارتياحه فتمشى مزهوا بملابسه الجديدة ، مغتبطا بحريته التى جعلت من المكان كله — فيما عدا المنظرة المخيفة — مجالا مباحا لقدميه دون معترض أو رقيب ، فأى ليلة هذه فى الزمان ! شىء واحد جعل ينغص عليه صفوه كلما خطر على فؤاده هو انتقال عائشة الى هذا البيت الذى باتوا يدعونه « ببيتها » هذا الانتقال الذى نفذ على رغمه دون أن يستطيع أحد اقناعه بوجاهته أو فائدته ، تساءل طويلا كيف يسمح أبوه به وهو الذى لايسمح لظل امرأة من آله بأن يلوح وراء خصاص النافذة فتلقى الجواب ضحكا عاليا ، وساءل أمه فى عتاب ، كيف تفرط فى عائشة لحد النزول عنها للغير فأجابته بأنه سيكبر يوما ويأخذ مثلها من بيت أبيها فتشيع اليه بالزغاريد، وسأل عائشة هل يسرها حقا أن تهجرهم فأجابت أن لا ، ولكن الجهاز حمل الى بيت الرجل الغريب ولحقت به عائشة التى لايطيب له الرى الا من موضع شفتيها ، حقا أن الفرح الراهن ينسى أشياء ما كان يتصور أنه ينساها لحظة ولكن خاطرة الأسى تغشى فؤاده الجذل كماتغشى السحابة الصغيرة وجه القمر فى ليلة صافية السماء، ومن عجب أن سروره بالغناء تلك الليلة فاق أى سرور عداه ، كاللعب مع الغلمان أو مشاهدة النساء والرجال فى مرحهم المطلق أو حتى عيش السراى والألمظية على مائدة العشاء ، ولئن أدهش اهتمامه الجدى بسماع جليلة وصابر الذى لايتفق مع سنه كل من لاحظه من النساء والرجال فلم يدهش أحدا من أسرته التى تعرف سوابقه فى الغناء مع معلمته عائشة كما تعرف حسن صوته الذى تعده أحسن أصواتها بعد عائشة وان كان صوت الأب — الذى لا يسمعونه الا مزمجرا — أحسنها جميعا ، وقد استمع كمال طويلا

الى جليلة وصابر ولكنه على غير المنتظر وجد غناء الرجل وعزف تخته أحب الى قلبه وآخذ لنفسه ، فرسخت منه فى ذاكرته جمل غنائية مثل « تعشق ليه . . . علشان كده » جعل يرددها بعد ليلة الزفاف طويلا فى سقيفة اللبلاب والياسمين فوق سطح بيتهم ، وشاركت أمينة وخديجة كمال فى بعض ماأتيح له من أسباب السرور والحرية ، فلم يسبق لهما ــ مثله ــ أن شهدا ليلة كتلك الليلة بما حفلت من أنس وطرب ومرح ، وأبهج أمينة خاصة ما لاقت من الرعاية والمجاملة بصفتها أم العروس ، هى التى لم تنعم فى حياتها برعاية أو مجاملة ، حتى خديجة اختفى همها فى أنوار الفرح كما تختفى الظلمة عند اشراق الصباح ، نسيت أحزانها بين الضحكات الناعمة والأنغام العذبة والأحاديث الطلية ، وازدادت لها نسيانا بفضل حزن جديد خالص الطوية منشؤه شعورها بفراق عائشة الوشيك ، شعور أثمر حبا وعطفا خالصين فتوارت الأحزان القديمة أمام الحزن الجديد كما تتوارى الأحقاد أمام الأريحية ، أو كما يقع لشخص حيال آخر يحب منه جانبا ويكره جانبا أن تتوارى ــ ساعة الفراق مثلا ــ الكراهية لجانب أمام الحزن على الجانب الآخر ، هذا الى ما شاع فى نفسها من ثقة حين تبدت فى زينة أضفت على جسمها ووجهها سواء لفت اليها أنظار بعض النساء فلهجن بالثناء عليها ثناء ملأها أملا وأحلاما عاشت بها زمنا رغدا .

وجلس ياسين وفهمى جنبا لجنب ، يراوحان بين السمر والسماع ، وجلس خليل شوكت ــ العريس ــ ينضم اليهما بين ساعة وأخرى كلما وجد فرجة بين اشغال ليلته الشاقة الممتعة ، وبالرغم من الجو المشبع بالبهجة والطرب انطوى ياسين على قلق فارتسمت فى عينيه نظرة شرود مزمنة وراح يسائل نفسه بين حين وآخر ترى هل يتاح له أن يروى ظمأه ولو بكأس أو بكأسين ؟ لذلك مال مرة على أذن خليل شوكت ــ وكان صديقا للأخوين وهمس قائلا :

ــ أدركنى قبل أن تضيع الليلة . . .

فقال له الشاب وهو يغمز له بعينيه مطمئنا :

ـ أفرذت مائدة فى حجرة خاصة لأمثالك من الأصدقاء ..

عند ذاك اطمأن باله وعاودته حيويته للسمر والدعابة والسماع ، لم يكن فى نيته أن يسكر ، ففى مثل هـذا المكان الحافل بالأهـل والمعارف يعد القليل من الخمر فوزا كبيرا ، خاصة وأن والده وان انزوى فى المنظرة ـ غير بعيد ، فلم يكن وقوفه على أسرار حياته بمزحزحه عن مكانته التقليدية من نفسه ، لم يزل قائما بحصنه الحصين من المهابة والاجلال ، ولم يزل هو بموقف الطاعة والعبودية، حتى السر الذى اطلع عليه خفية لم يفكر فى البوح به لانسان ولا لفهمى نفسه أقرب المقربين اليه ، لهذا كله قنع من بادىء الأمر بكأس أو بكأسين يتملق بهما رغبته الجامحة ، ويتهيأ بهما لتذوق المرح والسمر والطرب وغيرها من المسرات التى لم يعد لها عنده طعم بغير شراب . فهمى بخلاف ياسين ـ لم يجد ، أو لم يطمئن الى أنه سيجد ريا لظمئه ، ثار شجنه من حيث لا ينتظر عند مجىء العروس ، ذهب مع العريس وياسين لاستقبالها بقلب خلى فوقع بصره على مريم وهى تسير وراء العروس مباشرة ومتألقة الثغر بابتسامة تحية للمكان كله ، لاهية بالزغاريد والورود عنه ، وقد شف قناعها الحريرى عن ديباجة وجهها الصافى، فأتبعها نظره بقلب خافق حتى واراها باب الحريم ، ثم عاد الى مجلسه مزلزل النفس كأنه قارب تعرض بغتة لاعصار ، بيد أنه كان قبل رؤيتها هادىء النفس لاهيا بشجون السمر شأن السالى الناسى ، والحق تمر به أوقات فيجد نفسه على هذه الحال من السلو والنسيان كأن قلبه يستجم من العناء ، ولكن ما أن تخطر خطرة أو تهفو ذكرى ، أو يجرى اسمها على لسان ، أو أو ، حتى يخفق فؤاده ألما ، ويفرز الحسرة تلو الحسرة ، كالضرس المسوس الملتهب تجىء عليه فترة فيسكن ألمه حتى اذا هرس لقمـة أو مس جسما صـلبا انفجر به الألم ، وهناك يقرع الحب أضلعه من الداخل كأنما يروم متنفسا ،

صائحا بأعلى صوته انه لا يزال حبيسا لم يطلق سراحه العزاء أو النسيان . طالما تمنى لو يعمى عنها الراغبون حتى يستوى على قدميه رجلا حر التصرف فى تقرير مصيره . وقرب أمنيته كر الأيام والأسابيع والأشهر دون أن يتقدم لها خاطب ، ولكنه لم ينعم بالطمأنينة الحقة ، ولم يزل عرضة للقلق والخوف يتناوبانه الحين بعد الحين ينغصان صفوه ويكدران أحلامه ويخلقان له ضروبا من الألم والغيرة أن تكن وهمية فليست دون الواقع — فيما لو تحققت — ضراوة وقساوة ، حتى بات التمنى نفسه وتأخر وقوع البلاء من بواعث تجدد القلق والخوف وبالتالى الألم والغيرة فود كلما اشتد به العذاب لو يقع البلاء ليلقى نصيبه من الحزن دفعة واحدة لعله يعد ذلك يبلغ باليأس ما لم يبلغ بالأمانى العابثة من الراحة والسلام، ولكنه لم يستسلم للشجن فى مجلس طرب تكتنفه أنظار الأصدقاء والأقرباء ، الا أنه كان تلقى من منظر مريم وهى تسير وراء أخته « أثرا » لا يمكن أن يمضى بلا رد فعل محسوس ، ولما لم يسعه أن يجتر به أحزانه وأن يجلو المستور من نفسه فقد استهلكه — بطريقة عكسية — بالاغراق فى الحديث والضحك والتظاهر بالغبطة والسعادة، على أنه كان كلما خلا الى نفسه ولو لحظات شعر فى أعماقه بعزلة قلبية عما حوله ، وأدرك مع مرور الوقت أن رؤيته مريم وهى تخطر فى معية العروس قد هيجت حبه كما تهيج ضوضاء مفاجئة مهموما ذا قابلية للأرق ، وانه لن ينعم على الأقل هذه الليلة — بصدر مستقر ، وان شيئا مما يدور حوله لن يستطيع أن ينتزع من مخيلته صورتها أو الابتسامة التى حيت بها جو الاستقبال الحار المشبع بالزغاريد والورود ، ابتسامة عذبة صافية وشت بقلب خلى متشوق للهدوء والسرور ، ابتسامة لا يوحى رواؤها بأنه يمكن أن ترتسم على موضعها من الشفتين تقلصات الألم ، فحز منظرها قلبه وكاشفه بأنه يكابد الألم منفردا ويحمل متاعبه وحده ، ولكن ألا يقهقه هو الآن عاليا ، يحرك رأسه مع الأنغام

كالمنبسط الطروب ؟.. ألا يجوز أن يخدع الناظر بحاله ويظن به ما ظن هو بها ؟.. وجد في تفكيره شيئا من العزاء ولكن ليس أوكد من عزاء المصاب بالتيفود حين يسائل نفسه « ألا يحتمل أن أشفى كما شفى فلان الذى أصيب به قبلى » ، وما لبث أن ذكر رسالتها التى عاد بها كمال اليه منذ أشهر وهى قل له أنها لا تدرى ماذا تفعل لو تقدم لها خاطب أثناء هذه المدة الطويلة من الانتظار .. وتساءل كما تساءل عشرات المرات من قبل هل ثمة عاطفة وراء هذه الكلمات ؟... أجل لا يستطيع انسان مهما بلغ به التعنت أن يؤاخذها على كلمة منها ، بل لا يستطيع أن يتجاهل ما تتضمنه من عقل وحكمة ولكن هذا نفسه ماأشعره بالعجز حيالها وماأحنقه بالتالى عليها ، اذ يندر أن يرضى العقل والحكمة طموح عاطفة لاتعرف بطبعها الحدود ، وعاد الى الحاضر ، الى مجلس الطرب الى الحب الهائج ، ليست رؤيته لها وحدها التى رجته هذه الرجة العنيفة ، فلعل ذلك لأنه رآها لأول مرة ، فى مكان جديد ــ فناء بيت آل شوكت ــ بعيدا عن داره التى لم يرها خارج نطاقها من قبل ، كان وجودها الدائم فى المقام القديم قد سلكها فى آلية العادة اليومية على حين بعث ظهورها المفاجىء فى المكان الجديد ــ ذاك الظهور الذى خلقها فى عينيه خلقا جديدا ــ حياة جديدة فى وجدانه ، أيقظت الحياة الأصلية الكامنة ، ثم تعاونتا معا على احداث هذه الرجة العنيفة ، ولعل ذاك أيضا لأن وجودها بعيدا عن بيته وما يقترن به من تقاليد صارمة أقامت بينه وبينها سدا من اليأس ، وجودها فى جو من الحرية والانطلاق ، وعلى حال لم يعهدها من التبرج والحركة ، وجودها فى بيئة الزفاف وما توحى به من خواطر الحب والوصال ، كل أولئك أطلقها من قمقمها الى حيث يراها القلب أملا غير عسير ، وكأنما تقول له « انظر أين ترانى الآن ، ما هى الا خطوة أخرى فتجدنى بين ذراعيك » ولكن ما لبث هذا الأمل أن ارتطم بالواقع الشائك مسهما فى احداث تلك الرجة العنيفة ، ولعل ذلك أيضا لأن

رؤيتها والمكان الجديد زادتها رسوخا فى نفسه وتغلغلا فى حياته ونشوبا فى ذكرياته ، فان الصور تتعمق فى أنفسنا باندماجها فى مختلف الأماكن التى تمتد اليها تجاربنا ، وكما اقترنت مريم قديما بسطح البيت وبستان اللبلاب والياسمين وكمال وتسميع الكلمات الانجليزية ومجلس القهوة وحديثه مع أمه فى حجرة المذاكرة والرسالة التى عاد بها كمال فستقترن منذ الليلة بالسكرية وفناء آل شوكت ومجلس الطرب وغناء صابر وزفاف عائشة وغير ذلك مما ينثال على سمعه وبصره وكافة حواسه ، ومثل هذه العملية.. لا يمكن أن تتم دون أن تشارك فى احداث الرجة العنيفة التى دوخته .. وحدث فى فترة الاستراحة أن ترامى صوت العالمة الى مجلس الرجال من النوافذ المطلة على الفناء وهى تغنى « حبيبى غاب » فنشط الى السماع باهتمام شديد وجمع حواسه كلها فى النغمات ، لا لأن صوت جليلة أعجبه ولكن لظنه أن مريم تنصت اليها فى تلك اللحظة لأن الجملة الغنائية تخاطب أذنيهما فى وقت واحد معا ، لأنها ألفت بينهما على حال واحدة من الانصات وربما من الاحساس ، لأنها خلقت لهما موعدا يلتقيان فيه بروحيهما ، وحمله هذا كله على احترام الصوت وحب النغمات كى يجتمع بها فى احساس واحد ، وحاول طويلا أن ينفذ الى نفسها بالرجوع الى نفسه ، أن يتلمس ذبذبات تأثرها بمتابعة ذبذبات تأثره ، ليعيش فى ذاتها لحظات بلا حجاب على بعد المسافة وكثافة الجدران ، وحاول الى هذا أن يستخبر الجمل الغنائية عن آثارها فى النفس المحبوبة ، ماذا تركت فى قلبها جملة « حبيبى غاب » أو « بقى له زمان مابعتاش جواب » ؟ ترى هل غابت فى لجج الذكريات ؟.. أو لم تنحسر موجة منه عن وجهه ؟.. ألم ينقبض قلبها لشكة ألم أو لحزة حسرة ؟ أم لها سادرا طوال الوقت لا يجد فى النغمة الا فرحة الطرب ؟.. وتصورها وهى تهب انتباهها للنغم سافرة متبرجة الحيوية أو ثغرها يفتر عن ابتسامة كتلك التى لمحها على

شفتيها عند مجيئها فآلمته لأنه توسم فيها رمز السلو والنسيان ، أو وهى تحادث احدى أختيه كما يحلو لها كثيرا وهو ما يحسدهما عليه على حين لا يجدان فيه الأمر الذى يدهشه لحد الانزعاج الا حديثا عاديا كسائر الأحاديث التى يشتبكان فيها مع غيرها من فتيات الجيران ، أجل طالما عجب لموقف أختيـه منها ، لا لأنهما لا يكترثان لها فالحق انهما يحبانها ، ولكن لأنهما يحبانها كما يحبان غيرها من فتيات الجيران كأنها مجرد « فتاة » من فتيات الجيران ، وكيف يلقيانها بترحيب عادى دون أن يضطرب لهما نفس كما يلقى هو أى فتاة عابرة أو أيا من أقرانه طلبة مدرسة الحقوق ، وكيف يتحدثان عنها فيقولان « مريم قالت أو مريم فعلت » وينطقان بالاسم كما ينطقان بأى اسم .. أم حنفى مثلا كأنه ليس الاسم الذى لم ينطق به على مسمع من غيره الا مرة أو مرتين وهو يعجب لموقعه من أذنه أو كأنه ليس الاسم الذى لا ينطق به فى وحدته الا كما ينطق بالأسماء المبجلة المنقوشة فى خياله بتهاويل الأحلام التى لا ينطق بأحدها حتى يردف « رضى الله عنه » أو « عليه السلام » .. كيف اذن عطل الاسم — بل الشخص نفسه — عندهما من سحره وقدسيته ؟!.. وعند ما انتهت جليلة من الأغنية تعالى الهتاف والتصفيق فركز فيه انتباهه باهتمام لم تحظ الأغنية نفسها بمثله لأن حنجرة مريم ويديها اشتركت فيه ، وتمنى لو كان بوسعه أن يميز صوتها من تلك الأصوات وأن يفرز تصفيقها من ذلك التصفيق ولكن لم يكن ذلك بأسهل من تمييز صوت موجة بالذات من هدير الأمواج المتلاطمة على الشاطىء ، على أنه وهب حبه للهتاف كله والتصفيق كله بلا تمييز كالأم التى يترامى الى سمعها أصوات التلاميذ من المدرسة التى يتبعها ابنها فتدعو لهم جميعا بالبركة والسلامة .

لم يكن أشبه بفهمى فى عزلته الباطنية — وان اختلفت الأسباب — من أبيه الذى لزم المنظرة بين نفر من خاصة خلانه ، حتى الأصدقاء

الذين لم يطيقوا التوقر ، والغناء يجلجل فى الخارج ، انفضوا من حوله وتفرقوا بين المستمعين يطربون ويلهون ، فلم يبق معه الا النفر الذين مجلسه أحب اليهم من اللهو نفســـه فلبثوا جميعا فى رزانة غير معهودة كأنما يؤدون واجبا أو يشهدون مأتما ، هـــذا ما قدروه من قبل ، حين دعاهم السيد الى ليلة الزفاف ، لما خبروه من طبيعته المزدوجة التى عرف بجانب منها بين أصدقائه وبالجانب الآخر بين آل بيته ، ولم يفتهم وجه من وجوه التناقض بين مجلسهم الوقور هذا الذى يحتفلون فيه « بليلة زفاف » وبين مجالسهم المسائية المعربدة التى لا يحتفلون فيها بشىء ! وما عتموا أن جعلوا من توقرهم موضوعا للمزاح الخفيف الهادىء فما أن علا صوت السيد عفت مرة وهو يضحك حتى بادره الســـيد الفار واضعا سبابته على شفتيه كأنما يأمره بخفض صوته وهمس فى اذنه محذرا زاجرا نحن فى فرح يا رجل !.. ومرة اخـرى وكان الصمت قد غلبها مليا فاذا بالسيد على يقلب عينيه فى وجوههم ثم يقول رافعا يده الى رأسه كالشاكر «شكر الله سعيكم» وعند ذاك دعاهم الســـيد الى اللحاق بصحبه فى الخارج ومشـــاركتهم لهوهم ولكن السيـــد عفت خاطبه بلهجة تنم عن شديد العتاب قائلا : نتركك فى مثل هذه الليلة ؟!.. وهل يعرف الصديق الا عند الضيق ؟!. فما تمالك السيد أن ضحك قائلا : ماهى الا عدة ليالى زفاف أخرى حتى يتوب الله علينا جميعا .. على أن ليلة الزفاف تضمنت فى نظر السيد أحمد معانى اخرى غير التوقر الاجبارى فى مجلس أنس وطرب ، معانى تخصه وحده كأب ذى طبيعة خرقت المألوف من الطبائع ، فلم يزل يجد لفكرة زواج كريمته احساسا غريبا لا يرتاح اليه وان لم يقره عقله أو دينه ، لا يعنى هذا أنه ود ألا تتزوج كريمتـــاه ، فالحق انه كسائر الآباء جميعـــا رجا الستر لفتاتيه ، ولكن لعله تمنى كثيرا لو لم يكن الزواج الوسيلة الوحيدة لهذا « الستر » ولعله تمنى لو كان الله قد خلق البنات على طبيعة

لا تحتم الزواج ، أو لعله تمنى فى الأقل لو لم يكن أنجب أناثا قط ، أما وتلك أمانى لم تتحقق ولا سبيل الى تحقيقها فلم يكن بد من أن يرجو الزواج لفتاتيه ولو كما يرجو الانسان أحيانا ـ ليأسه من دوام العمر ـ ميتة شريفة أو ميتة مريحة ! طالما أفصح عن نفوره هذا بسبل متباينة سواء عن شعور أو لا شعور ، فربما حدث بعض خلصائه قائلا : « تسألنى عن انجاب الاناث ؟.. انه شر لا حيلة لنا فيه ولكن الشكر الى الله واجب على أى حال ، لا يعنى هذا انى لا أحب ابنتى فالحق انى أحبهما كما أحب ياسين وفهمى وكمال سواء بسواء ولكن كيف يطمئن خاطرى وأنا أعلم بأنى سأحملهما يوما الى رجل غريب مهما يبدو لى من ظاهره فالله وحده المطلع على باطنه ؟.. ما حيلة البنت الضعيفة حيال رجل غريب وهى بعيدة عن رعاية أبيها ؟.. وكيف يكون مصيرها لو طلقها يوما وقد مات أبوها فلجأت الى بيت أخيها لنعيش عيشة المنبوذين ؟ ! لست أخاف على أحد من أبنائى لأنه مهما يحدث لأيهم من أمر فهو رجل قادر على أن يواجه الحياة اما البنت .. اللهم احفظنا ! أو يقول فيما يشبه الصراحة « البنت مشكلة حقا .. ألا ترى أنا لا نألو أن نؤدبها ونهذبها ونحفظها ونصونها ؟.. ولكن ألا ترى أنا بعد هذا كله نحملها بأنفسنا الى رجل غريب ليفعل بها ما يشاء .. الحمد لله الذى لا يحمد على مكروه سواه .. » وتجسم هذا الاحساس القلق الغريب فى النظرة الانتقادية التى والى بها خليل شوكت «العريس» نظرة متعسفة عيابة أبت أن ترجع قبل أن تظفر بعيب يرضى تعنتها ، كأنه ليس من آل شوكت الذين ألفت بينه وبينهم أسباب المودة والولاء من قديم الزمان ، أو كأنه ليس الشاب الذى شهد له كل من رآه بالرجولة والجمال والوجاهة ، لم يسعه أن ينكر مزية من مزاياه ، ولكنه وقف طويلا عند وجهه الريان ونظرة عينيه الهادئة الثقيلة الموحية بالكسل فطاب له أن يستدل بهما على ما تركه الفراغ فى

حياته من حيوانيـــة قائلا لنفسه « ما هو الا ثور يعيش ليـأكل وينـام ! » لم يكن اعترافه بمزاياه أولا ثم فحصـــه عن أى عيب يلصقه به أخيرا الا منطقا عاطفيا يعكس ما يكمن فى نفســـه من رغبة فى تزويج الفتاة ونفور من فكرة الزواج ، فالاعتراف مهد الى تحقيق الزواج والفحص عن العيوب نفس عن العاطفة العدائية ، كمدمن الأفيون الذى تستذله لذته وترعبه خطورته فينشده بكل سبيل وهو يلعنه ، بيد أنه تناسى مشـــاعره الغريبـة وهو بين أصدقائه الحميمين يتسلى بالحديث حينا وبالسماع من بعيد حينا آخر ، ففتح صدره للرضى والغبطة ودعا لفتاته بالسعادة والحياة المطمئنة ، حتى نظرته الانتقادية لخليل شوكت استحالت احساسا ساخرا غير مشوب بالحنق .

وعند ما دعى المدعوون الى الموائد افترق فهمى وياسين لأول مرة فقاد خليل شوكت الأخير الى المـائدة الخاصـــة حيث بذل الشراب بغير حساب ولكن ياسين بدا حذراً مقدراً للعواقب فأعلن قناعته بكأسين وقاوم بشجاعة ـ أو بجبن ـ تيار الشراب المتدفق حتى اذا ما لســـعته النشـــوة الأولى فهيجت ذكـريانه عن لذة النشوات ووهنت ارادته فرغب فى الاســـتزادة من النشـــوة الى القدر الذى لا يخرجه عن حدود الأمان فتناول كأسا ثالثة ثم فر بنفسه عن المائدة الا أنه ـ على سبيل الاحتياط أو لأنه لم يزل عينا فى الجنة وعينا فى النار ـ أخفى زجاجة مملوءة حتى النصف فى مكان خفى للرجوع اليها عند الضرورة القصوى ، وعادوا الى مجلسهم بأرواح جديدة راقصة انطلق منها الى الجو المحيط سرور محرر من القيود ..

وفى الحـــريم كان السكر قد بلغ بالعـــالمة جليلة حد السلطنة ، واذا بها تقلب عينيها فى وجوه المدعوات وتتساءل

ـ من منكن حرم السيد أحمد عبد الجواد ؟

فجذب تساؤلها الأنظار وأثار اهتماما شاملا حتى غلب الحياء

أمينـة فلم تنبس بكلمة وجعلت تحملق فى وجه العـالمة بحيرة وانكار ، ولما أعادت العالمة التساؤل تطوعت حرم المرحوم شوكت بالاشارة الى أمينة وهى تقول :

ــ ها هى حرم السيد احمد ففيم يا ترى التساؤل ؟

فتفحصتها العـالمة بعينين ثاقبتين ثم أطلقت ضـحكة رنانة وقالت بلهجة تنم عن الرضى :

ــ حسناء وحق بيت الله ، ان ذوق السيد لا يجارى .

وبدت أمينة كالعذراء المتعثرة فى حيائها ، بيد أن الحياء لم يكن كل ما تعانيه ، ساءلت نفسها فى حيرة وانزعاج عما يعنيه حديث العالمة عن حرم « السيد أحمـد عبد الجواد » وعن اطرائها ذوق السيد بلهجة لا يدعيها لنفسه الا الخبير به ، وشاركتها شعورها عائشة ، وخديجة التى رددت عينيها بين العالمة وبين بعض الفتيات من صديقاتها كأنما تسائلهن عن رأيهن فى « هذه المرأة السكيرة » ، ولكن جليلة لم تأبه لما أثاره كلامها من انزعاج فحولت عينيها الى العروس وتفحصـتها كما تفحصت أمهـا من قبل ثم أرعشت حاجبيها وهى تقول باعجاب :

ــ قمر ورسـول الله ، أنت بنت أبيك حقـا ، ومن ير هاتين العينين يذكر من توه عينيه .. (ثم مقهقهة) .. أراكن تتساءلن من أين لهذه المرأة معرفة السيد أحمد ؟!.. انى أعرفه من قبل أن تعرفه زوجه نفسها ، انه ربيب حينا وقرين صـباى ، وكان والدانا صديقين ، أم تحسبين العالمة لا أب لها ؟.. كان أبى شيخ كتاب من أهل البركة ، ما رأيك يا زينة الستات .. ؟!

وجهت السؤال الأخير الى أمينة فدفعها الخوف وما طبعت عليه من لين وتودد الى أن تجيبهـا ــ وهى تقاوم ما ركبهـا من ارتباك ــ قائلة :

ــ رحمه الله ، كلنا أبناء حواء وآدم ..

فجعلت جليلة تحرك راسها يمنة ويسرة وهى تضيق عينيها

كأنما بلغ تأثرها بالذكرى وموعظتها نهايته ، أو لعل رأسها السكران وجد فى هذه الحركة رياضة التذ بها ، ثم استطردت قائلة :

ـ وكان رجلا غيورا ، ولكنى نشأت بفطرتى لعوبا لا أبالى كأنما رضعت الغنج فى المهد ، كنت أضحك الضحكة فى الدور الأعلى فتضطرب لها جوانح الرجال فى الشارع ، فما يبلغه صوتى حتى ينهال على ضربا ويرمينى بشر الصفات ، ولكن ما حيلة التأديب فيمن قدرت عليها فنون العشق والطرب والدلال ؟ !.. ضاع التأديب هباء، ومضى الرجل الى الجنة ونعيمها ، وقضى على بأن اتخذ مما رمانى به من شر الصفات شعارا لى فى الحياة .. هى الدنيا .. ربنا يطعمكن خيرها ويكفيكن شرها .. ولا حرمنا الله جميعا من الرجال سواء فى الحلال أو الحرام ..

وعزف الضحك فى جنبات الحجرة حتى غطى على تأوهات الدهش التى ندت هنا وهناك ، ولعل ما استثاره قبل أى شيء آخر هو وجه التناقض بين الدعاء الاباحى الأخير وبين ما سبقه من عبارات توحى ـ فى ظاهرها على الأقل بالجد ـ والتأسى ، أو بين ما تقنعت به المرأة من ستار الجد والرزانة وما جهرت به أخيرا من مزاح مكشوف ، حتى أمينة نفسها ـ وعلى رغم ارتباكها ـ ماتمالكت أن ابتسمت وأن نكست وجهها لتوارى ابتسامتها ، عنى أن النساء كن يستجبن ـ فى مثل هذا المجلس ـ لدعابات مهرجات العوالم ويرحبن بمزاحهن وأن خدش الحياء أحيانا كأنما ينفسن به على طول تزمتهن ، وواصلت العالمة السكرانة حديثها قائلة :

ـ وكان جعل الله الجنة مثواه سليم الطوية ، وآى ذلك انه جاءنى يوما برجل طيب مثله وأراد أن يزوجنى منه (وكركرت ضاحكة) .. أى زواج يا عمر ؟ !.. وماذا بقى للزوج بعد ما كان مما كان !.. وقلت لنفسى انفضحت يا جليلة وواقعنك كحل ..

وأمسكت مليا لتستزيد من التشويق ، أو لتتمتع اكثر

بصمت الانتباه المركز فيها الذى لا تحظى بمثله حين الغناء نفسه ، ثم عادت تقول :

ـ ولكن الله سلم فأدركتنى النجاة قبل الفضيحة المتوقعة بأيام اذ هربت مع المرحوم حسونة البغل تاجر المنزول ، وكان للمرحوم أخ عواد عند العالمة نيزك فعلمنى العود ، ثم طاب له صوتى فعلمنى الغناء ، وأخذ بيدى حتى ضمنى الى تخت نيزك التى حللت محلها بعد وفاتها ، ومارست الغناء دهرا عرفت فيه من العشاق مائة و ... (وقطبت وهى تتذكر بقية العدد ثم التفتت الى الدفافة وسألتها) وكم يا فينو ؟

فبادرتها الدفافة قائلة :

ـ وخمسة فى عين من لا يصلى على النبى ..

وتعالى الضحك مرة أخرى فجعلت بعض المشغوفات بالحديث يسكتن الضاحكات ليصفو الجو للعالمة ولكنها نهضت بغتة واتجهت نحو باب الحجرة غير ملقية بالا الى اللاتى تساءلن عن وجهتها دون أن يحظين بجواب ، ولكن أحدا لم يلح عليها فى السؤال لما اشتهرت به عند الناس من أنها صاحبة نزوة اذا نادتها لبت دون مراجعة ، وهبطت السلم الى باب الحريم ثم مرقت منه الى فناء الدار ، ولما جذب ظهورها المفاجىء بعض الأنظار القريبة تلبثت بمكانها لتتيح لنفسها أن ترى من الجميع فتستمتع بما يحدثه منظرها فيهم من اهتمام طمعت فى أن تتحدى به صابرا وهو فى ذروة التطريب ، وتحققت رغبتها اذ سرت عدوى الالتفات نحوها ـ كالتثاؤب ـ من فرد الى فرد وتردد اسمها على الألسن ، ثم شعر صابر نفسه ـ رغم انهماكه فى الغناء ـ بالفجوة الفجائية التى فصلت بينه وبين جمهوره فمد بصره الى الهدف الذى استشرفته الأعين حتى استقر على العالمة وهى تنظر اليه من بعيد برأس مائل الى الوراء من سلطنة السكر والخيلاء فاضطر الى الامساك عن الغناء وأشار الى تخته فتوقف عن العزف ، ثم

رفع يديه الى رأسه تحية لها !.. كان صابر خبيرا بنزوات جليلة ــ وعلى خلاف الكثيرين ــ عالما بطيبة قلبها ــ ومقدرا فى الوقت نفسه لخطر معاندتها ، فأظهر لها التودد بلا تحفظ ، ونجحت حيلته فانطلقت أسارير المرأة بالبشر وهتفت به « واصل غناءك يا سى صابر فما جئت الا لسماعه » فصفق المدعوون وعادوا الى صابر مهللين على حين اقترب منها ابراهيم شوكت شقيق العريس الأكبر وسألها بلطف عن حاجتها فذكرت بسؤاله السبب الحقيقى الذى دعاها الى المجىء وسألته بدورها بصوت ترامى الى الكثيرين ومنهم ــ وهو الأهم ــ ياسين وفهمى :

ــ مالى لا أرى السيد أحمد عبد الجواد ؟ !.. أين يختبىء الرجل ؟ .

فأخذ ابراهيم شوكت بيدها وسار بها الى المنظرة باسما ، على حين تبادل فهمى وياسين نظرة ملئت دهشا واستغرابا وشيعاهما بعينين متسائلتين حتى واراهما الباب ، ولم يكن السيد دون ابنيه دهشا لدى رؤيتها مقبلة نحوه تخطر فحدجها بنظرة انزعاج وتساؤل بينما تبادل صحبه نظرات باسمة ذات معان ، وشملت جليلة الجميع بنظرة عابرة قائلة :

ــ مساء الأنس يا رجال ..

وركزت عينيها فى السيد فما تمالكت أن أغربت فى الضحك وهى تتساءل ساخرة :

ــ هل أخافك مجيئى يا سيد أحمد ؟!

فأشار السيد الى الخارج محذرا وهو يقول لها جادا :

ــ اعقلى يا جليلة ، ماذا حملك على المجىء الى هنا تحت أنظار الناس جميعا ؟ !

فقالت كالمعتذرة وان لم تزايلها بسمة ساخرة :

ــ عز على ألا أهنئك على زواج كريمتك ..

فقال السيد فى ضيق :

ـ لك الشكر يا ستى ، ولكن أما فكرت فيما يثيره مجيئك لدى من يشهده من ظنون ؟

فضربت جليلة كفا بكف وقالت فيما يشبه العتاب :

ـ هذا أحسن ما عندك لى من استقبال !.. (تم موجهة الخطاب الى صحبه) .. أشهدكم يا رجال على الرجل الذى لم يكن يبتل صدره حتى يفرز فردة شاربه فى سرتى ، انظروا آليه كيف لا يطيق الآن رؤيتى ..

فلوح السيد لها بيده كأنما يقول لهـا « لا تزيدى الطين بلة » وقال برجاء :

ـ علم الله ما بى استياء لرؤيتك ولكنه الحرج كما ترين ..

هناك قال السيد على كانما ليذكرها بما لا ينبغى لها أن تنساه :

ـ لقـد عشتما حبيبين وافترقتما صديقين ، وليس بينكما نار ، ولكن أهله وأبناءه فى الخارج ..

فقالت متمادية فى اغاظة السيد :

ـ لماذا تتظاهر بالتقوى بين أهلك وانت بركة فسق !

فرماها بنظرة احتجاج قائلا :

ـ جليله .. ! .. لا حول ولا قوة الا بالله .

ـ جليلة أم زبيدة يا ولى الله .

ـ حسبى الله ونعم الوكيل ..

فأرعشت له حاجبيها كما أرعشتهما لعائشة من قبل ولـكن على سبيل التهكم لا الاعجاب هذه المرة وقالت بصوت هادىء جاد كالقاضى ينطق بالحكم :

ـ سيان عنـدى أن تعشق زبيدة أم غيرها من النساء ولـكن يؤسفنى ورأس أمى أن تتمرغ فى التراب بعد أن غرقت حتى أذنيك (مشيرة الى نفسها) فى القشدة ..

عند ذاك نهض السيد محمـد عفت ـ وكان من أقرب المقربين

اليها ــ وقد خاف أن يتمادى بها السكر الى ما لا تحمد عقباه فتناول يدها وجذبها برفق صوب الباب هامسا فى أذنها :

ــ حلفتك بالحسين الا ما رجعت الى مستمعاتك المنتظرات على نار . . .

فطاوعته بعد ممانعة ولكنها التفتت نحو السيد وهى تبتعد رويدا وقالت :

ــ لا تنس أن تبلغ تحياتى الى القارحة ، ونصيحتى اليك ــ بحق الأخوة ــ أن تغتسل بعدها بالكحول لأن عرقها مصاص للدماء . . .

شيعها السيد بنظرة ساخطة وهو يلعن الحظ الذى قضى بأن ينكشف أمام كثيرين ــ خاصة أهله ــ ممن عرفوه مثالا للجد والرزانة ، أجل لم يزل ثمة أمل فى ألا يبلغ الحادث أحداً من آله ولكنه أمل ضعيف ، ولم يزل ثمة رجاء فى ألا يفهموه اذا بلغهم ــ بما طبعوا عليه من براءة ــ على حقيقته ولكنه رجاء غير مضمون لأكثر من سبب ، بيد أنه على أسوأ الفروض لا يحق له أن يجزع لأن خضوعهم له من ناحية وسيطرته عليهم من ناحية أخرى أثبت من أن يزعزعهما مزعزع ولا هذه الفضيحة نفسها ، وفضلا عن هذا فان احتمال انكشاف أمره لدى أحد من أبنائه أو لديهم جميعا لم يكن عنده يوما بالفرض المستحيل ، ولكنه لم يقلق لذاك أكثر مما ينبغى ، لثقته بقوته ، ولأنه لم يعتمد فى تربيتهم على القدوة والاقناع فيخاف انحرافهم عن الجادة تبعا لما قد يظهر لهم من انحرافه عنها ، ولأنه استبعد أن يطلعوا على شىء من أمره قبل أن يبلغوا أشدهم أى حين لا يهمه كثيرا أن ينكشف لهم سره ، ولكن شيئا من هذا لم يستطع أن يلطف من أسفه على ما وقع ، حقا لم يخل من سرور ومن تيه جنسى ، اذ أن مجىء امرأة كجليلة بنفسها الى مجلسه لتهنئه أو لتعابثه أو حتى لتتهكم بعشقه الجديد «حادث» له مغزاه الهام فى الأوساط التى تشهد لياليه ، وظاهرة

لها دلالتها البعيدة لرجل مثله لا يعدل بالهوى والطرب والأنس شيئا ، ولكن كم كانت تكون سعادته صافية لو وقع الحادث الجميل بعيدا عن هذه البيئة العائلية !

أما ياسين وفهمى فلم تتحول عيناهما عن باب المنظرة منذ ولجته جليلة حتى خرجت منه مصحوبة بالسيد محمد عفت . دهش فهمى دهشة بكرا دار لها رأسه كياسين حين سمع زنوبة وهى تجيبه قائلة « انه من حينا ولا بد أنك تسمع عنه .. السيد أحمد عبد الجواد .. » ، على حين ركب ياسين حب استطلاع نهم فأدرك — فى سعادة أيقظت فى قلبه نشوة الاعجاب والمشاركة الوجدانية التى شعر بها نحو أبيه فى حجرة زنوبة — ان جليلة مغامرة أخرى فى حياة أبيه التى بات يؤمن بأنها سلسلة ذهبية من المغامرات ، وأن الرجل فاق كل ما تصوره خياله عنه ، ولبث فهمى يأمل ويرجو أن يعلم بين حين وآخر بأن العالمة انما أرادت مقابلة والده لسبب أو لآخر يتعلق بدعوتها الى احياء فرح عائشة حتى جاء خليل شوكت وأخبرهما ضاحكا بأن جليلة « تداعب السيد » وبأنها « تتودد اليه تودد الصديق للصديق » وعند ذاك لم يطق ياسين صبرا على كتمان ما عنده من سر ووثبت نشوة الشراب به الى الادلاء بمعلوماته فانتظر حتى غادر خليل ثم مال على أذن أخيه قائلا وهو يغالب ضحكه « كتمت عنك أشياء تحرجت من البوح بها فى حينها ، أما وقد رأيت ما رأيت وسمعت ما سمعت فسأبوح لك بها » ومضى يقص عليه ما سمع وما رأى فى بيت زبيدة العالمة ، وفهمى يقاطعه من آونة لأخرى قائلا فى ذهول « لا تقل هذا .. » «هل فقدت وعيك» ، «كيف تريدنى على أن أصدقك» حتى أتى الشاب على قصته بكل تفاصيلها ، لم يكن فهمى ، بما نشأ عليه من عقيدة ومثالية ، على استعداد لفهم — بله هضم — السيرة الخفية التى تنكشف له لأول مرة خاصة وان والده نفسه كان من أركان عقيدته ودعائم مثاليته ، ولعل ثمة وجها من التشابه بين

شعوره وهو يعاني هذا الكشف لأول وهلة وبين شعور الجنين ــ ان صدق الخيال ــ وهو ينتقل من مستقر الرحم الى مضطرب الحياة ، ولعله لو كان قيل له أن جامع قلاوون انعكس وضعه فصارت المئذنة أسفل بنائه والضريح عاليه ، أو كان قيل له أن محمد فريد خان رسالة مصطفى كامل وباع نفسه للانجليز لما كان هذا أو ذاك بأدعى الى انكاره وانزعاجه . « أبى يذهب الي بيت زبيدة ليشرب ويغنى ويضرب الدف ! .. أبى يذعن لمداعبة جليلة وتوددها !.. أبى يقترف السكر والزنا ، كيف أجتمعت الثلاث !.. اذن هو غير الأب الذى عرفته فى البيت مثالا للورع والقوة !.. أيهما الصحيح ؟.. كأنى أسمعه الآن وهو يردد : الله أكبر .. الله أكبر ، فكيف ترديده للغناء !.. حياة تمثيل ورياء !.. ولكنه صادق ، صادق اذا رفع رأسه للدعاء ، صادق اذا غضب .. أيكون أبى رذيلة أم يكون الفسق فضيلة !..

ــ ذهلت ؟!.. ذهلت انا أيضا عند ما نطقت زنوبة باسمه ، ولكن سرعان ما استسخفت نفسى وسألتها ماذا عليه من هذا ؟!. كفر !.. هكذا الرجال جميعا أو هكذا يجب أن يكونوا ..

« هذا القول جدير بياسين حقا .. ياسين شيء وأبى شيء آخر .. ياسين !.. ما ياسين !؟.. ولكن كيف يحق لى أن أردد هذا الآن وأبى ، أبى نفسه ، لا يختلف عنه فى شيء أن لم يفقه تدهورا .. كلا ليس تدهورا .. ثمة أمر أجهله .. أبى لايخطىء .. غير قابل للخطأ .. فوق الشبهات .. وعلى أى حال فوق الاحتقار .

ــ ما زلت ذاهلا ؟!

ــ لا أتصور شيئا مما قلت ..!

ــ لماذا ؟.. أضحك وأفهم الدنيا ، يغنى وماذا فى الغناء من عيب؟ ويسكر وصدقنى ان السكر ألذ من الاكل ، ويعشق والعشق كان ملهاة الخلفاء ، اقرأ ديوان الحماسة والأخبار التى بهامشه ، ليس على أبينا حرج ، اهتف معى ليحيى السيد أحمد عبد الجواد ،

ليحيى أبونا ، سأتركك لحظة ريثما أزور — لهذه المناسبة — الزجاجة التى أخفيتها تحت الكرسى .

بعودة العالمة الى التخت شاع فى الحريم نبأ مقابلتها للسيد أحمد عبد الجواد فانتقل من لسان الى لسان حتى تناهى الى الأم وخديجة وعائشة ، ومع أنهن كن يسمعن شيئا كهذا لأول مرة الا أن سيدات كثيرات ـ ممن بين بعولهن وبين السيد سبب من أسباب المودة ـ تلقين النبأ فى غير مادهش وغمزن بأعينهن باسمات شأن الذى يعرف أكثر مما يقال ، ولكن واحدة منهن لم تسول لها نفسها الخوض فى الموضوع اما لأن الخوض فيه جهارا أمر لا يجمل بهن أمام كريماتهن واما لأن دواعى المجاملة أملت عليهن بأن يسكن عنه حيال أمينة وكريمتيها ، غير أن حرم المرحوم شوكت قالت لأمينة مداعبة « حذار يا أمينة هانم فالظاهر أن عين جليلة زاغت الى السيد أحمد ! » فابتسمت أمينة متظاهرة بعدم الاكتراث ودم الحياء والارتباك يخضب وجهها ، لأول مرة تلمس دليلا محسوسا على ماقام بنفسها قديما من شكوك ، ومع أنها ألفت الصبر والتسليم بما قدر عليها الا أن ارتطامها بدليل محسوس حز فى قلبها فأحست عذابا لا عهد لها به وجرحا داميا فى صميم كبريائها ، وارادت امرأة أن تعلق على قول حرم المرحوم شوكت بكلمة مجاملة تليق بأم العروس فقالت « من يكن لها وجه كوجه ست أم فهمى قسامة فلا يحق لها أن تخشى زيغان عين زوجها الى امرأة أخرى ! » فاهتزت جوانحها للثناء وعاودتها ابتسامتها الحبيبة ووجدت — على أى حال ـ بعض العزاء عما تعانيه من ألم صامت ، الا أنه لما بدأت جليلة أغنية جديدة فملأ صوتها مسمعيها ثار بها غضب مفاجىء وشعرت ثوانى بأن زمام نفسها سيفلت من قبضتها ولكنها سرعان ما كظمته بقوة خليقة بامرأة لم تعترف لنفسها قط بحق الغضب . هذا على حين تلقت خديجة وعائشة النبأ بدهش فتبادلتا نظرة حائرة وتساءلتا بعينيهما عما يعنيه الأمر كله ، بيد أن دهشهما لم

يقترن بانزعاج كما حدث لفهمى ولا بألم كما حدث لأمهما ، ولعلهما وجدتا فى قيام امرأة كجليلة من تختها وتكبدها مشقة النزول الى مجلس أبيهما لتحيته ومحادثته شيئا مثيرا للاعجاب حقا ، ثم شعرت خديجة برغبة غريزية فى استطلاع وجه أمها فاسترقت اليها النظر ومع أنها رأتها تبتسم الا أنها فطنت من أول وهلة الى أنها تكابد ألما وارتباكا ينغصان عليها صفوها وأحست بضيق وما لبثت أن حنقت على العالمة وحرم المرحوم شوكت والمجلس كله .

ولما أزفت ساعة الزفة نسى كل همه ، أسابيع مضت فشهور وصورة عائشة فى ثوب الزفاف لا تبرح الأذهان ..

***

بدت الغورية متلفعة بالظلام والصمت حينما غادرت الأسرة بيت العرس عائدة الى النحاسين . سار السيد أحمد فى المقدمة وحده ، وتبعه على بعد أمتار فهمى وياسين الذى أفرغ مافى وسعه كيما يتمالك نفسه ويتحكم فى مشيته أن يخونه وعيه الزائغ من فرط الشراب ، ثم جاءت فى المؤخرة أمينة وخديجة وكمال وأم حنفى ، انضم كمال الى القافلة على رغمه فلولا الحادى الذى يتقدمها لوجد سبيلا الى عصيان يد والدته وانقلب راجعا الى حيث غادروا عائشة ، وجعل لهذا يتلفت بين خطوة وأخرى صوب بوابة المتولى ليودع أسيفا محزونا آخر ما لاح من مظاهر الفرح ، ذلك المصباح المضيء الذى رقى عامل فى سلم خشبى اليه ليقتلعه من مربطه فوق مدخل السكرية ، لشد ما يقطع قلبه أن ينظر الى أسرته فيجدها قد تخلت عن أحب أفرادها اليه بعد أمه ، ورفع بصره الى والدته وسألها هامسا :

ــ متى تعود أبلة عائشة الينا ؟

فأجابته بمثل صوته :

ـ لا تكرر هذا وادع لها بالسعادة ، ستزورنا كثيرا ونزورها كثيرا . . .

فهمس مرة أخرى محنقا :

ـ ضحكتم على . .!

فأشارت بيدها الى الأمام ، فى اتجاه السيد الذى كادت تبتلعه الظلمة ومطت شفتيها هامسة « هس » ، ولكنه كان مشغولا باستحضار صور مما مر به فى بيت العرس الى مخيلته ، رأى انها متناهية فى غرابتها وفيما بعثته فى نفسه من حيرة فجذب يدها اليه ليبتعد بها عن خديجة وأم حنفى ثم همس متسائلا وهو يشير الى الوراء :

ـ أما علمت بما يدور هنالك ؟

ـ ماذا تقصد ؟

ـ نظرت من ثقب الباب . .

فانقبض قلب الأم جزعا لأنها حدست أى باب يعنى ولكنها سألته مكذبة نفسها :

ـ أى باب ؟

ـ باب غرفة العروس . .!

فقالت المرأة بانزعاج :

ـ ياله من عيب أن ينظر الانسان من ثقوب الأبواب . . !

فهمس من فوره :

ـ ما رأيته أعيب . .

ـ أخرس . .

ـ رأيت أبلة عائشة وسى خليل يجلسان على الشيزلنج . . وهو . . .

فلكزته فى كتفه بشدة حتى أمسك ثم همست فى أذنه :

ـ يجب أن تخجل مما تقول ، لو سمعك أبوك لقتلك . .

ولكنه قال باصرار وبلهجة من يشعر بأنه يكشف لها عن حقيقة لا يمكن أن تتصور هى وقوعها :

ــ كان يتناول ذقنها بيده ويقبلها . .

ولكزته مرة أخرى بقسوة لم يعهدها من قبل فأدرك أنه أخطأ حقا وهو لا يدرى وسكت خائفا ، ولكنه عند ما كانا يقطعان فناء البيت المظلم متأخرين عن بقية الأسرة ــ وقد تخلفت عنهما أم حنفى لتسك الباب وتضببه وتترسه ــ ألح عليه مايكابد من حيرة ورغبة فى الاستطلاع فخرج من صمته وخوفه وسألها برجاء :

ــ لماذا يقبلها يا نينة ؟

فقالت له بحزم :

ــ اذا عدت الى هذا أخبرت والدك !..

— ٤١ —

آوى ياسين الى حجرة النوم وهو على حال من السكر شديدة ، ما كاد يخلو الى فهمى ويأمن الرقباء ــ سرعان ماغط كمال فى نومه عقب وضع رأسه على المخدة مباشرة ــ حتى جمحت به رغبة فى العربدة كرد فعل للجهد العصبى الذى بذله طوال السهرة ، خاصة فى طريق العودة ، كيما يضبط نفسه ويسيطر على سلوكه ، ولكنه وجد الحجرة أضيق من أن تتسع لعربدته فمال الى التنفيس عن صدره بالكلام فنظر نحو فهمى وهو ينزع ملابسه وقال ساخرا :

ــ قارن بين خيبتنا وبين براعة أبينا !.. حقا انه لرجل ..

وعلى رغم ما حرك هذا الكلام من ألم فهمى وحيرته الا أنه قنع بأن يقول وهو يرسم على شفتيه المتعضتين شبه ابتسامة :

ــ البركة فيك فأنت نعم الخلف ..

ـ أيحزنك أن يكون والدنا من كبار القناصة ؟
ـ وددت لو لم تمتد يد التغيير الى صورته الماثلة فى نفسى .
فقال ياسين وهو يفرك راحتيه فى سرور :
ـ الصورة الحقيقية أبهى وأمتع ، أعظم من أب هو المثل الأعلى ، آه لو رأيته وهو قابض على الدف والكأس بين يديه تزهر ! عفارم .. عفارم يا سيد أحمد !
فتساءل فهمى فى حيرة :
ـ وحزمه وتقواه ؟!
فقطب ياسين ليركز فكره فى المسألة ولكنه وجد نفسه فى حال الجمع بين الأضداد أروح لها من التوفيق بينها فقال مدفوعا بالاعجاب وحده :
ـ ليس ثمة مشكلة على الاطلاق ، عقلك الرعديد وحده الذى يخلق المشكلة من العدم ، أبى حازم ومؤمن ويحب النسوان ، شىء بسيط واضح مثل ١ + ١ = ٢ ، ولعلى أشبه الناس به على وجه التقريب لأنى مؤمن وأحب النسوان وان قل نصيبى من الحزم ، أنت نفسك مؤمن وحازم وتحب النسوان ، ولكن بينا تحقق ايمانك وحزمك اذا بك تنكص عن الثالثة (ثم ضاحكا) والثالثة هى الثابتة !
لعله نسى عند آخر كلامه باعث الاعجاب الذى دفعه الى الاسترسال فيه ، فجاء قوله دفاعا عن أبيه فى الظاهر فقط ، أما فى الحقيقة فلم يكن الا تعبيرا عن شعور وهاج هاج به دمه المخمور ، عن شهوة جامحة ركبته عقب اختفاء الرقباء الذين يحذرهم ، شهوة أثارها خيال مكهرب بالشراب ، فرغب جسده فى الحب رغبة جنونية عجزت ارادته عن شكمها أو ملاطفتها ، ولكن أين يجد مطلبه ؟.. هل يتسع له الوقت ؟.. زنوبة ؟!.. ماذا يحول بينه وبينها ؟.. طريق قصير ، ضجعة قصيرة ، ثم يعود فينام نوما عميقا هادئا ، هش للأخيلة المغرية هشاشة شخص لا عقل له

يراجعه فاندفع الى تحقيقها بلا تردد ، وما لبث أن قال لأخيه :

ــ الجو حار ، سأصعد الى السطح لأتنسم هواء الليل الرطيب . .

وغادر الحجرة الى الدهليز الخارجى ، ومضى يهبط السلم متلمسا طريقه فى ظلمة غاشية ، محاذرا غاية الحذر أن يند عنه صوت . ترى كيف يستطيع الوصول الى زنوبة فى هذه الساعة من الليل ؟ . . هل يطرق الباب ؟ . . ومن عسى أن يجىء لفتحه ؟ . . وبم يجيبه اذا سأله عن مقصده ؟ . . واذا لم يستيقظ أحد لفتح الباب ؟ . . أو اذا جاء الغفير ليراقبه بتطفله المعروف ؟ عامت هذه الخواطر على سطح مخه كالفقاقيع ثم انداحت غارقة فى تيار الخمر الجارف فلم يتجهم لها كعوائق ينبغى تقدير عواقبها ولكنه ابتسم لها كدعابات مما قد يؤنس وحشة مغامرته ، ثم جاوزها خياله طائرا الى حجرة زنوبة المطلة على مفرق الغورية والصنادقية فتخيلها فى قميص النوم الأبيض الشفاف الذى يتقوس مطاوعا فوق النهدين وحول الردفين وتنحسر حاشيته عن ساقين مدملجتين خمريتين فجن جنونه وود لو يثب فوق الدرجات لولا الظلمة الغاشية . خرج ــ بخروجه الى الفناء ــ الى ظلمة أخف قليلا بما نفضته النجوم عليها من أضواء خافتة بيد أنها بدت لعينيه اللتين كابدتا ظلمة السلم طويلا نورا أو كالنور . وعند ما خطا خطوتين متجها الى الباب الخارجى فى آخر الفناء جذب عينيه نور ضئيل ينبعث من سراج على وضم أمام حجرة الفرن فألقى عليه نظرة لا تخلو من استغراب حتى عثر قريبا منه على جسم منطرح على الأرض فتنوره على ضوء السراج فعرف أم حنفى التى بدت وكأنها استحبت النوم فى الهواء الطلق فرارا من جو حجرة الفرن الخانق . وهم بمواصلة السير ولكن ثمة شىء استوقفه فعطف رأسه مرة أخرى صوب النائمة فأمكنه أن يتبينها من

موقفه ، الذى لم يفصله عنها الا بضعة أمتار ، بوضوح غير منتظر ، رآها مستلقية على ظهرها ثانية ساقها اليمنى التى رسمت فى الهواء بحافة الجلباب الملتصقة بالركبة هرما قائما وكشفت فى نفس الوقت عن فخذها اليسرى التى لاحت عارية فيما يلى الركبة ثم غرقت فى ظلمة الفرجة التى انحسر عنها الجلباب بين الساق القائمة والأخرى الممدودة ومع أن احساسه بضيق الوقت ووجوب البدار الى غايته لم يهن الا أنه لم يسترد بصره عن الجسم الملقى غير بعيد منه ، أو لعله لم يستطع استرداده وانساق وهو لا يدرى الى تفرسه بامعان بدا فى يقظة عينيه المحمرتين وانفراج شفتيه الممتلئتين ، فاستحالت يقظة العين — وهى تتفحص الجسم اللحيم الذى شغل فراغا كبيرا كأنه جاموسة مسمنة — رغبة مريبة حتى استقر البصر على الفرجة المعتمة ما بين الساق القائمة والساق الممدودة ، ثم تحول التيار المضطرم فى شرايينه من التطلع صوب باب الخروج الى حجرة الفرن ، وكأنه يكتشف لأول مرة المرأة التى خالطها أعواما طويلة بغير مبالاة . على أن أم حنفى لم تحظ بسمة واحدة من سمات الحسين ، وبدا وجهها الجهم أكبر من سنها الحقيقية التى لم تكد تجاوز الأربعين ، حتى اكتنازها باللحم والدهن كان — لتنافره وسوء تنسيقه — بالانتفاخ الغليظ أشبه ، ولذلك ، وربما أيضا لطول انزوائها فى حجرة الفرن وقديم معاشرته لها التى بدأت مع صباه ، لم يلتفت اليها قط ، بيد أنه كان وقتذاك على حال من الهيجان فقد معها أية قدرة على التمييز فأعمته الشهوة ، وأى شهوة ؟ شهوة مولعة بالمرأة لذاتها لا لمعانيها ولا لألوانها ، تعشق الحسن ولا تعزف عن القبح ، والكل عندها فى « الأزمات » سواء كالكلب يلتهم بلا تردد ما يصادفه فى القمامة ، عند ذاك بدت له مغامرته الأولى — زنوبة — محفوفة بالمتاعب مجهولة العواقب ، ولم يعد « الوصول اليها فى هذه الساعة من الليل ، وطرق الباب ، وما يقول لفاتحه ، والغفير » دعابات يبسم

لها ، ولكن عوائق حقا يجدر به أن يتفادى منها . تقدم فى خفة وحذر فاغرا فاه ، ذاهلا عن كل شيء الا قنطار اللحم المنطرح عند قدميه الذى بدا لعينيه النهمتين وكأنه أخذ أهبته لاستقباله ، حتى توقف بين الساق القائمة والأخرى الممدودة ، ثم انحنى عليها قليلا قليلا بلا وعى تقريبا ، وباغراء شديد من الداخل والخارج معا ، وما يدرى الا وهو ينبطح فوقها . لعله لم يتعمد الذهاب الى هذا الحد دفعة واحدة ، ولعله هم بشيء من التمهيد كان لا ينبغى أن يسبق الحركة العنيفة الأخيرة ، ولكن الجسم الذى انبطح عليه اضطرب اضطرابة فزع شديدة وندت عنه صرخة مدوية ــ سبقت يده التى رامت كتمها ــ فمزقت السكون الشامل ولطمت مخه لطمة قوية ردت اليه وعيه فأطبق راحته على فمها وهو يهمس فى أذنها بقلق وخوف بالغين :

ــ أنا ياسين ، أنا ياسين يا أم حنفى ، لا تخافى . .

وطفق يكرر قوله حتى اطمأن الى وعيها اياه فاسترد راحته ، ولكن المرأة ــ التى لم تمسك عن المقاومة قط ــ تمكنت أخيرا من تنحيته عنها ، فاستوت جالسة وهى تلهث من الجهد والانفعال ثم سألته بصوت أزعجه ارتفاعه أيما ازعاج :

ــ ماذا تريد يا سى ياسين ؟

فقال لها بلهجة هامسة ملؤها الرجاء :

ــ لا ترفعى صوتك هكذا ، قلت لك لا تخافى ، ليس ثمة ما يدعو الى الخوف بتاتا . .

فعادت تسأله بجفاء وان خفضت من صوتها قليلا :

ــ ماذا جاء بك ؟

فجعل يربت على يدها متوددا وهو يتنهد فى شبه ارتياح لم يخل من عصبية كأنما رأى فى خفضها لصوتها امارة مشجعة وقال لها :

ــ ماذا أغضبك ؟ لم أرد بك سـوءا (مبتسما ابتسامة وشت بها نبراته) هلمى الى حجرة الفرن ..

فقالت المرأة بصوت مضطرب ولكنه ذو دلالة حازمة :

ــ كلا يا سـيدى ، اذهب الى حجـرتك ، أذهب ، الله يلعن الشيطان ..

لم تزن أم حنفى كلماتها بميزان ولكنها ندت عنها كما اقتضى الحال ، لعلها لم تعبر أصدق التعبير عن رغباتها ، ولكنها عبرت تماما وبغير شعور منها عن شدة المفاجأه ، مفاجأة لم تسبق يوما بتمهيد من اى نوع كان ، أنتى انقضت عليها فى نومها كما تنقض الحدأة على الفرخ ، فصدت الشاب وزجرته بلا أدنى تفكير حقيقى فى الصد أو الزجر ، بيد أنه أساء فهمها فامتلأ حنقا وثارت برأسه الخواطر .. «ما العمل مع بنت الكلب هذه ! لا يمكن أن أتراجع بعد أن كشفت نفسى وتماديت الى حد الفضيحة ، لابد مما أريد ولو لجأت الى القوة » وفكر بعجلة فى أنجع وسيـلة للتغلب على ماتراءى له من مقاومة ولكنه ــ قبل أن يتخذ قرارا ــ سمع حركة غريبة ، لعلها حركة أقدام ، آتية من باب السلم ، فوثب قائما وهو من الفزع فى نهاينه ، مزدردا شهوته كما يزدرد اللص فص الماس المسروق اذا بوغت فى مكمنه ، واسـتدار صوب الباب ليعـاين ما هنالك فراى والده وهو يجتاز العتبة مادا ذراعه بالمصباح . تسمر فى مكانه مختطف الدم مستسلما ذاهـلا يائسا . أدرك من توه أن صرخة أم حنفى لم تضع هباء ، وأن النافذه الخلفية لحجرة الأب كانت له بالمرصاد ، ولكن ما جدوى الادراك المتأخر ؟.. لقد وقع فى فخ القضاء والقـدر . وجعل السـيد يتفرس فى وجهه بقسوة صامتا ، مطيلا الصمت ، وهو ينتفض غضبا . ودون أن يحول عنه عينيه القاسيتين أشار بيده الى الباب يأمره بالدخول ، ومع أن الاختفاء كان أحب اليه فى تلك اللحظة من الحياة نفسها الا أنه من الخوف والارتباك لم يستطع أن يحرك ساكنا ، فضاق

صـدر الأب ولاحت فى عبوسـته بوادر الانفجار ثم زجر صائحا وعيناه ــ اللتان انعكس عليهما ضوء المصبـاح المرتعش بارتعاش اليد القابضة عليه ــ ترسلان شررا . .

ــ اطلع يا مجرم يا ابن الكلب .

فما ازداد الا استمسـاكا بجموده حتى هجم عليـه السـيد فقبض على ذراعه بيمناه وشد عليها بغلظة ثم جذبه بشدة نحو الباب فاندفع بقوة الجذبة الخارقة فكاد يقع على وجهه ، وتمالك توازنه وهو يلتفت وراءه فزعا ، وفر بنفسه وثبا لا يبالى ظلمة . .

— ٤٣ —

علم بفضيحة ياسين شخصان ــ غير أبيه وأم حنفى ــ هما ست أمينة وفهمى ، سـمعا صرخة أم حنفى ، فشـاهدا من نافذتيهما ما دار بين الشاب وبين السيد ، ثم حدسا ما هنالك دون حاجة الى كبير ذكاء ، على أن السيد كاشف زوجه بزلة ابنه وسألها مدققا عما تعلم من أخلاق « أم حنفى » فدافعت أمينة عن خادمتها بما علمت من طبيعتها واستقامتها وذكرت السيد بأنه لولا « صرختها » ما درى أحد بما كان فقضى الرجل ساعة وهو يسب ويلعن ، سب ياسين ، وسب نفسه لأنه « ما كان ينبغى أن ينجب أطفالا ليكدروا صفوه بأهوائهم الشريرة » واستـفاض به الغضب فسب البيت وأهله جميعا ! . . وظلت أمينة صامتة كما واصلت صمتها فيما بعد كأنما لم تدر شيئا ، كذلك تجاهل فهمى الأمر كله ، تظاهر بالاستغراق فى النوم حين عاد أخوه الى الحجرة لاهثا عقب الموقعة الخاسرة ، ولم يبد منه فيما بعد ما ينم عن علمه بشىء ، كره أن يعلم الآخر بوقوفه على ما نزل به من ذل ومهانة

اكراما لاحترام يكنه له بصفته اخاه الأكبر ، احترام لم يذهبه
كل ما تكشف له من استهتاره ومجونه أو ما تقدم هو به عليه من
علم وثقافة ، أو ما يبدو من ياسين نفسه من عدم مبالاة بالزام
أحد من اخوته باحترامه بما يعابثهم من مزاح ودعابة ، أجل لم يزل
يكن له احتراما لعل حرصه على الابقاء عليه راجع الى ما يأخذ به
نفسه من تأدب وجد ورزانة أكسبته مظهراً أكبر من سنه ، بيد
أن خديجة لم يفتها ان تلاحظ — غداة الواقعة — أن ياسين لم
يتناول فطوره على مائدة أبيه فسألته باستغراب عن المانع فأجابها
بأنه لما يهضم عشاء الفرح ، وشعرت الفتاة — بسوء ظنها الطبيعى
المرهف — بأن ثمة علة لتخلفه غير عسر الهضم فساءلت أمها ولكنها
لم تجد جوابا شافيا ، ثم رجع كمال من حجرة الطعام وهو يتساءل
أيضا ، لابدافع من حب الاستطلاع أو الأسف ، ولكن أملا أن يجد
فى الجواب ما يبشره بفترة أخرى يخلو الميدان فيها من منافس
خطير كياسين ، وكاد الأمر ينسى لولا أن ياسين غادر البيت مساء
من غير أن يشترك فى مجلس القهوة المعهود ، ومع أنه اعتذر لفهمى
والأم بارتباطه بميعاد الا ان خديجة قالت بصراحة « فى الأمر شيء ،
لست عبيطة .. أقطع ذراعى ان لم يكن ياسين متغيراً » . وعند
ذاك اضطرت الأم أن تعلن غضب السيد على ياسين لسبب لم
تعلمه .. وانقضت ساعة وهم يخمنون السبب حتى أمينة وفهمى
اشتركا مع الآخرين مداراة للواقع ، وظل ياسين على تجنبه لمائدة
أبيه حتى دعى ذات صباح الى مقابلته قبل الفطور . لم تفجأه
الدعوة ، وان أزعجته رغم ذلك — فكم توقعها يوما بعد يوم
لاستيثاقه من أن أباه لا يمكن أن يقنع من زلته بتلك الجذبة العنيفة
التى كادت تلقيه على وجهه ، وانه لابد عائد اليها بطريق أو بآخر
ولعله توقع أيضا معاملة لن تليق بحال بموظف مثله مما حمله حينا
على التفكير فى مغادرة البيت الى حين أو الى الأبد ، أجل لا يجمل
بأبيه — أبيه كما عرفه فى بيت زبيدة خاصة — أن يلقى زلته بهذا

العنت كله ، كما لا يجمل به هو أن يعرض نفسه لمعاملة لا تليق برجولته فالأكرم له أن يفارقه ، ولكن الى أين ؟.. ليس الا أن يعيش عيشة مستقلة بمفرده ، ولن يعجزه هذا ، بيد أنه قلب الأمر على مختلف وجوهه ، قدر النفقات وتساءل عما يبقى له بعدها لملاذه ، لقهوة سي على وحانة كوستاكى وزنوبة ، هنالك فتر حماسه حتى انطفأ كما تنطفىء شعلة سراج تعرضت لهبة هواء عنيفة ، وراح يقول لنفسه وهو شاعر بخداعه « لو طاوعت الشيطان وهجرت البيت لأحدثت تقليدا خبيثا لا يليق بأسرتنا . مهما يقل أبى أو يفعل فهو أبى وهيهات أن تضام حيال تأديبه » ثم قال بصراحته التى يصطنعها اذا غلبته روح الدعابة « شيئا من التواضع يا ياسين بك ، دعنا من الكرامة وحياة أمك ، أيهما أحب اليك كرامة سيادتك أو كونياك كوستاكى وسرة زنوبة » . هكذا عدل عن التفكير فى مغادرة البيت ولبث ينتظر الدعوة المتوقعة حتى وقعت فجمع نفسه ومضى كارها متوجسا ، دخل الحجرة خافض الرأس خفيف القدم ووقف بعيدا عن مجلس أبيه من غير أن يجرؤ على التسليم عليه ، وانتظر وألقى السيد عليه نظرة طويلة ثم هز رأسه كالمتعجب وهو يقول :

ــ ما شاء الله !.. طول وعرض ، شارب وقفا ، اذا رآك الرائى فى الطريق قال لنفسه باعجاب نعم الرجل ونعم الابن ، فليت القائل يجىء الى البيت ليراك على حقيقتك ..

ازداد الشاب ارتباكا وحياء ولكنه لم ينبس بكلمة ومضى السيد يتفحصه بسخط ثم قال باقتضاب وبلهجة جافة آمرة :

ــ قررت أن تتزوج ..!

ودهش ياسين دهشة لم يكد يصدق معها أذنيه ، كان يتوقع سبا ولعنا فحسب ولكن لم يخطر له على بال أنه سيسمع قرارا خطيرا يغير مجرى حياته كله فما تمالك أن رفع عينيه الى وجه أبيه حتى اذا ما التقتا بعينيه الزرقاوين الحادتين خفضهما متورد

الوجه لائذا بالصمت ، وفطن السيد الى أن ابنه بوغت بهذا القرار « السعيد » بدلا من المعـاملة الفظة التى كان يتوقعها فثار حنقه على الظروف التى أملت عليه أن يلقاه بجانب دمث خليق بتكذيب ظنه بجبروته المعروف فبث حنقه فى نبرات صوته ، وهو يقول عابسا :

ـ الوقت ضيق وأريد أن أسمع جوابك ..

ما دام الرجل قد قرر أن يزوجه فهو يأبى الا أن يسمع جوابا واحدا ، ولا مانع من أن يسمعه الجواب الذى يريد ، لا طاعة لأمره فحسب ، ولكن تلبية لرغبته هو أيضا ، أجل ما كاد والده يعلنه بقراره حتى انطلق خياله يصور له « عروسا » حسناء ، امرأة تكون ملك يمينه ورهن اشارته حين يشاء فأبهج الخيال قلبه حتى أوشك أن يفضحه صوته وهو يقول :

ـ الرأى رأيك يا بابا ..

ـ تريد أن تتزوج أم لا ؟ .. انطق ..

فقال الشاب بحذر من يرغب الزواج وهو غير مستعد له ماليا :

ـ ما دامت هذه هى ارادتك فانى موافق على العين والرأس .

فخفف السيد من خشونة لهجته وهو يقول :

ـ سأطلب لك كريمة صديقى السيد محمد عفت تاجر الأقمشة بالحمزاوى ، لقية ظفرها برقبة ثور مثلك .

فابتسم ياسين ابتسامة خفيفة وقال مداهنا :

ـ ولكنى بفضلك أصير كفئا لها .

فرمقه بنظرة حادة كأنما لينفذ بها الى أعماق مداهنته وقال :

ـ من يسمع كلامك لا يتصور فعالك يا منافق .. اغرب عن وجهى ..

وهم ياسين بالتحرك ولكنه وقفه باشارة من يده ثم تساءل مستدركا كأنما عرض التساؤل له اتفاقا :

ـ أظنك حوشت المهر ؟

لم يحر جوابا وعلاه الارتباك فاغتاظ السيد وتساءل مستنكرا :

ــ ولكنك عشت رغم توظفك فى كفالتى كما كنت تعيش وأنت تلميذ فماذا صنعت بمرتبك ؟

فلم يزد على أن حرك شفتيه دون أن ينبس فحرك الأب رأسه ممتعضا وذكر قوله له منذ عام ونصف وهو يوصيه لمناسبة توظفه « لو طالبتك الآن بأن تتعهد بنفقات نفسك بوصفك رجلا مسئولا ما خرقت المألوف بين الآباء والأبناء ولكنى لن أطالبك بمليم واحد كى أهيىء لك فرصة لاقتصاد مقدار من المال تجده بين يديك اذا دعت الحاجة اليه » ، ودل ذلك التصرف من جانبه على ثقته بابنه ، والحق أنه لم يتصور أن يجنح أحد من أبنائه ــ بعد ما نال من تأديبه وتهذيبه الصارمين ــ الى هوى من الأهواء الجامحة التى تبدد المال ، لم يتصور أن ينقلب ابنه « الصغير » سكيرا ماجنا ، فالخمر والنساء التى يراها فى حياته هو لونا من اللهو لا يمس رجولة ولا يؤذى ايمانا تنقلب اذا « لوثت » أحدا من أبنائه جريمة لا تغتفر ، ولذلك فان زلة الشاب التى كشفها فى فناء البيت طمأنته بقدر ما أغضبته لأن أم حنفى فى نظره لا يمكن أن تغرى شابا ان لم يكن تحمل ما فاق طاقته من الاستقامة والعفة . . أجل لم يشك فى براءة ابنه بيد أنه ذكر ما لاحظه كثيرا من ولعه بالأناقة وتخيره النفيس من البدل والقمصان وأربطة الرقبة وكيف لم يرتح الى ذلك وحذره الإسراف ولكن تحذيرا هينا ، اما لأنه لم ير فى الأناقة جريمة ، واما لأن تشبه ابنه به وتكراره لصورة من صور سلوكه الذى لا يرى بأسا فى أن يكرره أبناؤه ــ حركا فى صدره العطف والتسامح ، ولكن كيف كانت نتيجة ذلك التسامح ؟. . هى ماوضح له الآن من تبذيره نقوده فى التافه من الكماليات . ونفخ الرجل مغيظا محنقا وقال له محتدا :

ــ أغرب عن وجهى . .

غادر ياسين الحجرة مغضوبا عليه بسبب تبذيره لا بسبب زلته كما توقع وهو ذاهب الى الحجرة ، تبذيره الذى لم يكربه من قبل فسلم اليه نفسه بلا تفكر ولا تدبر ، ينفق ما فى جيبه حتى يفرغ ، غارقا فى ساعته ، متعاميا عما يسمونه «المستقبل» كأنه شيء لا وجود له ، ومع أنه غادر الحجرة مرتبكا وجلا لنهرة أبيه الا أنه لم يخل من ارتياح عميق اذ أدرك أن تلك النهرة لا تعنى طرده فحسب ولكن أيضا أن السيد سيتكفل بنفقات زواجه ، ومضى كالطفل الذى يضيق أبوه بالحاحه فى طلب قرش فينقده اياه ويدفعه خارجا فينسى شدة الدفعة فى فرحة الظفر وليث الأب ساخطا وراح يردد « يا له من حيوان ، جسم طويل عريض ولكن بلا مخ » أغضبه اسرافه كأنه لا يتخذ هو من الاسراف شعارا فى الحياة ، ولكنه كان لا يرى بأسا فى اسرافه كسائر أهوائه — ما دام لا يفقره وينسيه واجباته أو يدهور شخصيته ، ولكن كيف يضمن أن يصمد أمامه ياسين ؟.. فلم يكن يحرم عليه ما يحل لنفسه عن استبداد وأنانية فحسب ولكن شفقا عليه وان دل شفقه هذا على ثقة بالنفس وعدم ثقة بالآخر لا يخلوان من غرور وزايله الغضب كعادته — بنفس السرعة التى ركبه بها ، فصفت نفسه وانبسطت أساريره وأخذت الأمور تتبدى له بوجه جديد لطيف سماح .. « تريد أن تتشبه بأبيك يا تور .. اذن لا تأخذ جانبا وتهمل الجوانب الأخرى ، كن أحمدعبدالجواد كله أن استطعت أو فالزم حدودك ، أحسبتنى حقا سخطت على تبذيرك لأنى كنت أرجو أن أزوجك بنقودك ؟!.. خسئت .. انما رجوت أن أجدك مقتصدا كى أزوجك بنقودى على وفرة النقود لديك ، هذا هو الرجاء الذى خيبت . وهل حسبتنى لم أفكر فى اختيار زوجة لك الا بعد ضبطك متلبسا بالزنا ، وأى زنا .. زنا حقير كحقارة ذوقك وذوق أمك ؟!.. كلا يا بغل انى أفكر فى سعادتك منذ توظفت ، كيف لا وأنت أول من جعلنى أبا .. وأنت شريكى فى العذاب الذى

أصلتنا اياه أمك اللعينة ؟!.. ثم أليس من حقى أن أفــرح بك خصوصا وأنه على أن انتظر طويلا حتى أفرح بالثور الآخر أخيك أسير العشق ويا ترى من يعيش ؟!.. » فى اللحظة التالية استرجع ذكرى ذات سبب وثيق بموقفه الراهن ذكر كيف قص على السيد محمد عفت « جريمة » ياسين وما كان من زجره وجذبه تلك الجذبة التى كادت تلقيه على وجهه وهو بصدد طلب يد كريمته للشاب ــ الواقع أن الموافقة على ذلك تمت بين الرجلين من قبل مفاتحة ياسين ــ وكيف قال له الرجل «ألا ترى انه يجمل بك أن تغير من معاملتك لابنك كلما قارب سن الرشد خاصة اذا توظف وصار رجلا مسئولا؟ (ثم ضاحكا) الظاهر أنك من الآباء الذين لا يرتدعون حتى يجهر أبناؤهم بالثورة عليهم » وكيف أجابه بثقة قائلا : « هيهــات أن تتعرض الرابطة بينى وبين أبنائى لتغير الزمن» صدرت عنه الاجابة الأخيرة بمباهاة وثقة لا حد لها ، على أنه اعترف له بعد ذلك أن معاملته تتغير فى الواقع بتغير الأحوال وان عمل من جانبه على ألا يفطن أحد الى نية التغيير الباطنة ثم قال : «الحق انى لا أقبل أن أمد يدى الآن على ياسين ولا حتى على فهمى ، والحق انى جذبت ياسين تلك الجذبة تحت تأثير غضب ثائر ومن غير أن أقدر المدى الذى ذهبت اليه » ثم استطرد قائلا وهو يكر الى فترة من الماضى البعيد « كان أبى رحمة الله عليه يلتزم فى تربيتى شدة تهون الى جانبها شدتى مع أبنائى ولكنه سرعان ما غير من معاملته لى منذ أن دعانى الى معاونته فى الدكان ، ثم استحالت معاملته صداقة أبوية منذ تزوجت أم ياسين ، وقد بلغ بى الاعتزاز بالنفس أن عارضت فى زواجه الأخير لكبره من ناحية وحداثة سن العروس من ناحية أخرى فلم يزد على أن قال لى « أتعارضنى يا ثور .. وما دخلك فى هذا الشأن ؟.. انى أقدر منك على ارضاء أية امرأة» فما تمالكت أن ضحكت وطيبت خاطره معتذرا » ذكر هذا كله فورد على ذهنه المثل القائل «اذا كبر ابنك آخه» فشعر ــ ربما لأول مرة

فى حياته ــ بتعقد مهمة الأبوة كما لم يشعر به من قبل ، فى نفس الاسبوع أذاعت الأم خطبة ياسين فى مجلس القهوة ، كان فهمى قد علم بها عن طريق ياسين نفسه ، أما خديجة فما تمالكت أن ربطت بين الخطبة وبين ما عرف من قبل عن غضب الأب على ياسين ظنا منها أن الغضب انما وقع نتيجة لرغبة ياسين فى الزواج قياسا على ما كان بين الأب وفهمى للسبب نفسه فصرحت برأيها كالمتسائلة فقال ياسين ضاحكا وهو يخطف من الأم نظرة لا تخلو من حياء وارتباك :

ــ الحق أن ثمة علاقة قوية بين الغضب وبين الخطبة ..

فقالت خديجة متظاهرة بالاستنكار على سبيل السخرية والمزاح :

ــ بابا معذور فى غضبه لأن حضرتك لا يمكن أن تشرفه أمام صديق كبير مثل السيد محمد عفت ..

فجاراها ياسين فى سخريتها قائلا :

ــ وسوف يزداد موقف أبى حرجا اذا ما علم السيد الكبير المذكور بان للعريس أختا مثل حضرتك !

عند ذاك تساءل كمال :

ــ هل سيتركنا ياسين كما تركتنا أبله عائشة ؟

فقالت له أمه باسمة :

ــ كلا ولكن ستنضم الى بيتنا أخت جديدة هى العروس ..

ارتاح كمال الى هذه الاجابة التى لم يكن يتوقعها ، ارتاح الى بقاء « راويته » الذى يمتعه بحكاياته ونوادره ومؤانسته ولكنه عاد يتساءل لماذا لم تبق عائشة أيضا ؟ .. فأجابته أمه بأن العادة قضت بأن العروس تنتقل الى بيت العريس وليس العكس ، لم يدر من سن هذه العادة ، وكم تمنى لو كان العكس هو المتبع ولو يضحى بياسين ولطائفه . بيد أنه لم يستطع أن يجهر برغبته فأفصح عنها

بنظرة ناطقة رنا بها الى أمه ، فهمى وحده الذى أثار الخبر أشجانه لا لأنه لم يشارك ياسين فرحته ولكن لأن سيرة الزواج غدا من شأنها أن توقظ عاطفته وتستثير حزنه كما تستثير سيرة النصر حزن أم فقدت ابنها .. فى موقعة ظافرة ...

— ٤٣ —

تحرك الحانطور مقلا الأم وخديجة وكمال فى طريقه الى السكرية. أيكون زواج عائشة ايذانا بعهد جديد من الحرية ؟ أيقدر لهم أخيرا أن يطلعوا على نور الدنيا من حين لآخر وأن يتنفسوا هواءها الطليق ؟ !.. بيد أن أمينة لم تستسلم للتفاؤل أو تسبق الحوادث ، فالذى حرم عليها زيارة أمها الا فيما ندر قادر على أن يحرم عليها زيارة ابنتها كذلك ولم تنس أنه مضت أيام كثيره على زواج الفتاة زارها خلالها الأب وياسين وفهمى وحتى أم حنفى دون أن يؤذن لها هى بزيارتها أو تواتيها شجاعتها على الاستئذان للزيارة ، تحرزت من تذكيره بأن لها ابنه فى السكرية يجب أن تراها ، ولازمت الصمت وان لم تبرح صورة الصغيرة مخيلتها . على أنه لما ضاق صدرها بآلام التصبر استجمعت ارادتها وسألته :

ـــ ان شاء الله يكون سيدى عازما على زيارة عائشة قريبا لنطمئن عليها ؟..

فطن السيد الى ما وراء السؤال من رغبة خفية فحنق عليها ، لا لأنه كان قرر أن يحول بينها وبين زيارة عائشة . ولكن لأنه ود ـــ كشأنه فى مثل هذه الحالة ـــ أن يصدر السماح منه منحة غير مسبوقة بطلب أن تقوم بنفسها شبهة بأن طلبها ذو أثر فى استصدار السماح ، فكره أن تسعى الى تذكيره بهذا السؤال الماكر ، ومن

قبل فكر فى الأمر بضيق فأحنقه أن يجده ضرورة لا محيص منها ، ولذلك هتف بها حانقا :
ـ عائشة فى بيت زوجها ولا حاجة بها الى أحد منا ، على انني زرتها كما زارها أخواها فماذا يقلقك عليها ؟!
غاص قلبها فى صدرها وجف ريقها يأسا وقهرا ، أما السيد فقد تعمد أن يلزم الصمت كأنه انتهى من الأمر كله معاقبة لها على ما عده مكرا منها لا يغتفر ، ثم اهملها طوال الوقت وهو يختلس النظر الى ما غشى أساريرها من كمد ، حتى حان وقت انصرافه الى عمله فقال لها بجفاء واقتضاب :
ـ اذهبى غدا الى زيارتها ..!
تدافع دم الانشراح الى الوجه الذى لا تخفى بصفحته خافية فبدت فى سرور الطفل فما عتم أن عاوده حنقه فصاح بها :
ـ لن تريها بعد ذلك الا اذا سمح لها زوجها بزيارتنا .. !
فلم تعلق على قوله بكلمة ولكنها لم تنس عهدا حمنته وهى تشاور خديجة فى مفاتحته فقالت بعد تردد واشفاق :
ـ هل يسمح سيدى بأن آخذ معى خديجة ؟
فهز رأسه كأنما يقول « ما شاء الله .. ما شاء الله .. » ثم قال لها محتدا :
ـ طبعا .. طبعا .. ! ما دمت قد قبلت أن أزوج ابنتى فيجب أن تنضم أسرتى الى أبناء الشوارع !.. خذيها ، ربنا يأخذكم جميعا ..
تم لها فوق ما تطمع من السرور فلم تلق بالا الى الدعاء الأخير الذى ألفت سماعه ... وأكثر ــ فى أوقات غضبه أو تظاهره بالغضب على السواء ــ كانت تعلم بأنه من طرف لسانه وأنه أبعد ما يكون من قلبه ، مثله كمثل القطة تبدو ، حين تحمل صغارها ، وكأنها تلتهمها . تحقق الرجاء وانطلقت العربة بهم فى طريقها الى السكرية . بدا كمال ، لزيارة عائشة وخروجه بصحبة أمه وأخته

وركوبه الحانطور ، أوفر الثلاثة سرورا ، وكأنه لم يستطع كتمان فرحة أو انه رغب فى اعلانه على الملأ أو لعله أراد لفت الانظار الى شخصه وهو يتخذ مجلسه فى الحانطور بين أمه وأخته فما اقتربت العربة من دكان عم حسنين الحلاق حتى وقف بغتة هاتفا « يا عم حسنين .. انظر ! » فنظر الرجل اليه ولما لم يجده وحده غض بصره فى عجلة مبتسما فذابت الأم خجلا وارتباكا وجذبته من طرف جاكتته أن يعيد الكرة أمام الدكاكين التالية وراحت تؤنبه على فعلته « الجنونية » . بدا بيت السكرية ــ وليس كذلك بدا فى حلة الأنوار ليلة الفرح ــ عتيقا هرما ولكن دل عتقه نفسه فضلا عن ضخامة بنيانه ونفاسة أثاثه على السؤدد والجاه ، فآل شوكت أسرة «قديمة» وان لم يبق لهم من عزة القدم ــ خاصة بعد توزيع الثروة بالتوارث والاستكبار على التعليم ــ الا الاسم . وقد أقامت العروس بالدور الثانى على حين نزلت حرم المرحوم شوكت ــ ومعها ابنها الأكبر ابراهيم ــ الدور الأول لعجزها مع الكبر عن ارتقاء السلم فبقى دور ثالث شاغرا لم يسعهم أن يشغلوه وأبوا أن يسكنوه . ولما أدخلوا شقة عائشة هم كمال ، منطلقا مع سجيته كما لو كان فى بيته ، يجوس خلالها كى يعثر بنفسه على أخته مستمتعا بلذة المفاجأة التى تخيلها وهو يرقى فى السلم ولكن أمه لم تدعه يفلت من يدها رغم مقاومته وما يدرى الا والخادم تقودهم الى حجرة الاستقبال ثم تتركهم وحدهم ! شعر بأنهم يعاملون معاملة « الغرباء » أو « الضيوف » فانقبض صدره وانكسرت نفسه وجعل يردد فى جزع « أين عائشة ؟.. لماذا نبقى هنا ؟ » فلا يسمع الا كلمة «هس » وتحذيرا من منعه من الزيارة مرة أخرى اذا علا صوته !.. ولكنه سرعان ما زايله الألم حين جاءت عائشة مهرولة مشرقة الوجه بابتسامة غطى سناها على أضواء حلتها الزاهية وزينتها الباهرة فجرى نحوها وتعلق بعنقها ، فتبودل التسليم بينها وبين أمها وأختها وهو على ذلك الوضع ..

بدت عائشة سعيدة كل السعادة بنفسها وبحياتها الجديدة وبزيارة أهلها ، حدثتهم عن زيارات أبيها وياسين وفهمى ، وكيف غلبها الشوق اليهم على خوفها من أبيها فواتتها الجرأة على أن ترجوه السماح لهم بزيارتها ! .. قالت « لا أدرى كيف طاوعنى لسانى حتى تكلمت !.. لعل مظهره الجديد الذى لم يتراء لى به من قبل هو الذى شجعنى ، بدا لطيفا وديعا باسما ، أى والله باسما ، على أننى ترددت رغم ذلك طويلا ، خفت أن ينقلب فجأة فينتهرنى ، ثم توكلت على الله ونطقت !» فسألتها أمها عن رده كيف كان فقالت « قال لى باقتضاب : ان شاء الله ، ثم استطرد مسرعا بلهجة جدية تنم عن تحذير : ولكن لا تظنى المسألة لعبا فكل شىء بحساب . فخفق قلبى ورحت أدعو له طويلا توددا واسترضاء ! » ثم رجعت الى الوراء قليلا فوصفت حالها عند ما قيل لها « السيد الكبير فى حجرة الاستقبال » قالت « ركضت الى الحمام فغسلت وجهى لأزيل كل أثر للمساحيق حتى تساءل سى خليل عما يدعو الى ذلك كله ولكنى قلت له : أدركنى ، لا أستطيع ان ألقاه بفستان صيفى يكشف عن ذراعى !.. ولم أبرح موضعى حتى تلفعت بشال كشميرى !» ثم قالت « ولما علمت نينة .. (ضاحكة) أعنى نينة الجديدة .. لما قص عليها سى خليل ما جرى ضحكت وقالت له : انى أعرف السيد أحمد تمام المعرفة .. هو هذا وأكثر (ثم ملتفتة الى) ولكن اعلمى ياشوشو انك لم تعودى من آل عبدالجواد ، أنت الآن شوكتية فلا تبالى الآخرين .. » . أصاب منظرها البهيج وحديثها من نفوسهم موضع الحب والاعجاب فحملق كمال فيها كما فعل فى ليلة الزفاف وتساءل محتجا «لماذا لم تكونى تبدين هكذا وأنت فى بيتنا ؟ » فأجابته على الفور ضاحكة « لم أكن وقت ذاك شوكتية» حتى خديجة رمقتها بعين الحب . انقطعت بزواج الفتاة دواعى الملاحاة التى كانت تنشب بينهما بسبب الاختلاط ، ومن ناحية أخرى لم يبق من الاحساس بالحنق الذى ركبها عند السماح

بزواج الفتاة قبلها الا أثر باهت حملته « بختها » من دون الفتاة ، فلم يعد ينطوى قلبها الا على الحب والشوق ، لشد ما تفتقدها كلما آنست من نفسها حاجة الى أنيس تفضي اليه بذات نفسها . ثم تحدثت عائشة عن البيت الجديد ، عن المشربية التى تطل على بوابة المتولى ، والمآذن التى تنطلق عن قرب ، وتيار السابلة الذى لا ينقطع، كل شيء حولها يذكرها بالبيت القديم ، وما يكتنفه من سبل وأبنية فلا اختلاف فيما عدا الأسماء وبعض المعالم الثانوية « ولكن على فكرة البوابة العظيمة لا نظير لها عندكم (ثم بشيء من الفتور) وان كان المحمل لا يمر تحتها كما أخبرنى سى خليل! » وواصلت حديثها: « تحت المشربية مباشرة مجلس يضم ثلاثة لا يفارقونه قبل جثوم الليل : شحاذ كسيح وبائع مراكيب وضارب رمل ، أولئك جيرانى الجدد ، الا أن ضارب الرمل اسعدهم حظا ، لا تسالوا عن أفواج النساء والرجال الذين يجلسون القرفصاء امامه مستخبرين عن طوالعهم ، كم وددت لو كانت مشربيتى أوطأ كيما أسمع ما يقول لهم ، وألذ منظر ، منظر سوارس القادمة من الدرب الأحمر اذا تقابلت مع عربة حجاره قادمة من الغوريه فضاق عنهما مدخل البوابة وركب كل سائق رأسه متحديا الآخر أن يتراجع ليفسح السبيل ، يبدأ الكلام لينـا بعض اللين فيحتد ، ثم يخشوشن ، ثم تهدر الحناجر بالسباب والشتائم ، وتجيء فى أثناء ذلك عربات كارو وعربات يد فيغص بها الطريق ولا يدرى أحد كيف يعـود الحال الى ما كان عليه ، هنالك أقف وراء الخصاص أكاتم الضحك وأتأمل الوجوه والمنـاظر » وما أشبه فنـاء البيت الجديد بفنـاء بيتهم ، حجرة الفرن والمخزن وحماتها سيـده الفناء والجارية سويدان « لا أجد لى عملا فلا اذكر المطبخ حتى نحمل الى صينية الطعام » وعند ذاك لم تتمالك خديجة نفسها من أن تضحك قائلة « نلت ما طالما تمنيته ! » لم يجد كمال فى الحديث شيئا ذا بال الا

أنه أحس فى نغمته العامة بما يوحى « باستقرار » المتحدثة فداخله الانزعاج وسألها :

ــ الن تعودى الينا ؟ ..

فملأ الحجرة صوت يقول :

ــ لن تعود اليكم يا سى كمال ..

واذا بخليل شوكت يدخل ضاحكا وهو يرفل بجسمه الربعة فى جلباب حرير أبيض . كان ذا وجه بيضاوى ممتلىء ، أبيض البشرة ، فى عينيه جحوظ خفيف وفى شفتيه غلظة ، أما رأسه الكبير فينتهى بجبين ضيق يفترق عند قمته شعر أسود كثيف يشبه فى لونه وتسريحته شعر السيد ، تلوح فى عينيه نظرة طيبة وخمول لعلها أثر للراحة والفراغ والرضى . انحنى على يد الأم ليقبلها فجذبتها بسرعة فى خجل وارتباك وهى تتمتم شاكرة ثم سلم على خديجة وكمال وجلس وكأنه ــ على حد تعبير كمال فيما بعد ــ واحد منهم . وانتهز الغلام فرصة تشاغل العريس بتحديثهم وتفرس فى وجهه طويلا ، ذاك الوجه الغريب أصلا الذى برز فى محيط حياتهم ليحتل مكانا مرمرقا يؤهله لأن يكون أقرب الأقرباء أو بالأحرى أن يكون قرينا لوجه عائشة . كلما خطر هذا على باله جر وراءه ذاك كما يجر الأبيض الأسود . تفرس فيه طويلا وهو يردد فى نفسه قوله الممتلىء ثقة « لن تعود اليكم يا سى كمال » فوجد نحوه انكارا ونفورا وحقدا كادت تتمكن من قلبه لولا أن قام الرجل فجأة ومضى الى الخارج ثم عاد حاملا صينية فضية ملئت حلوى من مختلف الألوان فقدم له باسما ــ وان كشف افترار ثغره عن سنتين ركبت احداهما الأخرى ــ نخبة من أشهى الأصناف ، وجاءت حرم المرحوم شوكت معتمدة على ذراع رجل استدلوا بمشابهته بخليل على أنه أخوه الأكبر ، ثم وكد استدلالهم تقديم الأرملة بقولها « ابراهيم ابنى .. ألم تعرفوه بعد ؟ ! » وعند ما لاحظت ارتباك أمينة وخديجة حال التسليم قالت باسمة

« نحن كالأسرة الواحدة من قديم الزمان ولكن بعضنا يرى البعض الآخر الساعة لأول مرة ... لا بأس .. ! » فظنت أمينة الى أن المرأة تشجعها وتهون عليها الأمر فابتسمت ، ولكن ساورها شيء من القلق وتساءلت : ترى هل يوافق السيد على مقابلتهما لهذا الرجل ـ وان عد عضوا جديدا فى الأسرة كخليل سواء بسواء ـ بغير نقاب ؟.. وهل تكاشفه بالمقابلة أو تتحاشى ذكرها ايثارا للسلامة ؟..

كان ابراهيم وخليل أشبه بالتوأمين لولا فارق السن ، على أن اختلافهما بدا أقل من القليل بالقياس الى اختلاف عمريهما ، والحق أنه لولا قصر شعر ابراهيم ، ولولا شاربه المفتول ، لما كان ثمة ما يميزه عن خليل ، كأنه لم يبلغ الأربعين ، أو كأن شبابه ومظهره لا يتأثران بكرور الأعوام ، لذلك ذكرت أمينة ما حدثها به السيد مرة عن المرحوم شوكت من أنه « كان يبدو أقل من عمره الحقيقى بعشرين عاما أو يزيد » أو قوله عنه « انه رغم طيبته ونبله كان كالحيوان لا يسمح لفكره أبدا بأن ينغص عليه صفوه ! » ، أليس عجيبا أن يبدو ابراهيم فى الثلاثين مع أنه تزوج فى صدر شبابه وأنجب طفلين ثم ماتت زوجه وطفلاه ؟! ولكنه مرق من تجربته القاسية سالما لم يمس ، ثم عاود الحياة مع أمه فى خمول ودعة وفراغ شأن آل شوكت جميعا ، راق خديجة أن تسترق النظر ـ كلما أمنت أعين الرقباء ـ الى الشقيقين ، الى أوجه الشبه العجيبة بينهما ، بيضاوية الوجه وامتلائه ، جحوظ العينين الواسعتين ، البدانة ، الخمول ، فحرك كل أولئك السخرية الكامنة فى نفسها حتى ضحكت أفكارها ومضت تدخر فى ذاكرتها من الصور ما تعود اليه اذا ضمها مجلس القهوة ومالت جريا على سنتها فى التهكم الى العبث والاضحاك ، والى هذا فكرت باهتمام فى اختيار اسم وصفى عياب لهما على مثال الأسماء الوصفية التى تطلقها على ضحاياها من الناس أو بالأحرى أسوة بأمهما التى

تطلق عليهـا « المدفع الرشـاش » لتناثر ريقها عند الحـديث . واسترقت مرة نظرة الى ابراهيم فما راعها الا أن تلتقى عيناها بعينيه الواسـعتين وهما تتفرسـان في وجهها باهتمام من تحت حاجبيه الكثيفين فغضت بصرها فى حياء وارتباك ، وتساءلت فى خوف المريب عما عسى أن يظنه بنظرتها ، ثم وجدت نفسها تفكر بقلق فى منظرها وما يمكن أن يتركه فى نفسه من أثر . ترى أيسخر من أنفها كما سخرت من بدانته وخموله ؟!.. واستغرقها التأمل والقلق ..

سئم كمال الجلسة التى وان تكن جمعته بعائشة الا أنها جمعته بها على نحو ما تجمع بين الضيوف فلم تحقق ـ عدا ما منحت من حلوى ـ شيئا من رغابه ، فانتقل الى جوار العروس وأبدى لها اشارة فهمت منها أنه يريد أن يخلو بها فقامت واخذته من يده وغادرا الحجرة ، ظنته قانعا بمجالستها فى الصـالة ولكنه جذبها من يدها الى حجرة النوم ورد الباب وراءهما حتى ارتج . انطلقت أساريره ولمعت عيناه ، وتطلع اليها طويلا ثم تصفح الحجرة ركنا ركنا وهو يتشمم رائحة الأثاث الجـديد مازجها أريج زكى لعله بقيه مما انتشر من أيدى المتطيبين وصدورهم ، ثم رنا الى الفراش الوثير ، الى النمرقيتين الورديتين المتجاورتين على الغطاء فوق الوسائد وسألها « ما هما ؟ » فأجابته « وسـادتان صغيرتان » فسألها « أتتوسدينهما ؟ » قالت باسمة « كلا هما للزينة فقط » فأشار الى الفـراش متسائلا « أين تنامين ؟ » فأجابت باسـمة أيضا « فى الداخل » فسألها كأنه متوكد من انه ينام معها « وسى خليل ؟ » فأجابت وهى تقرص خده برقة « فى الخارج .. » عند ذاك التفت صوت « الشيزلنج » بغرابة ، وسار اليه وجلس ، ودعاها الى الجلوس جنبه فجلست ، وما لبث أن غاب فى الذكريات غاضا بصره ليخفى نظرة مريبة وصمها بالريبة اشتداد أمله بالحملة عليه مساء ليلة الزفاف وهو يسر اليها بما رأى من ثقب الباب ،

راودته نفسه على أن يبوح لها بسره ، أن يسألها عنه ، تحت ضغط اغراء لا يخلو من قسوة ، ولكن الخجل الناجم عن الشعور بالريبة عقله فشكم رغبته على رغمه ؛ ثم رفع اليها عينين صافيتين وابتسم اليها ، فابتسمت اليه ومالت نحوه فقبلته ، ثم نهضت قائلة وملء وجهها ابتسامة حلوة :

ـ لأملأن جيوبك بالشيكولاتة . .

ـ ٤٤ ـ

تصايح الغلمان المتجمهرون أمام البيت وعلى طوار سبيل بين القصرين مهللين ، وتميز صوت كمال وهو يهتف « هلت سيارة العروس » ورددها ثلاثا فخرج ياسين ـ وهو فى كامل زينته وأبهته ـ من بين الجماعة الواقفة عند مدخل الفناء ومضى الى الطريق فوقف أمام الباب متجها صوب النحاسين فرأى موكب العروس وهو يتقدم على مهل كأنه يتبختر . فى تلك الساعة الحافلة بالسعادة والرهبة وعلى رغم الأعين المحملقة فيه من داخل البيت وخارجه ومن فوق ومن تحت ، بدأ ثابتا غير هياب مفعما رجولة وفحولة ، لعل مما أيده فى ثباته احساسه بأنه محط الأنظار فغالب بشجاعة ما يخفق بين جوانحه من اضطراب أن يبدو للناظرين فى حال تخجل منها الرجولة ، ولعله أيضا علمه بأن أباه منكمش فى مؤخرة الجماعة المنتظرة عند مدخل الفناء ـ التى تضم آل العروسين من الذكور ـ بحيث لا تمتد اليه عيناه ، فوسعه أن يتمالك نفسه وهو يرنو الى السيارة الموشاة بالورود التى تحمل اليه عروسه بل زوجه منذ أكثر من شهر وان لم تقع عيناه عليها بعد ، أو الأمل الذى صاغه بأحلامه الظامئة لسعادة لاتقنع

بمـا دون الدوام . وتوقفت السيارة أمام البيت على رأس ذيل طويل من السيارات فأخذ أهبته للاستقبال السعيد وقد استجدت عنده الرغبة فى أن يستشف النقاب الحريرى ليرى وجه عروسه لأول مرة ، ثم فتح باب السـيارة وترجلت جارية سـوداء فى الأربعين قوية البنية لماعة البشرة نجلاء العينين فاستدل بما يلوح على حركاتها من الثقة والادلال على انها الجارية التى تقرر الحاقها بخدمة العروس فى بيتها الجديد ، تنحت جانبا ووقفت منتصبة القامة كالديدبان ثم خاطبته بصوت كرنين النحاس وهى تبتسم عن أسنان ناصعة البياض قائلة :

ــ تفضل خذ عروسك ..

فتقدم ياسين من باب السيارة ومال الى الداخل قليلا فرأى العروس فى حلتها البيضاء بين غادتين على حين استقبله عرف طيب مفتنة للجوارح فتاه فى جو الحسن منبهرا ، ومد لها ذراعه لا يكاد يرى شيئا كما يكل بصر طالع نورا ساطعا ، وعقل الحياء العروس فلم تبد حراكا فتطوعت التى الى يمينها فتناولت يدها وطرحتها على ذراعه هامسة بنبرة ضاحكة :

ــ تشجعى يا زينب ..

دخلا جنبا لجنب وهى من الحيـاء تحول بينه وبينها بمروحة كبيرة من ريش النعام وارت بها رأسها وعنقهـا فقطعا الفناء بين صـفين من المنتظرين يتبعهما المدعوات من آلهـا اللواتى تعالت زغاريدهن كأنهن لايبالين السيد احمد وقيامه على ذراع منهن ، هكذا لعلعت الزغاريد فى البيت الصامت لأول مرة وعلى مسمع من سيده الجبار ، فلعلها وقعت من آذان أهله موقع الدهشة ، بيد أنها دهشة مزجت بالفرح ولم تخل من شماتة بريئة مرحة روحت بها القلوب عن قرار الحظر الصارم الذى قضى بألا تكون زغاريد ولا غناء ولا لهو ، وبأن تمضى ليلة زفاف الابن البكر كما تمضى غيرها من الليـالى ، وتبادلت أمينة وخديجة وعائشـة النظرات

متسائلات باسمات وتكأكأن على خصاص نافذة مطلة على الفناء ليشهدن أثر الزغاريد فى نفس السيد فرأينه يحادث السيد محمد عفت ضاحكا فتمتمت أمينة قائلة: «لن يسعه الليلة الا أن يضحك مهما يبد مما لا يروقه ! » وانتهزت أم حنفى الفرصة السانحة فاندست بين المزغردات كالبرميل وأطلقت زغرودة قوية مجلجلة غطت على الزغاريد كلها وعوضت بها ما ضيعت ـ فى ظل الارهاب ـ من فرص المرح والمسرة على عهد خطبتى عائشة وياسين ، وأقبلت على سيداتها الثلاث وهى تزغرد حتى استغرقن فى الضحك ثم قالت لهن « زغردن ولو مرة فى العمر .. انه لن يدرى الليلة من المزغرد ! » . رجع ياسين بعد ايصال العروس الى باب الحريم فالتقى بفهمى الذى لاحت على شفتيه ابتسامة موحية بالحرج والاشفاق لعلها أثر مما خلفته فى نفسه هذه الضجة البهيجة « المحرمة » ، وكان يخالس أباه النظر ثم يرده الى وجه أخيه ضاحكا ضحكة مقتضبة مغضوضة ، فما كان من ياسين الا أن قال له بلهجة ، لا تخلو من استياء :

ـ اى استنكار فى أن نحيى ليلة الزفاف بالفرح والزغاريد ؟!.. وماذا كان عليه لو وافق على استدعاء عالمة أو مغن ؟!

تلك كانت رغبة الأسرة التى لم تجد الى الافصاح عنها من سبيل الا أن تحرض ياسين على الاستشفاع بالسيد محمد عفت على أبيه ، ولكن السيد اعتذر وأبى الا أن تكون ليلة زفاف صامتة وأن تقتصر مسراتها على العشاء الفاخر . وعاد ياسين يقول آسفا :

ـ لن أجد من تزفنى فى هذه الليلة التى لن تتكرر أبد الدهر !.. سأدخل حجرة العروس غير مشيع بالأناشيد والدفوف كأننى راقص يهز جذعه دون ايقاع ..

ثم لاحت فى عينيه ابتسامة مرحة ماكرة فقال :

ـ الذى لا شك فيه ان أبانا لا يطيق «العوالم» الا فى بيوتهن !

مكث كمال فى الدور الأعلى الذى أعد لجلوس المدعوات ساعة

ثم نزل باحثا عن ياسين فى الدور الأول الذى هيىء لاستقبال المدعوين ولكنه وجده فى فناء البيت يتفقد المطبخ المتنقل الذى أقامه الطاهى. فأقبل نحوه مسرورا ادلالا بأداء المهمة التى عهد بها اليه وقال له :

ـ فعلت كما أمرتنى فتبعت العروس حتى حجرتها وتفحصتها بعد أن حسرت النقاب عن وجهها ..

فانتحى به جانبا وهو يسأله باسما :

ـ هه ؟.. كيف عودها ؟

ـ فى عود أبله خديجة ..

ضاحكا :

ـ فى هذه الناحية لا بأس ؟.. أتعجبك كعائشة ؟

ـ كلا .. أبلة عائشة أجمل كثيرا .. !

ـ يخرب بيتك أتريد أن تقول أنها كخديجة ؟

ـ كلا انها أجمل من أبلة خديجة ..

ـ كثيرا ؟ !

فهز رأسه مفكرا فسأله الشاب بلهفة :

ـ حدثنى عما أعجبك فيها ؟.

ـ أنفها صغير كأنف نينة .. وعيناها كعينى نينة أيضا . !

ـ ثم ؟..

ـ لونها أبيض وشعرها أسود ورائحتها حلوة جدا ..

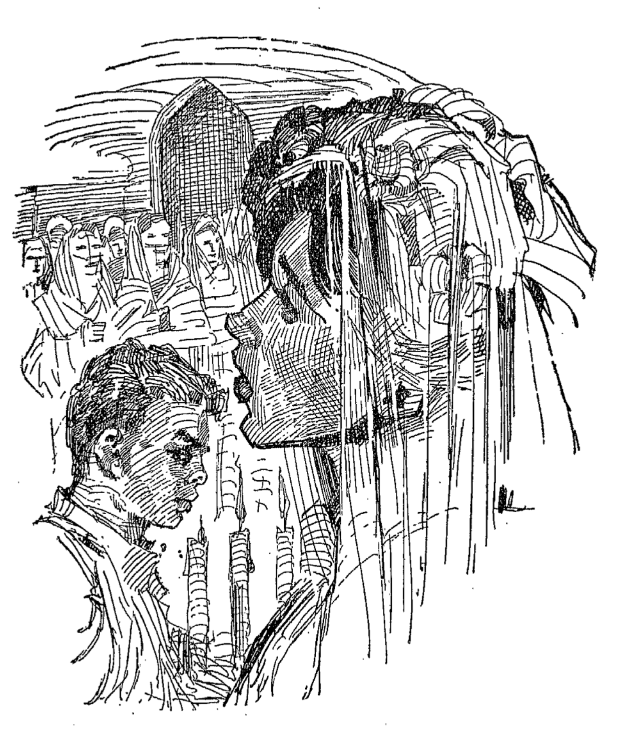
ـ نحمده .. ربنا يبشرك بخير ..

وخيل اليه أن الغلام يغالب رغبة فى معاودة الكلام فسأله فى شىء من القلق :

ـ هات ما عندك ولا تخف !

فقال كمال وهو يغض بصره :

ـ رأيتها تخرج منديلا ثم .. تتمخط !



انفها صغير كأنف نينة

والتوت شـفتاه تقززا كأنما كبر عليه أن تند تلك الفعلة عن عروس فى ريق فتنتها ، فما تمالك ياسين أن ضحك قائلا :

ــ لحد هنا عال ، ربنا يجعل العواقب سليمة !

ألقى نظرة كئيبة على الفناء الخالى الا من الطاهى وصـبيانه ، وبعض الأولاد والبنات فتخيل ما كان ينبغى أن يوجد من معالم الزينة وسرادق الطرب ومجلس المدعوين ، من قضى بهـذا ؟.. ابوه !.. الرجل الذى يفوح عرقه بالمجون والعربدة والطرب .. أعجب به من رجل يحل لنفسـه اللهو الحرام ويحرم على بيته اللهو الحلال . وراح يتخيل مجلس السيد كما رآه فى حجرة زبيدة بين الكاس والعود فما يدرى الا وقد وثبت الى ذهنه فكرة غريبة لم تخطر له من قبل على شدة وضوحها فيما رأى ، تلك هى التشابه بين طبيعتى أبيه وأمه ! طبيعة واحدة فى شهوانيتها وجريها وراء اللذة فى استهتار لا يقيم وزنا للتقاليد ، ولعل أمه لو كانت رجلا لما قصرت عن أبيه فى اللهج بالشراب والطرب أيضا ! لذلك انقطع ما بينهما ــ أبيه وأمه ــ سريعا ، فما كان لمثله أن يطيق مثلها وما كان لمثلها أن تطيق مثله ، بل ما كانت الحياة الزوجية لتستقيم له لولا وقوعه على زوجته الراهنة !.. ثم ضاحكا ضحكة لم يتح لها روعه من هذه « الفكرة الغريبة » روحا من السرور « عرفت الآن من أكون ، لست الا ابن هذين الشهوانيين ، وما كان لى أن أكون غير ماكنت !» . فى اللحظة التالية تساءل : ترى الم يخطئه الصواب عند اغفال دعوة أمه الى زفافه ؟! تساءل رغم اصراره على الاعتقاد بأنه لم يتنكب عن الصواب ، لعل أباه رام راحة ضميره حينما قال له قبل ليلة الزفاف بعدة ليال « ارى أن تبلغ أمك ، ولك ان شئت أن تدعوها الى شهود زفافك » ذاك قوله بلسانه لا بقلبه فيما يعتقد ، فما يتصور أن يرضى أبوه له بأن يذهب الى حيث يقيم ذلك الرجل الحقير الذى اتخذته أمه زوجا لها من بعد أزواج كثيرين ، وأن يتودد اليها على مرأى منه بأن يدعوها الى شهود

زفافه ، لا كان الزفاف ، ولا كانت أى سعادة فى هـذه الدنيا ان حملته يوما على أن يصل ما انقطع بينه وبين تلك المرأة .. تلك الفضيحة .. تلك الذكرى المخزية ! وما كان منه الا أن أجاب أباه وقتذاك قائلا : « لو كان لى أم حقـا لكانت أول من أدعـو الى زفافى ! » . انتبـه فجأة الى الأولاد والبنـات وهم يرنون اليـه ويتهامسون فخص البنات بنظرة وسألهن بصوت جهورى ضاحك «هل تحلمن بالزواج من الآن يا بنات ؟» واتجه نحو باب الحريم وهو يذكر قول خديجة الساخر له بالأمس « اياك وأن تستسلم غدا للحياء بين المدعوين والا عرفوا الحقيقـة المرة وهى أن أباك الذى زوجك ونقد مهرك وجمـلة تكاليف ليلتك ، ولـكن تحرك بلا توقف ، تنقل بين حجرات المدعوين ، ضاحك هذا وكلم ذاك ، اطلع وانزل ، تفقد المطبخ ، اهتف وازعق ، لعلك توهم الناس بأنك حقا زجل الليلة وسـيدها ! » فمضى ضاحكا وفى نيته أن يمتثل النصيحة الساخرة فخطر بين المدعوين بجسمه الطويل الجسيم فى أناقة بديعـة وسامة جذابة وشـباب ريق ، ذهب وجاء ، ونزل وطلع ، وان لم يفعل شيئا ، بيد أن الحـركة نفضت عن نفسـه طوارىء الفكر فصفت نفسه لمفاتن الليلة . ولما خطرت العروس على قلبه سرت فىبدنه قشعريرة بهيمية ، ثم ذكر آخر ليلة قضاها عند زنوبة العوادة منذ شهر ، كيف أنبأها بزواجه الوشيك وهو يودعها وكيف هتفت به بلهجة اصطنعت الغيظ « يابن الكلب !.. كتمت الخبر حتى نلت وطرك !.. (المركب اللى تودى أحسن من اللى تجيب) .. مع ألف شبشب يابن المركوب » ، لم تعد لزنوبة من أثر فى نفسـه ، ولا لغيرها ، أسدل الستار على هذا الجانب من حياته الى الأبد ، ربما عاود الشراب فما يظن أن تموت رغبته فيه ، أما النساء فلم يتصور أن تزيغ عيناه الى امرأة عابرة وبين يديه حسناء طوع بنانه ، عروسه لذة متجددة ، رى للظمأ الوحشى الذى طالما قلقل كيانه ، ثم راح يتمثل حياته المقبلة ، الليلة ، والليالى

الآتيات ، الشهر والعام فالعمر كله ، ووجهه يسطع بهجة ناطقة لحظها فهمى بعين مليئة بحب الاستطلاع والغبطة الهادئة وغير قليل من الأسى . وجاء كمال الذى كان يتراءى فى أى مكان فجأة وخاطب ياسين والبشر يتألق فى وجهه قائلا :

ـ الطاهى قال لى ان الحلوى تزيد على حاجة المدعوين والمدعوات وانه سيتبقى منها مقدار وفير ..

— ٤٥ —

زاد مجلس القهوة وجها جديدا بانضمام زينب اليه ، وجها زكا بريق الشباب وفرحة العرس ، وفيما عدا هذا ، وفيما عدا فرش الحجرات الثلاث المجاورة لحجرة الوالدين فى الدور الأعلى بجهاز العروس ، فلم يحدث زواج ياسين تغييرا يذكر فى النظام العام للبيت سواء من الناحية السياسية التى ظلت خاضعة بكل معانى الكلمة لسلطان السيد وارادته أو من الناحية الادارية الداخلية التى ظلت وحدة تابعة لهيمنة الأم كما كان الحال قبل الزواج . التغيير الجوهرى حقا كان الذى طرأ على النفوس ودار مع الخواطر فدقت رؤيته على الحواس ، اذ لم يكن من اليسير أن تشغل زينب مكانة الزوجة للابن البكر وأن يجمعهما وبقية أفراد الأسرة بيت واحد من دون أن يطرأ على العواطف والمشاعر تطور ذو شأن . رمقتها الأم بنظرة امتزج فيها الرجاء بالحذر ، هذه الفتاة التى قضى عليها بأن تعاشرها دهرا طويلا ربما امتد حتى نهاية العمر ، أى انسان تكون ؟.. ماذا تخبىء وراء ابتسامتها الرقيقة ؟.. بالجملة استقبلتها كما يستقبل مالك البيت ساكنا جديدا فيؤمله ويحاذره ، أما خديجة فعلى رغم المجاملات التى تبودلت بينهما جعلت تسدد

نحوها عينين نافذتين مفطورتين على السخرية وسوء الظن ، منقبة عن العيوب والمآخذ بحرص ساخط لم يلق من انضمامها الى البيت وفوزها بالزواج من أخيها الا ضيقا خفيا ، فلما اعتكفت الفتاة فى حجراتها الأيام الأولى من الزواج ساءلت خديجة امها وهما فى حجرة الفرن « ترى هل حجرة الفرن مكان غير لائق « بها » ؟ » ومع أن الأم وجدت فى تهجمها ترويحا عن حيرة ظنونها الا انهـا اتخذت موقف الدفاع عن الفتاة وأجابتها قائلة : « صبرك ، لم تزل عروسا فى بدء عهدها الجديد ! » فتساءلت الأخرى بلهجة تشى بالاستنكار « ومن ذا الذى قضى بأن نكون خدما للعرائس ؟ ! » فسألتها أمها وكأنما تطرح السؤال على نفسها هى « أتفضلين أن تستقل بمطبخها ؟ » فهتفت خديجة معترضة « لو كان المال مال أبيها لا مال أبى لجاز هذا !.. ولكنى أعنى أنها يجب أن تعمل معنا» على أنه لما قررت زينب ، بعد انقضاء أسبوع على الزواج ، أن تحمل بعض الأعباء فى حجرة الفرن لم يرحب قلب خديجة بهذه الخطوة التعاونية ومضت تلاحظ عمل العـروس بدقة انتقادية وتقول لأمها : « لم تجىء لتعاونك ولكن لتمارس ما لعلها تدعيه لنفسها من حق . » أو تقول ساخرة « طالما سمعنا عن آل عفت انهم من الصفوة وانهم يأكلون مالا يأكل الناس .. فهل وجدت فى طهيها شيئا عجيبا لم نسمع به ؟! » بيد أن زينب اقترحت يوما أن تصنع «الشركسية» باعتبارها الصنف الأثير على مائدة أبيها ــ وهى المرة الأولى لدخول الشركسية فى بيت السيد ــ فحازت لدى تناولها اعجابا شاملا بلغ أقصاه عند ياسين حتى أن الأم نفسها لم تبرأ من لسعة غيرة ، أما خديجة فجن جنونها وجعلت تهزأ بالصنف قائلة «قالوا شركسية قلنا يعيش المعلم ولا يتعلم ولكن ماذا رأينا ؟. ارزا وصلصة فى هيئة بوليتيكا ، طعمها لا هنا ولا هناك .. كالعروس تزف الى عريسها فى حلة خلابة وحلى لألاء حتى اذا ما نزعت عنها ثياب العرس بدت فتاة عادية من نفس الخلطة المعروفة

من قبل أى اللحم والعظم والدم ! » ثم ما كاد يمضى على الزواج أسبوعان حتى قالت على مسمع من أمها وفهمى وكمال أن العروس وان كانت بيضاء البشرة وذات حظ « معتدل » من الجمال الا أن دمها ثقيـل كالشركسية سـواء بسواء . قالت هـذا فى نفس الوقت الذى أكبت فيه على استظهار دقائق صنع الشركسية بحذقها المعترف به ! على أن ثمة أحاديث صدرت عن زينب بحسن نية ـ فى الأقل لأن وقت سوء النية لم يئن بعد ـ فأثارت الخواطر وألقت عليها ظلا من الشك اذ طاب لها كلما تهيأت مناسبة أن تنوه بأصلها التركى وان التزمت الأدب واللطف كما لذ لها أن تروى لهم بعض ماشاهدت من رحلات فى حانطور والدها وبصحبته الى الملاهى البريئة والحدائق فوقع الحديث كله من نفس الأم موقعا أدهشها الى حد الانزعاج ، عجبت لتلك الحياة التى تسمع عنها لأول مرة ، وأنكرتها ، واستنكرت فيما بينها وبين نفسها هذه الحرية الغريبة استنكارا جاوز كل تقدير ، الى أن المباهاة بالأصل التركى ـ وان لطفت بالأدب والبراءة ـ ساءتها كثيرا لأنها كانت ـ على تخشعها وانطوائها ـ شديدة الاعتزاز بأبيها وبعلها فترى أنها بهما فى مكانة لا تدانى ، الا أنها كظمت ما قام بنفسها فلم تلق زينب منهـا الا اهتمام الأصغاء وابتسامة المجاملة ، ولولا حرص الأم الشديد على السلام لانفجرت خديجة حنقا ولساءت العاقبة ، على أنها نفست عن غيظها بطرق ملتوية ليس من شـأنها أن تعكر صفو السـلام كتعليقها على أنباء الرحلات مثلا ـ وهى التى لم يسعها أن تجهر فيها برأيها ـ بالمبالغة فى اظهار الدهشة ، أو بالهتاف وهى تحملق فى وجه محدثتها « يا خبر ! » أو بأن تضرب براحتها على صدرها وهى تقول : « ويراك السابلة وأنت تمشين فى الحديقة ! » ، أو بقولها : « ما كنت أتصـور امكان هـذا يا ربى ! » وغير ذلك من العبارات التى وان لم تفسح ألفاظها عن اساءة الا أن لهجتها المطوطة التمثيلية تضمنت أكثر من معنى كلهجة الزجر التى يصطنعها الأب

وهو يتلو القرآن مصليا اذا ما آنس من ابنه غير البعيد عنه اخلالا بالنظام أو الأدب وعز عليه لزجره صراحة أن يخرج من الصلاة ، لذلك لم تكن تخلو الى ياسين حتى تبادره مروحة عن غيظها الذى عز عليه المتنفس « يا سلام يا سلام على عروسك النزهية !» فيقول لها ضاحكا « هذه هى الموضة التركية التى تسمو على ادراكك ! » فتذكرها صفة « التركية » بالمباهاة الثقيلة على قلبها فتقول « على فكرة ، ست الدار تباهى كثيرا بأصلها التركى ، لماذا ؟ .. لأن جد جد جد جد جدها تركى ! .. حذار يا أخى فان خاتمة التركيات الجنون » ولكنه يقول لها مجاريا سخريتها « الجنون أحب الى من وجه أنفه يجنن ذا الذوق السليم ! » .

تراءى لأعين المتنبئين النقار المتوقع بين خديجة وزينب فى أفق الأسرة فنبهها فهمى الى ضبط لسانها أن يبلغ الفتاة شىء من هذرها ، وأشار محذرا اشارة خفية الى كمال الذى دأب على التنقل بينهم وبين العروس تنقل الفراشة ــ حاملة اللقاح ــ بين الأزهار! . . ولكن غاب عنه ــ كما غاب عن الأسرة جميعا ــ أن القدر كان يعمل من جانبه على الحيلولة بين الفتاتين ، اذ زارت البيت حرم المرحوم شوكت وعائشة زيارة لم يحلم أحد من قبل بأن تتوج بالنهاية التى توجت بها ، قالت العجوز تخاطب الأم على مسمع من خديجة :

ــ يا أمينة هانم جئتك اليوم خاصة لأخطب خديجة لابنى ابراهيم . . .

فرحة بلا تمهيد وان طال انتظارها حتى شق ، فلذلك سجع صوت المرأة فى أذنى الأم سجعا جميلا حتى انها لم تذكر أن قولا ــ قبله ــ بل صدرها بندى الطمأنينة والسلام كما بله فكاد يستخفها الفرح وهى تقول بصوت متهدج :

ــ ليس لى فى خديجة أكثر مما لك ، هى ابنتك ولتجدن فى حماك أضعاف ما تجد فى بيت أبيها من السعادة ..

استرسل الحديث السعيد الا أن خديجة جعلت تغيب عنه

فيما يشبه الذهول ، خفضت عينيها فى حياء وارتباك وقد زايلتها روح السخرية التى طالما توهجت فى حدقتيها ، فشملتها وداعة غير معهودة ثم جرت مع تيار خواطرها . جاء الطلب مفاجأة ، وأى مفاجأة ، فكما بدا عسيرا فى غيابه بدا غير مصدق فى حدوثه حتى لقد غشت فرحتها بموجة ثقيلة من الذهول .. « لأخطب خديجة لابنى ابراهيم » .. ماذا دهاه ؟.. انه على خموله الذى أثار هزأها حسن المحيا وجيه فى الرجال ، فماذا دهاه ؟!..

ــ ومن حسن الطالع أن يجمع بين الأختين فى بيت واحد .

صوت حرم المرحوم شوكت يؤكد الحقيقة ويزكى وجوهها .. ليس ثمة شك .. ابراهيم مثل خليل مالا وجاها فأى حظ ادخرته لها الأقدار . لشد ما أسفت على أن عائشة سبقتها الى الزواج اذ لم تكن تدرى أن زواج عائشة هو الذى قدر له أن يفتح لها أبواب الحظ المغلقة ..

ــ ما أجمل أن تكون السلفة هى الشقيقة فيزول سبب جوهرى من أسباب وجع الدماغ فى الأسر (ثم ضاحكة) فلا تبقى الا حماتها وأظن أمرها هينا ..!

ــ ان تكون سلفتها هى شقيقتها فحماتها هى أمها بلا نقصان .

لم تزل الأمان تتجاملان ، لقد أحبت العجوز وهى تزف اليها البشرى بقدر ما أبغضتها يوم خطبت عائشة !. يجب أن تعلم مريم بالخبر اليوم ، لا تطيق أن تؤجله الى الغد ، لاتدرى ما الدافع الى هذه الرغبة الملحة ، لعله قول مريم لها غداة خطبت عائشة «ماذا كان عليهم لو أنهم انتظروا حتى تتم خطبتك أنت !» فأغراها وقتذاك سوء ظنها المطبوع باتهام براءته الظاهرة . ولما انصرفت أسرة شوكت قال ياسين بقصد التحرش والدعابة :

ــ الحق انى مذ رأيت ابراهيم شوكت قلت لنفسى ما أجدر هذا الرجل الثور الذى لايبدو أنه يفرق بين الأبيض والأسود أن يقع اختياره يوما على زوجة مثل خديجة ..

فابتسمت خديجة ابتسامة خفيفة ولم تنبس بكلمة فهتف بدهشة :

ـ هل عرفت الأدب والحياء أخيرا !

بيد أن وجهه نطق وهو يمازحها بالرضا والغبطة فلم يعكر صفوهم الا حين تساءل كمال فى قلق :

ـ أتتركنا خديجة ايضا ؟

فقالت الأم تعزيه وتعزى نفسها :

ـ ليست السكرية بعيدة . .

على أن كمال لم يستطع أن يدلى بما عنده فى حرية كاملة الا حين انفرد بأمه ليلا فتربع قبالتها على الكنبة وسألها بصوت ينم عن الاحتجاج واللوم :

ـ ماذا جرى لعقلك يا نينة ؟. أتفرطين فى خديجة كما فرطت فى عائشة ؟

فأفهمته أنها لم تفرط فيهما ولكنها ترضى بما يسعدهما . فقال محذرا كأنما ينبهها الى شىء فاتها ويوشك أن يفوتها مرة أخرى :

ـ ستذهب هى الأخرى ، ربما ظننت أنها ستعود كما ظننت بعائشة ، ولكنها لن تعود ، وستزورك اذا زارتك كالضيفة فما أن تشرب القهوة حتى تقول لك السلام عليكم ، أنى أقولها فى صراحة انها لن تعود . .

ثم محذرا وواعظا فى آن :

ـ ستجدين نفسك وحدك بلا رفيق ، من يعينك على الكنس والتنفيض ؟. . من يعينك فى حجرة الفرن ؟ من يجالسنا فى جلسة المساء ؟. . من يضحكنا ؟. . لن تجدى الا أم حنفى التى سيخلو لها الميدان لسرقة طعامنا كله . .

فأفهمته مرة أخرى أن السعادة لن تكون بلا ثمن ،فقال محتجا :

ـ ومن أدراك أن فى الزواج سعادة ؟!. أؤكد لك أنه لا سعادة

مطلقا فى الزواج ، كيف يحظى أحد بالسعادة بعيدا عن نينة ؟.
ومردفا بحماس :
ــ ثم أنها لا ترغب فى الزواج كما لم ترغب فيه عائشة من قبل .. لقد صارحتانى بذلك ذات ليلة فى فراشهما .. !
ولكنها قالت له انه لابد للفتاه من أن تتزوج ، فلم يتمالك من ان يقول :
ــ من قال بأنه لابد للفتاة من أن تذهب الى بيوت الغرباء !. ثم ماذا تفعلين لو أجلسها الآخر على الشيزلنج وتناول ذقنها هى الأخرى و ..
عند ذاك زجرته وأمرته بألا يتكلم فيما لا يعنيه فضرب كفا بكف وهو يقول منذرا :
ــ أنت حرة .. وسترين !
فى تلك الليلة لم يغمض لأمينة من يقظة الفرح جفن كأنها السماء المقمرة لا تغشاها الظلماء ، فظلت مستيقظة حتى جاء السيد بعد منتصف الليل ، ثم زفت اليه البشرى فتلقاها بغبطة أطارت عن رأسه الخمار بالرغم مما فى هذا الرأس من نظريات غريبة عن زواج البنات ، الا أنه تجهم بغتة متسائلا :
ــ هل أتيح لابراهيم أن يراها ؟!
ساءلت المرأة نفسها ألا يمكن أن يدوم ابتهاجه ــ ونادرا ما يعلنه ــ أكثر من نصف دقيقة وتمتمت فى قلق :
ــ أمه ..
فقاطعها محتدا :
ــ لا أسأل عن أمه ، هل أتيح له أن يراها ؟
فقالت وقد ولى عنها السرور لأول مرة فى تلك الليلة .
ــ دخل علينا مرة فى شقة عائشة باعتباره فرداً من الأسرة فلم أر فى ذلك من بأس ..
فتساءل مزمجرا :

ــ ولكنى لم أعلم بذلك ..

كل شيء ينذر بالشر ، ترى هل يهوى على مســتقبل الفتاة بضربة قاضية ؟.. على رغمها اغرورقت عيناها بالدمع وما تدرى الا وهى تقول مستهينة بغضبته المكفهرة :

ــ سيدى ، حياة خديجة وديعة بين يديك ، هيهات أن يبتسم لها الحظ مرتين ..

فرماها بنظــرة قاسية وراح يهدر مدمدما مهينمــا مهمهما كأنما رده الغضب الى حالة من حالات التعبير بالأصوات التى مر بها أسلافه الأولون ، ولكنه لم يزد على ذلك شيئا ، لعله أضمر الموافقة من أول الأمر ولكنه أبى أن يســلم بها قبل أن يسجل سخطه كالسياسى الذى يهاجم خصمه ــ وان اقتنع بالغاية التى يستهدفها ــ ذودا عن مبادئه ..

ــ ٤٦ ــ

مضى شهر العســل وياسين متفرغ بكليته لحيــاته الزوجية الجديدة ، لا يصرفه عنها عمل فى النهار حيث وافق زواجه أواسط العطلة الصيفية ، ولا سهر بالليل خارج البيت لأنه لم يكن يغادره الا للضرورة القصوى كابتياع زجاجة كونياك مثلا ، وفيما عدا هذا لم يجد لنفسه عملا أو معنى أو صــفة خارج نطاق الزوجية فاندلق عليها بقوة وحماس وتفاؤل خليقة برجل ظن انه ينفذ الخطوات الأولى من برنامج ضخم من المتعة الجسدية سيمتد يوما بعد يوم وشهرا بعد شهر وعاما بعد عام . ولكنه ادرك فى الثلث الأخير من الشهر أن تفاؤله لابد أن يكون مبالغا فيه على نحو ما أو أن خللا لا يدرى كنهه قد طرأ على حياته ، كان يعانى فى حيرة

بالغة ولأول مرة فى حياته ذاك المرض المتوطن فى نفس الانســان الملل . لم يعرفه من قبــل عند زنوبة ولا حتى عند بائعة الدوم لأنه لم يملك هذه أو تلك كما يملك زينب الآن بيمينه ويحوزها تحت سقف بيته ، فأى فتور يتبخر من هذه «الملكية» الآمنة المطمئنة . . الملكية ذات الظاهر الخلاب المغرى لدرجة الموت والباطن الرزين الثقيل لحد اللامبالاة أو التقزز كأنها الشيكولاتة المزيفة التى تهدى فى أول ابريل بقشرة من الحلوى وحشو من الثوم ، وأى مأســاة فى أن تندمج نشوة القلب والجسد فى آلية العادة المنظمة العاقلة الباردة المتكررة القاتلة للشعور والجدة كأنها رؤية روحانية رفيقة تجسدت فى صلاة لفظية ترددها الذاكرة بلا وعى ! . . وراح الفتى يتساءل عما دهى ثورته ، عما هدى شياطينه ، عن ذاك الشبع وأين جاء ، عن تلك الفتنة أين ذهبت ، أين ياسين وأين زينب ، أين الأحلام ، أهذا شأن الزواج أم شأنه هو ، وكيف اذا تتابعت الشهور فى أعقاب الشهور . .؟ ليس أنه لم يعد له من رغبة فيها ، ولكنها لم تعد رغبة الصائم فى لذيذ المآكل ، هاله أن يدركها الهدوء حيث انتظر لها الازدهار ، وضاعف من حيرته أنه لم يبد على الفتاة عارض من عوارض رد الفعل أو بالأحرى أنها تزيد حيوية ورغبة فحينما يظن أن النوم بات واجبا بعــد طول التعب لا يدرى الا وساقها تطرح على ساقه كأنمــا طرحت عفوا حتى قال لنفســه « يا عجبا . . أحلامى عن الزواج تحققت عنــدها هى ! » . الى هذا كله وجد فى عناقها نوعا من الاحتشام وأن طاب له أول الأمر انه جعله يهيم آخرا فى وديان الذكريات التى ظن انه ودعهــا الى الأبد ، طفت على رأسه من الأعماق « زنوبة » وأخريات كما تطفو ودائع البحر عند هدوء العاصفة لا لشر يبيت فالحق أنه مرق الى عش الزوجية عامر القلب بالنية الحسنة ، ولكن للموازنة والمقارنة والتأمل ، وليقتنع أخيرا بأن « العروس » ليست المفتاح السحرى لدنيا المرأة ، ليس يدرى كيف يخلص حقا للنوايا الحســنة التى

فرش بها طريق الزواج ، يبدو جانب ــ على الأقل ــ من أحلامه الساذجة عسير التحقيق وهو ظنه بأنه سيستغنى بأحضان زوجه عن العالم الخارجى ، وانه سيلبد بكنفها العمر كله ، ذاك حلم من أحلام الشهوة فى سذاجتها ، وسيجد من الآن فصاعداً أن الانقطاع عن عالمه وعاداته مما يشق عليه وليس ثمة ضرورة تدعو اليه ، وأنه ينبغى أن يتلمس وسيلة أو أخرى ــ الوقت بعد الوقت ــ ليحسن الهرب من نفسه وأفكاره وخيبته ، حتى المغنى المجيد اذا أطال فى تقاسيم الليالى انبعث فى نفس السامع الشوق الى الدخول فى الدور ، ثم أنه فى الانطلاق من محبسه فرصة للاختلاط بالأصحاب المتزوجين لعله يظفر عندهم بأجوبة مسكنة للأسئلة الحيرى التى تلح عليه ، ولن يتأتى له من وراء ذلك الدواء الشافى لكل داء . . وكيف يؤمن بعد اليوم بوجود دواء شاف لكل داء ؟!. يحسن به من الآن ألا يرسم برامج بعيدة المدى . لا يلبث أن تنهار ساخرة من قدرته على التخييل . ليقنع من تنسيق حياته بالخطوة تلو الخطوة حتى يرى أين يرسو ، وليبدأ بتنفيذ اقتراح اقترحته هى ــ زوجه ــ عليه بأن يخرجا معا .

ما تدرى الأسرة ذات مساء الا وياسين وزوجه يغادران البيت من دون أن يطلعا أحداً على مقصدهما بالرغم من أنهما قضيا معهم سهرة المساء . بدا الخروج بالنظر الى وقته المتأخر من ناحية والى وقوعه فى بيت السيد من ناحية أخرى حادثا غريبا أثار شتى الظنون فما عتمت خديجة أن استدعت نور جارية العروس وسألتها عما تعلم عن خروج سيدتها فأجابت الجارية بصوتها الرنان فى بساطة متناهية :

ــ ذهبا يا ستى الى كشكش بك . .

فهتفت خديجة وأمها فى نفس واحد :

ــ كشكش بك !

ليس الاسم غريبا عليهما ، اقتحم ذكره الدور وتغنى بأغانيه

كل من هب ودب ولكنه على ذلك يبدو بعيدا كأبطال الخرافات أو كزبلن ابليس السماء . أن يذهب ياسين بزوجه اليه أمر مختلف جدا ليس دونه أن يقال ذهبا الى محكمة الجنايات . رددت الأم عينيها بين خديجة وفهمى وتساءلت فيما يشبه الخوف .

ـ متى يعودان ؟

فأجابها فهمى وابتسامة لا معنى لها تفعم على شفتيه :

ـ بعد منتصف الليل ، وربما قبيل الفجر ...

صرفت الأم الجارية وانتظرت حتى غاب وقع أقدامها ثم قالت فى لهوجة وانفعال :

ـ ماذا دهى ياسين ؟!.. كان جالسا بيننا فى كامل عقله .. ألم يعد يعمل حسابا لأبيه ؟

فقالت خديجة فى حنق :

ـ ياسين أعقل من أن يدبر رحلة كهذه ، ليست قلة العقل عيبه ولكن به خنوع لا يليق بالرجال ، أقطع ذراعى ان لم تكن هى التى حرضته ..

فقال فهمى مدفوعا برغبة فى تلطيف الجو المتوتر وان نفر بطبعه الموروث من جرأة أخيه :

ـ ياسين ذو ميل قديم الى الملاهى ..

فضاعف دفاعه من حنق خديجة التى اندفعت قائلة :

ـ لسنا بصدد الحديث عن ياسين وميوله ، له أن يحب الملاهى كما يحلو له ، أو أن يواصل السهر فى الخارج حتى مطلع الفجر كلما شاء ، ولكن اصطحاب زوجه المصون معه فكرة لا يمكن أن تصدر عن ذاته فلعلها جاءته عن ايحاء عجز عن مقاومته خصوصا وأنه يبدو مستكينا بين يديها كالقطة الأليفة ، ثم أنها فيما أرى لا تتورع عن رغبة كهذه ألم تسمعها وهى تروى قصص الرحلات التى شاهدتها بصحبة والدها ؟!. لولا ايحاؤها ما أخذها معه الى كشكش بك ـ يا للفضيحة ! ـ فى هذه الأيام السود التى

ينجحر فيها الرجال فى البيوت كالفيران رعبا من الاستراليين ...
لم يقف التعليق على الحادث عند حد لما أثاره فى النفوس ـ سواء المهاجمة أو المدافعة أو المحايدة ـ من امتعاض ، كمال وحده تابع النقاش المحتدم فى صمت يقظ من دون أن يفطن الى السر الذى جعل من كشكش بك جريمة نكراء استوجبت ذاك النقاش كله وذاك الكرب كله ، أليس كشكش هذا صاحب التمثال الصغير الذى يباع فى الأسواق بجسم متوثب فى دعابة ووجه ضاحك ذى لحية عريضة وجبة فضفاضة وعمامة مقلوظة ؟ ! أليس هو من تنسب اليه الأغانى المرحة التى استظهر بعضا منها ينشده مع صديقه فؤاد بن جميل الحمزاوى وكيل أبيه ؟.. فبأى شر يتهمون هذه الشخصية اللطيفة التى ارتبطت فى خياله بالفكاهة والمرح ؟ .. لعل مرد هذا الكدر الى اصطحاب ياسين لزوجه لا الى كشكش بك نفسه ، فان كان ذلك كذلك فهو يتفق معهم فى الانزعاج من جرأة ياسين خصوصا وان زيارة أمه للحسين وما أعقبها من أحداث لا يمكن أن تبرح مخيلته ، أجل كان الأجدر بياسين أن يذهب وحده أو أن يأخذه « هو » أن كان يريد رفيقا لاسيما وأنه فى عطلة الصيف فضلا عن نجاحه المتفوق فى المدرسة ، وما يدرى الا وهو يقول متأثرا بأفكاره :
ـ ألم يكن من الأفضل أن يأخذنى أنا ..؟!
اندس تساؤله فى الحديث كما تندس نغمة غريبة مقتبسة فى لحن شرقى صميم ، فقالت خديجة :
ـ من الآن فصاعدا يحق علينا أن نعذرك فى قلة عقلك .. !
فندت عن فهمى ضحكة قائلا :
ـ ابن الوز عوام ..
بيد أن المثل رن فى أذنيه رنينا جافيا وكد أثره السىء تحديق أمه وخديجة فى عينيه باستغراب فانتبه الى خطئه غير المقصود وتداركه قائلا وقد دخله امتعاض وخجل :

ـ أخو الوز عوام !.. هذا ما قصدت أقوله ..

دل الحديث فى جملتـه على تحامل خديجـة على زينب من ناحية ، وخوف الأم من العواقب من ناحيةأخرى ، بيد أن أمينة لم تعلن ما فى نفسها كله . فى تلك الليلة عرفت فى نفسها امورا لم تكن تعرفها من قبل . أجل كثيراً ما وجـدت نحو زينب انكارا وضيقا ولكنه لم يبلغ أن يكون نفورا أو كراهية فعزته الى خيلاء الفتـاة بداع وبغـير داع ، ولكن هالهـا اليوم أن تخرق الآداب والتقاليد ، وأن تحل لنفسها ما لا يحل ـ فى نظرها هى ـ الا للرجال ، عابت هذا السلوك بين امرأة قضت عمرها حبيسة وراء الجدران ، امرأة دفعت صحتها وسلامتها ثمنا لزيارة بريئة لزين آل البيت لا لكشكش بك ؛ فمازج انتقادها الصامت شعور طافح بالمرارة والغيظ وكأن منطقها غدا يردد فيما بينها وبين نفسها « اما أن تنال الأخرى الجزاء أو فلتذهب الحياة هباء » . هكذا تلوث بالحنق والموجـدة ـ فى الشهر الأول من معـاشرته لامرأة جديدة ـ القلب الطاهر الورع الذىلم يعرف طوال حياتهالمحفوفة بالجد والصرامة والتعب الا الطاعة والعفو والصفاء . ولما آوت الى حجرتها لم تدر ان كانت تود ـ كما دعت بلسانها أمام ابنائها ـ أن يستر الله على « جناية » ياسين أم انها ترجو أن ينال أو بالأحرى أن تنال زوجه جزاءها من الزجر والتـأديب.؟ ، بدت تلك الليلة وكأنها لا يعنيها من أمر الدنيا جميعا الا أن تصان تقاليد الأسرة من كل عبث وأن يدفع عنها ما يتحرش بها من عدوان ، بدت.غيورا على الآداب الى حد القسوة فطمرت عواطفها الرقيقة المألوفة فى الأعماق باسم الاخلاص والفضـيلة والدين متعللة بها فرارا من ضميرها المتألم كالحلم الذى ينفس عن غرائز مكبوتة باسم الحرية أو غيرها من المبادىء السامية . جاء السيد وهى على تلك الحال من التصميم الا أن منظره بث الخـوف فى حناياها فانعقـد لسانها ، راحت تتابع حديثه وتجيب على أسئلته بذهن شـارد

وفؤاد خافق لا تدرى كيف تنفس عما احتدم بخاطرها ؛ وكلما مر الوقت واقترب ميعاد النوم ألحت عليها رغبة عصيبة فى الكلام ، كم ودت لو تتكشف الحقيقة بنفسها كأن يجىء ياسين وزوجه مثلا قبل اخلاد أبيه الى النوم فيتنبه السيد بنفسه الى فعلته النكراء فيجبه العروس الرعناء برأيه فى سلوكها بغير تدخل منها هى ــ الأم ــ لا شك أنه يحزنها بقدر ما يريحها .. انتظرت طويلا فى لهفة وقلق أن يطرق الباب الكبير ، انتظرت دقيقة بعد أخرى حتى تثاءب السيد وقال لها بصوت متراخ :

ــ اطفئى المصباح ..

حاقت بها الهزيمة فانحلت عقدة لسانها فقالت بصوت خافت مضطرب كأنها تناجى نفسها :

ــ تأخر الوقت ولما يعد ياسين وزوجه !

فحملق السيد فى وجهها وتساءل فى عجب :

ــ وزوجه ؟.. أين ذهبا ؟

ازدردت المرأة ريقها وقد ركبها الخوف ، من السيد ونفسها معا ، ولكن لم تجد بدا من أن تقول :

ــ سمعت الجارية تقول انهما ذهبا الى كشكش بك !

ــ كشكش !

عزف الصوت عاليا فى شراسة وتطاير الشرر من العينين اللتين ألهبهما الكحول ، وراح يطرح عليها السؤال تلو السؤال مزمجرا مدمدما حتى طار النوم عن رأسه فأبى أن يزايل مجلسه حتى يعود «الضالان» فانتظر وهو يغلى من الحنق ، ولما كان غضبه ينعكس على نفسها رعبا فقد ارتعبت كما لو كانت هى المذنبة ، ثم غصت بالندم على مابدر منها ، ندم عاجلها مبادرا عقب البوح بسرها مباشرة كأنها لم تبح الا كى تندم ، فلم تكن لتبخل بغال مهما غلا ساعتئذ لو تستطيع أن تصلح خطأها ، وقست على نفسها بلا تحفظ فاتهمتها بالوقيعة والشر ، ألم يكن الأجدر بها أن تتستر عليهما على

أن تنبههما الى خطئهما غدا ان كانت تريد الاصلاح حقا لا الانتقام ؟ .. ولكنها أذعنت لعاطفة شريرة ، عن عمـد وسوء نية ، فهيأت للفتى وعروسه نكدا لم يدر لهما بخلد وجرت على نفسها ندما بات يحرق نفسها المعذبة حرقا بلا رحمة ، وراحت تدعو الله ــ خجلى من ذكره ــ أن يلطف بهم جميعا ، مضى الوقت تقرع دقائقه قلبها بالألم حتى انتبهت على صوت السيد وهو يقول متهكما بمرارة :

ــ جاء سي كشكش ..

فأرهفت السمع وهى تتطلع بناظريها الى النـافذة المفتوحة المطلة على الفناء فترامى اليها صرير الباب الكبير وهو يغلق ، وقام السيد وغادر الحجرة فقامت بطريقة آلية ولكنها تسمرت فى مكانها جبنا وخزيا وضربات قلبها تتدافع حتى سمعت صوته الجهير وهو يخاطب القادمين قائلا « اتبعانى الى حجرتى » فتناهى بها الخوف فتسللت من الحجرة هاربة .. عاد السيد الى مجلسه يتبعـه على الأثر ياسين وزينب ، فحدج الفتاة بنظرة عميقة متجاهلا ياسين ثم قال بحزم وان نقى نبراته من الغلظة والجفاء :

ــ اصغى الى يا بنية جيدا ، أبوك أخى أو أوثق صلة ومودة ، فأنت ابنتى كخديجة وعائشة على السواء ، ماقصدت أبدا أن أكدر صفوك ولكن ثمة أمور أعد السكوت عنها جريمة لا تغتفر ، من ذلك أن تبقى فتاة مثلك خارج بيتها حتى هـذه الساعة من الليـل ، لا تحسبى أن فى وجود زوجك معك عذرا عن هذا السلوك الشاذ فان الزوج الذى يستهين بكرامته على هذا النحو غير خليق بأن يقيل من العثرات التى هو للأسف أول دافع اليها ، ولما كنت على يقين من براءتك أو بالأحرى من أنه لا ذنب لك الا أنك جاريته على هواه فرجائى اليك أن تعاونينى على اصلاح أمره بألا تستسلمى الى غواياته مرة أخرى ..

وجمت الفتاة واستحوذ عليها الذهول ، وعلى أنها كانت تحظى فى كنف أبيها بقسط من الحرية الا أنها لم تجد من نفسها شجاعة

على مناقشة الرجل بله معارضته ، كأن اقامتها فى بيئته شهرا أعدت شخصيتها بعدوى الخضوع لارادته التى يفرق حيالها كل حي فى البيت ، احتج باطنها بأن أباها نفسه استساغ أكثر من مرة أن يصحبها الى السينما ، وأنه لا يحق له منعها من شيء سمح به زوجها ، الى اقتناعها بأنها لم تخرق أدبا أو تهتك حرمة ، قال باطنها هذا وأكثر بيد أنها لم تستطع أن تنطق بكلمة واحدة حيال عينيه الملزمتين بالطاعة والاحترام وأنفه الكبير الذى بدأ — وهو يرفع رأسه — كأنه مسدس مسدد نحوها ، فانكتم حديثها الباطنى تحت مظهر من الرضى والأدب كما تنكتم الأمواج الصوتية فى جهاز الاستقبال بالمذياع باغلاق مفتاحه ، ثم ما تدرى الا وهو يسألها وكأنه يتمادى فى تحديه لها :

— ألك اعتراض على قولى ؟

فهزت رأسها بالنفى ورسمت شفتاها حرف « لا » دون أن تنطق به فقال لها :

— اتفقنا ، تفضلى الى حجرتك بسلام ..

غادرت الحجرة شاحبة الوجه فالتفت السيد صوب ياسين الذى أخفى عينيه فى الأرض ، ثم قال وهو يهز رأسه فى أسف شديد :

— الأمر جد خطير ولكن ما حيلتى ؟! .. لم تعد طفلا والا لكسرت رأسك ، ولكنك وا أسفاه رجل وموظف وزوج أيضا وان كنت لاتتورع عن العبث برباط الزوجية ، فما عسى أن أصنع بك ؟ أهذه نهاية تربيتى لك ؟ .. (ثم بصوت أذهب فى التأسف) .. ماذا دهاك ؟ .. أين الرجولة ؟ .. أين الكرامة ؟ .. يعز على والله أن أصدق ما وقع .

لم يرفع ياسين رأسه ولم يتكلم فظن صمته خوفا وشعورا بالخطأ — اذ لم يتصور أن يكون ما به سكر — ولكنه لم يجد فى ذاك عزاء ، بدا الخطأ أفظع من أن يترك بلا علاج حاسم ، فاذا لم يكن

من سبيل الى العلاج القديم ـ العصـا ـ فلا أقل من الحزم والا انتثر سلك الأسرة جميعا ، قال :

ـ ألم تعلم بأنى أحرم على زوجتى الخروج ولو لزيارة الحسين ؟ كيف اذن سولت لك نفسك أن تأخذ زوجك الى ملهى داعر لتسهر فيه الى ما بعد منتصف الليل ؟ .. يا أحمق أنت تدفع بنفسك وبزوجك الى الهاوية فأى شيطان ركبك ؟

وجـد ياسين فى الصمت آمن ملاذ أن تفضحه نبراته أو أن يسترسل فى الحـديث بطلاقة مريبة تنم فى النهـاية على سكره ، لا سيما وان خياله أصر على التسلل ـ هازئا بالموقف الخطير ـ من الحجرة فانطلق الى آفاق بعيدة بدت لرأسه الثمل راقصـة تارة ومترنحة أخرى ، ولم يستطع صوت أبيه على ما ابتعث فى نفسه من الرهبة أن يسكت الأنغام التى غناها المهرجون فى المسرح فكانت تثب الى ذهنه ـ على رغمـه .. بين لحظة واخرى كالأشـباح فى ليل المرعوب هامسة :

أبيع هدومى عشان بوسة · من خدك القشـدة يا ملبن
يا حـلوة زى البسبوسـة يا مهلبيـة كمان واحسـن

تغيب تحت تأثير الخوف ثم تطفر راجعة ، ولكن أباه ضـاق بالصمت فصاح به غاضبا :

ـ انطق حـدثنى عن رأيك فانى مصمم على الا يمـر الحادث بسلام !..

خاف عاقبة الصمت فخرج عنه متهيبا مضطربا ثم قال وهو يبذل قصارى جهده ليتمالك نفسه :

ـ كان والدها يعاملهـا بشىء من التسامح .. (ثم متعجلا) ولكنى أقر بأنى أخطأت ..

فصاح السيد مغضبا ومتجاهلا الجملة الأخيرة ..

ـ لم تعـد فى بيت أبيهـا ، عليها أن تحترم آداب الأسرة التى صارت عضـوا فيها ، أنت زوجها وسـيدها وبيدك وحـدك أن

تصورها فى أى صورة تشاء ، خبرنى عن المسئول عن ذهابها معك أنت أم هى ؟ . .

شعر على سكره بالفخ المنصـوب له ولكن الخوف دفعه الى التوارى فغمغم :

ـ لما علمت بنيتى فى الخروج توسلت الى أن أصطحبها . .

فضرب السيد كفا بكف وهو يقول :

ـ أى رجـل فى الرجال أنت ؟ . . كان الجـواب الخليق بهـا لطمة ! . . انه لا يفسد النسـاء الا الرجال وليس كل الرجال جديرا بالقيام على النسـاء . .

ثم محتدا :

ـ وتذهب بها الى مكان ترقص فيه النساء نصف عرايا . . ؟

تخايلت لعينيه الصور التى أفسدها تعرض أبيه على رأس السلم وعادت الأنغام تتجاوب فى رأسه « أبيع هدومى . . » ولكن ما يدرى الا والرجل يقول متوعدا :

ـ لهذا البيت قانون أنت تعرفه فوطن نفسك على احترامه ما رغبت فى البقاء فيه . .

ـ ٤٧ ـ

قامت عائشة بتزيين خديجة خير قيام بهمة لا تجارى ومهارة فائقة كأن التزيين خير مهمة تؤديها فى الحياة على أكمل الوجوه ، فبدت خديجة عروسا حقا تأخذ أهبتها للانتقال الى بيت العريس وأن ادعت ـ جريا على عادتها فى التقليل من شأن الخدمات التى يؤديها لها الغير ـ ان أكبر الفضـل فى اظهارها بالمظهر اللائق انما يعود الى سمأنتها هى قبل كل شىء ! على أن « جمالها » لم يعد

مثار وساوسها مذ طلب يدها رجل اتفق له أن رآها بعينيه ، بيد أن جميع مظاهر السعادة التى أحاطت بها لم تستطع أن تمحو من نفسها خفقات الحنين الذى دب فى أعماقها لوشك البين ، حنين خليق بفتاة مثلها لم يخفق قلبها بحب شيء فى الوجود كحبها لآلها وبيتها جيعا من الوالدين المعبودين الى الدجاج والبلاب والياسمين، حتى الزواج نفسه الذى طالما تحرقت فى انتظاره بجزع الملهوف لم يكن ليهون عليها مرارة الفراق ، من قبل أن تطلب يدها بدت كاللاهية عن حب البيت واعزازه ، وربما غلب عليها الضجر فى مضطرب الحياة فوارى عواطفها العميقة الصادقة لأن الحب كالصحة، يهون فى الوصال ويعز عند الفراق ، فلما أن اطمأنت على مستقبلها أبى قلبها أن ينتقل من حياة الى حياة دون جزع شديد كأنما يكفر عن اثم أو يضن بغال ، تطلع كمال اليها صامتا ، لم يعد يتساءل هل تعودين ، بعد أن عرف أن التى تتزوج لا تعود الا انه خاطب شقيقتيه مغمغما (سوف أزوركما كثيرا عقب الخروج من المدرسة) فرحبتا به معا بيد انه لم تعد تغرر به الآمال الكاذبة ، كثيرا ما زار عائشة فلم يظفر بعائشته القديمة . يجد مكانها أخرى متبرجة تلقاه بتودد بالغ يشعره بالغربة ثم لا يكاد يخلو اليها حتى يدركهما زوجها الذى لا يغادر البيت قانعا من ألوان التسلية بسجائره وغليونه وعود يعبث بأوتاره بين حين وآخر ، لن تكون خديجة خيرا من عائشة ، فليس له من رفيق فى البيت الا زينب ، وهى لاتتودد اليه كما يجب الا بمشهد من أمه كأنما تتودد اليها هى فاذا غابت الأم تجاهلته كأنه لا يكون ! ومع أن زينب لم تشعر بأنها ستفقد عزيزا بذهاب خديجة الا أنها استنكرت الجو الرزين الصامت الذى يغشى يوم الزفاف ، فتعللت بذلك لتفصح عما تكنه لروح السيد المسيطرة من حنق وغيظ فراحت تقول متهكمة « ما رأيت بيتا يحرم فيه الحلال كبيتكم هذا . . حكم ! » غير انها لم تشأ أن تودع خديجة من غير كلمة مجاملة فنوهت كثيرا بمقدرتها ، وأنها «ست

بيت » خليقة بأن يهنأ عليها بعلهـا ، فأمنت عائشـة على قولها وأردفت قائلة :

ــ لا عيب فيها الا لسانها !.. ألم تجربيه يا زينب ؟

فما تمالكت أن ضحكت قائلة :

ــ لم أجربه والحمد لله ولكنى سمعته وغيرى يجربه ..

وتعالى الضحك ، وخديجة أولى الضاحكات ، حتى رأين الأم ترهف السمع بغتة هاتفة «هس» فأمسكن مرة واحدة ، فترامى اليهن صوات من الخارج فصاحت خديجة من فورها منزعجة :

ــ مات السيد رضوان !

كانت مريم وأمها قد اعتذرتا من عدم شهود الزفاف لاشتداد المرض على السيد محمد رضوان فلم يكن غريبا أن تستدل خديجة بالصوات على موت الرجل ، وغادرت الأم الحجرة مهرولة فغابت دقائق ثم عادت وهى تقول بأسف شديد :

ــ مات الشيخ محمد رضوان حقا .. ياله من موقف حرج !

فقالت زينب :

ــ عذرنا واضح كالشمس ، لم يعد فى وسعنا تأجيل الزفاف أو منع العريس من الاحتفال بليلته فى بيته وهو بحمد الله بعيد ، أما أنتم فهل تطالبون بأعمق من هذا الصمت البليغ ؟!

لكن خديجة شردت فى خـواطر أخرى انقبض لها قلبها خوفا فتطيرت من النبأ المحزن وغمغمت وكأنها تخاطب نفسها :

ــ يا لطيف يا رب ..

فقرأت الأم أفكارها فانقبض صدرها بدورها ولكنها أبت أن تستكين لهذا الشعور الطارىء أو أن تترك ابنتها تستكين له فقالت باستهانة متصنعة :

ــ لا شأن لنا بقضاء الله فالحياة والموت بيده ، والتشاؤم من عند الشيطان ..

انضم ياسين وفهمى الى المجتمعات بحجرة العروس بعد أن

فرغا من ارتداء ملابسهما فأخبر الأم بأن السيد ناب عن الأسرة ـ بالنظر الى ضيق الوقت ـ فى تقديم واجب العزاء الى آل السيد رضوان ، ثم حدج ياسين الى خديجة وقال ضاحكا :

ـ أبى السيد رضوان أن يبقى فى الدنيا بعد رحيلك عن جواره ..

فردت عليه بابتسامة شاحبة غاب عنه ما وراءها فمضى يتفحصها بعناية وهو يهز رأسه متظاهرا بالرضى ثم قال متنهدا :

ـ صدق من قال « لبس البوصة تبقى عروسة » ..

فقطبت معلنة عدم استعدادها لمجاراته ثم نهرته قائلة :

ـ اسكت ، انى متطيرة من موت السيد رضوان فى يوم زفافى .

فقال ضاحكا :

ـ لا أدرى أيكما جنى على صاحبه ؟

ثم وهو يواصل الضحك :

ـ لا خوف عليك من موت الرجل ، لا تشغلى فكرك به ، ولكنى أخاف عليك من لسانك فهو الأحق بأن تتطيرى منه ، ونصيحتى التى لا آمل ترديدها أن تنقعيه فى شراب مشبع بالسكر حتى يحلو ويصلح لمخاطبة العريس ..

عند ذلك قال فهمى متلطفا :

ـ مهما يكن من أمر السيد رضوان فيوم زفافك لم يخل من بركة طال انتظار الأرض لها ، ألم تعلمى بأن الهدنة قد أعلنت ؟

فهتف ياسين :

ـ كدت أنسى هذا !.. ليس زفافك المعجزة الوحيدة فى يومنا هذا ، حصل ما لم يحصل منذ أعوام فانتهت الحرب وسلم غليوم .

فتساءلت الأم :

ـ هل يذهب الغلاء والاستراليون ؟

فقال ياسين ضاحكا :

ـ طبعا .. طبعا .. الغلاء والاستراليون ولسان خديجة هانم .

لاح التفكير فى عينى فهمى ، ثم قال وكأنه يخاطب نفسه :

ـ غلب الألمان !.. من كان يتصور هذا ؟!.. لا أمل بعد اليوم فى أن يعود عباس أو محمد فريد ، كذلك آمال الخلافة قد ضاعت ، لا يزال نجم الانجليز فى صعود ونجمنا فى أفول فله الأمر ..

فقال ياسين :

ـ اثنان كسبا الحرب هما الانجليز والسلطان فؤاد ، فلا أولئك كانوا يحلمون بالقضاء على الألمان ولا هذا كان يحلم بالعرش ..

وسكت لحظة ثم استطرد ضاحكا :

ـ وثالث لا يقل حظه عن السابقين هو عروستنا التى ما كانت تحلم بالعريس ..

فرمته خديجة بنظرة وعيد وقالت :

ـ تأبى أن أغادر البيت من غير أن ألدغك ..

فتراجع وهو يقول :

ـ من الخير أن أطلب الهدنة فلست أعظم شأنا من غليوم أو هندنبرج ..

ثم نظر الى فهمى الذى لاح فى وجهه التفكير بحال لا يتفق مع المناسبة السعيدة فقال له :

ـ أطرح السياسة وراء ظهرك وتهيأ للطرب ولذيذ المآكل والمشارب ..

ومع أن خديجة تناوبتها أفكار كثيرة وخطرت على قلبها أحلام وأحلام الا أن ذكرى قريبة ـ من ذكريات الصباح فحسب ـ ألحت عليها من شدة تأثيرها بها حتى كادت تحجب غيرها من الشجون ، تلك دعوة أبيها لها على انفراد لمناسبة اليوم الذى يعد مبدأ حياة جديدة فى حياتها ، قابلها بلطف ورحمة كانا بلسما شافيا من وعكة الحياء والرهبة التى اعترتها حتى تعثرت فى مشيتها ، ثم قال لها برقة وقعت من نفسها موقعا غريبا لا عهد

لها به ـ ربنا يسدد خطاك ويهيىء لك التوفيق وراحة البال ، وما من نصيحة تسدى اليك خير من أن أقول :

ـ اقتدى بأمك فى كل كبيرة وصغيرة ..

وأعطاها يده فقبلتهـا ثم غادرت الحجـرة لا تكاد ترى ما بين يديها من الانفعال والتأثر ، وجعلت تردد طول الوقت « كم انه لطيف رقيق رحيم ! » ثم تذكر بقلب ملؤه السعادة قوله « اقتدى بأمك فى كل كبيرة وصغيرة » وتقول لأمها التى أصغت أليها بوجه متورد وعينين مرتعشتين « ألا يعنى هذا أنه يراك القدوة الصالحة للزوجة الصالحة ؟.. (ثم ضاحكة) يا لك من امرأة سعيدة الحظ ! ولكن من عسى أن يصدق هذا كله ؟ كأنى كنت فى حلم سعيد ! أين كان يدخر هذا العطف الجميل ؟! » ثم دعت له طويلا حتى اغرورقت عيناها بالدموع ..

وجاءت أم حنفى تعلنهم بوصول السيارات ..

٤٨

خلا مجلس القهوة من وجه خديجة كما خلا من وجه عائشة من قبل ، على أن خديجة تركت فراغا لم يسـد فكأنها استلت روحه وسلبته حيويته وحرمته مزايا لا يستهان بها من الفكاهة والمرح والنقار ، أو كما قال ياسين لنفسه « كانت فى مجلسنا كالملح فى الطعام ، ليس الملح فىذاته لذيذا ولكن مالذة الطعام من دونه ؟ ». بيد أنه لم يجهر برأيه مجاملة لزوجه اذ أنه لم يزل ـ على خيبة أمله فى الزواج التى لم يعد لها من دواء فى البيت ـ يشفق من جرح مشاعرها على الأقل كيلا تسىء الظن بسهره المتواصل ليلة بعد أخرى فى «القهوة» كما يزعم لها . ولئن كان مزاحه يفوق

جده ، ان كان ثمة جد ، الا أنه فقد النديم الذى طالما طارحه الدعابة وهيأ له دواعيها فلم يبق له الا أن يقنع بالقليل فى هذه الجلسة التقليدية ، ها هو يتربع على الكنبة ، يحسو القهوة ، ويمد بصره الى الكنبة المقابلة له فيرى الأم وزوجه وكمال مستغرقين فى أحاديث لا طائل تحتها ، ولعله يتعجب للمرة المائة من رزانة زينب المعتمة فيذكر ما رمتها به خديجة من «ثقل الدم» ويسلم بوجهة نظرها !.. ثم يفتح ديوان الحماسة أو غادة كربلاء ويقرأ ، أو يقص على كمال شيئا مما قرأ ، ويلتفت الى يمينه فيرى فهمى متوثبا للحديث ، عن أى شيء يا ترى ، محمد فريد ، مصطفى كامل ؟.. لا يدرى ولكنه سيتكلم بلا ريب ، بل يبدو اليوم منذ عودته من المدرسة كالسماء المنذرة بالمطر ، هل ينكشه ..؟ كلا ، لا حاجة به الى ذلك ، ها هو يستقبله باهتمام شديد ، ويحدجه بنظرة موحية ناطقة ثم يسأله :

ــ ألم تبلغك أنباء جديدة ؟..

يسأله هو عن أنباء جديدة ! عندى أنباء لا عد لها .. الزواج أكبر خدعة ، الزوجة تنقلب بعد أشهر شربة زيت خروع ، لا تحزن على ما فاتك من مريم أيها السياسى الغر ، أتريد أنباء أخرى ؟!. لدى منها الكثير لكنها على وجه اليقين لا تهمك البتة ، ثم ان الشجاعة تخوننى اذا سولت لى نفسى أذاعتها على مسمع من زوجى ، وما يدرى الا وهو يستشهد ــ فى سره طبعا ــ بقول الشريف :

عندى وسائل شوق لست أذكرها   لولا «الرقيب» لقد بلغتها فاك

ثم تساءل بدوره :

ــ أى أنباء جديدة تعنى ؟..

فقال فهمى باهتمام شديد :

ــ ذاع بين الطلبة نبأ عجيب كان حديثنا اليوم كله وهو أن وفدا مصريا مكونا من سعد زغلول باشا وعبد العزيز فهمى بك

وعلى شعراوى باشا توجه أمس الى دار الحماية وقابل نائب الملك للمطالبة برفع الحماية واعلان الاستقلال . .

رفع ياسين حاجبيه فى اهتمـام ولاحت فى عينيـه نظرة شك مقرونة بالدهشة . لم يكن اسم سـعد زغلول بالجديد عليه وان لم يجد وراء الاسم فى نفسه شيئا ذا بال اللهم الا ذكريات غامضة اقترنت بحوادث أتى عليها النسيان من زمن دون أن تترك فى قلبه ـ الذى لا يكاد يعبأ بالأمور العامة ـ أثرا عاطفيا يدل عليها ولو من بعيد ، الا أن الاسمين الآخرين كانا يقعان فى أذنه لأول مرة ، بيد أن غرابة الأسماء ليست شيئا يذكر الى جانب الحركة التى قام بها أصحابها ان صح ما يقول فهمى ، اذ كيف يتصور أن يطالب الانجليز غداة انتصارهم على الألمان والخلافة باستقلال مصر ؟!.

وسأله :

ـ ماذا تعرف عن هؤلاء السادة ؟

فقال فهمى بلهجة لا تخلو من امتعاض خليق بمن يود لو كان هؤلاء السادة من أعضاء الحزب الوطنى :

ـ سعد زغلول وكيل الجمعية التشريعية ، وعبد العزيز فهمى وعلى شعراوى عضوان بها ، الحق انى لا أعرف شيئا عن الأخيرين ، أما سـعد فأكاد أكون عنه فكرة لا بأس بها ممـا ترامى الى عن كثيرين من زملائى الطلبة الوطنيين الذين يختلفون فيه كثيرا ، منهم من يعده ذنبا من أذناب الانجليز ولا شىء أكثر من هذا ، ومنهم من يقر له بمزايا عظيمة جديرة بأن ترفعه الى مصاف رجال الحزب الوطنى أنفسهم ، ومهما يكن من شأن فالخطوة التى أقدم عليها مع زميليه ـ ويقال انه كان الداعى اليها كذلك ـ عمل مجيد لعله لا يوجد الآن من ينهض به مثله بعـد نفى المبرزين من الوطنيين وعلى رأسهم زعيمهم محمد فريد . .

بدا ياسين جادا أن يظن به الآخر استهانة بحماسه وردد قائلا وكأنه يسائل نفسه :

ــ المطالبة برفع الحماية واعلان الاستقلال !.
ــ وسمعنا أيضا أنهم طالبوا بالسفر الى لندن للسعى الى الاستقلال ، وانهم لهذا القصد قابلوا السير ريچينالد ونجت نائب الملك !.

لم يستطع ياسين أن يواصل مداراة حيرته فأعلنها بأساريره وهو يسأله بصوت مرتفع بعض الشيء :

ــ الاستقلال !.. أتعنى هذا حقا ؟.. ماذا تعنى ؟

فقال فهمى بلهجة عصبية :

ــ أعنى اخراج الانجليز من مصر ، أو الجلاء كما عبر عنه مصطفى كامل ودعا اليه ..

يا له من أمل !.. لم يكن السعى الى حديث السياسة من طبعه ولكنه يقبل دعوة فهمى كلما دعاه اليه ، اتقاء لتكديره ، وطلبا لنوع طريف من التسلية ، وربما ثار اهتمامه بين الحين والحين وان لم يبلغ درجة الحماس ، بل ربما شاركه أمانيه بطريقة سلبية هادئة ، ولكنه أثبت طوال حياته انه قليل الاكتراث بهذا الجانب من الحياة العامة ، كأنه لا غاية له وراء التنعم بطيبات الحياة ولذاتها ، لذلك لم يجد فى نفسه استعدادا للأخذ بهذه الأقوال مأخذ الجد وتساءل مرة أخرى :

ــ هل يقع هذا فى حدود الامكان حقا ؟

فقال فهمى بحماس لا يخلو من لوم :

ــ لا يأس مع الحياة يا أخى !.

فأثارت هذه الجملة ، فى نفسه ما تثيره أمثالها من ميل الى السخرية بيد أنه تساءل متظاهرا بالجد :

ــ وكيف لنا بأن نخرجهم ؟

ففكر فهمى قليلا ثم قال عابسا :

ــ لهذا طلب سعد وزميلاه السفر الى لندن !

تابعت الأم الحديث باهتمام مركزة فيه وعيهـا كله كى تفهم أقصى ما يسعها فهمه منه كدأبها كلما ثار حديث فى الشئون العامة البعيدة كل البعد عن اللغو المنزلى ، تلك الأمور تشوقها ، وتدعى القدرة على فهمها ، ولا تتردد اذا سنحت فرصة عن المشاركة فيها غير مبالية بما تحدثه آراؤها فى أحايين كثيرة من الاستهانة المشربة بالعطف ، ولكن لم يكن شىء ليحطم مجاديفها أو يصدها عن الاهتمام بهذه الشئون « الكبيرة » التى يبـدو أنها تتبعها مدفوعة بنفس البواعث التى تدفعها الى التعلق بدروس كمال الدينية أو مناقشة ما يلقى عليهـا من معـلوماته الجغـرافية والتـاريخيـة على ضوء معارفها الدينية أو الأسطورية ، وقد أكسبها هذا الجد شيئا من الالمام بما يقال عن مصطفى كامل ومحمد فريد وأفندينا المبعد ، أولئك الرجال الذين ضاعف من حبها لهم اخلاصهم للخلافة الأمر الذى قربهم فى نظرها ـ كشخص يقدر الرجـال بحسب منازلهم الدينية ـ من مراتب الأولياء الذين تهيم بهم ، ولما أن ذكر فهمى أن سعدا وزميليه يطلبان السفر الى « لندن » خرجت عن صمتها فجأة متسـائلة :

ــ أى بلاد الله لندن هذه ؟

فبادر كمال قائلا باللهجة المنغومة التى يسمع بها التـلاميذ دروسـهم :

ــ لندن عاصمة بريطـانيا العظمى وباريس عاصمة فرنسـا والكاب وعاصمتها الكاب . .

ثم مال على أذنهـا هامسا « لندن بلاد الانجليز » فتولت الأم الدهشة وقالت مخاطبة فهمى :

ــ يذهبـون الى بلاد الانجليز ليطالبوهم بأن يخـرجوا من مصر ؟ ! . . ليس هذا من الذوق فى شىء ! . . كيف تزورنى فى بيتى وأنت تضمر طردى من بيتك ؟ !

اضجرت مقاطعتها الشاب فنظر اليها باسما معاتبا فى آن ولكنها ظنت انها بسبيل اقناعه فأردفت قائلة :

ـ وكيف يطلبون اخراجهم من ديارنا بعد اقامة طالت هذا الدهر كله ؟! لقد ولدنا وولدتم وهم فى بلادنا فهل من « الانسانية » أن نتصدى لهم بعد ذاك العمر الطويل من العشرة والجيرة لنقول لهم بصريح العبارة ـ وفى بلادهم أيضا ـ أخرجوا ؟ !

ابتسم فهمى كاليائس على حين قهقه ياسين أما زينب فقالت جادة :

ـ كيف تواتيهم الجرأة على أن يقولوا لهم هذا فى بلادهم ! .. هب الانجليز قتلوهم هناك فمن ذا يدرى بهم ؟.. ألم يجعل جنودهم المشى فى الشوارع البعيدة من المخاطرات غير المأمونة ؟ .. فكيف بمن تحدثه نفسه باقتحام ديارهم ! ؟

ود ياسين لو يسترسل مع المرأتين فى حديثهما الساذج ارواء لعواطفه الظامئة الى المزاح ولكنه لمس ضجر فهمى فأشفق من اغضابه ، فتحول اليه مواصلا ما انقطع من الحديث وهو يقول :

ـ فى كلامهما حق لم يحسنا التعبير عنه ، خبرنى يا أخى ماعسى أن يصنع سعد حيال دولة تعد الآن سيدة العالم بلامنازع ؟

فوافقت الأم على قوله بايماءة من رأسها كأن الحديث كان موجها اليها وراحت تقول :

ـ كان عرابى باشا أعظم الرجال واشجعهم ، لا يقاس به سعد ولا غيره ، وكان فارسا وكان مقاتلا ، فماذا لقى من الانجليز يا ولداه ؟ .. أسروه ثم نفوه الى وراء الشمس ...

فلم يتمالك فهمى من أن يقول لها بلهجة جمعت بين الرجاء والضيق :

ـ نينة ! .. هل تركتنا نتحدث ؟ !

فابتسمت فيما يشبه الحياء مشفقة كل الاشفاق من اغضابه

فغيرت لهجتها الحماسية كأنما هي بتغيير لهجتها تعلن تغير رأيها كله ثم قالت برقة واعتذار :
ــ يا سيدى ، لكل مجتهد نصيب ، فليذهبوا فى رعاية الله ، وعسى أن يحظوا بعطف الملكة الكبيرة ..
فما يدرى الشاب الا وهو يسألها فى غرابة :
ــ أى ملكة تقصدين ؟
ــ الملكة فيكتوريا يابنى ، أليس هذا اسمها ؟ .. طالما سمعت أبى وهو يتحدث عنها ، هى التى أمرت بنفى عرابى ولكنها أعجبت بشجاعته كثيرا فيما قيل ..
فقال ياسين ساخرا :
ــ اذا كانت قد نفت عرابى الفارس فهى أجدر أن تنفى سعدا العجــوز ! ..
فقالت الأم :
ــ مهما يكن من أمرها فهى لم تزل امرأة يحمل صدرها ولا شك قلبا رقيقا فاذا أحسنوا مخاطبتها وعرفوا كيف يتوددون اليها جبرت بخاطرهم ..
وجد ياسين سرورا كبيرا فى منطق الأم التى جعلت تتحدث عن الملكة التاريخية كما لو كانت تتحدث عن أم مريم أو غيرها من الجارات ، ولم يعد يرغب فى مجاراة فهمى ، فسألها باغراء :
ــ خبرينا عما يحسن أن يقولوه لها ؟
فاعتدلت المرأة فى جلستها مسرورة بهذا السؤال الذى أقر لها بالجدارة « السياسية » ومضت تفكر باهتمام لاح فى تقارب حاجبيها فى صيغة مناسبة لأول « مفاوضة » بيد أن فهمى لم يهلها حتى تتم تفكيرها فقال لها باقتضاب واستياء :
ــ الملــكة فيكتوريا ماتت من زمن بعيد ، لا تتعبى نفســك بلا طــائل ! ..
انتبه ياسين عند ذاك الي غاشية المســاء الزاحفة من خلال

خصـــاص النوافذ فأدرك انه آن له أن يودع المجلس ليمضى الى سهرته . ولما كان يعلم حق العلم بأن ظمأ فهمى الى الحديث لم يرو بعد فقد رغب فى أن يقدم له اعتذارا عن ذهابه فى صورة تأييد من نوع ما للنبأ الذى أخذ بلبه فقال له وهو ينهض :

ــ انهم رجال يدركون بلا شك خطورة ما أقدموا عليه فلعلهم أعدوا له الوسيلة الناجحة ، فلندع لهم بالتوفيق .

وغادر المجلس وهو يشـــير الى زينب لتلحـــق به فتجهز له ملابسه ، فشيعه فهمى بنظرة لا تخلو من غضب ، غضب من لم يظفر بمشاركة وجدانية تتجاوب مع نفسه المتأججة ، لشد ما تثير أحاديث الوطنية أكبر الأحلام فى نفسه ، فىدنياها الساحرة تتراءى لعينيه دنيا جديدة ، ووطن جديد ، وبيت جديد ، وأهل جدد ، ينتفضون جميعا حيوية وحماسا ولكن ما أن يفيق على هذا الجو الخانق من الفتور والسذاجة وعدم المبالاة حتى تشب بين أضلعه نار الحسرة والألم فتروم فى قهرها متنفسا ــ أيا ما كان ــ تنطلق منه الى السماء ، ود فى تلك اللحظـــة بكل قوته لو ينطـــوى الليل فى غمضة عين ليجد نفسه مرة أخرى فى مجمع الطلاب من اخوانه فيروى ظمأه الى الحماس والحرية ويسمو فى وقدة حماسهم الى ذلك العالم الكبير من الأحلام والمجد ، لقد تساءل ياسين عن ماذا يصنع سعد حيال بلد تعد اليوم بحق سيدة العالم ، وهو نفسه لا يدرى على وجه التحقيق ماذا سيصنع سعد ، ولا يدرى ماذا يمكن أن يصنع ، ولكنه يشعر بكل مافى قلبه من قوة بأن ثمة مايجب عمله ، ربما لم يجده ماثلا فى عالم الواقع ، ولكنه يشعر به كامنا فى قلبه ودمه ، فما أجدره أن يبرز الى ضوء الحياة والواقع أو فلتمض الحياة عبثاً من العبث وباطلا من الأباطيل ..

— ٤٩ —

بدأ الطريق أمام دكان السيد أحمد ـ كعادته ـ مكتظا بالسابلة والمركبات ورواد الدكاكين المتراصة على الجانبين آلا أن هامته ازدانت بشفافية مقطرة من جو نوفمبر اللطيف الذى حجبت شمسه وراء سحائب رقاق لاحت رقاعها ناصعة البياض فوق مآذن قلاوون وبرقوق كأنها بحيرات من نور ، لم يكن شيء فى السماء ولا فى الأرض قد خرق المألوف مما اعتاد السيد أن يراه كل يوم ، ولكن نفس الرجل ، والأنفس الموصولة بنفسه وربما أنفس الناس جميعا تعرضت لموجة عاتية من الانفعال والشعور خرجت بها عن طورها أو كادت حتى قال السيد انه لم تمر به أيام كهذه الأيام اجتمع الناس فيها حول نبأ واحد وخفقت قلوبهم باحساس واحد. فهمى الذى يلوذ بالصمت بين يديه ما لم يبدأه هو بالحديث نقل اليه فى اسهاب ما اتصل بعلمه عن مقابلة سعد لنائب الملك ، وفى مساء اليوم نفسه ، وفى مجلس الطرب ، أكد نفر من الصحاب أن الخبر حقيقة لا يرتقى اليها الشك ، وفى دكانه حدث أكثر من مرة أن خاض زبائن لا تربط بينهم صلة تعارف سابق فى حديث المقابلة ، بل ما يدرى هذا الصباح والا الشيخ متولى عبد الصمد يقتحم عليه الدكان بعد غيبة طويلة فلم يقنع بتلاوة الآيات وأخذ نصيبه من السكر والصابون وأبى الا أن يعلن نبأ الزيارة بلهجة من يزف البشرى لأول مرة ولما سأله السيد ـ مداعبا ـ عما يظن أن تكون نتيجة الزيارة أجاب الشيخ «محال !.. محال أن يخرج الانجليز من مصر ، أتحسبهم مجانين كى يجلوا عن البلد بلا قتال !.. لابد من قتال ، ولا قتال لنا ، فلا سبيل الى اخراجهم ، فلعل رجالنا

يوفقون ولو الى ابعاد الاسـتراليين حتى يعود الأمن الى سابق عهده ، والسلام ! » ، أيام أنباء ومشاعر فياضة صادفت فى السيد رجلا ذا قابلية شديدة لعدوى الأشواق الوطنية والسياسية فبات على حال من الانتظار والتوقع جعلته يقـبل بانفعال على قـراءة الجرائد التى بدت فى الأغلب وكأنها تصدر فى بلد غريب لا انفعال فيه ولا توثب ، واستقبال الأصدقاء بنظرة استطلاع تتلهف عما وراءهم من جديد ، وعلى تلك الحال استقبل السيد محمد عفت حين دخل الدكان مهرولا ، لم تكن نظرة القادم الحادة ولا حركته النشيطة مما يوحى بأنه مجرد زائر قد عرج الى الدكان لاحتساء قهوة أو رواية ملحة ، فوجد السيد فى مظهره ما تجاوب مع نفسه القلقة المشوقة فبادره قائلا والآخر يشق طريقه بين الزبائن الذين قام جميل الحمزاوى على قضاء حوائجهم :

ـ صباحنا ناد، ماذا وراءك يا سبع ؟

اتخذ السيد محمـد عفت مجلسه لصق المكتب وهو يبتسم ابتسامة وشت بالعجب كأن قول السيد «ماذا وراءك» وهو نفس السؤال الذى يتكرر كلما لاقى أحدا من صحبه ـ اقرار بأهميته فى هذه الأيام البالغة فى أهميتها بالنظر لما يربطه ببعض الشخصيات المصرية الهامة من صلات القربى ، كان السيد عفت دائما همزة الوصل بين جماعته الأصلية المكونة من تجار وبين من انضم اليها بمضى الزمن من موظفين ممتازين ومحامين وان تفرد السيد أحمد بمنزلة الاعزاز الأولى بفضل شخصيته وسجاياه ، غير أن صـلة القربى هذه التى لم تفقد شيئا من خطورتها قط لدى أصدقائه التجار الذين يتطلعون الى الموظفين وذوى الألقاب بنظرة ملؤها الاكبار ،صلة القربى هذه قد زادت خطورة فى هذه الأيام التى بات فيها « الخبر الجديد » أهم من الماء والغذاء !.. بسط السيد عفت صحيفة كانت مطوية بيمينه ثم قال ـ خطوة جديدة ـ لم

أعد ناقل أنباء فحسب ولكنى بت رسولا أحمل اليك والى غيرك من الأكرمين هذا التوكيل السعيد ..

وأعطاه الصحيفة وهو يغمغم مبتسما « اقرأ » فتناولها السيد وقرأ :

« نحن الموقعين على هذا قد أنبنا عنا حضرات سعد زغلول باشا وعلى شعراوى باشا وعبد العزيز فهمى بك ومحمد على علوبة بك وعبد اللطيف المكباتى ومحمد محمود باشا وأحمد لطفى السيد بك ، ولهم أن يضموا اليهم من يختارون ، فى أن يسعوا بالطرق السلمية المشروعة حيثما وجدوا للسعى سبيلا فى استقلال مصر استقلالا تاما » .

فتهلل وجه السيد وهو يتلو أسماء أعضاء الوفد المصرى الذين سمع بهم فيما سمع من أنباء الحياة الوطنية التى ترددها الألسن ، وتساءل :

ـ ماذا تعنى هذه الورقة ؟

فقال الرجل بحماس :

ـ الا ترى هذه الامضاءات ؟.. وقع تحتها بامضائك وادع جميل الحمزاوى ليوقع بامضائه أيضا ، هذا توكيل من التوكيلات التى طبعها الوفد ليوقعها الشعب فيتخذ بها صفة الوكالة عن الأمة المصرية .. أمسك السيد بالقلم ووقع بامضائه فى سرور تجلى فى تألق عينيه الزرقاوين وهو يبتسم ابتسامة رقيقة نمت عن شعوره بالسعادة والخيلاء اذ يوكل عن نفسه سعدا وزملاءه ، أولئك الرجال الذين ملكوا النفوس على حداثة شهرتهم حيث حركوا منها أهواء عميقة مكبوتة كالدواء الجديد يستأثر بأفكار المرضى بداء قديم استعصى علاجه بالرغم من استعماله لأول مرة ، ودعا الحمزاوى فوقع بامضائه كذلك ، ثم التفت الى صاحبه وهو يقول باهتمام شديد :

ـ المسألة جد فيما يبدو ..!

فضرب الرجل حافة المكتب بقبضة يده ثم قال .

ـ غاية الجد ، كل شيء يسير بقوة وتصميم ، أما علمت بما دعا الى طبع هذه التوكيلات ؟.. قيل ان «الرجل» الانجليزى تساءل عن الصفة التى كلمه بها سعد وزميلاه فى صباح ١٣ نوفمبر الماضى فما كان من الوفد الا أن عمد الى هذه التوكيلات ليثبت أنه يتكلم باسم الأمة ..

فقال السيد بتأثر :

ـ لو كان محمد فريد بيننا ما عدا هذا .

ـ لقد انضم الى الوفد من رجال الحزب الوطنى محمد على علوبة بك وعبد اللطيف المكباتى ..

ثم هز منكبيه كأنما لينفض عنهما الماضى كله ثم قال :

ـ كلنا نذكر سعدا بما كان يثير من ضجة عظيمة على عهد توليه لنظارة المعارف ثم الحقانية ، ما زلت أذكر ترحيب اللواء به منذ ترشيحه للوزارة وان لم أنس حملاته عليه بعد ذلك ، بل لاأنكر اننى ملت مع انتقاد المنتقدين له لشدة تعلقى بالمغفور له مصطفى كامل ، ولكن سعد أثبت دائما أنه جدير باعجاب المعجبين ، أما حركته الأخيرة فهى خليقة بأن تحله من القلوب فى أعز مكان ..

ـ صدقت ، حركة مباركة ، الندع الله أن يتولاها بتوفيقه .

ثم باهتمام :

ـ ترى أيؤذن لهم فى السفر ؟.. وماذا تراهم فاعلين اذا سافروا ..؟

طوى السيد محمد عفت التوكيل ثم نهض وهو يقول :

ـ ما الغد ببعيد ..

فى طريقهما الى باب الدكان غلبت روح الدعابة السيد فهمس فى أذن صاحبه :

ـ كأنى لشدة سرورى بهذا التوكيل الوطنى ثمل يعل الكأس الثامنة بين فخذى زبيدة ..!

فحرك محمد عفت رأسـه فى تأثر كأن الصورة التى جسمها خياله عند ذكر الكأس وزبيدة قد أسكرته ، وغمغم :

ــ ياما بكره نسمع ..

ثم غادر الدكان والسيد يترنم فى أعقابه مبتسما :

ــ وبعده نشوف .. !

ثم عاد الى مكتبه وأثر المزاح منبسط فى أساريره وانفعال الحماس فى قلبه لا يخمد ، شأنه فى كل ما يعرض له من مهام الحياة بعيدا عن داره ، فهو يجد الجد كله كلما دعا الداعى الى الجد ولكنه لا يتردد عن تلطيف جوه بالمزاح والدعابة كلما لاحتا له صادرا فى ذاك عن طبع لا يملك معه حيلة وان بدأ ذا قدرة عجيبة على التوفيق بينهما ، فلا جده بقاهر مزاحه ولا مزاحه بمفسد جده ، ولما كانت دعابته ليست ترفا مما يدور على هامش الحياة ، ولكن ضرورة تتوزعها كالجد سواء بسواء ، فلم يسعه يوما الاقتصار على الجد الخالص أو تركيز همته فيه ، وبالتالى قنع دائما من « وطنيته » بالعاطفة والمشاركة الوجدانية دون الاقدام على عمل يغير وجه الحياة الذى آنس اليه فلا يرضى عنه بديلا ، لذلك لم يدر له بخلد أن ينضم الى لجنة من لجان الحزب الوطنى على شدة تعلقه بمبادئه ، ولا حتى أن يجشم نفسه شهود اجتماع من اجتماعاته ، أليس فى ذلك اهدار لوقته « الثمين » ؟ ليس الوطن فى حاجة اليه على حين يتلهف هو على كل دقيقة منه لينفقها فى أسرته وتجارته أو على الخصوص فى لهوه بين الأحباب والخلان ؟ !.. ليكن اذن وقته خالصا لحياته ، وللوطن ما يشاء من قلبه وعواطفه ، بل ماله كلما تيسر ، اذ لم يكن يضن به اذا وجب التبرع لغرض من الأغراض ، والى ذلك فلم يشعر مطلقا بأنه مقصر فى واجبه على نحو ما ، وعلى العكس عرف بين صحبه بالوطنية ، أما لأن قلوبهم لم تسخ بعواطفها كما سخا قلبه ، واما لأن الذين سخت قلوبهم لم يذهبوا الى حد التبرع بالمال مثله ، فتميز بوطنيته ،

وعرف هو ذلك فأضافه الى بقية مزاياه التى يباهى بها سرا فى أعماق قلبه ، ولم يتصور أن الوطنية يمكن أن تطالبـه بأكثر مما يجود به ، ذاك القلب المولع بالغرام والطرب والمزاح لم يضق ـ على ازدحامه ـ بالعاطفـة القومية ، وهى وان قنعت بالقلب مجـالا لحيويتها الا أنها كانت قوية عميقة تشغل النفس وتهمها ، لم تجئه عرضا ولكن نشأت مع صباه فيما تلقنه أذناه من أحاديث البطولة التى رواها السلف عن عرابى ، ثم اتقدت جذوتها بمقالات اللواء وخطبه ، وكم كان منظرا فريدا ـ أهاج التأثر والضحك معا ـ يوم رئى وهو يبكى كالأطفال عند وفاة مصطفى كامل ، تأثر صحبه لأن أحدا منهم لم يسلم من وعكة حزن ثم أغرقوا فى الضحك فى مجلس الطرب الليلى حين تذاكروا المنظر اذ لم يكن من اليسير أن يرى « رب الضحك » وهو يجهش بالبكاء ! اليوم ، بعد سنى الحرب الخامدة ، بعد موت الزعيم الشاب ونفى خليفته ، بعـد انقطاع الأمل من عودة أفندينا ، بعد هزيمة تركيا ، وانتصار الانجليز ، بعد هذا كله ، أو بالرغم من هذا كله ، تسرى أنباء عجيبة حاملة حقائق كالأساطير . . مواجهة الرجل الانجليزى بمطالب الاستقلال ، امضاء التوكيلات الوطنية ، التساؤل عن الخطوة التالية ، قلوب تنفض عن جوهرها الغبار ، أنفس تشرق بالآمال ، ماذا وراء هذا كله ؟!. . ان خياله السلمى الذى ألف الاستكانة يتساءل دون جدوى ، وانه ليعجل الليل ليهرع الى مجلس الطرب حيث باتت الأحاديث السياسية «مزة» الشراب والطرب فائتلفت مع جملة المغريات التى تجذب حنانه الى سهراته كزبيدة وحب الاخوان والشراب والطرب وانها لتبدو فى ذلك الجو الخلاب عذبة الروح لطيفة التناول تغنى القلب بشتى عواطف الحماس والحب من دون أن تستأديه ما لا طاقة له به ! . وانه ليفكر فى هذا كله اذ اقترب منه جميل الحمزاوى وهو يقول :

ــ أما سمعت عن الاسم الجديد الذى أطلق على بيت سعد باشا .. ؟ انهم يدعونه « بيت الأمة » ..

ومال الرجل نحوه ليفضى اليه كيف نمى اليه الخبر ..

— ٥٠ —

فى نفس الوقت الذى شغل فيه الوطن بالمطالبة بحريته كان ياسين دائبا بحزم وعزم على الاستئثار بحريته هو كذلك ، فان انطلاقه الى سهراته الليلية ــ بعد امتنــاع موسوم بالاسـتقامة فيما أعقب الزواج من أسابيع ــ لم يفز به بلا نضال ، ثمة حقيقة كثيرا ما رددها لنفسه كاعتذار عن سلوكه الجديد ، هى أنه لم يكن يتصور ــ وهو فى سـكرة حلم الزواج ــ أنه سيرتد الى حيـاة التسكع بين القهوة وحانة كوستاكى ، اعتقد مخلصا أنه ودع ذاك الى الأبد مضمرا لحيـاته الزوجية أحسن النيات ، حتى دهمته الخيبة المستعصية فى الزواج كله فجزعت أعصابه عن تحمل الملل أو الحياة الفارغة كما دعاها ، وفزع بكل قوة نفسه المدللة الحساسة الى الترفيه والتسلية والنسيان ، الى القهوة والحانة ، لا كحياة لهو عابرة كما ظنها فى الماضى والزواج أمل مدخر ، ولكن كحياة هى كل ما تبقى له من متعة بعد أن غدا الزواج خيبة مريرة ، كالذى تشرده الآمال عن وطنه فيرده الاخفاق اليه تائبا ، بيد أن زينب التى عهدت عنده التودد الحار والتملق النهم ، بل الاعزاز الذى بلغ به يوما أن ذهب بها الى مسرح كشكش بك مسـتهينا بالسياج المسلح من التقـاليد الصارمة الذى يضربه أبوه حول الأسرة .. زينب هذه كابدت من انصرافه عنها الى منتصف الليل ليلة بعد أخرى وعودته ثملا يترنح ، صدمة عز عليها احتمالها فما

تمالكت أن كاشفته بأحزانها ، وكان يعلم بداهة أن طفرة مفاجئة فى حياته الزوجية لا يمكن أن تمر بسلام ، فتوقع من بادىء الأمر المعارضة على أى لون جاءت ، عتابا أو خصاما وأعد العدة المناسبة ليحسم موقفه بقوة متمثلا بقول أبيــه له ليلة ضبطه راجعــا من كشكش بك « انه لا يفسد النساء الا الرجال ، وليس كل الرجال جديرا بالقيام على النساء » فما تشكت حتى قال لها : « لا داعى للحزن يا عزيزة ، منذ القدم والبيوت للنساء والدنيا للرجال ، هكذا الرجال جميعا ، والزوج المخلص يحافظ على امانته وهو بعيد عن زوجته كما يحافظ عليها وهو بين يديها ، ثم اننى أتزود من السهرة ترويحا عن النفس وبهجة يجعلان من حياتنا متعــة كاملة » ولما عرضت بسكره محتجة بانها « تخاف على صحته » ضحك وقال بنفس اللهجة الجامعة بين الرقة والحزم « كل الرجال يسكرون ، ان صحتى تتحسن بالسكر (ثم ضاحكا مرة أخرى) سلى أبى أو أباك ! » الا أنها همت بالاسترسال فى مناقشته جريا ورء أمل كاذب فشد حبل الحزم متشجعا بملله الذى هون عليه ما لم يكن يهون من اغضابها فراح ينوه بما للرجال من حق مطلق فى ان يفعلوا ما يشاءون ، وما على النســاء من واجب الطــاعة والتزام الحدود « انظرى الى امرأة ابى هل رأيتها اعترضت يوما على تصرف لأبى ؟ .. على ذاك فهما زوجان سـعيدان وأسرة مطمئنة ، ينبغى ألا نعود الى هذا الموضوع » .. لعله لو كان ترك الى شعوره وحده ما اصطنع فى خطابها ما اصطنع من سياســة فان خيبته فى الزواج جعلته يجد نحوها أحيانا ما يشبه الرغبة فى الانتقام ، وأحيانا أخرى نوعا من الكراهية المتقطعة وان لم يكف عن الرغبة فيها بين هذاوذاك ، ولكنه راعى عواطفها اكراما ــ أو خوفا من أبيــه الذى علم بعظيم تعلقه بأبيها السيد محمد عفت .
والحق لم يكن يكربه شىء كاشفاقه من أن تشكوه الى أبيها فيشكوه هذا بدوره الى أبيه ، حتى لقد صمم جادا ، اذا وقع شىء ممــا

يحاذر ، أن يستقل بمسكن مهما تكن العواقب ولكن مخاوفه لم تتحقق ، أثبتت الفتاة رغم حزنها انها امرأة « عاقلة » كأنها من طراز امرأة أبيه نفسها ، قدرت موضعها حق قدره ونزلت عند حكم الواقع ، مطمئنة ــ لبعلها ــ بما يردده دائما من اخلاصه وبراءة سهراته ، قانعة من الألم والحزن يبثهما فى دائرة الأسرة الضيقة ــ مجلس القهوة ــ من دون أن تظفر بتأييد جدى ، وكيف لها بذاك فى بيئة ترى الخضوع للرجال دينا وعقيدة ، بل لعل الست أمينة استنكرت شكواها وسخطت على ما تطمح اليه من استئثار غريب ببعلها ، لأنها لم يكن يسعها أن تتصور النساء الا على مثالها هى ولا الرجال الا على مثال زوجها ، فلم تر فى استمتاع ياسين بحريته عجبا ولكن شكوى زوجه بدت هى العجب ، فهمى وحده قدر أحزانها فتطوع لترديدها على مسمع من ياسين ولو أنه أيقن من بادىء الأمر أنه يدافع عن قضية خاسرة ، ولعل ما شجعه على ذاك كان كثرة تلاقيهما فى قهوة أحمد عبده بخان الخليلى ، تلك القهوة التى تقع تحت سطح الأرض كأنها كهف منحوت فى جوف جبل ، مسقوفة بربوع الحى العتيق ، منعزلة عن العالم بحجراتها الضيقة المتقابلة ، وباحتها التى تتوسطها نافورة صامتة ، ومصابيحها التى تقاد ليل نهار ، وجوها الهادىء الحالم الرطيب ، كان ياسين قد مال الى هذه القهوة لدنوها من حانة كوستاكى من ناحية ولاضطراره الى هجر قهوة سى على بالغورية بعد قطع زنوبة من ناحية أخرى ، ثم لما خصت به القهوة الجديدة من طابع أثرى صادف هوى من نفسه الميالة للشعر ، أما فهمى فلم يعرف طريق المقاهى لخلل طرأ على سلوكه كطالب مجتهد ولكن تلبية لنداء تلك الأيام الذى دعا الطلبة وغيرهم الى التجمع والتشاور ، فاختار ونفر من زملائه قهوة أحمد عبده ــ لنفس ميزاتها الأثرية التى جعلتها بمأمن من العيون ــ للاجتماع مساء بعد مساء للحديث والتشاور والتنبؤ وانتظار الحوادث ،

كثيرا ما التقى الأخوان فى حجرة من الحجرات الصغيرة ولو لحين قليل أى حتى يصل زملاء فهمى أو يأزف ميعاد ياسين للانتقال الى حانة كوستاكى ، وفى مرة من هذه المرات أشار فهمى الى كدر زينب مبديا دهشته لسلوك أخيه الذى لا يتفق مع حياة زوجية ناشئة ، ضحك ياسين ضحكة رجل يرى لنفسه الحق كل الحق فى أن يضحك من سذاجة الآخر الذى ارتضى أن يخاطبه بلسان الناصح فيما يجهله ، بيد أنه لم ينسأ أن يبرر سلوكه مباشرة ، مؤثرا أن ينفس عن صـــدره بما يعن له من قول ، قال مخاطبـــا الشـــاب :

ـ رغبت يوما فى الزواج من مريم ، ولست اشـــك فى أنك حزنت جد الحزن لموقف أبيك الذى منع تلك الرغبة من أن تتحقق .. أقول لك ، وأنا أدرى بما أقول ، أنك لو علمت وقتـــذاك بما يخفى الزواج وراء سطحه لحمدت الله على الفشل ..

دهش فهمى لحـــد الانزعاج لأنه لم يتوقع أن يباغت فى أول جمـــلة يخاطب بها بألفـــاظ تجمع بين « مريم » و« الزواج » و « الرغبة » ، أفـــكار لعبت على مسرح صـــدره أدوارا لا تنسى ولا تمحى آثارها ، فلعله بالغ فى اظهار دهشته ليخفى ما أثارت الذكريات فى نفسه من الشجن والتأثر ، ولعله لذاك لم يستطع أن ينبس بكلمة ، فتابع ياســـين حديثه وهو يلوح بيده سأما ومللا قائلا :

ـ ما كنت أتصور أن ينجلى الزواج عن هذا الخواء ، أنه فى الحق لا يعدو أن يكون حلمـــا كاذبا ، وقاســـيا ككل شىء خبيث الخداع !

بدا له قوله عسير الهضم مثيرا للريب كما يخلق بشاب تتدفق ينابيع حياته الوجدانية نحو هدف واحد لا يتمثل له الا فى صورة « زوجة » وتحت مقولة « الزواج » فعـــز عليه أن يتناول أخوه

المستهتر مقولته المقدسة بهذه المرارة الساخرة ، وتمتم فى دهشة بالغة :

ـ ولكن زوجك سيدة .. كاملة .. !

فهتف ياسين ساخرا :

ـ سيدة كاملة ! هو ذاك ، أليست كريمة رجل فاضل ؟ .. وربيبة أسرة كريمة ؟ .. جميلة ؟ .. مهذبة ؟ .. ولكنى لا أدرى اى شيطان موكل بالحياة الزوجية يجعل من جميع المزايا السالفة أعراضا تافهة لا يلقى اليها ببال تحت ضغط الملل المسقم كأنها بعض ما نغدق على الفقر من صفات النبل والسعادة كلما تراءى لنا أن نعزى فقيرا عن فقره . !

فقال فهمى ببساطة وصدق :

ـ لا أفهم حرفا مما تقول ..

ـ انتظر حتى تعرف بنفسك ..

ـ لماذا اذن يصر النـاس على الزواج منذ بدء الخليفة .. ؟

ـ لأن الزواج ـ كالموت ـ لا ينفع منه التحذير ولا الحذر ..

ثم مستطردا وكأنه يخاطب نفسه :

ـ لشد ما عبث بى الخيال فسما بى الى عوالم تفوق مباهجها الأحلام ، وطالما ساءلت نفسى : هل يجمعنى حقا بيت واحد بغادة حسناء الى الأبد ؟! يا له من حلم !.. ولكنى أؤكد لك بأنه ليست ثمة مصيبة أفدح من أن يجمعك بيت واحد بحسناء الى الأبد ..

غمغم فهمى فى حيرة رجل يعز عليه ـ فيما يكابد من أشواق الشباب ـ تصور الملل :

ـ لعله بدت لعينيك أشياء وراء الظاهر الذى لا يعاب !

فقال ياسين وهو يضحك بمرارة :

ـ لا أشكو الا الظاهر الذى لا يعاب ! ..شكواى فى الحق منصبة على الجمال نفسه !.. هو .. هو الذى مللت لحد السقم ، كاللفظ الجديد يبهرك معناه لأول مرة ثم لاتزال تردده وتستعمله

حتى يستوى عندك وألفاظ مثل « الكلب » و « الدودة » و « الدرس » وسائر الأشياء المبتذلة ، يفقد جدته وحلاوته ، وربما نسيت معناه نفسه فغدا مجرد لفظ غريب لا معنى له ولا وجه لاستعماله ، ولعله لو عثر عليه الغير فى انشائك أخذهم العجب لبراعتك على حين يأخذك العجب لغفلتهم ، ولا تسل عما فى ملل « الجمال » من فجيعة ، اذ أنه يبدو مللا بلا عذر مقبول ، وبالتالى قضاء محتوما .. فيتعذر التفادى من يأس ليس له من قرار ، لا تعجب لقولى ، انى عاذرك لأنك تنظر من بعيد ، والجمال كالسراب لا يرى الا من بعيد ..

على مرارة اللهجة شك فهمى فى حقيقة بواعثها اذ أنه مال من بادىء الأمر الى اتهام أخيه ــ لا الطبيعة البشرية ــ لما عرفه عنه من انحراف السلوك ، الا يجوز أن ترد شكواه فى الحق الى ما لهج به من مجون فى حياته السابقة على الزواج ؟ ! .. أصر على هذا الظن اصرار رجل يأبى أن يفجع فى أعز آماله ، ولما كان ياسين لا يهتم بآراء أخيه بقدر ما يهتم بالافصاح عما فى صدره هو ، فقد واصل حديثه وهو يبتسم لأول مرة ابتسامة وضيئة :

ــ أصبحت أدرك موقف أبى حق الادراك ! .. وأفهم ما جعل منه ذاك الرجل العربيد الراكض وراء العشق أبدا ! .. كيف كان يتأتى له أن يصبر على طعام واحد ربع قرن من الزمان وقد قتلنى الملل بعد خمسة أشهر ؟ !

فقال فهمى وقد قلق لاقحام أبيه فى الحديث :

ــ حتى على افتراض أن شكواك صادرة عن تعاسة مركبة فى الطبيعة البشرية ، فالحل الذى تبشر به .. (هم بأن يقول : بعيد عن الطبيعة السوية ثم عدل عنه ليكون أكثر منطقية فقال) .. بعيد عن الدين ..

فقال ياسين الذى كان يقنع من الدين بالايمان دون اكتراث جدى لأوامره ونواهيه

ــ الدين يؤيد رأيي ، وآي ذلك انه سمح بالزواج من أربع غير الجواري اللاتي كانت تكتظ بهن قصور الخلفاء والأغنياء ، فقد فطن اذن الى أن الجمال نفسه ــ اذا ابتذلته العادة والألفة ــ مل وأسقم وقتل ..

فقال فهمي باسما :

ــ كان لنا جد يمسي مع زوجة ويصبح مع أخرى فلعلك أن تكون وريثه ..

فتمتم ياسين متنهدا :

ــ لعلي ...

على أن ياسين ــ حتى ذاك الوقت ــ لم يكن أقدم على تحقيق حلم من أحلامه المتمردة ، حق أنه رجع الى القهوة فالحانة ولكنه تردد قبل أن يخطو الخطوة الأخيرة ، قبل أن ينزلق الى زنوبة أو الى غيرها . وما الذي جعله يفكر ويتردد ؟.. ربما لم يخل من احساس بالمسئولية حيال الحياة الزوجية ، وربما لم ينج من تهيب لرأي الدين في « الزوج الفاسق » الذي توكد لديه أنه غير رأيه في « الشاب الفاسق » .. وربما أيضا أن خيبة أقوى أمل تردد في جوانبه صدت نفسه عن لذات الدنيا حتى يفيق ، على أن واحدة من أولاء لم تكن لتقيم في سبيله عائقا جديا خليقا بأن يقف مجرى حياته ، الا أنه وجد اغراء لا يصمت في سيرة أبيه التي استحوذت عليه ، وما بدا من زوجه من « حكمة » قرنتها في ذهنه بامرأة أبيه فينشط خياله الى رسم تخطيط لحياتها المستقبلة معه على مثال حياة الست أمينة مع أبيه ، أجل تمنى كثيرا لو تطمئن زينب الى الحياة التي تقدر عليها كما تطمئن امرأة أبيه الى حياتها ، فيثب هو مثل وثبات أبيه الموفقة ليعود آخر الليل فيحظى ببيت هادىء وزوجة مستنيمة ، بذاك ــ وبذاك وحده تراءت له الحياة الزوجية محتملة ، بل أثيرة ذات مزايا تفتقد . « فيم تطمح أية امرأة وراء البيت الزوجي والارتواء الجنسي ؟!.. لا شيء ! ..

انهن حيوانات أليفة كالحيوانات الأليفة ينبغى أن يعاملن ، أجل لا يجوز للحيوانات الأليفة أن تتطفل على حياتنا الخاصة وانما عليها أن تنتظر فى البيت حتى نفرغ لمداعبتها ، أن أكون زوجا خالصا للحياة الزوجية هو الموت ، منظر واحد وصوت واحد وطعم واحد ، خلاصتها فى النهاية عدد محدود من الحركات والأصوات لا تزال تتكرر وتتكرر .. حتى تنقلب الحركة والجمود سيين ، والصوت والصمت توأمين ، كلا كلا ، ما لهذا تزوجت .. ان قيل انها بيضاء ، ألست ذا مآرب فى السمراء ، بل والسوداء .. وان قيل انها مدملجة فما عزائى عن النحيلة والجسيمة ، أو انها مهذبة سليلة نبل وكرم فهل عطلت من المزايا ربيبة العربات الكارو ؟!.. الى الأمام .. الى الأمام .. »

— ٥١ —

كان السيد مكبا على دفاتره حين طرقت عتبة الدكان حذاء ذات كعب عال فرفع عينيه باهتمام غرزى ، فرأى امرأة تشتمل الملاءة اللف منها على جسم لحيم وتنحسر حافة البرقع الاسود عن جبين ناصع وعينين مكحولتين ، فابتسمت أساريره فى ترحاب طال تشوقه اليه ، وعرف من توه الست أم مريم أو حرم المرحوم رضوان كما صارت تدعى أخيرا ، ولما كان جميل الحمزاوى مشغولا ببعض الزبائن فقد دعاها للجلوس على كثب من مكتبه ، فأقبلت المرأة تخطر وجلست على المقعد الصغير الذى فاضت عنه أعطافها وهى تلقى اليه بتحية الصباح . ومع أن التحية من ناحيتها والترحاب من ناحيته جريا على النحو المعهود الذى يتكرر كلما جاءته « زبونة » تستحق التكريم ، فان الجو الذى غشى ركن

الدكان من حول المكتب شحن بكهرباء تعوزها البراءة ، لاحت امارات لها فى الجفنين المسبلين حياء حول عروس البرقع من ناحية ، والنظرة المتربصة فوق سفحى الأنف العظيم من ناحية أخرى ، كهرباء خفية صامتة الا أن نورها الكامن كان متحفزا فى انتظار لمسة كى يسطع ويشعشع ويستعر نارا .. كأنه كان ينتظر هذه الزيارة التى انجابت عن آمال مهموسة وأحلام مكبوتة ، ولكن لأن وفاة السيد محمد رضوان أثارت منه فكرا وهيجت رغبات كما يهيج انطواء الشتاء شتى آمال الشباب فى الطبيعة والأحياء ، زال بموته الشجا الذى اعترض احساسه بالمروءة فأمكنه أن يذكر نفسه بأن المرحوم لم يكن الا جارا — لا صديقا — ورحل ، كما أمكن شعوره بجمال هذه المرأة الذى أعرض عنه قديما حفاظا على كرامته أن يعبر عن ذاته ويطالب بنصيبه من المتعة والحياة ، الا أن عاطفته نحو زبيدة كان أدركها العطب كالفاكهة فى نهاية موسمها ، فلاقت المرأة منه — على خلاف الزيارة السابقة — ذكرا متوثبا وعاشقا متحررا .. على أن خاطرة ثقيلة — أن تكون الزيارة بريئة — مرت به ولكنه نفاها عن نفسه بقوة ، مستشهدا بما ند منها فى الزيارة القديمة من رقيق الاشارات وبديع الريب ، مؤكدا ظنونه بهذه الزيارة نفسها التى ليس ثمة ما يوجبها أن لم يكن مثل ما يدور بنفسه ، ثم صمم أخيرا على أن يتلمس سبيله كخبير قديم .. فقال لها برقة باسما :

— خطوة عزيزة .. !

فقالت فى شىء من الارتباك :

— الله يكرمك ، كنت راجعة الى البيت فمررت بالدكان فتراءى لى أن آخذ لوازم الشهر بنفسى ..

فطن الى « اعتذارها » عن المجىء ولكنه أبى أن يصدقه فأن يتراءى لها أن تأخذ لوازم الشهر بنفسها ليس شيئا ان لم يكن وراءه دافع ، لا سيما وأنها تدرى بالبداهة والغريزة ان

مجيئها بعد « مقدمات » الزيارة القديمة خليق بأن يثير فى نفسه الريب ، وأن يبدو لعينيه « تمحكا » غير خافى الدلالة ، فزادته مبادرتها الى الاعتذار ثقة وقال :

ــ فرصة طيبة لأحييك ولأكون فى خدمتك . .

فشكرته فى اقتضاب أصغى اليه بنصف انتباه اذ شغل بالتفكير فى الكلمة التالية ، لعله كان من الطبيعى أن يعرج على ذكر الزوج الراحل مترحما ولكنه تحاشى هذا الخاطر أن يفسد عليه الجو كله ، ثم تساءل : هل يهاجم أو يمسك حتى يستدرجها الى الهجوم ؟.. لكل طريقة لذتها .. بيد أنه لم يشأ أن ينسى أن مجيئها وحده خطوة كبيرة من جانبها تستحق حسن الاستقبال من جانبه ، فاستطرد قائلا وكأنه يتمم حديثه الأول :

ــ بل فرصة طيبة كى أراك . . !

تحرك الجفنان والحاجبان حركة ربما دلت على الحياء أو الارتباك أو كليهما معا ، ولكنها فضحت قبل كل شىء فطنتها الى ما وراء مجاملته الظاهرة من معان خفية ، على أنه رأى فى حيائها استجابة لشعورها الباطنى الذى دفعها الى زيارته أكثر منه استجابة لقوله ، فازداد اطمئنانا الى تخمينه الأول وراح يؤكد ما عناه فى نغمة رقيقة قائلا :

ــ أجل فرصة طيبة كى أراك . .

عند ذاك قالت بلهجة تنم عن عتاب حبيس :

ــ لا أظن أنك تعد رؤيتى فرصة طيبة . . !

فوقعت لهجة العتاب من صدره موقع الرضى والسرور ، لكنه قال كالمحتج :

ــ صدق من قال أن بعض الظن اثم . .

فهزت رأسها هزة كأنما تقول له «هيهات أن يؤثر فى مثل هذا الكلام » وقالت :

ــ ليس ظننا فحسب ، انى أعنى ما أقول ، انك رجل لا يعوزك

الفهم ، وأنا كذلك وان توهمت غيره .. فلا يجوز لأحدنا أن يحاول خدع صاحبه .

ومع أن صدور هذا الكلام عن امرأة لم يمض على وفاة زوجها شهران أثار فى نفسه شعورا بالسخرية والمرارة ، فانه تطوع لانتحال الأعذار لها ـ الأمر الذى لم يكن ليفكر فيه فى ظروف أخرى ـ قائلا لنفسه : ما أحرى صبرها على مرضه الطويل بأن يشفع لها ، ثم تخلص من شعوره الطارىء بقوة وقال متصنعا الأسى :

ـ غاضبة على ؟!.. يا له من حظ سيىء لا أستحقه .

فقالت فى شيء من الاندفاع ربما كان الباعث عليه ضيق المكان والزمان عن ملاعبات الأخذ والرد :

ـ قلت لنفسى وأنا فى الطريق اليك «ما ينبغى أن تذهبى» .. فلا يحق لى الآن أن ألوم الا نفسى !

ـ بعض هذا الغضب يا ست !.. انى أسائل نفسى عما جنيت .. !؟

فتساءلت بلهجة ذات معنى :

ـ ما عسى أن تصنع اذا حييت انسانا بتحية فلم يرد بمثلها ولا حتى بأسوأ منها ؟!

فأدرك من توه أنها تشير الى ما بدا منها فى الزيارة القديمة من تودد قابله بالصمت ، ولكنه تجاهل الاشارة .. وقال مجاراة لأسلوبها الرمزى :

ـ لعلها لم تبلغ سمعه لسبب أو لآخر ..

ـ انه قوى السمع والحواس جميعا ..

فجرت على فمه ابتسامة عجب لم يتمالكها ، قال بلهجة المذنب اذا أنشأ يعترف :

ـ لعله لم يردها حياء أو تقوى ..

فقالت بصراحة أعجبته وهزت فؤاده :

ـ أما الحياء فلا حياء له ، وأما سائر الأعذار فمن أين للقلوب الصادقة أن تباليها !

فندت عنه ضحكة ما لبث أن اختزلها وهو يسترق النظر الى جميل الحمزاوى الذى بدا منهمكا فى العمل بين نفر من الزبائن ، ثم قال :

ـ لا أحب أن أعود الى الملابسات التى قست على وقتذاك ، على أنه لا يجوز لى أن أيأس ما دام ثمة ندم وتوبة وعفو !

فتساءلت فى انكار :

ـ من يدرينا بالندم ؟

فقال بلهجة حارة برع فى تجويدها عاما بعد عام :

ـ تجرعته طويلا والله شهيد . .

ـ والتوبة ؟

فقال وهو يثقبها بنظرة متوهجة :

ـ ان ترد التحية بعشر أمثالها !

فتساءلت فى دلال :

ـ ومن أدراك بأن ثمة عفوا ؟

فقال بلباقة :

ـ أليس العفو من شيم الكرام !

ثم فى نشوة مسكرة :

ـ العفو كثيرا ما يكون كلمة السر لولوج الجنة . .

ثم وهو يرنو الى ابتسامة عذبة لاحت فى عينيها :

ـ الجنة التى أعنيها تقع عند ملتقى بين القصرين بالنحاسين ، ومن جميل التوفيق أن بابها يفتح على عطفة جانبية بعيدا عن أعين الرقباء ، وألا حارس لها . . !

وفطن الى أن حارس الجنة السماوية سمى « المرحوم » الذى كان حارسا للجنة الأرضية التى يتلمس طريقه اليها ، فشاب خاطره ضيق وخاف أن تكون المرأة قد فطنت الى نفس

الحقيقة الساخرة ولكنه وجدها مهومة فيما يشبه الحلم فتنهد وهو يستغفر الله فى سره . وكان جميل الحمزاوى قد فرغ من زبائنه ، فأقبل على السيدة ليقضى حوائجها فسنحت للسيد فرصة للتأمل ، فراح يذكر كيف رغب ابنه فهمى يوما فى خطبة مريم ابنة هذه المرأة ، ثم كيف ألهمه الله الرفض ، وقد اعتقد وقتذاك انه انما ينفذ مشيئة حرمه فحسب ، فلم يدر له بخلد أنه جنب ابنه شر مأساة ينكب بها زوج ، وهل يمكن أن تنهج فتاة الا على مثال أمها ؟.. وأى أم ؟.. امرأة خطيرة ..! قد تكون جوهرة ثمينة عند أمثاله من الصيادين ، ولكنها فى البيوت مأساة دامية ، ترى أى طريق سلكت طوال الأعوام التى عاشها زوجها ميتا حيا ؟.. كل القرائن تشير الى طريق واحد ، ولعل كثيرين من الجيران يعرفون ، بل لعله لو كان فى بيته من يحسن ملاحظة هذه الأمور لما خفى عليه شىء ، ولما بقيت زوجه على الولاء لها والايمان بها حتى هذه الساعة ، وعاودته رغبته ــ استحوذت عليه أول مرة عقب الزيارة المريبة القديمة ، ولم يجد عندئذ سبيلا آمنا الى تحقيقها دون اثارة الريب ــ وهى أن يحول بين المرأة المستهترة وبين بيته الطاهر ، الآن يرى الظرف مهيئا ــ لاتصاله المنتظر بها ــ لتحقيق رغبته ، وذلك بأن يوحى لها بقطع أسبابها بزوجه رويدا منتحلا ما يعن له من أعذار حقيقة ببلوغ الهدف دون مساس بكرامتها ، هذه المرأة التى باتت أقرب ما تكون الى فؤاده وأبعد ما تكون عن احترامه فى لحظة واحدة !.. ولما انتهى الحمزاوى من اعداد حوائجها نهضت مادة يدها الى السيد فسلم باسما وهو يقول بصوت خافت :

ــ الى اللقاء ..

فغمغمت وهى تهم بالانصراف :

ــ نحن فى الانتظار ..

غادرته أوفر سعادة ، نشوان بالظفر والعجب ، ولكنها خلقت

له أيضا هما لم يكن ، هما جديرا بأن يحتل مكانا بارزا من مشاغله اليومية ، سوف يتساءل من الآن فصاعدا عن آمن السبل للانسحاب من بيت زبيدة بنفس الاهتمام الذى يتساءل به عما فعلت السلطة العسكرية وعما يبيت الانجليز وعما ينوى سعد ، أجل جد جديد من السعادة يجر وراءه ــ كالعادة ــ ذيلا من الفكر . لولا حرصه الشديد على حب الناس له ، ذلك الحب الذى يحظى منه بأسعد سعاداته ، لهان عليه هجر العالمة بعد أن بلى حبه وذوت أزاهره وأغرقه الشبع فى مستنقع آسن ، ولكنه يشفق دائما من أن يترك وراءه قلبا حانقا أو نفسا حاقدة ، وكم يود كلما ضيق الملل أنفاسه لو يبداه الحبيب بالهجر من ناحيته فيكون مهجورا بدل أن يكون هاجرا ، وكم يود أن تنتهى علاقته بزبيدة كما انتهت أخوات لها من قبل ، بكدر عابر تغسله هدايا الوداع المنتقاة ، ثم يستحيل الى صداقة وطيدة ، فهل تتقبل زبيدة ــ التى يظن أنها ليست دونه شبعا ــ اعتذاره بقبول حسن ؟.. وهل يطمع فى أن تغفر له هداياه ما أعتزم من هجر ؟. هل تثبت انها امرأة كبيرة القلب سخية النفس كزميلتها جليلة مثلا ؟. هذا ما ينبغى أن يفكر فيه طويلا وأن يهيىء له أنجع الذرائع . وتنهد تنهدة طويلة كأنما يشكو ما جعل الحب فانيا لا يدوم ليكفى القلب متاعب الأهواء ، ثم شرد به الخيال طاويا النهار فتراءى له وهو يدب فى الظلماء ملتمسا سبيله الى البيت الموعود ، والمرأة تنتظر بيدها سراج ...

أعلنت انجلترا حمايتها من تلقاء نفسها دون أن تطلبها أو تقبلها الأمة المصرية ، فهى حماية باطلة لا وجود لها قانونا بل هى ضرورة من ضرورات الحرب تنتهى بنهايتها .

كان فهمى يملى الكلمات ، كلمة كلمة ، فى أناة وبصوت واضح النبرات والأم وياسين وزينب يتابعون باهتمام درس الاملاء الجديد الذى انكب كمال على كتابته ، مركزا وعيه فى ألفاظه من دون أن يفقه معنى كلمة مما كتب صوابا أو خطأ . لم يكن غريبا أن يلقى فهمى على شقيقه الصغير درسا فى الاملاء أو غيرها فى جلسة القهوة ، ولكن موضوع الاملاء بدا جديدا حتى للأم وزينب ، أما ياسين فنظر الى أخيه مبتسما وقال :

ـ أرى هذه المعانى قد ملكت عليك نفسك .. فلم يفتح الله عليك باملاء الغلام لهذا المسكين الا خطبة سياسية وطنيه ينفتح لها المغلق من أبواب السجون ..

فبادر فهمى الى تصحيح رأى أخيه قائلا :

ـ هى من خطبة سعد أمام أساطين الاحتلال فى جمعية الاقتصاد والتشريع ..

فتساءل ياسين باهتمام ودهشة :

ـ وكيف كان ردهم عليه .. ؟

فقال فهمى بانفعال :

ـ لم يجىء ردهم بعد ، والكل يتساءل عنه فى حيرة وقلق ، انها غضبة مزمجرة فى وجه أسد لم يؤثر عنه الحلم أو العدل ..

ثم وهو يتنهد مغيظا محنقا :

ـ كان لابد من غضبة بعد أن منع الوفد من السفر ، وبعد أن استقال رشدى باشا من الوزارة فخيب السلطان المأمول بقبول استقالته ..

ثم مضى الى حجرته مسرعا ، وعاد وهو يبسط ورقة مطوية وقدمها الى أخيه وهو يقول :

ـ ليست الخطبة كل ماعندى ، اقرأ هذا المنشور الذى يوزع سرا متضمنا رسالة الوفد الى السلطان ..

فتناول ياسين المنشور وراح يقرأ :

ـ « يا صاحب العظمة ...

يتشرف الموقعون على هذا أعضاء الوفد المصرى أن يرفعوا الى مقام عظمتكم بالنيابة عن الأمة ما يلى :

لما اتفق المحاربون على أن يجعلوا مبادىء الحرية والعدل أساسا للصلح وأعلنوا أن الشعوب التى غيرت الحرب مركزها يؤخذ رأيها فى حكم نفسها أخذنا على عاتقنا السعى فى استقلال بلادنا والدفاع عن قضيتها أمام مؤتمر السلام ما دام أن الحق الأقوى قد زال من ميدان السياسة ، وما دامت بلادنا قد أصبحت بزوال السيادة التركية حرة من كل حق عليها لأن الحماية التى أعلنها الانجليز بلا اتفاق بينهم وبين الأمة المصرية باطلة ، ولم تكن فى الواقع الا ضرورة حربية تزول بزوال الحرب ، اعتمادا على هذه الظروف وعلى أن مصر غرمت كل ما قدرت عليه من المغارم فى صف القائلين بحماية حرية الأمم الصغرى ، لا يكون لدى مؤتمر السلام ما يمنع من الاعتراف بحريتنا السياسية جريا على المبادىء التى أسس عليها .

عرضنا رغبتنا فى السفر على رئيس وزرائكم صاحب الدولة حسين رشدى باشا ، فوعد بمساعدتنا على السفر وثوقا منه بأننا انما نعبر عن رأى الأمة كافة .. فلما لم يسمح لنا بالسفر وحبسنا داخل حدود بلادنا بقوة الاستبداد لا بقوة القانون ، وحيل بيننا وبين الدفاع عن قضية هذه الأمة الأسيفة ، ولما لم يستطع دولته أن

يحتمل مسئولية البقاء فى منصبه فى حين أن الشـــعب يصادر فى مشيئته ، أســتقال هو وزميله صاحب المعــالى عدلى يكن باشا استقالة نهائية قوبلت من الشعب بتكريم شخصيهما والاعتراف بصدق وطنيتهما .

ولقد عاش الناس يظنون انه كان لهمافى وقفتهما الشريفةدفاعا عن الحرية عضد قوى من نفحات عظمتكم . لذلك لم يكن ليتوقع أحد فى مصر أن يكون آخر حل لمسألة سفر الوفد قبول استقالة الوزيرين ، لأن فى ذلك متابعة للطامعين فى اذلالنا وتمكينا للعقبــة التى ألقيت فى سبيل الادلاء بحجة الأمة الى المؤتمر ، وايذانا بالرضى بحكم الأجنبى علينا الى الأبد .

قد نعلم أن عظمتكم ربما كنتم مضطرين لاعتبارات عائلية أن تقبــلوا عرش أبيكم العظيم الذى خلا بانتقــال أخيكم المغفور له السلطان حسين ، ولكن الأمة من جهة أخرىكانت تعتقد أن قبولكم لهذا العرش فى زمن الحماية الوقتية الباطلة رعاية لتلك الظروف العائلية ليس من شأنه أن يصرفكم عن العمل لاستقلال بلادكم ، غير أنحل المسألة بقبول استقالة الوزيرين اللذين أظهرا احترامهما لارادة الأمة لا يمكن أن يتفق مع ما جبلتم عليــه من حب الخــير لبلادكم ، والاعتــداد بمشيئة شعبكم ، لذلك عجب النــاس من مستشاريكم كيف أنهم لم يلتفتوا الى الأمة فىهذا الظرف العصيب وهى انما تطلب منكم — يا أرشد أبناء محررها الكبير محمد على — أن تكونوا لها العون الأول على نيل استقلالها ، مهما كلفكم ذلك . فان همتكم أرفع من أن تحددها الظروف ، كيف فات مستشاريكم أن عبارة استقالة رشدى باشا لا تسمح لرجــل مصرى ذى كرامة وطنية أن يخلفه فى مركزه ؟ ! . . . كيف فاتهم أن وزارة تؤلف على برنامج مضاد لمشيئة الشعب مقضى عليها بالفشل ؟ !

عفوا مولانا قد تكون مداخلتنا فىهذا الأمر وفى غير هذا الظرف غير لائقة .. ولكن الأمر قد جل الآن عن أن يراعى فيه أى اعتبار

غير منفعة الوطن الذى انت خادمه الأمين . ان لمولانا أكبر مقـام فى البلاد فعليه أكبر مسئولية عنها ، وفيه أكبر رجاء لها ، واننا لا تكذبه النصيحة اذا تضرعنا اليه أن يتعرف رأى أمته قبل أن يتخذ قرارا نهائيا فى أمر الأزمة الحالية ، فاننا نؤكد لسدته العلية انه لم يبق أحد فى رعاياه من أقصى البلاد الى أقصاها ألا وهو يطلب الاستقلال ، فالحيلولة بين الأمة وبين طلبتها مسئولية لم يتحـر مستشارو مولانا أمرها بالدقة الواجبة . لذلك دفعناواجب خدمة بلادنا واخلاصنا لمولانا أن نرفع لسدته شعور أمته التى هى الآن أشد ما تكون رجاء فى استقلالها وأخوف ما تكون من أن تلعب به أيدى حزب الاستعمار ، والتى تطلب اليه بحقها عليه أن يغضب لغضبها ويقف فى صفها فتنـال بذلك غرضها .. وانه على ذلك قدير ... »

رفع ياسين رأسه عن المنشور وفىعينيه ذهول وفى قلبه نبض جديد من التأثر ، بيد أنه هز رأسه قائلا :

ـ ياله من خطاب ! .. لا أحسبنى أستطيع أن أوجه مثله الى ناظر مدرستى دون أن ينالنى العقاب الرادع !

فرفع فهمى منكبيه استهانة و قال :

ـ الأمر قد جل الآن عن أن يراعى فيه أى اعتبار غير منفعة الوطن ... !

ردد العبارة عن ظهر قلب كما وردت فى المنشور . فلم يتمالك ياسين أن يقول ضاحكا :

ـ احفظت المنشور ! .. ولكنى لا أعجب لهـذا ، كأنك كنت ترصد طول حياتك لمثل هذه الحركة كى تلقى اليها بكل قلبك ، ولعلى لا أخلو من مثل شعورك وآمالك ، ولـكنى لا أقرك على الاحتفاظ بهذا المنشور .. خصوصا بعد استقالة الوزارة وتحرش الأحكام العرفية ..

فقال فهمى فى فخار :

ـ انى لا أحتفظ بها فحسب ،ولكنى أقوم بتوزيعها ما سمح الجهـد . . !

فاتسعت عينا ياسين فى قلق وهم بالكلام .. ولكن الأم كانت أسبق اليه منه فقالت بانزعاج :

ـ لا أكاد أصدق أذنى ، كيف تعرض نفسـك للشر وأنت سيد العقلاء ؟!

لم يدر فهمى كيف يجيبها ، ولكنه شعر بما جره عليه تهوره من حرج ، لم يكن أشق عليه من محادثتها فى هذا الأمر ، كانت السماء أقرب اليه من اقناعها بأن تعريض نفسه للخطر فى سبيل الوطن واجب ما دام الوطن كله لا يساوى فى نظرها قلامة ظفر ، بل قد بدا له أن اخراج الانجليز من مصر أيسر من حملها على الاقتناع بوجوب اخراجهم أو اغرائها ببغضهم ، فما أن يدور الحديث حول ذلك حتى تقول ببساطة «لماذا تكرههم يا بنى ؟.. أليسوا أناسا مثلنا لهم أبناء وأمهات ؟ ! » فيقول لها بحدة : « ولكنهم يحتلون بلادنا ! »... وتحس بحدة الغضب فى نبراته فتلوذ بالصمت وهى تدارى نظرة اشفاق لو نطقت لقالت له « لا عليك من هذا » .. ومرة قال لها وقد ضاق بمنطقها : «لاحياة لقوم اذا حكمهم أجنبى» فقالت له فى استغراب «ولكنا لا نزال أحياء رغم انهم يحكموننا من زمن بعيد ، وقد أنجبتكم جميعا فى ظل حكمهم ! .. انهم يا بنى لا يقتلون ولا يتعرضون للمساجد ولا تزال أمة محمدبخير !» فقال الشاب يائسا «لو كان سيدنا محمد حيا مارضى أن يحكمه الانجليز» فقالت بلهجة الحكيم « هذا حق ، ولكن أين نحن من الرسول عليه الصلاة والسلام ؟ .. كان الله يعينه بملائكته .. » فهتف بها حانقا «سيعمل سعد زغلول ما كانت الملائكة تعمله» ولكنها هتفت وهى ترفع ذراعيها كأنما تدفع بلاء لا دافع له « لا تقل هذا يا بنى ، استغفر ربك ، اللهم رحمتك وغفرانك ! » .. هذه هى ، فكيف

يجيبها الآن وقد استشعرت فى توزيع المنشور خطرا يتهدده ؟..
لم يسعه الا أن يركن الى الكذب فقال متصنعا الاستهانة :
ــ ما أردت الا المزاح فلا تنزعجى للاشىء ..
فعادت المرأة تقول بنبرات تنم عن ضراعة :
ــ هذا ما أومن به يابنى ، هيهات أن يخيب ظنى فى أرشد الراشدين ، ما لنا نحن وهذه الأمور ! اذا رأى باشواتنا أن يخرج الانجليز من مصر فليخرجوهم بأنفسهم .
بدا كمال طوال الحديث وكأنه يحاول ان يتذكر أمرا ذا بال ، فما أن بلغ الحديث تلك النقطة حتى صاح :
ــ مدرس العربى قال لنا بالأمس أن الأمم تستقل بعزائم ابنائها ... !
فهتفت الأم ساخطة :
ــ لعله قصد بخطابه كبار التلاميذ ، ألم تحدثنى يوما بأن عندكم تلاميذ قد طرت شواربهم ؟
فتساءل كمال بسذاجة :
ــ وأخى فهمى اليس تلميذا كبيرا ؟
فقالت الأم بحدة على غير مألوفها :
ــ كلا ، ليس أخوك كبيرا ، انى أعجب لذلك المدرس كيف سولت له نفسه أن يتحدث اليكم فى غير الدرس !.. اذا شاء أن يكون وطنيا حقا فليوجه هذا الكلام الى أبنائه فى البيت لا الى أبناء الناس !..
كاد الحديث يحمس ويستمر لولا أن سنحت كلمة عابرة فغيرت مجراه ، ارادت زينب أن تتودد الى الأم بتأييدها فى دفاعها فحملت على مدرس العربى ونعتته بأنه « مجاور حقير عملت الحكومة منه رجلا ذا شأن فى غفلة من الزمان » .. ولكن ما أن سمعت الأم هذه الاهانة توجه الى «المجاور» حتى أفاقت من انفعالها وأبت أن تسكت عنها رغم أنها قبلت تأييدا لها ، مدفوعة بكل ما تنطوى

عليه نفسها من اجلال لذكرى أبيها فتحولت الى زينب وقالت بهـدوء :

ـ انت يا ابنتى تحقـرين أشرف ما فيه ، الشـيوخ خلفاء الرسل ، انما يلام الرجل على خروجه عن حدود وظيفته الشريفة ، الا ليته قنع بأن يكون مجاورا وشيخا !..

ولم يفت ياسين سر تحول الأم المفاجىء ، فبادر بالتدخـل ليمحو الأثر الذى تركه دفاع زوجته البرىء ..

ـ ٥٣ ـ

ـ أنظر الى الطريق ، أنظر الى الناس ، من يقول بعد هذا ان الكارثة لم تقع ؟!

ولكن السيد أحمـد لم يكن فى حاجة الى مزيد من النظـر ، الناس يتساءلون ، ويرجفون ، وأصحابه يخوضـون فى الحديث خوضا حارا تجاوبت فيه الحسرة مع الحزن مع الغضب ، آلى ان الخبر قد تردد على السنة كافة من مر به من الأصدقاء والزبائن ، أجمع الكل على أن سـعد زغلول وصـفوة أصحابه قد اعتقلوا وسيقوا الى مكان مجهول فى القاهرة أو خارجها ، قال السيد محمد عفت وهو محتقن الوجه بدم الحنق :

ـ لا تشكوا فى صحة الخبر فان لأخبار السوء رائحة تزكم الأنوف .. ألم يكن هذا متوقعا بعد خطاب الوفد للسلطان ؟.. أو بعد رده على الانذار البريطـانى بذلك الخطـاب الجبـار الى الوزارة الانجليزية .. ؟!

فقال السيد بوجوم شديد :

ـ يعتقلون الباشوات الكبار !.. يا له من حدث مخيف ، ترى ما عسى أن يصنعوا بهم ؟

ـ الله وحده يعلم ، البلد يختنق فى ظل الحكم العرفى ..

ودخل عليهم السيد ابراهيم الفار تاجر النحاس مهرولا وهو يهتف لاهثا :

ـ أما سمعتم بآخر الأنباء ؟!.. مالطة !

وضرب يدا بيد وراح يقول :

ـ النفى الى مالطة ، لم يعد أحد منهم بيننا ، نفوا سعد وأصحابه الى جزيرة مالطة ..

وهتف الجميع فى نفس واحد :

ـ نفوهم !..

أثار «النفى» فى نفوسهم ما خامرهم منذ الصبا من ذكريات قديمة أسيفة عن عرابى باشا ونهايته ، فتساءلوا وهم لا يملكون قلوبهم من الجزع : أيجرى نفس المصير على سعد زغلول وصحبه ؟.. أينقطع حقا ما بينهم وبين الوطن الى الأبد ؟.. أتموت هذه الآمال الكبار وهى لا تزال فى مهد الأزهار ؟.. وشعر السيد بحزن لم يشعر بمثله من قبل ، حزن ثقيل غليظ شاع فى صدره كما يشيع الغثيان ، فعانى تحت وطأته خمودا وهمودا واختناقا وجعلوا يتبادلون نظرات ساهمة واجمة ، ناطقة بغير لسان، صارخة بلا صوت ، ثائرة بلا صخب ، وفى الريق مرارة واحدة ، ثم جاء فى أثر الفار صاحب وثان وثالث مرددين نفس النبأ ، آملين أن يجدوا عند الآخرين مسكنا لما يستعر فى نفوسهم ، فلا يظفرون الا بالحزن الصامت والوجوم الكئيب والثوران الكظيم ،

ـ هل تضيع الآمال اليوم كما ضاعت بالأمس ؟

فلم يحر أحد جوابا ، ولبث المتسائل يقلب عينيه فى الوجوه دون جدوى ، لا جواب تأوى اليه النفس من مضطربها وان أبت أن تسلم جهارا بما يميتها خوفا ، نفى سعد .. هذا حق ، ولكن

هل يعود سعد ولو بعد حين ؟.. وكيف يعود سعد ؟. أية قوة تعيده ؟.. لن يعود سعد ، فأين تذهب هذه الآمال العراض ؟.. لقد انبثقت من الأمل الجديد حياة حارة عميقة يأبى استحواذها عليهم أن يسلموا لليأس ولكنهم لا يدرون كيف يعللون النفس ببعثها من جديد .

— ولكن أليس ثمة أمل فى أن يكون الخبر شائعة كاذبة !

لم يعر أحد القائل التفاتا ، فى حين لم يحفل هو بهذا التجاهل لأنه لم يقصد بقوله فى الحق الا تلمس مهرب — ولو وهمى — من اليأس الخانق .

— أسره الانجليز .. ومن ذا يغالب الانجليز !

— رجل ولا كل الرجال ، بعث لحظة من الحياة باهرة ، ومضى .

— كالحلم .. وسوف ينسى فلا يبقى منه الا ما يبقى من حلم عند الضحى ..

وهتف هاتف بصوت أبحه الألم :

— الله موجود !..

فهتفوا بصوت واحد :

— نعم .. وهو أرحم الراحمين .

ذكر اسم الله فكان كالقطب المغطس ، جذب اليه شواردهم وجمع أفكارهم التى شتتها اليأس . وفى مساء ذلك اليوم — ولأول مرة منذ ربع قرن أو يزيد — بدا مجلس الاخوان مجافيا للهو والطرب يغشاه الوجوم ، وتتجه أحاديثه جميعا الى الزعيم المنفى ، قهرهم الحزن ، وان يكن وجد بينهم من تنازعه الحزن والرغبة فى الشراب مثلا ، فقد غلب الأولى على الثانية احتراما للشعور العام ومجاراة للموقف ، بيد انه لما طال بهم مطال الحديث حتى استنفدوا أغراضه لاذوا بما يشبه الصمت ، وما لبث أن ركبهم قلق خفى وشى بحكة الادمان التى تئن فى أعماقهم فبدوا

وكأنهم ينتظرون اشارة الجسور الذى يتقدم الصفوف ، ولكن السيد محمد عفت قال فجأة :

ــ آن لنا أن نعود الى بيوتنا . .

لم يكن يعنى ما يقول ، ولكن كأنما أراد أن ينذرهم بأنهم اذا تركوا الوقت يمضى كما مضى فلن يبقى أمامهم الا أن يعودوا الى بيوتهم ، وكانت المعاشرة الطويلة لقنتهم دقيق التفاهم بالاشارة فتشجع على عبد الرحيم بائع الدقيق بهذا الانذار الخفى وقال :

ــ أنعود الى البيوت دون كأس تخفف من بلوى هذا اليوم !

فأحدث قوله فى النفوس ما يحدثه الجراح فى أهل المريض اذا خرج عليهم من حجرة الجراحة وهو يقول : « الحمد لله . . نجحت العملية » ، الا أن الذى تنازعه الحزن والرغبة فى الشراب قال فيما يشبه الاحتجاج متسترا على ما أثلج صدره من ارتياح :

ــ نشرب فى مثل هذا اليوم ؟!

فحدجه السيد أحمد بنظرة ذات معنى ، ثم قال متهكما :

ــ دعهم يشربون وحدهم وهلم بنا الى الخارج يا ابن . . الكلب . .

ندت عنهم ضحكات لأول مرة ثم جاءوا بالقوارير وكأنما أراد السيد أن يعتذر عن هذا السلوك فقال :

ــ ان اللهو لا يغير ما بقلوب الرجال !.

فأمنوا على قوله ، كانت أول ليلة يترددون طويلا قبل الاستجابة الى نداء الصبوات ، وما لبث السيد ان قال متأثرا بمنظر القوارير :

ــ انما ثار سعد لاسعاد المصريين لا لتعذيبهم فلا تخجلوا عند الحزن عليه من معاقرة الشراب .

لم يكن الحزن مما يمنعه من المزاح ، بيد أن الليلة لم تهنأ بصفاء خال من الكدر ، حتى وصفها السيد فيما بعد بأنها « ليلة مريضة تداووا فيها بجرعات من الخمر ! »

استقبلت الأسرة مجلسها التقليدى فى جو من الوجوم لم تعهده من قبل ، انطلق فهمى فى حديث ثورى طويل والدموع فى عينيه ، واستمع ياسين آسفا حزينا ، وودت الأم أن تبدد الكآبة أو تخفف البلوى ولكنها اشفقت من انقلاب غرضها عليها ، ثم ما لبثت عدوى الحزن أن انتقلت اليها فرق قلبها للشيخ العجوز الذى انتزعوه من بيته وزوجه الى منفى بعيد ، قال ياسين :

ـ أمر محزن ، رجالنا جميعا ، عباس ومحمد فريد وسعد زغلول . . مشردون بعيدا عن الوطن . .

فقال فهمى بانفعال شديد :

ـ يا لهم من أوغاد هؤلاء الانجليز !. . نخاطبهم باللغة التى كانوا يستعطفون بها الناس فى محنتهم فيجيبون بالانذارات العسكرية والنفى والتشريد . .

لم تطق الأم أن ترى ابنها منفعلا على تلك الحال فنسيت مأساة الزعيم وقالت برقة واستعطاف :

ـ ارحم نفسك يا بنى ، ربنا يلطف بنا !

ولكن هذه اللهجة الرقيقة زادته هياجا فصاح دون أن يلتفت اليها :

ـ اذا لم نقابل الارهاب بالغضب الذى يستحقه فلا عاش الوطن بعد اليوم ، لا يجوز أن تنعم البلاد بالسلام وزعيمها الذى قدم نفسه فدية لها يعانى عذاب الأسر . .!

فقال ياسين متفكرا :

ـ من حسن الحظ أن الباسل باشا بين المنفيين ، انه شيخ قبيلة مرهوبة الجانب ولا أظن رجاله يسكتون على نفيه . .

فقال فهمى بحدة :

ـ والآخرون . .؟ أليس وراءهم رجال أيضا ؟. . أنها ليست قضية قبيلة ولكنها قضية الأمة كلها . .

جرى الحديث بلا توقف وما يزداد الا حدة وعنفا ولكن المرأتين

لاذتا بالصمت اشفاقا ورهبة ، لم تستطع زينب ان تدرك بواعث هذه الثورة العاطفية فلم تفهم لها معنى ، نفى سعد ورجاله معه ، ومن المؤكد أنهم لو عاشوا كما يعيش «عباد الله» ما فكر أحد فى نفيهم ، ولكنهم لم يريدوا ذلك ، ارادوا أمورا خطيرة مرادها وخيم العواقب دون ثمـة ضرورة تدعو اليهـا ، ومهما يكن من أمرهم فماذا يبعث فهمى على هذا الغضب الجنونى كأن سعدا أبوه أو أخوه ؟! . بل ماذا يبعث ياسين ــ وهو الرجل الذى لا يأوى الى فراشه الا مترنحا من السكر ــ على هذا الأسف ؟!. أيحزن حقا من كان مثله على نفى سـعد أو غيره من الناس ؟!. . كأن حياتها فى حاجـة الى مزيد من التنغيص حتى يعكر فهمى عليها صـفو الجلسة القصيرة بهذه الثورة التى لا معنى لها ، جعلت تفكر فى هذا كله وهى تلحظ زوجها من آن لآخر متعجـبة ساخطة ولسـان حالها يقول له : «ان كنت صادقا حقا فى حزنك فلا تذهب هـذا المساء ــ هذا المساء فقط الى الحانة ! » ، ولكنها لم تنبس بكلمة ، كانت أحكم من أن تلقى بأفكارها الباردة فى هذا التيار النارى ، فى هذه الناحية شابهتها الأم التى سريعا ما تفقد شجاعتها حيال الغضب وان هان ، لذلك لاذت بالصمت وانطوت على ضيق شديد وهى تتابع مشفقة الحديث الثائر الهائج ، ولكنها كانت أعظم من زوج ياسين ادراكا لبواعث هـذه العواصف فان رأسها لم يخل من ذكرى عرابى كما أن قلبها لم يخل من اسف على افندينا ، أجل لم تكن كلمة « المنفى » عاطلة من المعانى فى نفسها ، بل لعلها خلت من الأمل الجدير بأن يداعب شخصا كفهمى فقد اقترنت فى ذهنها ــ كما اقترنت فى ذهن زوجهـا وأصحابه ــ باليأس من العودة ، والا فأين أفندينا ؟. . ومن أجدر منه بالعودة الى وطنه ؟. ولكن أيظل فهمى على حزنه ما امتد النفى بسـعد .. ترى اى نحس فى هذه الأيام يأبى الا أن يبيتهم بنبأ ويصبحهم بنبأ حتى زلزل أمنهم وكدر صـفوهم ؟! كم تتمنى أن يعود السـلام الى

وبوعه ، وأن تطيب هذه الجلسة كما طابت العمر كله ، وأن تنبسط أسارير فهمي ويلذ الحديث ، كم تتمنى ..

ــ مالطة ..! هذه هي مالطة !

هكذا صاح كمال فجأة وهو يرفع رأسه عن خريطة البحر الأبيض وقد ثبت أصبعه على رسم الجزيرة ونظر الى أخيه بظفر وسرور كأنما عثر على سعد زغلول نفسه ، ولكنه وجد منه وجها متجهما كالحا ، لا استجاب الى ندائه ولا أعاره أدنى اهتمام فباخ الغلام وأعاد بصره الى رسم الجزيرة فى ارتباك وحياء ، ومضى يتأمله طويلا وهو يقيس ببصره المسافة بينه وبين الاسكندرية وبينه وبين القاهرة ويتخيل صورة مالطة الحقيقية ما شاء له الخيال ، ومنظر أولئك الرجال الذين يتحدثون عنهم وهم مسوقون اليها ، ولما كان قد سمع فهمي وهو يقول عن سعد أن الانجليز انتزعوه على أسنة الرماح فانه لم يسعه أن يتصوره الا محمولا على اسنة الرماح ، لا متألما أو صارخا كما يتوقع فى مثل تلك الحال ولكن « ثابتا كالطود » كما وصفه أخوه أيضا فى مرحلة أخرى من الحديث ، وكم ود لو يستطيع أن يسائل أخاه عن كنه ذلك الرجل الساحر العجيب الذى يثبت على أسنة الرماح كالطود ، ولكنه حيال ثورة الغضب التى التهمت سلام المجلس كله أجل تحقيق رغبته الى فرصة أنسب ، وأخيرا ضاق فهمي بمجلسه بعد أن أيقن أن ما بصدره من عاطفة أكبر من أن تروح عنها محادثة أخيه فى هذا المكان الذى يقف من شعوره موقف المتفرج ان لم يكن موقف الانكار ، نازعته نفسه الى الاجتماع باخوانه فى قهوة أحمد عبده حيث يظفر بقلوب تستجيب لقلبه ونفوس تسابقه الى الاعراب عما يضطرم فى قراراتها من الاحساس والرأى ، هناك يسمع أصداء الغضب المتقد فى قلبه ويستأنس بايحاءاته الجسورة الملتهبة فى جو باهر من التعطش الى الحرية الكاملة ، مال الى اذن ياسين وهمس :

ــ الى قهوة أحمد عبده ..

فتنفس ياسين من الأعماق لأنه كان بدأ يتساءل وهو من الحرج فى غايته ـ عن وسيلة لبقة ينسحب بها من المجلس ، ليمضى الى سهرته دون أن يزيد من غضب فهمى اشتعالا ، لم يكن ما به من الأسف تصنعا ، أو لم يكن تصنعا كله ، هز النبأ الخطير قلبه ، ولكنه لو ترك الى نفسه لتناساه بغير جهد كبير ، ولما فرض على أعصابه مافرض من تكلف مجاراة لفهمى ومجاملة له واحتراما لغضبه الذى لم يسبق له أن رآه على مثله من قبل ، غادر الحجرة وهو يقول لنفسه : « حسبى اليوم ما بذلت من جهد فى سبيل الحركة الوطنية فان لبدنى على حقا »

— ٥٤ —

على ضربات العجن المتصاعدة من حجرة الفرن فتح فهمى عينيه ، كانت الحجرة مغلقة النوافذ ، فى شبه ظلام الا ما لاح من نور باهت وراء خصاص النوافذ ، ترامى الى أذنيه همس انفاس كمال المترددة فعطف رأسه الى فراشه القريب ، ثم انسالت عليه ذكريات الحياة ، هذا صباح جديد ، انه يستيقظ من نوم عميق سلمه الى تعب شمل النفس والجسم ، وانه لا يدرى ان كان يستيقظ صباح الغد بهذا الفراش أم لا يستيقظ أبدا ، لا يدرى ولا أحد يدرى ، فالموت يجوب شوارع القاهرة طولا وعرضا ويرقص فى أركانها ، يا للعجب ، ها هى أمه تعجن كعهدها منذ قديم ، وها هو كمال يغط فى نومه ويتقلب فى أحلامه ، وذاك ياسين يدل وقع قدميه فوق سقف الحجرة على انه انتزع نفسه من الفراش أما أبوه فلعله الآن منتصب القامة تحت ماء الدش البارد ، وها هو نور الصباح ذو البهاء والحياء تستأذن طلائعه فى رقة بالغة ، كل

شيء يواصل حياته المعهودة كأن شيئا لم يحدث ، كأن مصر لم تنقلب رأسا على عقب ، كأن الرصاص لا يعزف باحثا عن الصدور والرءوس . . كأن الدم الزكى لايخضب الأرض والجدران ، وأغمض الشاب عينيه وهو يتنهد مبتسما الى تيار مشاعره الزاخر بما حمل فى موجاته المتلاحقة من حماس وأمل وحزن وايمان ، حقا لقد حيى فى الأيام الأربعة المنطوية حياة عريضة لم يكن له بها عهد من قبل ، أو انه لم يعرفها الا أطيافا فى أحلام اليقظة ، حياة طاهرة رفيعة ، حياة تجود بنفسها عن طيب خاطر فى سبيل شيء باهر أثمن منها وأجل ، تعرض للموت بلامبالاة ، وتستقبله بعناد ، وتهجم عليه باستهانة ، واذا أفلتت من مخالبه مرة عادت اليه كرة أخرى متنكبة عن ذكر العواقب جانبا ، شاخصة طوال الوقت الى نور رائع عنه لاتحيد ، مدفوعة بقوة لاقبل لها بها ، مسلمة مصيرها لله وهى تشعر به محيطا بها كالهواء يغمرها من كل جانب ، هانت الحياة كوسيلة حتى لم تعد تزن ذرة ، وجلت كغاية حتى وسعت السماوات والأرض ، تآخى الموت والحياة فكانا يدا واحدة فى خدمة أمل واحد ، هذه تؤيده بالجهاد وذاك يؤيده بالفداء ، لو أن الانفجار الرهيب لم يقع لمات غما وكمدا ، فما كان يحتمل أن تواصل الحياة سيرها الهادىء الوئيد على أطلال الرجال والآمال ، كان لابد من انفجار ينفس عن صدر الوطن وصدره كالزلزال الذى ينفس عن أبخرة باطن الأرض المتجمعة ، فلما وقعت الواقعة وجدته على ميعاد فألقى بنفسه فى خضمها . . متى حدث هذا ؟ . . وكيف حدث ؟ . . كان راكبا ترام الجيزة فى طريقه الى مدرسة الحقوق فوجد نفسه بين شرذمة من الطلاب يتناقشون ملوحين بقبضاتهم ، نفى سعد وهو يعبر عن قلوبنا فاما أن يعود سعد ليواصل جهاده واما أن ننفى معه ، وانضم الراكبون من الأهالى اليهم فى الحديث والوعيد حتى الكمسارى أهمل عمله ووقف ينصت ويتكلم ، يالها من ساعة ! . . فيها أشرق بنفسه الأمل من جديد بعد ليلة من

الحزن واليأس قاتمة ، فأيقن أن هـذه النار المتقدة لن تخمد ولن تبرد ، ولما أقبلوا على فناء المدرسة وجدوه مكتظا صاخبا مرعدا فسبقتهم قلوبهم اليه ، ثم هرعوا الى زملائهم تحدثهم نفـوسهم بحدث وشيك ، وما لبث أن انبرى أحدهم مناديا بالاضراب ! .. شيء جديد لم يسمع من قبل ، بيـد أنهم هتفوا بالاضراب وهم يتأبطون كتب القانون . وجاءهم ناظرهم المستر والتون فى لطف غير معهود ونصحهم بالدخول الى الفصول فكان الجواب أن صعد شاب منهم الى أعلى السـلم المفضى الى حجرة السكرتير وراح يخطب بحماسة فائقة فلم يسع الناظر الا الانسحاب ، أنصت الى الخطيب بجامع روحه وعيناه شاخصتان الى عينيه وقلبه يتابع دقاته فى سرعة ونشاط ، كم ود لو يصعد الى موقفه فيفيض من معين قلبه المستعر ، ولكنه لم يكن ذا استعداد قوى للخطابة فقنع بأن يردد غيره هواتف نفسه ، وتابع الخطيب بانتباه حماسى حتى وقف عند مقطع من خطابه فصاح مع زملائه جميعا فى نفس واحد (يحيـا الاستقلال) ثم تابع الانصات باهتمام بث الهتاف فيه حيوية جديدة حتى انتهى الخطيب الى مقطع ثان فهتف مع الهاتفين « لتسقط الحماية » ووالى الاصغاء بجسم متصلب من الانفعال وهو يعض على أسنانه ليحبس الدمع الذى زفره جيشـان نفسه حتى اذا بلغ الخطيب المقطع الثالث هتف مع الهاتفين « يحيا سعد » ، هتـاف جديد ، وكل شيء جديدا بدأ ذلك اليوم ، بيد أنه هتاف مطرب رجعه قلبه من الأعماق وظل يردده مع دقاته المتتابعة كأنه صدى للسانه ، بل هتاف لسانه كان صدى لقلبه ، فانه ليذكر كيف ردد قلبه هذا الهتاف فى صمت مكظوم طوال الليلة السابقة للانفجار التى باتها مغموما محسورا ، كانت عواطفه المكبوتة ، حبه وحماسه وطموحه وتطلعه الى المثل الأعلى وأحلامه تائهة مبعثرة حتى انطلق صوت سعد مدويا فانجذبت طائرة اليه كما ينجذب الحمام السابح فى الفضاء الى صفير صاحبه ، ثم ما يدرون الا والمستر ايموس

نائب المستشار القضائى البريطانى لوزارة الحقانية يشق طريقه بين جموعهم فقابلوه بهتاف واحد « لتسقط الحماية .. لتسقط الحماية » فتلقاهم الرجل ببرود لم يخرق به حد اللطف ونصحهم بالعودة الى دروسهم داعيا اياهم الى ترك السياسة لآبائهم ، هناك تصدى له أحدهم قائلا :

— أن آباءنا قد سجنوا ، ولن ندرس القانون فى بلد يداس فيه القانون ..

وتعالى الهتاف من أعماق القلوب كهزيم الرعد فانسحب الرجل مسرعا . ود الشاب مرة ثانية لو كان هو القائل ، لشد ما تنثال المعانى على روحه ولكن يسبقه السابقون الى اعلانها فيشتد حماسه ويتعزى بأن فيما ينتظره عوضا عما يفوته ، وجرت الأمور سراعا ، دعا الداعى الى الخروج فخرجوا متظاهرين وتوجهوا الى مدرسة المهندسخانة فسرعان ما انضمت اليهم ثم الى الزراعة فهرع طلبتها اليهم هاتفين كأنهم على ميعاد ، ثم الى الطب فالتجارة وما بلغوا ميدان السيدة زينب حتى انتظمتهم مظاهرة كبيرة انضمت اليها جموع الأهالى وتعالى الهتاف لمصر والاستقلال وسعد ، وكلما تقدموا خطوة ازدادوا حماسة وثقة وايمانا بما يلقون فى كل مكان من مشاركة تلقائية واستجابة بديهية ، وما يصادفون من نفوس متحفزة تصدعت بالغضب حتى وجدت فى مظاهرتهم المتنفس ، تساءل — ودهشته لحدوث الظاهرة تكاد تغلب انفعاله بالتظاهر نفسه — « كيف حدث هذا كله ! ؟ » .. لم تكن مضت الا بضع ساعات على الصباح الذى شهد قنوطه وانهزامه ، ها هو الآن ، قبيل الظهر ، يشترك فى مظاهرة ثائرة يكاشفه فيها كل قلب بأنه صدى لقلبه ، ويردد هتافه ، ويناشده بايمان لا يتزعزع أن يسير الى النهاية ، فأى سرور سروره ، وأى حماس حماسه ! .. لقد انطلقت روحه فى سماء من الأمل لا تحدها الآفاق ، نادمة على ما اعتورها من قنوط خجلة بما رمت به الأبرياء

من ظنون ، وفى ميدان السيدة زينب بدا له منظر جديد من مناظر ذاك اليوم العجيب . رأى مع الرائين جماعات من فرسان البوليس وعلى رأسها مفتش انجليزى تتقدم ساحبة وراءها ذيولا من الغبار، والأرض تضطرب تحت وقع السنابك ، انه ليذكر كيف مد بصره نحوهم فى ذهول من لم يسبق له أن وجد نفسه عرضة لمثل ذلك الخطر الداهم ، وتلفت فيما حوله فرأى وجوها يلمع فى محاجرها الحماس والغضب فتنهـد فى عصبية ولوح بيـده هاتفا ، أحاط الفرسان بجموعهم ، ولم يعد يرى من الخصم الهائل الذى يضطرب فيه الا رقعة محدودة يغرق بين رءوسها المشرئبة ، ثم ترامى اليهم أن البوليس اعتقل طلابا كثيرين ممن تصدوا لمخالفته أو كانوا على رأس المظاهرة فللمرة الثالثة ذلك اليوم تمنى ، وكان تمنيه أن يكون بين المعتقلين ولكن من دون أن يخرج من الدائرة التى يتحرك فيها بجهد جهيـد ..

على أن ذاك اليوم كان يوم سـلام بالقياس الى اليوم الذى تلاه ، بدا يوم الاثنين منذمطلع الصباح يوم اضراب شامل اشتركت فيه جميع المدارس بأعلامهـا وحشود من الأهالى لا يحيط بهـا الحصر ، بعثت مصر بلدا جديدا يبكر الى الاحتشـاد فى الميادين للحرب بغضب طال كتمانه ، وألقى هو بنفسه بين الجموع فى نشوة فرح وحماس كأنه تائه ضال عثر على أهله بعـد فراق طويل ، وسـارت المظـاهرة مسـيرا مشـهودا مارة بدور المعتمدين السياسيين معلنة احتجاجها بمختلف اللغات ، حتى بلغت شارع الدواوين وهناك سرت بين الجموع موجة اضطراب عنيفة وصاح صائحهم : « الانجليز ! » وما لبث أن فرقع الرصاص مغطيا على أصوات الهاتفين فسقط أول القتلى ، وواصـل قوم تقدمهم فى حماس جنونى ، وتسمر آخرون ، وتفرق كثيرون يلوذون بالبيوت والمقاهى ، وكان هو ضمن الآخرين ، اندس وراء باب وقلبه يبعث ضربات فزعة متناسـيا كل شىء الا حياته ، ولبث على ذلك زمنا

لا يدريه حتى شمل السكون الدنيا جميعا فمد رأسه ، ثم قدمه ، ومضى الى حال سبيله غير مصدق بالنجـاة وعاد الى بيته فيما يشبه الذهول ، وفى رحلته الحزينة تمنى لو كان من الذاهبين أو فى الأقل من الثابتين ، وفى وقدة الحساب العسير وعد ضميره الفظ بالتكفير ، ومن حسن الحظ أن بدأ ميدان التكفير متسعا وقريبا .

وجاء الثلاثاء والأربعاء فكانا كالأحد والاثنين ، أيام متشابهات فى أفراحها وأحزانها ، مظاهرات فهتاف فرصاص فضحايا ، ألقى بنفسه فى خضمها جميعا يندفع بحماس ، ويسمو الى آفاق بعيدة من الاحساس النبيل ، ويضطرب بالحياة ويعضه ندم على النجاة ! ثم ضاعف من حماسه وأمله انتشار روح الغضب والثورة فما لبث أن أضرب عمـال الترام وسـائقو السـيارات والكناسون فبدت العاصمة حزينة غاضبة موحشة . وترامت الأخبار حاملة البشرى بقرب اضراب المحامين والموظفين . أن قلب البلاد يخفق حيا ثائرا ولن تذهب الدماء هـدرا ولن ينسى المنفيون فى منفاهم ، لقـد زلزلت اليقظة الواعية أرض وادى النيل .

تقلب الفتى فى فراشه فاسترد وعيه من لجة الذكريات وجعل يتابع دقات العجن مرة أخرى مقلبا ناظريه فى أركان الحجرة التى أخذت تستبين على النور المشرق رويدا وراء النوافذ المغلقة . أمه تعجن ! .. ولن تزال تعجن صباحا بعد صباح ، هيهات أن يشغلها حدث عن التفكير فى اعداد الموائد وغسل الثياب وتنظيف الأثاث ، ان كبار الحادثات لا يعطل صغار الأعمال ، وسيتسع صدر المجتمع دائما للجليل والتافه من الأمور فيرحب بها جنبا الى جنب ، ولكن مهلا ، ليست أم على هامش الحياة هى التى أنجبته والأبناء وقود الثورة ، وهى التى تغذيه والغذاء وقود الأبناء ، الحق أن ليس ثمة شىء تافه فى الحياة .. ولكن ألا يجىء يوم يهز فيه الحادث الكبير المصريين جميعا فلا تتفرق عنده القلوب كما تفرقت فى مجلس القهوة منذ خمسـة أيام ؟ .. ألا ما أبعد هذا اليوم ! .. ثم جرت على

شفتيه ابتسامة اذ وثب الى ذهنه هذا السؤال : ما عسى أن يصنع والده اذا علم « بجهاده » المتواصل يوما بعد يوم ؟.. ماذا يصنع أبوه الجبار المستبد وماذا تصنع أمه الرقيقة الحنون ؟ .. ابتسم فى حيرة وهو يعلم أن المتاعب التى قد تعترضه فى تلك الحال ليست دون المتاعب التى قد تعترضه اذا نمى سره الى السلطة العسكرية نفسها .. ثم أزاح الغطاء عن صدره وجلس فى الفراش وهو يغمغم « سيان أن أحيى أو أن أموت ، الايمان أقوى من الموت ، والموت أشرف من الذل ، فهنيئا لنا الأمل الذى هانت الى جانبه الحياة ، أهلا بصباح جديد من الحرية ، وليقض الله بما هو قاض ... » .

— ٥٥ —

لم يعد أحد يستطيع الادعاء بأن الثورة لم تغير ولو وجها من وجوه حياته ، حتى كمال نفسه عرض لحريته التى تمتع بها طويلا فى ذهابه الى المدرسة وايابه منها طارىء ثقيل ضاق به كل الضيق وأن لم يستطع له دفعا ، ذلك أن الأم أمرت أم حنفى بأن تتبعه فى ذهابه الى المدرسة وعند ايابه منها ، والا تتخلى عنه بحال كى تعود به الى البيت اذا صادفتها مظاهرة دون أن تدع له فرصة للتلكؤ أو مطاوعة نزوات الطيش ، دار راس الأم بأنباء المظاهرات والاضطرابات وارتج قلبها لحوادث الاعتداء الوحشى على الطلبة فعانت من ذاك الزمن اياما كالحات ملأتها هلعا وجزعا فودت لو تستبقى ابنيها الى جانبها حتى تثوب الأمور الى مستقرها ، ولكنها لم تجد الى تحقيق مرادها من سبيل خصوصا بعد أن وعد فهمى — وهو من ثقتها فى « عقله » لا تتزعزع — انه لا يشترك فى الاضراب بتاتا ، وبعد أن رفض الأب فكرة استبقاء كمال فى البيت لعلمه بأن

المدرسة تحول بين صغار التلاميذ وبين الاشتراك فى الاضراب ، سلمت الأم بذهاب الأخوين الى المدرسة على كره منها ولكنها فرضت على كمال رقابة أم حنفى وهى تقول له : « لو كان بوسعى أن أخرج كما أشاء لتبعتك بنفسى » وقد عارضها كمال بما وسعه من قوة لأنه أدرك بالبداهة أن هذه الرقابة التى لن تخفى عن أمه خافية من شئونه سنقضى قضاء مبرما على كل ما يتمتع به فى الطريق من ألوان العبث والشطارة ، وأنها ستلحق هذه الفترة القصيرة السعيدة من يومه بالسجنين اللذين يتردد بينهما : البيت والمدرسة ، الى هذا امتعضت نفسه ، أشد الامتعاض من السير فى الطريق مصطحبا هذه المرأة التى ستلفت الأنظار حتما ببدانتها المفرطة ومشيتها المتهالكة ، ولكنه لم يسعه الا أن يذعن لرقابتها سيما بعد أن أمره أبوه بقبولها ، قصارى ما استطاعه تنفيسا عن صدره أنه كان ينتهرها كلما تدانت منه ، وأنه حتم عليها أن تتأخر عنه مسيرة أمتار ، على تلك الحال مضيا الى مدرسة خليل أغا صباح الخميس وهو خامس أيام المظاهرات فى القاهرة ، ولما بلغا باب المدرسة اقتربت أم حنفى من البواب وسألته تنفيذا للأمر اليومى الذى تلقته فى البيت :

ـ هل يوجد تلاميذ فى المدرسة ؟

فأجابها الرجل بغير اكتراث :

ـ منهم من يدخل ، ومنهم من يذهب ، والناظر لا يتعرض لأحد ...

كانت هذه الاجابة مفاجأة سيئة لكمال ، كان مهيأ النفس لسماع الاجابة التى باتت مألوفة منذ يوم الاثنين وهى « التلاميذ مضربون » فيعودان الى البيت حيث يمضى سحابة النهار فى حرية حببت الى قلبه الثورة من بعيد ، ونازعته نفسه الى الهرب تفاديا من عواقب الاجابة الجديدة فخاطب البواب قائلا :

ـ أنا ممن يذهبون ..

وابتعد عن المدرســة والمرأة فى أثره ، بيــد أنها سألته : لماذا لا يدخل مع الداخلين فرجاها مترددا لأول مره فى حيــاته ــ أن تقول لأمه أن التلاميذ مضربون ، وزيادة فى الرجاء والتــودد دعا لها ــ وهما يمران بجامع الحسين ــ بطول العمر والسعادة الا ان أم حنفى لم تستطع الا أن تصارح الأم بالحقيقة كما سمعتها فأنبته الأم على كسله وأمرت المرأة بأن تعود به الى المدرسة فغادرا البيت وهو يسلقها بلسان حاد راميا اياها بالخيانة والغــدر ، لم يجد فى المدرسة الا لداته . . ذوى الأسنان الصغيره ، أما من عداهم ، وهم الأغلبيه الساحقة ، فكانوا مضربين ، وألقى فى فصله ، الذى كان يتوافر له من صغار التلاميذ ما لم يتوافر لغيره من الفصــول ــ نحوا من ثلث التــلاميذ ، بيــد ان المدرس امرهم بأن يراجعــوا دروسهم السابقة وانكب هو على تصحيح بعض الكراسات فتركهم فى شبه اضراب فى الواقع . فتح كمال كتابا متظاهرا بالقراءة دون أن يعيره أدنى انتباه فقد ساءه البقاء فى المدرسة بلا عمل فلا هو مع المضربين ولا هو فى البيت يتمتع بالفراغ الذى جادت به هذه الأيام العجيبة بلا حسبان ، ضاق بالمدرسة كما لم يضق من قبل ، وهفا خياله الى أولئــك المضربين فى الخارج بدهشة واستطلاع ، كثيرا ما تساءل عن حقيقــة امرهم ، أهم كما تدعى امه « متهورون » لا يرحمون أنفسهم ولا أهليهم ملقين بأرواحهم الى التهلكة أم هم كما يصفهم فهمى أبطال فدائيون يجاهدون عدو الله وعدوهم ؟! . . وكثــيرا ما مال الى رأى أمه لحنقــــه على التلاميذ الكبار ــ فئة المضربين ــ الذين خلفوا فى نفسه ونفوس أضرابه من التــلاميذ الصغار أسوأ الآثار بما ينالهم على أيديهم من غلظة واستكبار وهم يتحدونهم فى فناء المدرسة بضخامة أجسامهم وقحة شواربهم ، بيد أنه لن يستسلم الى هذا الرأى كل الاستسلام طالما كان لقول فهمى من الاقناع فى نفسه ما لا قبل له بالاستهانة به ، لن يسعه أن يسلبهم ما يضفيه عليهم من ضرب البطولة حتى ود لو يطلع من

مكان آمن على معاركهم الدامية ، قامت قيامة الدنيا ما فى ذلك من شك ، أو فلماذا يضرب المصريون وينطلقون جماعات الى الاشتباك بالجنود ؟ ! . . وأى جنود ؟ ! . . الانجليز ؟ . . الانجليز الذين كان يكفى ذكر اسمهم لاخلاء الطرقات ! . . ماذا حدث للدنيا وللناس ؟! ذاك صراع عجيب قضى عنفه بأن تنقش عناصره الجوهرية فى نفس الغلام بلا وعى أو قصد فتغدو أسماء سعد زغلول . الانجليز . الطلبة . الشهداء . المنشورات ، المظاهرات ، من القوى المؤثرة الموحية فى أعماقه وان وقف من معانيها موقف المستطلع الحائر . وضاعف من حيرته أن آله استجابوا للحوادث استجابة متباينة وأحيانا متناقضة ، فبينما يجد فهمى ثائرا يحمل على الانجليز بحنق قاتل ويحن الى سعد حنينا يفجر الدمع ، اذا بياسين يناقش الأخبار فى اهتمام رصين مشوب بأسف هادىء لا يمنعه من مواصلة حياته المعتادة بين السمر والضحك وتلاوة الأشعار والقصص ، ثم السهر حتى منتصف الليل ، أما أمه فلا تكف عن دعاء الله أن ينشر السلام ويعيد الأمان ويصفى قلوب المصريين والانجليز جميعا ، والأدهى من كل أولئك زينب زوجة أخيه التى أفزعتها الأحداث فلم تجد من تصب عليه غضبها الا سعد زغلول نفسه متهمة اياه بأنه سبب هذا الشر كله ، وأنه « لو عاش كما يعيش عباد الله فى دعة وسلام ما تعرض له أحد بسوء ولا اشتعلت تلك النيران » . . لذلك كان حماس الغلام يستعر لفكرة الصراع نفسه ، وحزنه يفيض بفكرة الموت فى ذاته دون أن يكون لنفسه معنى واضحا لما يدور حوله من بعيد أو قريب ، وكم أسف يوم دعا تلاميذ خليل أغا الى الاضراب ــ لأول مرة ــ فسنحت له فرصة طيبة ليشهد مظاهرة عن كثب أو يشترك فيها ولو فى فناء المدرسة ، ولكن الناظر بادر الى حجز صغار التلاميذ فى فصولهم فأفلتت الفرصة ووجد نفسه وراء الجدران ينصت الى الهتافات العالية فى دهشة ممزوجة بسرور

خفى ، لعــل مبعثه الفوضى التى نشــبت فى كل شىء فعصــفت بالروتين اليومى الثقيــل بلا رحمة . أفلتت ذلك اليوم فرصــة الاشتراك فى مظاهرة كما ضاعت اليوم فرصة الاستمتاع بالفراغ فى البيت ، وسيبقى مغلولا فى هذه الجلسة المملة ينظر فى الكتاب بعينين لا تريان شيئا ، ويسترق لمسات مع رفيقــه على القمطر فى حذر وخوف حتى يدرك نهاية النهار الطويل ، ولكن ثمة شىء استرعى انتباهه فجأة ، قد يكون صوتا غريبا بعيدا أو وشا فى الأذن ، ولكى يستوثق من حاسته نظر فيما حوله فرأى رءوس التلاميذ مرفوعة وأعينهم تتبــادل النظرات ثم تتجه معا صوب النوافذ المطلة على الطريق ؛ انه حقيقة وليس وهما ما استرعى انتباههم ، انهــا أصوات مندمجة فى صــوت ضخم غير متمايز تسمع لبعدها كهدير الأمواج من بعيد ، الآن وقد أخذت تشــتد يمكن أن تسمى ضوضاء ، بل ضوضاء تقترب ، وسرت فى الفصل حركة وتعــالى الهمس ثم ارتفع صوت قائلا « مظــاهرة ! . . » فخفق قلب الغلام وعلت عيناه لمعة تجمع بين السرور والاضطراب . وجعلت الضوضاء تقترب وتقترب حتى وضحت هتــافا يرعد ويزمجر فى جميع الجهات المحيطة بالمدرسة ، وعادت تقرع أذنيه الأسماء التى ملأت ذهنــه طوال الأيام المــاضية : ســعد . . . الاستقلال . . . الحماية ، وتدانى الهتاف وعلا حتى أطبــق على فناء المدرسة نفسها فوجمت قلوب التلاميذ وأيقنوا أن الطوفان لابد مغرقهم ، ولكنهم قابلوا ذلك بسرور صبيانى تنكب عن تقدير العواقب فى حمية نزوعه الى الفوضى والانطلاق ، ثم ترامى اليهم وقع أقدام مقبلة فى سرعة وصخب ، ثم فتح الباب على مصراعيه تحت وقع صدمة عنيفة واندفعت الى الحجرة جماعات من الطلبة والأزهريين كما تنــدفع المياه من فوهة الخزان وهم يصيحون : « اضراب . . اضراب . . لا ينبغى أن يبقى أحد » . . وفى لحظات وجد نفسه غائصــا فى موج مصطخب يدفعــه أمامه دفعا يعطل

كل مقاومة وهو من الاضطراب فى غاية ، تحرك فى بطء شديد تحرك حبوب البن فى فوهة الطاحونة لا يدرى أين تقع عيناه ، ولا يرى من الدنيا الا أجساما متلاصقة فى ضجة تصك الآذان حتى استدل بظهور السماء فوق رأسه على بلوغ الطريق ، واشتد الضغط عليه حتى كادت تكتم أنفاسه فصرخ صراخا حادا عاليا متواصلا من شدة الفزع ، وما يدرى الا ويد تقبض على ذراعه وتجذبه بقوة وهى تشق بين الناس طريقا حتى ألصقته بجدار على الطوار ، فراح يلهث ويتلمس فيما حوله منجى حتى عثر على دكان حمدان بائع البسبوسة وقد أنزل بابها الحديدى الى ما فوق العتبة بقليل ، فهرع اليه ودخل زحفا على ركبتيه ، ولما قام فى الداخل رأى عم حمدان الذى كان يعرفه حق المعرفة وامرأتين وبعض صغار التلاميذ فأسند ظهره الى جدار القائمة التى تحمل الصوانى وصدره يعلو وينخفض بلا توان . وسمع عم حمدان وهو يقول :

ــ أزهريون ، طلبة ، عمال ، أهالى ... جميع الطرقات المؤدية الى الحسين مكتظة بالبشر .. ما كنت أحسب قبل اليوم أن الأرض تستطيع أن تحمل كل هؤلاء البشر ..

احدى المرأتين بدهشة :

ــ كيف يصرون على التظاهر بعد ما كان من اطلاق النار عليهم ؟!

المرأة الأخرى بحسرة :

ــ ربنا الهادى ، كلهم أبناء ناس يا ولداه ..

فقال عم حمدان :

ــ لم نر شيئا كهذا من قبل ، ربنا يحميهم ..

تفجر الهتاف فى الحناجر يزلزل الجو زلزالا ، حينا عن قرب كأنه يدوى فى الدكان . وحينا عن بعد فى ضوضاء شديدة غير متمايزة كهزيم الرياح ، وتواصل بلا انقطاع ، فى حركة بطيئة

مستمرة دل عليها تفاوت درجات الشـدة والارتفاع بين الأمواج القادمة والذاهبة ، وكلما ظن أنه انقطع جاء غيره حتى بدا وكأن لا نهاية له . تركزت حياة كمال فى أذنيه وهو يرهف السمع فى اضطراب وقلق ، بيد أنه لما تتابع الوقت دون وقوع مكروه استرد أنفاسه ومضى يعاوده الشعور بالطمأنينة ، ثم وسعه أخيرا أن يفكر فيما يدور حوله كطارىء لا يلبث أن يزول فتساءل متى يجد نفسه فى البيت ليروى لأمه ماوقع له ؟ . . « اقتحمت علينا الفصول مظاهرة لا أول لها ولا آخر ، وما أدرى الا وتيارها الزاخر يحيط بى ويجرفنى الى الشارع ، وهتفت مع من هتف : ليحيى سعد ، لتسقط الحماية ، ليحيا الاستقلال . وما زلت أنتقل من طريق الى طريق حتى هجم الانجليز علينا وأطلقوا الرصاص » . . ستفزع عند ذاك لحد البكاء ولا تكاد تصدق أنه حى يرزق وستتلو آيات كثيرة وهى ترتجف . . « ومرت رصاصة جنب رأسى مازال عزيفها يطن فى أذنى ، وتخبط الناس كالمجانين ، وكدت أهلك مع الهالكين لولا أن جذبنى رجل الى دكان . . . »

انقطع حبل أحلامه على صياح عال غير منتظم ووقع أقدام متدافعة فى اضطراب ، فخفق قلبه ونظر فى وجوه من حوله فرآهم محملقين فى الباب كمن يتوقع ضربة على أم رأسه ، واقترب عم حمدان من الباب وانحنى حتى نظر من الفرجة فى أسفله ثم تراجع وأنزله حتى الصقه بالأرض بسرعة وهو يتمتم فى اضطراب :

ــ الانجليز . . !

وصاح كثيرون فى الخارج « الانجليز . . . الانجليز » ونادى آخرون « الثبات . . . الثبات » وهتف غيرهم « نموت ويحيا الوطن » . . . ثم سمع الغلام لأول مرة فى حياته الصغيرة طلقات الرصاص عن بعد قريب فعرفها بالبداهة وارتعدت أوصاله ، وما أن ندت عن المرائين صرخة فزع حتى افحم فى البكاء ، وجعل

عم حمدان يقول بصوت متهدج « وحدوا الله .. وحدوا الله . الله .. » ولكن الغلام شعر بالخوف ، باردا كالموت ، يزحف على جسمه كله من قدميه الى رأسه ، وتوالت الطلقات ، وصكت الآذان صلصلة عجلات وصهيل خيل ، تتابعت الأصوات والحركات فى سرعة فائقة تلاحقها زمجرات وصراخ وانين ، فترة اعتراك خاطفة بدت للقابعين وراء الباب دهرا فى حضرة الموت .. ثم حل صمت مخيف كالاغماء الذى يعقب تبريح الألم ، تساءل كمال بصوت متهدج مبحوح :

ــ ذهبوا ؟ !..

فوضع عم حمدان سبابته على فيه وهو يغمغم « هس » .. وتلا آية الكرسى ، فتلا كمال فى سره ــ اذ خانته قدرته على الكلام ــ « قل هو الله أحد » لعلها تطرد الانجليز كما تطرد العفاريت فى الظلام . على أن الباب لم يفتح الا عند الظهر فانطلق الغلام الى الطريق المقفر ثم أطلق للريح ساقيه . وفيما هو يمر بالسلم الهابط الى قهوة أحمد عبده لمح شخصا صاعدا عرف فيه أخاه فهمى فهرع اليه كغريق عثرت يده على اداة النجاة وقبض على ذراعه فالتفت الشاب نحوه فزعا ، ولما عرفه هتف به :

ــ كمال ؟!.. أين كنت فى أثناء الضرب ؟

ولاحظ الغلام أن صوت أخيه مبحوح مطموس المخارج ، بيد أنه أجابه بقوله :

ــ كنت فى دكان عم حمدان وسمعت الرصاص وكل شىء ..

فقال له بعجلته ولهوجته :

ــ اذهب الى البيت ولا تقل لأحد أنك قابلتنى .. سامع ؟

فسأله الغلام بارتباك :

ــ ألا تعود معى ؟!

فقال باللهجة نفسها :

ــ كلا .. ليس الآن .. سأعود فى موعدى المعتاد ، لا تنس أنك لم تقابلنى قط ..

ودفعه حتى لا يدع له فرصة للمناقشة فاندفع الغلام راكضا حتى بلغ منعطف خان جعفر ، فرأى شبحا واقفا وسط الطريق يشير الى الأرض ويخاطب نفرا من الرجال فنظر الى حيث يشير فرأى بقعا حمراء ملبسة بالتراب ، وسمعه يقول بلهجة رثائية :

ــ هــذا الدم الزكى يستصرخنا الىمواصــلة الجهاد ، وقد شاء الله أن يسفك فى رحاب سيد الشهداء لنصل فى الاستشهاد حاضرنا بماضينا ، والله معنا ..

وأحس فزعا يركبه ، فاسترد بصره من الأرض الدامية وانطلق يعدو كالمجنون ..

— ٥٦ —

كانت أمينة تتلمس طريقهــا الى باب الحجــرة خلال ظلمــة السحر ، فى حذر وتمهل أن توقظ السيد ، حين ترامى الى أذنيها لغط غريب صاعدا من الطريق يطن طنين النحل . لم يكن يطرق أذنيها فى هذه الساعة التى اعتادت أن تستيقظ فيها الا صلصلة عجلات عربات الدبش وسعال العمال المبكرين وهتاف رجل يحلو له عند مرجعه من صلاة الفجر أن يردد فى الصمت الشامل صائحا بين حين وآخر « وحدوه » أما هذا اللغط الغريب فلم تسمعه من قبل ، وحارت فى تفسيره فتطلعت الى معرفة مصدره فمضت بخطوتها الخفيفة الى نافذة بالصالة مطلة على الطريق ثم رفعت خصاصــها وأخرجت رأسها فوجدت فى الخارج ظلمــة مختلطة عند الأفق ببشائر ضياء ولكن ليس الى الحد الذى تستطيع معه

رؤية ما يجرى تحتها ، بيد أن اللغط ازداد ارتفاعـا ، وازداد فى الوقت نفسـه غموضا ، حتى تبينت فيه أصواتا آدمية مجهولة النسب . دارت عيناها فى الظلام الذى أخذت تألفه شيئا ما فرأت تحت سبيل بين القصرين وما يليه من تقاطع النحاسين مع درب قرمز أشباحا آدمية غير واضحة المعالم ، وأشياء على هيئة أهرام صـغيرات ، وأخرى كأنها الأشـجار القصار ، فارتدت فى حيرة ونزلت قاصدة حجرة فهمى وكمال ، ثم ترددت ، أتوقظه ليرى ماهنالك ويحل لها تلك الألغاز أم تؤجل ذلك الى حين استيقاظه ؟!. ثم أبت أن تزعجه طاوية رغبتها حتى موعد استيقاظه عند مطلع الشمس الوشيك ، ثم صلت ، ثم عادت مدفوعة بحب الاستطلاع الى النافذة فأطلت منها . بدأ وشى الشروق ناشبا فى غلالة السحر وأضواء الصباح تسيل من ذرى المآذن والقباب ،فأمكنها أن ترى الطريق فى كثير من الوضوح وفتشت عيناها عن الأشباح التى راعتها فى الظلام فتبينت حقيقتها وندت عنها آهة فزع وارتدت مهرولة الى حجرة فهمى وأيقظته بلا احتراس فانتفض الشاب جالسا فى فراشه وهو يتساءل منزعجا :

ــ مالك يا أماه ..؟

فقالت وهى تلهث :

ــ الانجليز يملأون الطريق تحت بيتنا ..

هب الشاب من فراشه واثبا الى النافذة ورمى ببصره فرأى تحت سبيل بين القصرين معسكرا صـغيرا يشرف على رءوس الطرق التى تتفرع عنده ، يتكون من عـدد من الخيام ، وثلاث لوريات وشراذم متفرقة من الجند ، وفيما يلى الخيام أقيمت البنادق أربعا أربعا ، كل مجموعة تتساند رءوسها وتفترق قواعدها على هيئة هرم ، وقد وقف الحراس كالتماثيـل أمام الخيام وتبعثر الآخرون وهم يتراطنون ويتضاحكون ، ورمى الشاب ببصره ناحية النحاسين فرأى معسكرا ثانيا عند تقاطع النحاسين بالصاغة كما

رأى فى الناحيــة الأخرى من بين القصرين معســكرا ثالثا عنــد منعطف الخرنفش ، ابتدره خاطر أهوج لأول وهلة أن هؤلاء الجنود قد جاءوا للقبض عليه !. . ولكنه مالبث أن استسخفه معتذرا عنه بقومته المزعجة من النوم الذى لم يكد يفيق منه ، وبهذا الاحساس بالمطاردة الذى لم يفارقه مذ شبت الثورة ، ثم وضحت له الحقيقة رويدا ، وهى أن الحى الذى أتعب الســلطة المحتلة بمظاهــراته المتواصلة قد احتل احتلالا عسكريا . لبث ينظر خلال الخصاص متفحصا للجنود والخيام والبنــادق واللوريات وقلبه يخفق فى رهبة وحزن وحنق ، حتى تحول عن النافذة شاحب اللون وهو يتمتم مخاطبا أمه :

ـــ إنهم الانجليز كما تقولين ، جاءوا للارهاب ومنع المظاهرات فى منابتها . . .

وجعل يقطع الحجــرة ذهابا وايابا وهو يقول فى سره حانقــا « هيهات . . هيهات » حتى سمع أمه تقول :

ـــ سأوقظ والدك لأخبره بالأمر . .

قالتها المرأة كآخر ما عندها من حيلة ، كأن الســيد ـــ الذى يحل لها جميع مشكلات حياتها ـــ كفيل ايضا بأن يجد حلا لهذا المشكل يبلغ به بر الأمان ، ولكن الشاب قال لها بأسى :

ـــ دعيه حتى يستيقظ فى وقته . .

فتساءلت المرأة فى رهبة :

ـــ ماذا نفعل يا بنى وهم مرابطون أمام مدخل بيتنا ؟. .

فهز فهمى رأسه فى حيرة قائلا :

ـــ ماذا نفعل ؟ ! . . ـــ ثم بلهجة أكثر ثقة ـــ لا داعى للخوف ، ليس الا انهم يرهبون المتظاهرين . .

قالت وهى تزدرد ريقا جافا :

ـــ أخاف أن يعتدوا على الآمنين فى بيوتهم . .

ففكر قليلا فى قولها ثم تمتم :

- كلا .. لو كان الاعتداء على البيوت مقصــدهم ما وقفوا ساكنين حتى الآن ..

لم يكن مطمئنــا الى قوله كل الاطمئنان ولكنه وجـده أوفق ما يقال ، وعادت أمه تسائله :

- وحتى متى يقيمون بيننا ؟!

بطرف شارد أجابها :

- من يدرى ؟!.. انهم ناصبون الخيام فلن يرحلوا سريعا ..

تنبه الى أنها تسأله كما لو كان قائد القوات العسكرية فنظر اليها فى عطف وهو يدارى بسمة ساخرة فرجت ما بين شفتيه المتقعتين ، وفكر لحظة فى مداعبتهـا ولكن كآبة الموقف صـدت نفسه ، فعاوده الجد كما يقع له أحيانا اذا روى ياسين له «نادرة» من نوادر والده تدعوه بطبيعتها الى الضحك ولكن يصـده عنه القلق الذى يعتريه كلما اطلع على جانب من شخصية أبيه الخفية ، وسمعا وقع أقدام تهرول نحوهما ، ثم اقتحم الحجرة ياسين تتبعه زينب على الأثر ، وصاح الشاب الذى بدا منتفخ العينين مشعث الشعر :

- ارأيتم الانجليز .. ؟

وهتفت زينب :

- أنا التى سمعتهم ثم أطللت من النـافذة فرأيتهم وأيقظت سى ياسين ..

وواصل ياسين الحديث قائلا :

- لقد نقرت على باب والدى حتى استيقظ وأخبرته ولمـا رآهم بنفسه أمر بألا يغادر البيت أحد وألا يرفع مزلاج البيت ، ولكن ماذا هم فاعلون ؟.. وما عسى أن نصنع ؟.. ألا توجد فى البلد حكومة تحمينا ؟.

فقال له فهمى :

- لا أظنهم يتعرضون لغير المتظاهرين ..

ـ ولكن حتى متى نظل محبوسين فى بيوتنا ؟ !.. ان البيوت ملأى بالنساء والأطفال فكيف يعسكرون تحتها ؟

فغمغم فهمى فى ضيق :

ـ سيجرى علينا ما يجرى على غيرنا فلنصبر ولننتظر ..

وهتفت زينب فى عصبية ظاهرة :

ـ لم نعد نسمع أو نرى الا الرعب والحزن ، ربنا على أولاد الحرام ..

عند ذاك فتح كمال عينيه فردده دهشا فى المجتمعين فى حجرته على غير انتظار ، ثم جلس فى فراشه وتطلع الى أمه بعينين متسائلتين فاقتربت من فراشه وربتت بيدها الباردة على رأسه الكبير ثم قرأت بصوت مهموس وعقل شارد الفاتحة ، فسألها الغلام :

ـ ماذا جاء بكم الى هنا ؟

رأت أن تبلغه الخبر فى أحسن صورة ممكنة فقالت برقة :

ـ لن تذهب اليوم الى المدرسة ..

فتساءل بابتهاج :

ـ بسبب المظاهرات ؟

فقال فهمى فى شىء من الحدة :

ـ الانجليز يسدون الطريق !

شعر كمال بأنه أدرك سر تجمعهم فقلب عينيه فى الوجوه مذهولا ، ثم وثب الى النافذة ونظر من خصاصها طويلا ثم عاد وهو يقول باضطراب :

ـ البنادق أربع أربع ...

ونظر الى فهمى كالمستغيث وتمتم فى خوف :

ـ سيقتلوننا .. ؟

ـ لن يقتلوا أحدا ، جاءوا لمطاردة المتظاهرين ..

ومضت فترة صمت قصيرة واذا بالغلام يقول وكأنه يخاطب نفسه :

ــ ما أجمل وجوههم ..

فسأله فهمي ساخرا :

ــ هل أعجبوك حقا ؟.

فقال كمال بسذاجة :

ــ جدا ، كنت أتخيلهم كالشياطين ..

فقال فهمي بمرارة :

ــ من يدرى ، لعلك لو رأيت الشياطين أعجبك منظرهم .. !

لم يرفع مزلاج الباب فى ذلك اليوم ، ولم تفتح نافذة من النوافذ المطلة على الطريق ولو لتغيير الهواء وادخال الشمس ، ولأول مرة تبسط السيد أحمد فى الحديث على مائدة الافطار فقال بلهجة العليم الخبير ان الانجليز يتشددون فى منع المظاهرات وأنهم لهذا احتلوا الأحياء التى تكثر بها المظاهرات وانه رأى أن يمكثوا يومهم فى البيت حتى تتضح الأمور ، استطاع الرجل أن يتكلم بثقة وأن يحافظ على مظهره المعهود من الجلال والا يدع منفذا لأحد يتسرب منه الى القلق الذى تفشى فى باطنه مذ هب من فراشه على نقر ياسين ، ولأول مرة كذلك جسر فهمى على مناقشة رأى أبيه فقال بأدب :

ــ ولكن يا والدى قد تظننى المدرسة اذا مكثت فى البيت من المضربين !..

لم يكن السيد يعلم شيئا طبعا عن اشتراك ابنه فى المظاهرات فقال :

ــ للضرورة أحكام ، أخوك موظف وموقفه أدق من موقفك ولكن العذر واضح ..

لم تواته شجاعته على مراجعة ابيه خشية أن يغضبه من ناحية ، ولأنه من ناحية أخرى ــ وجد فى أمره بمنع مغادرة البيت

عذرا يبرر به أمام ضميره امتناعه عن الخروج الى الطريق المحتل بالجنود المتعطشين الى دماء أمثاله من الطلبة . انفضت المائدة فأوى السيد الى حجرته ، وما لبثت الأم وزينب أن اشتغلتا بواجباتهما اليومية ، ولما كان اليوم مشمسا ، وهو يوم من أيام مارس الأخيرة التى تكتنز فى أعطافها نسائم دافئة من أنفاس الربيع فقد صعد الأخوة الثلاثة الى السطح وجلسوا تحت عرش اللبلاب والياسمين . ووجد كمال فى خص الدجاج تسلية رأى تسلية فانتقل اليها وراح يبذر للدجاج الحب ويطاردها مسرورا بدجدجتها ويلتقط مايعثر عليه من البيض فى حين راح الأخوان يتحدثان بالأنباء المثيرة التى تتناقلها الألسنة عن الثورة المستعرة فى جنبات الوادى من أقصى شماله الى أقصى جنوبه . تكلم فهمى عما يعلم من قطع السكك الحديد والتلغرافات والتليفونات وقيام المظاهرات فى شتى المديريات والمعارك التى تنشب بين الانجليز والثوار والمذابح والشهداء والجنازات الوطنية التى تشيع فيها النعوش بالعشرات والعاصمة المضربة طلبتها وعمالها ومحاموها والتى لم يعد بها من وسيلة للمواصلات الا العربات الكارو ، ثم قال الشاب بحرارة :

ـ هذه هى الثورة حقا ؟.. فليقتلوا ما شاءت لهم وحشيتهم فلن يزيدنا الموت الا حياة ..

فقال ياسين وهو يهز رأسه عجبا :

ـ ما كنت أتصور أن فى شعبنا هذه الروح المكافحة ..

فقال فهمى وكأنه نسى كيف أشفى على اليأس قبيل شبوب الثورة حتى فاجأته بزلزالها وبهرته بنورها :

ـ بل انه ممتلىء بروح الكفاح الخالد التى تشتعل فى جسده الممتد من اسوان الى البحر الأبيض ، استثارها الانجليز حتى ثارت ولن تخمد الى الأبد ..

فقال ياسين وعلى شفتيه ابتسامة :

ـ حتى النساء خرجن فى مظاهرة ..

فتمثل فهمى بأبيات من قصيدة حافظ فى مظاهرة السيدات :

خــرج الغــوانى يحتجــ ـــن ورحت أرقب جمعهــنه
فاذا بهــن تخـــــذن من ســود الثيــاب شــعارهنه
فطلعن مثـــــل كواكب يســـطعن فى وسط الدجنة
وأخـــذن يجتزن الطــريق ودار ســـعد قصــدهنه

فاهتزت نفس ياسين وقال ضاحكا :

ـ ما كان أجدرنى أنا بحفظها ..

وفكر فهمى فى خاطر طارىء ثم تساءل بحزن :

ـ ترى أترامت أنبــاء ثورتنا الى ســعد فى منفاه ؟.. أعلم الشــيخ الـكبير بأن تضحيته لم تذهب هبــاء أم تراه غارقا فى يأس المنفى ؟..

ـ ٥٧ ـ

لبثوا على السطح حتى الضحى ، وراق للأخوين أن يراقبا المعسكر البريطانى الصغير ، فرأيا نفرا من الجنود قد أقاموا مطبخا وراحوا يعدون الغداء ، وتفرق كثيرون مابين مدخل درب قرمز والنحاسين وبين القصرين فى خلاء من المارة ، وبين حين وآخر كان يتجمع كثيرون فى طابور على نداء النفير ثم يأخــذون بنــادقهم ويركبون أحد اللوريات الذى ينطلق بهم صوب بيت القاضى مما دل على قيام مظاهرات فى الأحياء القريبة ، وكان فهمى يراقب تجمعهم وذهابهم بقلب خافق وخيال متقد ..

وأخيرا غادر الأخــوان السطح تاركين كمال يلهو كيف شــاء وحده ، وأويا الى حجرة المذاكرة ، فأقبل فهمى على كتبه يراجع مافاته فى الأيام المنقضية ، وتناول ياسين ديوان الحماسة و «غادة

كربلاء » وخرج الى الصالة يستعين بهما على قتــل الوقت الذى توافر وراء جدران سجنه كما يتوافر الماء وراء السدود ، كانت الروايات ــ بوليسية وغيرها ــ أشداستحواذا على قلبه من الشعر، ولكنه أحب الشعر كذلك ، وعرفه من أيسر سبله ، يفهم ما يسهل فهمه ، ويقنع من الصعب بموسيقاه ، فندر أن يلجأ الى الهامش المشحون بالشروح ، وربما حفظ البيت وترنم به وهو لا يفقه من معناه الا أقله ، أو يتصور له معنى لا يمت الى حقيقته بسبب ، أو لا يدرك له معنى على الاطلاق ، ولكن رغم هذا كله رسب فى عقله من صوره وألفاظه ما يعد ثروة يتيــه بها مثــله حتى دأب على استغلالها لمناسبة ولغير مناسبة وهو الأكثر ، فاذا عرض له يوما أن يكتب رسالة تهيأ لها تهيؤ الـكتاب وأقحم عليها من الألفاظ الرنانة ما يعلق بحافظته ، وضمنها ما فتح الله به عليه من مأثور الشعر حتى عرف بين معارفه بالبلاغة ، لا لأنه كان بليغاحقا ،ولكن لقصورهم عن مجاراته وارتياعهم حيال غريب محفوظاته . قبل اليوم لم يعهد مثل هذا الفراغ الطويل الذى قضى عليه بأن يكابده ساعة فساعة محروما من أسباب الحركة والتسلية ، وربما كانت القراءة خليقة بأن تسعفه على تحمله لو كان به صبر عليها ، ولكنه اعتاد أن يلم بها فى رفق ، وفى الأوقات القصيرة التى تسبق خروجه الى سهرته اليومية دون غيرها ، حتى فى تلك الأوقات لم يكن يجــد بأسا فى أن يقطع القراءة بالمشاركة فى أحاديث مجلس القهــوة ، أو يطالع قليلا ثم يدعو كمال ليروى له ما قرأ مستلذا باقبال الغلام على الاصغاء بذاك الشغف المأثور عن الأطفال والغلمان . اذن لم يكن الشعر ولا الرواية بالتى تستطيع أن تؤنس وحشته يوما كيومه هذا وقد قرأ أبياتا من الشعر وفصولا من غادة كربلاء ، ومضى يتجرع الملل قطرة فقطرة ، لاعنا الانجليز من أعماق قلبه ، ضجرا برما ضيق الصدر ، حتى حان وقت الغداء ، جمعتهم المائدة مرة أخرى ، وقدمت لهم الأم حساء ودجاجات محمرة وأرزا واتممت

أطباقها ــ التى حرمت من الخضر بســبب الحصار المضروب حول البيت ــ بجبن وزيتون ومش ، وأحضرت عســلا أسود بدلا من الحلوى ، ولكن لم يأكل بشهوة الا كمال أما السـيد والاخوان فلم يسعدوا بقابلية قوية للطعام لقبوعهم يومهم بلا عمل ولا حركة ، بيــد أن الطعام هيأ لهم فرصة للهروب من الفــراغ بالنوم وعلى الخصوص السيد وياسين اللذين كان يسعهما الظفر بالنوم وقتما شاءا وكيفما أحبا . وغادر ياسين فراشه قبيل المغرب فنزل الى الدور التحتانى لشهود جلسة القهوة ولكنها كانت جلسة قصيرة اذ أن الأم لم يسعها أن تترك السيد وحده طويلا فودعتهم وطلعت اليه ، ولبث ياسين وزينب وفهمى وكمال يتسامرون فى جو يغلب عليه الفتور حتى استأذن فهمى ومضى الى حجرة المذاكرة ثم دعا اليه كمال فغودر الزوجان منفردين . « ما عسى أن أصنع من الآن الى ما بعد منتصف الليل ؟ » .. أزعجه هذا السؤال الذى ألح عليه طويلا ، وبدا له اليوم كئيبا ذميما منتزعا بالقوة الغشوم من مجرى الزمان الذى يتدفق فى الخارج حافلا بالمسرات كمــا ينتزع الغصن من الشجرة فيستحيل حطبا . لولا الحصار العسكرى لكان الآن بمجلسه المحبوب بقهوة أحمد عبده ، يحسو الشاى الأخضر ، ويسامر معارفه من روادها ويمتــع النفس بجوها العتيــق الذى يستهوى شعوره بقدمه ويستأثر خياله بحجراته المطمورة تحت أنقاض التاريخ . قهوة أحمد عبده أحب المقاهى الى قلبه ، ولولا الغرض ــ والغرض مرض كما يقولون ــ ما اختار غيرها ، ولكنه الغرض الذى جذبه فيما مضى الى الكلوب المصرى لقربه من مقام بائعة الدوم وهو نفسه الذى أغراه بالانتقــال بعد ذلك الى قهوة سى على بالغورية لوقوعها أمام بيت زنوبة العــوادة ، فهو يبــدل المقاهى تبعا لغرضه ، بل انه يبدل من تعرض له صداقتهم فيها تبعا له ، ففيما وراء الغرض لا مقهى ولا أصدقاء له ، أين الكلوب المصرى وأصحابه ؟ .. أين قهوة سى على ومعارفها ؟ .. من حياته

ذهبوا ، ولعله لو صادفه أحدهم تجاهله أو تهرب منه ، والدور الآن على قهوة احمد عبده وسمارها ، والله وحده يعلم ما يخبئه الغد من مقاهى وأصدقاء ، على انه لم يكن يمكث بقهوة احمد عبده طويلا فسرعان ما يسترق الخطى الى بقالة كوستاكى أو بالاحرى الى حانته السرية ليحظى بالقارورة الحمراء أو « العادة » كما يحلو له أن يدعوها . . أين منه « العادة » هذا المساء الكالح ؟! . . وسرت فى بدنه لتذكر حانه كوستاكى رعدة شهوة ، ثم ما لبث أن لاحت فى عينيه نظرة سأم عميقة وتململ تململ السجين . بدا البقاء فى البيت حسره طويله زاد من حدة ألمها ما طاف بمخيلته من صور الهناء وذكريات النشوة المقترنة بالحانة والقارورة ، فعذبته الأحلام وضاعفت من وجده ، وقد جرت حنينه الملهوف على موسيقى الخمر الباطنية ولعبها بالرأس ذلك اللعب المدغدغ الحار السار السائل بهجة وأفراحا ، فلم يدرك قبل ذاك المساء أنه أعجز من أن يصبر على هجر الشراب يوما واحدا ولم يحزن لما بدا له من ضعفه وعبوديته ، ولا لام نفسه على اسرافها الذى جر عليه التعاسة لأهون الأسباب ، كان أبعد ما يكون عن لوم نفسه او السخط عليها ، ولم يذكر من بواعث ألمه الا الحصار الذى شدده الانجليز حول البيت ، وانه يحترق ظمأ ومورد النشوات غير بعيد . ثم لاحت منه التفاتة الى زينب فوجدها تتفرس فى وجهه بنظرة كأنما تقول له حانقة « مالك شاردا ، مالك واجما ، اليس لوجودى اى اثر فى التسرية عنك ! » . . أدرك معناها كله فى لحظة خاطفة التقت فيها عيناهما ، ولكنه لم يستجب لعتابها الحانق الحزين ، وبالعكس لعله أحنقه واثار ثائرته ، أجل لم يحقد على شىء كما حقد على اضطراره للبقاء معها ، طوال الليل ، بلا رغبة ، ولا مسرة ، وحتى محروما من النشوة التى يستعين بها على تحمل حياته الزوجية . جعل يسترق اليها النظر ويتساءل فى غرابة اليست هى هى ! . . أليست هى التى خلبت لبى ليلة الزفاف ؟ ! . . أليست هى التى

شغفتنى هياما ليالى وأسابيع ؟ ! .. فمالها لا تحرك فى ساكنا !..
أى شىء طرأ عليها ! .. مالى أتململ برما وسأما فلا أجد من حسنها وأدبها ما يغريني عن سكرة تأجلت ! ومال ـ كما فعل مرات من قبل ـ الى رميها بالنقص فيما برعت فيه زنوبة ومتيلاتها من ضروب الخدمة والشطارة ، والحق أن زينب كانت أولى تجاربه فى المعاشرة الدائمة ، فلم تطل به معاشرة العوادة ولا بائعة الدوم ، ولم يكن تعلقه باجداهما يمانعه من التنقل اذا سنحت دواعيه ، وقد ذكر لحظات حيرته هذه وأفكاره عنها بعد كرور أعوام طوال فعرف من نفسه ومن الحياة عامة ما لم يجر له فى خاطر . وانتبه على تساؤلها :

ـ لعلك غير مرتاح الى البقاء فى البيت .. ؟

لم يكن على حال يطيق معها حتى العتاب فوقع تساؤلها التهكمى من نفسه موضع الضربة الطائشة من الدمل فاندفع قائلا بصراحة مؤلمة واصرار :

ـ بلى ...

ومع أنها تحامت النقار من بادىء الأمر الا أن لهجته آذتها أشد ايذاء فقالت بحدة :

ـ لا ذنب له فى هذا ، أليس عجيبا ألا تطيق التخلف عن سهرتك ولو ليلة واحدة ...

فقال متسخطا :

ـ دلينى على شىء واحد يجعل البيت محتملا ..

فقامت غاضبة وهى تقول فى نبرات منذرة بالبكاء :

ـ سأخلى لك المكان لعله يطيب لك .. !

وولت كالهاربة وهو يتبعها بصرا جامدا ، ثم قال لنفسه « يا لها من حمقاء لا تدرى أن القدرة الالهية وحدها هى التى تبقى عليها فى بيتى » . ومع أن الشجار نفس عن حنقه قليلا الا أنه كان يفضل ألا يقع حتى لا يضاعف من كآبة فراغه ، ولم يكن

يعجز عن استرضائها لو أراده ولكن عقله الفتور الذى ران على مشاعره جميعا ، غير أنه لم تمض دقائق حتى شمله هدوء نسبى فرن صدى عباراته القاسية التى وجهها اليها فى أذنيه فأقر بقسوتها ، وبأنه لم يكن ثمة ما يدعو اليها ، وداخله شبه ندم ، لا لعثوره فجأة على ثمالة حب لها فى زوايا قلبه ولكن لحرصه على ألا يشذ فى معاملتها عن حد الأدب — ربما اكراما لأبيها أو خوفا من أبيه — حتى فى فترة الانتقال العصيبة التى أخذ على نفسه فيها اخضاعها لسياسته بالصلابة وبالحزم . واعتذر عن اسرافه بالغضب ، ولم يكن الغضب بالانفعال المستغرب فى هذه الأسرة ، فما يركبهم الحلم الا حين قيام الأب بينهم مستأثرا لنفسه من دونهم بكافة حقوق الغضب .

بيد أن غضبهم كالبرق سريع الاشتعال سريع الانطفاء ثم يردون الى ألوان من الأسف والندم . الى هذا كله خص ياسين بالمكابرة فلم يدفعه أسفه الى مصالحة زوجه بل قال لنفسه « هى التى استثارت غضبى .. ألم يكن بوسعها أن تخاطبنى بلهجة أرق ! » .. انه يحب لها دائما أن تتحلى بالصبر والحلم والعفو كيما ينطلق على هواه مطمئنا الى خطوطه الخلفية . اشتد ضيقه بسجنه بعد اغضابها وانسحابها فغادر المكان الى السطح . وجد الجو لطيفا والليل ساجيا والظلمة شاملة الا أنها كثيفة تحت عرش اللبلاب والياسمين ، رقيقة فى نصف السطح الآخر المسقوف بقبة السماء المرصعة بلآلىء النجوم . وراح يقطع السطح ذهابا وجيئة ما بين السور المطل على بيت مريم ونهاية حديقة اللبلاب المشرفة على قلاوون ، مستسلما لخيالات شتى وفيما هو يسير الهوينا عند مدخل السقيفة تسلل الى أذنيه حفيف ، أو لعله همس ، بل أنفاس تتردد بين لحظة وأخرى فحملق فى الظلام متعجبا وهتف متسائلا :

— من هنا ... ؟

فجاءه صوت يعرفه حق المعرفة وهو يقول فى نبرات نحاسية:
ـ أنا نور يا سيدى ..
تذكر من توه أن نور جارية زوجه تأوى ليلا الى حجرة خشبية لصق خص الدجاج تحوى بعض الكراكيب ، نظر صوب السطح حتى ميز شبحها القائم على بعد خطوة منه كأنه قطعة من الليل تكاثفت وتجمدت ، ثم تراءى له بياض عينيها الناصع كدائرتين مرسومتين بالطباشير على سبورة حالكة السواد ، واصل سيره دون أن ينبس وصورتها ترتسم فى مخيلته بطريقة تلقائية ، سوداء فى الأربعين متينة البنيان ، غليظة الأطراف ، ناهضة الصدر ، عبلة الأرداف ، ذات وجه لامع ، وعينين براقتين ، وشفتين ممتلئتين . فيها قوة وخشونة وغرابة ، أو هكذا بدت له مذ طرأت على بيته . وفجأة ، وعلى حين غرة ، تفجرت فى صدره نية الاعتداء كما تنفجر بعض المفرقعات بلا سابق انذار ، ولكن قوية مسيطرة كأنما تركز فيها هدف حياته ، فملكته كما ملكته على عتبة باب الفناء حيال أم حنفى ليلة زفاف عائشة ، انبعثت فى وجدانه الخامد حياة فوارة ، وانتشر القلق فى دمه حتى تكهرب ، وحل محل الملل والسأم اهتمام حار ثائر جنونى ، كل أولئك فى لمح البصر . ودب النشاط فى مشيته وفكره وخياله ، وكف وهو لا يدرى عن قطع السطح من أوله الى آخره مقصرا خط ذهابه وايابه الى الثلثين ثم الى النصف ، وكلما مر بها اضطرب جسمه برغبة عارمة . جارية سوداء .. ؟ خادم ؟ .. وان كانت ، له سوابق غير منكورة ، ليس حتما أن تقع بغيته على طراز زنوبة ، ميزة حسن واحدة تغنى كما أغنت عينا بائعة الدوم المكحولتان بحارة الوطاويط اللتان شفعتا لنتن ابطيها وتلبد الطين على ساقيها . بل الدمامة نفسها ـ ما دامت قد ركبت على امرأة ـ اعتذار مقبول عند شهوته العمياء كما تطلع اليها عند أم حنفى أو عند ضاربة رمل عوراء خلا بها وراء بوابة النصر ، نور على أية

حال ذات جسم مكتنز صلب يوحي ــ لا شك ــ ملمسه بالفتوة والصراع ، الى انها جارية سوداء تعد بطرافة فى الوصال وجدة فى التجربة وتحقيق للمأثور عن بنات جنسها من بعث الحرارة والدفء . وبدا الجو من حوله مهيئا آمنا مظلما فاستثحرت رغبته وتوثبت أعصابه واسترسل قلبه فى دقات متتابعة فرمى بنظرة ثاقبة موضعها ومال فى سيره اليها بحيث « يتفق » له أن يحتك بها على نحو ما حين مروره بها ، مؤجلا الجهر برغبته حتى يتاح له جس النبض فى جو من الحذر أن تكون ــ كأم حنفى ــ بلهاء فتتجاوب أركان البيت بفضيحة جديدة ، تقدم فى خطوات وئيدة محملقا صوبها ، يود بكل ما اضطرم فى صدره من شهوة لو تنفذ كلمات عينيه ــ رغم الظلمة الفاشية ــ الى نفسها ، حتى اقترب منها فاختلطت دقات قلبه ، ثم حاذاها فمس كوعه أعلى جسمها ولكنه واصل سيره كأن ما وقع قد وقع عفوا ، غير أن رعدة سرت فى بدنه عند لمس الموضع الذى لم يتحقق من هويته فى الغيبوبة التى تاه فيها عالمه فلم يبق منه عند الافاقة النسبية فى نهاية السطح الا مس طرى غزير الحنان وما ند عن صاحبته من تراجع برىء أيد ما رجحه من عدم ارتيابها فى أمره فاستدار مصمما على اعادة الكرة . أعاد نحوها تانية ذراعه حتى مس كوعه احدى ثدييها ــ لم يخطئه احساسه هذه المرة ــ ثم لم يسحبه كما كان ينتظر من شخص يدعى أنه ضل السبيل ، بل تركه يصافح الثدى الأخرى مصافحة رقيقة لا تبالى دفع الريب ، ومضى وهو يقول لنفسه ستدرك غايتى بلا شك ، بل لعلها أدركتها فند عنها ما يوحى بأنها أرادت أن تنتحى جانبا ولكنها أبطأت ، أو بوغتت فذهلت ، على أى حال لم تتقينى باليد ، ولم تحرك ساكنا . فلن تصرخ فجأة كما فعلت بنت المركوب ، لنجرب مرة ثالثة . عاد هذه المرة متعجلا جزعا ، فتثاقل حيالها ، ثم مد كوعه الى الصدر الناهض كقربة صغيرة منتفخة ، ثم حرك ذراعه حركة ناطقة

بالتردد والريبة معا ، وهم بمواصلة السير مدفوعا برغبة فى الفرار لولا أن وجد منها استسلاما أو بلادة أغرقت ثمالة وعيه فى تيار من الجنون فتوقف متسائلا بصوت خرج من بخار الشهوة منصهرا متهدجا :

ــ أهذه أنت يا نور .. ؟!

فقالت الجارية وهى تتقهقر وهو يتبعها كيلا تفلت منه حتى التصق ظهرها بالحائط وأوشك هو أن يلتصق بها :

ــ نعم يا سيدى ..

أراد أن يقول أى كلام يعن له حتى يتمكن من الجهر بما يضطرب فى أعماقه كالملاكم الذى يلوح بقبضته فى الهواء متحينا الفرصة ليضرب ضربته القاضية فسألها وأنفاسه تترامى على جبينها :

ــ لم لم تذهبى الى حجرتك .. ؟

فقالت الجارية التى تعثرت فى نطاق حصاره :

ــ كنت أشم الهواء قليلا ..

وكأنما غلب النهم تردده فمد راحته الى خاصرتها ثم جذبها برفق الى صدره وهى تبدى ممانعة تحول بينه وبين ما يريد ، ثم همس فى أذنها وهو يلصق خده بخدها :

ــ هلمى الى الحجرة ...

فتمتمت فى ارتباك :

ــ عيب يا سيدى ...

رنت نبراتها النحاسية فى الصمت رنينا أزعجه ، لم تكن تعمدت أن ترفع صوتها ولكنها ــ فيما بدا ــ لا يتأتى لها الهمس أو أن من طبع همسها الرنين ولو فى أخفض درجاته ، على أنه سرعان ما زايله الانزعاج لتوقد شهوته من ناحية ولخلو لهجتها من الاحتجاج الذى يستوحيه مدلول عباراتها ، فجذبها بيده وهو يغمغم :

ــ تعالى يا حلوة ...

فسلست ليده ، ربما عن رضى وربما عن طاعة ، وهو يغمر خدها وصفحة عنقها بقبلاته مترنحا من شدة الانفعال ، وفى نشوة السرور جعل يقول لها :

ــ ماذا غيبك عنى طول هذه الأشهر !

فأجابته بلهجتها العادية الخالية من أى احتجاج :

ــ عيب يا سيدى ...

فقال وهو يبتسم :

ــ ما أرق ممانعتك ، زيدينى منها ..

ولكنها أبدت شيئا من المقاومة عند مدخل الحجرة قائلة :

ــ عيب يا سيدى .. (ثم كالمحذرة) .. الحجرة ملأى بالبق ..

فدفعها وهو يهمس فى قفاها :

ــ أنام على العقارب من أجلك يا نور ...

جارية ، هكذا بدت بأدق ما تحمل هذه الكلمة من معان ، وقفت مستسلمة بين يديه فى الظلام فوضع شفتيه على شفتيها وقبلها بحرقة وتشوق وهى ساكنة مستسلمة كأنها تشاهد منظرا لا دور لها فيه حتى قال لها بانفعال « قبلينى » ثم أعاد لصق شفتيه بشفتيها وقبل فقبلته ! ثم طلب اليها أن تجلس فرددت قولها « عيب يا سيدى » الذى بدا مضحكا من ابتذاله على وتيرة واحدة فأجلسها بنفسه فاستجابت بلا ممانعة ، وما لبث أن وجد لذة جديدة فى ترددها بين السلبية والاذعان فجد فى طلب المزيد منه وتتابعت الممانعة اللفظية والاذعان الفعلى فنسى الزمن . ثم خيل اليه أن الظلام من حوله يتحرك أو ان مخلوقات غريبة فى طياته تتراقص ، ربما الجهد أصابه من طول ما لبث ان كان طال لبثه فانه على وجه اليقين لا يدري كم لبث ، أو لعلها التيارات المتوقدة المتلاطمة فى راسه تولد من ارتطامها فى بصره انوار وهمية ، ولكن مهلا ، ان جدران الحجرة تتماوج . ناضحة

بضوء خافت ذابت فيه الظلمة الداجنة ذوبانا يهتك الأسرار ، ورفع رأسه محملقا فرأى نورا خافتا يتسلل من شقوق الجدار الخشبى مقتحما عليه خلوته ، ثم ارتفع صوت زوجه فى الخارج وهى تنادى الجارية قائلة :

ـ نمت يا نور ؟ ! .. نور .. ألم ترى سى ياسين ؟

فانتفض قلبه فزعا ووثب قائما واندفع على عجل ولهفة يتخطف ثيابه ويرتديها وهو يتفحص الحجرة ببصر زائغ لعله يجد مخبأ بين كراكبها ، ولكن نظرة واحدة آيسته من الاختفاء على حين صك أذنيه وقع شبشب يقترب فلم تتمالك الجارية من أن تقول بصوت باك :

ـ أنت السبب يا سيدى ، ماذا أفعل الآن .. ؟ !

فلكزها فى كتفها بقسوة حتى أمسكت ، وحدق فى الباب بفزع ويأس وهو يتقهقر ـ بدافع لا شعورى ـ الى الركن البعيد عن المدخل حتى التصق بالجدار ، وتجمد فى موقفه يترقب . تتابع النداء ولا مجيب ، ثم انفتح الباب ولاحت ذراع زينب يتقدمها مصباح وهى تهتف :

ـ نور .. نور ..

فلم يسع الجارية الا أن تخرج من صمتها مغمغمة بصوت شاحب حزين :

ـ نعم يا ستى ...

فقالت زينب بصوت ينم عن الحنق والتعنيف :

ـ ما أسرع أن تنامى يا شيخة ! .. ألم ترى سى ياسين ؟ .. سيدى الكبير ارسل فى طلبه فبحثت عنه فى الدور التحتانى والفناء وها أنا لا أجده فوق السطح ، هل رأيته .. ؟

وما أتمت كلامها حتى كان رأسها قد برز داخل الحجرة وهو يطل على الجارية المرتبكة فى جلستها باستغراب ، ثم بحركة غريزية التفتت الى يمينها فوقع بصرها على زوجها الملتصق

بالحائط بجسم ضخم كأنما ترهل وتخاذل من الخزى والهــوان ، التقت عيناهما لحظة قبل أن يغض بصره ، ومرت لحظة اخرى فى صمت قاتل ، ثم ندت عن الفتاة صرخة كالعواء وتراجعت وهى تهتف ضاربة صدرها بيسراها :

ـ يا فضيحتك السوداء .. انت ! .. أنت !

وجعلت ترتجف كما بدا من ارتجاف المصباح بيدها وارتعاش ضوئه المنعكس على الجدار المواجه للباب ثم ولت هاربة وعويلها يمزق الصمت . قال ياسين لنفسه وهو يزدرد ريقه « انفضحت وما كان كان » ولبث بموقفه ذاهلا عما حوله حتى انتبه الى نفسه فغادر الحجرة الى السطح دون أن يخطر له أن يتجاوزه . لم يدر ماذا يصنع ولا الى أى مدى تذاع الفضيحة ، أتنحصر فى شقته أم تنتقل الى الشقة الأخرى ؟ .. ثم راح يوبخ نفسه على ذهوله وضعفه اللذين منعاه من أن يلحق بها كى يحصر الفضيحة فى أضيق حدود ، ثم تساءل وهو فى أشد حالات الضيق كيف يتلقى هذه الفضيحة ؟ .. هل يسعفه الحزم هنا ايضا ؟ .. ربما لو لم يتسرب نبأها الى أبيه . وسمع حركة آتية من ناحية الحجرة المشئومة فالتفت نحوها فرأى شبح الجارية يغادرها وبيده لفة كبيرة ، ثم هرولت نحو باب السطح ومرقت منه ، هز كتفيه استهانة ، فيما هو يتحسس صدره بيده أدرك انه نسى أن يرتدى الفانلة فعــاد الى الحجرة مسرعا ..

ـ ٥٨ ـ

فى الصباح الباكر طرق الباب ، وكان الطارق شيخ الحارة ، فقابل السيد أحمد واخبره بأنه مكلف من لدن السلطات بابلاغ سكان الأحياء المحتلة بأن الانجليز لن يتعرضــوا الا للمتظاهرين

وأن عليه أن يفتح دكانه ، وعلى التلميذ أن يذهب الى مدرسته والموظف الى وظيفته ، وحذره من حجز التلاميذ أن يظنوا من المضربين لافتا نظره الى الأوامر المشددة بمنع المظاهرات والاضراب ، بذلك استرد البيت نشاطه الذى يستقبل به الصباح ، وتنفس رجاله الصعداء لاطلاق سراحهم بعد حبس البارحة ، واستروحت النفوس شيئا من الطمأنينة والسلام . قال ياسين لنفسه تعقيبا على زورة شيخ الحارة : « الأحوال خارج البيت تتحسن أما داخله فهى طين ووحل » ، أجل قضت أكثرية أهل البيت ليلة نكراء أحاطت بها الفضيحة ومزق أوصالها النكد ، زينب ، لم يستطع الصبر الذى تغلق به صدرها على حزنها وتذمرها أن يصمد للمنظر المروع الذى رأته عيناها فى حجرة جاريتها فتفجر صدرها قاذفا بشواظه كل سبيل ، تعمدت تعمدا أن يقرع عويلها آذان السيد فجاءها مهرولا متسائلا . . وكانت الفضيحة . قصت عليه كل شىء متشجعة بانفعالها الجنونى الذى لعلها لولاه ما واتتها شجاعتها على مواجهته بما قصت لما باتت تجد نحوه من تهيب لم تجد مثله حيال أحد من الناس . انتقمت بذاك لكرامتها الذبيحة ، وللصبر الطويل الذى تجرعته حينا مختارة وحملت عليه فى أكثر الأحايين : « جارية ! خادمة ! فى سن أمه ! وفى بيتى ! ماذا عساه يفعل فى الخارج اذن ؟ » لم تكن تبكى غيرة ، أو لعل الغيرة توارت الى حين وراء حجب كثيفة من التقزز والغضب كما تتوارى النار وراء سحب الدخان ، وكأنما غدت تؤثر الموت على أن تبقى معه تحت سقف واحد ولو يوما واحدا بعد ما كان ، أجل هجرت مخدعها فقضت الليل فى حجرة الاستقبال ، يقظى أكثره تهذى هذيان المحمومين ونائمة أقله نوما ثقيلا مريضا مزعجا . أصبحت وهى مصممة على هجر البيت . لعل هذا التصميم وحده الذى وجدت فيه مسكنا لأوجاعها . ماذا بوسع حميها نفسه أن يفعل ؟ . . لن يستطيع أن يمنع المنكر بعد أن وقع ، ولن يسعه

مهما يكن جبروته ان ينزل بزوجها العقاب الذى يستحقه حتى يستشفى صـــدرها ، أقصى ما يراه أن يزجره ، أن يصـــب عليه غضبه ، وسينصت ــ الفاسق ــ خافض الرأس كى يواصل فيما بعد سيرته الخبيثة ! . . هيهات . لقد رجاها السيد ان تدع الأمر بين يديه ، ونصحها طويلا بأن تعرض عن زلته مستوصية بصبر الفضليات من مثيلاتها ، ولكنها لم تعد تحتمل الصبر أو العفو . جارية ســوداء فوق الأربعــين ! . . كلا . ستهجره هــذه المرة بلا تردد ، ستفضى الى ابيها ببثها كله ، وستبقى فى كنفــه حتى يثوب الى رشده ، فاذا جاءها بعد ذلك نادما ، وغير من سلوكه أو فلتذهب هذه الحياة كلها ــ بخيرها وشرها ــ الى الشيطان ، أخطأ ياسين حين ظنها قد طوت صدرها على كربها عقلا وحكمة ، الحق أنه غلبها الجزع من بادىء الأمر فبثت همهــا الى أمها ، ولكن الأم اثبتت أنهــا امرأة حكيمة فلم تدع الشــكوى تتسرب الى الأب ، وأوصت ابنتها بالصبر قائلة ان جميع الرجال يسهرون ــ كوالدها مثلا ــ وانهم أيضا يشربون ، وأنه حسبها أن بيتهــا عامر بالخير ، وأن زوجها يعود اليها مهما سهر ومهما سكر . أصغت الفتاة الى النصيحة على مضض ، وجاهدت نفسها أيما اجهاد متجملة بالصبر ولم تأل أن تحمل نفسها على الرضى بالواقع والقناعة من أحلامها العريضة بما سمحت به الحقيقة خصوصا وقد دب الجنين فى بطنها مبشرا بالأمومة المرموقة . ربما كمن التذمر فى أعماقها بيــد انها راضت نفسها على التســليم متأسية بأمهــا تارة وطورا بامرأة سيدها الكبير ، ثم لم يخل الحال من ريبة تختلج فى صدرها بين حين وآخر عما يمكن أن يفعل زوجها فى سهراته الخمرية ، وحدث أن أفضت الى أمها بمخاوفها ، بل لم تخف عنها ما لحق بالرجل من فتور فى عواطفه . ولكن الأم الحكيمة أفهمتها أن ذاك الفتور ليس حتما نتيجة لما يقع فى خاطرها ، انه « شىء طبيعى » وأن الرجال جميعا لديه سواء ، وانها سوف تقتنع به بنفسها كلما تقدمت بها

تجارب العمر ... على انه حتى لو صدقت وساوسها فماذا تراها فاعلة ؟ .. هل ترضى بهجر بيتها لأن زوجها يلم بغيرها من النساء ؟ .. كلا ، وألف مرة كلا ، لو تخلت كل امرأة عن مكانها لسبب كهذا لأقفرت البيوت من الفضليات ، والرجل قد يطمح طرفه الى امرأة أو أخرى ولكنه يعود دائما الى بيته ما دامت زوجه خليقة بأن تبقى عنده المرجع الأخير والمأوى الثابت ، والعاقبة للصابرات . ومضت تذكرها بالمطلقات بلا ذنب واللائى يشركهن فى أزواجهن أخريات ، أليس طيش زوجها — ان صح — خطبا أخف من سلوك أولئك ؟ !.. ثم انه شاب لم يجاوز الثانية والعشرين من عمره ، ومصيره أن يعقل فيثوب الى بيته ويشغل بذريته عن الدنيا جميعا ، ومعنى هذا أنه ينبغى لها الصبر حتى لو صدقت وساوسها فما بالها والوساوس لم تصدق ؟ ! رددت المرأة هذا ، وغيره مما يجرى مجراه ، حتى سلس جماح الفتاة وآمنت بالصبر وراضت نفسها عليه . بيد أن واقعة السطح قضت على كل ما وطنت النفس عليه بضربة قاضية فانهار البنيان جميعا كأن لم يكن ..

ومع أن السيد لم يفطن الى هذه الحقيقة المؤسفة فظن الفتاة قد امتثلت لنصيحته ، الا أن غضبته كانت أشد من أن تمر بسلام ، وقد أحسنت الجارية صنعا بفرارها . أما ياسين فلم يبرح السطح ، لبث يفكر منزعجا فى العاصفة التى تتربص به ، حتى ترامى الى أذنيه صوت أبيه وهو يناديه بنبرات كفرقعة السياط فدق قلبه ، ولكنه لم يجب ولم يستجب وتسمر يائسا فى مكانه ، وما يدرى الا والرجل يقتحم عليه السطح ثم يقف مدمدما لحظات وهو يتفحص المكان حتى يعثر على شبحه فيتجه اليه ويقف على كثب منه شابكا ذراعيه على صدره مصوبا نحوه رأسا متصلبا متعجرفا ، ملتزما الصمت ومطيله كى يطيل له به العذاب والارهاب ، كأنما أراد بصمته أن يعبر له عما يجد نحوه مما يعيى الالفاظ حمله ، أو أنه أراد أن يرمز به الى ما كان يود أن يؤدبه به من مبرح الركل

واللكم فمنعه منه استواؤه رجلا وزوجا ، ثم لم يعد يستطيع مع الصمت صبرا فانهال عليه سبا وتعنيفا وهو ينتفض غضبا وهياجا « أنت تتحداني تحت سمعي وبصري ! .. فلتذهب أنت وخزيك الى جهنم .. دنست بيتي يا وغد ، هيهات أن يتطهر هذا البيت ما دمت فيه .. كان لك قبل الزواج عذر واه فأي عذر لك الآن؟! » .. « لو أصاب كلامي حيوانا لأدبه ولكنه ينصب على حجر .. ان بيتا يضمك خليق بأن تستنزل عليه اللعنات » .. نفس عن صدره المستعر بكلمات كالرصاص المنصهر وياسين بين يديه ساكن صامت خافض الرأس كأنه يوشك أن يذوب فى الظلام ، حتى أجهد الرجل الزعق فولاه ظهره وغادر المكان وهو يلعنه ويلعن أباه وامه ، ومضى الى حجرته يفور بالغضب فورا . فى ثورة الغضب رأى زلة ياسين جريمة تستحق الابادة ، وفى ثورة الغضب لم يعد يذكر أن ماضيه كله صورة مطولة متكررة من زلة ياسين ، وانه لا يزال دائبا على سلوكه وقد انتصف به العقد الخامس وشب أبناؤه فصار منهم الأزواج والزوجات : لا لأنه فى ثورة الغضب ينسى حقا ، ولكن لأنه يحل لنفسه ما لا يحل لأحد من ذويه ، له أن يفعل ما يشاء وعليهم التزام الحدود التى يريدهم على أن يلتزموها فلعل غضبه على ما فى ذنب ياسين من « تحد » لارادته و « استهانة » بوجوده و « تشويه » للصورة التى يحب أن يتصور بها أبناءه ، كان أضعاف غضبه على الذنب نفسه ، على أن غضبه ـ كما هى عادته ـ لم يستمر طويلا ، ما لبث أن خبا لظاه وخمد توقده فعاوده الهدوء رويدا وان شاب مظهره ـ مظهره فقط ـ الوجوم والأسى ، عند ذاك أمكنه أن ينظر الى «جريمة » ياسين من أكثر من زاوية واحدة ، أمكنه أن يتأملها بعقل مستقر فانجلى له قتامها عن مواضع شتى ساخرة تسلى بها عن وحدته الاضطرارية . أول ما ابتدر ذهنه أن يلتمس للمذنب عذرا ، لا حبا فى التسامح فانه يكره التسامح فى بيته ، ولكن ليتخذ من ذاك العذر المرجى « مبررا » لخروجه عن

ارادته ، كأنما يقول لنفسه « ان ابنى لم يشق عصا الطاعة .. هيهات ، ولكن عذره كيت وكيت » .. ولكن هل يلتمس له العذر عند شبابه باعتباره عهد طيش ونزق ؟ .. كلا .. ان الشباب عذر عن الذنب وليس عذرا عن خروجه على ارادته والا لجاز لفهمى بل لكمال أن يتماديا فى الاستهانة بتعاليمه ، ليلتمس العذر اذن عند رجولته ، هذه الرجولة التى تحل له أن يستقل بنفسه عن ارادته ولو شيئا ما وتعفيه هو ـ السيد ـ من تحمل مسئولية فعاله ، كأنما يقول لنفسه : « انه لم يخرج على ارادتى ، هيهات ؛ ولكنه بلغ السن التى لا يعد فيها ذنبه خروجا على ارادتى » .. وغنى عن القول انه يأبى أن يعترف أمامه بهذا الحق ولن يعفو عنه لو تجاسر على المطالبة به ، بل انه لا يعترف له به فيما بينه وبين نفسه الا فى حال الوقوع فى معصية تستوجب مبررا للخروج على ارادته ، ولم ينس حتى فى تلك الحال أن يذكر نفسه ـ التماسا للمزيد من الطمأنينة ـ بأنه أدبه تأديبا غليظا قل من يستبيحه من الآباء فقوبل بخضوع كامل قليل من يتحمله من الأبناء .. وعرج خاطره الى زينب متفكرا ولكنه لم يجد نحوها أى عطف ، لقد واساها اكراما لأبيها العزيز الحبيب ، ولكنه لا يظن أن الفتاة جديرة بأبيها حقا . ما كان يخلق بزوجة كريمة أن تفضح زوجها ـ مهما تكن الظروف ـ على النحو الذى فضحت به ياسين ! .. لشد ما أعولت ! .. لشد ما صرخت ! .. ماذا كان يصنع هو ـ السيد ـ لو أن أمينة فجأته يوما بمثل هذا التصرف ؟ ! .. ولكن أين هى من أمينة ! ؟ .. ثم كيف قصت عليه ما رأت دون حياء ! .. أف ! أف ! لو لم تكن هذه الفتاة كريمة محمد عفت لحق لياسين أن يؤدبها بل لما رضى هو أن تمر هذه الواقعة دون عقاب زاجر ، لقد أخطأ ياسين ولكنها أخطأت خطأ أكبر . ثم عاد الى ياسين سريعا فراح يفكر ـ بباطن مبتسم ـ فى الطبيعة الواحدة التى تجمع بينهما ، تلك الطبيعة الموروثة عن الجد بلا ريب ، ومن

يدرى لعلها تضطرم الآن فى صــدر فهمى تحت قنــاع التهذيب والاستقامة ، بل ألا يذكر كيف عاد يوما الى البيت على غير انتظار فترامى الى ســمعه صوت كمال وهو يغنى « يا طــير يا اللى على الشجر » ! ؟ . . تأخر لحظتذاك وراء الباب ـ لا ليتظاهر بانه وصل بعد انتهاء الغناء فحسب ـ ولكن ليتابع الصــوت متذوقا معدنه سابرا طول نفسه ، حتى اذا ما ختم الغلام النغمة صــفق الباب بقوة وهو يسعل ومضى الى الداخل طاويا صدره على ابتهاج لم يفطن اليه أحد ، كم يلذه أن يرى نفسه مترعرعة من جديد فى حياة أبنائه على الاقل فى ساعات الهدوء والصفاء ، ولكن رويدا . . أن لياسين طبيعة خاصة به لا يشركه هو فيها ، أو أنه لا تجمع بينهما طبيعة واحدة اذا روعى المعنى الدقيق لهذه الكلمة ، ياسين حيوان أعمى . . ينقض مرة على أم حنفى ويضبط أخرى مع نور ، يتمرغ فى التراب دون مبالاة . وما هكذا هو ! أجل انه يدرك مقدار الضيق الذى ألم بياسين لاضطراره الى قضــاء الليلة فى شــبه سجن ، يدرك لأنه كابده هو أيضا كئيبا محزونا كمن فقد عزيزا . ولكن هبه كان يتنزه فى بستان السطح ـ كما فعل الفتى ـ فصادف جارية ـ ولنفترض انها تكون ملبية لذوقه ـ أكان يقدم على المغامرة ؟ . . كلا . مؤكد كلا ، ولــكن أى وازع كان يشكمه ؟ . . لعله المكان ؟ الأسرة ! ولعله العمر الرشيد . آه ، لقد تضايق عند ورود الوازع الأخير على ذهنه ، وخيل اليه أنه يغبط ياسين على ريق شبابه وجنون زلته معا ! . . مهما يكن من أمر فالطبيعتان مختلفتان ، لم يكن السيد ـ كابنه ـ مغرما بالمرأة بلا قيد ولا شرط ، امتــازت شهوته دائما بالرفاهية ، وحداها الانتخاب الرفيع ، بل اثرت فى ميزاتها ميزات اجتماعية ضمت الى الميزات الطبيعية المألوفة . كان مغرما بالجمال الأنثوى فى لحمه وتبختره وأناقته ، فلم تخل جليلة أو زبيــدة أو أم مريم وعشرات غيرهن من ميزة او اكثر من هذه الميزات ، وفضلا عن هذا كله فلم يكن مزاجه ليصفو ويطيب الا

بالمنظر البهيج وبالمجلس الأنيس وما يتبعهما من شراب وسمر وغناء ، فلا يكاد يمضي طويل وقت على عشيقة جديدة حتى تفطن الى هواه فتهيىء له ما تهفو اليه نفسه من جو شـذى يعبق فيه الورد والبخور والمسك . وكما كان يعشق الجمال مجردا كان يعشقه كذلك فى هالاته الاجتماعية اللألاءة . تجذبه المكانة المرموقة والصيت البعيد ، ويلذ له أن ينوه خاصته بعشقه ومعشوقاته الا فيما ندر من أحوال توجب التستر والكتمان كحال أم مريم ، على أن هذا الحب « الاجتماعى » لم يكن ليفرض عليه تضحية بالجمال ، فالجمال والصيت — فى هذا المجال — يسيران جنبا لجنب كالشىء وظله ، وغالبا ما يكون الجمال اليد الساحرة التى تشق السبيل الى الصيت والمكانة المرموقة ، وقد عشق أشهر عوالم عصره فلم تخيب احداهن نزوعه الى الجمال وولعه بالحسن . هذا ماجعله يذكر نزوات ياسين بازدراء وهو يردد مستنكرا « أم حنفى ! .. نور ! .. يا له من حيوان » انه برىء من هذا الشذوذ بيد أنه ليس فى حاجة الى أن يتساءل طويلا عن مصدره فانه لم ينس بعد تلك المرأة التى أنجبت ياسين فأودعته طبيعتها المولعة بالقذارة ، انه مسئول عن قوة شهوته أما هى فمسئولة عن نوع هذه الشهوة النزاعة الى الحضيض ، وقد عاوده فى الصباح التفكير « الجدى » فى المسألة فكاد يدعو الزوجين اليه كى يصفى ما بينهما — وما بينه وبين كليهما — من حساب ، ولكنه أرجأ ذلك الى متسع من الوقت أنسب من الصباح ، ولما ساءل فهمى ياسين عما دعاه الى التخلف عن المائدة أجابه مقتضبا « شىء تافه سوف أحدثك عنه فيما بعد » وظل فهمى جاهلا سر غضب أبيه على أخيه حتى علم باختفاء الجارية نور فحدس الأمر كله . شهد الصباح الأسرة على غير مألوفها فقد غادر ياسين البيت مبكرا ولزمت زينب حجرتها ثم غادر الرجال البيت واجفين متحاشين أن يرفعوا بصرا صوب الجنود والأم من وراء خصاص المشربية تدعو الله أن يقيهم من كل سوء . ولم تنشأ أمينة

أن تقحم نفسها فى « واقعة » السطح فنزلت الى حجرة الفرن وانتظرت بين حين وآخر أن تلحق بها زينب كالعادة . لم تكن تقرها على غضبتها لكرامتها فعدتها تدليلا أثاراستياءها ، وجعلت تتساءل « كيف تدعى لنفسها من الحقوق ما لم تدعه امرأة قط ؟ .. » .

لا ريب أن ياسين قد أخطأ فدنس البيت الطاهر ولكنه أخطأ فى حق أبيه وحرمته لا فى حقها هى .. ألست ملاكا بالقياس الى هذه الفتاة ؟! .. ولكن لما طال بها الانتظار لم تعد تستطيع تجاهلها واقنعت نفسها بوجوب الذهاب اليها مواسية فصعدت الى شقتها ونادتها ، ثم دخلت الحجرة فلم تعثر لها على أثر ، ومضت من حجرة الى حجرة وهى تنادى حتى فتشت البيت ركنا ركنا ، ثم ضربت كفا بكف وهى تقول : « رباه .. هل ارتضت زينب أن تهجر بيتها ؟! ... » .

- ٥٩

لم تنج أمينة سحابة النهار من قلق ، فان احتمال تعرض الجنود لأحد رجالها فى ذهابه أو ايابه لم يكد يفارق رأسها . وكان فهمى أول العائدين فتخففت لدى رؤيته من بعض آثار قلقها ولكنها رأته متجهما فسألته :

ــ ماذا بك يابنى ؟

فهتف فهمى متأففا :

ــ أكره أن أرى هؤلاء الجنود ..

فقالت المرأة باشفاق :

ــ لا تبد لهم الكراهية ، ان كنت تحبنى لا تفعل ..

ولكنه لم يفعل بغير استعطافها ، لم يتجاسر على أن يتحداهم ولو بالنظر وهو يتلمس سبيله تحت رحمتهم ، تحاشى أن ينحرف



بصره الى أحدهم ، ومضى الى البيت متسائلا فى سخرية عما كانوا يفعلونه لو أنهم علموا بأنه راجع من مظاهرة اشتبكت مع جنودهم فى شبه معركة ، أو أنه وزع فى مطلع اليوم عشرات المنشورات التى تحرض على قتالهم ، جلس يستعرض ما لاقاه فى يومه مستحضرا أقله كما وقع وأكثره كما كان يتمنى أن يكون . هكذا كان دأبه أن يعمل نهارا وأن يحلم مساء ، تحدوه فى الحالين أسمى العواطف وأفظعها ، حب قومه من ناحية والرغبة فى التقتيل والابادة من ناحية أخرى . أحلام يسكر بها وقتا يطول أو يقصر ثم يفيق منها على حسرة لاستحالتها وفتور لسخافة تصوراتها ، أحلام تنسج لحمتها وسداها من معارك يتقدم صفوفها كجان دارك ، واستيلاء على سلاح العدو ثم الهجوم عليه ، هزيمة الانجليز ، خطبة خالدة فى ميدان الأوبرا ، اضطرار الانجليز الى اعلان استقلال مصر ، عودة سعد من المنفى ظافرا ، لقاء بينه وبين الزعيم وكلمة الزعيم ، مريم بين شهود الافتتاح التاريخى ، أجل كانت أحلامه تتوج دائما بصورة مريم رغم انزوائها ــ طوال تلك الأيام ــ فى ركن قصى من قلبه الذى شغلته الشواغل كما ينزوى القمر وراء السحب ابان العاصفة ، وما يدرى الا وأمه تقول له وهى تشد المنديل حول رأسها فى ارتباك :

ــ ذهبت زينب الى بيت أبيها غضبانة ..

آه .. كاد ينسى ما ألم بأخيه وأسرته فى الصباح ، الآن تأكد اليه ما حدسه حين علم باختفاء الجارية نور ، وتحاشى عينى أمه حياء أن تقرأ ما يدور بخلده خصوصا وأنه أيقن باطلاعها على جلية الأمر ، ولم يستبعد أن تفطن الى ادراكه له أو فى الأقل أن ترجحه ، فلم يدر ما يقول لا سيما أنه لم يعتد فى محادثتها أن يبدى خلاف ما يبطن ، ولم يكن أبغض لديه من أن يقوم المكر مقام الصراحة بينهما ، فقنع أخيرا بأن يتمتم قائلا :

ــ ربنا يصلح الحال ...

لم تنبس أمينة بكلمة كأن اختفاء زينب من التفاهة بحيث تكفى جملة اخبارية وأخرى دعائية فى معالجته ، وما لبث فهمى أن دارى ابتسامة كادت تفضح تحفظه اذ أدرك أن أمه تكابد مثل شعوره وأنها تعانى ارتباكا لعجزها الفطرى عن التمثيل ، لم تكن تحسن الكذب ، وحتى اذا اضطرت اليه احيانا كشفتها طبيعة لا تستقر على بساطتها الأقنعة ، على أن ارتباكهما لم يطل فما هى الا دقائق حتى رايا ياسين مقبلا نحوهما . خيل أليهما أنه يطالعهما بوجه لا يقدر المتاعب التى تترصد فى البيت وان لم يعلم بعد بمدى ما بلغته ، ولم يدهش فهمى لذلك كثيرا لما يعلمه من استهانته بالمتاعب التى تنوء بغيره من الناس ، ولكن الحقيقة أن ياسين غلبه شعور باهر بأنه اجتاز مغامرة ظافرة أنسته الى حين جل متاعبه . كان فى طريقه الى باب البيت حين اعترض سبيله جندى كأنما انشقت عنه الأرض فارتعدت مفاصله وتوقع شرا لا قبل له به أو فى الأقل اهانة جارحة على مرأى من أصحاب الحوانيت والمارة ، ولكنه لم يتردد فى الدفاع عن نفسه ، فقال برقة وتودد مخاطبا الجندى كأنما يستأذنه فى المرور :

ــ من فضلك يا سيدى ..

ولكن الجندى طلب عود ثقاب وهو يبتسم ــ أجل يبتسم ــ فذهل ياسين لابتسامته حتى استعصى عليه أن يفهم مراده حتى أعاده ، لم يكن يتصور ان جنديا انجليزيا يبتسم على هذا النحو ، أو ــ اذا كان الجنود الانجليز يبتسمون كسائر البشر ــ أن يبتسم له أحدهم فيما يشبه الأدب ، فاستخفه سرور اربكه حتى لبث جامدا لحظات لا يحرى جوابا ولا يبدى حراكا ، ثم توثب بكل ما فيه من قوة لأداء هذه الخدمة البسيطة لذلك الجندى العظيم المبتسم ، ولما كان غير مدخن فلا يحمل ثقابا فقد بادر الى الحاج درويش بائع الفول وابتاع علبة ثقاب وهرع الى الجندى مادا له يده بها فتناولها الجندى وهو يقول :

ـ أشكرك ..

لم يكن أفاق من أثر الابتسامة السحرية فجاء الشكر كقدح البيرة الذى يعل به من استوفى طاقته من الوسكى ، ملأه الامتنان والزهو ، تورد وجهه المكتنز وضحكت أساريره وكأن عبارة « ثانك يو » نيشان سام تقلده على الملأ ، الا أنها ضمنت له أن يذهب ويجىء أمام المعسكر آمنا ، وما كاد الرجل يبدى أول حركة للذهاب ، حتى قال له متوددا من أعماق فؤاده :

ـ حظ سعيد يا سيدى ..

ومضى الى البيت كالمترنح من الفرح . أى حظ سعيد ظفر به هو !.. انجليزى ـ لا استرالى ولا هندى ـ وابتسم له وشكره !. انجليزى أى رجل يتمثل فى خياله كأنموذج لكمال الجنس البشرى ، ربما أبغضه كما يبغضه المصريون جميعا ، ولكنه فى قرارة نفسه يحترمه ويجله حتى ليخيل اليه كثيرا أنه من طينة غير طينة البشر ، هذا الرجل ابتسم له وشكره .. ! وقد أجابه اجابات صحيحة مقلدا ما وسعته مرونة شدقيه طريقة النطق الانجليزية فنجح نجاحا باهرا استحق عليه الشكر ! .. كيف يصدق ما ينسب اليهم من الأعمال الوحشية ؟! .. لماذا نفوا سعد زغلول اذا كانوا على هذا الظرف كله ؟! غير أن حماسه فتر بمجرد أن وقع بصره على الست أمينة وفهمى واستطاع أن يقرأ نظرتيهما ، وسرعان ما اتصل ما كان انقطع من حين من حبل همومه ، انتبه الى أنه يواجه مرة أخرى المشكلة التى هرب منها مع الصباح الباكر . تساءل وهو يشير باصبعه الى فوق :

ـ لماذا لا تجلس معكما ؟ .. ألا تزال غضبانة ؟

فتبادلت أمينة مع فهمى نظرة ثم تمتمت بارتباك :

ـ ذهبت الى أبيها ..

فرفع حاجبيه دهشة أو انزعاجا ثم سألها :

ـ لماذا تركتها تذهب .. ؟

فقالت أمينة وهى تتنهد :
ـ تسللت دون أن يشعر بها أحد ..
شـعر بأنه يجب أن يقول قولا يرضى كرامته امام أخيه وأمه فقال باستهانة :
ـ الى حيث ..
وقرر فهمى أن يقاوم رغبته فى اللواذ بالصمت كى يوهم أخاه بأنه لم يطلع على سره وبالتالى أن ينفى شبهة اذاعته هذا السر عن أمه فسأله ببساطة :
ـ ما الذى دعى الى هذا النكد .. ؟!
فحدجه ياسين بنظـرة متفحصة ثم لوح بيده الغليظة وهو يمط بوزه كأنما يقول له « ليس ثمة ما يدعو الى النكد » ثم قال :
ـ بنات اليوم لم تعد بهن طاقة على حسن المعاشرة .
ثم ناظرا الى ست أمينة :
ـ أين هن ستات الأمس .. !؟
نكست أمينة رأسـها حياء فى الظاهر ، وفى الحق لتـدارى ابتسامة لم تستطع مغالبتها حينما ربط ذهنها بين الصورة التى يتخذها ياسين الآن ، صورة المتأمل الواعظ المجنىعليه ، والصورة التى ضبط بها مساء أمس فوق السطح ، على أن انزعاج ياسين كان أعظم بكثير من القدر الذى سمح له الموقف بأن يتظاهر به ، فانه على فداحة الخيبة التى منى بها فى حياته الزوجية لم يفكر لحظة فى قطع هذه الحياة ، وجد فيها ملاذا ومستقرا ورعاية الى ما يشرت به من أبوة وشيكة رحب بها أيما ترحيب ، تمنى دائما أن تبقى وراء ظهره ليعود اليها من شتى جولاته كما يعود الرحالة فى نهاية العام الى وطنـه ، ولم يغب عنه ما سيجره عليه ذهاب زوجته من نزاع جديد بينه وبين أبيه ثم بينه وبين السيد عفت ، الى ما يلابس هذا كله من فضيحة سـتفوح رائحتها حتى تزكم الأنوف .. بنت الكلب !.. لشد ما كان مصمما على أن يستدرجها

الى الاعتراف بأنها أخطأت خطأ أكبر من خطئه ، بل لعله اقتنع بذلك لدرجة تقرب من اليقين ، فأقسم ليحملنها على الاعتـذار وليأخذن نفسـه بتأديبها بمختلف الوسائل ، ولكنها ذهبت .. قلبت خططه رأسا على عقب .. وضعته فى مأزق غير يسير . بنت الكلب !.. وانتزع من تيار أفكاره على صوت صراخ يمزق الصمت المحيط بالبيت فالتفت صـوب فهمى وأمه فوجدهما يرهفان السمع باهتمام وقلق ، وتواصل الصراخ فأدركوا بسهولة أنه صادر عن امرأة ، ولكن تساءلت أعينهم عن الناحية التى يترامى منها وعن سببه : أنعى ميت أم عراك أم استغاثة ، وراحت أمينة تستعيذ بالله من الشرور جميعا حتى قال فهمى :

ــ انه قريب .. لعله فى طريق بيتنا ..

ونهض فجأة مقطبا جبينه وهو يتساءل :

ــ ألا يكون الانجليز قد هاجموا امرأة مارة بالطريق .. ؟

وهرع الى المشربية والآخران فى أثره ، بيد أن الصراخ انقطع غير تارك وراءه دليلا على الناحية التى ترامى منها ، فرمى ثلاثتهم بأنظارهم خلال الخصاص يتفحصون الطريق فاستقرت على امرأة لفتت الأنظار بوقفتها الغريبة وسط الطريق وبمن أحاط بها من المـارة وأصـحاب الحـوانيت ، على أنهم عرفـوها لأول وهلة وهتفوا معا :

ــ أم حنفى ...

وتساءلت أمينة التى كانت أرسلتها لتعود بكمال من المدرسة :

ــ مالى لا أرى كمال معها ؟!. وماذا يوقفها هكذا كالجماد .. !

ــ كمال .. رباه .. أين كمال .. ؟

ثم مدفوعة بشعور غريزى ؟!

ــ هى التى كانت تصرخ .. عرفت الآن صوتها .. أين كمال ؟. أغيثونى ...

لم ينبس فهمى ولا ياسين بكلمة ، استغرقهما تفحص الطريق

عامة والمعسكر الانجليزى خاصـــة حيث رأوا أنظار المتجمـعين ــ وفى مقدمتهم أم حنفى ــ تتجه ، لم يكن ثمةشك لديهما فى أن أم حنفى هى التى صرخت حتى جمعت الناس حولها ، بل شعرا بالبداهة بأنها كانت تســتغيث لأن ثمة خطرا تهـدد كمال ، ثم تركزت مخـاوفها فى الانجليز ، ولكن أى خطـر هو ؟ .. وأين كمال ؟.. ماذا حدث للغلام ؟.. ان الأم لا تكف عن الاستغاثة بدورها وهما لا يدريان كيف يسكنان خاطرها ، لعلهما فى حاجة الى من يسكن خاطرهما .. أين كمال ؟.. ان الجنود ما بين جالس وواقف وماض لطيته ، كل مشغول بشأنه كأن شيئا لم يقع وكأن أحدا من الناس لم يتجمع . وهتف ياسين بغتة وهو يلكز فهمى فى كتفه :

ــ الا ترى هـؤلاء الجنود الواقفين على هيئـة دائرة تحت سبيل بين القصرين ، ان كمال يقف بينهم . انظر ..

فلم تملك الأم أن صرخت قائلة :

ــ كمال بين الجنود .. ها هو يا ربى .. رباه .. أغيثونى .

أربعة جنود عمالقة وقفوا على هيئة دائرة متشابكى الأذرع ، وقد مرت عينا فهمى أكثر من مرة دون أن تعثرا على ضالتهما ، فى هذه المرة لمح كمال واقفا وسـط الدائرة كما لاح من فرجة انشقت عنها ساقا الجندى الذى يوليهم ظهره ، خيل اليه أنهم سيتقاذفونه بأرجلهم كالكرة حتى يقضوا عليه ، أنساه خوفه على أخيه نفسه فاستدار قائلا بنبرات مضطربة :

ــ سأذهب اليه مهما تكن العواقب ..

ولكن يد ياسين قبضت على منكبهوهو يقول بصوت حازم « قف » .. ثم خاطب الأم بصوت هادىء باسم قائلا :

ــ لا تخافى .. لو أنهم أرادوا أن يصيبوه بسوء ما ترددوا .. انظرى اليه ألا يبدو منهمكا فى حديث طويل ؟؟ . ثم ما هذا الشىء الأحمر الذى بيده ؟!. أراهن على أنها قطعة من الشيكولاتة !..

هدئى روعك .. انهم يتسلون به و « متنهداً » شد ما أفزعنا على لا شيء .

سكن روع ياسين ، وما لبث أن تذكر مغامرته السعيدة مع الجندى فلم يستبعد أن يوجد له من زملائه نظائر فى لطفه ورقته ، ثم رأى أن يدعم قوله ويثبته فى فؤاد الأم الملتاع فأشـــار الى أم حنفى التى لم تزل فى موقفها قائلا :

ـ ألا تريان أن أم حنفى لم تكف عن الصراخ الا حين لم تجد داعيا له . ها هم الناس ينفضون من حولها تعلوهم الطمأنينة ..

فغمغمت أمينة بصوت مرتعش :

ـ لن يطمئن قلبى حتى يعود الى ..

وتركزت أعينهم فى الغلام ، أو فيما يلوح منه بين آونة وأخرى ، غير أن الجنود استردوا أذرعهم المتشابكة وضموا سيقانهم المنفرجة كأنما اطمأنوا الى عدول كمال عن التفكير فى الهرب ، فبدا الغلام بكامل هيئته ، بدا باسما يتكلم كما استدلوا عليه من حركة شفتيه واشارات يديه التى استعان بها على الافصـــاح عن أفكاره فدل التفاهم بينه وبينهم على انهم يستطيعون الى حـــد ما استعمال اللغة المصرية ، ولكن ماذا يقول لهم أو ماذا يقولون له ؟.. هذا ما لم يستطع أحد أن يخمنه ، بيد أنهم ثابوا الى رشدهم ، حتى الأم نفسها استطاعت أخيرا أن تشاهد المنظر العجيب الذى يمثل تحت ناظريهـــا بدهشـــة ممزوجة بقلق صـــامت دون عـــويل أو استغاثة ، على حين جعل ياسين يضحك قائلا :

ـ الظاهر اننا غالينا فى التشاؤم حينما ظننا أن احتلال هؤلاء الجنود لحينا سيكون مصدر متاعب لنا لا تنتهى ..

ومع أن فهمى بدا ممتنا لسلوك الجنود مع كمال ، الا أنه لم يرتح الى ملاحظة ياسين فقال دون أن تتحول عيناه عن الغلام :

ـ ربما اختلفت معاملتهم للرجال أو النســـاء عن معاملتهم للأطفال .. لا تغل فى تفاؤلك ..

وكاد ياسين يندفع متحدثا عن مغامرته السعيدة ، ولكنه أدرك لسانه فى اللحظة المناسبة فأمسك تفاديا من اثارة أخيه ، ثم قال على سبيل الملاطفة والتودد :

ــ ربنا يخلصنا منهم على خير ..

وتساءلت أمينة فى لهفة :

ــ ألم يئن لهم أن يدعوه مشكورين .. ؟

ولكن بدا عن دائرة كمال أن ثمة جديدا ينتظر ، فقد تراجع أحد الجنود الأربعة الى خيمة قريبة ثم عاد بعد قليل بكرسى خشبى فوضعه أمام كمال ، وما لبث الغلام أن وثب الى الكرسى فوقف منتصب القامة مشدود الذراعين الى أسفل ، كأنما ينتظمه طابور القسم المخصوص ، وقد انحدر طربوشه الى قذاله ــ دون شعور منه فى الغالب ــ كاشفا عن مقدم رأسه الكبير البارز .. ما خطبه ؟ .. ماذا وراء هذه الوقفة ؟ .. لم يطل بأحد التساؤل اذ سرعان ما علا صوته الرفيع وهو ينشد :

يا عــــزيز عينى بدى اروح بــــلدى
يا عــــزيز عينى السلطة خدت ولدى

غناها مقطعا مقطعا بصــوته اللطيف والجنود يتطلعون اليــه فاغرى الأفواه ضاحكى الأسارير تلاحق أكفهم ترديده بالتصفيق ، وكان أحدهم قد تأثر بما أدركه من بعض معانى الأغنية فراح يهتف « أروحبلدى .. أروح بلدى » .. فتشجع كمال بما حظى من سرور سامعيه وأقبل يجود من انشاده ويحسن من ترنمه ويعلى من صوته ، حتى ختمت الأغنية بين التصفيق والاستحسان الذى شاركت فيــه الأسرة من وراء الخصــاص بقلوب ملؤها السرور والاشفاق . أجل شاركت الأسرة فى الاستحسان بعد أن شاركت ــ بقلوبها أيضا ــ فى الغناء ، تتبعوه باشــفاق وقلق ، دعــوا له بالسلامة والاجادة ، خافوا عليه الزلل أو النشاز كأنما يغنى بالانابة عنهم جميعا ، أو كأنما هم الذين يغنون من حنجرته ، وكأن كرامتهم

ـ أفراداً ومجموعة ـ أمست متعلقة بنجاح الغناء ، نسيت أمينة في لجة هذا الشعور مخاوفها ، حتى فهمي لم يكن يفكر في أثناء ذلك الا في الغناء وما يرجو له من نجاح ، فلما انتهى بخير تنهدوا من الأعماق وودوا أن يبادر كمال الى العودة قبل أن يطرأ طارىء يفسد عليهم مسك هذا الختام . والظاهر أن الحفلة آذنت بانتهاء فقد قفز كمال الى الأرض فسلم على الجنود فردا فردا ورفع يده محييا ثم انطلق يعدو صوب البيت ، فهرولت الأسرة من المشربية الى الصالة لتكون في استقباله . أقبل عليها لاهثا مورد الوجه مبتل الجبين تنطق عيناه وأساريره وحركات أعضائه المرسلة بلا اتزان أو غاية بالفرح والفوز ، أترع قلبه الصغير بسعادة غامرة ما كان بوسعه الا أن يعلن عنها بكل سبيل ويدعو الآخرين الى الاشتراك فيها ، كالفيضان الزاخر يضيق عنه النهر فيغمر الحقول والوديان ، وكانت نظرة واحدة تلقى بروية كافية لأن تريه مغامرته معكوسة على صفحات الوجوه .. ولكن الفرح أعماه فهتف بهم :

ـ عندي خبر لن تصدقوه ولن تتصوروه ..

فقهقه ياسين متسائلا في سخرية :

ـ أي خبر يا عزيز عيني ؟!

كشفت هذه الجملة الغشاوة عن عينيه كأنها نور شعشع فجأة في الظلام فرأى الوجوه على ضوئها مفصحة ناطقة ، بيد أن علمه برؤيتهم لمغامرته عوضه عما ضاع من فرصة ادهاشهم بحديثه العجيب فأغرق في الضحك وهو يضرب ركبتيه بكفيه ، ثم قال وهو يغالب الضحك :

ـ أرأيتموني حقا .. ؟!

عند ذاك جاء صوت أم حنفي وهي تقول بنبرات متشكية :

ـ كان الأفضل أن يروا تعاستي !.. علام هذا الفرح كله بعد أن سيبت مفاصلي ؟.. حادثة أخرى كهذه والله يرحمني ..

لم تكن خلعت ملاءتها فبدت كزكيبة فحم منتفخة ، يعلو

وجهها الشحوب والاعياء وتلوح فيعينيها نظرة استسلام غريبة..
فساءلتها أمينة :
ــ ماذا حدث ؟.. ماذا دعاك الى الصراخ ؟.. لقد لطف الله بنا فلم نشهد شيئا مفزعا ..
فأسندت أم حنفى ظهرها الى ضلفة الباب وأخذت تقول :
ــ حدث ما لن أنساه يا ستى .. كنا عائدين واذا بشيطان من هؤلاء الجنود يقفز أمامنا ويشير الى سيدى كمال ليذهب اليه ففزع سيدى وجرى الى درب قرمز ، ولكن جنديا آخر اعترض سبيله فانحرف الى بين القصرين وهو يصرخ فغاص قلبى من الخوف وجعلت أستغيث بأعلى صوتى وعيناى لا تفارقانه وهو يجرى من جندى الى جندى حتى احاطوا به .. كدت أموت من شدة الخوف وزاغ بصرى فلم أعد أرى شيئا ، وما أدرى الا والناس قد اجتمعوا حولى ولكنى لم أكف عن الصراخ حتى قال لى عم حسنين الحلاق : « ربنا يكفيه شر اولاد الحرام .. وحدى الله .. انهم يلاطفونه .. » .. آه يا ستى لقد حضرنا سيدنا الحسين ودفع عنا الشر ...
قال كمال معترضا :
ــ لم أصرخ أبدا ..
فضربت أم حنفى صدرها بكفها قائلة :
ــ لقد ثقب صراخك أذنى حتى جننتنى ..
فقال بصوت منخفض كالمعتذر :
ــ ظننتهم يريدون قتلى ، ولكن احدهم جعل يصفر لى ويربت على كتفى ثم أعطانى (وهنا جس جيبه) شيكولاته فذهب عنى الخوف ..
زايل أمينة السرور ، لعله كان سرورا زائفا متعجلا ، الحقيقة التى يجب ألا تغيب عنها هى أن الفزع ركب كمال دقائق ، وأنه يجب أن تدعو ربها طويلا كى ينجيه من عواقبه ، لم تكن ترى فى

الفزع مجرد شعور عابر ، كلا .. انه شعور شاذ تكتنفه هالة خفية غامضة تأوى اليها العفاريت كما تأوى الخفافيش الى الظلام ، فاذا أحاط بشخص ـ خصوصا الصغار ـ مسه بضر سيىء العاقبة ، لذلك فهو يستوجب فى نظرها مزيدا من العناية والحيطة ، تلاوة من القرآن كانت أم بخورا أم حجابا ، قالت بحزن :

ـ أفزعوك !.. قاتلهم الله ..

وقرأ ياسين ما يدور فى خاطرها .. فقال مداعبا :

ـ الشيكولاتة رقية ناجعة للفزع .. (ومخاطبا كمال) .. هل دار الحديث بالعربى ؟

رحب كمال بالسؤال لأنه فتح له مرة أخرى أبواب الخيال والمغامرة ، منتشلا اياه من مضايقات الواقع ، فقال وقد استعادت أساريره انبساطها :

ـ كلمونى بعربى غريب !.. ليتك سمعته بنفسك ..

وراح يحاكى طريقتهم فى الكلام حتى ضحك الجميع ، حتى أمه ابتسمت .. فعاد ياسين يسأله وكان يغبطه :

ـ ماذا قالوا لك ؟

ـ كلاما كثيرا !.. ما اسمك ، أين بيتك ، أتحب الانجليز ؟!

فهمى ساخرا :

ـ وبم أجبتهم على هذا السؤال الفريد ؟!

فرمق أخاه كالمتردد .. ولكن ياسين أجاب عنه قائلا :

ـ طبعا قال انه يحبهم .. ماذا كنت تريد أن يقول .. ؟

على أن كمال استطرد يقول متحمسا :

ـ ولكنى قلت لهم أيضا أن يعيدوا سعد باشا ..

فلم يتمالك فهمى أن ضحك عاليا .. وسأله :

ـ حقا !.. وماذا قالوا لك ؟

فقال كمال مستردا ارتياحه بضحك أخيه :

ـ امسك أحدهم بأذنى وقال لى « سعد باشا نو .. »

فعاد ياسين يتساءل :
ـ وماذا قالوا لك أيضا ؟
فقال كمال ببراءة :
ـ سألونى .. ألا يوجد بنات فى بيتنا ..؟
فتبودلت نظرة جدية بينهم لأول مرة منذ قدم كمال ، ثم سأله فهمى باهتمام :
ـ وماذا قلت لهم ؟
ـ قلت لهم ان ابله عائشة وابله خديجة تزوجتا ، ولكنهم لم يفهموا كلامى فقلت ليس فى البيت الا نينة ، فسألونى عن معنى نينة فقلت !..
رمى فهمى اخاه ياسين بنظرة كانمايقول : « أرأيت كيف أن سوء ظنى كان فى محله ! » .. ثم قال ساخرا :
ـ لم يعطوه الشيكولاتة لوجه الله ..
فابتسم ياسين ابتسامة باهتة وغمغم قائلا :
ـ ليس ثمة ما يدعو الى القلق ..
وأبى أن يترك هذه السحابة تغشى مجلسهم فسأل كمال :
ـ وكيف دعوك الى الغناء ؟
فقال كمال ضاحكا :
ـ فى أثناء الحديث انطلق احدهم يغنى بصوت منخفض ، فاستأذنتهم فى أن أسمعهم صوتى .. !
فقهقه ياسين قائلا :
ـ يالك من فتى جرىء !.. الم يعاودك الخوف وأنت بين ارجلهم ؟..
فقال كمال فى مباهاة :
ـ أبدا .. (ثم بتأثر) .. ما أجملهم !.. لم ار أجمل منهم من قبل .. عيون زرق .. وشعر من ذهب .. وبشرة ناصعة البياض .. كأنهم أبله عائشة !

وجرى فجأة الى حجرة المذاكرة ورفع رأسه الى صورة لسعد زغلول ثبتت فى الجدار الى جانب صور الخديو ومصطفى كامل ومحمد فريد .. ثم عاد وهو يقول :

ـ انهم أجمل من سعد باشا كثيرا ..

فهز فهمى رأسه كالآسف وقال :

ـ يالك من خائن !.. اشتروك بقطعة من الشيكولاتة .. لست صغيرا ليغفر لك هذا القول ، من مدرستك من يستشهد كل يوم ، خيبة الله عليك ..

وكانت أم حنفى قد أحضرت الموقد والكنجة والفناجين وعلبة البن .. وأخذت أمينة تهيىء القهوة للجلسة التقليدية ، عاد كل شىء الى أصله الا ياسين فقد عاود التفكير فى زوجه الغاضبة ، على حين انتحى كمال جانبا وأخرج الشيكولاتة من جيبه وراح ينزع عنها الغلاف المورد اللامع ، بدا أن تعنيف فهمى ضاع فى الهواء اذ لم يكن فى قلبه وقتذاك الا الرضى والحب ..

ــ ٦٠ ــ

تعقدت مشكلة ياسين الزوجية فبلغت درجة من الخطورة لم يتوقعها أحد . ما يدرى السيد أحمد الا ومحمد عفت قادم عليه فى الدكان فى اليوم التالى لالتجاء زينب الى بيته . ثم قال قبل أن يسترد يده التى شد عليها السيد بالسلام :

ـ ياسيد أحمد .. جئتك برجاء ، يجب أن تطلق زينب اليوم قبل الغد ان أمكن ..

بهت السيد . أجل قد ساءه سلوك ياسين أكبر اساءة ، ولكنه لم يتصور أن يبعث رجلا فاضلا كالسيد محمد عفت الى المطالبة

بالطلاق ، لم يتصور أن تدعو هذه « الهفوات » الى الطلاق مطلقا ، بل لم يجر له على بال ان تجىء المطالبة بالطلاق من ناحية الزوجة أبدا ، فخيل اليه أن الدنيا انقلبت رأسا على عقب ، وأبى أن يصدق أن محدثه جاد فى طلبه فقال بلهجته اللطيفه التى طالما استأسرت قلوب أصدقائه :

ليت الاخوان كانوا معنا ليشهدوا عليك وانت تقذفنى بهذه اللهجة القاسية !.. اصغ الى .. باسم صداقتنا أمنعك من أن تجرى للطلاق ذكرا على لسانك ..

ثم تفرس فى وجهه ليسبر أثر كلامه فيه ، ولكنه وجده متجهما كالحا ينذر بالشر والتصميم ، فبدا يستشعر الخطورة والتشاؤم .. ودعاه الى الجلوس فجلس وما تزداد صورته الا ظلاما ، وانه يعرفه حق المعرفة ، عنيد شديد المراس اذا ركبه الغضب كفر بالمودة والمجاملة فتمزقت على سنان حدته أسباب القربى والعطف جميعا ، قال السيد :

ـ وحد الله .. ولنتحدث فى هدوء ..

فقال محمد عفت وكأنه يقبس لهجته من نار الغضب الذى توهج به خداه :

ـ صداقتنا فى حرز ، فلندعها جانبا .. ابنك ياسين لايعاشر ، تحققت من هذا بعد أن عرفت كل شىء ، كم تصبرت المسكينة !.. حضنت همومها طويلا ، أخفت عنى كل شىء ، ثم بثتها جملة حين تصدع صدرها .. يسهر طول الليل ويعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكران ، أهانها ولفظها ، ثم ماذا كانت عقبى صبرها الطويل ؟!.. ان تضبطه فى بيتها مع خادمتها ! (ويبصق على الأرض) .. جارية سوداء !.. بنتى لم تخلق لهذا ، كلا ورب السموات ، أنت أعرف الناس بمنزلتها عندى ، كلا .. ورب السموات ، لا كنت محمد عفت اذا سكت على هذا ..

قصة معادة ، ولكن ثمة جديدا صدمه حتى زلزله هو قوله إن ياسين « يعود مع الفجر وهو يتلاطم مع الجدران سكرا » !.. أعرف طريق الحانة أيضا ؟!.. متى ؟.. كيف !.. آه ليس فى الوقت متسع للتفكير أو الانزعاج ،ليخف انفعـاله كله ، الساعة تتطلب هدوءا وضبطا للنفس ، يجب أن يملك الموقف ليتفـادى استفحال الشر .. قال بنبرات أسيفة :

ــ ان ما يحزنك يحزننى أضعافا ، ومن سوء الحظ أن سوأة من السوءات التى حدثتنى عنها لم تتصل لى بعلم أو تجر لى على بال ، اللهم الا الحادثة الأخيرة وقد أدبته عليها تأديبا لا يستبيحه لنفسه أب غيرى ، ما عسى أن أصنع ؟ .. لقد أخذته بالتأديب العنيف منذ كان صبيا ، ولكن وراء ارادتنا دنيا وشياطين تهزأ من تصميمنا وتفسد علينا نوايانا الطيبة ..

قال محمد عفت وهو يتحاشى عينى السيد بالنظر الى المكتب :

ــ لم أجىء لأوجه اليك لوما أو أحملك تقصيرا ، أنت كأب مثال يحتذى ولا يجارى .. ولكن هذا لن يغير من الحقيقة المحزنة ، وهى أن ياسين كان غير ما أردت له أن يكون وانه بحالته الراهنة لا يصلح للحياة الزوجية ..

فقال السيد فى عتاب :

ــ رويدك يا سيد محمد .. !

فقال الرجل مستدركا ولكن مصمما على رأيه :

ــ على أى حال لن يصلح زوجا لابنتى ، سيجد من تقبله على علاته ولكن غيرها ، لم تخلق ابنتى لهـذا .. أنت أدرى الناس بمنزلتها عندى ..

أدنى السيد راسه من رأس الرجل وقال بصوت منخفض .. وكأنما يدارى ابتسامته :

ــ ليس ياسين بين الأزواج بنادرة ، فكم منهم من يسـكر ويعربد ويعمل البدع !

فقطب محمد عفت لينفى عن نفسه شبهة الاستجابة لهذا الكلام الموحى بالدعابة .. وقال بجفاء :

ـ ان كنت تشير الى جماعتنا أو الى أنا خاصة ، فالحق انى أسكر وأعربد وأعشق ، ولكنى .. بل نحن جميعا ، لا نوحل فى القاذورات ! .. جارية سوداء ! .. أهذه التى قضى على ابنتى بأن تتخذها ضرة ؟ ! .. كلا كلا ورب السماوات .. لن تكون له ولن يكون لها ..

أدرك السيد أحمد أن محمد عفت ـ ربما كابنته سواء بسواء ـ مستعد لأن يعفو عن امور كثيرة ، الا ان يخلط ياسين بين كريمته وبين جاريتها السوداء ، انه يعرفه تركيا فى عناد البغل . ثم ورد على ذهنه قول صديقه ابراهيم الفار يوم كاشفه بنيته فى خطبة زينب لابنه ياسين ، فقد قال له : « أصيلة بنت أصيل ، محمد عفت أخونا وحبيبنا ، ابنته ابنتنا ، ولكن هل فكرت رويدا فى منزلة الفتاة من نفس أبيها .. هل فكرت فى ان محمد عفت لا يتسامح من ذرة غبار اذا مست لها ظفرا ؟ ! » .. لكنه رغم هذا كله تعذر عليه أن يقيس الأمور بغير مقياسه ، وكان يفاخر دائما بأن محمد عفت على فظاعة غضبه اذا غضب ، لم يحتد عليه ولو مرة واحدة طوال معاشرتهما المديدة ! .. قال متسائلا :

ـ رويدك ، الا ترى أن مبادئنا واحدة وان اختلفت التفاصيل ؟.. جارية سوداء أو عالمة .. اليست كلتاهما امرأة .؟!

فانتفخت أوداج محمد عفت وضرب حافة المكتب بقبضته .. وانفجر قائلا :

ـ أنت لا تعنى ما تقول !.. الخادمة خادمة والسيدة سيدة ، لماذا لا تعشق الخادمات اذن ؟!. لم يشابه ياسين اباه ، انى آسف لكون ابنتى حبلى ، كم أكره أن يكون لى حفيد تجرى فى دمه القذارة .. !

وخزته الجملة الأخيرة فغضب ، ولكنه استطاع أن يغلق قلبه على غضبه بقوة حلمه الذى يحبو به أصدقاءه وأحبابه ، حلم بين الأصدقاء لا يعادله فى قوته الا غضبه بين آله .. ثم قال بهدوء :

ـ أقترح عليك أن تؤجل الحديث الى وقت آخر ..

فقال محمد عفت محتدا :

ـ أرجو أن تحقق رجائى الساعة .. !

آه .. لقد بلغ به الامتعاض حدا لم يكن الطلاق نفسه معه بالحل المستكره ولكنه كان يشفق على صداقة العمر من ناحية ، وتعز عليه الهزيمة من ناحيـة أخرى ، أليس هو الرجـل الذى يتشفع به الناس ليفض الخصومات وليصل ما انقطع من المودات والزيجات ؟ ! .. فكيف تحل به الهزيمة وهو يدافع عن ابنه فيرضى بحكم الطلاق ؟ ! .. أين حلمه ؟ .. أين كياسته ؟ .. أين لباقته ؟

ـ لقد أصهرت اليك لأوثق أسباب الصداقة بيننا .. كيف أقبل أن أعرضها للوهن .. ؟

فقال الرجل بانكار :

ـ صداقتنا فى حرز ! .. لسنا أطفالا ، ولكن كرامتى لا يمكن أن تمس ..

فقال السيد برقة :

ـ ما عسى أن يقول الناس عن زيجة انقطعت ولما تتم عامها الأول ؟

فقال محمد عفت بعجرفة :

ـ لن يرجع عاقل العيب الى ابنتى ..

آه .. مرة أخرى ! .. ولكنه تلقاها بنفس الحلم ، بدا وكأن استياءه لعجزه عن التوفيق قد غطى استياءه من تهور الرجـل الغاضب فلم يهتم بالرصاص المنطلق عليه اهتمامه بتبرير اخفاقه .. راح يعزى نفسه بأن الطلاق بيده هو وحده ، اذا شاء منحه واذا شـاء منعه ، محمد عفت يعـلم ذلك حق العلم ، لذلك جاء

يستوهبه اياه باسم الصداقة التى لا شفيع له غيرها ، فاذا قال لا فلا راد لكلمته وسترجع الفتاة الى ابنه طوعا أو كرها .. ولكن تمسى الصداقة القديمة فى خبر كان ، اما اذا قال نعم فسيقع الطلاق ولكن تصان الصداقة ويعترف له بالجميل ، وليس من العسير أن يتذرع بكل أولئك فى المستقبل لوصل ما انقطع ، واذن فالطلاق وان يكن هزيمة الا أنه هزيمة مؤقتة تتضمن تسامحا ونبلا غير منكورين وقد تنقلب فوزا بعد حين . وما أن اطمأن الى سلامة موقفه ولو بعض الشيء حتى شعر بالرغبة فى معاتبته على ما فرط منه فى حقه .. فقال بلهجة ذات معنى :

ـ لن يكون طلاق الا بموافقتى .. أليس كذلك ؟ .. بيد اننى لن أنبذ رجاءك ما دمت مصرا عليه ، اكراما لك ، اكراما للصداقة التى لم ترع لها حقا فى مخاطبتى ..

فتنهد محمد عفت .. اما ارتياحا للنهاية المنشودة أو احتجاجا على عتاب صديقه أو للاثنين معا ، ثم قال بلهجة قاطعة خلت من حدة الغضب لأول مرة :

ـ قلت الف مرة ان صداقتنا فى حرز ! .. انك لم تسىء الى قط ، على العكس من ذلك فانك تكرمنى بتحقيق رجائى وان كرهته ..

فردد السيد قوله محزونا :

ـ نعم .. وان كرهته ..

ثار حنقه حالما غاب الرجل عن ناظريه . انفجر الغيظ المكبوت فالتهم نفسه ومحمد عفت وياسين ، ياسين خاصة ، ثم تساءل : ترى هل يمكن أن تبقى الصداقة فى حرز حقا فلا يصيبها رشاش الحوادث المتوقعة ؟ .. آه ، لم يكن ليضن بنفيس فى سبيل صون حياته عن مثل هذه الهزة القاسية .. لكنه العناد التركى ، لكنه الشيطان ، بل لكنه ياسين ، اجل ياسين دون غيره .. قال له بغضب وازدراء :

ـ كدرت صفو ود لم تكن الأيام لتكدره ولو اجتمعت له ..
ثم قال له بعد أن أعاد على مسمعيه حديث محمد عفت :
ـ خيبت أملى فيك فحسبى الله ونعم الوكيل ، ربيتك وأدبتك ورعيتك .. ثم انجلى تعبى كله عن ماذا ؟ .. سكير صعلوك تسول له نفسه الاعتداء على أحقر الخادمات فى بيت الزوجية ، لا حول ولا قوة الا بالله ، ما كنت أتصور أن يخرج من حضانتى ابن على هذه الصورة فالأمر لله من قبل ومن بعد ، ما عسى إن أصنع بك ؟ .. لو كنت قاصرا لكسرت دماغك ، ولكن لتكسرنها الأيام ، ها أنت تنال جزاءك الحق فتتبرأ منك الأسر الكريمة وتبيعك بأبخس الأثمان .. !
لعله وجد نحوه بعض الرثاء ، بيد أن سخطه غلب ثم استحال شعوره كله ازدراء ، لم يعد يملأ عينيه رغم فتوته وجماله وضخامته ، يوحل فى القذارة كما قال محمد عفت قاتله الله ، ويعجز عن كبح جماح امرأة ، ما أصغره ، سرعان ما لحقت به الهزيمة التى لم ينج هو نفسه من هوانها من جراء طيشه . ما أحقره ، ليسكر ويعربد وليعشق تحت شرط أن يظل السيد المطاع ، أما أن ينهزم على تلك الصورة المخزية فما أحقره ، لم يشابه أباه كما قال أيضا محمد عفت قاتله الله ، انى أفعل ما أشاء ولكنى أظل السيد أحمد وكفى ، حكمة رائعة تلك التى ألهمتنى أن أنشىء الأولاد على مثال فريد للاستقامة والطهارة ، فانه لمما يشق أن ينهجوا نهجى ويحظوا فى نفس الوقت بالكرامة والاستقرار ، ولكن واأسفاه ضاع جهدى هباء مع ابن هنية !
ـ وهل وافقت يا أبى .. ؟
تردد صوت ياسين كالحشرجة .. فأجابه بخشونة قائلا :
ـ نعم ، ابقاء على صداقة قديمة ولأنه أوفق حل فى الوقت الحاضر على الأقل .
جعلت يد ياسين تنقبض وتنبسط فى حركة آلية عصبية ،

كأنما كانت تشفط الدم من وجهه حتى انقلب شديد الشحوب ، شعر بهوان لم يشعر بمثله الا فيما كابد من سلوك أمه ، حموه يطالب بالطلاق ! .. أو بمعنى آخر زينب تطالب بالطلاق أو على الأقل توافق عليه ! .. ايهما الرجل وأيتهما المراة ؟!.. ليس عجيبا أن ينبذ الانسان حذاء اما ان ينبذ حذاء صاحبه ! !. كيف رضى أبوه له بهذا الخزى الذى لم يسمع بمثله من قبل ؟ ! .. حدج اباه بنظرة حادة وان عكست ما يعتلج فى صدره من انات الاستغاثة ، ثم قال بلهجة حرص الحرص كله على أن ينقيها من اى اثر للاحتجاج أو الاعتراض ، كأنما يريد بها أن يذكره بما عسى أن يكون أنسب :

ـ ثمة طريقة لمعالجة الزوج الناشز ..

شعر السيد بشعور ابنه فادركه التأثر ، ولذلك لم يبخل عليه ببعض ما يدور فى نفسه .. فقال له :

ـ اعلم ذلك .. ولكنى اخترت أن نكون من الكرماء ، محمد عفت عقل تركى حجرى ولكن قلبه من ذهب ، هذه الخطوة ليست الأخيرة ، ليست النهاية ، لم اغفل مصلحتك وان كنت لا تستأهل خيرا ، دعنى أتصرف كما اشاء ..

كما تشاء !.. منذا يرد لك مشيئة ؟!. تزوجنى وتطلقنى .. تحيينى وتميتنى ، لست هنا ، خديجة عائشة فهمى ياسين .. الكل واحد ، الكل لا شىء ، أنت كل شىء .. كلا .. لكل شىء حد ، لم اعد طفلا ، رجلا مثلك سواء بسواء ، انا الذى اقرر مصيرى ، أطلق أو اودعها بيت الطاعة ، تراب حذائى بمحمد عفت وزينب وصداقتكما ..

ـ مالك لا تتكلم ؟ ..

فقال دون تردد :

ـ أمرك يا أبى ...

أى عيشة وأى بيت وأى اب ، زجر وتأديب ونصائح ، ازجر

نفسك .. أدب نفسك .. انصح نفسك ، انسيت زبيدة ؟ .. وجليلة ؟.. والغناء والشراب ؟.. ثم تطالعنا بعمامة شيخ الاسلام وسيف أمير المؤمنين ، لم أعد طفلا ، أعتن بالقصر ودعنى وشأنى ، تزوج .. أمرك يافندم . طلق .. أمرك يافندم .. ملعون أبوك ..

— ٦١ —

خفت حدة المظاهرات شيئا ما فى حى الحسين بعد احتلال الجنود الانجليز له فأمكن للسيد أحمد أن يستأنف ممارسة عادة قديمة انقطع عنها مضطرا الى حين ، أمكنه أن يصطحب أبناءه الى مسجد الحسين لتأدية صلاة الجمعة .. عادة قديمة دأب عليها منذ عهد بعيد .. كان يدعو ابنه اليها حالما يبلغ صباه ليوجه قلبه الى العبادة مبكرا ، مستوهبا من ورائها البركة لنفسه ولأبنائه وللأسرة جميعا . ربما كانت أمينة وحدها التى لا ترتاح الى تحرك القافلة فى نهاية كل أسبوع حاملة رجالها ، ثلاثة رجال كالجمال طولا وعرضا الى فتوتهم واشراقهم ، كانت تتبعهم ناظريها من خصاص المشربية فيخيل اليها أنهم ملتقى الأنظار فتجزع وتدعو الله أن يقيهم شر العين ، وما ملكت يوما أن أفضت بمخاوفها الى السيد فبدا وكأنه تأثر لتحذيرها حينا ، بيد أنه لم يستسلم للتخوف طويلا وقال لها : « ان بركة الفريضة التى نذهب لتأديتها حقيقة بأن تحفظنا من كل شر » .

وكان فهمى يلبى دعوة الجمعة ببشاشة قلب أولع بتأدية الفرائض منذ الصغر ، مطيعا فى ذلك — قبل ارادة أبيه — عاطفة دينية صادقة ، تمتاز الى صدقها بقدر من الاستنارة لا بأس به ، استمده مما اطلع عليه من آراء محمد عبده وتلاميذه .. لذلك

كان الوحيـد فى الأسرة الذى يقف من ايمانها بالتعاويذ والرقى والأحجبة وكرامات الأولياء موقف المتشكك ، وان ابت عليه دماثة خلقه أن يجهر بتشككه أو يعلن استهانته ، بل كان يتقبل حجاب الشـيخ متولى عبد الصمد الذى يجىء به أبوه بين حين وآخر برضى ظاهرى . أما ياسين فكان يلبى دعوة أبيه لأنه لم يكن من تلبيتها بد ، لعله لو ترك لشـأنه ما فكر يوما فى أن يدس جسمه الضخم فى زحمة المصلين ، لا عن تزعزع فى العقيدة ، ولكن استهانة وتكاسـلا .. لذا كان ليوم الجمعـة عنده هم يكابده مع مطلع الصباح ، فاذا حان وقت الذهاب الى الجامع ارتدى بدلته فى شىء من التذمر ، ثم يسير وراء أبيه كالأسير ، ولكن كلما اقترب من الجامع خطـوة تخفف من تذمره رويدا ، حتى يدخـل الجامع منشرح الصدر فيؤدى الصلاة ويدعو الله ان يغفـر له ويعفو عن ذنوبه ، دون أن يسأله التوبة كأنما يشفق فى أعماقه أن يستجاب دعاؤه فينقلب زاهدا فى اللذات التى يحبها حبا لا يرى للحيـاة بدونه معنى . كان يعلم علم اليقين أن التوبة واجبة ، وأن مغفرة لن تـكتب له بدونهـا ، ولـكنه كان يرجـو أن تجىء فى الوقت « المناسب » حتى لا يخسر الدارين ، ولذا كان على تكاسله وتذمره يحمد فى النهـاية الظروف التى تدفعه الى تأدية فريضـة هامة كفريضة الجمعة يمكن ــ عنـد الحساب ــ أن تمحو بعضـا من سيئاته وتخفف من أوزاره ، خصوصا وانه لا يكاد يؤدى غيرها فريضـة ..

أما كمال فلم توجه اليه الدعوة الا حديثا . مذ جاوز العاشرة ، فنهض الى تلبيتها فى زهو وخيلاء وفرح ، شـعر شعورا غامضا بأنها تتضمن اعترافا بشخصه ، وانها تمنحه مساواة من نوع ما مع فهمى وياسين وأبيه نفسه ، ثم سره على وجه الخصوص ان يسير فى ركاب أبيه آمنا اى دون أن يتوقع من ناحيته شرا ، وان يقف فى الجامع الى جانبه على قدم المساواة مؤتمين جميعا بامام

واحد ، بيد انه كان يستغرق فى صلاته اليومية ــ فى البيت ــ استغراقا لا يظفر بمثله فى صلاة الجمعة بالنظر الى ما يعتريه من ارتباك لقيامه وسط خلق لا يحيط بهم حصر ، ولاشفاقه من أن تند عنه هفوة فتلتقطها احدى حواس أبيه ، الى أن شدة شعوره بالحسين ــ الذى يحبه أكثر من نفسه ــ وهو فى مسجده كانت تحول بينه وبين التوجه الخالص لله كما ينبغى للمصلى ..

هكذا رآهم طريق النحاسين مرة أخرى وهو يحتثون الخطى الى بيت القاضى ، السيد فى المقدمة وياسين وفهمى وكمال وراءه صفا ، حتى اتخذوا مجالسهم فى الجامع وراحوا ينصتون الى خطبة الجمعة بين رءوس مشرئبة الى المنبر فى صمت شامل . لم يكن السيد على شدة انصاته يكف عن الدعاء الباطنى ، وتوجه قلبه الى ياسين خاصة ، كأنما رآه بعد ما لحق به من عثار الحظ أحق بالرحمة ، فدعا الله طويلا أن يصلح من شأنه ويقوم ما اعوج من أمره ويعوضه عما فقد خيرا .. على أن الخطبة جبهته بمعاصيه ، أخلت ما بينه وبينها فطالعها وجها لوجه فى هالة مرعدة من صوت الواعظ الجهورى الرنان النافذ حتى خيل اليه أنه يعنيه بالذات ، وأنه يشد على أذنه صارخا فيها بأعلى صوته ، وانه لا يستبعد أن يخاطبه باسمه قائلا : « يا أحمد ازدجر .. تطهر من الفسق والخمر وتب الى الله ربك » فألم به قلق وضيق كما ألما به يوم ناقشه الشيخ متولى عبد الصمد الحساب ، وهو ما يقع له كثيرا عند سماع الخطبة فيسترسل فى طلب الغفران والعفو والرحمة ، ولكنه ــ كابنه ياسين ــ لم يكن يطلب التوبة وان طلبها فبلسانه دون قلبه ، يقول بلسانه « اللهم التوبة » على حين يقتصر قلبه على طلب الغفران والعفو والرحمة كأنهما آلتان موسيقيتان تعزفان معا فى أوركسترا واحد فتصدر عنهما نغمتان مختلفتان ، لأنه لم يتصور أن يرى الحياة بغير العين التى يراها بها ولا أن تبدو له بغير الوجه الذى تبدو به ؛ فاذا ألح عليه القلق

والضيق المستوليان عليه نهض للدفاع عن نفسه .. ولكنه يلقى دفاعه فى صـــورة دعاء واستغفار فيقول « اللهم انك أعلم بقلبى وايمانى وحبى ، اللهم زدنى استمساكا بتأدية فرائضك وقدرة على صنع الخير ، اللهم ان الحسنة بعشر امثالها ، اللهم انك أنت الغفور الرحيم » .. وبهذا الدعاء تعاوده الطمأنينة رويدا .

لم تكن لياسين مثل هذه المقدرة على التوفيق أو أنه لم يشعر قط بحاجة اليها ، لم تكن موضع تفكيره يوما ، يهيم بالحياة كما يشتهى ويؤمن بالله كما يؤمن بوجوده هو ، ثم يستسلم للتيـــار دون مقاومة أو ممانعـــة . قرعت أذنيه كلمات الواعظ فتحرك صوته الباطنى سائلا الرحمة والمغفرة بطريقة آلية وفى طمأنينة شاملة دون أن يستشعر خطورة حقيقية ، ان الله ارحم من أن يحرق مسلما مثله بهفوات عابرة لا تؤذى احدا من عبـــاده ، ثم هنالك التوبة ! .. ستأتى « يوما » فتمحو ما قبلها ، واســـترق نظرة الى أبيه وتساءل وهو يعض على شفتيه كأنما يكتم ضحكة نافرة مما عسى أن يدور بخاطره وهو ينصت بهذا الاهتمام البادى الى الخطبة ؟ .. أهو يعانى العذاب كل صلاة جمعة أم تراه ينافق ويخادع ؟ .. كلا .. لا هذا ولا ذاك .. انه مثله ــ ياســين ــ يؤمن برحمة الله الواسعة ، لو أن الأمر بالخطورة التى يصفه بها الواعظ لاختار أبوه احدى السبيلين ، استرق اليه نظرة اخرى فرآه كالجواد الكريم الجميــل بين القاعدين المتطلعين الى المنبر ، شعر نحوه باعجاب وحب خالصين ، ولم يعد للحنق أثر فى نفسه ، ومع أن الغضب بلغ به مداه يوم الطلاق ، حتى بث همه الى فهمى قائلا : « لقد خرب أبوك بيتى وجعلنى اضحوكة بين الناس » الا أنه تناسى الآن حنقه كما تناسى الطلاق والفضـــيحة وكل شىء ، ثم هذا الواعظ نفسه ليس خيرا من أبيه .. بل هو على وجه اليقين أمعن فى الضلال ، حدثه عنه مرة أحد الأصحاب فى قهوة احمـــد عبده فقال : « انه يؤمن بشيئين .. بالله فى السماء وبالغلمان فى

الأرض ، انه من طراز حساس ترف عينه وهو فى الحسين اذا تأوه غلام فى القلعة » ، بيد انه لم يحقد عليه لذاك ، وعلى العكس وجد فيه كما وجد فى أبيــه ما يجد الجندى فى الخنادق المحفورة فى الخطوط الأمامية التى على العدو أن يقتحمها قبل أن يصل اليه .

ثم دعا الداعى الى الصلاة فقام الرجال قومة واحدة ، وقفوا صفوفا متراصة ملأت صحن الجامع الكبير ، صار المسجد أجسادا ونفوسا ذكر كمال احتشــادها مشــهد المحمل فى النحاســين ، واتصلت الأزياء فى خطوط طويلة متوازية وحدتها البدل والجبب والجلابيب ، ثم انقلب الجمع جسـما واحدا تصــدر عنه حركة واحدة مستشرفا قبلة واحدة ، وترددت التلاوات الهامســة فى همهمة شاملة حتى أذن بالسلام .. عند ذاك انتثر سلك النظام ، استردت الحرية انفاسها ، نهض كل لوجهته ، منهم من قصد الضريح للزيارة ومنهم من اتجــه نحو الأبواب للخـروج ومنهم من تلبث للحديث أو تريث حتى يخف الزحام .. فاختلطت تياراتهم أيما اختلاط كالموجة الكبيرة تندفع نحو الشاطىء وهى آخذة فى النمو والعلو والتكتل ، ثم تهوى كالشلال فتتفجر وتنساب فى شــتى الجهات على هيئــة موجات صغيرة تمتزج وتفترق وتنتشر أيمــا انتشار ، أزفت الســاعة السعيدة التى منى كمال نفسه بها .. ساعة الزيارة ولثم الجدران وقراءة الفاتحة اصالة عن نفسه وانابة عن أمه كما وعدها ، بدأ يتحرك ببطء فى ركاب أبيه .. وما يدرى الا وشاب أزهرى يبرز من الزحمــة فجأة فيعترض سبيلهم فى حركة عنيفة لافتة للأنظار ، ثم بسط ذراعية لينحى الناس جانبا ومضى يتقهقر امامهم وهو يتفحص ياسين بنظرات ثاقبة مريبة وقد عبس وجهه وتطايرت نذر الغضــب من صفحته المكفهرة . عجب السيد له فجعل يردد بصره بينه وبين ياسين ، على حين بدا ياسين أشد عجبا فراح بدوره يردد بصره بينه وبين أبيه متسائلا ، ثم انتبه أناس الى المشهد فركزوا فيه أنظارهم مترقبين فى دهشة

واستطلاع ، وعند ذاك لم يتمالك السيد أن خاطبه متســائلا فى استياء :

ــ مالك يا أخى تنظر الينا هكذا ؟ . .

فأشار الأزهرى الى ياسين وصاح بصوت كالرعد :

ــ جاسوس ! . .

نفذت الكلمة الى صدر الأسرة كالرصاصة فدار راسهاوحلقت أعينها وجمدت فى أماكنها ، على حين جرت التهمة على الألســن فرددتها فى فزع وحنق وأخذ الناس يتجمعون حولهم وأذرعهم تشتبك فى حذر لحصرهم فى دائرة مالها من منفذ ، وكان السيد أول من ثاب الى وعيه ، ومع انه لم يفهم شيئا مما يدور حوله . . الا أنه أدرك خطورة الصمت والانكماش فهتف بالشاب غاضبا :

ــ ماذا تقول يا سيدنا الشيخ ؟ . . أى جاسوس تعنى ؟

ولكن الشاب لم يأبه للسـيد ، فأشار مرة أخرى الى ياسين وصــاح :

ــ حذار أيها الناس ، هذا الشاب الخائن جاسوس منجواسيس الانجليز اندس بينكم ليتسقط الأنباء ثم ينقلها الىسادته المجرمين .

ركب الغضب السيد فتقدم من الشاب خطوة وصاح به غير متمالك نفسـه :

ــ أنت تهرف بما لا تعرف ، فاما أن تكون مجرما أو مجنونا . هذا الشاب ابنى لا خائن ولا جاسوس ، كلنا وطنيون وهذا الحى يعرفنا كما نعرف أنفسنا . .

فهز الشيخ منكبيه استهانة وصاح بصوته الخطابى :

ــ جاسوس انجليزى حقير ، رأيته بعينى راسى مرارا وهو يناجى الانجليز عند بين القصرين ، عندى شـهود على ذلك ، لن يجرؤ على تكذيبى . انى أتحداه . . ليسقط الخائن . .

وتجاوبت فى أركان الجامع دمدمة غاضبة ، تعالى الهتاف هنا وهناك « ليسقط الجاسوس ». . وصاح غيرهم « فليؤدب الخائن »

.. ولاحت فى أعين القريبين نذر الوعيد تترصد بادرة أو اشارة كى تنقض على الفريسة ، لعله لم يؤخر اقدامها الا منظر السيد المؤثر الذى وقف لصق ابنه كأنما يتلقى عنه ما يتهدده من أذى ، ودموع كمال الذى اغرق فى الانتحاب . أما ياسين فقد وقف بين السيد وفهمى فاقد الوعى من الاضطراب والوجل ، وجعل يقول بصوت متهدج لم يكد يسمعه أحد :

ــ لست جاسوسا ... لست جاسوسا ... الله على صدق قولى شهيد .

ولكن الغضب بلغ بالناس مداه ، فتجمهروا حول الدائرة المحصورة وهم يتدافعون بالمناكب ويتوعدون « الجاسوس » شرا ، على أن صوتا من وسط الزحام ارتفع هاتفا :

ــ تمهلوا يا سادة .. هذا ياسين افندى كاتب مدرسة النحاسين ..

فانطلقت أصوات كالهدير :

ــ مدرسة النحاسين أو الحدادين فليؤدب الخائن ..

وكان رجل يشق طريقه بين الأجسام بصعوبة ولكن بعزم لا يقهر .. فما بلغ الصف الأمامى حتى رفع يديه وهو يزعق : « اسمعوا .. اسمعوا » .. ولما هدأت الأصوات قليلا قال وهو يومىء الى السيد أحمد :

ــ هذا السيد أحمد عبد الجواد من أهل النحاسين المعروفين ... ولا يمكن أن يضم بيته جاسوسا ، فتريثوا حتى تنجلى الحقيقة ..

ولكن الأزهرى صرخ حانقا :

ــ لا شأن لى بالسيد أحمد أو السيد محمد ، هذا الشاب جاسوس مهما يكن من أمر أبيه ، رأيته يضاحك الجلادين الذين زحموا القبور بأبنائكم ...

وما عتم أن صاح أناس لا حصر لهم :

ـ ليضرب بالأحذية ..

وسرت فى المتجمهرين حركة عنيفة ، فأقبل متحمسون من كل صوب ملوحين بالأحذية والمراكيب حتى شعر ياسين بالانهيار واليأس . دارت عيناه فيما حوله فلم تقعا الا على وجه متحرش يفور بالغضب والبغضاء ، والتصق السيد وفهمى بجانبى ياسين بحركة غريزية كأنما ليدفعا عنه الأذى أو ليقاسماه اياه ، وهما على حال من اليأس والقهر لم تكن دون ما يأخذ بخناقه ، على حين انقلب انتحاب كمال صراخا كاد يغطى على أصوات الثائرين . كان الأزهرى أول المهاجمين فرمى بنفسه على ياسين قابضا على بنيقة قميصه ثم جذبه بعنف لينتزعه من المأوى الذى لاذ به بين أبيه وأخيه حتى لا تخطئه الأحذية ، ولكن ياسين قبض على معصميه مقاوما ودخل السيد بينهما ، ورأى فهمى أباه فى الموقف المثير لأول مرة فى حياته .. فاستفزه غضب شديد أذهله عما يحدق بهم من خطر ، فدفع الأزهرى فى صدره دفعة قوية ردته الى الوراء فصاح به متوعدا :

ـ حذار أن تتقدم خطوة واحدة !

فصرخ الأزهرى وقد جن جنونه :

ـ أدبوهم جميعا ...

عند ذاك علا صوت قوى يقول بلهجة آمرة :

ـ انتظر يا سيدنا الشيخ .. انتظروا جميعا ..

فاتجهت الأنظار الى الصوت ، فاذا بأفندى شاب يبرز من بين الجموع الى الدائرة المحصورة يتبعه ثلاثة فى مثل سنه وزيه ، تقدموا فى خطوات ثابتة توحى بالثقة والعزم حتى وقفوا بين الشيخ وبين المتهم وذويه ، تهامس كثيرون متسائلين « بوليس؟ بوليس! » بيد أن التساؤل انقطع حينما مد الأزهرى يده الى يد قائد الجماعة القادمة وشد عليها بحرارة . ثم سأل الأفندى الأزهرى بنبرات حاسمة :

ــ اين هذا الجاسوس ؟ ..

فأشار الشيخ الى ياسين بازدراء وتقزز ، فالتفت الشاب اليه وثبت عليه عينيه متفحصا اياه بدقة وقسوة ، وقبل أن ينبس بكلمة تقدم فهمى خطوة الى الأمام كأنما ليسترعى انتباهه فلمحه الآخر .. وسرعان ما اتسعت عيناه دهشة وانكارا فغمغم قائلا :

ــ أنت ...

فابتسم ابتسامة شاحبة وقال بلهجة لا تخلو من تهكم :

ــ هذا الجاسوس أخى .. !

فالتفت الشاب الى الأزهرى متسائلا :

ــ أأنت متأكد مما تقول ؟

فبادره فهمى قائلا :

ــ ربما صدق فى قوله .. انه رآه يحدث الإنجليز ولكن أساء التفسير أيما اساءة ، ان الانجليز معسكرون أمام بيتنا وهم يتعرضون لنا فى الذهاب والاياب فنتورط أحيانا فى محادثتهم على كره .. هذا كل ما هنالك ..

وهم الأزهرى بالكلام ولكن الشاب أسكته باشارة من يده ، ثم خاطب الجمع قائلا وهو يضع يده على منكب فهمى :

ــ هذا الشاب من الأصدقاء المجاهدين ، كلانا يعمل فى لجنة واحدة فكلامه عندى مصدق .. أخلوا سبيلهم .

لم ينبس أحد بكلمة ، انسحب الأزهرى بلاتردد ومضى الناس يتفرقون . صافح الشاب فهمى ثم ذهب يتبعه رفاقه ، ربت فهمى على رأس كمال حتى كف عن البكاء ، ساد الصمت فأخذ كل يضمد جراحه . انتبه السيد الى وجوه نفر من معارفه قد أحاطوا به وراحوا يواسونه ويعتذرون اليه عن الخطأ الكبير الذى وقع فيه الأزهرى ومن ضل به من الناس ، ويؤكدون له أنهم لم يألوا جهدا فى الدفاع عنه فشكرهم ، وان كان لا يدرى متى جاءوا ولا كيف

دافعوا عنه ، وعدل عن الزيارة لما استحوذ عليه من انفعال فاتجه صوب الباب مطبق الفم متجهم الوجـه وتبعه الأبنـاء فى صمت ثقيـل . . .

— ٦٢ —

فى الطريق استرد أنفاسه ، فداخله ارتياح لابتعاده عن الناس الذين شاركوا فى « الحادث » ولو بمجرد الرؤية ، كره وقتذاك كل شىء وراءه وقذفه باللعنات ، لم يكد يرى من الطريق الذى يسير فيه شيئا ، فتبادل التحية مرتين مع اثنين من معارفه على نحو مقتضب متكلف لم يعهد فيه من قبل ، تركز شعوره فى ذاته — ذاته الجريحة — وسرعان ما فار بالغضب . . كان أحب الى أن تنتهى الحيـاة من أن أقف ذلك الموقف المزرى ، كالأسـير بين طغمة من اللئام ، وهذا المجاور القمل مدعى الوطنية الجوعان تهجم على بكل وقاحة . لم يرع لى حرمة سن أو مهابة ، لم أخلق لهـذا ، ليس « أنا » الذى يهان بتلك الكيفيـة ، وبين أبنائى . . لا تعجب . . أبناؤك هم أصل البلوى ، هذا الثور ابن المرة لن يعفيك من متاعبه أبدا . فقس الفضائح فى بيتى وأوقع بينى وبين أعز الأصدقاء ، ثم توج عامنا بالطلاق . . لم يكفه هذا كله ، كلا . ابن هنية لابد أن يسامر الانجليز جهارا كى ادفع أنا الثمن للسفلة المتهجمين ، اذهب بهم اليها كى يكمل متحف عشاقها بالانجليز والاستراليين . .

— يبدو لى أننى لن أخلص العمر من متاعبك ؟ . .

ندت عنه هذه الجملة بحدة ، بيد أنه قاوم رغبته فى تأديبـه لأنه رغم غضبه قدر حاله الذى يرثى لها ، رآه ذاهلا شاحبا متوعكا فلم تطاوعه نفسه فى الهجوم عليه ؛ حسبه الآن ما حاق به ؛ ليس

وحده الذى يتحفه بالمتاعب ، هنالك البطل ، ولكن فلنؤجل همه حتى نفيق من متاعب الثـور ؛ ثور فى البيت ؛ فى الحانة .. ثور أمام أم حنفى ونور ، أما فى المعركة فهو رطل خرع لا فائدة منه ولا عائدة ، يا أولاد الكلب ! .. الله يقطع الأولاد والخلف والبيوت ، آه .. لماذا تسوقنى قدماى الى البيت ؟! .. لم لا أتناول لقمتى بعيدا عن الجو المسموم ؟! .. ستولول هى الأخرى اذا علمت بالخبر، لست فى حاجة الى مزيد من القرف ، الى الدهان .. سأجد حتما صديقا أقص عليه رزيتى وأشكو اليه همى .. كلا لدى متاعب أخرى لا تقبل التأجيل أكثر من هذا ، البطل ، مصيبة جديدة يجب أن نجـد لها علاجا ، الى الغذاء المسـموم ، ولولى .. ولولى .. ولولى .. ملعون أبوك أنت الأخرى ..

لم يكد فهمى يغير ملابسه حتى دعى الى مقابلة والده ، فلم يملك ياسين على خموده وكربه الا أن يغمغم قائلا :

ــ جاء دورك ...

فتساءل فهمى متجاهلا المعنى الكامن وراء ملاحظة أخيه :

ــ ماذا تعنى ؟

فضحك ياسين ــ أجل وسعه أخيرا أن يضحك ــ وقال :

ــ انتهى دور الخونة وجاء دور المجاهدين .. !

لشد ما تمنى أن تغيب النعوت التى نعته بها صديقه فى الجامع وراء ضجة الثورة وذهول الانفعال ، ولكنها لم تغب ، ها هو ياسين يرددها ، ولا شك أن أباه يدعوه من أجل مناقشتها . تنهد فهمى من الأعماق ثم ذهب . وجد السيد متربعا على الكنبة يعبث بحبات سبحته وفى عينيه نظرة تنم عن تفكير كئيب ، فحياه بأدب جم ووقف على بعد مترين من الكنبة فى خضوع وامتثال ، ورد الرجل تحيته بحركة خفيفة من رأسه تدل على الضيق أكثر مما تدل على التحية ، وكأنما تقول له «انى أرد تحيتك مرغما كما تقضى اللياقة، ولكن أدبك الزائف هذا لم يعد ينطلى على » .. ثم حدجه بنظرة

متجهمة ينبعث منها شعاع الارتياب كأنه مصباح كشاف يفتش عن مختبىء بالظلام وقال بحزم :

ـ دعوتك لأعرف كل شىء ، أريد أن أعرف كل شىء ، ماذا قصد صديقك بقوله انك من «الأصدقاء المجاهدين» وانكما تعملان فى لجنة واحدة ؟ .. صارحنى بكل شىء دون تردد ..

ومع أن فهمى اعتاد فى الأسابيع الأخيرة أن يواجه أخطارا شتى حتى الطلقات النارية ألف أزيزها ، الا أنه لاقى تحقيق أبيه بقلب ما قبل الثورة ، ركبته الرهبة وشعر بأنه لا شىء ، وتركز تفكيره فى تحاشى غضبه ونشدان النجاة فقال برقة وادب :

ـ الأمر بسيط جدا يا بابا ، لعل صديقى بالغ فى قوله كى ينتشلنا من ورطتنا ..

فقال السيد وقد نفد صبره :

ـ الأمر بسيط جدا .. عال .. ولكن اى أمر هو ؟.. لا تخف عنى أى شىء .

وكان فهمى يقلب الأمر على مختلف وجوهه فى سرعة خاطفة ليختارما يصح قوله وتؤمن مغبته .. قال :

ـ سماها لجنة وهى لا تعدو أن تكون جماعة من الأصدقاء يتحدثون كلما اجتمعوا فى الشئون الوطنية ..

فهتف السيد مغيظا محنقا :

ـ ألهذا استحققت لقب المجاهد .. ؟!

نطق صوت الرجل بالاستنكار العنيف كأنما عز عليه ان يحاول ابنه اللعب به .. وارتسم الوعيد فى تجعدات عبوسته . فسارع فهمى ـ دفاعا عن النفس ـ الى الاعتراف بشىء ذى بال ليقنع أباه بأنه امتثل أمره كالمتهم الذى يتطوع بالاعتراف طمعا فى الرأفة .. قال فيما يشبه الحياء :

ـ يحدث أحيانا أن نقوم بتوزيع بعض النداءات الحاثة على الوطنية ...

فتساءل السيد بانزعاج شديد :

ــ المنشورات !.. هل تعنى المنشورات ؟!

ولكن فهمى هز رأسه سلبا ، خاف أن يعترف بهذا الاسم الذى يقرن فى البلاغات الرسمية بأقسى العقوبات ، وقال بعد أن وجد صيغة مقبولة تخفف من خطورة اعترافه :

ــ ليست الا نداءات تحث على حب الوطن ..

ترك الرجل السبحة تسقط من يده الى حجره ، وراح يضرب كفا على كف ويقول وهو لا يتمالك نفسه من الانزعاج :

ــ أنت من موزعى المنشورات !.. انت !..

زاغ بصر السيد من شدة الانزعاج والغضب :موزع منشورات ! .. من الأصدقاء المجاهدين !.. كلانا يعمل فى لجنة واحدة !.. هل بلغ الطوفان مرقده ؟!.. طالما راعه فهمى بأدبه وبره وذكائه ، لولا أن الثناء فى نظره مفسدة وأن الفظاظة تهذيب وتقويم لأوسعه ثناء ،كيف انجلى هذا كله عن موزع منشورات .. مجاهد .. كلانا يعمل فى لجنة واحدة ؟!. انه لايحتقر المجاهدين ، هو أبعد ما يكون عن ذلك ، طالما تابع أنباءهم بحماس ودعا لهم عقب كل صلاة بالتوفيق ، طالما ملأته أخبار الاضراب والتخريب والمعارك أملا واعجابا ، ولكن الأمر يختلف كل الاختلاف اذا صدر عمل من هذه الأعمال عن ابن من أبنائه ، كأنهم جنس قام بذاته خارج نطاق التاريخ ، هو وحده الذى يرسم لهم الحدود لا الثورة ولا الزمن ولا الناس ، الثورة وأعمالها فضائل لاشك فيها مادامت بعيدة عن بيته .. فاذا طرقت بابه ، واذا تهددت أمنه وسلامة وحياة أبنائه ، تغير طعمها ولونها ومغزاها ، انقلبت هوسا وجنونا وعقوقا وقلة أدب ، فلتشتعل الثورة فى الخارج وليشارك فيها هو بقلبه كله ، وليبذل لها ما فى وسعه من مال .. وقد فعل ولكن البيت له وحده دون شريك ، ومن تحدثه نفسه ــ فيه ــ بالاشتراك فى الثورة فهو ثائر عليه هو لا على الانجليز ، انه يترحم ليل نهار على الشهداء

ويعجب كل الاعجاب بالشجاعة التى يتذرع بها آلهم فيما يروى الرواة ، ولكنه لن يسمح لابن من أبنائه بأن ينضم الى الشهداء ولا تطيب نفسه بهذه الشجاعة التى يتذرع بها آلهم ، فكيف سولت نفس فهمى له بالاقدام على هـذه الخطوة الجنونيـة ؟. كيف ارتضى ــ وهو خير أبنائه ــ أن يعرض نفسه الى الهلاك المبين ؟..
انزعج الرجل انزعاجا لم يشعر بمثله من قبل ، فاق انزعاجه فى مأزق الجامع نفسه ، فلم يتمالك أن يسأله بصرامة ووعيد كأنه أحد مفتشى البوليس الانجليزى :

ــ ألا تعلم ما جزاء الذى يضبط وهو يوزع منشورات .. ؟!

رغم خطورة الموقف وما يقتضيه من تركيز فكره فيه ، أيقظ السؤال ذكرى قريبة اهتزت لها نفسه ، ذكرى هذا السؤال نفسه بنصه ومعناه حينما طرحـه عليه الرئيس الأعلى للجنة الطلبة التنفيذية ــ بين جملة أسئلة أخرى ــ وهو بصدد اختياره عضوا فيها ، ثم ذكر بالتالى كيف أجابه وقتذاك بعزم وحماس « كلنا فداء للوطن » وقارن بين الظـرفين اللذين ألقى فيهما السـؤال الواحد ، فاعتراه شعور بالسخرية ، بيـد أنه أجاب والده برقة وبصوت يوحى بالتهوين :

ــ انى أقوم بالتوزيع بين الأصدقاء من الزملاء فقط ، ولا شأن لى بالتوزيع العام .. فليس ثمة مخاطرة أو خطر ..

فهتف السـيد بغلظة وكأنه يدارى خـوفه على ابنه بحـدة الغضب :

ــ ان الله لا يكتب السـلامة لمن يعرض نفسـه للهلاك ، وقد أمرنا سبحانه بألا نعرض أنفسنا للتهلكة ..

ود الرجل أن يستشهد بالآية التى تترجم عن هذا المعنى ، ولكنه لم يكن يحفظ من القرآن الا السور القصيرة التى يتلوها فى صلواته ، فخاف أن يسهو عن لفظ أو يحرفه فيحمل نفسه وزرا

لا يغتفر ، فاكتفى بترديد المعنى وكرره حتى يبلغ مداه ، ولكنه ما يدرى الا وفهمى يقول بلهجته المهذبة :

ــ ولكن الله يحث المؤمنين على الجهاد كذلك يا بابا ..

ساءل فهمى نفسه فيما بعد متعجبا كيف واتته الشجاعة على مجابهة السيد بهذا القول الذى فضح ما داراه من استمساك برأيه !. لعله احتمى بالقرآن فوقف وراء معنى من معانيه مطمئنا الى أن أباه سيحجم فى تلك الحال عن مهاجمته ، وقد بوغت السيد مباغتة شديدة بجرأة ابنه وحجته معا ، ولكنه لم يستسلم للغضب لأن الغضب ربما أسكت فهمى ولكنه لن يسكت حجته ، فتناسى جرأته الى حين ريثما يقرع حجته بحجة مثلها من القرآن ، يجب أن يجد لمأزقه مخرجا من القرآن نفسه حتى تتم الهداية للابن الضال ، وله بعد ذلك أن يعود الى محاسبته كيفما شاء ، وفتح الله عليه فقال :

ــ ذاك كان جهادا فى سبيل الله ..

اعتبر فهمى جواب أبيه قبولا للمناقشة والمحاجة ، فتشجع مرة أخرى قائلا :

ــ جهادنا فى سبيل الله كذلك ، كل جهاد شريف فهو فى سبيل الله ..

آمن السيد بقوله فى قلبه ، ولكن هذا الايمان نفسه وما خلفه من شعور بالضعف أمام محدثه ، هو ما جعله يرتد الى غضبه دون ابطاء .. بيد أنه لم يكن غضبا لكبريائه فحسب ، ولكن أيضا لاشفاقه من أن يتمادى الشاب فى غيه حتى يودى بنفسه ، فكف عن الجدل وتساءل مستنكرا :

ــ أحسبتنى قد دعوتك لتناقشنى !

انتبه فهمى الى ما تنطوى عليه كلمات أبيه من نذير ، فضاعت أحلامه وانعقد لسانه .. أما السيد أحمد فعاد يقول بحدة :

ــ لاجهاد فى سبيل الله الا ما أريد به وجه الله وحده ــ أى

الجهاد الدينى ــ لا جدال فى هذا !. والآن أريد أن أعرف ألا يزال أمرى مطاعا ؟

فبادره الشاب قائلا :

ــ بكل تأكيد يا بابا . .

ــ اذن اقطع كل صلة بينك وبين الثورة . . ولو اقتصر دورك على توزيع المنشورات على خاصة أصدقائك !

ان قوة فى الوجود لا يمكن أن تحول بينه وبين واجبه الوطنى ، لن يتراجع مطلقا ولو خطـوة واحدة ، انتهى زمان ذلك الى غير رجعة ، ان هذه الحياة الحارة الباهرة التى تنبثق من أعماق قلبه وتضىء جوانب نفسه لا يمكن أن تغيض وهيهات أن يغيضها هو بيده ، كل هذا حق لا شك فيه ، ولكن لماذا لا يلتمس وسـيلة الى ارضاء أبيه وتحامى غضبه ؟!. . انه لا يسـتطيع أن يتحداه ولا أن يجهر بمخالفة أمره ، أجل استطاع أن يثور على الانجليز وأن يتحدى رصاصهم كل يوم تقريبا ، ولكن الانجليز عدو مخيف وبغيض معا أما أبوه فرجل مخيف ومحبوب ، وهو يعبده بقدر ما يخافه فلن يهون عليه أن يصدمه بعصيان ، وثمة احساس آخر لاسبيل الى تجاهله هو أن وراء الثورة على الانجليز مثالية نبيلة ، أما وراء التمرد على أبيه فليس الا الخزى والتعاسة ، وماذا يدعو الى هذا كله ؟ ! . لماذا لايعده بالطاعة ثم يفعل ما يشاء ؟ !. لم يكن الكذب فى هذا البيت بالرذيلة المخزية ، ولم يكن فى وسع احد منهم أن يتمتع بالسـلامة فى ظل الأب دون حمـاية من الكذب ، وهم يجاهرون به فيما بينهم وبين أنفسهم ، بل ويتفقون عليه فى الموقف الحرج ، وهل كان فى نية الام يوم تسللت فى غيبة السيد الى زيارة الحسين أن تعترف بفعلتها ؟. . وهـل كان فى وسع ياسـين أن يسكر ، وهو أن يحب مريم ، وكمال أن يتعفرت بين خان جعفر والخرنفش بلا حماية من الكذب ؟!. ليس الكذب مما يتورع عنه

أحد منهم ، ولو أنهم التزموا الصــدق مع أبيهم ما ذاقوا للحياة طعما ، لهذا كله قال بهدوء :

ــ أمرك مطاع يا بابا . .

وأعقب هذا التصريح صمت تنفس فيه كلاهما من الراحة ، فظن فهمى أن استجوابه قد انتهى بسلام ، وظن السيد أحمد انه انتشل ابنه من الهاوية . وبينما كان فهمى ينتظـر أن يؤذن له بالانصراف ، قام الأب فجأة واتجه الى صوان الملابس ففتحه ودس يده فيه والشاب يراقبه بعينين لا تدركان شيئا ثم عاد الى مجلسه حاملا القرآن ، ونظر الى فهمى مليا ثم مد يده بالكتاب اليه وهو يقول :

ــ أقسم لى على هذا الكتاب . .

وتراجع فهمى بحركة عكسية ندت عنه قبل أن يتدبر أمره ، كأنما يفر من لسان لهب امتد اليه فجأة ، وتسمر فى موقفه وهو يحملق فى وجه أبيه مرتبكا مذعورا يائسا ، فلبث السيد مادا يده بالكتاب وهو ينظر اليــه فى غرابة وانكار ، ثم احمر وجهه كأنه يلتهب وانبعث من عينيه بريق مخيف ، وتساءل فى ذهول وكأنه لا يصدق عينيه :

ــ ألا تريد أن تقسم ؟!

ولكن لسان فهمى انعقد فلم ينبس بكلمة ولم يبــد حراكا ، فتساءل الرجل بصوت هادىء تخللته رعشة متهدجة أنذرت بما يفور تحته من غضب مستعر كما ينذر البرق بقعقعة الرعد :

ــ أكنت تكذب على . . ؟

لم يطــرأ على فهمى تغير الا أنه غض بصره فــرارا من عينى أبيه ، ووضع السيد الكتاب على الكنبة ثم انفجر صائحا بصوت مدو خاله فهمى كفوفا تهوى على خديه :

ــ انت تكذب على يا بن الكلب !. . أنا لا أسمح لمخلوق بأن يضحك على ذقنى ، ماذا تظن بى وماذا تظن بنفســك !. . أنت

حشرة خبيثة مجرمة ، بنت كلب خـدعت بظاهرها طويلا ، لن انقلب امرأة على آخر الزمن ، سامع ؟!. لن انقلب امرأة على آخر الزمن ، حيرتمونى يا أولاد الكلب وجعلتمونى أضـحوكة الناس ، أنا أسلمك بنفسى الى البوليس ، فاهم ؟!. بنفسى يابن الكلب ، الكلمة هنا كلمتى أنا ، أنا أنا أنا . . (ثم متناولا الكتاب مرة أخرى) أقسم . . آمرك بأن تقسم . .

بدا فهمى وكأنه فى غيبوبة ، كانت عينـاه مثبتتين على بعض الصور الغريبة المنقوشـة على السجادة الفارسية دون أن تريا شيئا ، وكأن تلك النقوش قد انطبعت بادامة النظر على صفحة عقله فاستحال شـتيتا من الفوضى والخواء ، وكلما مرت ثانيـة أمعن فى الصـمت واليأس ، لم يبق له ألا أن يلوذ بهـذه المقاومة السلبية اليائسة . ونهض السيد والكتاب فى يده فاقترب خطوة منه ثم زعق :

ــ أتوهمت أنك رجل ؟. . أتوهمت أنك تسـتطيع أن تفعل ما تشاء ؟!. . لو أشاء أضربك حتى أكسر رأسك . .

لم يملك فهمى عند ذاك الا أن يبكى ، لا خوفا من التهديد فما كان يبالى فى موقفه وتأثره بأى أذى يصـيبه ، ولكن تنفيسا عن قهره وترويحا عن الصراع الناشب فى صدره ، ثم جعل يعض على شفتيه ليكتم البكاء ، ثم اعتراه الخجل لما ركبه من ضعف ، بيد أنه وسعه أخيرا أن يتكلم لشـدة تأثره من ناحية ومداراة لخجله من ناحية أخرى ، فاسترسل قائلا فى ضراعة ورجاء :

ــ سامحنى يا بابا ، أمرك مطاع فوق العـين والرأس ولكنى لا أستطيع ، لا أستطيع ، اننا نعمل يدا واحدة فلا أرضى ولا ترضى لى أن أنكص وأتخلف عن اخوانى ، هيهات أن تطيب لى الحياة ان فعلت ، ليس ثمة خطر وراء ما نعمـل ، غيرنا يقوم بأعمال أجـل كالاشـتراك فى المظاهرات وقد استشـهد منهم كثيرون ، لست خيرا منهم ، ان الجنازات تشـيع بالعشرات معا ولا هتـاف فيها

الا للوطن ، حتى أهل الضحايا يهتفون ولا يبكون ، فما حياتى ؟. وما حياة أى انســان ؟.. لا تغضب يا بابا وفكر فيما أقول .. واكرر على مســمعك بأنه ليس ثمــة خطر وراء عملنــا السلمى الصغير ..!

وغلبه الانفعال فلم يعد يستطيع مواجهة أبيه ففر من الحجرة هاربا . كاد يصــطدم وراء الباب بياســين وكمال اللذين وقفــا يتصنتان وقد ارتسم على وجهيهما الارتياع .

— ٦٣ —

كان ياسين ماضيا الى قهوة أحمد عبده حينما التقى فى بيت القاضى بأحد أقرباء أمه ، فأقبل الرجل نحوه باهتمام ثم صافحه وهو يقول :

ــ كنت ذاهبا الى البيت لمقابلتك ..

حدس ياسين وراء كلامه أنباء عن أمه التى أورثته الهموم ، فأحس ضيقا وتساءل بفتور :

ــ خير أن شاء الله ..؟

فقال الرجل باهتمام غير عادي :

ــ والدتك مريضة ، مريضة جــدا فى الواقع ، أصابها المرض منذ شهر أو أكثر ولكنى لم أعلم به الا فى هذا الأسبوع ، وقد ظنوه بادىء الأمر حالة عصبية فسكتوا عنه حتى استفحل ثم تبين بعد فحص الأطباء أنه ملاريا شديدة .

دهش ياسين للخبر الذى لم يكن يتوقعه ، كأن يتوقع حديثا عن طلاق أو زواج أو شجار وما شاكل ذلك ، أما المرض فلم يقع

له فى حسبان ، تساءل وهو لا يكاد يتبين مشاعره من شدة اعتلاجها :

ـ وكيف حالها الآن ؟..

قال الرجل بصراحة لم يخف مغزاها على ياسين :

ـ حالها خطيرة !. امتد العلاج دون أن يبشر بأدنى تقدم ، وبالأحرى ازدادت الحال سوءا ، وقد أرسلتنى اليك كى أصارحك بأنها تشعر بدنو أجلها ، وأنها ترجو أن تراك دون تأخير ..

ثم بلهجة ذات معنى :

ـ يجب أن تذهب اليها بلا تردد ، هذه نصيحة ورجاء ، والله غفور رحيم ..

لعل كلام الرجل لم يخل من مبالغة أراد بها دفعه الى الذهاب ولكنه ليس اختلاقا كله ، فليذهب ولو بدافع الواجب وحده ، ها هو يخترق مرة جديدة منحنى الطريق المفضى الى الجمالية بين بيت المال وحارة الوطاويط ، الى يمينه عطفة التيه حيث تلبد بائعة الدوم فى ذكريات الظلام المرعشة والى الأمام طريق الآلام ، سيرى عما قليل دكان الفاكهة فيغض البصر ويتسلل كاللص الهارب ، كلما ظن أنه لن يعود اليه عادت به تعاسته ، ما من قوة كانت تستطيع أن تعيده اليها .. الا الموت !.. الموت !.. ترى هل حمت النهاية حقا ؟!.. قلبى يخفق ، ألما ؟.. حزنا ؟.. لا أدرى الا أنى خائف ، اذا ذهبت فلن أعود الى هذا المكان مرة أخرى .. سيغشى النسيان سالف الذكريات .. ثم ترد الى البقية الباقية من أملاكى ، ولكنى خائف .. وحانق على هذه الأفكار الخبيثة ، اللهم احفظنا ..

حتى اذا حظيت بعيشة أرغد وبال أصفى فلن ينجو قلبى من الآلام ، حين الموت سأودع أما بقلب ابن .. أم وابن أليس كذلك ؟.. لست الا معذبا لا وحشا ولا حجرا ، بيد أن الموت زائر جديد على لم أشهد محضره من قبل ، وددت لو كانت النهاية

بغيره ، سنموت جميعا .. حقا ! يجب الا أستسلم للخوف ، أن أنباء الموت لا تنقطع عنا ليل نهار فى هذه الأيام ، فى شارع الدواوين والمدارس والأزهر . وهنالك فى أسيوط كل يوم ضحايا ، حتى المسكين الفولى اللبان فقد ابنه أمس ، ما عسى أن يصنع أهل الشهداء ؟.. أيقضون العمر بكاء ؟. انهم يبكون ثم ينسون وهذا هو الموت ، أف .. يخيل الى أنه ليس ثمة مفر من المتاعب الآن ، ورائى فى البيت فهمى وعناده وأمامى أمى فما أنغص الحياة ، واذا كان الأمر مكيدة ووجدتها فى خير وعافية ؟!.. ستدفع الثمن غاليا .. يقينا لتدفعن الثمن .. لست لعبة أو أضحوكة ، لن تجد «الابن» الا حين الموت ، ترى ماذا بقى لى من ثروة ؟.. واذا دخلت البيت ألتقى بذلك « الرجل » هنالك ؟ .. لا أدرى كيف أقابله .. ستلتقى عينانا فى لحظة رهيبة ، الويل له ، أتجاهله أو أطرده هذا هوالحل ، هنالك ألوان من العنف لا تخطر له ببال ، ولكن ستجمعنا الجنازة حتما .. وهذا مضحك ، تصور أن يسير وراء النعش أقدم الأزواج وأحدثهم وبينهما الابن دامع العينين .. حتم وقتذاك أن تدمع عيناى .. أليس كذلك ؟.. لن يكون فى وسعى أن أطرده من الجنازة فتلاحقنى الفضيحة حتى اللحظة الأخيرة .. ثم تدفن ، أجل تدفن وينتهى كل شىء ، ولكنى خائف ومتألم ومحزون ، ان الله وملائكته يصلون على .. هذه هى الدكان المجرمة .. وهذا هو .. لن يعرفنى ، هيهات ، اننا نتنكر بالعمر ، يا عم .. أمى تقول لك ..

فتحت له الخادم الباب ـ نفس الخادم التى استقبلته منذ عام فأنكرته ـ فتطلعت اليه كالمتسائلة لحظة ، وسرعان ما غابت نظرة التساؤل وراء لمعة كأنما تقول له : « آه .. أنت الذى تنتظر » ثم أفسحت له وهى تومىء الى حجرة عن يمين الداخل قائلة :

ـ تفضل يا سيدى .. لا يوجد أحد ..

جذبت العبارة الأخيرة انتباهه بقوة كأنما جاءته جوابا شافيا لبعض حيرته ، فأدرك أن أمه أخلت له الطريق . اتجه الى الحجرة ، وتنحنح ، ثم دخل . وقعت عيناه على عينى أمه وهما ترفعان اليه من فراش على يسار الداخل ، عينين حجبت صفاءهما المعهود غشاوة باهتة فلاحت نظرتهما الواهنة كأنما تتطلع اليه من بعيد ، وبالرغم من ذبولهما وما أوحى به انطفاؤهما من عدم الاكتراث لشيء فقد ثبتتا على وجهه ثبوت العرفان ، وانفجرت شفتاها عن ابتسامة خفيفة وشت بظفر وارتياح وامتنان . لم يكن يبدو منها الا وجهها اذ اشتملت ببطانية حتى الذقن ، وجه أدركه من التغير فوق ما أدرك العينين ، جف بعد اكتناز واستطال بعد استدارة وشحب بعد تورد وشف جلده الرقيق عن عظام الفك والوجنتين البارزة فبدا صورة للرثاء والفناء . وقف ذاهلا منكرا كأنه لا يصدق أن ثمة قوة فى الوجود تجرؤ على هذا العبث القاسى ، فقبض قلبه فزعا كأنه يرى الموت نفسه ، تخلت عنه رجولته كأنما ارتد طفلا وافتقد أباه أيما افتقاد ، ثم دفعه تأثر لا يقاوم الى الفراش حتى انحنى فوقها مغمغما فى نبرات أسيفة :

ـ لا بأس عليك .. كيف حالك ؟

ملأه شعور صادق بالرحمة غابت فى حرارته آلامه المزمنة كما تغيب ـ فى أحوال نادرة ـ ظاهرة مرضية ميئوس منها ، كالشلل ، عند هجوم فزع هائل مفاجيء .. كأنه يلقى أم طفولته التى أحبها قبل أن تواريها عن قلبه الآلام ، فتشبث ـ وعيناه مرسلتان الى الوجه الفانى ـ بهذا الشعور المستجد الذى رده أعواما طويلة الى الوراء ـ الى ما وراء الألم ـ كما يتشبث المريض المتهالك بصحوة طارئة يخاف عليها احساسا باطنيا يوشك الزوال ، تشبث به بشدة خليقة برجل يقدر القوى المضادة التى تتهدده ، وان دل على تشبثه نفسه على أن آلامه لم تزل تضطرم فى أعماق الأعماق منذرة اياه بما يترصده من حزن اذا هو تهاون

فخلط بشعوره الصافى ما يفسده من مشاعر أخرى . وأخرجت المرأة من تحت الغطاء يدا ممصوصة معروقة اكتست بشرتها الجافة بمزيج من سواد باهت وزرقة كأنها يد محنطة منذ آلاف السنين فتناولها بين يديه بتأثر شديد ، وعند ذاك سمع صوتها الضعيف المبحوح وهو يجيبه قائلا :

ـ كما ترى ، صرت خيالا ..

فغمغم :

ـ ربنا يدركك برحمته ، ويردك الى خير مما كنت ..

فندت عن رأسها المعصوب بخمار أبيض حركة دعائية كأنما تقول : « ربنا يسمع منك » .. وأشارت اليه أن يجلس فجلس على الفراش ، ثم استرسلت ـ بقوة جديدة استمدتها من محضره ـ تقول :

ـ فى أول الأمر كانت تنتابنى رعشة غريبة فحسبتها طارئا عصبيا . نصحونى بالطواف ببيوت الله وبالتبخر فزرت الحسين والسيدة وتبخرت بأنواع شتى من البخور الهندى والسودانى والعربى ، ولكن لم تكن الحال تزداد الا سوءا .. أحيانا كانت تملكنى رجفة متواصلة لا تدعنى حتى أكون قد أشفيت على الهلاك ، وتمر بى أوقات أجد جسمى باردا كالثلج ، وأوقات أخرى تمتد النار فى جسدى حتى أصرخ من شدة الحرارة أخيرا صمم سـ ... (أمسكت عن النطق بالفاعل منتبهة فى اللحظة الأخيرة الى الخطأ الذى كانت ستقع فيه) ... أخيرا استحضرت الطبيب ، ولكن لم يتقدم بى العلاج خطوة واحدة نحو الصحة أن لم يكن تأخر خطوات ، لم تعد ثمة فائدة ترجى ...

فقال ياسين وهو يضغط برقة على راحتها :

ـ لا تيأسى من رحمة الله ، ان رحمته واسعة .

فافتر ثغرها المتقع عن ابتسامة ضعيفة وقالت :

ـ يسرنى أن أسمع هذا ، يسرنى أن أسمعه منك أنت قبل

الناس جميعا ، أنت عندى اغلى من الدنيا ومن عليها ، صدقت ان رحمة الله واسعة ، طالما ساءنى الحظ ، لا انكر الهفوات والاخطاء ، العصمة لله وحده ...

آنس – جزعا – من حديثها ميلا الى ما يشبه الاعتراف ، فانقبض صدره وجفل جفولا حادا من أن تردد على مسمعيه أمورا لا يطيقها ولو على سبيل الندم والتكفير .. فتوترت أعصابه حتى اوشك أن تبدل حالا بعد حال ، قال بتوسل :

– لا تتعبى نفسك بالكلام ..

رفعت اليه عينيها باسمة وهى تقول :

– مجيئك رد الى الروح ، دعنى أقل لك انى لم أقصد فى حياتى سوءا بانسان ، كنت انشد كسائر الخلق راحة البال فيعاندنى الحظ العاثر ، لم اسىء الى احد ولكن كثيرين أساءوا الى ..

شعر بأن رجاءه أن تمضى الساعة بسلام سيخيب .. وان عاطفته الصافية تعانى أزمة من التنغيص .. فقال بلهجة التوسل السالفة :

– دعى الناس بخيرهم وشرهم ، صحتك الآن اهم من اى شىء آخر ... فربتت على يده باستعطاف كأنما تسأله أن يترفق بها ، ثم همست :

– فاتتنى أشياء ، لم أؤد الى الله حقه ، وددت لو طال عمرى حتى أستدرك بعض ما فاتنى .. بيد أن قلبى كان دائما مفعما بالايمان والله شهيد ..

فقال وكأنه يدافع عن نفسه وعنها معا :

– القلب هو كل شىء ، هو عند الله فوق الصوم والصلاة ..

فشدت على يده بامتنان ثم غيرت مجرى الحديث قائلة بترحاب :

– وعدت الى أخيرا ! .. لم أجرؤ على دعوتك حتى انتهى بى المرض الى ما ترى ، داخلنى شعور بأننى أودع الحياة فلم اطق ان افارقها قبل أن أملأ عينى منك ، فأرسلت اليك وبى من الخوف من

رفضك أكثر مما بى من خوف الموت نفسه ، ولكنك رحمت أمك وأقبلت تودعها فلك الشكر ودعاء أرجو الله أن يتقبله ..

اشتد به التأثر ولكنه لم يدر كيف يعبر عن شعوره ، تثاقلت الكلمات الحنونة فى فيه متعثرة فيما يشبه الحيـاء أو الغرابة حالما أراد توجيهها الى المرأة التى ألف مجافاتها ونبذها ، بيد أنه وجد فى يده أداة تعبير طيعة حساسة ، فضغط على راحتها بيده مغمغما :

ـ ربنا يكتب لك السلامة ..

وجعلت تدور حول المعنى الذى أفصحت عنه جملتها الأخيرة ، مرددة نفس الألفاظ تارة أو مستبدلة بها غيرها مما يدل على نفس معناها طورا آخر .. وراحت تفصل الحديث بازدراد ريقها بجهد ملحوظ أو بالصمت القصير ريثما تسترد أنفاسها ، مما دعاه مرات الى أن يرجوها بالكف عن الحديث ، ولكنها كانت تبتسم لمقاطعته ثم تعود الى مواصلة الحديث ، حتى توقفت وقد لاح فى وجهها اهتمام طارىء كأنما تذكرت شيئا ذا بال ... وقالت :

ـ تزوجت ... ؟

فرفع حاجبيه فى شىء من الضيق وتورد وجهه ، ولكنها أخطأت فهمه فبادرته كالمعتذرة :

ـ لا عتـاب .. حقا كنت أود أن أرى عروسك وذريتك ، ولكن بحسبى أن تكون سعيدا ..

فما ملك أن قال باقتضاب :

ـ لست متزوجا ، طلقت منذ شهر تقريبا ..

لأول مرة لاحت آى الانتباه فى عينيها ، لو كان فى الامكان أن يلتمعا لالتمعا .. ولكن انبعث منهما شبه ضوء كالضوء الحالم الذى تنضح به ستارة كثيفة .. وتمتمت :

ـ طلقت يا بنى ! .. ما أحزننى .. ؟

فابتدرها قائلا :

ـ لا تحزنى ، لست حزينا ولا آسفا (ثم باسما) اخذت الشر وراحت ...

ولكنها تساءلت بنفس اللهجة :

ـ من الذى اختارها لك .. هو أم هى ؟!

فقال بلهجة نمت عن رغبته فى قفل باب هذا الحديث :

ـ اختارها الله ، كل شىء قسمة ونصيب .. !

ـ أعلم هذا ، ولكن من الذى اختارها لك ؟ .. امرأة أبيك ؟

ـ كلا ، أبى الذى اختارها ، ولا غبار على أختياره فهى من أسرة كريمة ، ولكنها القسمة والنصيب كما قلت لك ..

فقالت ببرود :

ـ القسمة والنصيب واختيار أبيك .. هذه هى .. !

ثم بعد وقفة قصيرة :

ـ حبـلى ؟

ـ نعم ...

وهى تتنهد :

ـ الله ينكد عيشة أبيك ..

تعمد ألا يعقب عليها ، كما يمتنع عن حك قرحة تأكله لعلهـا تسكن .. فشملهما صمت ، واغمضت المرأة عينيها كأنما انهكها التعب ، بيد أنها فتحتهما هنيهة فابتسمت اليه وهى تسأله بصوت رقيق لا أثر فيه لانفعال :

ـ ترى هل يمكن أن تنسى الماضى ؟

فغض بصره منتفضا وهو يشعر برغبـة فى الهرب لا تقاوم ، ثم قال برجاء :

ـ لا تعودى الى ذكراه ، فليذهب الى غير رجعة ..

لعل قلبه لم يعن ما يقول ، ولكن لسانه قال ما ينبغى أن يقال ... أو لعل ذلك القول كان تعبيرا صادقا عن شعوره لحظتذاك ، تلك اللحظة التى استغرقه فيها بكليته الموقف المحيط به ، ولعل

قوله : « فليذهب الى غير رجعة » .. قد وقع من مسمعه ـ ومن قلبه ـ موقعا غريبا خلف وراءه قلقا ، ولكنه أبى أن يجعله موضوعا لتأمله ، فر من ذلك فرارا ، وتشبث بعاطفته الصافية التى عقد العزم على التشبث بها من بادىء الأمر . أما أمه فعادت تسأله :

ـ وهل تحب أمك كما كنت تحبها فى الزمن السعيد ؟

فقال وهو يربت على راحتها :

ـ أحبها ، وأدعو لها بالسلامة ..

سرعان ما وجد العزاء عن قلقه وجهاده الباطنى فيما انطبع على وجهها الذاوى من روح السلام والارتياح العميق ، ثم شعر براحتها تضغط على يده كأنما تبثه ما يكنه صدرها من امتنان ، وتبادلا نظرة طويلة هادئة باسمة حالمة أشاعت فى الحجرة جوا من الطمأنينة والمودة والحزن ، لم يعد يبدو منها ما يدل على رغبتها فى الحديث أو لعل الجهد حال بينها وبين هـذه الرغبة ، ثم تراخت جفونها رويدا حتى انطبقت ، جعل ينظر اليها كالمتسائل ولكن لم تند عنه حركة ، ثم انفرجت شفتاها قليلا وانبعث منهما شخير خفيف متقطع . اعتدل فى جلسته وهو يتوسم وجهها ثم أغمض عينيه قليلا ريثما يستحضر صورة الوجه الآخر الذى طالعته به منذ عام فانقبض صدره وعاوده شعور الخوف الذى طارده طوال الطريق ، ترى هل يتاح له أن يرى ذلك الوجه مرة أخرى ؟ .. وبأى قلب يلقاه ان عاد ؟! .. لا يدرى ، لايحب أن يتصور المضمر فى علم الغيب ، يود أن يقف عقله عن الحركة وأن يتبع الحوادث لا أن يسبقها ، وأحاط به شعور الخوف والقلق ، عجبا ! .. لقد ركبته رغبة فى الهرب وهو ينصت الى حديثها حتى خيل اليه أنه ارتاح الى نومها كل الارتياح ولكنه ما كاد ينفرد بنفسه حتى هاجمه الخوف .. خوف لم يدرك له سببا فتمنى لو تصحو من سباتها وتعود الى الحديث ، حتام ينتظر .. هبها استغرقت فى النوم حتى الصباح ! .. لن يسعه أن يبقى طويلا فريسة للخوف والقلق

هكذا ، يجب أن يضع حدا لآلامه ... غدا أو بعد غد تكون تهنئة أو تعزية .. تهنئة أو تعزية ؟! .. أيهما أحب الى نفسه ؟! .. يجب أن يقف عقلى عن الحركة ، تهنئة كانت أم تعزية لا ينبغى أن أسبق الحوادث ، غاية ما يمكن قوله لو قدر علينا أن نفترق الآن لافترقنا صديقين ، تكون خير نهاية لأسوأ حياة ، أما اذا مد الله فى عمرها ...

سرح طرفه وهو شارد فوقع على مرآة الصوان — فى الجهة المقابلة — التى عكست صورة الفراش فرأى جسم أمه مطروحا تحت البطانية كما رأى نفسه يكاد يحجب نصفها الأعلى الا يدها التى أخرجتها عند استقباله فحملق برفق وأدخلها تحت الغطاء ثم ثبته حول عنقها بعناية ، عاد ينظر الى المرآة فخطر له هذا الخاطر ! ربما عكست هذه المرآة غدا فراشا خاليا عاريا ! .. ليست حياتها — حياة أى انسان ... لم لا ؟ — بأرسخ دواما من هذه الصور الوهمية ! .. فاشتد به شعور الخوف وهمس لنفسه « يجب أن أضع حدا لآلامى .. يجب أن أذهب » ، بيد أن بصره تحرك تاركا المرآة فالتقى بخوان وضعت عليه نارجيلة التف خرطومها حول عنقها كالثعبان فثبت عليها فى دهشة وانكار سرعان ماحل مكانهما شعور هائج بالتقزز والغضب .. ذلك الرجل ! .. هو بلا ريب صاحب هذه النارجيلة .. تخيله متربعا على الكنبة القائمة بين الفراش والخوان وقد اندلق على النارجيلة يشهق ويزفر متلذذا وأمه تروح له على الجمرات .. آه ترى أين هو الآن ، فى مكان بالبيت أم فى الخارج ؟ .. هل رآه من حيث لم يره ؟ .. لم يعد يحتمل البقاء مع النارجيلة اكثر مما بقى فألقى نظرة على وجه أمه التى وجدها مستغرقة فى النوم ثم زايل مجلسه بخفة وسار الى الباب ، ولما التقى بالخادمة فى الردهة الخارجية قال لها :

— ستك نامت ، سأعود غدا صباحا ..

والتفت اليها مرة أخرى وهو يغادر الباب الخارجى قائلا :

ـ غدا صباحا ..

كأنما ينبه الرجل نفسه الى موعد حضوره ليختفى من وجهه ، مضى الى حانة كوستاكى رأســا . شرب كعادته ولكنه لم يطب بالشراب نفسا . أعياه أن يطرد عن قلبه الخوف والقلق . ومع أن أحلام الثورة وراحة البال لم تغب عن ذهنه الا انها لم تستطع أن تمحو من مخيلته صورة المرض وخواطر الفناء . ولما عاد الى البيت عند منتصف الليل وجد امرأة أبيه فى أنتظاره بالدور الأول فنظر اليها متعجبا ثم تساءل خافق القلب :

ـ أمى .. ؟!

فأخفت أمينة رأسها وقالت بصوت خافت :

ـ جاءنا رسول من قصر الشوق قبل مجيئك بساعة ، العمر الطويل لك يا ابنى ..

ـ ٦٤ ـ

تطورت العلاقة بين كمال والجنود البريطانيين الى صــداقة متبادلة . وقد حاولت الأسرة أن تتذرع بمأساة ياسين فى جامع الحسين لتقنع الغلام بقطع علاقته مع أصدقائه ولكنه أجابهم بأنه « صغير » أصغر من أن يتهم بالجاسـوسية ، ولكى يتفادى من منعهم اياه بالقوة كان يمضى الى المعسـكر رأســا بعد عودته من المدرسة تاركا حقيبة كتبه مع أم حنفى فلم تكن ثمة وسيلة الى منعه الا باستعمال القوة الأمر الذى لم يروا له موجبا لا سيما وانه يمرح فى المعسكر تحت أعينهم متقبلا فى كل موضـع بالترحيب والتكريم ، حتى فهمى نفسه اغضى عنه ولم يكن يجد بأســا فى

التسلى بمشاهدته وهو يتنقل بين الجنود « كقرد يلهو فى غابة من الوحوش » ...

قولوا لسيدى الكبير ..

هكذا اقترحت أم حنفى مرة وهى تشكو تجرؤ الجنود عليها ـ بسبب الصداقة اللعينة ـ ومحاكاة بعضهم لمشيتها بطريقة « يستحقون عليها قطع رقبتهم » ولكن أحدا لم يأخذ اقتراحها مأخذ الجد ، لا رحمة بالغلام فحسب ، ولكن رحمة بهم هم أنفسهم خشية أن يجر التحقيق الى معرفة تسترهم الطويل على هذه الصداقة ،فتركوا الغلام وشأنه ، ولعلهم لم يخلوا من رجاء فى أن يقوم الشعور الطيب المتبادل بين الغلام والجنود حائلا بينهم وبين ما يحتمل ان يتعرضوا له من عبث أو أذى فى الذهاب والاياب ! أسعد ساعات يومه كانت تلك التى يدخل فيها المعسكر ، لم يكن جميع الجنود « أصدقاء » بالمعنى المفهوم من هذه الكلمة ولكن لم يعد احد منهم يجهل شخصه ، كان يصافح الأصدقاء ويشد على أيديهم بحرارة على حين يكتفى برفع يده ، تحية للآخرين . وربما صادف مجيئه قيام أحد الأصدقاء بنوبة الحراسة فيقبل الغلام عليه هاشا باشا وهو يمد يده فما يروعه الا أن يلقى منه جمودا غريبا مثيرا كأنما يتجاهله أو كأنما تحول الى صنم فلا يدرك أن ليس فى الأمر تجاهل أو غضب الا من اغراق الآخرين فى الضحك . ولم يكن من النادر أن يباغت وهو بين الأصدقاء بصفير الانذار ، هنالك يهرعون الى الخيام ثم يعودون بعد قليل وقد ارتدوا ملابسهم وخوذاتهم وحملوا بنادقهم ، ويتحرك لورى من موقفه وراء سبيل بين القصرين الى وسط الطريق فيمضون اليه سراعا ويقفزون الى داخله حتى يكتظ بهم ، بات يدرك من المنظر الذىامامه أن مظاهرة قامت فى جهة ما وأن الجنود ذاهبون لتفريقها وان قتالا سينشب بينهم وبين المتظاهرين ، ولكن لم يكن يهمه فى تلك الأوقات الا أن يتفقد الأصدقاء ببصره حتى يعثر عليهم فى زحمة اللورى وان يملأ

منهم عينيه كأنما يودعهم ، وأن يبسط كفيه واللورى يبتعد بهم صوب النحاسين داعيا لهم بالسلامة ثم تاليا الفاتحة ! .. على أنه لم يكن يقضى فى المعسكر أكثر من نصف ساعة كل أصيل وهو أقصى ما وسعه أن يتغيبه عن البيت عقب عودته من المدرسة ، نصف ساعة لم تكد تغفو فيها حاسة من حواسه دقيقة واحدة ، يدور حول الخيام ، يسير بين اللوريات مستطلعا قطعها قطعة قطعة، يقف حيال أهرام البنادق طويلا متفحصا أجزاءها جزءا جزءا خاصة فوهة الماسورة التى يكمن فيها الموت .. يقف على بعد لا يسمح له بتجاوزه ونفسه ذاهبة حسرات على اللعب بها أو على الأقل لمسها ، ولما كانت زيارته توافق ميعاد الشاى فكان يمضى مع أصدقائه الى المطبخ القائم عند مدخل درب قرمز ويأخذ مكانه فى نهاية طابور « الشاى » كما يدعونه ثم يعود وراءهم حاملا قدح شاى باللبن وقطعة من الشيكولاتة فيجلسون على سور السبيل يحتسون شرابهم وينشد الجنود أغانى جماعية وهو ينصت لهم باهتمام منتظرا دوره فى الغناء . تركت حياة المعسكر فى نفسه أثرا عميقا بث فى خياله وأحلامه يقظة شاملة ، أثرا نقش على صفحة قلبه الى جانب الآثار التى نقشتها حكايات أمينة عن عالم الغيب والأساطير ، وقصص ياسين الذى جذب روحه الى دنياها الساحرة، والأطياف والرؤى التى تتخايل له فى أحلام اليقظة وراء أغصان الياسمين واللبلاب وأصص الزهور — فوق السطح — عن حياة النمل والعصافير والدجاج . من ثم أنشأ عند سور السطح الملاصق لسطح بيت مريم معسكرا كامل العدة والعدد ؛ أقام خيامه بالمناديل والأقلام ، وأسلحته بعيدان الخشب ، ولورياته من القباقيب وجنوده من نوى التمر . وعلى كثب من المعسكر مثل المتظاهرين بالحصى يبدأ التمثيل عادة بنشر النوى جماعات بعضها فى الخيام وعند مداخلها وبعضها حول البنادق غير أربع بينها حصاة (تمثله هو) ينتحون جانبا ، يأخذ في محاكاة الغناء الانجليزى ثم يجىء دور

الحصاة لتغنى « زورونى كل سنة مرة » أو « يا عزيز عينى » ، ينتقل الى الحصى فينضده صفوفا ويهتف « يحيا الوطن . . تسقط الحماية . . يحيا سعد » ، يعود الى المعسكر مصفرا فتنتظم النوى صفوفا كذلك وعلى رأس كل صف تمرة ، ثم يدفع قبقابا وهو ينفخ محاكيا أزيز اللورى ، ويضع النوى على سطح القبقاب ثم يدفعه مرة أخرى صوب الحصى فتنشب المعركة وتسقط الضحايا من الجانبين ! . . ولم يكن يسمح لعواطفه الشخصية بأن تؤثر فى سير المعركة ، على الأقل فى بدئها ووسطها ، كانت تتحكم فيــه رغبة واحدة هى أن يجعلها معركة « صادقة مشوقة » يتنازعها الدفع والجذب من الجانبين وتتعادل الاصابات فتظل النتيجة مجهولة والاحتمال متأرجحا بين الطرفين على أن المعــركة لا تلبث طويلا حتى تستوجب نهاية تنتهى اليها ، هنالك يجد نفسه فى موقف حائر ، أى جانب ينتصر ؟ . . فى جانب أصــدقاؤه الأربعة وعلى راسهم جوليــون ، وفى الجانب الآخر مصريون يخفق معهم قلب فهمى ! . . فى اللحظة الأخيرة يقرر النصر للمتظاهرين فينسحب اللورى بقلة من الجنود بينهم الأصدقاء الأربعة وان كان قد ختم المعركة مرة بصلح شريف احتفل به المتحاربون من الطرفين بالغناء حول مائدة حفلت بأقداح الشاى ومختلف ألوان الحلوى !. . وكان جوليون أعز أصدقائه ، امتاز الى جماله بدماثة الخلق فضلا عن براعته النسبية فى التكلم بالعربية ، وهو الذى جعــل دعوته الى الشاى حقا ثانيا كما بدا أشد الجنود تأثرا بغنائه حتى كان يدعوه كل يوم تقريبا الى غنــاء « يا عزيز عينى » فيتــابعه باهتمام ثم يغمغم فى تشوق وحنين :

أروح بلدى . . أروح بلدى !

وآنس كمال منه هذه الروح فازداد به ثقة واطمئنانا حتى قال له مرة جادا وكأنما يدله على مخرج من كربه :

ـ ارجعوا سعد باشا وعودوا الى بلادكم . . !

ولكن جوليون لم يلق اقتراحه بالارتيــاح الذى كان ينتظر وعلى العكس طلب اليه ـ كما فعل من قبل فى ظرف مشــابه ـ ألا يعود الى ذكر سعد باشا قائلا : « سعد باشا .. نو ! » وهكذا فشل ـ على حد تعبير ياســين ـ أول مفاوض مصرى ! .. وما يدرى يوما الا وأحد « الأصــدقاء » يقدم له صورة كاريكاتورية رسمها له فنظر كمال اليها بدهشــة وانزعاج وهو يقول لنفسه « صــورتى ؟ ! .. ليست هذه صورتى ! » ولكنه شعر فى قرارة نفسه بأنها صورته دون غيره ولو على وجه ما ، ثم رفع عينيــه للواقفين حوله فالفاهم يضحكون فأدرك أنها نوع من المزاح وأن عليه أن يتقبــله بسرور فجــاراهم فى ضحكهم مداريا بالضحك خجله ، ولما اطلع عليها فهمى تفرس هذا فيها بدهشة ثم قال :

ـ رباه .. لم تترك عيبــا الا أبرزته ! .. الجســم النحيف الصغير ، الرقبة الطويلة الهزيلة ، الأنف الكبير ، الرأس الضخم ، العينان الصغيران !

ثم ضاحكا :

الشيء الوحيد الذى يبدو أن « صــديقك » يضمر نحوه اعجــابا هو بدلتك الأنيقة المهندمة ولا فضــل لك فى ذلك وانما الفضل لنينة التى لا تترك شيئا فى البيت الا هندمته !

ورمى اليه بطرف شامت ثم قال :

ـ بان السر الذى حببك اليهم ! .. انهم يتسلون بالضحك على شكلك وأناقتك المفرطة ، يعنى بالعربى لست الا « قره جوز » فى نظرهم .. ماذا كسبت من وراء خيانتك ؟ !.. ولكن كلام فهمى لم يحدث أثرا لأن الغلام كان يدرك مدى عداوته للانجليز فظنها مناورة يراد بها التفرقة بينــه وبينهم ! .. وجاء يوما المعســكر كعادته فرأى جوليون عند أقصى جدار السبيل يتطلع باهتمــام الى العطفة التى يفتح عليها بيت المرحوم السيد محمــد رضوان فمضى نحوه ولكنه رآه يلوح بيده محدثا اشارات غامضة لم يفقه

لها معنى بيد أنه توقف عن التقدم ملبيا احساسا غريزيا خفى عنه معناه . ثم أغراه حب الاستطلاع بأن يدور حول الخيام المنصوبة أمام واجهة السبيل متسللا الى ما وراء جوليون وأن يمد بصره الى الهدف الذى يتطلع اليه ، هنـــالك رأى كوة فى جنـــاح بيت آل رضـــوان الذى يسد العطفة القصيرة يلوح منهـــا وجه مريم واضحا باسما مستجيبا ! . وقف يردد النظر بين الجندى وبين الفتاة فى ذهول كأنما يأبى أن يصدق عينيه ، كيف اقترفت مريم الظهـــور فى الكوة ؟ ! . . كيف تصـــدت لجوليون على هذا النحو الفاضح ؟ ! هو يلوح بيديه وهى تبتسم !. . أجل ها هى الابتسامة لا تزال مطبوعة على شفتيها ! . . وها هما عيناها يســـتغرقهما النظر اليه حتى أنها لم تفطن بعـــد الى وجوده هو ! وندت عنـــه حركة لفتت اليه جوليون فما كاد يطلع على موقفه حتى أغرق فى الضـــحك وهو يرطن على حين تراجعت مريم بسرعة خاطفة فى ذعر بين . راح يتطلع الى الجندى فى ذهول وقد زاده فرار مريم ريبة على ريبة وان بدا له الأمر كله غموضا فى غموض ، ســـأله جوليون متوددا :

ــ تعرفها ؟ . .

فأحنى رأسه بالايجاب ولم ينبس ، غاب جوليون دقائق ثم عاد حاملا لفافة كبيرة قدمها الى كمال قائلا وهو يشـــير الى بيت مريم :

ــ اذهب بها اليها . .

ولكن كمال تراجع جافلا وهو يهز رأسه يمنة ويسرة فى عناد ، لم تبرح تلك الحادثة مخيلته ، ومع أنه شعر بخطورتها من بادىء الأمر الا أنه لم يدرك مدى تلك الخطورة على حقيقتها الا حين قص القصة فى مجلس القهوة مساء . استوت أمينة فى جلستها وهى تتباعد وقد ظل فنجان القهوة معلقا بين اصبعيها لا هى تقربه من فيها ولا هى تضعه على الصينية على حين غادر فهمى وياســـين

الكنبة المواجهة لمجلس الأم مهرولين الى الـكنبة التى تجلس عليها هى وكمال وجعلا يحدقان اليه باهتمام ودهش وانزعاج فاق كل ما توقع . قالت أمينة وهى تزدرد ريقها :

ـ أرأيت هذا حقا ! .. ألم تخدعك عيناك ؟ !

وتأفف فهمى :

ـ مريم ؟ ! .. مريم نفسها ؟ ! .. أمتأكد أنت مما تقول ؟ !

وتساءل ياسين :

ـ أكان يشير اليها وكانت تبتسم اليه ؟ ! .. أرأيتها تبتسم حقا ؟ ! ..

وأعادت أمينة الفنجان الى الصينية فأسـندت رأسها الى راحتها قائلة بلهجة تنم عن الوعيد :

ـ كمال ! الكذب فى مثـل هذا الأمر جريمة لا يغفرها الله .. راجع نفسك يا ابنى .. ألم تعد الحق فى شىء ؟ !

وحلف كمال بأغلظ الأيمان فقال فهمى بيأس ومرارة :

ـ انه لا يكذب ، ليس فى وسع عاقل أن يتهمه بالكذب فيما قال ، ألا تدركون أن اختراع مثل هذه القصة هو أبعد ما يكون عن تصور واحد فى سنه ؟ ! ..

فتساءلت الأم بصوت حزين :

ـ وكيف يسعنى أن أصدقه !

فقال فهمى وكأنه يحدث نفسه :

ـ أجل كيف يمكن تصديقه ! .. (ثم بصوت جاد) ولـكنه وقع .. وقع .. وقع !

وقعت الكلمة الأخيرة من نفسه موقع الخنجر ، كررها وكأنما يكرر الطعن متعمـدا ، حقا شغلته عن مريم الشواغل فلم تعـد ذكراها تـلوح الا فى حاشـية أحلام يقظته ، ولـكن الطعنة التى أصابت سمعتها نفذت اليها خلال قلبه . انه ذاهل .. ذاهل .. ذاهل ، لايدرى أن كان نسى أم لم ينس ، يحب أم يكره ، يغضب

للكرامة أم للغيرة .. ورقة شجر جافة فى مهب زوبعة متناوحة ..
ـ كيف يسعنى أن أصـدقه ؟ .. طالما كانت ثقتى فى مريم كثقتى فى خديجة أو عائشة ، أمها من الفضليات ، أبوها طيب الله ثراه كان من الأكرمين .. جيران العمر ونعم الجيران ..
قال ياسين ـ الذى بدا طول الوقت مسـتغرقا بالتفكير ـ بلهجة لم تخل من سخرية :
ـ علام تعجبون ؟ .. منذ القدم والله يخلق من صلب الأبرار أشرارا .
فقالت أمينة محتجة كأنما تأبى أن تصدق أنها خدعت طوال ذلك الدهر :
ـ يشهد الله انى لم ألاحظ عليها ما يسوء قط ..
فقال ياسين بحذر :
ـ ولا أحد منا ، حتى خديجة العيابة الكبرى ، بل خدع بها من هو أفطن منك ومنى !
فهتف فهمى متألما :
ـ من أين لى أن أطلع على الغيب ؟ ! انه أمر يشق تصوره .
وحنق على ياسين لدرجة الغليان ، ثم بدا له الخلق جميعـا بغضاء ، الانجليز والمصريون على السـواء .. الرجال والنساء ـ والنساء خاصة ـ انه يختنق .. هفت نفسه الى الاختفاء ليتنشق فى وحدته نسمة راحة بيـد أنه لم يبرح مكانه كأنما شـد اليه بحبال غلاظ ..
اتجه ياسين الى كمال متسائلا :
ـ متى رأتك ؟
ـ عندما التفت الى جوليون ..
ـ ثم فرت من النافذة ؟
ـ نعم ..
ـ هل رأت انك رأيتها ؟

ـ التقت عينانا لحظة ..

ياسين ساخرا :

ـ مسكينة ! .. انها دون شك تتخيل الآن مجلسنا هذا وحديثنا ذا الشجون !

ـ انجليزى ! ..

هتف فهمى وهو يضرب كفا على كف :

ـ بنت السيد محمد رضوان ! ..

غمغمت أمينة متنهدة وهى تهز رأسها عجبا ..

فقال ياسين متفكرا :

ـ مغازلة انجليزى ليست بالمسألة الهينة على فتاة ، هذه درجة من الفساد لا يمكن أن تظهر طفرة ..

فسأله فهمى :

ـ ماذا تعنى ؟

ـ أعنى أنه لابد أن تسبقها درجات من الفساد !

فقالت أمينة برجاء :

ـ أستحلفكم بالله أن تمسكوا عن هذا الحديث ..

فواصل ياسين حديثه ، كأنه لم يسمع رجاءها ، قائلا :

ـ مريم بنت سيدة لها فى التبرج فنون بشهادتكن أنت وخديجة وعائشة ... !

فهتفت أمينة بصوت ملؤه العتاب والزجر :

ـ ياسين ! ..

فقال ياسين كالمتراجع :

ـ أريد أن أقول اننا أسرة تعيش فى حق مغلق لا تكاد تعلم شيئا عما يدور حولها ، قصارى جهدنا أن نتصور الناس على مثالنا ، اختلطت بنا مريم أعواما طوالا ولكننا لم نعرفها على حقيقتها حتى كشفها لنا آخر من ينشد عنده كشف الحقائق ! ..

وربت على رأس كمـال ضاحكا ، ولكن أمينة عادت تقـول بتوسل حار :

ـ أستحلفكم بالله أن تغيروا مجرى الحديث ..

ابتسم ياسين ولم ينبس ، فأطبق الصمت . لم يعـد فهمى يتحمل البقاءبينهم فاستجاب الى الصوت الباطنىالذى يستصرخه ملهوفا على الفرار .. بعيداعن الأنظار والأسماع ، هنالك يستطيع أن يخلو الى نفسه ، ان يعيد عليها الحديث من ألفه الى يائه ، كلمة كلمة ، عبارة عبارة ، جملة جملة . ليفهمه ويتفهمه ثم ينظر أين يكون موضعه ..

ـ ٦٥ ـ

كان الليل قد جاوز منتصفه عند ما غادر السيد أحمد عبد الجواد بيت أم مريم متلفعا بظلمة العطفة المسدودة . بدا الحى كله ـ كما أمسى يبدو مع الهزيع الأول من الليل مذ عسـكر الانجليز فيه ـ غارقا فى النوم متدثرا بالظلام ، لا مقهى يسمر ولا بائع يسرح ولا دكان يسهر ولا مار يدب . فلم يكن فيه أثر للحياة أوالنور الا ما انبعث من المعسكر ، ومع ان أحدا من الجنود لم يتعرض له بسوء فى الذهاب أو الاياب الا أنه لم يكن يخلو قط من قلق وتوجس كلما اقترب من المعسكر فى طريقه الى البيت خاصة وانه يعود ـ آخر الليل ـ على حال من الاعياء والاسترخاء والذهول يشق معها مجرد التفكير فى السير الآمن المطمئن . انحدر الى طريق النحاسين ثم انعطف يمنة متجها الى البيت وهو يختلس النظـر الى الديدبان حتى دخل أشد مناطق الطريق خطورة .. تلك التى ينتشر فيها النور المنبعث من قلب المعسكر ، هنالك عاوده الاحساس الذى

يخامره كلما دخلها وهو أنه هدف يسير لأى صائد . فحث خطاه ليخرج منها الى الظلام المفضى الى مدخل بيته ولكنه ما كاد يخطو خطوة حتى صك أذنيه صوت أجش غليظ يزعق وراءه راطنا فأدرك على جهله رطانته ــ من عنف اللهجة واقتضابها ــ أنه رماه بأمر لايقبل المناقشة فتوقف عن المسير والتفت وراءه مرتاعا فرأى جنديا ــ غير الديدبان ــ يتجه نحوه بقوة شاكى السلاح . ماذا جد حتى دعا الى هذه المعاملة ؟ .. أيكون الرجل ثملا ؟ .. أم لعله أذعن لنزوة اعتداء طارئة ؟ .. أم هو يبتغى السلب والنهب ؟. جعل يرقب اقترابه بقلب خافق وحلق جاف وقد طار الخمار من رأسه . وقف الجندى على بعد خطوة منه ثم وجه اليه بلهجة آمرة كلاما سريعا قصيرا ــ لم يفهم منه بطبيعة الحال كلمة واحدة ــ وهو يشير بيده الخالية صوب شارع بين القصرين فحملق السيد فى وجهه بيأس واستعطاف وهو يعانى مرارة العجز عن التفاهم معه كى يقنعه ببراءته مما يتهمه به أو كى يعرف على الأقل مايريد ، ثم خطر له أنه قصد باشارته الى بين القصرين أن يأمره بالابتعاد ظنا منه انه غريب مريب فراح يشير الى بيته بدوره ليفهمه أنه من سكانه وانه عائد اليه ولكن الجندى تجاهل حركته وهو يدمدم ثم أصر على أشارته وهو يهز رأسه فى نفس الاتجاه كأنما يحثه على الذهاب ، ثم بدا أنه ضاق به فقبض على منكبه وأداره بقوة فدفعه فى ظهره فوجد السيد نفسه يتحرك متجها نحو بين القصرين والآخر وراءه فاستسلم ــ ومفاصله تكاد تسيب ــ الى المقادير ، جاوز فى مسيره المجهول المعسكر ثم سبيل بين القصرين وهناك اختفى آخر اثر للضوء المنبعث من المعسكر فخاض أمواج الظلام الدامس والصمت الثقيل ، لا منظر يرى الا أشباح البيوت ولا صوت يسمع الا وقع القدمين الغليظتين اللتين تتبعانه فى نظام ميكانيكى رهيب كأنهما يعدان الدقائق الباقية له فى الحياة ، ولعلها ثوان ، أجل كان يتوقع

فى اية لحظة ان ينقض عليه بخبطة تهــوى به الى النهــاية فمضى يترقبها بعينين محملقتين فى الظلام وفم مطبق من الجزع وحرقوة تتحرك حركة عصبية من آن لآن كلما ازدرد ريقه الجاف الملتهب حتى بوغت بوميض يجذب بصره الى أسفل فكاد يصرخ كالأطفال من الهلع وقد تهاوى قلبه ولكن تبينه دائرة من الضــوء تذهب وتجىء فأدرك أنها شعاع من بطارية أضاءها سائقه ليتعرف على طريقه خلال الظلمات . استرد أنفاسه بعد أن تخفف من الذعر الباغت ولكنه لم يكد يستشــعر نسمة راحة حتى تلقفه خوفه الأول ، خوف الموت الذىيساق اليه ، فعــاد يترقب حتفه بين لحظة وأخرى كأنه غريق توهم فى تخبطه أنه يرى تمساحا يتوثب لمهاجمته ثم تبين له أن ما رأى أعشاب طافية ولكن فرحته للنجاة من الخطر الوهمى لم تكد تتنفس حتى اختنقت تحت ضغط الخطر الحقيقى المحيط به . الى أين يسوقه ؟ ، لو يستطيع أن يراطنه فيسأله ! ، يبدو أنه سيواصل سوقه حتى يدفع به الى قرافة باب النصر ، لا أثر لانسان ولا لحيوان ؛ أين الغفير ؟ ، وحيد تحت رحمة من لا يرحم ، متى كان مثل هذا العذاب .. هل يذكر ؟ الكابوس .. أجل انه الــكابوس ، كابده أكثر من مرة خــلال نوم مريض ، ان ظلمة الكابوس نفسـها لا تخلو أحيــانا من بارقة أمل قد يشرق بنفس النائم احساس حنون بأن ما يعانيه حلم لاحقيقة وبأنه سينجو من شره الآن أو بعد حين ، هيهات أن يجود الدهر بمثل ذلك الأمل ، انه صاح لا نائم وهذا الجندى الشاكى السلاح حقيقة لا خيال وهذا الطريق الذى يشهد ذله وأسره شىء ملموس مخيف لا وهم ، عذابه حقيقة لا سبيل الى الشك فيها ؛ ان أقل حركة ممانعة تند عنه خليقة بأن تطيح برأسه .. لا سبيل الى الشك فى هذا أيضا ، قالت له أم مريم وهى تودعه « الى الغــد » .. الغد ؟ ! هل يطلع ذلك الغد ؟! ، سل القدمين الثقيلتين اللتين ترجان الأرض وراء ظهرك .. سل البندقية ذات السونكى الحاد



المدبب ، قالت له أيضا وهى تمازحه « تكاد رائحة الخمر المتطايرة من فيك أن تسكرنى » .. الآن طارت الخمر وطار عقله ، ولت ساعة الصبوة ، منذ دقائق معدودة .. كانت الصبوة كل شيء فى الحياة .. الآن العــذاب هو كل شيء .. وليس بين هــذا وذاك الا دقائق معدودة .. دقائق معــدودة ؟! .. عند ما بلغ منعطف الخرنفش جذب عينيه شــعاع يومض فى الظلام فلحظ الطريق فرأى بطارية تتحرك فى يد جندى آخر يسوق بين يديه أشباحا لم يتبين عددهم !.. تساءل ترى هل صدرت الى الجنود أوامر بالقبض على من يصــادفون من الرجال ليــلا ؟ !.. والى أين يسوقونهم ؟.. وأى عقاب سيقضون به عليهم ؟ تســاءل طويلا وهو من الدهش والانزعاج فى نهاية بيد أن رؤيته للضحايا الجدد ادخلت على قلبه شيئا من العزاء والارتياح ، لم يعــد على الأقل وحيدا كما كان يظن ، وجــد فى بلواه أندادا يؤنسون وحشــته ويشاركونه المصير ، كان يتقدم قافلتهم بمسافة قصــيرة فراح ينصت الى وقع أقدامهم مستأنسا اليها كما يستأنس الضال فى مفازة الى أصوات آدمية ترامت اليه مع الريح ، ولم تكن أمنية أعز على نفســه آنئذ من أن يلحقوا به لينضم الى جماعتهم ، سواء كانوا معارف أو غرباء ، لتخفق قلوبهم معــا وهم يحثون الخطى نحو المصير المجهول . هؤلاء الرجال أبرياء وهو برىء ففيم القبض عليهم ؟ ، فيم القبض عليه هو مثلا ؟ ، لا هو من الثوار ولا من المشتغلين بالسياسة ولا حتى من الشبان فهل يطلعون على الأفئدة ويحاسبون على المشاعر ؟.. أو تراهم يعتقلون أفــراد الشعب بعد أن فرغوا من اعتقــال الزعماء ! ، لو كان يعــرف الانجليزية فيسأل آسره ؟ .. أين فهمى ليحادثه نيابة عنه ؟.. وخزه الألم والحنين ، أين فهمى وياسين وكمال وخديجــة وعائشــة وأمهم ؟ هل يمكن أن تتصور أسرته ما آل اليه حاله من هوان وهى التى لم تره الا جبارا عزيزا جليلا ؟ ، هل تتصــور أن الجندى دفعه

بعنف حتى أوشك أن يطرحه أرضا وأنه يسوقه كما تساق السائمة ؟. وجد لذكر آله ألما وحنينا فكادت تدمع عيناه . كان يمر فى طريقه بأشباح بيوت ودكاكين يعرف أصحابها ، ومقاه كان يوما ـ خاصة على عهد الصبا والشباب ـ من سمارها ؛ فأحزنه أن يمضى بها أسيرا دون أن تنهض لنجدته أو حتى ترثى لحاله ، شعر حقا بأن أحزن صنوف الهوان ما حاق به فى حيه ، ثم رفع عينيه الى السماء باعثا بفكره الى الله المطلع على قلبه ، بعث اليه بفكره دون أن يجرى له ذكرا على لسانه ولو همسا مستحيا من أن ينطق باسمه وجسمه لم يتطهر من أنفاس الشراب وعرق الغرام ، وما لبث أن تضاعف خوفه من أن يباعد دنسه بينه وبين النجاة ، أو أن يلقى مصيرا كفاء لما سلف من استهتاره ، ففشى صدره تطير وكآبة ، وأشفى على اليأس ، حينما شارف سوق الليمون ترامى الى الصمت الذى لا يؤنسه الا وقع الأقدام أصوات مبهمة فأرهف السمع محملقا فى الظلام ـ وهو يتقدم بين الخوف والرجاء ـ فتناهت الى أذنيه لجة لم يدر ان كان مصدرها انسان أو حيوان ، غير أنه تبين بعد قليل لغطا فلم يتمالك أن قال لنفسه فى لهفة « أصوات آدمية ! » ، ومال مع الطريق فلاحت لعينيه أضواء متحركة حسبها بادىء الأمر بطاريات جديدة ولكنها وضحت مشاعل رأى على نورها جانبا من بوابة الفتوح يقف تحته جنود بريطانيون ، ثم تراءى له جنود من البوليس المصرى رد منظرهم الى صدره الدماء . سأعرف ما يراد بى ، لم يبق الا مسير خطوات ، ماذا دعا الى تجمهر الجنود الانجليز والمصريين عند البوابة ؟ ؛ لماذا يسوقون الأهالى من شتى انحاء الحى ؟ عما قليل أعرف كل شىء ، كل شىء ، كل شىء ؟ فلأستعذ بالله ولأسلم اليه أمرى ؛ سأذكر هذه الساعة الرهيبة مدى العمر ان كان فى العمر بقية ، الرصاص .. المشنقة .. دنشواى .. أأنضم الى سجل الشهداء ؟ أأصبح نبأ من انباء الثورة يتناقله محمد عفت

وعلى عبد الرحيم وابراهيم الفار كما كنا نتناقل الأخبار فى سهرات المساء ؟ تصور السهرة ومكانك شاغر ؟ رحمة الله عليه .. كان وكان .. لشد ما يبكونك ، وسيذكرونك طويلا ، ثم تنسى ، ما أشد اضطراب قلبى ؛ سلم أمرك للذى خلقك . اللهم حوالينا ولا علينا . ما أن اقترب من موقف الجنود حتى اتجهت الأنظار اليه باردة قاسية متوعدة فغاص قلبه فى الأعماق مخلفا وراءه فى الأضلع ألما حادا ، ترى هل آن له أن يتوقف ؟ تثاقلت قدماه ولفه التردد والحيرة ..

أدخل ..

هتف بها شرطى وهو يشير الى داخل البوابة فنظر السيد اليه نظرة ناطقة بالتساؤل والاستعطاف والاستغاثة ، ثم مر بين الجنود لا يكاد يرى ما بين يديه من شدة الفزع ويود لو يغطى رأسه بذراعيه استجابة لغريزة الخوف التى تستصرخه . هنالك تحت قبة البوابة رأى منظرا عرفه بما يراد به بغير حاجة الى سؤال ، رأى حفرة عميقة كالخندق تعترض الطريق ، كما رأى جمهورا من الأهالى يعملون بلا توقف وتحت اشراف الشرطة لسد الحفرة بأن يحملوا الأتربة فى مقاطف ويفرغونها فيها ، الكل يعمل بهمة وسرعة والأعين تسترق النظر فى خوف الى الجنود الانجليز الذين رابطوا عند مدخل البوابة . اقترب منه شرطى ورمى اليه بمقطف وهو يقول بصوت غليظ ينم عن وعيد :

ـ افعل كما يفعل الآخرون ..

ثم همسا :

ـ أسرع حتى لا يصيبك أذى ..

كانت هذه الجملة أول تعبير «انسانى» يلقاه فى رحلته المخيفة فسرت فى صدره سرى النسمة فى حلق المختنق ، انحنى على المقطف فتناوله من علاقته وهو يسأل الشرطى همسا :

ـ هل يطلق سراحنا اذا تم العمل ؟

فأجابه بنفس الصوت :

ـ ان شاء الله ..

تنهد من الأعماق ، روادته نفسه على البكاء ، شعر بأنه يولد من جديد ؛ رفع بيسراه الجبة من طرفها ودسه فى حزام القفطان كيلا تعوقه عن العمل ومضى بالمقطف الى طوار البوابة حيث تراكمت الأتربة فوضعه بين قدميه وراح يملأ كفيه بالتراب ويفرغها فى المقطف حتى امتلأ ثم حمله بيده وذهب الى الحفرة فأفرغه فيها وعاد الى الطوار ، واصـل العمل بين جماعات من الناس ضمت الأفندية والمعممين ، الهرمين والشبان ، يعملون جميعا بهمة عالية مستمدة من رغبتهم فى الحيـاة ؛ وانه ليملأ مقطفه اذ لكزه كوع فالتفت الى مصدره فرأى صديقا يدعى غنيم حميـدو صاحب معصرة زيوت بالجمالية ممن يلمون بمجالس لهوه بين حين وآخر ففرح به فـرحة عظمى كما فرح به الآخر ، وسرعان ما تهامسا :

ـ انت وقعت أيضا .. !

ـ قبلك ، وصلت قبيل منتصف الليل ورأيتك وأنت تتسلم مقطفك فجعلت فى ذهابى وايابى اتبع طريقـا يميل اليك رويدا رويدا حتى جاورتك .

ـ اهلا .. اهلا ، أليس ثمة احد من أصدقائنا ؟

ـ لم أعثر على غيرك ..

ـ قال لى الشرطى انهم سيطلقون سراحنا حالما نتم العمل .

ـ قيل لى ذلك أيضا ، ربنا يسـمع منك ..

ـ سيبوا ركبى الله يخرب بيوتهم ..

ـ لم تعد لى ركب على ما أظن !

وتبادلا ابتسامة مقتضبة ..

ـ ما أصل هذه الحفرة ؟

ـ يقال ان فتوات الحسينية حفروها أول الليل ليمنعوا مسير اللوريات ويقال أيضا أن لوريا وقع فيها !

ــ ان صح هذا فقل علينا السلام !

وعندما تجاوروا مرة ثانية عند كوم الأتربة كانا قد ألفا الموقف بعض الشيء فعاودتهما الروح حتى أنهما لم يتمالكا أن ابتسما وهما يملآن مقطفيهما بالتراب كعمال البناء فهمس غنيم :

ــ حسبنا الله ونعم الوكيل على أولاد الكلب .

فهمس السيد باسما :

ــ أرجو أن يعطونا أجرا مناسبا !

ــ أين قبض عليك ؟

ــ أمام البيت .

ــ طبعا !..

ــ وأنت ؟..

ــ كنت بالعا منزولة ، ولكنى أفقت تماما ، الانجليز أقوى من الكوكايين !

ــ أقوى من القيء نفسه !

مضى الرجال يذهبون ويجيئون عجلين ما بين طوار الأتربة والحفرة على ضوء المشاعل ، اثاروا التراب حتى انتشر فى فراغ القبة خالقا جوا خانقا فعلاهم البهر وتصبب العرق من جباههم وأغبرت وجوههم وتتابع من انتشاق الغبار سعالهم فكأنهم أشباح انشقت عنهم الحفرة . على أى حال لم يعد وحده ، هذا الصديق وهؤلاء الرجال من حيه ، جنود البوليس المصريون معهم بقلوبهم ؛ آى ذلك انهم جردوا من سلاحهم .. لم يعد السيف ذو الغمد المعدنى يتدلدل من أحزمتهم ، اصبر .. اصبر لعل هذه الغمة ان تنكشف ، هل كنت تتصور انك ستعمل حتى مطلع الصباح وربما حتى الضحى ، شد حيلك ؛ ليس ثمة أنك ستحمل التراب وتسخر فى سد الحفرة ؟ لا تريد الحفرة أن تمتلىء ، لا فائدة ترجى من الشكوى ، ولمن تشكو ؟ جسمك قوى صلب العود يستطيع أن يتحمل رغم سكرة الليل وعبثها ، كم الساعة الآن ؟ ليس من الحيطة

أن تنظر فيها ، لو لم يقع لى هذا لكنت الآن مستلقيا على افراش منعما بلذيذ المنام ، كنت أستطيع أن اغسل راسى ووجهى وأشرب شربة روية من ماء القلة المعطرة بالزهر ، هنيئا لنا هذه المشاركة فى جحيم الثورة ، لم لا ؟ البلد ثائر ، كل يوم .. كل ساعة ضحايا وشهداء ، بيد أن قراءة الصحف وتناقل الأخبار شيء أما حمل التراب تحت تهديد البنادق فشيء آخر ، هنيئا لكم أيها النائمون فى أسرتكم ، اللهم احفظنا ؛ لست لها .. لست لها ، اللهم اهزم المشركين بقوتك ، نحن ضعفاء .. لست لها ، هل يتصور فهمى أى خطر يتهدده ؟ انه يستذكر دروسه الآن غير عالم بما يحيق بأبيه ، قال لى : « لا » لأول مرة فى حياته ، قالها بدموعه ولكن سيان عندى المعنى واحد ؛ لم اقل لأمه ، لن أقول لها ، اكشف لها عن عجزى ؟ أأستعين بضعفها بعد أن أخفقت بقوتى ؟ كلا .. لتبق جاهلة بكل شيء يقول انه لا يعرض نفسه للخطر ، حقا ؟ اللهم استجب ، لولا هذا ما رحمته أبدا ؛ اللهم احفظه ، اللهم احفظنا جميعا من شر هذه الأيام ، كم الساعة الآن ؟ ان طلع علينا الصباح أمنا القتل ، لن يقتلونا أمام الخلق ، الصباح ؟.

ـ بصقت على الأرض كى أتخلص من الغبار اللازق بسقف حلقى فرمانى أحد الأبالسة بنظرة وقف لها شعر راسى !

ـ لا تبصق ، تشبه بى ، لقد بلعت من التراب قدراً يكفى لسد هذه الحفرة !..

ـ لعل زبيدة دعت عليك ؟

ـ لعلها ....

ـ الم يكن سد حفرتها أطيب من سد هذه الحفرة ؟

ـ بل أشق !

تبادلا ابتسامة سريعة ثم قال غنيم متنهدا :

ـ انقصم ظهرى ياهوه ..

ـ مثلك ، عزاؤنا اننا نشارك المجاهدين بعض آلامهم .

— ما رأيك فى أن أرمى بالمقطف فى وجه الجنود وأهتف بأعلى صوتى « يحيى سعد » ؟!

— اشتغلت المنزولة من جديد ؟

— يا للخسارة !.. كانت قطعة « قد فص العين » حركتها بالشاى مرة ومرتين وثلاثا ، ثم ذهبت الى الطمبكشية أسمع الشيخ على محمود فى بيت الحمزاوى ، وعدت قبيل منتصف الليل وأنا أقول لنفسى «الولية الآن تنتظرك لا أفلح من خيب لها رجاء » حين طلع على ابن القرد وساقنى من قفاى ..

— ربنا يعوض عليك ..

— آمين ..

جاء الجنود برجال آخرين بعضهم من ناحية الحسينية والبعض الآخر من ناحية النحاسين وسرعان ما انضموا الى « العمال » . ألقى على المكان نظرة فوجده ازدحم بالجمهور أو كاد وقد انتشروا حول الحفرة فى جميع الجهات ، يذهبون الى الطوار ويرجعون اليها فى حركة لا تنقطع وأنوار المشاعل تضىء منهم وجوها لاهثة نال منها الاعياء والذل والخوف كل منال . الكثرة بركة وأمان ، لن يذبحوا هذا الجمع الغفير من الناس ، لن يأخذوا البرىء بالمذنب ؛ ترى أين المذنبون ؟ أين هؤلاء الفتوات ؟ هل يعلمون الآن ان اخوانا لهم وقعوا فى الحفرة التى حفروا ؟! قاتلهم الله هل حسبوا أن حفر حفرة سيعيد سعد أو يخرج الانجليز من مصر ! لأنقطعن عن السهر ان كتب الله لى عمرا جديدا ، أنقطع عن السهر ؟ لم يعد السهر بمأمون ، كيف تكون طعم الحياة ؟ لا طعم للحياة فى ظل الثورة ، الثورة .. أى جندى يقبض عليك .. تحمل التراب بكفيك ، فهمى يقول لك : لا ، متى تعود الدنيا الى أصلها ؟ صداع ؟.. بل صداع وغثيان ، دقائق من الراحة .. لا أطمع فى مزيد ! بهيجة فى سابع نومة ، أمينة تنتظر كما تنتظر « ولية » غنيم ، هيهات أن يخطر لكم ما حاق بأبيكم ، رباه ان التراب يملأ انفى وعينى ،

يا سيدنا الحسين ، امتلئى .. امتلئى .. أما كفاك هـذا التراب كله ؟! يابن بنت رسول الله ، غزوة الخندق .. هكذا دعاها سيدنا الواعظ ، كان عليه الصـلاة والسلام يعمل مع العـاملين ويرفع التراب بيديه .. كافرون وكافرون لماذا ينتصر كافرو اليوم !.. فساد الزمن .. فساد الزمن .. فسادى أنا ، هل يعسكرون أمام البيت حتى تنتهى الثورة ؟

ـ ألم تسمع الديكة ؟

أرهف السيد أذنيه .. ثم غمغم :

ـ الديكة تصيح ! الفجر ؟

ـ نعم .. ولكنها لن تمتلىء قبل الصباح ..

ـ الصباح !

ـ المهم انى محصور ، محصور جدا ..

اتجه ذهن السيد الى أسفل فشعر بأنه محصور أيضا ، وبأن جانبا من آلامه يعود بلا شك الى ذلك ، وسرعان ما اشتد ضغط المثانة عليه كأنما هيجها تفكيره فيها ، قال :

ـ وأنا كذلك ..

ـ والعمل .. ؟

ـ ما باليد حيلة ..

ـ أنظر هناك الى ابن القرد الذى وقف يبول أمام دكان على الزجاج ! ...

ـ آه ...

ـ اخراج شوية بول أهم الآن عندى من اخراج الانجليز من مصر كلهـا ...

ـ اخراج الانجليز من مصر كلها ؟! ليخرجوا أولا من النحاسين .

ـ رباه .. انظر .. لا يزال الجنود يأتون بالناس !

رأى السيد جماعة جديدة تشق طريقها صوب الحفرة ..

— ٦٦ —

استيقظ السيد أحمد من نومه حوالى العصر وكان نبأ واقعته قد ذاع فى الأهل والأصدقاء فوفدوا على البيت واجتمعوا به مهنئين بالسلامة فراح يقص القصة ويعيدها بأسلوب لم يخل — رغم جدية الأمر — من فكاهة وتهويل حتى أثار شتى التعليقات . كانت أمينة أول من سمع القصة ، ألقاها عليها وهو مشتت النفس خائر القوى لا يكاد يصدق حقا انه نجا فتلقت وحدها الجانب المفجع خالصا ، وما كادت تغادره نائما حتى استرسلت فى البكاء وجعلت تدعو الله أن يرعى أسرتها بعنايته ورحمته ، ودعت الله طويلا حتى كل لسانها . ولكنه حينما وجد نفسه محوطا بأصدقائه خاصة المقربين منهم أمثال ابراهيم الفار وعلى عبد الرحيم ومحمد عفت ، استرد الكثير من روحه المعنوية فتعذر عليه أن يغفل الجانب الفكاهى من الحادث حتى غلب على ما عداه فانتهى الحديث الى نوع من المزاح كأنما كان يقص عليهم مغامرة من مغامراته . وبينما حفل الدور الأعلى بالزائرين اجتمع شمل الأسرة بالدور التحتانى فيما عدا الأم التى شغلت مع أم حنفى بتهيئة القهوة والأشربة . شهدت الصالة من جديد اجتماع ياسين وفهمى وكمال وخديجة وعائشة فى مجلس الأم التقليدى ، وقد انضم اليهم خليل شوكت وابراهيم شوكت سحابة النهار ولكنهما صعدا الى حجرة الأب عقب استيقاظه بقليل فخلا الجو للأخوة ، وكان الحزن الذى غشيهم طوال النهار على ما أصاب والدهم قد زايلهم بعودة الطمأنينة الى نفوسهم فنبضت قلوبهم بالعواطف الأخوية وتوثبوا للسمر والمرح كعهدهم فى الأيام الخوالى . على أن الطمأنينة لم

تستقر بنفوسهم حتى رأوا والدهم بأعينهم ، اقبلوا عليه واحدا فى اثر واحد فقبلوا يده ودعوا له بطول العمر والسلامة ثم غادروا الحجرة فى نظام وادب عسكريين . ومع أن السيد اكتفى بمد يده لياسين وفهمى وكمال بالتتابع دون أن ينبس بكلمة الا أنه ابتسم الى خديجة وعائشة وسألهما فى رقة عن الحال والصحة ، رقة لم تحظيا بها الا بعد زواجهما ، وكان كمال يلاحظهما بدهشة مقرونة بسرور كأنما هو الذى يحظى بها . والحق أن كمال كان أسعد الجميع بزيارة شقيقتيه كلما هلت . كان ينعم فى أثنائها بسعادة عميقة لا يعكر عليه صفوها الا تفكيره فى النهاية المتوقعة ، ودائما كان يجىء النذير بهذه النهاية من أحد الرجلين — ابراهيم أو خليل — اذا تمطى أو تثاءب ثم قال « آن لنا أن نذهب » أمر مطاع لا يرد ، لم تتكرم احدى شقيقتيه — ولو مرة واحدة — بأن تجيبه قائلة مثلا « اذهب أنت وسألحق بك غدا » ! بيد أنه بمرور الزمن اعتاد الصلة العجيبة التى تربط بين شقيقتيه وزوجيهما وسلم بحكمها وقنع بالزيارة القصيرة تجىء بين الحين والحين فيسعد بها دون طمع فى مزيد . وبالرغم من هذا فلم يكن يتمالك أحيانا اذا رآهما مقبلتين من أن يقول متمنيا « لو تعودان الى البيت فتقيمان فيه كما كنتما » ! فتبادره أمه قائلة « ربنا يكفيهما شر تمنياتك الطيبة ! » . بيد أن أعجب ما صادفه فى حياتهما الزوجية كان ذاك التغير العجيب الذى طرأ على البطن .. وما صاحبه من أعراض بدت تارة مرعبة كالمرض وطورا غريبة كالأساطير ، وفدت على حافظته ألفاظا جديدة كالحبل والوحم وما اكتنف الأخير من قىء وتوعك والتهام لحبات الطين الجافة .. ثم ما شأن بطن عائشة ؟ .. متى يقف عن النمو الذى جعله كالقربة المنفوخة ؟ .. وهذا بطن خديجة بدأ — فيما يبدو — يحظو نفس الخطوات ، واذا كانت عائشة ذات البشرة العاجية والشعر الذهبى قد وحمت على الطين فعلى اى شىء توحم خديجة ؟ ! .. غير أن خديجة لم

تحقق مخاوفه فتوحمت على المخلل حتى استثارت منه أسئلة لا حصر لها لم يظفر أحدها بجواب مقنع ! . وتقول أمه ان بطن عائشة ــ وبطن خديجة بالتـالى ــ سيتمخض عن طفل صغير سوف يكون قرة لعينه .. ولكن : أين يقيم هذا الطفل ، وكيف يعيش ، وهل يسمع ويرى ، وماذا يسـمع وماذا يرى ؛ وكيف وجد . ومن أين جاء ؟ ! .. على أن هذه الأسئلة لم تهمل ، ظفر عنها بأجوبة جديرة حقا بأن تلحق بمعارفه عن الأولياء والعفاريت والرقى والتعاويذ وغير ذلك من المواد التى تزخر بها دائرة معارف أمه .. لذلك سأل عائشة مستطلعا باهتمام :

ــ متى يخرج الطفل ؟

فأجابته ضاحكة :

ــ اصبر لم يبق الا قليل ..

فتساءل ياسين :

ــ أظنك فى شهرك التاسع ؟

فأجابته :

ــ نعم ولو أن حماتى تصر على أنى فى الثامن !

فقالت خديجة بحدة :

ــ أصل حماتك تصر دائما على أن يكون لها رأى مخالف ، هذا كل ما هنالك !

ولما كان الجميع على علم بما ينشب كثيرا بين خديجة وحماتها من نزاع فقد تبادلوا النظرات ثم ضحكوا ..

وقالت عائشة :

ــ أود أن أقترح عليكم أن تنتقلوا الى بيتنا فتبقوا معنا حتى يجلو الانجليز عن شارعكم ..

فقالت خديجة بحماس :

ــ أجـل ، لم لا ؟ . ان البيت كبير وستنزلون على الرحب

والسعة ، فيقيم بابا ونينة عند عائشـــة لأنها فى الدور الأوسط ، وتقيمون أنتم عندى ..

رحب كمال بالاقتراح فتساءل بلهجة تنم على التحريض :

ـ من يقول لبابا ؟

ولكن فهمى قال وهو يهز منكبيه :

ـ انكما تعلمان حق العلم أن بابا لا يمكن أن يوافق ..

فقالت خديجة بأسف :

ـ ولكنه يحب السهر فيكون عرضة لتحرش الجنود ، يا لهم من مجرمين ! .. ساقوه فى الظلام وحملوه التراب ! .. آه ، رأسى يدور كلما تصورت هذا ..

فقالت عائشة :

ـ كنت أنتظر دورى لتقبيل يده وانا اتفحص جســمه جزءا جزءا لأطمئن عليه ، كان قلبى يدق .. وعيناى تغالبان الدمع .. لعنة الله على الكلاب أولاد الكلاب ! ..

فابتسم ياســين .. وقال لعائشـــة محذرا وهو يلحظ كمال غامزا بعينه :

ـ لا تسبى الانجليز هكذا فان لهم بيننا أصدقاء .. !

فقال فهمى متهكما :

ـ لعله مما يسر له بابا أن يعلم أن الجندى الذى قبض عليه ليلا ما هو الا صديق من أصدقاء كمال ..

فابتسمت عائشة الى كمال متسائلة :

ـ ألا تزال تحبهم بعد ما كان منهم ؟

فغمغم كمال وقد تورد وجهه حياء وارتباكا :

ـ لو عرفوا أنه أبى ما تعرضوا له بسوء !

فما تمالك ياســين الا أن ضحك ضحكة عالية حتى أنه غطى فمه بيده وهو ينظر فى حذر الى الســقف كأنما خاف أن يترامى صوت ضحكته الى الدور الأعلى .. ثم قال ساخرا :

ـ الأحرى بك أن تقول : انهم لو عرفوا أنك مصرى ما صبوا العذاب على مصر والمصريين ، ولكنهم لا يعرفون !

فقالت له خديجة بلهجة لاذعة :

ـ دع هـذا الكلام لغيرك أنت ! .. أتنكر أنك من أصـدقائهم كذلك ؟ !

ثم مخاطبة كمال بلهجة لاذعة :

ـ أتواتيك الشجاعة بعـد ما عرف عن صداقتك لهم على أن تصلى الجمعة فى سيدنا الحسين ؟

ففطن ياسين الى مرمى هجومها وقال مظهرا الأسف :

ـ يحق لك أن تتطاولى على ما دمت قد تزوجت فاكتسبت بعض حقوق الآدميين ..

ـ ألم يكن لى هذا الحق من قبل ؟ !

ـ الله يرحم أيام زمان .. ! ولكنه الزواج يعيد الى البائسات الروح ! .. اسـجدى شكرا للأوليـاء .. ولتعـاويذ وأقراص أم حنفى .

فقالت خديجة وهى تغالب ضحكة :

ـ يحق لك أنت أن تتهجم على الناس بالحق وبالباطل بعد أن ورثت المرحومة وصرت فى عداد الملاك .

فقالت عائشة بفرح صبيانى كأنما لم تدر من الأمر شيئا :

ـ اخى فى عداد الملاك ! .. ما أجمل أن أسمع هذا ! .. أأنت غنى حقا يا سى ياسين ! ؟

فقالت خديجة :

ـ دعينى أعد لك أملاكه ، اسمعى يا ستى : دكان الحمزاوى وربع الغورية وبيت قصر الشوق ..

فقال ياسين وهو يهز رأسه مغمضا عينيه :

ـ ومن شر حاسد اذا حسد ..

فتابعت خديجة حديثها دون مبالاة بمقاطعته :

ـ وما خفى من الحلى والنقود المخبأة أعظم ..

فهتف ياسين فى أسف صادق :

ـ اختفت كلها وحياتك ، سرقت ، سرقها ابن الكلب . جعلت أبى يسأله عما اذا كانت تركت حليا أو نقودا فقال اللص « ابحثوا بأنفسكم ، علم الله أنى كنت أنفق عليها فى أثناء مرضها من جيبى الخاص » .. اسمعوا يا هوه .. جيبه الخاص ابن الغسالة ..

فقالت عائشة بتأثر :

ـ يا ولداه ! .. مريضة طريحة الفراش تحت رحمة رجل طامع فى مالها ! .. لا صديق ولا حبيب ، غادرت الدنيا من دون أن يحزن عليها أحد .

فتساءل ياسين :

ـ من دون أن يحزن عليها أحد ؟ !

فأشارت خديجة من خلال باب موارب الى ملابس ياسين المعلقة بالمشجب وقالت محتجة احتجاجا ساخرا :

ـ وهذا البابيون الأسود ؟ ! .. اليس آية على الحزن ؟ ! .

فقال ياسين جادا :

ـ لقد حزنت عليها حقا ، ربنا يرحمها ويغفر لها ، ألم نكن تصافينا فى آخر لقاء ؟ . الله يرحمها ويغفر لها ولنا ..

فخفضت خديجة رأسها قليلا رافعة حاجبيها ثم نظرت اليه من أعلى كمن ينظر من فوق نظارته وهى تقول :

ـ احم .. احم .. اسمعوا سيدنا الواعظ (ثم وهى ترمبه بنظرة شك) ولكن لم يبد عليك فيما أظن حزن شديد ؟ !

فرماها بنظرة مغيظة قائلا :

ـ ما قصرت فى واجبى نحوها والحمد لله ، اقمت لها مأتما استمر ثلاث ليال ، وكل جمعة أزور القرافة محملا بالرياحين والفواكه .. أم تريدينى أن ألطم وأعول وأحثو التراب على رأسى ! . ان للرجال حزنا غير حزن النساء .

فهزت رأســها كأنما تقــول « أفدتنى أفادك الله » ثم قالت متنهدة :

ــ آه من حزن الرجال ! .. ولكن خبرنى وحياتى عندك ثم يخفف الدكان والربع والبيت من لوعة الحزن !!

فقال متأففا :

ــ صدق من قال : ان قبح اللسان من قبح الوجه ..

ــ من قال هذا ؟ ..

أجابها باسما :

ــ حماتك ! ..

فضحكت عائشة ، وضحك فهمى وهو يسأل خديجة :

ــ ألم تتحسن العلاقات بينكما ؟

فأجابت عائشة بالنيابة عنها قائلة :

ــ سوف يتحسن ما بين الانجليز والمصريين قبل أن يتحسن ما بينهما ..

فقالت خديجة بحنق لأول مرة :

ــ امرأة قوية ، ربنا عليها ، والله أنا بريئة ومظلومة ..

فقال ياسين متهكما :

ــ نصدقك يا أختى بلا قسم ، هذا شىء نشهد به أمام الله فى يوم العذاب !

فعاد فهمى يسأل عائشة :

ــ وأنت كيف حالك معها ؟

فقالت عائشة وهى تلحظ خديجة باشفاق :

ــ على ما يرام ..

فهتفت خديجة :

ــ آه من أختك عائشة .. تعرف كيف تسوس وتطأطىء الرأس .. اتفوخص ..

فقال ياسين متصنعا الجد :

ـ على أى حال فلحماتك الرحمة ولك صادق التهنئة !

فقالت بسخرية :

ـ التهنئة الحقة لك أنت قريبا ان شاء الله حين تزف الى عروسك الثانية ! .. أليس كذلك ؟ ..

فما تمالك الا أن ضحك .. ثم قال :

ـ ربنا يسمع منك ..

فتساءلت عائشة باهتمام :

ـ حقا ؟ ..

ففكر قليلا .. ثم قال فى شىء من الجد :

ـ المؤمن لا يلدغ من جحر مرتين ، ولكن من يعلم بما يأتى به الغد ؟ ! ربما ثانية وثالثة ورابعة ..

فهتفت خديجة :

ـ هذا ما أتوقعه ، الله يرحم جدك !

فضحكوا جميعا حتى كمال ، ثم عادت عائشة تقول بصوت أسيف :

ـ مسكينة زينب ! .. كانت فتاة لطيفة وطيبة ..

ـ كانت .. ! وكانت حمقاء أيضا ، أبوها ـ مثل أبى ـ لا يطاق .. لو رضيت بمعاشرتى كما أحب ما فرطت فيها أبدا .

ـ لاتعترف بهذا ، حافظ على كرامتك ، لاتشمت بك خديجة ..

قال باستهانة :

ـ نالت الجزاء الذى تستحقه ، فلينقعها أبوها ويشرب ماءها.

فغمغمت عائشة :

ـ ولكنها حبلى يا ولداه ! .. أترضى لوليدك بأن ينمو بعيدا عن رعايتك حتى تسترده غلاما ؟ ! ..

آه ، أصابت مقتلا ، ينمو فى حضانة أمه كما نما أبوه من قبل . ربما كابد تعاسة كتعاسته أو أشد . ربما نمت معه كراهية لأمه أو لأبيه ، تعاسة على أى حال . قال عابسا :

ـ ليكن حظه كحظ ابيه ، ما باليد حيلة .
وساد الصمت قليلا حتى سأل كمال خديجة :
ـ وانت يا أبلة متى يخرج الطفل .. ؟
فأجابته ضاحكة وهى تتحسس بطنها :
ـ انه لا يزال فى سنة أولى .
فعاد يقول لها ببراءة وهو يتفرس فى وجهها :
ـ نحفت جدا يا أبلة وصار وجهك قبيحا .. !
ضحكوا جميعا وهم يغطون أفواههم بأيديهم ، ضحكوا حتى شعر كمال بالحياء والارتباك ، أما خديجة التى لم يكن الاستياء من كمال مما تستطيعه فقد مالت الى أن تجارى التيار فقالت ضاحكة :
ـ أعترف لكم بأنى خسرت فى أيام الوحم كل اللحم الذى تعبت أم حنفى أعواما فى جمعه ولمه ، نحفت وبرز أنفى وغارت عيناى وخيل الى أن « الرجل » يقلب عينيه مفتشا عبثا عن العروس التى زفوها اليه ! ..
ثم ضحكوا ثانية حين قال ياسين :
ـ الحق أن زوجك مظلوم لأنه على غباوته البادية وسيم الطلعة فسبحان من جمع الشامى على المغربى ..
تجاهلته خديجة وخاطبت فهمى قائلة وهى تومىء الى عائشة :
ـ كلاهما ـ زوجى وزوجها ـ فى الغباء سواء ! . لا يكادان يبرحان البيت ليل نهار ، لا هم ولا عمل ، أما زوجها فوقته كله ضائع بين التدخين وعزف العود كأنه شحاذ من الشحاذين الذين يمرون على البيوت فى الأعياد ، وأما زوجى فلا تراه الا مستلقيا يدخن ويثرثر حتى يدوخ دماغى ..
قالت عائشة كالمعتذرة :
ـ الأعيان لا يعملون !

فقالت خديجة هازئة :
ـ العفو ! .. يحق لك أن تدافعى عن هذه الحياة ، الحق أن الله لم يجمع بين متشابهين كما جمع بينكما ، كلاكما فى الكسل والدعة والخمول شخص واحد ، والنبى يا سى فهمى يمر اليوم كله وهو يدخن ويعزف وهى تزوق نفسها وتذهب وتجىء أمام المرآة ..
تساءل ياسين :
ـ لم لا ما دامت ترى منظرا حسنا .. ؟!
وقبل أن تفتح خديجة فاها سألها مستعجلا :
ـ خبرينى يا أختاه ماذا تصنعين لو جاء وليدك شبيها بك ؟
كانت شبعت من مهاجمته فأجابته جادة :
ـ سيجىء باذن الله شبيها بأبيه أو جده أو جدته أو خالته ، أما .. ثم ضاحكة :
ـ أما اذا أبى الا أن يجىء شبيها بأمه فالنفى يكون أحق به من سعد باشا ! .
ولكن كمال قال لها بلهجة خبير عليم :
ـ الانجليز لا يهمهم الجمال يا آبلا ، أنهم يعجبون كثيرا برأسى وأنفى ..
فضربت خديجة صدرها بيدها هاتفة :
ـ يدعون صداقتك وهم يعبثون بك ! .. ربنا يسلط عليهم زبلن من جديد .
ورمت عائشة فهمى بنظرة رقيقة وهى تقول :
ـ كم يسر دعاؤك بعض الناس ..
فابتسم فهمى مغمغما :
ـ كيف أسر ولهم فى بيتنا أصدقاء مغفلون .
ـ يا خسارة تربيتك له ..
ـ من الناس من لا تنفع فيه التربية .

فتساءل كمال محتجا :

ـ ألم أرج جوليون أن يعيد سعد باشا ؟

فقالت خديجة ضاحكة :

ـ فى المرة القادمة حلفه برأسك الذى يعجب به ..

شعر فهمى أكثر من مرة بأن من حوله يسعون كلما بدت فرصة الى استدراجه الى الحديث والتسلية ، بيد أن ذلك لم يجد شيئا فى التخفيف من الاحساس بالغربة الذى غشيه طوال الوقت . هو احساس كثيرا ما يفصله عن آله وهو بينهم فيشعر بالغربة أو الوحدة رغم زحمة المجلس ، ينفرد بقلبه وحزنه وحماسه بين أناس لاهين ضاحكين ، حتى نفى سعد يتخذون منه دعابة اذا لزم الأمر . اختلس منهم النظرات تباعا فوجدهم راضين ، عائشة .. هانئة وان تكن تعبت قليلا بسبب الحمل ولكنها سعيدة بكل شىء حتى بتعبها ، خديجة .. متوثبة ضاحكة ، ياسين .. صحة وعافية وغبطة ، من من هؤلاء يكترث لحوادث هذه الأيام ! .. من منهم يهمه بقى سعد أم نفى ، جلا الانجليز أم مكثوا ! . انه غريب . أو غريب على الأقل بين هؤلاء . ومع أن هذا الاحساس كان يلقى منه عادة نفسا مسماحة فانه لم يلق هذه المرة الا حنقا وامتعاضا ، ربما كان ذلك لما عاناه فى الأيام الأخيرة . كثيراً ما توقع أن يسمع عن زواج مريم ، كان ذلك همه وكربه بيد انه سلم به سلفا تسليم اليأس ، وكاد يألفه بكرور الأيام ، الا أن حبه نفسه تراجع عن بؤرة شعوره الذى شغلته الشواغل الكبرى ، حتى وقعت واقعة جوليون فزلزل زلزالا . تغازل انجليزيا لا مطمع لها فى الزواج منه فأى معنى تتضمنه هذه المغازلة ؟ .. هل تصدر الا عن متهتكة ؟ .. مريم متهتكة ؟ .. وفيم كانت احلامه الماضية ؟ .. ولم يكن يخلو بكمال حتى يدعوه الى اعادة القصة من جديد محتما عليه أن يصف التفاصيل بدقة ، كيف لاحظ ما يدور ، وأين كان موقف الجندى ، وأين كان موقفه هو ؛ وهل هو متأكد من أن مريم نفسها

التى كانت فى الكوة ؟ وأنها كانت تنظر حقا الى الجندى ؟ . وهل رآها تبتسم اليه ، وهل وهل وهل ، ثم يسأله وهو يعض على أسنانه كأنما يهرس الشقاء الذى يعذبه : وهل تراجعت فى خوف حين وقعت عيناها عليك ؟ . ثم يمضى متخيلا المواقف والمناظر ، موقفا موقفا ، ومنظرا منظرا ؛ ويتخيل الابتسامة طويلا حتى كانه يرى الشفتين المفترتين كما رآهما يوم زفاف عائشة وصاحبتهما تتبع العروس فى فناء بيت آل شوكت .

ــ يبدو أن نينة لن تجالسنا اليوم .

قالته عائشة بصوت يدل على الأسف .

فقالت خديجة :

ــ الزوار يملأون البيت ..

ياسين ضاحكا :

ــ أخاف أن يشتبه الجنود فى كثرة القادمين فيظنوا ان اجتماعا سياسيا ينعقد فى بيتنا ..

خديجة فى مباهاة :

ــ ان أصدقاء بابا يحجبون عين الشمس ..

فقالت عائشة :

ــ رأيت السيد محمد عفت نفسه على رأس القادمين ..

فأمنت خديجة على قولها قائلة :

ــ كان صديقا حميما لبابا من قبل أن نرى نور الدنيا .

فقال ياسين وهو يهز رأسه :

ــ اتهمنى بابا ظلما بأننى قطعت ما بينهما .

ــ ألا يفرق الطلاق بين أعز الأصدقاء ؟ !

ياسين باسما :

ــ الا أصدقاء أبيك !

عائشة بفخار :

ـ من ذا تطاوعه نفسه على مخاصمة بابا ؟ .. والله ما فى الدنيا كلها نظير له .

ثم وهى تتنهد :

ـ كلما تصورت ما وقع له أمس شاب شعر رأسى .

أخيرا ضاقت خديجة بوجوم فهمى فعزمت على أن تعالجه بطريقة مباشرة بعد أن أخفقت ـ فيما رات ـ الطرق غير المباشرة ، فالتفتت اليه متسائلة :

ـ ارأيت يا أخى كيف أن ربنــا أكرمك يوم لم يأذن بتحقيق رغبتك نحو ... مريم ؟ !

نظر فهمى اليها بين الدهشة والحياء ، وسرعان ما تركزت فيه الأبصار حتى كمال تطلع اليه باهتمام ، وساد صمت نم عمقه عن شعور مكبوت طال فى الصدور تجاهله أو أخفاؤه حتى أفصحت عنه خديجة بجراة فتطلعوا الى الشاب فى صمت المنتظر للجواب كأنما هو نفسه الذى طرح السؤال ، غير أن ياسين رأى أن ينهى الصمت قبل ان يستفحل فيبعث على الألم فقال متظاهرا بالسرور :

ـ أصل أخيك ولى والله يحب أولياءه ..

وكان فهمى يكابد حرجا وحياء فقال باقتضاب :

ـ هذه مسألة قديمة عفاها النسيان ..

فقالت عائشة بلهجة المعتذر :

ـ لم يكن سى فهمى وحده الذى خدع بها ، كلنا خدعنا بها ..

فقالت خديجة مدافعة عن نفسها ـ بأقصى ما فى وسعها ـ تهمة الغفلة :

ـ على أى حال أنا لم إقتنع لحظة واحدة فيما مضى ، حتى مع اعتقادى ببراءتها ، بأنها جديرة به ..

فعاد فهمى يقول متظاهرا بالاستهانة :

ـ هذه مسألة قديمة عفاها النسيان ، انجليزى .. مصرى .. سيان ، دعونا من هذا كله ..

وجد ياسين نفسه تعاود التفكير فى « مسألة » مريم .. مريم ؟ ! .. لم يكن ينظر اليها فيما مضى ــ ان مرت فى مجال بصره ــ الا عابرا ، ثم زاده زهدا فيها تعلق فهمى بها ، حتى ذاعت فضيحتها فى الأسرة .. هنالك ثار اهتمامه ، تساءل طويلا : أى فتاة هى ؟ ود لو كان ملأ عينيه منها ، تمنى لو كان سبر الفتاة التى استرعت تشوق « انجليزى » .. انجليزى جاء الحى مقاتلا لا مغازلا ، لم يبد سخطه عليها الا مجاراة للحديث كلما تناولها أما فى الباطن فقد أطربه غاية الطرب وجود « مفضوحة » جريئة مثلها على كثب منه فلا يفصله عنها الا جدار ، شاع فى صدره العريض المكتنز ذاك الطرب البهيمى الذى يدعوه الى الصيد وان وقف ــ اكراما لحزن فهمى الذى يحبه ــ عند حد الشعور واللذة السلبية المجردة ، لم يعد فى الحى كله من يستثير اهتمامه كمريم .

ــ آن أوان الذهاب .

قالت خديجة ذلك وهى تنهض على حين ترامى اليهم صوتا ابراهيم وخليل وهما يتحدثان قادمين من الردهة الخارجية . قام الجميع ، من يتمطى ومن يحبك ملابسه ، الا كمال فقد لزم مجلسه وهو يتطلع الى باب الصالة بحزن وقلب خافق ..

ــ ٦٧ ــ

جلس السيد أحمد الى مكتبه ، مكبا على دفاتره ، يزاول عمله اليومى الذى يتناسى به ــ ولو الى حين ــ همومه الشخصية والهموم العامة التى تتطاير بها الأنباء الدامية . غدا يحب الدكان حبه مجالس الأنس والطرب لأنه على الحالين يظفر بما ينتزعه من جحيم الفكر ، الا أن جو الدكان حافل بالمساومة والبيع والشراء

والربح وغير ذلك من شئون الحياة العادية ، حياة كل يوم ، فلا تخلو من أن تبعث فى نفسه شيئا من الثقة الموحية بامكان عودة كل شيء الى أصله ، الى حالته الأولى من الاستقرار والسلام . السلام ؟ . . أين ذهب ومتى يأذن بالعودة ؟ . . حتى فى هذا الدكان تجرى أحاديث الدماء همسا مفجعا ، لم يعد الزبائن يقنعون بالمساومة والشراء فما تألو ألسنتهم أن تردد الأنباء وتندب الأحداث ، فوق زكائب الأرز والبن سمع عن معركة بولاق ومذابح أسيوط والجنازات التى تشيع فيها النعوش بالعشرات والشاب الذى انتزع من العدو مدفعا رشاشا أراد أن يدخل به الأزهر لولا أن سبقته المنية فانغرست فى جسمه عشرات المقذوفات ، هذه الأنباء وغيرها مما يصطبغ بلونها القانى تقرع أذنيه بين حين وآخر فى المكان الذى يلوذ به ناشدا النسيان . ما أتعس الحياة فى ظل الموت ، هلا عجلت الثورة بتحقيق غاياتها من قبل أن يمتد أذاها اليه أو الى أحد من ذويه ! . . انه لا يبخل بمال ولا يضن بعاطفة أما بذل الحياة فأمر آخر ، أى عذاب صبه الله على العباد فهانت النفوس وجرت الدماء ! . لم تعد الثورة « فرجة » حماسية ، انها تهدد أمنه فى الذهاب والاياب ، وتتوعد ابنه « العاصى » ؛ فتر حماسه لها ، لها هى دون غايتها ، يحلم بالاستقلال وبعودة سعد ولكن دون ثورة أو دماء أو ذعر ، يهتف قلبه مع الهاتفين ويتحمس مع المتحمسين ولكن عقله يقاوم التيار متعلقا بالحياة فمكث وحده فى المجرى كأصل شجرة اقتلعت العواصف أغصانها ، لن يوهن شيء وان جل من حبه للحياة ، فلتبق له الى آخر العمر ، وليؤمن فهمى ايمانه لتبقى له حياته الى آخر العمر كذلك ، فهمى العاق الذى رمى بنفسه الى التيار بلا حزام نجاة . .

ـــ هل السيد أحمد موجود ؟

سمع السيد صوت السائل وهو يشعر باندفاع شخص داخل الدكان كأنه مقذوف آدمي فرفع رأسه عن مكتبه فرأى الشيخ

متولى عبد الصمد يتوسط المكان رامشا بعينيه الملتهبتين مدققا المنظر ـ عبثا ـ صوب المكتب فهش قلبه وابتسمت أساريره ثم هتف بالقادم :

ـ تفضل يا شيخ متولى ، حلت البركة ..

فلاح الاطمئنان فى وجه الشيخ وتقدم يهتز اعلاه ما بين الوراء والأمام كأنه راكب جملا ، فمال السيد فوق مكتبه ومد يده حتى التقت بيد الرجل وشد عليها متمتما « الكرسى على يمينك ، تفضل بالجلوس » فأسند الشيخ متولى عصاه الى المكتب وجلس على الكرسى ثم اعتمد بيديه على ركبتيه وهو يقول :

ـ الله يحفظك ويصونك ..

فقال السيد من قلبه :

ـ ما أطيب دعاءك وما أحوجنى اليه ..

ثم ملتفتا صوب جميل الحمزاوى الذى كان يزن ارزا لزبون :

ـ لا تنس ان تهيىء لفة سيدنا الشيخ ..

فجاء صوت جميل الحمزاوى قائلا :

ـ من ذا الذى ينسى سيدنا الشيخ !

فبسط الشيخ راحتيه ورفع راسه وهو يحرك شفتيه بالدعاء فى هينمة لم يسمع منها الا وسوسة متقطعة ، ثم عاد الى وضعه الأول فصمت لحظة ثم قال بلهجة الافتتاح :

ـ ابدأ بالصلاة على نور الهدى .

فقال السيد بحرارة :

ـ عليه أزكى الصلاة والسلام .

ـ وأثنى بالترحم على أبيك طيب الذكر .

ـ رحمه الله رحمة واسعة .

ـ ثم اسأل الله ان يقر عينيك بأسرتك وذرينك وذرية ذريتك وذرية ذرية ذريتك .

ـ آمين .

متنهـدا :

ـ وادعوه أن يعيد الينا افندينا عباس ومحمد فريد وسعد زغلول ..

ـ اللهم استجب .

ـ وأن يخرب بيت الانجليز بما أثموا وبما يأثمون ..

ـ سبحان المنتقم الجبار .

عند ذاك تنحنح الشيخ ومسح على وجهه بكفه ثم قال :

ـ أما بعـد فقد رأيتك فى منامى تلوح لى بيديك فما فتحت عينى حتى صح عزمى على زيارتك ..

فابتسم السيد ابتسامة لا تخلو من حزن وقال :

ـ لا أعجب لذلك فانى فى مسيس الحاجة الى بركتك ، زادك الله بركة على بركة ..

فمال وجه الشيخ نحو السيد فى عطف وتساءل :

ـ أحق ما بلغنى عن حادث بوابة الفتوح ؟

فأجاب السيد مبتسما :

ـ نعم .. من أبلغك يا ترى ؟

ـ كنت مارا بمعصرة حميـدو غنيم فاسـتوقفنى وقال لى « ألم يبلغك ما فعـل الانجليز بحبيبك السيد أحمـد وبى ؟ » فاستوضحته منزعجا فقص على العجب العجـاب .. قص على السيد الحادث بتفاصيله ، لم يكن يمل ترديده ، ولعله قصـه فى الأيام القلائل الأخيرة عشرات المرات .

وأصغى الشيخ اليه وهو يتلو همسا آيات الكرسى . أفزعت يا بنى ؟ .. كيف كان فزعك .. خبرنى .. لا حـول ولا قـوة الا بالله .. ولكن هل قنعت بالسلامة ؟ .. أنسيت أن الفزع لايمضى الى حال سبيله ؟ . صليت طويلا وسألت الله النجاة ! هذا جميل ولكن يلزمك حجاب ..

ـكيف لا !.. يريدنا بركة ياشيخ متولى . والأولاد وأمهم . الم يدركهم الفزع ؟

ـ طبعا .. قلوب ضعيفة لا عهد لها بالقسوة والارهاب ، الحجاب .. الحجاب .. الحجاب وفيه الشفاء ..

ـ أنت الخير والبركة يا شيخ متولى .. لقد نجانى الله من شر كبير ، ولكن ثمة شر لا يزال يتهددنى ويقض مضجعى .

مال وجه الشيخ نحو السيد فى عطف مرة أخرى وتساءل :

ـ ماذا بك يا بنى عفا الله عنك ؟

فرنا السيد اليه بطرف واجم وغمغم فى ضجر :

ـ ابنى فهمى ..

فرفع الشيخ حاجبيه الأشيبين متسائلا أو منزعجا ثم قال برجاء :

ـ محفوظ باذن الرحمن ...

فهز السيد رأسه بأسى وقال :

ـ عقنى لأول مرة والأمر لله ..

فبسط الشيخ متولى ذراعيه أمامه كأنما يتقى بهما البلاء وهتف :

ـ معاذالله ، فهميابنى، وانا أعلم علم اليقين انه طبع على البر ..

فقال السيد أحمد متسخطا :

ـ يأبى حضرته الا ان يفعل كما يفعل الشبان فى هذه الأيام الدامية ..

فقال الشيخ فى دهش واستنكار :

ـ أنت أب حازم ما فى ذلك شك ، ما كنت اتصور ان ابنا من ابنائك يجرؤ على أن يرد لك أمرا ..

حز هذا القول فى قلبه حتى أدماه وضاق به صدره ، ثم وجد من نفسه نزوعا الى التهوين من عصيان ابنه ليدفع عن شخصه تهمة الضعف أمام الشيخ وأمام نفسه معا فقال :

ــ لم يجرؤ على هذا صراحة طبعا ولكنى دعوته الى أن يحلف على المصحف بألا يشترك فى أى عمل من أعمال الثورة فبكى ، بكى من دون أن يجسر على قول لا ، ما عسى أن اصنع ؟ .. لا أستطيع ان أحبسه فى البيت ولا يسعنى أن أراقبه فى المدرسة ، وأخاف أن يكون تيار هذه الأيام أقوى من أن يقاومه شاب مثله ، ماذا أصنع ؟.. أأهدده بالضرب ؟.. أأضربه ؟ لكن ما عسى أن يجدى التهديد مع شخص لا يبالى تعريض نفسه للموت !

فمسح الشيخ على وجهه وتساءل بقلق :

ــ وهل ألقى بنفسه فى المظاهرات ؟!

فقال السيد وهو يهز منكبيه العريضين :

ــ كلا ولكنه يوزع المنشورات ، لما ضيقت عليه زعم أنه يكتفى بالتوزيع على خاصة أصدقائه .

ــ ماله ولهذه الأعمال !.. انه الوديع ابن الوديع ولهذه الأعمال رجال من صنف آخر ، ألم يعرف أن الانجليز وحوش لا تتطرق الرحمة الى قلوبهم الغليظة ؟ .. وانهم يتغذون صباح مساء بدماء المصريين المساكين ؟.. كلمه بالحسنى ، عظه ، بين له النور من الظلام ؛ قل له انك أبوه وانك تحبه وتخاف عليه ، أما أنا فسأعمل من ناحيتى على اعداد حجاب من نوع خاص وأدعو له فى صلاتى وخاصة صلاة الفجر ، والله المستعان من قبل ومن بعد ..

قال السيد بحزن :

ــ ان أنباء القتلى تتواتر كل ساعة معلنة آى التحذير لمن يعتبر فما الذى أصاب عقله ؟ . لقد ضاع ابن الفولى اللبان فى غمضة عين فشهد مأتمه معى وعزى والده المسكين ، كان الشاب يوزع سلاطين اللبن الزبادى فصادف فى طريقه مظاهرة فأغراه القضاء بالاشتراك فيها بلا وعى ، وما هى الا ساعة أو نحوها حتى خر صريعا فى ساحة الأزهر ، لا حول ولا قوة الا بالله .. انا لله

وانا اليه راجعون ، لما تأخر عن ميعاد عودته قلق أبوه فمضى الى زبائنه يســأل عنه ، قال له بعضهم أنه جاءهم بالزبادى وذهب وقال آخرون أنه لم يمر عليهم كعادته ، حتى بلغ حمروشا بائع الكنافة فوجد عنده الصينية وما تبقى من السلاطين التى لم توزع وأخبره الرجل بأنه تركها عنده واشترك فى مظاهرة المساء ، فجن جنون المسكين وقصد من توه قسم الجمالية فوجهوه الى قصر العينى وهناك عثر على ابنه فى المشرحة ، لقد علم بالقصة بحذافيرها كما قصها علينا الفولى ونحن فى بيته نعزيه ، علم كيف فقد الشاب وكأن لم يوجد ولمس حزن أبيه المبرح وسمع صوات أهله ، هلك المسكين فلم يعد سعد ولم يخرج الانجليز ، لو كان حجرا لعقــل ولكنه خير أبنائى فلله الحمد والشكر . .

فقال الشيخ متولى بصوت أسيف :

ــ أعرف ذلك الشاب المسكين ، انه اكبر أبناء الفولى اليس كذلك ؟ . . كان جــده مكاريا وكنت أكترى حمــاره للذهاب الى سيدى أبو السعود ، ان للفولى أربعة أولاد ولكن الفقيد كان أحبهم الى قلبه . .

هنا اشترك جميل الحمزاوى لأول مرة فى الحديث قائلا :

ــ أيامنا هذه مجنونة وقد اتلفت عقول الناس حتى صغارهم ، بالأمس قال ابنى فؤاد لأمه انه ود لو يشترك فى مظاهرة !

فقال السيد بقلق :

ــ يعملها الصغار ويقع فيها الكبار ! . . ابنك فؤاد صــديق ابنى كمال وكلاهما فى مدرسة واحــدة ، الا تحدثه نفسه . . الا تحدثهما نفسهما مرة بأن يسيرا فى مظاهرة ! . . هه ؟ . . ما من عجيبة تعد الآن عجيبة . . !

فقال الحمزاوى وقد ندم على ما فرط منه :

ــ ليس الى هذا الحد يا سى السيد ، على أنى ادبته بلارحمة

على تمنياته الساذجة ، ان سى كمال لا يخرج الا مصحوبا بأم حنفى حفظه الله ورعاه ..

ساد الصمت فلم يعد يسمع فى الدكان الا خشخشة الورقة التى يلف فيها الحمزاوى هدية الشيخ متولى عبد الصمد ، ثم تنهد الشيخ وقال :

ـ فهمى ولد عاقل ، لا ينبغى أن يمكن الانجليز من نفسه العزيزة ، الانجليز ! .. حسبى الله .. ألم نسمع بما فعلوا فى العزيزية والبدرشين .. !

كان السيد على حال من القلق لم يجد معها رغبة صادقة فى التساؤل ، الا انه لم يتوقع جديدا فوق ما يقرع سمعه هذه الأيام ، فاكتفى بأن يرفع حاجبيه متظاهرا بالاهتمام فأنشأ الشيخ يقول :

ـ كنت أول أمس فى زيارة الحسيب النسيب شداد بك عبد الحميد بسرايه العامرة بالعباسية ، دعانى الى الغداء والعشاء فأتحفته بأحجبة له ولآل بيته ، وهناك حدثنى بحديث العزيزية والبدرشين ..

سكت الشيخ قليلا فتساءل السيد أحمد :

ـ تاجر الأقطان المعروف ؟

ـ شداد بك عبد الحميد أكبر تاجر قطن ، لعلك عرفت ابنه عبد الحميد بك شداد فقد كان يوما على صلة وثيقة بالسيد محمد عفت ؟ . . .

فقال السيد ببطء ليملى لنفسه فى التذكر :

ـ أذكر أنى رأيته مرة فى مجلس السيد محمد عفت قبل نشوب الحرب ، ثم سمعت عن ابعاده عن القطر عقب عزل أفندينا ، أما من جديد عنه ..؟

فقال الشيخ متولى بلهجة سريعة عابرة كأنما يضع كلامه بين قوسين . ليعود الى حديثه الأول :

ـ لا يزال مبعدا عن البلاد ، وهو يقيم فى بلاد فرنسا ومعه

زوجه وأولاده ، لشد ما يخاف شداد بك أن يموت قبل أن يرى ابنه فى هذه الدنيا ..

وسكت مرة أخرى ، ثم مضى يهز رأسه يمنـة ويسرة ويقول بصوت منغوم كأنما ينشد مطلع توشيح نبوى :

ـ بعد انتصاف الليل بساعتين أو ثلاثة والناس نيام حاصر البلدتين بضع مئات من الجنود البريطانيين مدججين بالسلاح ..

انتبه السيد انتباهة قاسية . حاصروا البلدتين والناس نيام ؟ .. أليس أولئك المحاصرون من جنس هؤلاء الذين يعسكرون أمام البيت ؟.. بدءوا بالاعتداء على فأى خطوة تالية يضمرون ؟!..

ضرب الشيخ على ركبته كأنما انشاده بنوع من الايقـاع ثم استطرد قائلا :

ـ واقتحموا على العمدتين داريهما فأمروهما بتسليم السلاح ثم مرقوا الى الحريم فنهبوا الحلى واهانوا النسـاء وجروهن من شعورهن الى الخارج وهن يولولن ويستغثن وما من مغيث ، عطفك اللهم على المستضعفين من عبادك ..

دار العمدتين !.. العمدة شخصية حكومية أليس كذلك ؟.. لست عمدة ولا دارى بدار عمدية ، ما أنا الا رجل كسائر الناس ، ما عسى أن يصنعوا بأمثالنا ؟.. تصور امينة مجرورة من شعرها ، أيقضى على بأن أتمنى الجنون !.. الجنون ؟..

واصل الشيخ حديثه وهو يهز رأسه قائلا :

ـ وأجبروا العمدتين على أن يدلوهما على بيوت مشـايخ البلدتين وأعيانهما ثم اقتحموا البيوت محطمين الأبواب ، نهبوا كل ثمين ، اعتدوا على النساء اعتـداء اجراميا بعد أن قتلوا اللاتى حاولن الدفاع عن أنفسهن ، وضربوا الرجال ضربا مبرحا ، ثم غادروهما بعـد أن لم يبقوا فيهما على ثمين لم يسلب أو عرض لم يثلم ...

ليذهب كل ثمين الى الجحيم .. « أو عرض لم يثلم » .. أين

رحمة الله ؟ أين انتقامه ؟ .. الطوفان .. نوح .. مصطفى كامل . تصور ..! كيف يمكن أن تبقى معه بعد ذلك تحت سقف واحد .! أى ذنب جنت !.. وهو بأى وجه ؟!..

ضرب الشيخ بيده ثلاثا على ركبتيه ثم عاد الى الحديث وقد تهدج صوته فصار بالنواح أشبه ، قال :

ـ واضرموا النار فى البلدتين مستعينين بما على أسقف الدور من حطب وقش وبما صبوا عليها من بترول ، استيقظت القرى فى فزع رهيب وفر أهلوها عن بيوتهم كالمجانين ، وعلا الصراخ والأنين ، وامتدت ألسنة اللهيب فى كل مكان حتى استحالت البلدتان شعلة من النيران ..

هتف السيد بلا وعى :

ـ يا رب السماوات والأرض !

فمضى الشيخ قائلا :

ـ وضرب الجنود نطاقا حول البلدتين المشتعلتين من بعيد يتربصون بالأهالى البؤساء الذين انطلقوا هائمين على وجوههم تتبعهم الأغنام والكلاب والقطط يرومون سبيلا للنجاة من النار ، فما أن بلغوا مواقف الجنود حتى انهال هؤلاء على الذكور ضربا وركلا ، ثم حجزوا النساء ليسلبوا حليهن ويهتكوا أعراضهن ، فاذا قاومت أحداهن قتلت ، واذا ندت عن زوج أو أب أو أخ حركة دفاع رمى بالرصاص ..

ثم التفت الشيخ متولى الى السيد الذاهل وضرب كفا على كف وهو يهتف .. وساقوا بقية الضحايا الى معسكر قريب وهنالك أجبروهم على التوقيع على مكتوب يتضمن اعترافهم بجرائم لم يرتكبوها واقرار بأن ما أنزله الانجليز بهم جزاء حق على مافعلوا ، هذا ما حصل يا سيد أحمد للعزيزية والبدرشين ، هذا مثل من أمثلة التنكيل التى نسامها بلا رحمة ولا شفقة ، اللهم فاشهد ، اللهم فاشهد ..

وساد صمت كئيب اليم خلا فيه كل الى أفكاره وتخيلاته حتى قطعه جميل الحمزاوى وهو يهتف متأوها :

ــ ربنا موجود ..

فهتف السيد مؤمنا على قوله :

ــ نعم ! (ومشيرا الى الجهات الأربع) فى كل مكان ..

وخاطب الشيخ متولى السيد قائلا :

ــ قل لفهمى : ان الشيخ متولى ينصحه بالابتعاد عن موارد التهلكة ، قل له سلم الى الله ربك فهو القادر وحده على اهلاك الانجليز كما أهلك الذين من قبلهم ممن شقوا عصا طاعته ..

ثم مال الشيخ نحو عصاه ليتناولها فأشار السيد الى جميل الحمزاوى فجاءه بالهدية ووضعها فى يده تم ساعده على النهوض . صافح الشيخ الرجلين ومضى وهو يقول :

ــ «غلبت الروم فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون» .. صدق الله العظيم ..

ــ ٦٨ ــ

عند الغلس ، ونور الصباح يولد رويدا من ظلمة الفجر ، طرقت خادم من السكرية بيت السيد فأخبرت أمينة بأن عائشة قد جاءها المخاض . كانت أمينة فى حجرة الفرن فعهدت بالعمل الى أم حنفى وهرعت الى باب السلم . بدا على أم حنفى الاستياء ربما لأول مرة فى تاريخ خدمتها الطويل بهذا البيت ، أما كان يحق لها أن تشهد ولادة عائشة ؟.. لها كل الحق .. كأمينة سواء بسواء ، فتحت عائشة عينيها فى حجرها ، كل ابن فى هذا البيت له أمان : أمينة وأم حنفى ، كيف يحال بينها وبين ابنتها فى هذه الساعة

الرهيبة !.. هل تذكرين ولادتك ؟.. وربع الطمبكشـية ، كان المعلم فى الخارج كعادته وكانت وحيدة بعد منتصف الليل ، وجدت فى أم حسنية صديقة وقابلة معا !. ترى أين أم حسنية الآن ؟.. الا زالت على قيد الحياة ؟. ثم جاء حنفى بين تأوهات الألم ، ذهب بين تأوهات الألم أيضا ، وهو فى المهد ، لو عاش لكان ابن عشرين الآن !. سيدتى الصغيرة تتألم وأنا هنا أهيىء الطعام . امتلأ قلب أمينة بفرح موصول باشفاق ، هو الاحساس الذى خفق به قلبها أول مرة يوم استقبلت التجربة بنفسها . ها هى عائشة تتأهب لاستقبال أول مولود تستهل به أمومتها ، كما استهلت هى أمومتها بخديجة ، هكذا تمتد الحياة التى انبثقت منها الى غير نهـاية . ومضت الى الأب فزفت اليه البشرى بنبرات رقيقة مهذبة ، مبالغة هذه المرة فى حيائها وتهذيبها أن يستشف وراء صـوتها رغبتها الحارة فى الانطلاق الى ابنتها غير أن السيد تلقى الخبر فى هدوء ثم أمرها بالذهاب دون ابطاء !.. راحت ترتدى ملابسها على عجل وقد شعرت بأن المزايا التى تكتسبها امرأة ضعيفة مثلها بانجاب الأطفال خليقة بصنع المعجزات أحيانا . وعلم الأخوة بالخبر عند استيقاظهم عقب ذهاب الأم بقليل . علت وجوههم ابتسامة وتبادلوا نظرة متسائلة . عائشة أم !.. أليس ذلك غـريبا ؟.. ما وجه الغرابة فيه . كانت نينة أصـغر منها يوم ولدت خديجة . هل ذهبت نينة لتخرج الطفل بيديها ؟. ابتسامتان . هذا نذير لى ، عما قليل تلد بنت الكلب أيضا .. من تعنى ؟! زينب . آه لو سمعك بابا . عائشة أم ، وأنا أب . وأنا خال وعم ، ستكون أنت أيضا عما وخالا ياسى كمال ، يجب أن أتخلف اليوم عن المدرسة لأذهب الى آبلا عائشة . جميل جـدا ، استأذن بابا ان استطعت على المائدة !.. أووه . نحن فى حاجة الى مزيد من المواليـد لنسـد العجز الذى أوقعه الانجليز بنا . لو تخلفت عن المدرسة ما حدث شىء غير عادى ، ثلاثة أرباع التلاميذ مضربون منذ أكثر من شهر .

قل هذا لبابا وسيقتنع حتما بحجتك فيضربك بطبق الفول فى وجهك . أوووه . مولود جديد ، بعد ساعة أو ساعتين يصير بابا جدا ونينة جدة ونحن أخوالا ، شيء خطير ، كم مولوداً يا ترى يرى نور الدنيا فى هذه اللحظة ؟.. وكم انسانا يغيب عنه هذا النور فى هذه اللحظة ؟.. يجب أن نبلغ جدتى . أستطيع أن أذهب الى الخرنفش لابلاغها اذا تخلفت عن المدرسة !.. قلنا لك لا شأن لنا بمدرستك ، قل لبابا وسيرحب بفكرتك . أوووه . لعل عائشة تتألم الآن . مسكينة المحبوبة ، ان الطلق لا يلين للشعر الذهبى والأعين الزرق ربنا يقومها بالسلامة ، عند ذاك نشرب المغات ونشعل الشموع ، ذكر أم أنثى ؟.. أيهما تفضل ؟.. الذكر طبعا ، ربما بدأت بأنثى كأمها . لم لا تبدأ بذكر كأبيها ؟.. هاها ، عند ما يحين ميعاد انصراف المدرسة يكون الطفل قد خرج فلن أتمكن من مشاهدة خروجه . أتريد أن تراه وهو يخرج ؟.. طبعا . أجل هذه الرغبة حتى يكون المولود ابنك أنت !. كان كمال أشد الجميع تأثرا بالخبر ، شغل به عقلا وقلبا وخيالا . لولا شعوره برقابة ضابط المدرسة عليه وانه يحصى حركاته وسكناته ليبلغها أول فأول الى أبيه لما كان فى وسعه أن يقاوم الاغراء الذى يناديه للذهاب الى السكرية . ومكث فى المدرسة جسدا بلا روح ، هامت روحه فى السكرية تتساءل عن القادم الجديد الذى ترقب مقدمه أشهرا وهو يمنى النفس بالاطلاع على سره المكنون . شهد مرة ولادة قطة وهو دون السادسة اذ استرعت انتباهه بموائها الحاد فهرع اليها تحت عرش اللبلاب فوق السطح فوجدها تتلوى ألما وقد جحظت عيناها ، ثم رأى جسمها يتصدع عن فلذة ملتهبة فتراجع متقززا وهو يصرخ بأعلى صوته . طافت هذه الذكرى بمخيلته وألحت عليه حتى عاوده تقززه القديم وانتشرت حوله مضجرة مقلقة كالضباب . غير انه لم يستسلم للخوف ، أبى أن يتصور أن ثمة علاقة بين القطة وعائشة الا ما يكون بين الحيوان

والانسـان وهو ـ فى ايمانه ـ أبعد مما بين الأرض والسماء ، ولكن ماذا يحدث فى السكرية اذن ؟.. ماذا طرأ على عائشة من غرائب الأمور ؟.. ثمة أسئلة حيـارى لا تنعم بجواب .. ما كاد يغادر المدرسة عصرا حتى اندفع يقطع الطريق عدوا الى السكرية .

دخل فناء بيت آل شوكت وهو يلهث ، ومضى الى باب الحريم فلاحت منه التفاتة الى المنظرة فمايدرى الا وعيناه تلتقيان بعينى والده الذى جلس شابكا راحتيه على مقبض عصـاه القائمة بين رجليه . تسمر فى مكانه جامدا محملقا كأنما نوم تنويما مغناطيسيا ، لم يطرف ولم يبد حراكا ، ركبه شـعور بالذنب لا يدريه فلبث يترقب انقضاض العقاب عليه وبرودة الخـوف تسرى فى أطرافه حتى اشتبك السيد أحمد فى حديث مع شخص يجلس الى جانبه فالتفت نحوه فاسترد كمال عينيه وهو يزدرد ريقه ، عند ذاك لمح فى داخل المنظرة ابراهيم شوكت وياسين وفهمى قبل أن يفر الى الداخل ، رقى فى السلم وثبا حتى انتهى الى دور عائشة فدفع بابا مواربا ودخل فالتقى بخليل شوكت زوج أخته واقفا فى الصالة ، ورأى باب حجرة النوم مغلقـا وقد ترامى من ورائه الى سـمعه أصوات تتحادث ميز منها أمه وحرم المرحوم شوكت وصوتا ثالثا لا يعرفه ، سلم على زوج أخته ثم سأله وهو يتطلع اليه بطرف باسم :

ـ آبلا عائشة ولدت ؟

فرفع الرجل سبابته الى شفتيه محذرا وهو يقول :

ـ هس ...

أدرك كمال انه لم يرحب بالسؤال ، بل انه لم يرحب بمقدمه كسالف عادته فخجل وعانى قلقا لم يدر له سببا ، وأراد أن يتقدم من الباب المغلق ولكن صوت خليل أوقفه وهو يهتف باقتضاب ينم عن الضجر :

ـ لا ...

فتحول نحوه متسائلا ولكن الرجل قال له فى عجلة ولهوجة :
ـ انزل يا شاطر والعب تحت . .

انكسرت نفس الغلام فتقهقر متثـاقلا بائخا وقد عز عليه أن يجزى على عذاب انتظاره طوال اليوم هذا الجزاء البخس ، ولما بلغ عتبة الصالة صك أذنيه صوت غريب آت من الحجرة المغلقة ، بدأ رفيعا حادا عاليـا ، ثم غلظ وترهل حتى بح ، وانتهى بحشرجة طويلة قاسية ، ثم غاب لحظة مقدارها تردد النفس المقطوع ، ثم بعث آهة عميقة شاكية ، بدا له غريبـا أول الأمر كأنه لم يعرف صاحبه ؛ ولكن نبرة من نبراته المعذبة تميزت وسط الحدة والغلظة والحشرجة فوشت بهوية مصدره ، صوت عائشة بلا ريب ، أو هو عائشة مذابة منصهرة ، ثم تأكد من ظنه عند تردد الآهة العميقة الشاكية ، فارتعشت جوارحه ، وخيل اليه أنه يراها تتلوى على حال من الألم دعت الى مخيلته بصورة القطة القديمة ؛ وعطف رأسه صوب خليل فألفاه يقبض راحته ويبسطها وهو يتمتم « يا لطيف يارب » فخيل اليه مرة أخرى أن جسم عائشة ينقبض وينبسط مثل راحة الرجل ، لم يعد يملك من نفسه شيئا فركض الى الخارج مفحما فى البكاء . وعندما انتهى الى باب الحريم استرعى سمعه وقع أقدام هابطة وراءه فرفع رأسه فرأى الجارية سويدان نازلة على عجل فمرت به دون أن تنتبه اليه حتى وقفت على عتبة باب الحريم ثم نادت سيدها ابراهيم فجاء الرجـل مسرعا فقالت له «الحمد لله يا سيدى» ، لم تزد على ذلك شـيئا ولم تنتظر حتى تسمع مايقول ولكنها دارت على عقبيها وهرعت الى السلم فرقيت فيه دون تردد ، رجع ابراهيم الى المنظرة متهلل الوجه فلبث كمال وحده لا يدرى ما يفعل ولكن لم تمض دقيقة حتى عاد ابراهيم يتبعه السيد أحمد فياسين ثم فهمى فتنحى الغـلام جانبا حتى مروا ثم صعد فى أعقابهم خافق القلب ، وقابل خليل الآتين أمام مدخل الشقة فسمع أباه وهو يقول له :

ـ الحمد لله على السلامة ..

فغمغم خليل فى وجوم :

ـ الحمد لله على كافة الأحوال ..

فسأله السيد أحمد باهتمام :

ـ مالك .. ؟

فقال بصوت منخفض :

ـ انى ذاهب لاستدعاء الطبيب ..

فتساءل السيد قلقا :

ـ المولود ..؟

فأجابه وهو يهز رأسه سلبا :

ـ عائشة ! .. ليست على مايرام ، سأجىء بالطبيب حالا ..

وذهب مخلفا وراءه وجوما وقلقا واضحين ، ثم دعاهم ابراهيم شوكت الى حجرة الاستقبال فمضوا أليها صامتين . وجاءت حرم المرحوم شوكت بعد قليل فسلمت وهى تبتسم لتدخل الطمأنينة الى قلوبهم ثم جلست وهى تقول :

ـ قاست المسكينة طويلا حتى انهكت قواها ، ولكنها حال عارضة وستزول وشيكا ، انى واثقة مما أقول ولكن ابنى بدا اليوم خوافا على غير عادته ، على أنه لا ضرر البتة من مجىء الطبيب (ثم مناجية نفسها بصوت خفيض) الطبيب ربنا وربنا هو الطبيب ..

لم يعد السيد يطيق ما يلتزم عادة من وقار وبرود أمام أبنائه فسألها فى قلق غير خاف :

ـ ماذا بها ؟ .. ألا أستطيع أن أراها ؟

فابتسمت المرأة وقالت :

ـ ستراها عما قريب وهى بخير وعافية ، الحق على ابنى المجنون هو الذى أزعجكم بغير موجب ..

كان وراء الصدر العريض القوى والوقار الحازم المهيب قلب يتعذب أشد العذاب ، كان وراء العينين الواجمتين الرزينتين دمع متجمد . . ماذا دهم الصغيرة ؟. . الطبيب ؟!، لماذا تحول العجوز بينى وبينها ؟! ، ابتسامة رقيقة أو كلمة حنونة منى أنا ، منى أنا خاصة ، حقيقة بأن تخفف من آلامها ، زواج وزوج وألم ، لم تذق فى بيتى مرارة الألم قط ؛ العزيزة الجميلة الصغيرة رحمتك اللهم ، فسد طعم الحياة ، انه ليفسد لأهون أذى يتهددهم ؛ فهمى . . أراه واجما متألما . . هل أدرك معنى الألم ؟. من أين له أن يعرف قلب الأب ! ، العجوز مطمئنة وواثقة مما تقول ، ابنها أزعجنا بغير موجب ، اللهم استجب ؛ أنت أعلم بحالى بأن تنجيها كما نجيتنى من الانجليز ، قلبى لا يطيق هذا العذاب ، عند الله الرحمة ؛ وهو قادر على حفظ أبنائى من كل سـوء ، لا طعم للحياة بغير ذلك ، لا طعم للسرور والطرب واللهو اذا انغرست فى جنبى شوكة حادة ، قلبى يدعو لهم بالسلامة ، لأنه قلب أب ؛ ولأنه لا تطيب المسرات الا للخلى ، هل ألقى سمار الليل بقلب سعيد ؟. . أحب اذا ضحكت أن تنطلق الضحكة من أعماق قلبى صافية ، القلب بالقلق كالوتر المختل ، حسبى فهمى ؛ انه يلح على كوجع الأسنان ، ما أبغض الألم ، دنيا بلا ألم ؛ لا شىء على الله بكثير ، دنيا بلا ألم ولو تكون قصيرة ، دنيا تقر فيها عينى بهم جميعا . هنالك أضحك وأغنى والهو ؛ يا أرحم الراحمين ، عائشة يا أرحم الراحمين !

بعد غيبة ثلث ساعة عاد خليل مصحوبا بالطبيب فدخلا الحجرة من فورهما ثم أغلق الباب وراءهما ، وعلم السيد بقدمهما فقام واتجه الى باب حجرة الاستقبال ووقف على العتبة قليـلا وهو يمد البصر الى الباب المغلق ثم عاد الى مجلسه فجلس . قالت حرم المرحوم شوكت :

ــ لتعلمن صدق رأيى حالما يتكلم الطبيب . .

فغمغم السيد وهو يرفع رأسه الى أعلى :

ـ عنده العفو ...

عما قليل يعرف الحقيقة فيمرق من ضباب الشك مهما تكن العواقب . ان قلبه يخفق خفقانا سريعا متواصلا ، فليصبر ، لم يبق الا قليل . ان ايمانه بالله قوى عميق لا يتزعزع فليسلم اليه أمره ، سيخرج الطبيب طال مكثه فى الداخل أم قصر وعندذاك يسأله عما وراءه ، الطبيب ؟ ... لم يفكر فى ذلك من قبل ، طبيب عند نفساء ! .. مع الرحم وجها لوجه ، أليس كذلك ؟ ولكنه طبيب ! .. ما الحيلة ؟! المهم ان ربنا يأخذ بيدها فلنسأله السلامة، وجد السيد الى قلقه حياء وامتعاضا . واستمر الفحص زهاء ثلث ساعة ثم فتح الباب فنهض السيد ومضى من توه الى الصالة ، وتبعه الأبناء حتى تجمعوا حول الطبيب . كان الطبيب من معارف السيد فصافحه باسما ثم قال :

ـ بخير وعافية ..

ثم فى شىء من الجد :

ـ جاءوا بى للوالدة ولكنى وجدت أن التى فى حاجة الى العناية حقا هى المولودة ..

تنفس السيد بارتياح لأول مرة منذ حوالى الساعة فتساءل ووجهه يشرق بابتسامة لطيفة :

ـ أأطمئن اذن على عهدتك ؟

فقال الطبيب وهو يتظاهر بالدهش :

ـ نعم ، ولكن ألا تهمك حفيدتك ؟ !

فقال السيد باسما :

ـ لا عهد لى بعد بواجبات الجد ...

وتساءل خليل :

ـ أليس ثمة أمل فى حياتها ؟

فقال الرجل وهو يزوى ما بين حاجبيه :

ــ الأعمار بيد الله ، ولكنى وجدت قلبها ضعيفا ، من المحتمل ان تموت الليلة ؛ واذا مرت الليلة بسلام جازت الخطر الماثل ولكنى لا اظن أنها تعمر طويلا ، فى تقديرى أنه لا يمكن أن يمتـد بها العمر الى ما بعد العشرين ، ولكن من يعلم ؟.. الأعمار بيد الله وحده ..

ولما ذهب الطبيب الى طيته التفت خليل نحو أمه وعلى شفتيه ابتسامة خفيفة تنم عن أسف وقال :

ــ كان فى نيتى أن اسميها نعيمة باسمك ..

فقالت المرأة وهى تلوح بيدها مؤنبة :

ــ الطبيب نفسه قال : ان الأعمار بيد الله أفتكون أنت أضعف ايمانا منـه ! سمها نعيمة ، يجب أن تسـميها نعيمة اكراما لى ، وسيكون عمرها باذن الله مديدا كعمر جدتها !

كان السيد يحادث نفسه : دعا الأحمق الطبيب ليطلع على زوجه بغير موجب ، بغير موجب ! ... يا له من أحمـق . ولم يستطع أن يكتم غيظه فقال وهو يداريه بلهجة رقيقة :

ــ حقا ان الخوف يفقد الرجال حسن الروية ، أما كان يجمل بك أن تفكر قليلا قبل أن تبادر الى احضـار رجل غريب ليرى زوجك بملء عينيه ؟!

لم يجب خليل ، ولكنه نظر فيمن حوله وقال بجد :

ــ لا يجوز أن تعلم عائشة بما قال الطبيب ..

ماذا فى الطريق ... ؟!

تساءل السيد احمد وهو ينهض فى عجلة من وراء مكتبه ، فذهب صوب باب الدكان يتبعه جميل الحمزاوى وبعض الزبائن . لم يكن طريق النحاسين طريقا هادئا ، كان أبعد مايكون عن الهدوء ، صوته الجهير لايخفت من الفجر الى ما قبيل الفجر ، حناجره عالية هتافة بنداءات الباعة ومساومات الشارين ودعوات المجذوبين ودعابات السابلة ، يتحادثون وكأنهم يخطبون ، حتى أخص الشئون تترامى الى جوانبه وتطير حتى مآذنه ، الى ضوضاء شاملة تصدر عن صليل سوارس حينا وطقطقة الكارو حينا آخر ، لم يكن طريقا هادئا بحال ولكن تعالت ضجة فجائية وفدت من بعيد فى بادىء الامر كهدير الأمواج ثم غلظت واشتدت حتى صارت بعزيف الريح اشبه وقد لفت الحى كله قريبه وبعيده ، بدت غريبة شاذة حتى فى هذا الطريق الصاخب ، ظنها السيد احمد مظاهرة ثائرة كما ينبغى لرجل عاش فى تلك الأيام ولكن جلجلت فى طياتها زغاريد مبشرة بالأفراح ، فمضى الرجل متسائلا الى الباب ، ولم يكد يبلغه حتى اصطدم بشيخ الحارة الذى أقبل مندفعا وهو يهتف بوجه طفر منه البشر :

ـ أبلغك الخبر ؟.

فقال السيد وعيناه تلمعان تفاؤلا من قبل أن يسمع شيئا :

ـ كلا ، ماذا وراءك ؟

قال الرجل بحماس :

ـ سعد باشا أفرج عنه ..

فما تمالك السيد أن تساءل صائحا :
ـ حقا ؟ ؟ ..
فقال شيخ الحارة بيقين :
ـ أذاع النبى الساعة بيانا بهذه البشرى ..
فى اللحظة التالية كانا يتعانقان ، واشتد التأثر بالسيد أحمد فاغرورقت عيناه ثم قال وهو يضحك مداراة لتأثره :
ـ كان العهد به دائما أن يذيع الانذارات لا البشريات فماذا غيره ابن الهرمة ؟ ! ..
فقال شيخ الحارة :
ـ سبحان الذى لا يتغير ..
وصافح السيد ثم غادر الدكان وهو يصيح « الله أكبر ، الله أكبر ، النصر للمؤمنين ! »
وقف السيد على عتبة الدكان مقلبا عينيه فى أنحاء الطريق بقلب ارتد الى براءة الطفولة وبهجتها ، طالع أثر الخبر السعيد فى كل مكان .. فى الدكاكين التى سدت مداخلها بأصحابها وزبائنها وهم يتبادلون التهانى ، فى النوافذ التى تزاحمت فيها الأحداث وانطلقت الزغاريد من وراء خصاصها ، فى المظاهرات التى تألفت ارتجالا ما بين النحاسين والصاغة وبيت القاضى هاتفة قلوبها لسعد ، وسعد وسعد ثم سعد ، فى المآذن التى اعتلى المؤذنون شرفاتها يشكرون ويدعون ويهتفون ، فى العربات الكارو التى تجمعت بالعشرات حاملة المئات من النسوة المتلفعات بالملاءات اللف وهن يرقصن ويرددن الأغانى الوطنية ، لم يعد يرى الا آدميين أو بالأحرى هاتفين ، اختفت الأرض وتوارت الجدران وتعالى الهتاف لسعد فى كل مكان كأنما الجو قد انقلب اسطوانة هائلة تدور بلا توقف مرددة اسمه . وجرى نبأ فوق الرءوس الحاشدة أن الانجليز يجمعون معسكراتهم القائمة عند مفترق الطرق تأهبا للرحيل الى العباسية فاستمر الحماس وحمست النشوات .

لم ير السيد احمد منظرا كهذا من قبل فراح يقلب عينين متألقتين وفؤاده يخفق وثبا وباطنه يردد مع النسوة الراقصات « يا حسين .. حملة وانشالت ! » حتى ادنى جميل الحمزاوى راسه من أذنه قائلا :

ـ الدكاكين توزع الشربات وترفع الأعلام ..

فقال له بحماس :

ـ اصنع كما يصنعون وأكثر ، ارنى همتك .. !

ثم بصوت متهدج :

ـ علق صورة سعد تحت البسملة ..

فنظر اليه جميل الحمزاوى كالمتردد ثم قال محذرا :

ـ هذا موضع ترى فيه الصورة من الخارج الا يحسن بنا ان نتريث حتى تستتب الأمور ؟

فقال السيد باستهانة :

ـ مضى عهد الخوف والدماء الى غير رجعة ، الا ترى أن المظاهرات تمر تحت أعين الانجليز دون أن يتعرضوا لها بسوء ؟.. علق الصورة وتوكل على الله ..

غار عهد الخوف والدماء ، أليس كذلك ؟ . سعد حر طليق ولعله فى طريقه الآن الى أوربا ، لم يعد بيننا وبين الاستقلال الا خطوة أو كلمة ، مظاهرات الزغاريد بدلا من مظاهرات الرصاص ، الأحياء منا قوم سعداء ، اخترقوا النيران وخرجوا سالمين ، رحمة الله على الشهداء ، فهمى ؟ ! . نجا من خطر لم يقدره ، نجا والحمد والشكر لله ، أجل نجا فهمى ، ماذا تنتظر ؟ . صل الى الله ربك . لما اجتمعت الأسرة مساء وشت الحناجر المبحوحة بيوم ملىء بالهتاف . كان مساء سعيدا ، نمت عن سعادته الأعين والثغور والحركة والكلام حتى أمينة نهل قلبها من نخب السعادة المبذول مشاركة للأبناء واستبشارا بعودة السلام وفرحا بالافراج عن سعد .

ـ من المشربيـــة رأيت ما لم تر عين من قبــل ، هل قامت القيامة ونصب الميزان ؟!. وأولئك النساء هل جنن ؟!. لا يزال صدى ترديدهن يرن فى أذنى « يا حسين .. حملة وانشالت » .

قال ياسين ضاحكا وهو يعبث بشعر كمال :

ـ تحية شـيعوا بها الانجليز الراحلين كما يشـيع الضيف الثقيل بكسر القلة وراءه .. !

نظر اليــه كمال من دون أن ينبس على حين عادت أمينـة تتساءل :

ـ أرضى الله عنا أخيرا .. ؟

فأجابها ياسين قائلا :

ـ بلا ريب (ثم مخاطبا فهمى) ماذا تظن ؟

قال فهمى الذى بدا فى فرح الأطفال :

ـ لو لم يسلم الانجليز بمطالبنا لما أفرجوا عن سعد ، سوف يسافر الى أوربا ثم يعود بالاستقلال ، هذا ما يؤكده الجميع ، ومهمـا يكن من أمر فسـيبقى يوم ٧ ابريل سـنة ١٩١٩ رمزا لانتصار الثورة .

فعاد ياسين يقول :

ـ ياله من يوم !. اشـترك الموظفون فى المظاهرات علانيـة ، ما كنت أظن أن بى هـذه القدرة العظيمة على السـير المتواصل والهتاف العالى . !

فضحك فهمى قائلا :

ـ وددت لو رأيتك وأنت تهتف متحمسـا ، ياسين يتظاهر ويتحمس ويهتف ! .. ياله من منظر فريد !

يوم عجيب فى الأيام حقا ، اكتسحه سـيله الزاخر فحمله بين أمواجه العاتية كوريقة لا وزن لها حتى طار به كل مطار ، لا يكاد يصدق انه ثاب الى رشده وأنه آوى الى برج المراقبة الهـادىء يشـاهد من منظاره الحوادث فى هدوء وعدم اكتراث ! . جعـل

يستحضر الحال التى تلبسته فى المظاهرة على ضوء ملاحظة فهمى حتى قال بغرابة :

ـ الواحد منا ينسى نفسه وهو بين الناس نسيانا غريبا فكأنه يبعث شخصا جديدا ..

سأله فهمى باهتمام :

ـ أكنت تشعر بحماس صادق ؟

ـ هتفت لسعد حتى بح صوتى واغرورقت عيناى مرة أو مرتين ..

ـ كيف اشتركت فى المظاهرة ؟

ـ بلغنا نبأ الافراج عن سعد ونحن فى المدرسة ففرحت فرحا عظيما حقا ، أكنت تتوقع غير هذا ؟ . واذا بالمدرسين يقترحون الانضمام الى المظاهرة الكبيرة فى الخارج فلم أجد من نفسى ميلا الى مجاراتهم وفكرت فى التسلل الى البيت ، غير أنى اضطررت الى السير معهم حتى تسنح لى فرصة للزيغان ، ماذا حصل بعد ذلك ؟ . وجدت نفسى فى بحر متلاطم من الناس وجو مكهرب من الحماس فما ملكت أن ذهلت عن نفسى واندمجت فى التيار كأشد ما يكون المرء ـ صدقنى فى هذا ـ حماسا وبهجة وأملا .. !

فهز فهمى رأسه وهو يغمغم :

ـ شىء عجيب ..

ضحك ياسين عاليا ثم قال :

ـ أحسبتنى فاقد الوطنية ؟ ! المسألة انى لا أحب الزياط والعنف ، ولا أجد حرجا فى التوفيق بين حب الوطن وحب السلامة ..

ـ واذا شق التوفيق بينهما .. ؟

فقال مبتسما ولكن دون تردد :

ـ قدمت حب السلامة ! . نفسى أولا .. الا يستطيع الوطن

أن يسعد الا بالتهام حياتى ؟ ! . يفتح الله ، أنا لا أفرط فى حياتى ولكنى سأحب الوطن ما دمت « حيا » . .

قالت أمينة :

ــ هذا عين العقل (ثم متطلعة الى فهمى) هل عند سيدى رأى آخر . . ؟

قال فهمى بهدوء :

ــ كلا طبعا ، انه عين العقل كما قلت . .

ولم يرض كمال أن يبقى بمعزل عن الحديث لا سيما أنه كان مقتنعا بأنه لعب فى يومه دورا خطيرا حقا فقال :

ــ وأضربنا نحن كذلك ولكن الناظر قال لنا : اننا ما زلنا صغارا .. وأننا اذا خرجنا من المدرسة داستنا الأقدام ، ثم سمح لنا بالتظاهر فى فناء المدرسة فتجمعنا فيه وهتفنا (هنا هتف عاليا : يحيا سعد) طويلا جدا ، ثم لم نعد الى الفصول لأن المدرسين كانوا قد غادروا المدرسة منضمين الى المتظاهرين فى الخارج . . . !

رماه ياسين بنظرة ساخرة وقال :

ــ ولكن أصدقاءك ذهبوا . . !

ــ فى داهية . .

ندت عنه هذه العبارة بلا تفكير وهى أبعد ما تكون من حقيقة شعوره ، لأن الحال تقتضيها من ناحية ، ولأنه أراد أن يدارى بها هزيمته أمام سخرية ياسين من ناحية أخرى ، أما قلبه فكان يكابد دهشة وغمزا ، لم ينس كيف وقف لدى عودته من المدرسة فى المكان المهجور الذى كان يحتله المعسكر يقلب عينيه فى أرجائه فى صمت أليم وعيناه مغرورقتان . سوف يمضى وقت طويل قبل أن ينسى مجلس الشاى على طوار سبيل بين القصرين ، والاعجاب الذى كان يحظى به غناؤه ، والمودة التى كان يلقاها من الجنود

خاصة جوليون ، والصداقة التي ربطته بالسادة المتفوقين الذين يعلون في اعتقاده على سائر البشر ! . قالت أمينة :

ـ سعد باشا رجل سعيد الحظ ، الدنيا كلها تهتف باسمه ، ولا أفندينا في زمانه ، رجـل مؤمن بلا ريب لأن الله لا ينصر الا المؤمنين ، نصره على الانجليز الذى غلبوا زبلن نفسه ، أى فوز وراء هذا ؟ ! . . لقد ولد الرجل في ليلة القدر .

سألها فهمي باسما :

ـ أتحبينه . . ؟

ـ أحبه ما دمت تحبه . .

بسط فهمي راحتيه ورفع حاجبيه مستنكراً ثم قال :

ـ لا يعني هذا شيئا . . !

فتنهدت فيما يشبه الارتباك ثم قالت :

ـ كنت كلما بلغنى نبأ أسيف تقطع قلبى حزنا وقلت لنفسى « ترى أكان يقع هذا لو لم يقم سعد قومته ؟! » على أن رجلا يجمع الكل على حبه لابد أن الله يحبه كذلك . .

ثم متنهدة بصوت مسموع :

ـ أسفى على الهالكين ، كم أما تبكى الآن بحرارة ؟ . . كم أما لم تزدها فرحة اليوم الا حسرة على حسرة . .

قال لها فهمي وهو يغمز ياسين بطرفه :

ـ الأمُ الوطنية حقا تزغرد لاستشهاد ابنها . .

فوضعت أصبعيها في أذنيها وهتفت :

ـ اللهم انى أشهدك على ما يقول سيدى الصغير ! . . أم تزغرد لاستشهاد ابنها !. اين ؟ ! . على هذه الأرض ؟. . ولا تحت الأرض في عالم الشياطين ! . .

قهقه فهمي عاليا ، ومضى يفكر مليا ، ثم قال وعيناه تلمعان باسمتين :

ــ نينة .. ! سأبوح لك بسر خطير آن له أن يذاع ، لقــد اشتركت فى المظاهرات وقابلت الموت وجها لوجه .. !

سهمت اليه غير مصــدقة ثم قالت وعلى شفتيها ابتسامة باهتة :

ــ أنت ؟ ! .. محال .. انك من لحمى ودمى وقلبك من قلبى ، لست كالآخرين ..

فقال بيقين وهو يبتسم اليها :

ــ اقسم لك على ذلك بالله العظيم ..

اختفت الابتســامة واتسعت العينان فى ذهول ، ثم رددت بصرها بينه وبين ياسين الذى حدجه بدوره بنظرة متسائلة ، ثم غمغمت وهى تزدرد ريقها :

ــ رباه ! .. كيف أصدق أذنى !

ثم بعد أن هزت رأسها فى حيرة أليمة :

ــ أنت ! ..

كان يتوقع انزعاجها ولكن ليس ــ بالنظر لمجىء اعترافه بعد زوال الخطر ــ الى الحد الذى بدا عليها ، فبادرها قائلا :

ــ ذاك تاريخ مضى وانتهى ، لا داعى الآن للانزعاج ..

فقالت باصرار ونرفزة :

ــ صه ، أنت لا تحب أمك ، سامحك الله ..

فضحك فهمى فى شىء من الارتباك . قال كمــال لأمه وهو يبتسم بمكر :

ــ أتذكرين يوم دكان البسبوسة وضرب النار ؟ .. رأيته وأنا عائد فى الطريق المقفر فنبه على بألا أخبر أحدا بأنى رأيته ..

ثم نظر الى فهمى وسأله باهتمام وتشوق :

ــ قص علينا يا سى فهمى ما لقيت فى المظاهرات ، كيف كانت تقع المعارك ؟ وكيف يصرع القتلى ؟ الم تطلق النار قط .. ؟

فتدخل ياسين فى الحديث قائلا للأم :

ـ ذاك تاريخ مضى وانتهى ، اشكرى الله على نجاته ، هـذا أولى بك من الانزعاج :

سألته بجفاء :

ـ أكنت تعلم بذلك .. ؟

فبادرها قائلا :

ـ لا وحياة تربة أمى (ثم مستدركا) ودينى وايمانى وربى ..

ثم نهض من مجلسه ، منتقلا الى جوارها فوضع يده على منكبها وقال برقة :

ـ أتطمئنين حين كان ينبغى الانزعاج وتنزعجين حين ينبغى الاطمئنان ! وحدى الله ، زال الخطر وعاد السلام ، ها هو فهمى بين يديك .. (وضاحكا) ابتداء من الغد سنقطع القـاهرة طولا وعرضا ، ليلا ونهارا ، بلا خوف أو قلق ..

وقال فهمى جادا :

ـ نينة ، رجائى اليك ألا تكدرى صفونا بحزن لا موجب له .

تنهدت .. فتحت فاها لتتكلم ولكنها حركت شفتيها دون أن تنبس . ابتسمت ابتسامة شاحبة لتعلن استجابتها لرجائه ، ثم نكست وجهها لتخفى عينيها المغرورقتين ..

ـ ٧٠ ـ

بات فهمى تلك الليـلة وهو عاقد العزم على استرضاء أبيـه مهما كلفه الأمر وفى صباح اليوم التالى صمم على تنفيـذ عزمه دون تردد . ومع أنه لم يضمر لأبيه ـ طول فترة عصيانه ـ أى احساس بالغضب أو التحدى فان ضـميره كابد شعورا بالذنب ناء به قلبه الحساس المشرب بالطاعة والولاء . حقا لم يتحده بلسانه

ولكنه خالف ارادته بالفعل ، بل خالفها مرارا وتكرارا ، فضلا عن امتناعه عن القسم يوم دعاه اليه فى حجرته واعلانه بالبكاء تمسكه برأيه رغم ارادة الرجل ، كل أولئك أحله — على حسن نيته — موقفا عاقا شريرا لا يرضاه لنفسه ولا يحتمله . ولم يكن سعى الى استرضائه من قبل خشية أن ينكأ الجرح دون أن يسعه أن يلأمه ، لأنه قدر أن يدعوه السيد الى القسم تكفيرا عما بدر منه فيضطر مرة أخرى الى الامتناع مؤكدا عصيانه من حيث أراد أن يعتذر عنه . الحال اليوم غيرها بالأمس ، انتشى قلبه بالسرور والظفر ، الوطن كله ثمل بخمر السعادة والفوز ؛ فلا يطيق أن يقوم بينه وبين أبيه حجاب من سوء الظن ولو لحظة واحدة ، الاسترضاء ، فالعفو الذى يهفو اليه ، ثم السعادة الحقة التى لاتشوبها شائبة .. دخل حجرة أبيه قبيل ميعاد الفطور بربع ساعة فوجده يطوى سجادة الصلاة مغمغما بالدعاء . لمحه الرجل بلا ريب ولكنه تجاهله فمضى الى الكنبة دون أن يلتفت صوبه وجلس . عند ذاك تراءى فهمى بموقفه عند الباب ملفوفا بالارتباك والحياء فحدجه بنظرة جافة مستنكرة كأنما تتساءل « من هذا الواقف وماذا جاء به ؟ ! » فتغلب فهمى على ارتباكه وتقدم من مجلس أبيه فى خطى خفيفة حتى انحنى على يده فتناولها ولثمها باحترام لا حد له ، وصمت مليا ثم قال بصوت لا يكاد يسمع :

— صباح الخير يا بابا .

واصل التحديق فيه صامتا كأنه لم يسمع تحيته حتى غض الشاب بصره ارتباكا وغمغم فى نبرات نمت عن اليأس :

— انى آسف ..

صمت واصرار على الصمت ..

آسف جدا ، لم أذق طعم السكينة منذ ...

وجد أن الكلام كان يستدرجه الى ذكر ما ود من كل قلبه أن يتحاشاه فأمسك ، وما يدرى الا والسيد يسأله بجفاء وتبرم :

ــ ماذا تريد . . ؟
رحب باقلاعه عن الصمت أيما ترحيب فتنهد بارتياح كأنه لم يستشعر جفاءه وقال برجاء : أريد أن تكون راضيا عنى . .
قال السيد بضجر :
ــ غر من وجهى .
فقال فهمى وهو يشعر بقبضة اليأس تتراخى قليلا عن عنقه :
ــ عندما أنال رضاك . .
تساءل السيد متحولا فجأة الى التهكم :
ــ رضاى ! . . لم لا ؟ . . هل فعلت لا سمح الله ما يستوجب السخط ؟ !
رحب بالتهكم أضعاف ترحيبه بالاقلاع عن الصمت ، التهكم عند أبيه أول خطوة نحو الصفح . غضبه الحقيقى صفع أو لكم أو ركل أو سب أو كل أولئك جميعا ، التهكم أول بشير بالتحول ، انتهز الفرصة وتكلم ؛ تكلم كما ينبغى لرجل قد يعمل فى المحاماة غدا أو بعد غد ، هذه فرصتك ! وتكلم ، الاستجابة لنداء الوطن لا تعد عصيانا لارادة حضرتك ، لم أفعل شيئا يحسب بين الأعمال الوطنية حقا ، توزيع منشورات على الأصدقاء . . وما توزيع المنشورات على الأصدقاء ؟ أين أنا ممن بذلوا الحياة رخيصة ؟ فهمت من كلام حضرتك أنك تخاف على حياتى لا لأنك تستنكر حقا الواجبات الوطنية ، فقمت بشىء من الواجب وأنا مطمئن الى أنى ــ فى الواقع ــ لا أخالف لك ارادة ، الخ الخ . .
ــ علم الله أنه لم يخطر ببالى قط أن أعصى لك أمرا .
قال السيد بحدة :
ــ كلام فارغ ، تتظاهر بالطاعة الآن لأنه لم يعد ثمة داع الى العصيان ، لم لم تطلب رضاى قبل اليوم . . ؟
قال فهمى بحزن :
ــ كانت الدنيا فى دم وكرب وكنت من الحزن فى شغل شاغل . .

ـ شغلك عن طلب رضاى ؟!

قال بحرارة :

ـ شغلنى عن نفسى لا عن طلب رضاك ..

ثم بصوت منخفض :

ـ لن أستطيع أن أعيش بغير رضاك ..

قطب السيد ، لا غضبا كما تظاهر ، ولكن ليخفى الأثر اللطيف الذى بعثه كلام الشاب فى نفسه . هكذا يكون الكلام والا فلا ، يجيد صناعة الكلام حقا ، هذه هى البلاغة أليس كذلك ؟ سأعيد أقواله على مسامع الأصدقاء الليلة لأمتحن أثره فى نفوسهم ، ترى ما عسى أن يقولوا ؟ ، الولد سر أبيه .. هذا ما ينبغى أن يقال ، قديما قيل أننى لو أتممت مراحل التعليم لكنت أبلغ المحامين ، انى أبلغ الناس بغير التعليم والمحاماة ، الحديث اليومى كالقانون سواء بسواء فى الكشف عن موهبة البلاغة ، كم من محام أو موظف كبير ينكمش فى المجلس أمامى كالعصفور ! ولا فهمى نفسه بمستطيع أن يسد مكانى يوما ما ، سيقولون لى وهم يضحكون حقا الولد سر أبيه ، امتناعه عن القسم لا يزال يحز فى نفسى ، لكن أليس من دواعى الفخر لى أنه اشترك فى الثورة ولو من بعيد ؟ ليته اشترك فى الأعمال الكبيرة ما دام الله قد كتب له العمر حتى اليوم ، سأقول من الآن فصاعدا أنه خاض غمار الثورة ، أتظنون أنه اكتفى بتوزيع المنشورات كماكان يؤكد لى ؟.. لقد رمى ابن الكلب بنفسه فى التيار الدامى ، يا سيد أحمد ينبغى أن نشهد لابنك بالوطنية والشجاعة .. لم نشأ أن نقول لك هذا فى ابان الخطر اما وقد استقر السلام فلا حرج من قوله .. أتنكر أنت شعورك الوطنى ؟.. ألم يثن عليك جامعو التبرعات من مندوبى الوفد .. والله لو كنت شابا لفعلت ما لم يفعله ابنك ولكنه عصانى ! عصى لسانك وأطاع قلبك ! الآن ما عسى أن افعل ؟ يريد قلبى أن يهبه العفو ولكنى أخاف أن يستهين بمخالفتى !

ــ وأنا لن أستطيع أن أنسى أنك خالفت ارادتى ، أحسبت أن الخطبة الفارغة التى صبحتنى بها على غيار الريق يمكن أن تؤثر فى ؟!

هم فهمى بالكلام ولكن أمه دخلت فى تلك اللحظة وهى تقول :

ــ الفطور جاهز يا سيدى ..

وقد دهشت لوجود فهمى على غير انتظار فرددت عينيها بينهما ، وتلكأت قليلا لعلها تسمع شيئا مما يدور ولكنها رأت فى الصمت ــ الذى خافت أن يكون مجيئها باعثه ــ ما دعاها الى مغادرة الحجرة على عجل . نهض السيد للانتقال الى حجرة المائدة فتنحى فهمى جانبا وقد علاه حزن شديد لم يخف أثره عن عينى الرجل فتردد لحظات ثم قال أخيرا بصوت سلمى :

ــ أريد مستقبلا ألا تصر على حماقتك وأنت تخاطبنى ..

وسار فتبعه الشاب ممتنا باسم الأسارير ، ثم سمعه يقول متهكما وهما يقطعان الصالة :

ــ أظنك حاسب نفسك على رأس الذين أفرجوا عن سعد ؟

غادر فهمى البيت قرير العين فمضى من توه الى الأزهر حيث اجتمع بزملائه أعضاء لجنة الطلبة العليا للنظر فى تنظيم المظاهرات السلمية الكبرى التى سمحت السلطة بقيامها للاعراب عن ابتهاج الشعب والتى تقرر أن يشترك فيها ممثلو الأمة بكافة طبقاتها . دام الاجتماع وقتا غير قصير ، ثم تفرق المجتمعون كل الى وجهته فركب الشاب الى ميدان المحطة بعد أن عرف الدور الذى عهد به اليه وهو الاشراف على تجمعات طلبة المدارس الثانوية . لئن كان يعد ما يعهد عادة اليه ــ بالقياس الى غيره ــ من الأدوار الثانوية الا أنه كان يقوم به بدقة وعناية وغبطة كأنما هو أسعد ما يحظى به فى حياته غير أنه لم يكن يخلو فى جهاده من تعاسة خفية لم يعلم بها أحد سواه ، منشؤها ما أقتنع به من أنه دون الكثيرين من أقرانه جرأة واقداما . أجل لم ينكص عن مظاهرة من

المظاهرات التى دعت اليها اللجنة ولكنه يفقد جنانه عند ظهور اللوريات المحملة بالجنود وخاصة عند انطلاق الرصاص وتساقط الضحايا . . فمرة لاذ بمقهى وهو يرتعد ، ومرة أخرى جرى على وجهه شوطا بعيدا حتى وجد نفسه فى قرافة المجاورين ، أين هو من حامل اللواء فى مظاهرة بولاق ، أو مذبحة بولاق كما غدت تسمى ، الذى استشهد ويداه قابضتان على اللواء وقدماه ثابتتان فى الطليعة وحنجرته تهتف بالثبات ؟ ! ، أين هو من أقران ذلك الشهيد الذين تبادروا الى اللواء ليرفعوه فسقطوا فوقه وقد تقلدت صدورهم نياشين الرصاص ؟ ! أين هو من ذلك الشهيد الذى انتزع المدفع الرشاش من أيدى الجنود فى الأزهر ؟ ! أين هو من هؤلاء جميعا وغيرهم ممن تطير الأنباء بأى بطولتهم واستشهادهم ؟ ! . كانت أعمال البطولة تتراءى لعينيه رائعة باهرة تخطف الأبصار ، وطالما أنصت الى نداء باطنى يهيب به الى الاقدام والتأسى بالأبطال ، ولكن كانت تخذله أعصابه فى اللحظة الحاسمة فما تنحسر موجة المعركة حتى يجد نفسه فى المؤخرة ان لم يكن مختبئا أو هاربا ، ثم يعود الى التصميم على مضاعفة البذل والكفاح والتماسك بضمير معذب وقلب حائر ورغبة فى الكمال لا تحد ، متعزيا أحيانا بقوله « ما أنا الا محارب أعزل ، ولئن فاتنى الرائع من أعمال البطولة فحسبى أننى لم أتردد مرة واحدة عن الالقاء بنفسى فى أتون المعركة » . فى طريقه الى ميدان المحطة جعل يراقب الطرق والمركبات ، كان الجميع يتوجهون ــ فيما بدا ــ وجهته ، طلبة وعمالا وموظفين وأهلين راكبين وراجلين ، تظلهم جميعا طمأنينة خليقة بقوم ذاهبين الى مظاهرة سلمية مصرح بها ، انه مثلهم ، يشعر بشعورهم ، لا كمهده القديم حين كان يلتمس طريقه الى موعد المظاهرة بنفس ثائرة وقلب قلق تثقل ضرباته كلما تخايل لعينيه شبح الهلاك . ذاك عهد مضى ، اليوم يمضى مطمئن الجانب باسم الثغر . . انتهى الجهاد ؟ خرج منه سليما لا عليه ولاله . .

ولا له ؟! ليته عانى شيئا مما تعرض له الآلاف كالسجن أو الضرب أو اصـابة غير مميتة ! اليس من المحزن أن تكون السـلامة المطلقة جزاء من أوتى قلبا كقلبه وحماسا كحماسه ! كطالب مجتهد لم يتح له أن يظفر بأية شهادة .. أتنكر سرورك بالنجاة ؟.. أكنت تفضل أن تكون من الشهداء ؟ كلا ، أكنت تتمنى لو كنت من المصابين غير الهالكين ؟ نعم ، كان ذلك فى وسعك فلم نكصت ؟ لم تكن تضمن أن تقع الاصابة غير مميتة أو أن يكون السجن عابرا ، أنت لاتكره النجاة الراهنة ولكنك تتمنى لو كان أصابك شيء دون أن يغير من هذه النهـاية الجميـلة ، ينبغى اذا جاهدت مرة أخرى أن أطلع على الغيب ! أمضى الى المظاهرة السلمية بقلب مطمئن وضمير قلق ـ بلغ الميدان زهاء الواحدة بعد الظهر ، قبل الميعاد المحدد لقيـام المظاهرة بساعتين فاتخذ مكانه فى الموضع الذى حدد له ! .. باب المحطة . لم يكن بالميدان الا المشرفون وجماعات متفرقة من شتى الطوائف ، وكان الجو معتدلا الا أن شمس ابريل صبت على من تعرض لأشعتها لظى ، ولم يطل الانتظار فأخذت الجموع تتوافد على الميدان من مختلف الطرق المفضية اليه ، ومضت كل جماعة صوب علمها ، بذلك شرع فهمى فى عمله بلذة وفخار ، بالرغم من بسـاطة العمل الذى لم يعد أن يكون ترتيبا للمدارس كل وراء علمها الا أنه ملأ نفسه زهوا وخيلاء سيما وأنه كان يشرف على طلبة كثيرين ممن يكبرونه سنا حتى بدت التسعة عشر عاما التى يجرها وراءه ذيلا قصيرا فى زحمة التلاميذ الذين ناهز كثير منهم الثانية والعشرين والرابعة والعشرين وفتلت شـواربهم ولاحظ أعينا ترمقه باهتمام وشـفاها تتهامس عليه كما سمع اسـمه ـ مقرونا بصفته الشـعبية ـ يجرى على بعض الألسن « فهمى أحمد عبد الجواد مندوب اللجنة العليا » فحرك أوتار قلبه حتى أطبق شفتيه أن تند عنهما بسمة حياء أو ارتباك من « مهابته » أجل ينبغى أن يحافظ منظر منـدوب اللجنة العليـا على الجد

والصرامة الخليقتين بالرعيل الأول من شباب المجاهدين كى ينفسح المجال لأخيلة المتطلعين لحدس ما يخفى وراءه من أعمال البطولة والكفاح ، فلتتحقق تلك الأعمال الخارقة ـ التى عجز عن تحقيقها فى الواقع ـ فى أخيلتهم ، لن تفتر له رغبة فى المزيد منها وان وخز قلبه احساسه الحاد بالحقيقة العارية . موزع منشورات وجندى من جنود المؤخرة ! هذا هو بلا زيادة . اليوم يوكل به قيادة المدارس الثانوية فيواجه زعامة كبيرة ، ترى هل يقدر الآخرون عمله أكثر مما يقدره هو ؟! لشد ما يحبونه بالاحترام والمحبة ، لم يعقد اجتماع الا وكان له فيه رأى مسموع ، والخطابة ؟ . . ليس من الضرورى أن تكون خطيبا . . أليس كذلك ؟ ليس محالا أن تكون عظيما وأنت غير خطيب ولكن أى خسارة ستمنى بها يوم تمثل اللجنة العليا بين يدى الزعيم فيستبق الخطباء وتلوذ أنت بالصمت . كلا لن ألوذ بالصمت . سوف أتكلم ، سأطلق لقلبى العنان أجاد أم لم يجد ، متى تقف بين يدى سعد ؟ متى تراه لأول مرة فتمتلأ منه عينيك ؟ ان قلبى يخفق وعيناى تحنان للدموع ، سيكون يوما عظيما ستخرج مصر كلها لاستقباله ، لن يكون يومنا هذا الى ذلك اليوم الا كالقطرة الى البحر ، رباه ! . . امتلأ الميدان بل امتلأت الشوارع المفضية اليه ، عباس نوبار الفجالة ، لم تسبق كهذه مظاهرة ، مائة الف ، طرابيش عمائم ، طرابيش عمائم ، طلبة . . عمال . . موظفون . . الشيوخ والقساوسة ، القضاة . . من كان يتصور هذا ، لايبالون الشمس . هذه مصر ، لم لم أدع بابا ؟ صدق ياسين . . الواحد منا ينسى بين الناس نفسه ، يعلوعلى نفسه ، أين همومى الشخصية ؟ . لا شىء ، لشدما يخفق قلبى ، سأتحدث عن هذا طويلا الليلة وما بعدها . ترى هل ترتعد نينة مرة أخرى ؟ منظر جليل تخشع له القلوب وتطمئن ، أريد أن ألمس أثره فى وجوه الشياطين ! هاهى ثكناتهم تشرف على الميدان ، الراية اللعينة ترفرف ، هنالك رءوس فى

النوافذ .. فيم تتهامس ؟! الديدبان تمثال لايرى شيئا ، لم تغض رشاشاتكم على الثورة ، افقهوا هذا ، سترون عما قريب سعد فى هذا الميدان عائدا مظفرا تنفونه بالسلاح ونعيده بغير سلاح ، سوف ترون ، سوف ترون قبل الجلاء . تحرك الموكب العظيم فتدفقت موجاته تباعا مرددة الهتافات الوطنية ، بدت مصر مظاهرة واحدة . بل رجلا واحدا ، بل هتافا واحدا .تتابعتطوابير الطوائف طويلا ، طويلا جدا ، حتى خيل اليه أن الطلائع ستشارف عابدين قبل أن يتزحزح هو وجماعته عن موضعهم أمام باب المحطة ، أول مظاهرة تسير دون أن تقطع المدافع الرشاشة الطريق عليها ، لا رصاص من ناحية ولا زلط من الناحية الأخرى ، وافتر ثغره عن ابتسامة . رأى الجماعة التى تعسكر أمامه مباشرة تتحرك فدار على عقبيه كى يواجه مظاهرته «الخاصة» ورفع يديه فسرت فى الصفوف حركة تأهب وتوثب ، ثم هتف بأعلى صوته وهو يسير مقهقرا . واصل مهمة القيادة والهتاف حتى مدخل شارع نوبار ثم تخلى عن الثانية لغيره ممن أحاطوا به مترصدين دورهم بأفواه قلقة متحركة كأنما قد جاءها المخاض والطلق فلا تستريح حتى تقذف بهتافاتها ، دار على عقبيه مرة أخرى سائرا بوجهه ، يشرئب بعنقه تارة ليشاهد ما تقدم من جسم المظاهرة التى لم يعد يرى لها أولا ويتلفت يمنة ويسرة تارة أخرى ليرى من اكتظت بهم الأرصفة والنوافذ والشرفات والأسطح من جموع المشاهدين الذين جعلوا يرددون الهتافات . امتلأت نفسه بمنظر الألوف الحاشدة قوة الى قوة وطمأنينة على طمأنينة ، كأنها دروع منصوبة حواليه ، قوة متماسكة لا ينفذ منها الرصاص ، ان قوات البوليس تتعهد النظام بعد أن أعياها الطعان والهجوم . ان منظر هؤلاء الرجال الذاهبين الجائلين على صهوات جيادهم كأنهم حراس تابعون للمظاهرة قائمون على خدمتها ، لأبلغ دليل على انتصار الثورة ، الحكمدار ؟ ! .. أليس هذا هو رسل بك . بلى هو انه

يعرفه حق المعرفة ، وهذا وكيل الحكمدار يخب وراءه ملقيا على الأفق نظرة جامدة مترفعـة كأنما تحتج احتجاجا صـامتا على السلام الذى احتضن المظاهرة ، ما اسمه ؟ هـل يمكن أن ينسى الاسم الذى ملأ الاسماع فى الأيام السـود الدامية ؟! أوله جيم أليس كذلك ؟ جا .. جـو .. جى .. يأبى أن يسـتجيب الى الذاكرة ، جوليون ! أوه كيف تسلل هـذا الاسم البغيض الى وعيه ؟! هوى عليه كالتراب فأطفأ حماسه ، كيف لنا أن نلبى نداء الحماس والظفر مادام القلب ميتا ! قلب ميت ؟! لم يكن ميتا منذ دقيقة ، لا تستسلم للحزن ، لا تدع قلبك يبتعـد عن المظاهرة ، ألم تعاهدك نفسك على النسيان ؟ بل انك نسيت بالفعل ، مريم .. من هى ؟! ذلك التاريخ القديم ؟! نحن نعيش للمستقبل لا للماضى .. جيز .. مستر جيز .. مستر جيز .. هذا هو اسم وكيل الحكمدار لعنة الله عليه ، عـد الى الهتاف كى تنفض عن نفسك هذا الغبار الطـارىء . مضت « مظاهـرته » تقترب رويدا من حـديقة الأزبكية التى لاحت أشجارها الباسـقة فوق الأعـلام المنتشرة بطول الطـريق على حين بدا ميـدان الأوبرا من بعيد رءوسا متلاصـقة كأنها تنبت من جسد واحد ملأ الأرض طولا وعرضا . كان يهتف بقوة وحماس والجمهور يردد هتافه بصوت ملأ الجو كهزيم الرعد . ولما شارفوا سور الحـديقة دوت ــ على حين بغتة ــ فرقعة حادة فشلت حنجرته وتلفت فيما حواليـه متسائلا فى انزعاج ، صوت معهود كثيرا ما صك أذنيه فى الشهر المنصرم وكثيرا ما تردد صداه فى ذاكرته فى هداة الليل بيد أنه لم يستطع أن يألفه فما يكاد يدوى حتى يخطف دمه ويوقف قلبه عن الخفقان ..

ــ رصاص .. ؟ !

ــ غير معقول ، ألم يصرحوا بالمظاهرة ؟ ..

ــ أسقطت من حسابك الغدر ؟



ــ ولكن لا ارى جنودا .. ؟!

ــ حديقة الأزبكية معسكر هائل مكتظ بهم ..

ــ لعلها فرقعة عجلة سيارة ..

ــ لعلها ..!

رهف اذنيه لما يدور حوله من دون أن يثوب الى السكينة . وما هى الا لحظات حتى دوت فرقعة ثانية .. آه .. لم يعد ثمة شك ، رصاصة كسابقتها ، أين يا ترى استقرت ؟ أليس يوم سلام ؟! شعر بحركة اضطراب تسرى بين المتظاهرين وافدة من الأمام كالموجة الثقيلة التى تدفعها الى الشاطىء باخرة تمخر وسط النهر ، ثم تراجع الألوف وانتثروا باعثين فى كل ناحية دفعات جامحة جنونية من الاضطراب والارتباك والارتطام ، تعلوها صيحات مفزعة من الغضب والخوف ، وسرعان ما انتثرت الصفوف المتناسقة وانهد البنيان المشيد . تلاحقت جملة من الطلقات الحاده فتعالى صراخ الغضب وأنين الألم . ماج بحر الخلق وهاج وتدافعت موجاته الى جميع المنافذ لا تبقى على شىء فى طريقها ولا تذر . أهرب ، ما من الهرب بد ، ان لم يقتلك الرصاص قتلتك الأذرع والأقدام . هم بالهرب أو بالتراجع أو حتى التحول عن موقفه ولكنه لم يفعل شيئا ، ما وقوفك ، وقد تشتت الجمع ؟ ! فى خلاء أنت ، اهرب . صدرت عن ذراعيه وساقيه حركة بطيئة وانية متراخية . ما أشد الضوضاء ، ولكن بم علا صراخها ؟ هل تذكر ؟ ما أسرع ما تفلت منك الذكريات . ماذا تريد ؟ أن تهتف ؟ أى هتاف ؟ أو هو نداء فحسب .. من ؟ ما ؟ فى باطنك يتكلم ، هل تسمع ؟ هل ترى ؟ ولكن أين ؟ لا شىء ، لا شىء ، ظلام فى ظلام ، حركة لطيفة تطرد بانتظام كدقات الساعة ينساب معها القلب .. تصاحبها وشوشة ، باب الحديقة .. أليس كذلك ؟ يتحرك حركة تموجية سائلة ، يذوب رويدا ، الشجرة السامقة ترقص فى هوادة ، السماء .. السماء ؟ منبسطة عالية . لا شىء الا السماء هادئة باسمة يقطر منها السلام ...

سمع السيد أحمد عبد الجواد وقع أقدام على مدخل الدكان فرفع رأسه عن مكتبه فرأى ثلاثة شبان يتقدمون نحوه تعلوهم سيماء الجد والرزانة حتى وقفوا لصق مكتبه وهم يقولون — السلام عليكم ورحمة الله ..

فنهض السيد قائلا بأدبه المعهود :

— وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته (ثم مشيرا الى الكراسى) تفضلوا ..

ولكنهم لم يلبوا الاشارة شاكرين وقال أوسطهم :

— حضرتك السيد أحمد عبد الجواد ؟

فقال السيد باسما وان لاح فى نظرة عينيه التساؤل :

— نعم يا سيدى ..

ماذا يريدون يا ترى ؟ الشراء مستبعد .. ما للشراء والمشية العسكرية التى جاءوا عليها ! ما للشراء واللهجة الجدية التى يتكلمون بها ! ثم ان الساعة جاوزت السابعة مساء . الا يرون الحمزاوى وهو يرفع الزكائب الى الرفوف ايذانا باغلاق الدكان ؟ أيكونون من جامعى التبرعات ، لكن سعد قد أفرج عنه وانتهت الثورة ، وأنا لم أعد صالحا الآن الا للسهرة ! ياهؤلاءاعلموا انى لم اغسل راسى ووجهى بالكولونيا وأمشط شعرى وشاربى واحبك جبتى وقفطانى كى ألقى وجوهكم ! ماذا تريدون ؟ غير انه خيل اليه وهو يرنو الى محدثه أن وجهه ليس غريبا عليه . رآه من قبل ؟ اين ؟ متى ؟ تذكر ، من المؤكد انه لا يراه لأول مرة ، آه ... قال باسما وقد شاع الارتياح فى وجهه :

ـ أليس حضرتك الشاب النبيل الذى تقدم لانقاذنا فى الوقت المناسب يوم حمل الناس علينا فى مسجد الحسين رضى الله عنه ؟
فقال الشاب بصوت خفيض :
ـ بلى يا سيدى ..
صدق ظني ، يقول البلهاء أن الخمر تضعف الذاكرة ؟ لكن ما بالهم ينظرون الى هكذا ؟ انظر ، انظر ! هذه النظرات لا تنبىء عن خير ، اللهم اجعله خيرا ، أعوذ بالله من الشيطان الرجيم ، قلبى ينقبض لأمر ما جاءوا لأمر يتعلق بـ ..
ـ فهمى ؟! .. جئتم تريدونه .. لعلكم !؟.
نكس الشاب عينيه ثم قال بصوت متهدج :
ـ مهمتنا شاقة يا سيدى ولكنها فرض واجب ، ربنا يلهمك الصبر !..
مال السيد فجأة الى الأمام معتمدا على حافة المكتب وهتف :
ـ الصبر ؟! علام ! .. فهمى ؟!.
قال الشاب بحزن بالغ :
ـ يؤسفنا أن ننعى اليك أخانا المجاهد فهمى أحمد ..
صاح بلهجة منكرة وان لاحت فى عينيه نظرة قاطعة بالتصديق واليأس :
ـ فهمى ؟.
ـ استشهد فى مظاهرة اليوم ..
وقال الذى الى يمينه :
ـ انتقل الى جوار الأبرار وطنيا نبيلا وشهيدا كريما ..
تلقى كلماتهم بأذن أصمها الشقاء على حين ختم الصمت شفتيه واسترسلت عيناه فى نظرة شاردة غائبة . مضت هنيهة خيم الصمت فيها عليهم أجمعين حتى جميل الحمزاوى تسمر تحت الرفوف ذاهلا يمد الى الرجل بصرا ملؤه الجزع ، أخيرا عاد الشاب يغمغم :

ـ لشد ما أحزننا فقده ولكن ليس لنا الا أن نتلقى قضاء الله بصبر المؤمنين ؛ وانك لمن المؤمنين يا سيدى ..

انهم يعزونك ، لا يعلم هذا الشاب انك أول من يحسن القـ التعازى فى مثل هذا الموقف !.. ماذا تعنى هى للقلب المصاب ؟ لا شيء ! من أين الكلام أن يطفىء النار ؟ مهلا .. ألم تخطر الرزية بقلبك قبل أن يتكلم قائلهم ؟ بلى .. تخايل لعينى شبح الموت ؛ الآن والموت حقيقة تلقى الى سمعك تأبى أن تصدق ، أو تخونك شجاعتك فلا تريد أن تصدق ، كيف أصدق ان فهمى مات حقا ؛ كيف تصدق أن فهمى الذى كان يطلب رضاك من ساعات فتثاقلت عنه ، فهمى الذى تركنا هذا الصباح ممتلئا صحة وعافية وأملا وسرورا ، مات .. مات ! لن أراه بعد اليوم ! لا فى البيت ولا فى ى مكان من ظهر الأرض ؟.. كيف يكون البيت من غيره ؟ كيف أكون أبا بعده ؟ أين تذهب الآمال المعقودة عليه ؟ لم يعد ثمة أمل الا فى الصبر .. الصبر ؟ آه .. هل تشعر بوخز الألم الحاد ؟ هذا هو الألم حقا .. كنت تخدع أحيانا فتزعم انك متألم ، كلا ، لم تتألم قبل اليوم ، هذا هو الألم حقا ..

ـ سيدى ، شد حيلك وسلم أمرك الى الله ..

رفع السيد رأسه الى الشاب ، ثم قال بصوت مريض :

ـ ظننت عهد القتل قد انتهى ..

فقال الشاب بنبرات غاضبة :

ـ كانت مظاهرة اليوم مظاهرة سلمية ، وقد أذنت بها السلطات فاشترك فيها صفوة الرجال من شتى الهيئات ، وسارت أول الأمر فى أمان حتى بلغ منتصفها حديقة الأزبكية ، وما ندرى الا والرصاص ينهال علينا من وراء السور بلا سبب ، لم يتعرض أحد للجنود لا بخير ولا بشر حتى الهتاف بالانجليزية امتنعنا عنه تفاديا من الاستفزاز . ولكن مسهم جنون القتل فجأة فعمدوا الى

بنادقهم وأطلقوا النار . وقد انعقد الاجماع على توجيه احتجاج شديد الى دار الحماية ، بل قيل : ان اللنبى سيعلن أسفه عما بدر من الجنود ..

قال السيد بنفس اللهجة المريضة :

ــ ولكنه لن يرد حياة الى ميت ..

ــ وا أسفاه ..

قال السيد بتفجع :

ــ لم يشترك فى المظاهرات الخطرة ، هذه أول مظاهرة ينضم اليها !..

تبادل الشبان نظرة ذات معنى فلم ينبس احدهم بكلمة .. وكأنما ضاق السيد بالحصار المضروب حوله فقال وهو يزفر :

ــ الأمر لصاحب الأمر ، أين أجده الآن ؟

قال الشاب :

ــ فى قصر العينى «ثم وهو يشير الى السيد متمهلا لما رآه يتعجل الذهاب » ستشيع جنازته مع ثلاثة عشر شهيدا من اخواننا فى تمام الساعة الثالثة من مساء الغد ..

هتف السيد فى جزع :

ــ ألا يترك لى تشييع جنازته من بيته !..

فقال الشاب بقوة :

ــ بل تشييع جنازته مع اخوانه فى احتفال شعبى ..

ثم برجاء :

ــ القصر محاصر الآن بقوات من البوليس ، ولا بأس من الانتظار ما دمنا نحرص على تمكين أهالى الشهداء من توديعهم قبل تشييع الجنازة ، لا يليق أن يشيع فهمى فى جنازة عادية كمن قضوا فى بيوتهم ..

ثم مد له يده مودعا وهو يقول :

ــ اصبر وما صبرك الا بالله ..

. وصافحه الآخران مكررين له العزاء ، ثم ذهبوا جميعا .. أسند رأسه الى راحته وهو يغمض عينيه فجاءه صوت جميل الحمزاوى وهو يعزيه بنبرات باكية ولكنه بدا ضيق الصدر بالتعزية ، ولم يعد يحتمل البقاء فزايل موضعه يسير بخطى بطيئة ثقيلة حتى غادر المكان ، ينبغى أن يخرج من حيرته ، فانه لايدرى حتى كيف يحزن ، يود لو يخلو الى نفسه ولكن أين ؟ سينقلب البيت جحيما بعد دقيقة أو دقيقتين ، وسيلحق به الأصدقاء فلا يدعون له فرصة للتفكير .. متى يتأمل الخسارة التى منى بها .. متى يتهيأ له أن يغيب فيها عن الدنيا جميعا ؟ يبدو هذا بعيدا .. ولكنه آت لا ريب فيه ، وهذا قصارى ما يجد من عزاء فى راهنه .. أجل سيأتى وقت يخلو فيه الى نفسه ويفرغ الى حزنه بكل كيانه ، هنالك ينعم النظر فى موقفه على ضوء الماضى والحاضر والمستقبل ، أطوار حياته كلها من طفولته وصباه الى ريق شبابه ، ما أثار من آمال وما خلف من ذكريات مُطلقا لدموعه العنان حتى يستنفدها عن آخرها ، حقا أن أمامه فسحة من الوقت يحسد عليها فلا داعى للجزع ، انظر الى ذكرى الملاحاة التى نشبت بينهما عقب صلاة الجمعة أو ذكرى ما دار بينهما هذا الصباح من استعطاف وعتاب ، كم يستغرقان من وقته تأملا وتذكرا وشجنا ؟ كم يستهلكان من قلبه ؟ كم يهيجان دموعه ؟.. كيف يجزع والأيام تدخر له كل هذه السعادة ؟ رفع رأسه المثقل بالفكر فلاحت لعينيه المظلمتين مشربيات البيت فذكر أمينة لأول مرة حتى أوشكت أن تخونه قدماه .. ما عسى أن يقول لها ؟ كيف تتلقى الخبر ؟ ... الضعيفة الرقيقة التى تبكى لمصرع عصفور ! ... أتذكر كيف هملت دموعها لمقتل ابن الفولى اللبان ؟! ماذا تصنع لمقتل فهمى ؟ .. مقتل فهمى ! .. اهذه هى نهايتك حقا يا بنى ؟ .. يا بنى العزيز التعيس ! .. أمينة .. ابننا قتل ، فهمى قتل .. ياله .. أتأمر يمنع الصوات كما أمرت بمنع

الزغاريد من قبـل ؟.. أم تصـوت بنفسـك ؟ .. أم تدعـو النائحات ؟ ! . . . لعلهـا تتوسط. الآن مجلس القهـوة بين ياسين وكمال متسائلة عما أخر فهمى ، سـوف يتأخر طويلا ، لن تريه أبدا .. ولا جثته ، ولا نعشه ، يا للقسوة ، سأراه أنا فى القصر أما أنت فلن تريه ، لن أسمح بهذا .. قسوة أم رحمة ؟ ماالفائدة؟.. وجد نفسه أمام الباب فامتدت يده الى المطرقة ثم تذكر أن المفتاح فى جيبه فأخرجه وفتح الباب ثم دخـل .. ترامى عند ذاك الى سمعه صوت كمال وهو يغنى بعذوبة :

زورونى كل سـنة مرة حـرام الهجـر بالمرة

تمت

((نجيب محفوظ))

للمؤلف

((قصر الشوق))

((السـكرية))

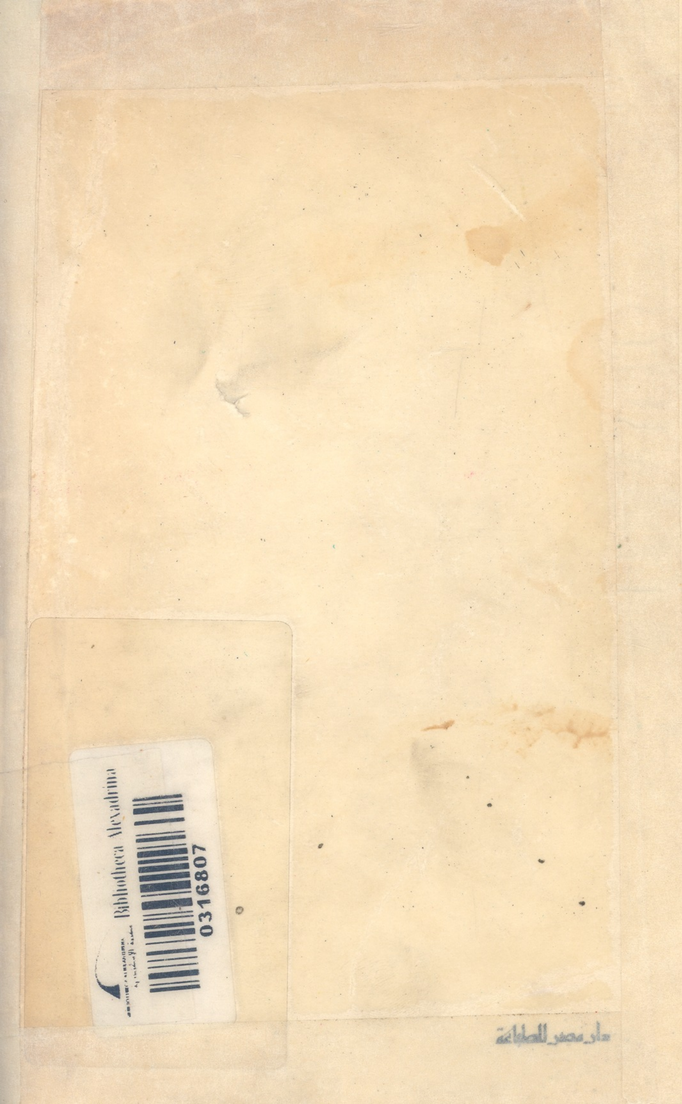
وتصورات فترتين أخريين من حياة هذه الأسرة ...

مؤلفات نجيب محفوظ

		الطبعة الثالثة	الطبعة الرابعة
مصر القديمة	(مترجم عن الإنجليزية) ١٩٣٢		
همس الجنون	(مجموعة أقاصيص)	١٩٦٠	
عبث الأقدار	(قصة تاريخية)	١٩٦٠	
رادوبيس	(» »)	١٩٥٨	
كفاح طيبة	(» »)	١٩٥٧	١٩٦٠
القاهرة الجديدة		١٩٥٨	
خان الخليلي		١٩٥٨	١٩٦٠
زقاق المدق		١٩٥٧	١٩٦١
السراب		١٩٦٠	
بداية ونهاية		١٩٥٨	١٩٦١
بين القصرين	رواية من ثلاثة أجزاء	١٩٦٠	
قصر الشوق		١٩٦٠	
السكرية		١٩٦١	

تحت الطبع :

دنيا الله	مجموعة أقاصيص
أولاد حارتنا	رواية


Bibliotheca Alexandrina
0316807
دار مصر للطباعة